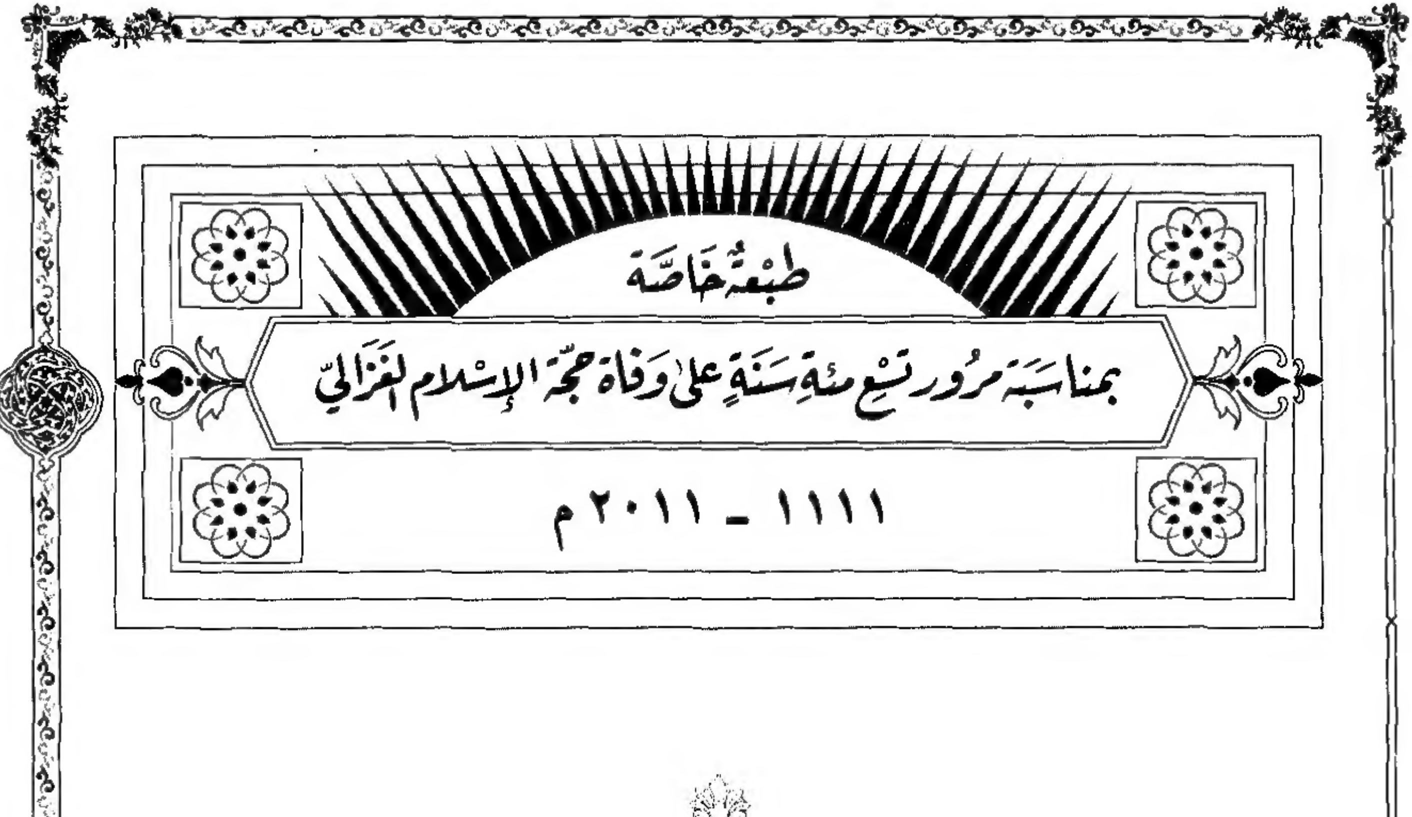
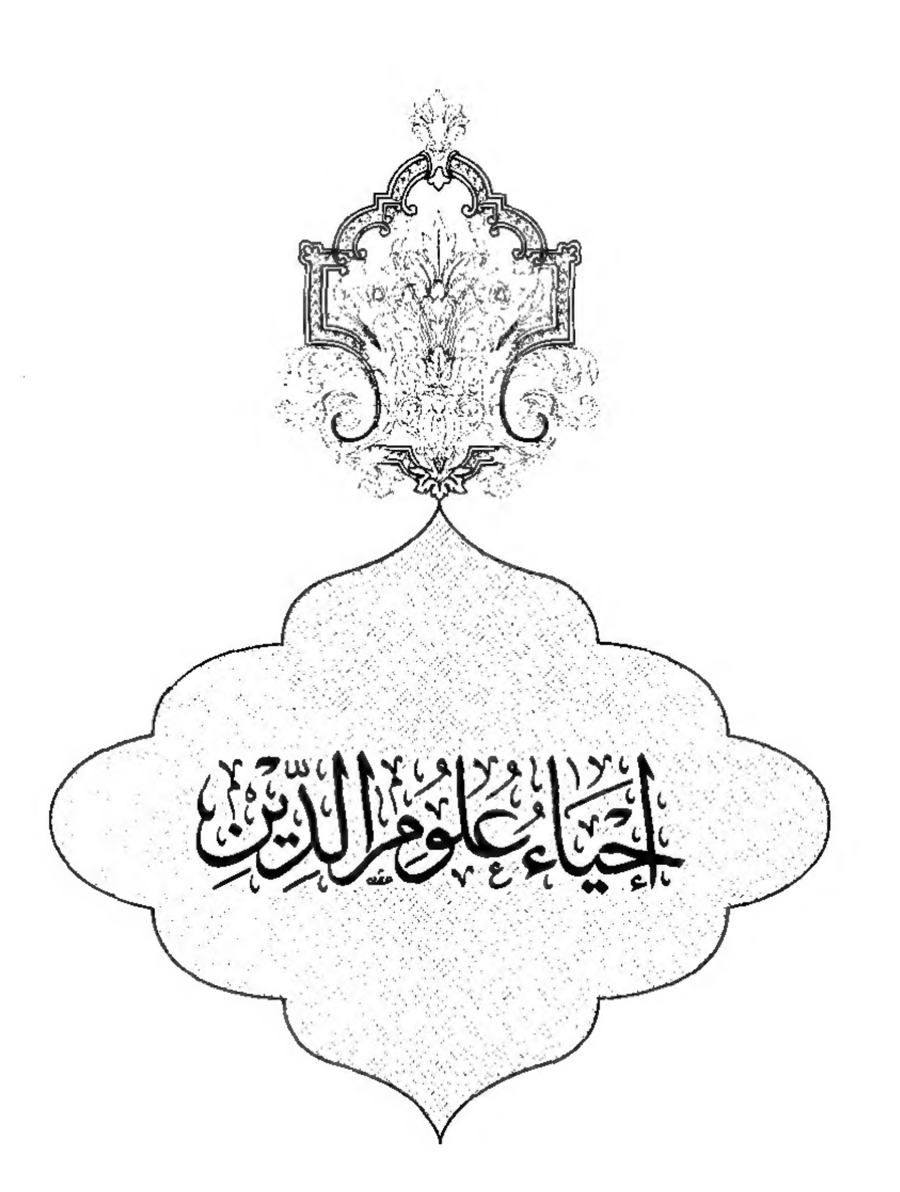
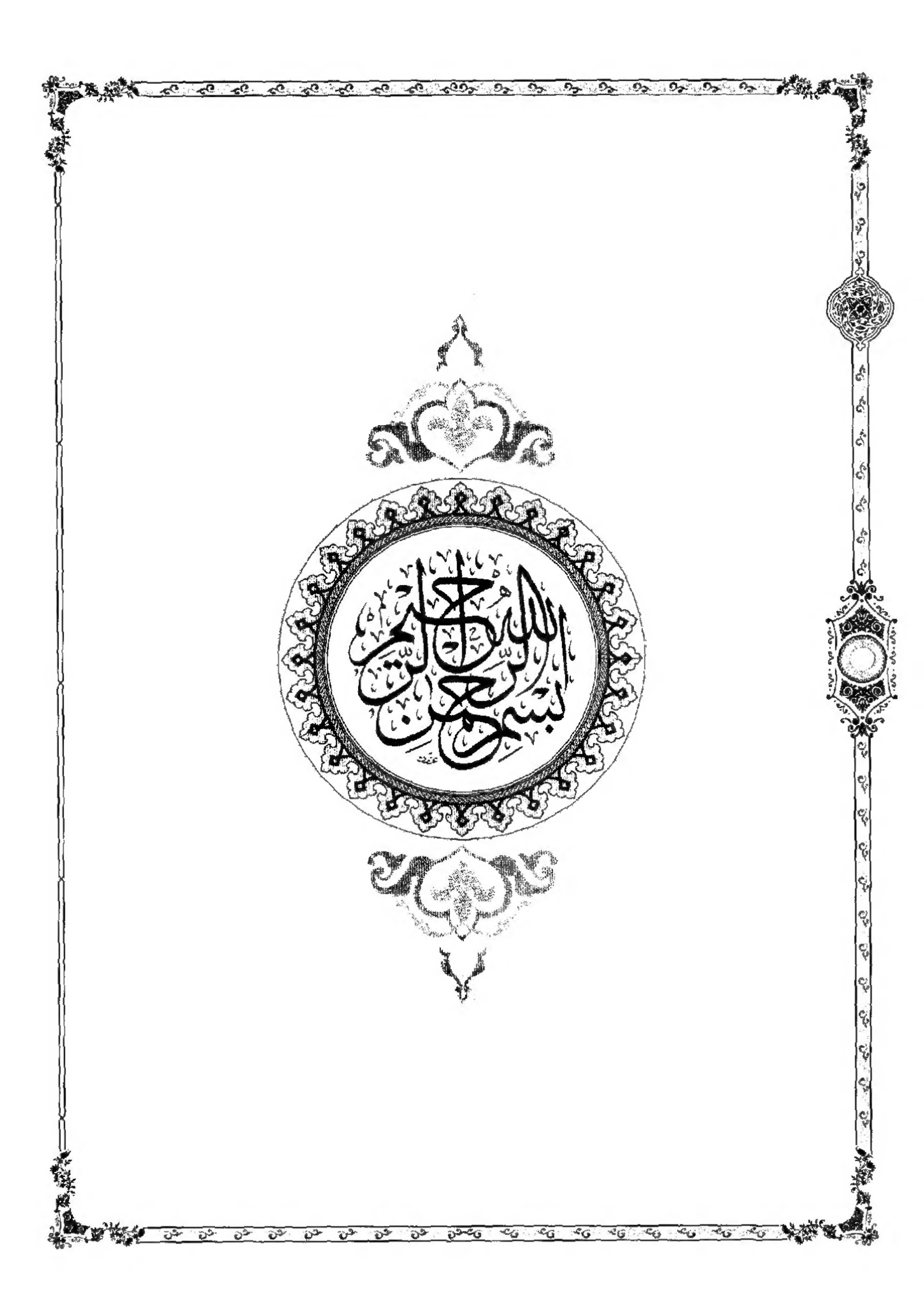

طبعة خاصة
بمناسبة مرور تسع مئة سنة على وفاة حجة الإسلام الغزالي
١١١١ - ٢٠١١م


إحياء علوم الدين


بسم الله الرحمن الرحيم

إحياء علوم الدين

تأليف

الإمام المجدد، حجة الإسلام والمسلمين

زين الدين، أبي حامد

محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي

الطوسي الطابراني الشافعي

رضي الله عنه

(٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ) ـ (١٠٥٨ ـ ١١١١ م)

ربع المنجيات / القسم الثالث

كتاب

النية والإخلاص والصدق ـ المراقبة والمحاسبة

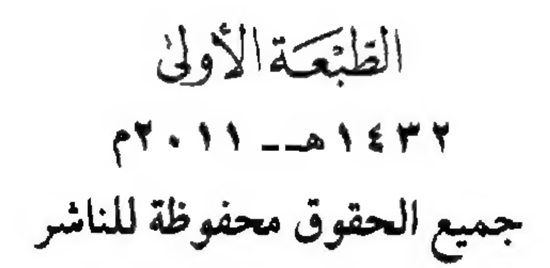
التفكر ـ ذكر الموت وما بعده



دار المنهاج

الطَّبْعَة الأولى

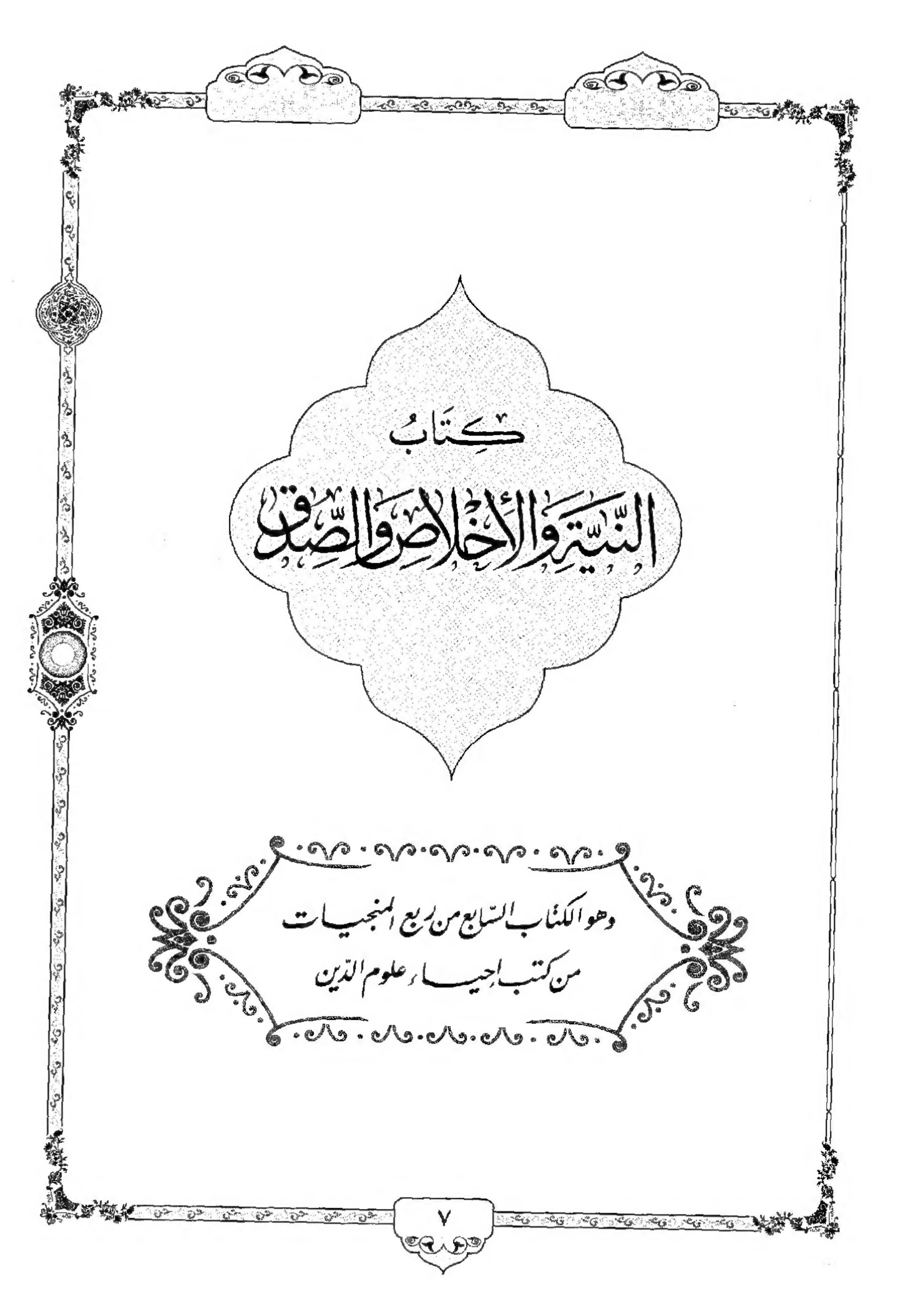
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م



المملكة العربية السعودية ـ جدة
حي الكندرة ـ شارع أبها تقاطع شارع ابن زيدون
هاتف رئيسي 6326666 ـ الإدارة 6300655
المكتبة 6322471 ـ فاكس 6320392
ص. ب 22943 ـ جدة 21416
www.alminhaj.com
E-mail: info@alminhaj.com
ISBN: 978 - 9953 - 541 - 50 - 1


بسم الله الرحمن الرحيم
أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجوا رحمة ربه
قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون
إنما يتذكر أولوا الألباب





كتاب النية والإخلاص والصدق

وهو الكتاب السابع من ربع المنجيات
من كتب إحياء علوم الدين



كتاب النيّة والإخلاص والصّدق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

نحمدُ اللهَ حمدَ الشاكرينَ ، ونؤمنُ بهِ إيمانَ الموقنينَ ، ونقرُّ بوحدانيتِهِ إقرارَ الصادقينَ ، ونشهدُ أنْ لا إلـهَ إلا اللهُ ربُّ العالمينَ ، وخالقُ السماواتِ والأرضينَ ، ومكلِّفُ الجنِّ والإنسِ والملائكةِ المقربينَ أنْ يعبدوهُ عبادةَ المخلصينَ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ ، فما للهِ إلا الدينُ الخالصُ المتينُ ، فإنَّهُ أغنى الأغنياءِ عنْ شركةِ المشاركينَ ، والصلاةُ علىٰ نبيِّهِ محمدٍ سيِّدِ المرسلينَ ، وعلىٰ جميعِ النبيِّينَ ، وعلىٰ آلِهِ وأصحابِهِ الطيبينَ الطاهرينَ .

أما بعد :

فقدِ انكشفَ لأربابِ القلوبِ ببصيرةِ الإيمانِ وأنوارِ القرآنِ أنْ لا وصولَ إلى السعادةِ إلا بالعلمِ والعبادةِ ، فالناسُ كلُّهُمْ هلكىٰ إلا العالمينَ ، والعالمونَ كلُّهُمْ هلكىٰ إلا العاملينَ ، والعاملونَ كلُّهُمْ هلكىٰ إلا المخلصينَ ، والمخلصونَ علىٰ خطرٍ عظيمٍ[1] ، فالعملُ بغيرِ نيَّةٍ عناءٌ ،

---

(١) تقدم عن سهل بن عبد الله ، وفي بعض النسخ ما بعد (إلا) مرفوع .

والنيّةُ بغيرِ إخلاصٍ رياءٌ ، وهوَ للنفاقِ كِفاءٌ[1] ، ومعَ العصيانِ سواءٌ ، والإخلاصُ مِنْ غيرِ صدقٍ وتحقيقٍ هباءٌ ، وقدْ قالَ تعالىٰ في كلِّ عملٍ كانَ بإرادةِ غيرِ اللهِ مشوباً مغموراً : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ .

وليتَ شعري كيفَ يصحِّحُ نيّتَهُ مَنْ لا يعرفُ حقيقةَ النيّةِ ؟! أوْ كيفَ يخلصُ مَنْ صحَّحَ النيةَ إذا لمْ يعرفْ حقيقةَ الإخلاصِ ؟! أوْ كيفَ تطالبُ المخلصَ نفسُهُ بالصدقِ إذا لمْ يتحقَّقْ معناهُ ؟!

فالوظيفةُ الأولىٰ علىٰ كلِّ عبدٍ أرادَ طاعةَ اللهِ تعالىٰ أنْ يتعلَّمَ النيةَ أوَّلاً لتحصلَ المعرفةُ ، ثمَّ يصحِّحَها بالعملِ بعدَ فهمِ حقيقةِ الصدقِ والإخلاصِ ، اللذينِ هما وسيلتا العبدِ إلى النجاةِ والخلاصِ ، ونحنُ نذكرُ معانيَ الصدقِ والإخلاصِ في ثلاثةِ أبوابٍ :

البابُ الأوّلُ : في حقيقةِ النيّةِ ومعناها .

البابُ الثاني : في الإخلاصِ وحقائقِهِ .

البابُ الثالثُ : في الصدْقِ وحقيقتِهِ .

* * *

(١) كفاء : نظير ومثيل .

البَابُ الأَوَّلُ
في النّيّة

وفيهِ بيانُ فضيلةِ النيةِ ، وبيانُ حقيقةِ النيةِ ، وبيانُ كونِ النيةِ خيراً مِنَ العملِ ، وبيانُ تفضيلِ الأعمالِ المتعلِّقةِ بالنيةِ ، وبيانُ خروجِ النيةِ عنِ الاختيارِ .

بيان فضيلة النّيّة

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ ، والمرادُ بتلكَ الإرادةِ النيةُ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: « إنَّما الأعمالُ بالنياتِ ، ولكلِّ امرىءٍ ما نوىٰ، فمَنْ كانَتْ هجرتُهُ إلى اللهِ ورسولِهِ . . فهجرتُهُ إلى اللهِ ورسولِهِ ، ومَنْ كانَتْ هجرتُهُ إلىٰ دنيا يصيبُها أوِ امرأةٍ يتزوَّجُها . . فهجرتُهُ إلىٰ ما هاجرَ إليهِ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أكثرُ شهداءِ أمَّتي أصحابُ الفُرُشِ ، وربَّ قتيلٍ بينَ الصفينِ اللهُ أعلمُ بنيَّتِهِ »[2] .

---

(١) رواه البخاري (١) ، ومسلم (١٩٠٧) .
(٢) رواه أحمد في « المسند » (١/ ٣٩٧) .

وقال تعالىٰ : ﴿ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآ ﴾ ، فجعلَ النيَّةَ سببَ التوفيقِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ لا ينظرُ إلىٰ صورِكُمْ وأموالِكُمْ ، وإنَّما ينظرُ إلىٰ قلوبِكُمْ وأعمالِكُمْ »[1] ، وإنَّما نظرَ إلى القلوبِ لأنَّها مَظِنَّةُ النيةِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ العبدَ ليعملُ أعمالاً حسنةً ، فتصعدُ بها الملائكةُ في صحفٍ مختمةٍ ، فتُلقىٰ بينَ يدي اللهِ تعالىٰ ، فيقولُ : ألقوا هٰذهِ الصحيفةَ ، فإنَّهُ لمْ يردْ بها وجهي ، ثمَّ ينادي الملائكةَ : اكتبوا لهُ كذا ، واكتبوا لهُ كذا ، فيقولونَ : يا ربَّنا ؛ إنَّهُ لمْ يعملْ شيئاً مِنْ ذلكَ ، فيقولُ اللهُ تعالىٰ : إنَّهُ نواهُ ، إنَّهُ نواهُ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الناسُ أربعةٌ : رجلٌ آتاهُ اللهُ عزَّ وجلَّ علماً ومالاً ، فهوَ يعملُ بعلمِهِ في مالِهِ ، فيقولُ رجلٌ : لو آتاني اللهُ تعالىٰ مثلَ ما آتاهُ . . لعملتُ كما يعملُ ، فهما في الأجرِ سواءٌ ، ورجلٌ آتاهُ اللهُ تعالىٰ مالاً ولمْ يؤتِهِ علماً ، فهوَ يتخبَّطُ بجهلِهِ في مالِهِ ، فيقولُ رجلٌ : لو آتاني اللهُ مثلَ ما آتاهُ . . عملتُ كما يعملُ ، فهما في الوزرِ سواءٌ »[3] ،

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤) .
(٢) رواه الدارقطني في « سننه » (١/ ٥١) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً ، ورواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٥٩٦) عن أبي عمران الجوني بلاغاً .
(٣) رواه الترمذي (٢٣٢٥) ، وابن ماجه (٤٢٢٨) .

ألا ترىٰ كيفَ شركَهُ بالنيّةِ في محاسنِ عملِهِ ومساوئِهِ ؟!

وكذلكَ في حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ : لمَّا خرجَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في غزوةِ تبوكَ . . قالَ : « إنَّ بالمدينةِ أقواماً ما قطعنا وادياً ، ولا وطِئنا موطِئاً يغيظُ الكفَّارَ ، ولا أنفقنا نفقةً ، ولا أصابَتْنا مخمصةٌ . . إلا شركونا في ذلكَ وهُمْ بالمدينةِ » ، قالوا : وكيفَ ذلكَ يا رسولَ اللهِ وليسوا معنا ؟ قالَ : « حبسَهُمُ العذرُ »[1] ، فشُركوا بحسنِ النيةِ .

وفي حديثِ ابنِ مسعودٍ : (مَنْ هاجرَ يبتغي شيئاً . . فهوَ لهُ ، فهاجرَ رجلٌ فتزوَّجَ امرأةً منَّا ، فكانَ يُسمَّىٰ مهاجرَ أمِّ قيسٍ)[2] .

وكذلكَ جاءَ في الخبرِ : أنَّ رجلاً قُتلَ في سبيلِ اللهِ وكان يُدعىٰ قتيلَ الحمارِ ؛ لأنَّهُ قاتلَ رجلاً ليأخذَ سلبَهُ وحمارَهُ ، فقُتلَ علىٰ ذلكَ ، فأُضيفَ إلىٰ نيتِهِ[3] .

وفي حديثِ عبادةَ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ غزا وهوَ لا ينوي إلا عقالاً . . فلهُ ما نوىٰ »[4] .

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ١٦٠) ، ورواه البخاري (٤٤٢٣) ، وأبو داوود (٢٥٠٨) ، وابن ماجه (٢٧٦٤) .

(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (٩/ ١٠٣) .

(٣) كذا في « القوت » (٢/ ١٦١) ، وقال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً في الموصولات ، وإنما رواه أبو إسحاق الفزاري في « السير » من وجه مرسل) . « إتحاف » (١٠/ ٨) .

(٤) رواه النسائي (٦/ ٢٤) .

وقالَ : إنِّي استعنتُ رجلاً يغزو معي ، فقالَ : لا ، حتىٰ تجعلَ لي جُعلاً ، فجعلتُ لهُ ، فذكرتُ ذلكَ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : « ليسَ لهُ مِنْ دنياهُ وآخرتِهِ إلا ما جعلتَ لهُ »[1] .

ورُويَ في الإسرائيلياتِ : أنَّ رجلاً مرَّ بكثبانٍ مِنْ رملٍ في مجاعةٍ ، فقالَ في نفسِهِ : لوْ كانَ لي هـٰذا الرملُ طعاماً . . لقسمتُهُ بينَ الناسِ ، فأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ نبيِّهِمْ أنْ قلْ لهُ : إنَّ اللهَ تعالىٰ قدْ قبلَ صدقتَكَ ، وقدْ شكرَ حسنَ نيَّتِكَ ، وأعطاكَ ثوابَ ما لوْ كانَ طعاماً فتصدقتَ بهِ[2] .

وقدْ وردَ في أخبارٍ كثيرةٍ : « مَنْ همَّ بحسنةٍ ولمْ يعملْها . . كُتبَتْ لهُ حسنةً »[3] .

وفي حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : « مَنْ كانَتِ الدنيا نيَّتَهُ . . جعلَ اللهُ فقرَهُ بينَ عينيهِ ، وفارقَها أرغبَ ما يكونُ فيها ، ومَنْ تكنِ الآخرةُ

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ١٦١) ، وقال الحافظ العراقي : (رواه الطبراني في « مسند الشاميين » ، ولأبي داوود [٢٥٢٧] بإسناد جيد من حديث يعلى بن أمية أنه استأجر أجيراً للغزو وسمَّىٰ ثلاثة دنانير ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « ما أجد له في غزوته هـٰذه في الدنيا والآخرة إلا دنانيره التي سمَّىٰ ») . « إتحاف » (٨/١٠) ، وفيه : (وقال أُبيٌّ) بدل (وقال : إني) ، ومشىٰ علىٰ أن أُبيّاً هنا هو ابن كعب .

(٢) قوت القلوب (٢/ ١٦١) ، وقال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (٨/١٠) : (وهو في « كتاب الإخلاص » لابن أبي الدنيا) وذكره بنحوه .

(٣) رواه البخاري (٦٤٩١) ، ومسلم (١٣١) .

نيَّتَهُ . . جعلَ اللهُ تعالىٰ غناهُ في قلبِهِ ، وجمعَ عليهِ ضيعتَهُ ، وفارقَها أزهدَ ما يكونُ فيها »[١] .

وفي حديثِ أمِّ سلمةَ : أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ذكرَ جيشاً يُخسفُ بهِمْ بالبيداءِ ، فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ يكونُ فيهِمُ المكرهُ والأجيرُ ! فقالَ : « يُحشرونَ علىٰ نيَّاتِهِمْ »[٢] .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « إنَّما يقتتلُ المقتتلونَ على النيَّاتِ »[٣] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إذا التقى الصفَّانِ . . نزلَتِ الملائكةُ تكتبُ الخلقَ علىٰ مراتبِهِمْ : فلانٌ يقاتلُ للدنيا ، فلانٌ يقاتلُ حميةً ، فلانٌ يقاتلُ عصبيةً ، ألا فلا تقولوا : فلانٌ قُتلَ في سبيلِ اللهِ ، فمَنْ قاتلَ لتكونَ

---

(١) كذا في « القوت » (٢/١٦١) ، ورواه بنحوه من حديثه الحاكم في « المستدرك » (٢/٤٤٣) ولفظه : « من جعل الهموم هماً واحداً . . كفاه الله همَّ دنياه ، ومن تشعبت به الهموم . . لم يبال الله في أي أودية الدنيا هلك » ، وهو عند ابن ماجه (٤١٠٥) من حديث زيد بن ثابت ، ولفظه : « من كانت الدنيا همَّهُ . . فرّق الله عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له ، ومن كانت الآخرة نيتَهُ . . جمع الله له أمره ، وجعل غناه في قلبه ، وأتته الدنيا وهي راغمة » .

(٢) رواه أبو داوود (٤٢٨٦) .

(٣) كذا في « القوت » (٢/١٦١) ، وقد رواه ابن عدي في « الكامل » (٥/١٣٠) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٧/٣٨٥) ، وفيهما : (يبعث) بدل (يقتتل) ، وعند ابن ماجه (٤٢٢٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « إنما يبعث الناس علىٰ نياتهم » .

كلمةُ اللهِ هيَ العليا . . فهوَ في سبيلِ اللهِ »[1] .

وعنْ جابرٍ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « يُبعثُ كلُّ عبدٍ علىٰ ما ماتَ عليهِ »[2] .

وفي حديثِ الأحنفِ عنْ أبي بكرةَ : « إذا التقى المسلمانِ بسيفيهما . . فالقاتلُ والمقتولُ في النارِ » ، قيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ هـٰذا القاتلُ ، فما بالُ المقتولِ ؟ قالَ : « لأنَّهُ أرادَ قتلَ صاحبِهِ »[3] .

وفي حديثِ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : « مَنْ تزوَّجَ امرأةً علىٰ صداقٍ وهوَ لا ينوي أداءَهُ . . فهوَ زانٍ ، ومَنِ ادَّانَ ديناً وهوَ لا ينوي قضاءَهُ . . فهوَ سارقٌ »[4] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ تطيَّبَ للهِ تعالىٰ . . جاءَ يومَ القيامةِ وريحُهُ أطيبُ مِنَ المسكِ ، ومَنْ تطيَّبَ لغيرِ اللهِ . . جاءَ يومَ القيامةِ وريحُهُ أنتنُ مِنَ الجيفةِ »[5] .

❊ ❊ ❊

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ١٦١) ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (١٤٢) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه موقوفاً عليه ، وآخر الحديث عند البخاري (١٢٣) ، ومسلم (١٩٠٤) .

(٢) رواه مسلم (٢٨٧٨) .

(٣) رواه البخاري (٣١) ، ومسلم (٢٨٨٨) .

(٤) رواه البزار في « مسنده » (٨٧٢١) بتمامه ، وآخره رواه ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (٢٧٢) .

(٥) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٤/ ٣١٩) عن إسحاق بن أبي طلحة مرسلاً .

وأمَّا الآثارُ :

فقدْ قالَ عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ : (أفضلُ الأعمالِ أداءُ ما افترضَ اللهُ تعالىٰ ، والورعُ عمَّا حرَّمَ اللهُ تعالىٰ ، وصدْقُ النيةِ فيما عندَ اللهِ تعالىٰ)[١] .

وكتبَ سالمُ بنُ عبدِ اللهِ إلىٰ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ : (اعلمْ : أنَّ عونَ اللهِ تعالىٰ للعبدِ علىٰ قدْرِ النيةِ ، فمَنْ تمَّتْ نيتُهُ.. تمَّ عونُ اللهِ لهُ ، وإنْ نقصَتْ.. نقصَ بقدْرِهِ)[٢] .

وقالَ بعضُ السلفِ : (ربَّ عملٍ صغيرٍ تعظِّمُهُ النيةُ ، وربَّ عملٍ كبيرٍ تصغِّرُهُ النيةُ)[٣] .

وقالَ داوودُ الطائيُّ : (مَنْ كانَ أكبرُ همتِهِ التقوىٰ ، فلو تعلقَتْ جميعُ جوارحِهِ بالدنيا.. لردتهُ نيتُهُ يوماً إلىٰ نيةٍ صالحةٍ ، وكذلكَ الجاهلُ بعكسِ ذلكَ)[٤] .

وقالَ الثوريُّ : (كانوا يتعلَّمونَ النيةَ للعملِ كما تتعلَّمون العملَ)[٥] .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٥٨) .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ١٥٩) ، ورواه ضمن خبر طويل أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٢٨٥) .

(٣) قوت القلوب (٢/ ١٥٩) ، ونسبه أيضاً لابن المبارك (٢/ ١٦٣) .

(٤) قوت القلوب (٢/ ١٥٩) ، وفي (أ ، ج ، ن ، ف) : (البرُّ همتُهُ التقوى...) بدل (من كان أكبر همته التقوىٰ) .

(٥) قوت القلوب (٢/ ١٥٩) ، وفيه : (كما يتعلمون العلم) .

وقالَ بعضُ العلماءِ : (اطلبِ النيةَ للعملِ قبلَ العملِ ، وما دمتَ تنوي الخيرَ فأنتَ بخيرٍ)[1] .

وكانَ بعضُ المريدينَ يطوفُ على العلماءِ يقولُ : مَنْ يدلُّني علىٰ عملٍ لا أزالُ فيهِ عاملاً للهِ تعالى ؟ فإنِّي لا أحبُّ أنْ يأتيَ عليَّ ساعةٌ مِنْ ليلٍ أوْ نهارٍ إلا وأنا عاملٌ مِنْ عمَّالِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فقيلَ لهُ : قدْ وجدتَ حاجتَكَ ، فاعملِ الخيرَ ما استطعتَ ، فإذا فترتَ أوْ تركتَهُ . . فهُمَّ بعملِهِ ؛ فإنَّ الهامَّ بعملِ الخيرِ كعاملِهِ[2] .

وكذلكَ قالَ بعضُ السلفِ : (إنَّ نعمةَ اللهِ عليكُمْ أكثرُ مِنْ أنْ تحصوها ، وإنَّ ذنوبَكُمْ أخفىٰ مِنْ أنْ تعلموها ، ولكنْ أصبحوا توَّابينَ ، وأمسوا توَّابينَ . . يُغفرْ لكُمْ ما بينَ ذلكَ)[3] .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (طوبىٰ لعينٍ نامَتْ ولا تهمُّ بمعصيةٍ ، وانتبهَتْ إلىٰ غيرِ إثمٍ)[4] .

وقالَ أبو هريرةَ : (يُبعثونَ يومَ القيامةِ علىٰ قدْرِ نيَّاتِهِمْ)[5] .

وكانَ الفضيلُ بنُ عياضٍ إذا قرأَ : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٥٩) .
(٢) قوت القلوب (٢/ ١٥٩) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ١٥٩) .
(٤) كذا في « القوت » (٢/ ١٥٩) ، ورواه البيهقي في « الشعب » (٦٩٠٢) .
(٥) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٣٩٢) مرفوعاً .

﴿وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾ يبكي ، ويردِّدُها ويقولُ : (إنَّكَ إنْ بلوتَنا . . فضحتَنا وهتكتَ أستارَنا)[1] .

وقالَ الحسنُ : (إنَّما خُلِّدَ أهلُ الجنةِ في الجنةِ وأهلُ النارِ في النارِ بالنيَّاتِ)[2] .

وقالَ أبو هريرةَ : (مكتوبٌ في التوراةِ : ما أُريدَ بهِ وجهي فقليلُهُ كثيرٌ ، وما أُريدَ بهِ غيري فكثيرُهُ قليلٌ) .

وقالَ بلالُ بنُ سعدٍ : (إنَّ العبدَ ليقولُ قولَ مؤمنٍ ، فلا يدعُهُ اللهُ عزَّ وجلَّ وقولَهُ حتَّىٰ ينظرَ في عملِهِ ، فإذا عملَ . . لمْ يدعْهُ اللهُ حتَّىٰ ينظرَ في ورعِهِ ، فإنْ تورَّعَ . . لمْ يدعْهُ حتَّىٰ ينظرَ ماذا نوىٰ ، فإنْ صلحَتِ النيةُ . . فبالحريِّ أنْ يصلحَ ما دونَ ذلكَ)[3] .

فإذاً ؛ عمادُ الأعمالِ النياتُ ، فالعملُ مفتقرٌ إلى النيةِ ليصيرَ بها خيراً ، والنيةُ في نفسِها خيرٌ وإنْ تعذَّرَ العملُ بعائقٍ[4] .

* * *

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١١١) .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ١٦٠) من غير نسبة، وهـٰذا لأن أهل الجنة نووا طاعته ما عاشوا، وأهل الخلود في النار نووا معصيته ما عاشوا ، فعلىٰ نيتهم حوسبوا لا علىٰ أعمالهم .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٢٣٠) .

(٤) وليس للشرع عناية في طاعة من الطاعات بعد الإيمان بالله أعظم من اعتنائه بالنية ؛ إذ صحة العبادات أجمعها موقوفة علىٰ وجودهما ؛ يعني : الإيمان والنية ، فهي تلي الإيمان في الرتبة . « إتحاف » (١٠/ ١٢) .

بيان حقيقة النّيّة

اعلمْ : أنَّ النيةَ والإرادةَ والقصدَ عباراتٌ متواردةٌ علىٰ معنىً واحدٍ ، وهوَ حالةٌ وصفةٌ للقلبِ يكتنفُها أمرانِ : علمٌ وعملٌ ، العلمُ يقدُمُهُ لأنَّهُ أصلُهُ وشرطُهُ ، والعملُ يتبعُهُ لأنَّهُ ثمرتُهُ وفرعُهُ ، وذلكَ لأنَّ كلَّ عملٍ ـ أعني : كلَّ حركةٍ وسكونٍ ـ اختياريٍّ فإنَّهُ لا يتمُّ إلا بثلاثةِ أمورٍ : علمٍ وإرادةٍ وقدرةٍ ؛ لأنَّهُ لا يريدُ الإنسانُ ما لا يعلمُهُ ، فلا بدَّ وأنْ يعلمَ ، ولا يعملُ ما لمْ يردْ ، فلا بدَّ مِنْ إرادةٍ ، ومعنى الإرادةِ : انبعاثُ القلبِ إلىٰ ما يراهُ موافقاً للغرضِ ؛ إمَّا في الحالِ أوْ في المآلِ ، فقدْ خُلقَ الإنسانُ بحيثُ يوافقُهُ بعضُ الأمورِ ويلائمُ غرضَهُ ، ويخالفُهُ بعضُ الأمورِ ، فاحتاجَ إلىٰ جلبِ الملائمِ الموافقِ إلىٰ نفسِهِ ، ودفعِ الضارِّ المنافي عنْ نفسِهِ ، فافتقرَ بالضرورةِ إلىٰ معرفةٍ وإدراكٍ للشيءِ المضرِّ والنافعِ ، حتَّىٰ يجلبَ هـٰذا ويهربَ مِنْ هـٰذا ، فإنَّ مَنْ لا يبصرُ الغذاءَ ولا يعرفُهُ . . لا يمكنُهُ أنْ يتناولَهُ ، ومَنْ لا يبصرُ النارَ . . لايمكنُهُ الهربُ منها ، فخلقَ اللهُ تعالى الهدايةَ والمعرفةَ ، وجعلَ لها أسباباً ؛ وهيَ الحواسُّ الظاهرةُ والباطنةُ ، وليسَ ذلكَ مِنْ غرضِنا .

ثمَّ لوْ أبصرَ الغذاءَ وعلمَ أنَّهُ موافقٌ لهُ . . فلا يكفيهِ ذلكَ للتناولِ ما لمْ يكنْ فيهِ ميلٌ إليهِ ورغبةٌ فيهِ ، وشهوةٌ لهُ باعثةٌ عليهِ ؛ إذِ المريضُ يرى الغذاءَ ويعلمُ أنَّهُ موافقٌ ولا يمكنُهُ التناولُ لعدمِ الرغبةِ والميلِ ، ولفقدِ الداعيةِ

المحرِّكةِ إليهِ ، فخلقَ اللهُ تعالىٰ لهُ الميلَ والرغبةَ والإرادةَ ، وأعني بهِ نزوعاً في نفسِهِ إليهِ ، وتوجُّهاً في قلبِهِ إليهِ .

ثمَّ ذلكَ لا يكفيهِ ، فكَمْ مِنْ مشاهدِ طعاماً راغبٍ فيهِ مريدٍ تناولَهُ عاجزٌ عنهُ لكونِهِ زَمِناً ، فخُلقَتْ لهُ القدرةُ والأعضاءُ المتحرِّكةُ حتَّىٰ يتمَّ بهِ التناولُ ، والعضوُ لا يتحرَّكُ إلا بالقدرةِ ، والقدرةُ تنتظرُ يةَ الباعثةَ ، والداعيةُ تنتظرُ العلمَ والمعرفةَ ، أوِ الظنَّ والاعتقادَ ، وهوَ أنْ يقوىٰ في نفسِهِ كونُ الشيءِ موافقاً لهُ ، فإذا جزمَتِ المعرفةُ بأنَّ الشيءَ موافقٌ ، ولا بدَّ أنْ يفعلَ ، وسلمَتْ عنْ معارضةِ باعثٍ آخرَ صارفٍ عنهُ . . انبعثَتِ الإرادةُ ، وتحقَّقَ الميلُ ، فإذا انبعثَتِ الإرادةُ . . انتهضَتِ القدرةُ لتحريكِ الأعضاءِ ، فالقدرةُ خادمةٌ للإرادةِ ، والإرادةُ تابعةٌ لحكمِ الاعتقادِ والمعرفةِ ، **فالنيةُ** : عبارةٌ عنِ الصفةِ المتوسطةِ ، وهيَ الإرادةُ وانبعاثُ النفسِ بحكمِ الرغبةِ والميلِ إلىٰ ما هوَ موافقٌ للغرضِ ؛ إمَّا في الحالِ ، وإمَّا في المآلِ .

فالمحرِّكُ الأوَّلُ هوَ الغرضُ المطلوبُ ، وهوَ الباعثُ ، والغرضُ الباعثُ هوَ المقصدُ المنويُّ ، والانبعاثُ هوَ القصدُ والنيةُ ، وانتهاضُ القدرةِ لخدمةِ الإرادةِ بتحريكِ الأعضاءِ هوَ العملُ ، إلا أنَّ انتهاضَ القدرةِ للعملِ قدْ يكونُ بباعثٍ واحدٍ ، وقدْ يكونُ بباعثينِ اجتمعا في فعلٍ واحدٍ ، وإذا كانَ بباعثينِ . . فقدْ يكونُ كلُّ واحدٍ بحيثُ لوِ انفردَ لكانَ ملياً بإنهاضِ القدرةِ ، وقدْ يكونُ كلُّ واحدٍ قاصراً عنهُ إلا بالاجتماعِ ، وقدْ يكونُ أحدُهُما كافياً لولا الآخرُ ، لكنِ الآخرُ انتهضَ عاضداً لهُ ومعاوناً ، فيخرجُ مِنْ هـٰذا التقسيمِ

أربعةُ أقسامٍ ، فلنذكرْ لكلٍّ واحدٍ مثالاً واسماً .

❋ ❋ ❋

أمَّا الأوَّلُ : فهوَ أنْ ينفردَ الباعثُ الواحدُ ويتجرَّدَ : كما إذا هجمَ على الإنسانِ سبعٌ ، فكلَّما رآهُ . . قامَ مِنْ موضعِهِ ، فلا مزعجَ لهُ إلا غرضُ الهربِ مِنَ السبعِ ، فإنَّهُ رأى السبعَ وعرفَهُ ضاراً ، فانبعثَتْ نفسُهُ إلى الهربِ ورغبَتْ فيهِ ، فانتهضَتِ القدرةُ عاملةً بمقتضى الانبعاثِ ، فيُقالُ : نيتُهُ الفرارُ مِنَ السبعِ ، لا نيةَ لهُ في القيامِ غيرُهُ ، وهـٰذهِ النيةُ تسمَّىٰ **خالصةً** ، ويسمَّى العملُ بموجبِها **إخلاصاً** بالإضافةِ إلى الغرضِ الباعثِ ، ومعناهُ : أنَّهُ خلصَ عنْ مشاركةِ غيرِهِ وممازجتِهِ .

❋ ❋ ❋

وأمَّا الثاني : فهوَ أنْ يجتمعَ باعثانِ كلٌّ واحدٍ مستقلٌّ بالإنهاضِ لوِ انفردَ : ومثالُهُ مِنَ المحسوسِ : أنْ يتعاونَ رجلانِ علىٰ حملِ شيءٍ بمقدارٍ مِنَ القوَّةِ كانَ كافياً في الحملِ لوِ انفردَ ، ومثالُهُ في غرضِنا : أنْ يسألَهُ قريبُهُ الفقيرُ حاجةً فيقضيَها لفقرِهِ وقرابتِهِ ، وعلمَ أنَّهُ لولا فقرُهُ . . لكانَ يقضيها بمجرَّدِ القرابةِ ، وأنَّهُ لولا قرابتُهُ . . لكانَ يقضيها بمجرَّدِ الفقرِ ، وعلمَ ذلكَ مِنْ نفسِهِ بأنْ يحضرَهُ قريبٌ غنيٌّ فيرغبُ في قضاءِ حاجتِهِ ، وفقيرٌ أجنبيٌّ فيرغبُ أيضاً فيهِ، وكذلكَ مَنْ أمرَهُ الطبيبُ بتركِ الطعامِ ، ودخلَ عليهِ يومُ عرفةَ ، فصامَ ، وهوَ يعلمُ أنَّهُ لوْ لمْ يكنْ يومَ عرفةَ . . لكانَ يتركُ الطعامَ حميةً ، ولولا

الحميةُ . . لكان يتركُهُ لأجلِ أنَّهُ يومُ عرفةَ ، وقدِ اجتمعا جميعاً ، فأقدَم على الفعلِ وكانَ الباعثُ الثاني رفيقَ الأوَّلِ ، فلنسمِّ هـٰذا **مرافقةَ البواعثِ** .

❀ ❀ ❀

والثالثُ : ألا يستقلَّ كلُّ واحدٍ لوِ انفردَ ، ولكنْ قويَ مجموعُهُما علىٰ إنهاضِ القدرةِ ، ومثالُهُ في المحسوسِ : أنْ يتعاونَ ضعيفانِ علىٰ حملِ ما لا ينفردُ أحدُهُما بهِ ، ومثالُهُ في غرضِنا : أَنْ يقصدَهُ قريبُهُ الغنيُّ فيطلبُ درهماً فلا يعطيهِ ، ويقصدُهُ الأجنبيُّ الفقيرُ فيطلبُ درهماً فلا يعطيهِ ، ثمَّ يقصدُهُ الفقيرُ القريبُ فيعطيهِ ، فيكونُ انبعاثُ داعيتِهِ بمجموعِ الباعثينِ ، وهوَ القرابةُ والفقرُ ، وكذلكَ الرجلُ يتصدَّقُ بينَ يديِ الناسِ لغرضِ الثوابِ ولغرضِ الثناءِ ، ويكونُ بحيثُ لوْ كانَ منفرداً . . لكانَ لا يبعثُهُ مجرَّدُ قصدِ الثوابِ على العطاءِ ، ولوْ كانَ الطالبُ فاسقاً لا ثوابَ في التصدُّقِ عليهِ . . لكانَ لا يبعثُهُ مجرَّدُ الرياءِ على العطاءِ ، ولمَّا اجتمعا . . أورثا بمجموعِهِما تحريكَ القلبِ ، ولنسمِّ هـٰذا الجنسَ **مشاركةً** .

❀ ❀ ❀

والرابعُ : أنْ يكونَ أحدُ الباعثينِ مستقلاً لوِ انفردَ بنفسِهِ والثاني لا يستقلُّ ، ولكنْ لمَّا انضافَ إليهِ . . لمْ ينفكَّ عنْ تأثيرٍ بالإعانةِ والتسهيلِ ، ومثالُهُ في المحسوسِ : أنْ يعاونَ الضعيفُ الرجلَ القويَّ على الحملِ ، ولوِ انفردَ القويُّ . . لاستقلَّ ، ولوِ انفردَ الضعيفُ . . لمْ يستقلَّ ، فإنَّ ذلكَ

بالجملةِ يسهِّلُ العملَ ويؤثِّرُ في تخفيفِهِ ، ومثالُهُ في غرضِنا : أنْ يكونَ للإنسانِ وردٌ في الصلاةِ وعادةٌ في الصدقاتِ ، فاتفقَ أنْ حضرَ في وقتِها جماعةٌ مِنَ الناسِ ، فصارَ الفعلُ أخفَّ عليهِ بسببِ مشاهدتِهِمْ ، وعلمَ مِنْ نفسِهِ أنَّهُ لوْ كانَ منفرداً خالياً . . لمْ يفترْ عنْ عملِهِ ، وعلمَ أنَّ عملَهُ لوْ لمْ يكنْ طاعةً . . لمْ يكنْ مجرَّدُ الرياءِ يحملُهُ عليهِ ، فهوَ شوْبٌ تطرَّقَ إلى النيةِ ، ولنسمِّ هٰذا الجنسَ **معاونةً** .

فالباعثُ الثاني إمَّا أنْ يكونَ رفيقاً ، أوْ شريكاً ، أوْ معيناً ، وسنذكرُ حكمَها في بابِ الإخلاصِ ، والغرضُ الآنَ بيانُ أقسامِ النيَّاتِ ، فإنَّ العملَ تابعٌ للباعثِ عليهِ ، فيكتسبُ الحكمَ منهُ ، ولذلكَ قيلَ : « إنَّما الأعمالُ بالنيَّاتِ »[1] ، لأنَّها تابعةٌ لا حكمَ لها في نفسِها ، وإنَّما الحكمُ للمتبوعِ .

* * *

(١) رواه البخاري (١) ، ومسلم (١٩٠٧) .

بيان سر قوله صلى الله عليه وسلم : « نية المؤمن خير من عمله »[1]

اعلمْ : أَنَّهُ قدْ يُظنُّ أنَّ سببَ هٰذا الترجيحِ أنَّ النيةَ سرٌّ لا يطلعُ عليهِ إلا اللهُ تعالىٰ ، والعملَ ظاهرٌ ، ولعملِ السرِّ فضلٌ ، وهٰذا صحيحٌ ، ولكنْ ليسَ هوَ المرادَ ؛ لأنَّهُ لو نوىٰ أنْ يذكرَ اللهَ تعالىٰ بقلبهِ أوْ يتفكَّرَ في مصالحِ المسلمينَ ، فيقتضي عمومُ الحديثِ أنْ تكونَ نيةُ التفكُّرِ خيراً مِنَ التفكُّرِ .

وقدْ يُظنُّ أنَّ سببَ الترجيحِ أنَّ النيةَ تدومُ إلىٰ آخرِ العملِ ، والأعمالَ لا تدومُ ، وهوَ ضعيفٌ ؛ لأنَّ ذلكَ يرجعُ معناهُ إلىٰ أنَّ العملَ الكثيرَ خيرٌ مِنَ القليلِ ، بلْ ليسَ كذلكَ ، فإنَّ نيةَ أعمالِ الصلاةِ قدْ لا تدومُ إلا في لحظاتٍ معدودةٍ ، والأعمالُ تدومُ ، والعمومُ يقتضي أنْ تكونَ نيتُهُ خيراً مِنْ عملِهِ .

وقدْ يقالُ : إنَّ معناهُ أنَّ النيةَ بمجرَّدِها خيرٌ مِنَ العملِ بمجرَّدِهِ دونَ النيةِ ، وهوَ كذلكَ ، ولكنَّهُ بعيدٌ أنْ يكونَ هوَ المرادَ ؛ إذِ العملُ بلا نيةٍ أوْ على الغفلةِ لا خيرَ فيهِ أصلاً ، والنيةُ بمجرَّدِها خيرٌ ، وظاهرُ الترجيحِ للمشتركينِ في أصلِ الخيرِ[2] .

بلِ المعنيُّ بهِ : أنَّ كلَّ طاعةٍ تنتظمُ بنيةٍ وعملٍ . . كانَتِ النيةُ مِنْ جملةِ

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٦/ ١٨٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٢٥٥) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (١٤٧) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٤٤٥) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٩/ ٢٣٦) .

(٢) وهنا لا اشتراك . « إتحاف » (١٠/ ١٦) .

الخيراتِ ، وكانَ العملُ مِنْ جملةِ الخيراتِ ، ولكنَّ النيةَ مِنْ جملةِ الطاعةِ خيرٌ مِنَ العملِ ؛ أيْ : لكلٍّ واحدٍ منهما أثرٌ في المقصودِ ، وأثرُ النيةِ أكثرُ مِنْ أثرِ العملِ ، فمعناهُ : نيةُ المؤمنِ مِنْ جملةِ طاعتِهِ خيرٌ مِنْ عملِهِ الذي هوَ مِنْ جملةِ طاعتِهِ ، والغرضُ أنَّ للعبدِ اختياراً في النيةِ وفي العملِ ، فهما عملانِ ، والنيةُ مِنَ الجملةِ خيرُهُما ، فهٰذا معناهُ .

وأمَّا سببُ كونِها خيراً ومترجحةً على العملِ . . فلا يفهمُهُ إلا مَنْ فهمَ مقصدَ الدينِ وطريقَهُ ومبلغَ أثرِ الطرقِ في الإيصالِ إلى المقصدِ ، وقاسَ بعضَ الآثارِ بالبعضِ ، حتَّىٰ يظهرَ لهُ بعدَ ذلكَ الأرجحُ بالإضافةِ إلى المقصودِ ، فمَنْ قالَ : الخبزُ خيرٌ مِنَ الفاكهةِ . . فإنَّما يعني بهِ أنَّهُ خيرٌ بالإضافةِ إلىٰ مقصودِ القوتِ والاغتذاءِ ، ولا يفهمُ ذلكَ إلا مَنْ فهمَ أنَّ للغذاءِ مقصداً ؛ وهوَ الصحةُ والبقاءُ ، وأنَّ الأغذيةَ مختلفةُ الآثارِ فيها ، وفهمَ أثرَ كلِّ واحدٍ ، وقاسَ بعضَها بالبعضِ ، فالطاعاتُ غذاءُ القلوبِ ، والمقصودُ شفاؤُها وبقاؤُها ، وسلامتُها في الآخرةِ وسعادتُها ، وتنعُّمُها بلقاءِ اللهِ تعالىٰ ، فالمقصدُ لذةُ السعادةِ بلقاءِ اللهِ فقطْ ، ولنْ يتنعَّمَ بلقاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ إلا مَنْ ماتَ محبّاً للهِ تعالىٰ عارفاً باللهِ ، ولنْ يحبَّهُ إلا مَنْ عرفَهُ ، ولنْ يأنسَ بهِ إلا مَنْ طالَ ذكرُهُ لهُ ، فالأنسُ يحصلُ بدوامِ الذكرِ ، والمعرفةُ تحصلُ بدوامِ الفكرِ ، والمحبةُ تتبعُ المعرفةَ بالضرورةِ ، ولنْ يتفرَّغَ القلبُ لدوامِ الذكرِ والفكرِ إلا إذا فرغَ مِنْ شواغلِ الدنيا ، ولنْ يتفرَّغَ مِنْ شواغلِها إلا إذا انقطعَ عنهُ شهواتُها ، حتَّىٰ يصيرَ مائلاً إلى الخيرِ مريداً لهُ ، نافراً عنِ الشرِّ مبغضاً

لهُ ، وإنَّما يميلُ إلى الخيراتِ والطاعاتِ إذا علمَ أنَّ سعادتَهُ في الآخرةِ منوطةٌ بها ، كما يميلُ العاقلُ إلى الفصدِ والحجامةِ لعلمِهِ بأنَّ سلامتَهُ فيهما .

وإذا حصلَ أصلُ الميلِ بالمعرفةِ فإنَّما يقوىٰ بالعملِ بمقتضى الميلِ والمواظبةِ عليهِ ، فإنَّ المواظبةَ علىٰ مقتضىٰ صفاتِ القلبِ وإرادتِها بالعملِ تجري مجرى الغذاءِ والقوتِ لتلكَ الصفةِ ، حتىٰ ترشحُ الصفةُ وتقوىٰ بسببِها ، فالمائلُ إلىٰ طلبِ العلمِ أوْ طلبِ الرئاسةِ لا يكونُ ميلُهُ في الابتداءِ إلا ضعيفاً ، فإنِ اتبعَ مقتضى الميلِ واشتغلَ بالعلمِ وتربيةِ الرئاسةِ والأعمالِ المطلوبةِ لذلكَ . . تأكَّدَ ميلُهُ ورسخَ ، وعسرَ عليهِ النزوعُ ، وإنْ خالفَ مقتضىٰ ميلِهِ . . ضعفَ ميلُهُ وانكسرَ ، وربما زالَ وانمحقَ ، بلِ الذي ينظرُ إلىٰ وجهٍ حسنٍ مثلاً فيميلُ إليهِ طبعُهُ ميلاً ضعيفاً لوِ اتبعَهُ وعملَ بمقتضاهُ ، فداومَ على النظرِ والمجالسةِ والمخالطةِ والمجاورةِ . . تأكَّدَ ميلُهُ حتَّىٰ يخرجَ أمرُهُ عنِ اختيارِهِ ، فلا يقدرُ على النزوعِ عنهُ ، ولوْ فطمَ نفسَهُ ابتداءً وخالفَ مقتضىٰ ميلِهِ . . لكانَ ذلكَ كقطعِ القوتِ والغذاءِ عنْ صفةِ الميلِ ، ويكونُ ذلكَ زبراً ودفعاً في وجهِهِ ، حتَّىٰ يضعفَ وينكسرَ بسببِهِ ، أوْ ينقمعَ وينمحيَ .

وهكذا جميعُ الصفاتِ ، والخيراتُ والطاعاتُ كلُّها هيَ التي تُرادُ بها الآخرةُ ، والشرورُ كلُّها هيَ التي تُرادُ بها الدنيا للدنيا لا للآخرةِ ، وميلُ النفسِ إلى الخيراتِ الأخرويَّةِ وانصرافُها عنِ الدنيويَّةِ هوَ الذي يفرِّغُها للذكرِ والفكرِ ، ولنْ يتأكَّدَ ذلكَ إلا بالمواظبةِ علىٰ أعمالِ الطاعاتِ وتركِ المعاصي بالجوارحِ ؛ لأنَّ بينَ الجوارحِ وبينَ القلبِ علاقةً ، حتَّىٰ إنَّهُ يتأثرُ كلُّ واحدٍ

منهُما بالآخرِ ، فترى العضوَ إذا أصابَتْهُ جراحةٌ تألَّمَ بها القلبُ ، وترى القلبَ إذا تألَّمَ بعلمِهِ بموتِ عزيزٍ مِنْ أعزَّتِهِ أوْ بهجومِ أمرٍ مَخُوفٍ . . تأثرتْ بهِ الأعضاءُ ، وارتعدَتِ الفرائصُ ، وتغيَّرَ اللونُ ، إلا أنَّ القلبَ هوَ الأصلُ المتبوعُ ، فكأنَّهُ الأميرُ والراعي ، والجوارحُ كالخدمِ والرعايا والأتباعِ ، فالجوارحُ خادمةٌ للقلبِ بتأكيدِ صفاتِها فيهِ ، فالقلبُ هوَ المقصودُ ، والأعضاءُ آلاتٌ موصلةٌ إلى المقصودِ .

ولذلكَ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ في الجسدِ مضغةً ، إذا صلحَتْ . . صلحَ لها سائرُ الجسدِ »[1] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « اللهُمَّ ؛ أصلحِ الراعيَ والرعيةَ »[2] ، وأرادَ بالراعي القلبَ .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ ، وهيَ صفةُ القلبِ .

فمِنْ هٰذا الوجهِ يجبُ ـ لا محالةَ ـ أنْ تكونَ أعمالُ القلبِ على الجملةِ أفضلَ مِنْ حركاتِ الجوارحِ ، ثمَّ يجبُ أنْ تكونَ النيةُ مِنْ جملتِها أفضلَ ؛ لأنَّها عبارةٌ عنْ ميلِ القلبِ إلى الخيرِ وإرادتِهِ لهُ ، وغرضُنا مِنَ الأعمالِ بالجوارحِ أنْ يُعوِّدَ القلبُ إرادةَ الخيرِ ، ويُؤكِّدَ فيهِ الميلُ إليهِ ؛ ليتفرَّغَ مِنَ

---

(١) رواه البخاري (٥٢) ، ومسلم (١٥٩٩) .
(٢) قال الحافظ العراقي : (لم أجده) . « إتحاف » (١٠/ ١٧) .

شهواتِ الدنيا ، ويكبَّ على الذكرِ والفكرِ ، فبالضرورةِ يكونُ خيراً بالإضافةِ إلى الغرضِ ؛ لأنَّهُ متمكِّنٌ مِنْ نفسِ المقصودِ ، وهـٰذا كما أنَّ المعدةَ إذا تألَّمَتْ فقدْ تُداوىٰ بأنْ يُوضعَ الطلاءُ على الصدرِ ، وتُداوىٰ بالشربِ والدواءِ الواصلِ إلى المعدةِ . . فالشربُ خيرٌ مِنْ طلاءِ الصدرِ ؛ لأنَّ طلاءَ الصدرِ أيضاً إنَّما أُريدَ بهِ أنْ يسريَ منهُ الأثرُ إلى المعدةِ ، فما يلاقي عينَ المعدةِ فهوَ خيرٌ وأنفعُ .

فهكذا ينبغي أنْ تفهمَ تأثيرَ الطاعاتِ كلِّها ؛ إذِ المطلوبُ منها تغييرُ القلوبِ وتبديلُ صفاتِها فقطْ دونَ الجوارحِ ، فلا تظنَّنَّ أنَّ في وضعِ الجبهةِ على الأرضِ غرضاً مِنْ حيثُ إنَّهُ جمعٌ بينَ الجبهةِ والأرضِ ، بلْ مِنْ حيثُ إنَّهُ بحكمِ العادةِ يؤكِّدُ صفةَ التواضعِ في القلبِ ، فإنَّ مَنْ يجدُ في نفسِهِ تواضعاً فإذا استعانَ بأعضائِهِ وصوَّرَها بصورةِ التواضعِ . . تأكَّدَ تواضعُهُ ، ومَنْ وجدَ في قلبِهِ رقَّةً علىٰ يتيمٍ ، فإذا مسحَ رأسَهُ وقبَّلَهُ . . تأكَّدَتِ الرقَّةُ في قلبِهِ ، ولهـٰذا لمْ يكنِ العملُ بغيرِ نيةٍ مفيداً أصلاً ؛ لأنَّ مَنْ يمسحُ رأسَ يتيمٍ وهوَ غافلٌ بقلبِهِ ، أوْ ظانٌّ أنَّهُ يمسحُ ثوباً . . لمْ يسرِ مِنْ أعضائِهِ أثرٌ إلىٰ قلبِهِ لتأكيدِ الرقَّةِ ، وكذلكَ مَنْ يسجدُ غافلاً وهوَ مشغولُ الهمِّ بأعراضِ الدنيا . . لم يسرِ مِنْ جبهتِهِ ووضعِها على الأرضِ أثرٌ إلىٰ قلبِهِ يتأكدُ بهِ التواضعُ ، فكانَ وجودُ ذاكَ كعدمِهِ ، وما ساوىٰ وجودُهُ عدمَهُ بالإضافةِ إلى الغرضِ المطلوبِ منهُ يُسمَّىٰ باطلاً ، فيُقالُ : العبادةُ بغيرِ نيةٍ باطلٌ ، وهـٰذا معناهُ إذا فُعِلَ عنْ غفلةٍ ، فإذا قُصِدَ بهِ رياءٌ أوْ تعظيمُ شخصٍ آخرَ . . لمْ يكنْ وجودُهُ كعدمِهِ ، بلْ زادَهُ شرّاً ؛ فإنَّهُ لمْ يؤكِّدِ الصفةَ المطلوبَ تأكيدُها حتَّىٰ أكَّدَ الصفةَ

المطلوبَ قمعُها ، وهيَ صفةُ الرياءِ التي هيَ مِنَ الميلِ إلى الدنيا .

فهٰذا وجهُ كونِ النيةِ خيراً مِنَ العملِ ، وبهٰذا أيضاً يُعرفُ معنىٰ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ همَّ بحسنةٍ فلمْ يعملْها . . كُتبَتْ لهُ حسنةً »[1] ، لأنَّ همَّ القلبِ هوَ ميلُهُ إلى الخيرِ وانصرافُهُ عنِ الهوىٰ وحبِّ الدنيا ، وهوَ غايةُ الحسناتِ ، وإنَّما الإتمامُ بالعملِ يزيدُها تأكيداً ، فليسَ المقصودُ مِنْ إراقةِ دمِ القربانِ الدمَ واللحمَ ، بلْ ميلُ القلبِ عنْ حبِّ الدنيا ، وبذلِها إيثاراً لوجهِ اللهِ تعالىٰ ، وهٰذهِ الصفةُ قدْ حصلَتْ عندَ جزمِ النيةِ والهمَّةِ وإنْ عاقَ عنِ العملِ عائقٌ ، فلنْ ينالَ اللهَ لحومُها ولا دماؤُها ، ولكنْ ينالُهُ التقوىٰ منكُمْ ، والتقوىٰ هٰهنا ، أعني القلبَ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ قوماً بالمدينةِ قدْ شركونا في جهادِنا » كما رويناه[2] ؛ لأنَّ قلوبَهُمْ في صدقِ إرادةِ الخيرِ ، وبذلِ المالِ والنفسِ ، والرغبةِ في طلبِ الشهادةِ وإعلاءِ كلمةِ اللهِ تعالىٰ . . كقلوبِ الخارجينَ في الجهادِ ، وإنَّما فارقوهُمْ بالأبدانِ لعوائقَ تخصُّ الأسبابَ الخارجةَ عنِ القلبِ ، وذلكَ غيرُ مطلوبٍ إلا لتأكيدِ هٰذهِ الصفاتِ .

وبهٰذهِ المعاني تُفهمُ جميعُ الأحاديثِ التي أوردناها في فضيلةِ النيةِ ، فاعرضْها عليها ؛ لينكشفَ لكَ أسرارُها ، فلا نطوِّلُ بالإعادةِ .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه البخاري (٦٤٩١) ، ومسلم (١٣١) .

(٢) رواه بنحوه البخاري (٤٤٢٣) ، وأبو داوود (٢٥٠٨) ، وابن ماجه (٢٧٦٤) .

بيان تفصيل الأعمال المتعلقة بالنية

اعلمْ : أنَّ الأعمالَ وإنِ انقسمَتْ أقساماً كثيرةً ؛ مِنْ فعلٍ وقولٍ ، وحركةٍ وسكونٍ ، وجلبٍ ودفعٍ ، وفكرٍ وذكرٍ ، وغيرِ ذلكَ ممَّا لا يُتصوَّرُ إحصاؤُهُ واستقصاؤُهُ . . فهيَ ثلاثةُ أقسامٍ : معاصٍ ، وطاعاتٌ ، ومباحاتٌ .

القسمُ الأوَّلُ : المعاصي :

وهيَ لا تتغيَّرُ عنْ موضوعاتِها بالنيةِ ، فلا ينبغي أنْ يفهمَ الجاهلُ ذلكَ مِنْ عمومِ قولِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إنَّما الأعمالُ بالنياتِ » فيظنَّ أنَّ المعصيةَ تنقلبُ طاعةً بالنيةِ ؛ كالذي يغتابُ إنساناً مراعاةً لقلبِ غيرِهِ ، أوْ يطعمُ فقيراً مِنْ مالِ غيرِهِ ، أوْ يبني مدرسةً أوْ مسجداً أوْ رباطاً مِنْ مالٍ حرامٍ وقصدُهُ الخيرُ ، فهـٰذا كلُّهُ جهلٌ ، والنيةُ لا تؤثِّرُ في إخراجِهِ عنْ كونِهِ ظلماً وعدواناً ومعصيةً ، بلْ قصدُهُ الخيرَ بالشرِّ علىٰ خلافِ مقتضى الشرعِ شرٌّ آخرُ ، فإنْ عرفَهُ . . فهوَ معاندٌ للشرعِ ، وإنْ جهلَهُ . . فهوَ عاصٍ بجهلِهِ ؛ إذْ طلبُ العلمِ فريضةٌ علىٰ كلِّ مسلمٍ ، والخيراتُ إنَّما عُرِفَ كونُها خيراتٍ بالشرعِ ، فكيفَ يمكنُ أنْ يكونَ الشرُّ خيراً ؟! هيهاتَ ! بلِ المروِّجُ لذلكَ على القلبِ خفيُّ الشهوةِ وباطنُ الهوىٰ ، فإنَّ القلبَ إذا كانَ مائلاً إلىٰ طلبِ الجاهِ ، واستمالةِ قلوبِ الناسِ ، وسائرِ حظوظِ النفسِ . . توسَّلَ الشيطانُ بهِ إلى التلبيسِ على الجاهلِ .

ولذلكَ قالَ سهلٌ رحمهُ اللهُ تعالىٰ : ما عُصِيَ اللهُ تعالىٰ بمعصيةٍ أعظمَ مِنَ الجهلِ ، قيلَ : يا أبا محمدٍ ؛ هلْ تعرفُ شيئاً أشدَّ مِنَ الجهلِ ؟ قالَ : نعمِ ، الجهلُ بالجهلِ[1] .

وهوَ كما قالَ ؛ لأنَّ الجهلَ بالجهلِ يسدُّ بالكليَّةِ بابَ التعلُّمِ ، فمَنْ يظنُّ بالكليَّةِ بنفسِهِ أنَّهُ عالمٌ . . فكيفَ يتعلَّمُ ؟

وكذلكَ أفضلُ ما أُطيعَ اللهُ تعالىٰ بهِ العلمُ ، ورأسُ العلمِ العلمُ بالعلمِ ، كما أنَّ رأسَ الجهلِ الجهلُ بالجهلِ ، فإنَّ مَنْ لا يعلمُ العلمَ النافعَ مِنَ العلمِ الضارِّ . . اشتغلَ بما أكبَّ الناسُ عليهِ مِنَ العلومِ المزخرفةِ التي هيَ وسائلُهُمْ إلى الدنيا ، وذلكَ هوَ مادةُ الجهلِ ومنبعُ فسادِ العالمِ .

والمقصودُ أنَّ مَنْ قصدَ الخيرَ بمعصيةٍ عنْ جهلٍ . . فهوَ غيرُ معذورٍ ، إلا إذا كانَ قريبَ العهدِ بالإسلامِ ولمْ يجدْ بعدُ مهلةً للتعلُّمِ .

وقدْ قالَ اللهُ سبحانَهُ : ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يُعذرُ الجاهلُ على الجهلِ ، ولا يحلُّ للجاهلِ أنْ يسكتَ علىٰ جهلِهِ ، ولا للعالمِ أنْ يسكتَ علىٰ علمِهِ »[2] .

ويقربُ مِنْ تقرُّبِ السلاطينِ ببناءِ المساجدِ والمدارسِ بالمالِ الحرامِ

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٥٣) .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ١٥٣) ، ورواه الطبراني في « الأوسط » (٥٣٦١) بنحوه .

تقرُّبُ العلماءِ السوءِ بتعليمِ العلمِ للسفهاءِ والأشرارِ ، المشغولينَ بالفسقِ والفجورِ ، القاصرينَ همَمَهُمْ علىٰ مماراةِ العلماءِ ومباراةِ السفهاءِ ، واستمالةِ وجوهِ الناسِ ، وجمعِ حُطامِ الدنيا ، وأخذِ أموالِ السلاطينِ واليتامىٰ والمساكينِ ، فإنَّ هؤلاءِ إذا تعلَّموا.. كانوا قطَّاعَ طريقِ اللهِ ، وانتهضَ كلُّ واحدٍ منهُمْ في بلدتِهِ نائباً عنِ الدجَّالِ ، يتكالبُ على الدنيا ، ويتبعُ الهوىٰ ، ويتباعدُ عنِ التقوىٰ ، ويستجرىءُ الناسُ بسببِ مشاهدتِهِ علىٰ معاصي اللهِ ، ثمَّ قدْ ينتشرُ ذلكَ العلمُ إلىٰ مثلِهِ وأمثالِهِ ، ويتخذونَهُ أيضاً آلةً ووسيلةً في الشرِّ واتباعِ الهوىٰ ، ويتسلسلُ ذلكَ ، ووبالُ جميعِهِ يرجعُ إلى المعلِّمِ الذي علَّمَهُ العلمَ معَ علمِهِ بفسادِ نيتِهِ وقصدِهِ ، ومشاهدتِهِ أنواعَ المعاصي مِنْ أقوالِهِ وأفعالِهِ ، وفي مطعمِهِ وملبسِهِ ومسكنِهِ ، فيموتُ هـٰذا العالمُ وتبقىٰ آثارُ شرِّهِ منتشرةً في العالمِ ألفَ سنةٍ وألفي سنةٍ ، وطوبىٰ لِمَنْ إذا ماتَ.. ماتَتْ معهُ ذنوبُهُ .

ثمَّ العجبُ مِنْ جهلِهِ حيثُ يقولُ : (إنَّما الأعمالُ بالنياتِ ، وقدْ قصدتُ بذلكَ نشرَ علمِ الدينِ ، فإنِ استعملَهُ هوَ في الفسادِ.. فالمعصيةُ منهُ لا منِّي ، وما قصدتُ بهِ إلا أنْ يستعينَ بهِ على الخيرِ) ، وإنَّما حبُّ الرئاسةِ والاستتباعِ والتفاخرِ بعلوِّ العلمِ يحسِّنُ ذلكَ في قلبِهِ ، والشيطانُ بواسطةِ حبِّ الرئاسةِ يلبِّسُ عليهِ ، وليتَ شعري ما جوابُهُ عمَّنْ وهبَ سيفاً مِنْ قاطعِ طريقٍ ، وأعدَّ لهُ خيلاً وأسباباً يستعينُ بها علىٰ مقصودِهِ ، ويقولُ : (إنَّما أردتُ البذلَ والسخاءَ ، والتخلُّقَ بأخلاقِ اللهِ تعالىٰ ، وقصدتُ بهِ أنْ يغزوَ

بهٰذا السيفِ والخيلِ في سبيلِ اللهِ ، فإنَّ إعدادَ الخيلِ والرباطِ والقوَّةِ للغزاةِ مِنْ أفضلِ القرباتِ ، فإنْ هوَ صرفَهُ إلىٰ قطعِ الطريقِ . . فهوَ العاصي) ، وقدْ أجمعَ الفقهاءُ علىٰ أنَّ ذلك حرامٌ ، معَ أنَّ السخاءَ هوَ أحبُّ الأخلاقِ إلى اللهِ تعالىٰ ، حتىٰ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إن للهِ تعالىٰ ثلاثَ مئةِ خُلُقٍ ، مَنْ تقرَّبَ إليهِ بواحدٍ منها . . دخلَ الجنةَ ، وأحبُّها إليهِ السخاءُ »[1] ، فليتَ شعري لِمَ حرُمَ هٰذا السخاءُ ؟ ولِمَ وجبَ عليهِ أنْ ينظرَ إلىٰ قرينةِ الحالِ مِنْ هٰذا الظالمِ ؛ فإذا لاحَ لهُ مِنْ عادتِهِ أنَّهُ يستعينُ بالسلاحِ على الشرِّ . . فينبغي أنْ يسعىٰ في سلبِ سلاحِهِ ، لا في أنْ يمدَّهُ بغيرِهِ ؟

والعلمُ سلاحٌ يقاتلُ بهِ الشيطانُ وأعداءُ اللهِ ، وقدْ يعاونُ بهِ أعداءَ اللهِ تعالىٰ ، وهوَ الهوىٰ ، فمَنْ لا يزالُ مؤْثِراً لدنياه علىٰ دينِهِ ، ولهواهُ علىٰ آخرتِهِ ، وهوَ عاجزٌ عنها لقلَّةِ فضلِهِ . . فكيفَ يجوزُ إمدادُهُ بنوعِ علمٍ يتمكَّنُ بهِ مِنَ الوصولِ إلىٰ شهواتِهِ ؟!

بلْ لمْ يزلْ علماءُ السلفِ رحمهمُ اللهُ يتفقدونَ أحوالَ مَنْ يتردَّدُ إليهِمْ ، فلوْ رأَوا من واحدٍ منهُمْ تقصيراً في نفلٍ مِنَ النوافلِ . . أنكروهُ وتركوا إكرامَهُ ، وإذا رأَوا منهُ فجوراً واستحلالَ حرامٍ . . هجروهُ ونفَوهُ عنْ مجالسِهِمْ ، وتركوا تكليمَهُ فضلاً عنْ تعليمِهِ ؛ لعلمِهِمْ بأنَّ مَنْ تعلَّمَ مسألةً

---

(١) قوت القلوب (٢/ ٧٨) ، ورواه الطبراني في « الأوسط » (١٠٩٧) ، وأبو الشيخ في « العظمة » (١٦١) بنحوه .

ولمْ يعملْ بها وجاوزَها إلىٰ غيرِها.. فليسَ يطلبُ إلا آلةَ الشرِّ، وقدْ تعوَّذَ جميعُ السلفِ باللهِ مِنَ العالمِ الفاجرِ، وما تعوَّذوا مِنَ الفاجرِ الجاهلِ.

وحُكِيَ عنْ بعضِ أصحابِ أحمدَ ابنِ حنبلٍ رحمهُ اللهُ أنَّهُ كانَ يتردَّدُ إليهِ سنينَ، ثمَّ اتفقَ أنْ أعرضَ عنهُ أحمدُ، وهجرَهُ وصارَ لا يكلِّمُهُ، فلمْ يزلْ يسألُهُ عنْ تغيُّرِهِ عليهِ وهوَ لا يذكرُهُ حتىٰ قالَ لهُ: بلغَني أنَّكَ طيَّنْتَ حائطَ داركَ مِنْ جانبِ الشارعِ، فقدْ أخذتَ قدْرَ سمكِ الطينِ، وهوَ أَنْمُلةٌ مِنْ شارعِ المسلمينَ، فلا تصلحُ لتعلُّمِ العلمِ[1].

فهكذا كانَتْ مراقبةُ السلفِ لأحوالِ طلبةِ العلمِ.

وهٰذا وأمثالُهُ ممَّا يلتبسُ على الأغبياءِ وأتباعِ الشيطانِ وإنْ كانوا أربابَ الطيالسةِ والأكمامِ الواسعةِ وأصحابَ الألسنةِ الطويلةِ والفضْلِ الكثيرِ؛ أعني: الفضلَ مِنَ العلومِ التي لا تشتملُ على التحذيرِ مِنَ الدنيا والزجرِ عنها، والترغيبِ في الآخرةِ والدعاءِ إليها، بلْ هيَ العلومُ التي تتعلَّقُ بالخلقِ، ويُتوصَّلُ بها إلىٰ جمعِ الحُطامِ، واستتباعِ الناسِ والتقدُّمِ على الأقرانِ.

فإذاً؛ قولُهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: « إنَّما الأعمالُ بالنيَّاتِ » يختصُّ مِنَ الأقسامِ الثلاثةِ بالطاعاتِ والمباحاتِ دونَ المعاصي؛ إذِ الطاعةُ تنقلبُ

---

(1) أورده صاحب « القوت » (١/ ٦٩)، ثم إن الرجل هدم حائطه وأخَّره إصبعاً ثم طينه من خارج، فأقبل عليه الإمام أحمد، رحمهما الله تعالىٰ.

معصيةً بالقصدِ ، والمباحُ ينقلبُ معصيةً وطاعةً بالقصدِ ، فأمَّا المعصيةُ . . فلا تنقلبُ طاعةً بالقصدِ أصلاً ، نعمْ ، للنيةِ دخلٌ فيها ، وهوَ أنَّهُ إذا انضافَ إليها قُصودٌ خبيثةٌ . . تضاعفَ وزرُها ، وعظُمَ وبالُها ، كما ذكرنا ذلكَ في كتابِ التوبةِ .

❊ ❊ ❊

القسمُ الثاني : الطاعاتُ :

وهيَ مرتبطةٌ بالنياتِ في أصلِ صحتِها ، وفي تضاعفِ فضلِها .

أمَّا الأصلُ . . فهوَ أنْ ينويَ بها عبادةَ اللهِ تعالىٰ لا غيرَ ، فإنْ نوى الرياءَ . . صارَتْ معصيةً .

وأمَّا تضاعفُ الفضلِ . . فبكثرةِ النياتِ الحسنةِ ، فإنَّ الطاعةَ الواحدةَ يمكنُ أنْ ينويَ بها خيراتٍ كثيرةً ، فيكونُ لهُ بكلِّ نيةٍ ثوابٌ ؛ إذْ كلُّ واحدةٍ منها حسنةٌ ، ثمَّ تضاعفُ كلُّ حسنةٍ عشرَ أمثالِها كما وردَ بهِ الخبرُ(١) .

ومثالُهُ : القعودُ في المسجدِ ؛ فإنَّهُ طاعةٌ ، ويمكنُ أنْ ينويَ فيهِ نياتٍ كثيرةً حتىٰ يصيرَ مِنْ فضائلِ أعمالِ المتقينَ ، ويبلغَ بهِ درجاتِ المقربينَ :

أوَّلُها : أنْ يعتقدَ أنَّهُ بيتُ اللهِ ، وأنَّ داخلَهُ زائرٌ للهِ ، فيقصدُ بهِ زيارةَ مولاهُ رجاءً لما وعدَهُ بهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حيثُ قالَ : « مَنْ

---

(١) رواه هناد في « الزهد » (٨٩٥) .

قعدَ في المسجدِ.. فقدْ زارَ اللهَ تعالىٰ ، وحقٌّ على المزورِ إكرامُ زائرِهِ »[1] .

وثانيها : أنْ ينتظرَ الصلاةَ بعدَ الصلاةِ ، فيكونَ في جملةِ انتظارِهِ في الصلاةِ ، وهوَ معنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَرَابِطُواْ ﴾[2] .

وثالثُها : الترهُّبُ بكفِّ السمعِ والبصرِ والأعضاءِ عنِ الحركاتِ والتردُّداتِ ؛ فإنَّ الاعتكافَ كفٌّ ، وهوَ في معنى الصومِ ، وهوَ نوعُ ترهُّبٍ ، ولذلكَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « رهبانيةُ أمَّتي القعودُ في المساجدِ »[3] .

ورابعُها : عكوفُ الهمِّ على اللهِ ، ولزومُ السرِّ للفكرِ في الآخرةِ ، ودفعُ الشواغلِ الصارفةِ عنهُ بالاعتزالِ إلى المسجدِ .

وخامسُها : التجرُّدُ لذكرِ اللهِ ، أوْ لاستماعِ ذكرِهِ ، وللتذكيرِ بهِ ، كما

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٥٤) ، ورواه ابن حبان في « المجروحين » (٢/ ٦٢) .

(٢) إذ روىٰ مسلم (٢٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ألا أدلكم علىٰ ما يمحو الله به الخطايا ، ويرفع به الدرجات ؟ » قالوا : بلىٰ يا رسول الله ، قال : « إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ؛ فذلكم الرباط » .

(٣) كذا في « القوت » (٢/ ١٥٤) ، ورواه أبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٤/ ١٩٥٧) من حديث أنس قال : مات ابن لعثمان بن مظعون ، فاشتد حزنه عليه حتى اتخذ مسجداً في داره يتعبد فيه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنها لم تكتب علينا الرهبانية يا عثمان ، إن رهبانية أمتي في المساجد وانتظار الصلوات والحج والعمرة... » الحديث .

رُوِيَ في الخبرِ : « مَنْ غدا إلى المسجدِ ليذكرَ اللهَ تعالىٰ أوْ يذكِّرَ بهِ . . كانَ كالمجاهدِ في سبيلِ اللهِ »[1] .

وسادسُها : أنْ يقصدَ إفادةَ علمٍ بأمرٍ بمعروفٍ ونهيٍ عنْ منكرٍ ؛ إذِ المسجدُ لا يخلو عمَّنْ يسيءُ صلاتَهُ ، أوْ يتعاطىٰ ما لا يحلُّ لهُ ، فيأمرُهُ بالمعروفِ ، ويرشدُهُ إلى الدينِ ، فيكونُ شريكاً معَهُ في خيرِهِ الذي يعلمُ منهُ ، فتتضاعفُ خيراتُهُ .

وسابعُها : أنْ يستفيدَ أخاً في اللهِ تعالىٰ ، فإنَّ ذلكَ غنيمةٌ وذخيرةٌ للدارِ الآخرةِ ، والمسجدُ مُعَشَّشُ أهلِ الدينِ المحبِّينَ للهِ وفي اللهِ .

وثامنُها : أنْ يتركَ الذنوبَ حياءً مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وحياءً مِنْ أنْ يتعاطىٰ في بيتِ اللهِ ما يقتضي هتكَ الحرمةِ ، وقدْ قالَ الحسنُ بنُ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُما : (مَنْ أدمنَ الاختلافَ إلى المسجدِ . . رزقَهُ اللهُ إحدىٰ سبعِ خصالٍ : أخاً مستفاداً في اللهِ ، أوْ رحمةً مستنزلةً ، أوْ علماً مستطرفاً ، أوْ كلمةً تدلُّهُ علىٰ هدىً ، أوْ تصرفُهُ عنْ ردىً ، أوْ يتركُ الذنوبَ خشيةً أوْ حياءً »[2] .

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ١٥٤) ، وقد رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٣٥٠) ، وابن حبان في « صحيحه » (٨٧) من حديث أبي هريرة مرفوعاً بلفظ : « من دخل مسجدنا هـٰذا ليتعلَّمَ خيراً ، أو ليعلمه . . كان كالمجاهد في سبيل الله ، ومن دخله لغير ذلك . . كان كالناظر إلىٰ ما ليس له » .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ١٥٥) ، ورواه الطبراني في « الكبير » (٣/ ٨٨) .

فهٰذا طريقُ تكثيرِ النياتِ ، وقسْ بهِ سائرَ الطاعاتِ والمباحاتِ ؛ إذْ ما مِنْ طاعةٍ إلا وتحتملُ نياتٍ كثيرةً ، وإنَّما تحضرُ في قلبِ العبدِ المؤمنِ بقدْرِ جدِّهِ في طلبِ الخيرِ ، وتشمُّرِهِ لهُ ، وتفكُّرِهِ فيهِ ، فبهٰذا تزكو الأعمالُ وتتضاعفُ الحسناتُ .

* * *

القسمُ الثالثُ : المباحاتُ :

وما مِنْ شيءٍ مِنَ المباحاتِ إلا ويحتملُ نيةً أوْ نياتٍ يصيرُ بها مِنْ محاسنِ القرباتِ ، ويُنالُ بها معالي الدرجاتِ ، فما أعظمَ خسرانَ مَنْ يغفُلُ عنها ، ويتعاطاها تعاطيَ البهائمِ المهملةِ عنْ سهوٍ وغفلةٍ !

ولا ينبغي أنْ يستحقرَ العبدُ شيئاً مِنَ الخطراتِ والخطواتِ واللحظاتِ ، فكلُّ ذلكَ يُسألُ عنهُ يومَ القيامةِ أنَّهُ لِمَ فعلَهُ ، وما الذي قصدَ بهِ ، هٰذا في مباحٍ محضٍ لا يشوبُهُ كراهةٌ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حلالُها حسابٌ ، وحرامُها عذابٌ »[1] .

وفي حديثِ معاذِ بنِ جبلٍ : أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « إنَّ العبدَ ليُسألُ يومَ القيامةِ عنْ كلِّ شيءٍ ، حتَّىٰ عنْ كحلِ عينيهِ ، وعنْ فتاتِ الطينةِ بإصبعيهِ ، وعنْ لمسِهِ ثوبَ أخيهِ »[2] .

---

(١) رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٨١٩٢) .
(٢) كذا في « القوت » (٢/ ١٦٢) ، وقد رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (١٧١٩٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٣١) .

وفي خبرٍ آخرَ : « مَنْ تطيَّبَ للهِ تعالىٰ . . جاءَ يومَ القيامةِ وريحُهُ أطيبُ مِنَ المسكِ ، ومَنْ تطيَّبَ لغيرِ اللهِ تعالىٰ . . جاءَ يومَ القيامةِ وريحُهُ أنتنُ مِنَ الجيفةِ »[1] ، فاستعمالُ الطيبِ مباحٌ ، ولكنْ لا بدَّ فيهِ مِنْ نيةٍ .

❀ ❀ ❀

فإنْ قلتَ : فما الذي يمكنُ أنْ يُنوىٰ بالطيبِ وهوَ حظٌّ مِنْ حظوظِ النفسِ ؟ وكيفَ يُتطيَّبُ للهِ ؟

فاعلم : أنَّ مَنْ يتطيَّبُ مثلاً يومَ الجمعةِ وفي سائرِ الأوقاتِ يُتصوَّرُ أنْ يقصدَ التنعُّمَ بلذاتِ الدنيا ، أوْ يقصدَ بهِ إظهارَ التفاخرِ بكثرةِ المالِ ليحسدَهُ الأقرانُ ، أوْ يقصدَ بهِ رياءَ الخلقِ ليقومَ لهُ الجاهُ في قلوبِهِمْ ويُذكرَ بطيبِ الرائحةِ ، أوْ ليتودَّدَ بهِ إلىٰ قلوبِ النساءِ الأجنبياتِ إذا كانَ مستحلاً للنظرِ إليهنَّ ، ولأمورٍ أخرَ لا تُحصىٰ ، وكلُّ هٰذا يجعلُ التطيُّبَ معصيةً ، فبذلكَ يكونُ أنتنَ مِنَ الجيفةِ في القيامةِ ، إلا القصدَ الأوَّلَ ؛ وهوَ التلذُّذُ والتنعُّمُ ، فإنَّ ذلكَ ليسَ بمعصيةٍ ، إلا أنَّهُ يُسألُ عنهُ ، ومَنْ نُوقشَ الحسابَ . . عُذِّبَ ، ومَنْ أتىٰ شيئاً مِنْ مباحِ الدنيا . . لمْ يُعذَّبْ عليهِ في الآخرةِ ، ولكنْ ينقصُ مِنْ نعيمِ الآخرةِ لهُ بقدرِهِ ، وناهيكَ خسراناً بأنْ يستعجلَ ما يفنىٰ ، ويخسرَ زيادةَ نعيمٍ يبقىٰ .

❀ ❀ ❀

---

(١) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٤/ ٣١٩) عن إسحاق بن أبي طلحة مرسلاً .

وأمَّا النياتُ الحسنةُ . . فأنْ ينويَ بهِ اتباعَ سنَّةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يومَ الجمعةِ ، وأن ينويَ بذلكَ أيضاً تعظيمَ المسجدِ ، واحترامَ بيتِ اللهِ تعالىٰ ، فلا يرىٰ أنْ يدخلَهُ زائرُ اللهِ إلا طيِّبَ الرائحةِ ، وأنْ يقصدَ بهِ ترويحَ جيرانِهِ ليستريحوا في المسجدِ عندَ مجاورتِهِ بروائحِهِ ، وأنْ يقصدَ بهِ دفعَ الروائحِ الكريهةِ عنْ نفسِهِ التي تؤدِّي إلىٰ إيذاءِ مخالطيهِ ، وأنْ يقصدَ حسمَ بابِ الغيبةِ عنِ المغتابينَ إذا اغتابوهُ بالروائحِ الكريهةِ فيعصونَ اللهَ بسببِهِ ، فمَنْ تعرَّضَ للغيبةِ وهوَ قادرٌ على الاحترازِ منها . . فهوَ شريكٌ في تلكَ المعصيةِ ، كما قيلَ[1] : [من البسيط]

إذا ترَحَّلْتَ عَنْ قَوْمٍ وَقَدْ قَدَرُوا ... أَلَّا تُفَارِقَهُمْ فَالرَّاحِلُونَ هُمُ

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ ، أشارَ بهِ إلىٰ أنَّ التسبُّبَ إلى الشرِّ شرٌّ ، وأنْ يقصدَ بهِ معالجةَ دماغِهِ لتزيدَ بهِ فطنتُهُ وذكاؤُهُ ، ويسهلَ عليهِ درْكُ مهمَّاتِ دينِهِ بالفكرِ ، فقدْ قالَ الشافعيُّ رحمَهُ اللهُ : (مَنْ طابَ ريحُهُ . . زادَ عقلُهُ)[2] .

فهٰذا وأمثالُهُ مِنَ النياتِ لا يعجزُ الفقيهُ عنها إذا كانَتْ تجارةُ الآخرةِ وطلبُ الخيرِ غالباً علىٰ قلبِهِ ، وإذا لمْ يغلبْ علىٰ قلبِهِ إلا نعيمُ الدنيا . . لمْ

---

(١) البيت للمتنبي في « ديوانه بشرح العكبري » (٣/ ٣٧٢) .

(٢) أورده ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (١/ ٢/ ١٥٢) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ١٨٤) عن محكول .

تحضرُهُ هٰذهِ النياتُ ، وإنْ ذُكِرَتْ لهُ .. لمْ ينبعثْ لها قلبُهُ ، فلا يكونُ معهُ منها إلا حديثُ النفسِ ، وليسَ ذلكَ مِنَ النيةِ في شيءٍ .

والمباحاتُ كثيرةٌ ، ولا يمكنُ إحصاءُ النيَّاتِ فيها ، فقسْ بهٰذا الواحدِ ما عداهُ ، ولهٰذا قالَ بعضُ العارفينَ مِنَ السلفِ : (إنِّي لأستحبُّ أنْ يكونَ لي في كلِّ شيءٍ نيةٌ ، حتَّىٰ في أكلي وشربي ونومي ودخولي إلى الخلاءِ)[1] .

وكلُّ ذلكَ ممَّا يمكنُ أنْ يُقصدَ بهِ وجهُ اللهِ تعالىٰ ؛ لأنَّ كلَّ ما هوَ سببٌ لبقاءِ البدنِ ، وفراغِ القلبِ مِنْ مهمَّاتِ البدنِ .. فهوَ معينٌ على الدينِ ، فمَنْ قصدُهُ مِنَ الأكلِ التقوِّي على العبادةِ ، ومِنَ الوقاعِ تحصينُ دينِهِ وتطييبُ قلبِ أهلِهِ ، والتوصلُ بهِ إلىٰ ولدٍ صالحٍ يعبدُ اللهَ تعالىٰ بعدَهُ ، فتكثرُ بهِ أمَّةُ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .. كانَ مطيعاً بأكلِهِ ونكاحِهِ ، وأغلبُ حظوظِ النفسِ الأكلُ والوقاعُ ، وقصدُ الخيرِ بهِما غيرُ ممتنعٍ لمَنْ غلبَ علىٰ قلبِهِ همُّ الآخرةِ .

ولذلكَ ينبغي أنْ يحسِّنَ نيتَهُ مهما ضاعَ لهُ مالٌ ويقولَ : هوَ في سبيلِ اللهِ ، وإذا بلغَهُ اغتيابُ غيرِهِ لهُ .. فليطيِّبْ قلبَهُ بأنَّهُ سيحملُ سيئاتِهِ وستُنقلُ إلىٰ ديوانِهِ حسناتُهُ ، ولينْوِ ذلكَ بسكوتِهِ عنِ الجوابِ ، ففي الخبرِ : « إنَّ العبدَ ليُحاسبُ ، فتبطلُ أعمالُهُ لدخولِ الآفةِ فيها حتىٰ يستوجبَ النارَ ،

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ١٥٤) عن بعض العلماء ، ورواه بنحوه عن زبيد بن الحارث البيهقيُّ في « الشعب » (٦٤٨٩) .

ثمَّ يُنشرُ لهُ مِنَ الأعمالِ الصالحةِ ما يستوجبُ بهِ الجنةَ ، فيتعجَّبُ ويقولُ : ياربِّ ؛ هـٰذهِ أعمالٌ ما عملتُها قطُّ ! فيُقالُ : هيَ أعمالُ الذينَ اغتابوكَ وآذَوكَ وظلموكَ »(١) .

وفي الخبرِ : « إنَّ العبدَ ليوافي القيامةَ بحسناتٍ أمثالِ الجبالِ ، لوْ خلصَتْ لهُ . . لدخلَ الجنةَ ، ويأتي وقدْ ظلمَ هـٰذا ، وشتمَ هـٰذا ، وضربَ هـٰذا ، فيُقتصُّ لهـٰذا مِنْ حسناتِهِ ، ولهـٰذا مِنْ حسناتِهِ ، حتىٰ لا يبقىٰ لهُ حسنةٌ ، فتقولُ الملائكةُ : قدْ فنيَتْ حسناتُهُ وبقيَ طالبونَ ؟ فيقولُ اللهُ تعالىٰ : ألقوا عليهِ مِنْ سيئاتِهِمْ ، ثم صُكُّوا لهُ صكّاً إلى النارِ »(٢) .

وبالجملةِ : فإيَّاكَ ثمَّ إيَّاكَ أنْ تستحقرَ شيئاً مِنْ حركاتِكَ ، فلا تحترزَ مِنْ غرورِها وشرورِها ، فلا تجدَ لها جواباً يومَ السؤالِ والحسابِ ، فإنَّ اللهَ تعالىٰ مطَّلعٌ عليكَ وشهيدٌ ، وما يلفظُ مِنْ قولٍ إلا لديهِ رقيبٌ عتيدٌ .

وقدْ قالَ بعضُ السلفِ : كتبتُ كتاباً ، وأردتُ أنْ أتربَهُ مِنْ منزلِ جاري ، فتحرَّجتُ ، ثمَّ قلتُ : ترابٌ وما ترابٌ ؟! فأتربتُهُ ، فهتفَ بي هاتفٌ : سيعلمُ مَنِ استخفَّ بترابٍ ما يلقىٰ غداً مِنْ سوءِ الحسابِ(٣) .

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ١٥٢) ، ورواه بنحوه الخرائطي في « مساوىء الأخلاق » (١٩٩) ، وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٧٤٤) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ١٥٣) وروىٰ أبو نعيم في « الحلية » (١/ ١٧٨) نحوه .

(٣) كذا في « القوت » (٢/ ١٦٣) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٢٢٧) .

وصلَّىٰ رجلٌ معَ الثوريِّ ، فرآهُ مقلوبَ الثوبِ ، فعرَّفَهُ[1] ، فمدَّ يدَهُ ليصلحَهُ ، ثمَّ قبضَها فلمْ يسوِّهِ ، فسألَهُ عنْ ذلكَ ، فقالَ : إنِّي لبستُهُ للهِ تعالىٰ ، ولا أريدُ أنْ أسوِّيَهُ لغيرِ اللهِ[2] .

وقدْ قالَ الحسنُ : إنَّ الرجلَ ليتعلَّقُ بالرجلِ يومَ القيامةِ فيقولُ بيني وبينَكَ اللهُ ، فيقولُ : واللهِ ؛ ما أعرفُكَ ! فيقولُ : بلىٰ ، أنتَ أخذتَ تبنةً مِنْ حائطي ، وأخذتَ خيطاً مِنْ ثوبي[3] .

فهٰذا وأمثالُهُ مِنَ الأخبارِ قطعَ قلوبَ الخائفينَ ، فإنْ كنتَ مِنْ أولي الحزمِ والنُّهىٰ ، ولمْ تكنْ مِنَ المغترِّينَ . . فانظرْ لنفسِكَ الآنَ ، ودقِّقِ الحسابَ علىٰ نفسِكَ قبلَ أنْ يُدقَّقَ عليكَ ، وراقبْ أحوالَكَ ، ولا تسكنْ ولا تتحرَّكْ ما لمْ تتأمَّلْ أوّلاً أنَّكَ لِمَ تتحرَّكُ ؟ وماذا تقصدُ ؟ وما الذي تنالُ بهِ مِنَ الدنيا ؟ وما الذي يفوتُكَ بهِ مِنَ الآخرةِ ؟ وبماذا ترجِّحُ الدنيا على الآخرةِ ؟

فإذا علمتَ أنَّهُ لا باعثَ إلا الدينُ . . فأمضِ عزمَكَ وما خطرَ ببالِكَ ، وإلا . . فأمسكْ ، ثمَّ راقبْ أيضاً قلبَكَ في إمساكِكَ وامتناعِكَ ، فإنَّ تركَ الفعلِ فعلٌ ، ولا بدَّ لهُ مِنْ نيةٍ صحيحةٍ ، فلا ينبغي أنْ يكونَ لداعي هوىً خفيٍّ لا يُطلعُ عليهِ .

---

(١) أي : عرَّف الرجلُ سفيانَ أن ثوبه مقلوب .

(٢) قوت القلوب (٢/ ١٦٣) .

(٣) قوت القلوب (٢/ ١٥٢) .

ولا يغرَّنَّكَ ظواهرُ الأمورِ ، ومشهوراتُ الخيراتِ ، وافطنْ للأغوارِ والأسرارِ . . تخرجْ مِنْ حيِّزِ أهلِ الاغترارِ ، فقدْ رُوِيَ عنْ زكريا عليهِ السلامُ أنَّهُ كانَ يعملُ في حائطٍ بالطينِ ، وكانَ أجيراً لقومٍ ، فقدَّموا لهُ رغيفينِ ؛ إذْ كانَ لا يأكلُ إلا مِنْ كسبِ يدِهِ ، فدخلَ عليهِ قومٌ ، فلمْ يدعُهُمْ إلى الطعامِ حتَّىٰ فرغَ ، فتعجَّبوا منهُ لما علموا مِنْ سخائِهِ وزهدِهِ ، وظنُّوا أنَّ الخيرَ في طلبِ المساعدةِ في الطعامِ ، فقالَ : إنِّي أعملُ لقومٍ بالأجرةِ ، وقدَّموا إليَّ الرغيفينِ لأتقوَّىٰ بهِما علىٰ عملِهِمْ ، فلوْ أكلتُمْ معي . . لمْ يكفكُمْ ولمْ يكفني ، وضعفتُ عنْ عملِهِمْ[1] .

فالبصيرُ هٰكذا ينظرُ إلى البواطنِ بنورِ اللهِ ، فإنَّ ضعفَهُ عنِ العملِ نقصٌ في فرضٍ ، وتركَ الدعوةِ إلى الطعامِ نقصٌ في فضلٍ ، ولا حكمَ للفضائلِ معَ الفرائضِ .

وقالَ بعضُهُمْ : دخلتُ علىٰ سفيانَ وهوَ يأكلُ ، فما كلَّمني حتَّىٰ لعقَ أصابعَهُ ، ثمَّ قالَ : لولا أنِّي أخذتُهُ بدينٍ . . لأحببتُ أنْ تأكلَ منهُ[2] .

وقال سفيانُ : (مَنْ دعا رجلاً إلىٰ طعامِهِ وليسَ لهُ رغبةٌ في أنْ يأكلَ ؛ فإنْ أجابَهُ فأكلَ . . فعليهِ وزرانِ ، وإنْ لمْ يأكلْ . . فعليهِ وزرٌ واحدٌ)[3] ،

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ١٥٦) ، وهو عند الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص١٣٠) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ١٥٦) ، وسفيان هنا هو ابن عبد الرحمٰن بن عاصم الثقفي .

(٣) قوت القلوب (٢/ ١٥٢) .

وأرادَ بأحدِ الوزرينِ النفاقَ ، وبالثاني تعريضَهُ أخاهُ لما يكرهُ لوْ علمَهُ .

فهٰكذا ينبغي أنْ يتفقَّدَ العبدُ نيتَهُ في سائرِ الأعمالِ ، فلا يقدمُ ولا يحجمُ إلا بنيةٍ ، فإنْ لمْ تحضرْهُ النيةُ.. توقَّفَ ، فإنَّ النيةَ لا تدخلُ تحتَ الاختيارِ .

* * *

بيان أن النية غير داخلة تحت الاختيار

اعلمْ : أنَّ الجاهلَ يسمعُ ما ذكرناهُ مِنَ الوصيةِ بتحسينِ النيةِ وتكثيرِها معَ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّما الأعمالُ بالنياتِ » ، فيقولُ في نفسِهِ عندَ تدريسِهِ أَوْ تجارتِهِ أَوْ أكلِهِ : نويتُ أَنْ أدرِّسَ للهِ ، أَوْ أتجرَ للهِ ، أَوْ آكلَ للهِ ، ويظنُّ أنَّ ذلكَ نيةٌ ، وهيهاتَ ! فذلكَ حديثُ نفسٍ ، أَوْ حديثُ لسانٍ أَوْ فكرٍ ، أَوِ انتقالٌ مِنْ خاطرٍ إلىٰ خاطرٍ ، والنيةُ بمعزلٍ عنْ جميعِ ذلكَ ، وإنَّما النيةُ انبعاثُ النفسِ وتوجُّهُها وميلُها إلىٰ ما ظهرَ لها أنَّ فيهِ غرضَها ؛ إمَّا عاجلاً أَوْ آجلاً ، والميلُ إذا لمْ يكنْ . . لا يمكنُ اختراعُهُ واكتسابُهُ بمجرَّدِ الإرادةِ ، بلْ ذلكَ كقولِ الشبعانِ : نويتُ أَنْ أشتهيَ الطعامَ وأميلَ إليهِ ، أَوْ قولِ الفارغِ : نويتُ أَنْ أعشقَ فلاناً وأحبَّهُ وأعظِّمَهُ بقلبي ، فذلكَ محالٌ ، بلْ لا طريقَ إلى اكتسابِ صرفِ القلبِ إلى الشيءِ ، وميلِهِ إليهِ وتوجهِهِ نحوَهُ إلا باكتسابِ أسبابِهِ ، وذلكَ ممَّا قدْ يقدرُ عليهِ وقدْ لا يقدرُ عليهِ ، وإنَّما تنبعثُ النفسُ إلى الفعلِ إجابةً للغرضِ الباعثِ الموافقِ للنفسِ الملائمِ لها ، وما لمْ يعتقدِ الإنسانُ أنَّ غرضَهُ منوطٌ بفعلٍ مِنَ الأفعالِ . . فلا يتوجَّهُ نحوَهُ قصدُهُ ، وذلكَ ممَّا لا يُقدرُ على اعتقادِهِ في كلِّ حينٍ وإذا اعتقَدَ فإنَّما يتوجَّهُ القلبُ إذا كانَ فارغاً غيرَ مصروفٍ عنهُ بغرضٍ شاغلٍ أقوىٰ منهُ ، وذلكَ لا يمكنُ في كلِّ وقتٍ ، والدواعي والصوارفُ لها أسبابٌ كثيرةٌ بها تجتمعُ ، ويختلفُ ذلكَ بالأشخاصِ وبالأحوالِ وبالأعمالِ .

فإذا غلبَتْ شهوةُ النكاحِ مثلاً ولمْ يعتقدْ غرضاً صحيحاً في الولدِ ديناً ولا دنيا . . لا يمكنُهُ أنْ يواقعَ علىٰ نيةِ الولدِ ، بلْ لا يمكنُ إلا علىٰ نيةِ قضاءِ الشهوةِ ؛ إذِ النيةُ هيَ إجابةُ الباعثِ ، ولا باعثَ إلا الشهوةُ ، فكيفَ ينوي الولدَ ؟!

وإذا لمْ يغلبْ علىٰ قلبِهِ أنَّ إقامةَ سنةِ النكاحِ اتباعاً لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يعظمُ فضلُها . . لا يمكنُ أنْ ينويَ بالنكاحِ اتباعَ السنةِ إلا أنْ يقولَ ذلكَ بلسانِهِ وقلبِهِ وهوَ حديثٌ محضٌ وليسَ بنيةٍ .

نعمْ ، طريقُ اكتسابِ هٰذهِ النيةِ مثلاً أنْ يقوِّيَ أوَّلاً إيمانَهُ بالشرعِ ، ويقوِّيَ إيمانَهُ بعظمِ ثوابِ مَنْ يسعىٰ في تكثيرِ أمَّةِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ويدفعَ عنْ نفسِهِ جميعَ المنفِّراتِ عنِ الولدِ ؛ مِنْ ثقلِ المؤنةِ وطولِ التعبِ وغيرِهِ ، فإذا فعلَ ذلكَ . . ربما انبعثَتْ مِنْ قلبِهِ رغبةٌ إلىٰ تحصيلِ الولدِ للثوابِ ، فتحرِّكُهُ تلكَ الرغبةُ ، وتتحرَّكُ أعضاؤُهُ لمباشرةِ العقدِ ، فإذا انتهضَتِ القدرةُ المحرِّكةُ للسانِ بقبولِ العقدِ طاعةً لهٰذا الباعثِ الغالبِ على القلبِ . . كانَ ناوياً ، فإنْ لمْ يكنْ كذلكَ . . فما يقدِّرُهُ في نفسِهِ ويردِّدُهُ في قلبِهِ مِنْ قصدِ الولدِ وسواسٌ وهذيانٌ[1] .

---

(١) وكذا كل غرض شرعي ورد الشرع بفضله وله صوارف من جهة النفس والهوىٰ ، كمن دخل في صوم نفل ثم أمره أبواه أو أحد إخوانه بالإفطار ، فأراد أن يفطر لإدخال السرور علىٰ قلب الوالدين ، فما دامت شهوة الطعام تزاحمه . . لا تصح نيته ، فإن أفطر لاعتقاده أنه عامل لله . . فعلامة صحتها : تصغير اللقمة ، وقصر اليد ، وعدم الشره في =

ولهٰذا امتنعَ جماعةٌ مِنَ السلفِ مِنْ جملةٍ مِنَ الطاعاتِ ؛ إذْ لمْ تحضرْهُمُ النيةُ ، فكانوا يقولونَ : ليسَ تحضرُنا فيهِ نيةٌ ، حتىٰ إنَّ ابنَ سيرينَ لمْ يصلِّ علىٰ جنازةِ الحسنِ البصريِّ ، وقالَ : ليسَ تحضرُني نيةٌ[1] .

ونادىٰ بعضُهُمُ امرأتَهُ ـ وكانَ يسرِّحُ شعرَهُ ـ أنْ هاتِ المِدْرَىٰ[2] ، فقالَتْ : أجيءُ بالمرآةِ ؟ فسكتَ ساعةً ثمَّ قالَ : نعمْ ، فقيلَ لهُ في ذلكَ ، فقالَ : كانَ لي في المِدْرىٰ نيةٌ ، ولم تحضرْني في المرآةِ نيةٌ ، فتوقفتُ حتىٰ هيَّأَها اللهُ تعالىٰ[3] .

وماتَ حمادُ بنُ أبي سليمانَ ، وكانَ أحدَ علماءِ أهلِ الكوفةِ ، فقيلَ للثوريِّ : ألا تشهدُ جنازتَهُ ؟

فقالَ : لوْ كانَ لي نيةٌ . . لفعلتُ[4] .

وكانوا إذا سئلوا عملاً مِنْ أعمالِ البرِّ . . قالوا : إنْ رزقَنا اللهُ تعالىٰ نيةً . . فعلنا[5] .

= الباطن ، والقيام قبل الشبع ، وما من حالة من الحالات إلا ويتقدمها أسباب يكتسب بها ، وتتأخر عنها علامات يعرف بها صحتها ، فليطلب علم كل حال من موضعه . « إتحاف » (١٠/ ٣٠) .

(١) كذا في « القوت » (٢/ ١٥٢) ، وبنحوه رواه أحمد في « العلل » (٢٧٤٨) .

(٢) المدرىٰ : قرن علىٰ هيئة المُشط يُسرَّح به الشعر .

(٣) قوت القلوب (٢/ ١٦٣) .

(٤) قوت القلوب (٢/ ١٥٢) .

(٥) قوت القلوب (٢/ ١٥٢) .

وكانَ طاووسٌ لا يحدِّثُ إلا بنيةٍ ، وكانَ يُسألُ أنْ يحدِّثَ فلا يحدِّثُ ، ولا يُسألُ فيبتدىءُ فقيلَ لهُ في ذلكَ ، قالَ : أفتحبونَ أنْ أحدِّثَ بغيرِ نيةٍ ؟ إذا حضرَتْني نيةٌ . . فعلتُ[1] .

وحُكِيَ أنَّ داوودَ بنَ المحبَّرِ لمَّا صنَّفَ كتابَ « العقلِ » . . جاءَهُ أحمدُ ابنُ حنبلٍ ، فطلبَهُ منهُ ، فنظرَ فيهِ أحمدُ صفْحاً[2] ، فردَّهُ ، فقالَ : ما لكَ ؟ قالَ : فيهِ أسانيدُ ضعافٌ ، فقالَ لهُ داوودُ : أنا لمْ أخرِّجْهُ على الأسانيدِ فأنظرَ فيهِ بعينِ الخُبْرِ[3] ، إنَّما نظرتُ فيهِ بعينِ العملِ فانتفعتُ ، قالَ أحمدُ : فردُّهُ عليَّ حتىٰ أنظرَ فيهِ بالعينِ التي نظرتَ ، فأخذَهُ ومكثَ عندَهُ طويلاً ، ثمَّ قالَ : جزاكَ اللهُ خيراً ، فقدِ انتفعتُ بهِ[4] .

وقيلَ لطاووسٍ : ادعُ لنا ، فقالَ : حتىٰ أجدَ لهُ نيةً[5] .

وقالَ بعضُهُمْ : (أنا في طلبِ نيةٍ لعيادةِ رجلٍ منذُ شهرٍ ، فما صحَّتْ لي بعدُ) .

---

(١) رواه الرامهرمزي في « المحدث الفاصل » (ص٥٨٤) .

(٢) قلَّب أوراقه ونظر فيها دون تأمُّل .

(٣) أي : مختبراً له .

(٤) قوت القلوب (٢/ ١٥٢) ، وداوود مع اتفاق أهل صنعة الحديث علىٰ تركه لم يكن مطعون الديانة ، ونقل الحافظ ابن حجر في « تهذيب التهذيب » (١/ ٥٧٠) عن ابن معين قوله : (ليس بكذاب ، وقد كتبت عن أبيه المحبَّر ، وكان داوود ثقة ، ولكنه جفا الحديث ، وكان يتنسَّك) .

(٥) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٩) .

وقالَ عيسىٰ بنُ كثيرٍ : مشيتُ معَ ميمونِ بنِ مهرانَ ، فلمَّا انتهىٰ إلىٰ بابِ دارِهِ . . انصرفتُ ، فقالَ لهُ ابنُهُ : ألا تعرضُ عليهِ العشاءَ ؟ قالَ : ليسَ مِنْ نيتي[1] .

وهٰذا لأنَّ النيةَ تتبعُ النظرَ ، فإذا تغيَّرَ النظرُ . . تغيَّرتِ النيَّةُ ، وكانوا لا يرونَ أنْ يعملوا عملاً إلا بنيةٍ ؛ لعلمِهِمْ بأنَّ النيةَ روحُ الأعمالِ ، وأنَّ العملَ بغيرِ نيةٍ صادقةٍ رياءٌ وتكلُّفٌ ، وهوَ سببُ مقتٍ لا سببُ قربٍ ، وعلموا أنَّ النيةَ ليسَتْ هيَ قولَ القائلِ بلسانِهِ : نويتُ ، بلْ هوَ انبعاثُ القلبِ يجري مجرى الفتوحِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، فقدْ تتيسَّرُ في بعضِ الأوقاتِ ، وقدْ تتعذَّرُ في بعضِها .

نعمْ ، مَنْ كانَ الغالبُ علىٰ قلبِهِ أمرَ الدينِ . . تيسَّرَ عليهِ في أكثرِ الأحوالِ إحضارُ النيةِ للخيراتِ ، فإنَّ قلبَهُ مائلٌ بالجملةِ إلىٰ أصلِ الخيرِ ، فينبعثُ إلى التفاصيلِ غالباً ، ومَنْ مالَ قلبُهُ إلى الدنيا وغلبَتْ عليهِ . . لمْ يتيسَّرْ لهُ ذلكَ ، بلْ لا يتيسَّرُ لهُ في الفرائضِ إلا بجهدٍ جهيدٍ ، وغايتُهُ أنْ يتذكَّرَ النارَ ويحذِّرَ نفسَهُ عقابَها ، أوْ نعيمَ الجنَّةِ ويرغِّبَ نفسَهُ فيها ، فربما تنبعثُ لهُ داعيةٌ ضعيفةٌ ، فيكونُ ثوابُهُ بقدْرِ رغبتِهِ ونيتِهِ .

وأمَّا الطاعةُ علىٰ نيةِ إجلالِ اللهِ تعالىٰ لاستحقاقِهِ الطاعةَ والعبوديةَ . . فلا

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥٠٨) .

تتيسَّرُ للراغبِ في الدنيا ، وهٰذهِ أعزُّ النياتِ وأعلاها ، ويعزُّ علىٰ بسيطِ الأرضِ مَنْ يفهمُها فضلاً عمَّنْ يتعاطاها .

ونيَّاتُ الناسِ في الطاعاتِ أقسامٌ ؛ إذْ منهُمْ مَنْ يكونُ عملُهُ إجابةً لباعثِ الخوفِ ، فإنَّهُ يتقي النارَ ، ومنهُمْ مَنْ يعملُ إجابةً لباعثِ الرجاءِ ، وهوَ الرغبةُ في الجنةِ ، وهٰذا وإنْ كانَ نازلاً بالإضافةِ إلىٰ قصدِ طاعةِ اللهِ وتعظيمِهِ لذاتِهِ ولجلالِهِ لا لأمرٍ سواهُ.. فهوَ مِنْ جملةِ النياتِ الصحيحةِ ؛ لأنَّهُ ميلٌ إلى الموعودِ في الآخرةِ وإنْ كانَ مِنْ جنسِ المألوفاتِ في الدنيا ، وأغلبُ البواعثِ باعثُ الفرجِ والبطنِ ، وموضعُ قضاءِ وطرِهِما الجنةُ ، فالعاملُ لأجلِ الجنةِ عاملٌ لبطنِهِ وفرجِهِ ؛ كالأجيرِ السوءِ ، ودرجتُهُ درجةُ البُلْهِ ، وإنَّهُ لينالُها بعملِهِ ؛ إذْ أكثرُ أهلِ الجنةِ البُلْهُ .

وأمَّا عبادةُ ذوي الألبابِ.. فلا تجاوزُ ذكرَ اللهِ تعالىٰ والفكرَ فيهِ ؛ حبّاً لجمالِهِ وجلالِهِ ، وسائرُ الأعمالِ تكونُ مؤكداتٍ وروادفَ ، وهؤلاءِ أرفعُ درجةً مِنَ الالتفاتِ إلى المنكوحِ والمطعومِ في الجنةِ ؛ فإنَّهُمْ لمْ يقصدُوها ، بلْ هُمُ الذينَ يدعونَ ربَّهُمْ بالغداةِ والعشيِّ يريدونَ وجهَهُ فقطْ ، وثوابُ الناسِ بقدْرِ نياتِهِمْ ، فلا جرمَ يتنعَّمونَ بالنظرِ إلىٰ وجهِهِ الكريمِ ، ويسخرونَ ممَّنْ يلتفتُ إلىٰ وجوهِ الحورِ العينِ كما يسخرُ المتنعِّمُ بالنظرِ إلى الحورِ العينِ ممَّنْ يتنعَّمُ بالنظرِ إلىٰ وجهِ الصورِ المصنوعةِ مِنَ الطينِ ، بلْ أشدُّ ، فإنَّ التفاوتَ بينَ جمالِ حضرةِ الربوبيَّةِ وجمالِ الحورِ العينِ أشدُّ وأعظمُ كثيراً مِنَ التفاوتِ بينَ جمالِ الحورِ العينِ والصورِ المصنوعةِ مِنَ الطينِ ، بلِ استعظامُ النفوسِ

البهيميةِ الشهوانيةِ لقضاءِ الوطرِ ومخالطةِ الحسانِ وإعراضُها عنْ جمالِ وجهِ اللهِ الكريمِ يضاهي استعظامَ الخنفساءِ لصاحبتِها وإلفَها لها وإعراضَها عنِ النظرِ إلىٰ جمالِ وجوهِ النساءِ ، فعمىٰ أكثرِ القلوبِ عنْ إبصارِ جمالِ اللهِ وجلالِهِ يضاهي عمى الخنفساءِ عنْ إدراكِ جمالِ النساءِ ؛ فإنَّها لا تشعرُ بهِ أصلاً ، ولا تلتفتُ إليهِ ، ولوْ كانَ لها عقلٌ وذُكِرْنَ لها . . لاستخفَّتْ عقلَ مَنْ يلتفتُ إليهِنَّ ، ولا يزالونَ مختلفينَ ، كلُّ حزبٍ بما لديهِمْ فرحونَ ، ولذلكَ خلقَهُمْ .

حُكِيَ أنَّ أحمدَ بنَ خضرويهِ رأىٰ ربَّهُ تعالىٰ في المنامِ ، فقالَ لهُ : كلُّ الناسِ يطلبونَ منِّي الجنةَ إلا أبا يزيدَ ، فإنَّهُ يطلبُني[1] .

ورأىٰ أبو يزيدَ ربَّهُ في المنامِ ، فقالَ : يا ربِّ ؛ كيفَ الطريقُ إليكَ ؟ فقالَ : اتركْ نفسَكَ وتعالَ إليَّ[1] .

ورُئِيَ الشبليُّ بعدَ موتِهِ في المنامِ ، فقيلَ لهُ : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ فقالَ : لمْ يطالبْني على الدعاوىٰ بالبرهانِ إلا علىٰ قولٍ واحدٍ ، قلتُ يوماً : أيُّ خسارةٍ أعظمُ مِنْ خسرانِ الجنةِ ؟ فقالَ : أيُّ خسارةٍ أعظمُ مِنْ خسرانِ لقائي ؟![2] .

والغرضُ أنَّ هـٰذهِ النيّاتِ متفاوتةٌ بتفاوتِ الدرجاتِ ، ومَنْ غلبَ علىٰ قلبِهِ واحدةٌ منها . . ربما لا يتيسَّرُ لهُ العدولُ إلىٰ غيرِها .

---

(١) أورده القشيري في « رسالته » (ص٦٠٨) .

(٢) أورده القشيري في « رسالته » (ص٦١٠) .

ومعرفةُ هـٰذهِ الحقائقِ تورثُ أعمالاً وأفعالاً يستنكرُها الظاهريونَ مِنَ الفقهاءِ ، فإنَّا نقولُ : مَنْ حضرَتْ لهُ نيةٌ في مباحٍ ، ولمْ تحضرْ في فضيلةٍ . . فالمباحُ أولىٰ ، وانتقلَتِ الفضيلةُ إليهِ[1] ، وصارَتِ الفضيلةُ في حقِّهِ نقيصةً ؛ لأنَّ الأعمالَ بالنياتِ ، وذلكَ مثلُ العفوِ ، فإنَّهُ أفضلُ مِنَ الانتصارِ في الظلمِ ، وربما تحضرُهُ نيةٌ في الانتصارِ دونَ العفوِ ، فيكونُ ذلكَ أفضلَ .

ومثلُ أنْ يكونَ لهُ نيةٌ في الأكلِ والشربِ والنومِ ليريحَ نفسَهُ ويتقوَّىٰ على العبادةِ في المستقبلِ ، وليسَ تنبعثُ نيتُهُ في الحالِ للصومِ والصلاةِ ، فالأكلُ والنومُ هوَ الأفضلُ لهُ ، بلْ لوْ ملَّ العبادةَ لمواظبتِهِ عليها ، وسكنَ نشاطُهُ ، وضعفَتْ رغبتُهُ ، وعلمَ أنَّهُ لوْ ترفَّهَ ساعةً بلهوٍ وحديثٍ عادَ نشاطُهُ . . فاللهوُ والحديثُ أفضلُ لهُ مِنَ الصلاةِ ، قالَ أبو الدرداءِ : (إنِّي لأستجمُّ نفسي بشيءٍ من اللهوِ ، فيكونُ ذلكَ عوناً لي على الحقِّ)[2] .

وقالَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ : (روِّحوا القلوبَ ، فإنَّها إذا أُكرهَتْ . . عميَتْ)[3] .

وهـٰذهِ دقائقُ لا يدركُها إلا سماسرةُ العلماءِ ، دونَ الحشْويةِ منهُمْ ، بلِ

---

(١) أي : انتقل المعنىٰ فصار المباح هو الفضيلة . « إتحاف » (١٠/ ٣٣) .

(٢) أورده ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٦/ ٥٠١) ، والسياق عند صاحب « القوت » (٢/ ١٥٣) .

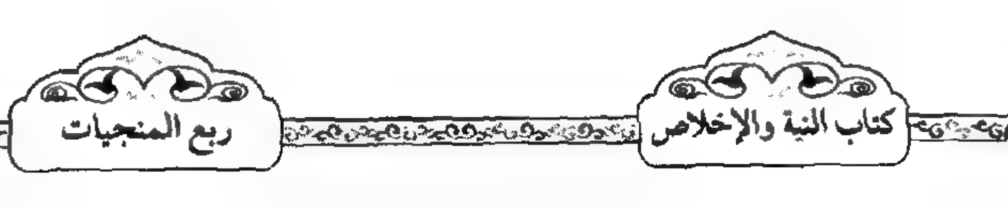
(٣) رواه الخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٧١٩) ، والخطيب في « الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع » (٢/ ١٨٣) بنحوه .

الحاذقُ بالطبِّ قدْ يعالجُ المحرورَ باللحمِ معَ حرارتِهِ ، ويستبعدُهُ القاصرُ في الطبِّ ، وإنَّما يبتغي بهِ أنْ يعيدَ أوَّلاً قوَّتَهُ ليحتملَ المعالجةَ بالضدِّ ، والحاذقُ في لعبِ الشطرنجِ مثلاً قدْ ينزلُ عنِ الرُّخِّ والفرسِ مجاناً ليتوصَّلَ بذلكَ إلى الغلبةِ ، والضعيفُ البصيرةِ قدْ يضحكُ بهِ ، ويتعجَّبُ منهُ ، وكذلكَ الخبيرُ بالقتالِ قدْ يفرُّ بينَ يدي قرينِهِ ، ويولِّيهِ دبرَهُ حيلةً منهُ ؛ ليستجرَّهُ إلىٰ مضيقٍ فيكرَّ عليهِ فيقهرَهُ .

فكذلكَ سلوكُ طريقِ اللهِ تعالىٰ كلُّهُ قتالٌ معَ الشيطانِ ، ومعالجةٌ للقلبِ ، والبصيرُ الموفَّقُ يقفُ فيها علىٰ لطائفَ مِنَ الحيلِ يستبعدُها الضعفاءُ ، فلا ينبغي للمريدِ أنْ يضمرَ إنكاراً علىٰ ما يراهُ مِنْ شيخِهِ ، ولا للمتعلِّمِ أنْ يعترضَ علىٰ أستاذِهِ ، بلْ ينبغي أنْ يقفَ عندَ حدِّ بصيرتِهِ ، وما لا يفهمُهُ مِنْ أحوالِهِما يسلِّمُهُ لهما إلىٰ أنْ ينكشفَ لهُ أسرارُ ذلكَ ؛ بأنْ يبلغَ رتبتَهُما ، وينالَ درجتَهُما ، ومنَ اللهِ حسنُ التوفيقِ[1] .

* * *

(١) أتى الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (١٠/ ٣٤) علىٰ مزيد من تفصيل القول في النية معتمداً على « القوت » ، و« شرح التقريب » للحافظ العراقي ، و« إدراك الأمنية في النية » للشهاب القرافي ، و« منتهى الآمال » للسيوطي .



الباب الثاني
في الإخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته

فضيلة الإخلاص

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ .

وقالَ : ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴾ ، نزلَتْ فيمَنْ يعملُ للهِ ويحبُّ أنْ يُحمدَ عليهِ[1] .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثٌ لا يَغِلُّ عليهنَّ قلبُ رجلٍ مسلمٍ : إخلاصُ العملِ للهِ . . . » الحديث[2] .

وعنْ مصعبِ بنِ سعدٍ عنْ أبيهِ قالَ : ظنَّ أبي أنَّ لهُ فضلاً علىٰ مَنْ دونَهُ مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ النبيُّ عليهِ الصلاةُ

---

(١) روىٰ ذلك الحاكم في « المستدرك » (٢/ ١١١) .

(٢) رواه الترمذي (٢٦٥٨) ، ويَغِلّ : هو من الغِلّ ؛ الضغينة والحقد ، ويروىٰ : يُغِلُّ ؛ من الخيانة ، ويروىٰ : يَغِلُ بالتخفيف ؛ من وَغَل وغولاً ، دخل في الشرّ .

والسلامُ : « إنَّما نصرَ اللهُ عزَّ وجلَّ هٰذهِ الأمَّةَ بضعفائِها ودعوتِهِمْ وإخلاصِهِمْ وصلاتِهِمْ »[1] .

وعنِ الحسنِ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يقولُ اللهُ تعالىٰ : الإخلاصُ سرٌّ مِنْ سرِّي ، استودعتُهُ قلبَ مَنْ أحببتُ مِنْ عبادي »[2] .

وقالَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ : لا تهتمُّوا لقلةِ العملِ ، واهتمُّوا للقبولِ ؛ فإنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ لمعاذِ بنِ جبلٍ : « أخلصِ العملَ . . يجزِئْكَ منهُ القليلُ »[3] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « ما مِنْ عبدٍ يخلصُ العملَ للهِ أربعينَ يوماً

---

(1) رواه النسائي (٦/ ٤٥) ، وهو عند البخاري (٢٨٩٦) بلفظ : « هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم » ، وبتمام لفظ المصنف رواه الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٧٩) ، وأبو مصعب هو سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

(2) كذا عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٧٩) عن الحسن مرسلاً ، ورواه القشيري في « رسالته » (ص٣٦٠) مسنداً مسلسلاً بالسؤال عن الإخلاص عن الحسن عن حذيفة رضي الله عنه ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٤٥١٣) من حديث علي وابن عباس رضي الله عنهم .

(3) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٨٢) بتمامه ، وحديث معاذ رضي الله عنه رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٦١٦٢) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣٠٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٤٤) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٤٤٣) بلفظ : « أخلص دينك . . يكفك القليل من العمل » .

إلا ظهرَتْ ينابيعُ الحكمةِ مِنْ قلبِهِ علىٰ لسانِهِ »[1] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « أوَّلُ مَنْ يُسألُ يومَ القيامةِ ثلاثةٌ : رجلٌ آتاهُ اللهُ العلمَ ، فيقولُ اللهُ تعالىٰ : ماذا صنعتَ فيما علمتَ ؟ فيقولُ : يا ربِّ ؛ كنتُ أقومُ بهِ آناءَ الليلِ وأطرافَ النهارِ ، فيقولُ اللهُ تعالىٰ : كذبتَ ، وتقولُ الملائكةُ : كذبتَ ، بلْ أردتَ أنْ يُقالَ : فلانٌ عالمٌ ، ألا فقدْ قيلَ ذلكَ ، ورجلٌ آتاهُ اللهُ مالاً ، فيقولُ اللهُ تعالىٰ : لقدْ أنعمتُ عليكَ ، فماذا صنعتَ ؟ فيقولُ : يا ربِّ ؛ كنتُ أتصدَّقُ بهِ آناءَ الليلِ وأطرافَ النهارِ ، فيقولُ اللهُ تعالىٰ : كذبتَ ، وتقولُ الملائكةُ : كذبتَ ، بلْ أردتَ أنْ يُقالَ : فلانٌ جوادٌ ، ألا فقدْ قيلَ ذلكَ ، ورجلٌ قُتِلَ في سبيلِ اللهِ تعالىٰ ، فيقولُ اللهُ تعالىٰ : ماذا صنعتَ ؟ فيقولُ : يا ربِّ ؛ أُمرتَ بالجهادِ ، فقاتلتُ حتىٰ قُتلتُ ، فيقولُ اللهُ تعالىٰ : كذبتَ ، وتقولُ الملائكةُ : كذبتَ ، بلْ أردتَ أنْ يُقالَ : فلانٌ شجاعٌ ، ألا فقدْ قيلَ ذلكَ » ، قالَ أبو هريرةَ : ثمَّ خطَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ فخذي وقالَ : « يا أبا هريرةَ ؛ أولئكَ أوَّلُ خلقٍ تُسعرُ بهِمْ نارُ جهنَّمَ يومَ القيامةِ » ، فدخلَ راوي الحديثِ علىٰ معاويةَ[2] ، وروىٰ لهُ ذلكَ ، فبكىٰ حتَّىٰ كادَتْ نفسُهُ تزهقُ ، ثمَّ قالَ :

---

(١) كذا عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٨٥) ، ورواه القشيري في « رسالته » (ص٣٦٣) من قول مكحول .

(٢) وهو شُفَيٌّ الأصبحي .

صدقَ اللهُ إذْ قالَ : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا . . . ﴾ الآيَةَ[1] .

وفي الإسرائيليات : أنَّ عابداً كانَ يعبدُ اللهَ عزَّ وجلَّ دهراً طويلاً ، فجاءَهُ قومٌ فقالوا : إنَّ هاهنا قوماً يعبدونَ شجرةً مِنْ دونِ اللهِ تعالىٰ ، فغضبَ لذلكَ ، وأخذَ فأسَهُ علىٰ عاتقِهِ ، وقصدَ الشجرةَ ليقطعَها ، فاستقبلَهُ إبليسُ في صورةِ شيخٍ ، فقالَ : أينَ تريدُ رحمَكَ اللهُ ؟ قالَ : أريدُ أنْ أقطعَ هاذهِ الشجرةَ ، قالَ : وما أنتَ وذاكَ ، تركتَ عبادتَكَ واشتغالَكَ بنفسِكَ وتفرَّغتَ لغيرِ ذلكَ ، فقالَ : إنَّ هاذا مِنْ عبادتي ، قالَ : فإنِّي لا أتركُكَ أنْ تقطعَها ، فقاتلَهُ ، فأخذَهُ العابدُ فطرحَهُ إلى الأرضِ وقعدَ علىٰ صدرِهِ ، فقالَ لهُ إبليسُ : أطلقْني حتَّىٰ أكلِّمَكَ ، فقامَ عنهُ ، فقالَ لهُ إبليسُ : يا هاذا ؛ إنَّ اللهَ تعالىٰ قدْ أسقطَ عنكَ هاذا ولمْ يفرضْهُ عليكَ ، وما تعبدُها أنتَ ، وما عليكَ مِنْ غيرِكَ ، وللهِ تعالىٰ أنبياءُ في أقاليمِ الأرضِ ، ولوْ شاءَ . . لبعثَهُمْ إلىٰ أهلِها وأمرَهُمْ بقطعِها ، فقالَ العابدُ : لا بدَّ لي مِنْ قطعِها ، فنابذَهُ القتالَ ، فغلبَهُ العابدُ وصرعَهُ ، وقعدَ علىٰ صدرِهِ ، فعجزَ إبليسُ ، فقالَ لهُ : هلْ لكَ في أمرٍ فصْلٍ بيني وبينَكَ ، وهوَ خيرٌ لكَ وأنفعُ ؟ قالَ : وما هوَ ؟ قالَ : أطلقْني حتَّىٰ أقولَ لكَ ، فأطلقَهُ ، فقالَ لهُ إبليسُ : أنتَ رجلٌ فقيرٌ لا شيءَ لكَ ، إنَّما أنتَ كَلٌّ على الناسِ يعولونَكَ ، ولعلَّكَ تحبُّ أنْ تتفضَّلَ علىٰ إخوانِكَ ، وتواسيَ جيرانَكَ ، وتشبعَ وتستغنيَ عنِ الناسِ ، قالَ : نعمْ ،

---

(1) الخبر بتمامه هنا رواه البغوي في « شرح السنة » (٤١٤٢) ، والمرفوع رواه مسلم (١٩٠٥) ، والترمذي (٢٣٨٢) .

قالَ : فارجعْ عنْ هـٰذا الأمرِ ولكَ عليَّ أنْ أجعلَ عندَ رأسِكَ في كلِّ ليلةٍ دينارينِ ، إذا أصبحتَ . . أخذتَهما فأنفقتَ علىٰ نفسِكَ وعيالِكَ ، وتصدقتَ علىٰ إخوانِكَ ، فيكونُ ذلكَ أنفعَ لكَ وللمسلمينَ مِنْ قطعِ هـٰذهِ الشجرةِ التي يُغرسُ مكانُها ولا يضرُّهُمْ قطعُها شيئاً ، ولا ينفعُ إخوانَكَ المؤمنينَ قطعُكَ إيَّاها ، فتفكَّرَ العابدُ فيما قالَ ، وقالَ : صدقَ الشيخُ ، لستُ بنبيٍّ فيلزمَني قطعُ هـٰذهِ الشجرةِ ، ولا أمرني اللهُ أنْ أقطعَها فأكونَ عاصياً بتركِها ، وما ذكرَهُ أكثرُ منفعةً ، فعاهدَهُ على الوفاءِ بذلكَ ، وحلفَ لهُ ، فرجعَ العابدُ إلىٰ متعبَّدِهِ فباتَ ، فلمَّا أصبحَ رأىٰ دينارينِ عندَ رأسِهِ ، فأخذَهُما ، وكذلكَ الغدُ ، ثمَّ أصبحَ اليومَ الثالثَ وما بعدَهُ فلمْ يرَ شيئاً ، فغضبَ وأخذَ فأسَهُ علىٰ عاتقِهِ ، فاستقبلَهُ إبليسُ في صورةِ شيخٍ ، فقالَ : إلىٰ أينَ ؟ قالَ : أقطعُ تلكَ الشجرةَ ، فقالَ : كذبتَ واللهِ ، ما أنتَ بقادرٍ علىٰ ذلكَ ، ولا سبيلَ لكَ إليها ، قالَ : فتناولَهُ العابدُ ليفعلَ بهِ كما فعلَ أوَّلَ مرَّةٍ ، فقالَ : هيهاتَ ! فأخذَهُ إبليسُ وصرعَهُ ، فإذا هوَ كالعصفورِ بينَ رجليهِ ، وقعدَ إبليسُ علىٰ صدرِهِ وقالَ : لتنتهينَّ عنْ هـٰذا الأمرِ أوْ لأذبحنَّكَ ، فنظرَ العابدُ ، فإذا لا طاقةَ لهُ بهِ ، قالَ : يا هـٰذا غلبتَني فخلِّ عنِّي ، وأخبرْني كيفَ غلبتُكَ أوّلاً وغلبتَني الآنَ ؟ فقالَ : لأنَّكَ غضبتَ أوّلَ مرَّةٍ للهِ ، وكانَتْ نيتُكَ الآخرةَ ، فسخَّرَني اللهُ لكَ ، وهـٰذهِ المرَّةَ غضبتَ لنفسِكَ وللدنيا فصرعتُكَ[1] .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٦٢) .

وهٰذهِ الحكايةُ تصديقُ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ ، إذْ لا يتخلَّصُ العبدُ مِنَ الشيطانِ إلا بالإخلاصِ .

ولذلكَ كانَ معروفٌ الكرخيُّ رحمهُ اللهُ تعالىٰ يضربُ نفسَهُ ويقولُ : (يا نفسُ ؛ أخلِصي وتخلَّصي)[1] .

وقالَ أبو يعقوبَ المكفوفُ : (المخلصُ مَنْ يكتمُ حسناتِهِ كما يكتمُ سيئاتِهِ)[2] .

وقال أبو سليمانَ : (طوبىٰ لمَنْ صحَّتْ لهُ خطوةٌ واحدةٌ لا يريدُ بها إلا اللهَ تعالىٰ)[3] .

وكتبَ عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ إلىٰ أبي موسى الأشعريِّ : (مَنْ خلصَتْ نيتُهُ . . كفاهُ اللهُ تعالىٰ ما بينَهُ وبينَ الناسِ)[4] .

وكتبَ بعضُ الأولياءِ إلىٰ أخٍ لهُ : (أخلصِ النيةَ في أعمالِكَ . . يكفِكَ القليلُ مِنَ العملِ)[5] .

---

(١) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٨٥) ، ورواه ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (١/٢/١٩٤) .

(٢) أورده الثعلبي في « تفسيره » (٧/٢) وأبو يعقوب : هو يوسف بن أحمد البغدادي المكفوف أحد أصحاب ذي النون المصري ، كما جاء مصرحاً باسمه في أحد أسانيد أبي نعيم في « الحلية » (٩/٣٦٤) ، والله أعلم .

(٣) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (١٠/٤٧) .

(٤) رواه هناد في « الزهد » (٨٥٩)، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٥٩٦).

(٥) قوت القلوب (٢/١٥٩) وفيه : (وكتب بعض الأدباء) .

وقال أيوبُ السَّخْتياني : (تخليصُ النياتِ على العمَّالِ أشدُّ عليهم مِنْ جميعِ الأعمالِ)[1] .

وكانَ مطرِّفٌ يقولُ : (مَنْ صفا.. صُفِيَ لهُ ، ومَنْ خلَّطَ.. خُلِّطَ عليهِ)[2] .

ورُئِيَ بعضُهُمْ في المنامِ ، فقيلَ لهُ : كيفَ وجدتَ أعمالَكَ ؟ فقالَ : كلُّ شيءٍ عملتُهُ للهِ وجدتُهُ ، حتىٰ حبَّةِ رمانٍ لقطتُها مِنْ طريقٍ ، وحتىٰ هرَّةٍ ماتَتْ لنا فرأيتُها في كِفَّةِ الحسناتِ ، وكانَ في قلنسوتي خيطٌ مِنْ حريرٍ ، فرأيتُهُ في كِفَّةِ السيئاتِ ، وكانَ قدْ نفقَ حمارٌ لي قيمتُهُ مئةُ دينارٍ ، فما رأيتُ لهُ ثواباً ، فقلتُ : موتُ سِنَّورٍ في كِفَّةِ الحسناتِ ، وموتُ حمارٍ ليسَ فيها ! فقيلَ لي : إنَّهُ قدْ وُجِّهَ حيثُ بعثتَ بهِ ، فإنَّهُ لما قيلَ لكَ : قدْ ماتَ.. قلتَ : في لعنةِ اللهِ ، فبطلَ أجرُكَ فيهِ ، ولوْ قلتَ : في سبيلِ اللهِ.. لوجدتَهُ في حسناتِكَ[3] .

وفي روايةٍ : قالَ : وكنتُ قدْ تصدقتُ بصدقةٍ بينَ الناسِ ، فأعجبَني نظرُهُمْ إليَّ ، فوجدتُ ذلكَ لا عليَّ ولا لي ، قالَ سفيانُ لمَّا سمعَ هـٰذا : ما أحسنَ حالَهُ ! إذْ لمْ يكنْ عليهِ.. فقدْ أحسنَ إليهِ[4] .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٥٩) .
(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٧٤٠) .
(٣) قوت القلوب (٢/ ١٥١) .
(٤) قوت القلوب (٢/ ١٥٢) .

وقالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ : (الإخلاصُ يميزُ العملَ مِنَ العيوبِ كتمييزِ اللبنِ مِنَ الفرثِ والدمِ)[1] .

وقيلَ : كانَ رجلٌ يخرجُ في زيِّ النساءِ ويحضرُ كلَّ موضعٍ يجتمعُ فيهِ النساءُ مِنْ عرسٍ أوْ مأتمٍ ، فاتفقَ أنْ حضرَ يوماً موضعاً فيهِ مجمعٌ للنساءِ ، فسُرِقَتْ دُرَّةٌ ، فصاحوا أن أغلقوا البابَ حتىٰ نفتِّشَ ، فكانوا يفتشونَ واحدةً واحدةً ، حتىٰ بلغَتِ النوبةُ إليهِ وإلى امرأةٍ معَهُ ، فدعا اللهَ تعالىٰ بالإخلاصِ وقالَ : إنْ نجوتُ مِنْ هـٰذهِ الفضيحةِ . . لا أعودُ إلىٰ مثلِ هـٰذا ، فوُجدَتِ الدرَّةُ معَ تلكَ المرأةِ ، فصاحوا أنْ أطلقوا الحرَّةَ ؛ فقد وجدنا الدُّرَّةَ[2] .

وقالَ بعضُ الصوفيةِ : كنتُ قائماً معَ أبي عبيدٍ البُسْريِّ وهوَ يحرثُ أرضَهُ بعدَ العصرِ مِنْ يومِ عرفةَ ، فمرَّ بهِ بعضُ إخوانِهِ مِنَ الأبدالِ ، فسارَّهُ بشيءٍ ، فقالَ أبو عبيدٍ : لا ، فمرَّ كالسحابِ يمسحُ الأرضَ حتىٰ غابَ عنْ عيني ، فقلتُ لأبي عبيدٍ : ما قالَ لكَ ؟ فقالَ : سألَني أنْ أحجَّ معَهُ ، فقلتُ : لا ، قلتُ : فهلا فعلتَ ، قالَ : ليسَ لي في الحجِّ نيةٌ ، وقدْ نويتُ أنْ أتمِّمَ هـٰذهِ الأرضَ العشيةَ ، فأخافُ إنْ حججتُ معَهُ لأجلِهِ . . تعرضتُ لمقتِ اللهِ تعالىٰ ؛ لأنِّي أدخلُ في عملِ اللهِ تعالىٰ شيئاً غيرَهُ ،

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٨٠) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٨٠) .

فيكونُ ما أنا فيهِ أعظمَ عندي مِنْ سبعينَ حجةً[1] .

ويُروىٰ عنْ بعضِهِمْ قالَ : غزوتُ في البحرِ ، فعرضَ بعضُنا مخلاةً ، فقلتُ : أشتريها فأنتفعُ بها في غزوتي ، فإذا دخلتُ مدينةَ كذا.. بعتُها فربحتُ فيها ، فاشتريتُها ، فرأيتُ تلكَ الليلةَ في النومِ كأن شخصينِ قدْ نزلا مِنَ السماءِ فقالَ أحدُهُما لصاحبِهِ : اكتبِ الغزاةَ ، فأملىٰ عليهِ : خرجَ فلانٌ متنزِّهاً ، وفلانٌ مرائياً ، وفلانٌ تاجراً ، وفلانٌ في سبيلِ اللهِ ، ثمَّ نظرَ إليَّ وقالَ : اكتب خرجَ فلانٌ تاجراً ، فقلتُ : اللهَ اللهَ في أمري ، فواللهِ ؛ ما خرجتُ أتجرُ ، ولا معي تجارةٌ أتجرُ فيها ، ما خرجتُ إلا للغزوِ ، فقال لي : يا شيخُ ؛ قدِ اشتريتَ أمسِ مخلاةً تريدُ أنْ تربحَ فيها ، فبكيتُ وقلتُ : لا تكتبوني تاجراً ، فنظرَ إلىٰ صاحبِهِ وقال : ما ترى ؟ فقالَ : اكتبْ : خرج فلانٌ غازياً إلا أنَّهُ اشترىٰ في طريقِهِ مخلاةً ليربحَ فيها ، حتَّىٰ يحكمَ اللهُ عزَّ وجلَّ فيهِ بما يرىٰ[2] .

وقالَ سريٌّ السقطيُّ رحمهُ اللهُ تعالىٰ : (لأنْ تصليَ ركعتينِ في خلوةٍ تخلصُهُما خيرٌ لكَ مِنْ أنْ تكتبَ سبعينَ حديثاً أوْ سبعَ مئةٍ بعلوِ إسنادٍ)[3] .

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٥٢) ، ورواه مختصراً القشيري في « رسالته » (ص٩٠) ، والبُسْري : نسبة إلىٰ قرية بُصرىٰ بحوران ، وأبدلت الصاد بالسين ، انظر « الأنساب » (١/ ٣٥٠) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ١٥٥) .

(٣) قوت القلوب (٢/ ١٦٤) .

وقالَ بعضُهُمْ : (في إخلاصِ ساعةٍ نجاةُ الأبدِ ، ولكنِ الإخلاصُ عزيزٌ)[1] .

ويُقالُ : (العلمُ بذرٌ ، والعملُ زرعٌ ، وماؤُهُ الإخلاصُ)[2] .

وقالَ بعضُهُمْ : (إذا أبغضَ اللهُ عبداً . . أعطاهُ ثلاثاً ، ومنعَهُ ثلاثاً ، أعطاهُ صحبةَ الصالحينَ ، ومنعَهُ القبولَ منهُمْ ، وأعطاهُ الأعمالَ الصالحةَ ، ومنعَهُ الإخلاصَ فيها ، وأعطاهُ الحكمةَ ، ومنعَهُ الصدقَ فيها)[2] .

وقالَ السوسيُّ : (مرادُ اللهِ تعالىٰ مِنْ عملِ الخلقِ الإخلاصُ فقط)[2] .

وقالَ الجنيدُ : (إنَّ للهِ عباداً عقلوا ، فلمَّا عقلوا . . عملوا ، فلمَّا عملوا . . أخلصوا ، فاستدعاهمُ الإخلاصُ إلىٰ أبوابِ البرِّ أجمعَ)[2] .

وقالَ محمدُ بنُ سعيدٍ المروزيُّ : (الأمرُ كلُّهُ يرجعُ إلىٰ أصلينِ : فعلٌ منهُ بكَ ، وفعلٌ منكَ لهُ ، فترضىٰ ما فعلَ ، وتخلصُ فيما تعملُ ، فإذا أنتَ قدْ سعدتَ بهـٰذينِ . . فزتَ في الدارينِ)[3] .

* * *

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٨٣) .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٨٦) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٨٧) .

بيان حقيقة الإخلاص

اعلمْ : أنَّ كلَّ شيءٍ يُتصوَّرُ أنْ يشوبَهُ غيرُهُ ، فإذا صفا عنْ شوبِهِ وخلصَ عنهُ . . سُمِّيَ خالصاً ، ويُسمَّى الفعلُ المصفَّى المخلَصُ إخلاصاً ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ ، وإنَّما خلوصُ اللبنِ ألا يكونَ فيهِ شوبٌ مِنَ الدمِ والفرثِ ، ومِنْ كلِّ ما يمكنُ أنْ يمتزجَ بهِ .

والإخلاصُ يضادُّهُ الإشراكُ[1] ، فمَنْ ليسَ مخلصاً . . فهوَ مشركٌ ، إلا أنَّ للشركِ درجاتٍ ، فالإخلاصُ في التوحيدِ يضادُّهُ التشريكُ في الإلـٰهيةِ ، والشركُ منهُ خفيٌّ ومنهُ جليٌّ ، وكذا الإخلاصُ ، فالإخلاصُ وضدُّهُ يتواردانِ على القلبِ ، فمحلُّهُ القلبُ ، وإنَّما يكونُ ذلكَ في القصودِ والنياتِ ، وقدْ ذكرنا حقيقةَ النيةِ ، وأنَّها ترجعُ إلىٰ إجابةِ البواعثِ ، فمهما كانَ الباعثُ واحداً على التجرُّدِ . . سُمِّيَ الفعلُ الصادرُ عنهُ إخلاصاً بالإضافةِ إلى المنويِّ ، فمَنْ تصدَّقَ وغرضُهُ محضُ الرياءِ . . فهوَ مخلصٌ ، ومَنْ كانَ غرضُهُ محضَ التقرُّبِ إلى اللهِ تعالىٰ . . فهوَ مخلصٌ ، ولكنَّ العادةَ جاريةٌ بتخصيصِ اسمِ الإخلاصِ بتجريدِ قصدِ التقرُّبِ إلى اللهِ تعالىٰ عنْ جميعِ الشوائبِ ؛ كما أنَّ الإلحادَ عبارةٌ عنِ الميلِ ، ولكنْ خصَّصَتْهُ العادةُ بالميلِ عنِ الحقِّ .

---

(١) وهو أن يشترك باعثان . « إتحاف » (١٠/ ٤٩) .

ومَنْ كانَ باعثُهُ مجرَّدَ الرياءِ . . فهوَ معرَّضٌ للهلاكِ ، ولسنا نتكلَّمُ فيهِ ؛ إذْ قدْ ذكرنا ما يتعلَّقُ بهِ في كتابِ الرياءِ مِنْ ربعِ المهلكاتِ ، وأقلُّ أمورهِ ما وردَ في الخبرِ مِنْ أنَّ المرائيَ يُدعىٰ يومَ القيامةِ بأربعِ أسامٍ : يا مرائي ، يا مخادعُ ، يا مشركُ ، يا كافرُ[1] ، وإنَّما نتكلَّمُ الآنَ فيمَنِ انبعثَ لقصدِ التقرُّبِ ، ولكنِ امتزجَ بهـٰذا الباعثِ باعثٌ آخرُ ؛ إمَّا مِنَ الرياءِ ، أوْ مِنْ غيرهِ مِنْ حظوظِ النفسِ .

ومثالُ ذلكَ : أنْ يصومَ لينتفعَ بالحميةِ الحاصلةِ بالصومِ معَ قصدِ التقرُّبِ ، أوْ يعتقَ عبداً ليتخلَّصَ مِنْ مؤنتِهِ وسوءِ خُلُقِهِ ، أوْ يحجَّ ليصحَّ مزاجُهُ بحركةِ السفرِ ، أوْ ليتخلَّصَ مِنْ شرٍّ يعرضُ لهُ في بلدِهِ ، أوْ ليهربَ عنْ عدوٍّ لهُ في منزلِهِ ، أوْ يتبرَّمَ[2] بأهلِهِ وولدِهِ أوْ بشغلٍ هوَ فيهِ فأرادَ أنْ يستريحَ منهُ أياماً ، أوْ يغزوَ ليمارسَ الحربَ ويتعلَّمَ أسبابَهُ ويقدرَ بهِ علىٰ تهيئةِ العساكرِ وجرِّها ، أوْ يصلِّيَ بالليلِ ولهُ غرضٌ في دفعِ النعاسِ عنْ نفسِهِ بهِ ليراقبَ أهلَهُ أوْ رحلَهُ ، أوْ يتعلَّمَ العلمَ ليسهلَ عليهِ طلبُ ما يكفيهِ مِنَ المالِ ، أوْ ليكونَ عزيزاً بينَ العشيرةِ ، أوْ ليكونَ عقارُهُ ومالُهُ محروساً بعزِّ العلمِ عنِ الأطماعِ ، أوِ اشتغلَ بالدرسِ والوعظِ ليتخلَّصَ عنْ كربِ الصمتِ ويتفرَّجَ بلذَّةِ الحديثِ ، أوْ تكفَّلَ بخدمةِ العلماءِ أوِ الصوفيةِ لتكونَ حرمتُهُ

---

(١) رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٦٦١٩) بنحوه .
(٢) يتبرَّم : يملُّ ويضجر .

وافرةً عندَهُمْ وعندَ الناسِ ، أَوْ لينالَ بهِ رِفْقاً في الدنيا[1] ، أَوْ كتبَ مصحفاً ليجوِّدَ بالمواظبةِ على الكتابةِ خطَّهُ ، أَوْ حجَّ ماشياً ليخفِّفَ عنْ نفسِهِ الكراءَ ، أَوْ توضَّأَ ليتنظَّفَ أَوْ يتبرَّدَ ، أَوِ اغتسلَ لتطيبَ رائحتُهُ ، أَوْ روى الحديثَ ليُعرفَ بعلوِّ الإسنادِ ، أَوِ اعتكفَ في المسجدِ ليخفِّفَ عليهِ كراءَ المسكنِ ، أَوْ صامَ ليخفِّفَ عنْ نفسِهِ التردُّدَ في طبخِ الطعامِ أَوْ ليتفرَّغَ لأشغالِهِ فلا يشغلَهُ الأكلُ عنها ، أَوْ تصدَّقَ على السائلِ ليقطعَ إبرامَهُ في السؤالِ عنْ نفسِهِ ، أَوْ يعودَ مريضاً ليُعادَ إذا مرضَ ، أَوْ يشيِّعَ جنازةً لتُشيَّعَ جنائزُ أهلِهِ ، أَوْ يفعلَ شيئاً مِنْ ذلكَ ليُعرفَ بالخيرِ ويُذكرَ بهِ ويُنظرَ إليهِ بعينِ الصلاحِ والوقارِ .

فمهما كانَ باعثُهُ هوَ التقرُّبَ إلى اللهِ تعالىٰ ، ولكنِ انضافَ إليهِ خطرةٌ مِنْ هٰذهِ الخطراتِ حتىٰ صارَ العملُ أخفَّ عليهِ بسببِ هٰذهِ الأمورِ . . فقدْ خرجَ عملُهُ عنْ حدِّ الإخلاصِ ، وخرجَ عنْ أَنْ يكونَ خالصاً لوجهِ اللهِ تعالىٰ ، وتطرَّقَ الشركُ إليهِ ، وقدْ قالَ تعالىٰ : « أنا أغنى الشركاءِ عنِ الشركِ »[2] .

وبالجملةِ : كلُّ حظٍّ مِنْ حظوظِ الدنيا تستريحُ إليهِ النفسُ ، ويميلُ إليهِ القلبُ، قلَّ أمْ كثُرَ، إذا تطرَّقَ إلى العملِ . . تكدَّرَ بهِ صفوُهُ ، وزالَ بهِ إخلاصُهُ .

والإنسانُ مرتبطٌ في حظوظِهِ ، منغمسٌ في شهواتِهِ ، قلَّما ينفكُّ فعلٌ مِنْ أفعالِهِ وعبادةٌ مِنْ عباداتِهِ عنْ حظوظٍ وأغراضٍ عاجلةٍ مِنْ هٰذهِ الأجناسِ ، فلذلكَ قيلَ : (مَنْ سلمَ لهُ في عمرِهِ خطوةٌ واحدةٌ خالصةٌ لوجهِ اللهِ تعالىٰ . .

---

(١) الرِّفْق هنا : اسم لما يستعان به من مال أو متاع ونحوه .

(٢) رواه مسلم (٢٩٨٥) ، وابن ماجه(٤٢٠٢) .

نجا)[1] ، وذلكَ لعزَّةِ الإخلاصِ ، وعسْرِ تنقيةِ القلبِ عنْ هٰذهِ الشوائبِ ، بلِ الخالصُ هوَ الذي لا باعثَ عليهِ إلا طلبُ القرْبِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وهٰذهِ الحظوظُ إنْ كانَتْ هيَ الباعثةَ وحدَها . . فلا يخفىٰ شدَّةُ الأمرِ علىٰ صاحبِهِ فيها ، وإنَّما نظرُنا فيما إذا كانَ القصدُ الأصليُّ هوَ التقرُّبَ وانضافَتْ إليهِ هٰذهِ الأمورُ ، ثمَّ هٰذهِ الشوائبُ إمَّا أنْ تكونَ في رتبةِ الموافقةِ ، أوْ في رتبةِ المشاركةِ ، أوْ في رتبةِ المعاونةِ كما سبقَ في بيانِ النيةِ .

وبالجملةِ : فإمَّا أنْ يكونَ الباعثُ النفسيُّ مثلَ الباعثِ الدينيِّ ، أوْ أقوىٰ منهُ ، أوْ أضعفَ ، ولكلٍّ واحدٍ حكمٌ آخرُ كما سنذكرُهُ ، وإنَّما الإخلاصُ تخليصُ العملِ عنْ هٰذهِ الشوائبِ كلِّها ، قليلِها وكثيرِها ؛ حتىٰ يتجرَّدَ فيهِ قصدُ التقرُّبِ ، فلا يكونُ فيهِ باعثٌ سواهُ .

وهٰذا لا يُتصوَّرُ إلا مِنْ محبٍّ للهِ تعالىٰ مستهترٍ بهِ ، مستغرقِ الهمِّ بالآخرةِ ، بحيثُ لمْ يبقَ لحبِّ الدنيا في قلبِهِ قرارٌ ، حتىٰ لا يحبَّ الأكلَ والشربَ أيضاً ، بلْ تكونُ رغبتُهُ فيهِ كرغبتِهِ في قضاءِ الحاجةِ مِنْ حيثُ إنَّهُ ضرورةُ الجبلةِ ، فلا يشتهي الطعامَ لأنَّهُ طعامٌ ، بلْ لأنَّهُ يقوِّيهِ علىٰ عبادةِ اللهِ تعالىٰ ، ويتمنَّىٰ أنْ لوْ كُفيَ شرَّ الجوعِ ؛ حتىٰ لا يحتاجَ إلى الأكلِ ، فلا يبقىٰ في قلبِهِ حظٌّ مِنَ الفضولِ الزائدةِ على الضرورةِ ، ويكونُ قدْرُ الضرورةِ مطلوباً عندَهُ ؛ لأنَّهُ ضرورةُ دينِهِ ، فلا يكونُ لهُ همٌّ إلا اللهَ تعالىٰ .

---

(١) تقدم قريباً بنحوه قولُ أبي سليمان ، وهو : (طوبىٰ لمن صحت له خطوة واحدة لا يريد بها إلا الله تعالىٰ) .

فمثلُ هـٰذا الشخصِ لوْ أكلَ أوْ شربَ أوْ قضىٰ حاجتَهُ . . كانَ خالصَ العملِ صحيحَ النيةِ في جميعِ حركاتِهِ وسكناتِهِ ، فلوْ نامَ مثلاً ليريحَ نفسَهُ فيتقوَّىٰ على العبادةِ بعدَهُ . . كانَ نومُهُ عبادةً ، وكانَ لهُ درجةُ المخلصينَ فيهِ ، ومَنْ ليسَ كذلكَ . . فبابُ الإخلاصِ في الأعمالِ كالمسدودِ عليهِ إلا على الندورِ ، وكما أنَّ مَنْ غلبَ عليهِ حبُّ اللهِ وحبُّ الآخرةِ ، فاكتسبَتْ حركاتُهُ الاعتياديَّةُ صفةَ همِّهِ وصارَتْ إخلاصاً . . فالذي يغلبُ علىٰ نفسِهِ حبُّ الدنيا والعلوُّ والرئاسةُ ، وبالجملةِ : غيرُ اللهِ تعالىٰ . . فقدِ اكتسبَتْ جميعُ حركاتِهِ تلكَ الصفةَ ، فلا تسلمُ لهُ عباداتُهُ مِنْ صومٍ وصلاةٍ وغيرِ ذلكَ إلا نادراً .

فإذاً ؛ علاجُ الإخلاصِ كسرُ حظوظِ النفسِ ، وقطعُ الطمعِ عنِ الدنيا ، والتجرُّدُ للآخرةِ ؛ بحيثُ يغلبُ ذلكَ على القلبِ ، فإذْ ذاكَ يتيسَّرُ الإخلاصُ .

وكَمْ مِنْ أعمالٍ يتعبُ الإنسانُ فيها ويظنُّ أنَّها خالصةٌ لوجهِ اللهِ تعالىٰ ، ويكونُ فيها مغروراً ؛ لأنَّهُ لا يدري وجهَ الآفةِ فيها ؛ كما حُكِيَ عنْ بعضِهِمْ أنَّهُ قالَ : (قضيتُ صلاةَ ثلاثينَ سنةً كنتُ صلَّيتُها في المسجدِ في الصفِّ الأوَّلِ ؛ لأنِّي تأخَّرتُ يوماً لعذرٍ ، فصليتُ في الصفِّ الثاني ، فاعترَتْني خجلةٌ مِنَ الناسِ حيثُ رأوني في الصفِّ الثاني ، فعرفتُ أنَّ نظرَ الناسِ إليَّ في الصفِّ الأوَّلِ كانَ مسرَّتي وسببَ استراحةِ قلبي مِنْ حيثُ لا أشعرُ) .

وهـٰذا دقيقٌ غامضٌ ، قلَّما تسلمُ الأعمالُ مِنْ أمثالِهِ ، وقلَّ مَنْ يتنبَّهُ لهُ

إلا مَنْ وفَّقَهُ اللهُ تعالىٰ ، والغافلونَ عنهُ يرونَ حسناتِهِمْ كلَّها في الآخرةِ سيئاتٍ ، وهُمُ المرادونَ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ۝ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ﴾ ، وبقولِهِ تعالىٰ : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ .

وأشدُّ الخلقِ تعرُّضاً لهٰذهِ الفتنةِ العلماءُ ، فإنَّ الباعثَ للأكثرينَ علىٰ نشرِ العلمِ لذَّةُ الاستيلاءِ ، والفرحُ بالاستتباعِ ، والاستبشارُ بالحمدِ والثناءِ ، والشيطانُ يلبِّسُ عليهِمْ ذلكَ ، ويقولُ : إنَّما غرضُكُمْ نشرُ دينِ اللهِ ، والنضالُ عنِ الشرعِ الذي شرعَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وترى الواعظَ يمنُّ على اللهِ تعالىٰ بنصحِهِ للخلقِ ووعظِهِ للسلاطينِ ، ويفرحُ بقبولِ الناسِ قولَهُ وإقبالِهِمْ عليهِ ، وهوَ يدَّعي أنَّهُ يفرحُ بما يُسِّرَ لهُ مِنْ نصرةِ الدينِ ، ولوْ ظهرَ مِنْ أقرانِهِ مَنْ هوَ أحسنُ منهُ وعظاً ، وانصرفَ الناسُ عنهُ وأقبلوا عليهِ . . ساءَهُ ذلكَ وغمَّهُ ، ولوْ كانَ باعثُهُ الدينَ . . لشكرَ اللهَ تعالىٰ ؛ إذْ كفاهُ اللهُ تعالىٰ هٰذا المهمَّ بغيرِهِ ، ثمَّ الشيطانُ معَ ذلكَ لا يخلِّيهِ ، ويقولُ : إنَّما غمُّكَ لانقطاعِ الثوابِ عنكَ ، لاَ لانصرافِ وجوهِ الناسِ عنكَ إلىٰ غيرِكَ ؛ إذْ لوِ اتعظوا بقولِكَ . . لكنتَ أنتَ المثابَ ، واغتمامُكَ لفوتِ الثوابِ محمودٌ ، ولا يدري المسكينُ أنَّ انقيادَهُ للحقِّ ، وتسليمَهُ الأمرَ للأفضلِ[1] . . أجزلُ ثواباً ، وأعودُ عليهِ في الآخرةِ مِنِ انفرادِهِ .

---

(١) أي : تسليمه أمر الوعظ ودعوة الخلق لمن هو أعلم وأفضل وأقدر علىٰ نفعهم وجلب قلوبهم للحق ، وإنما هو مشارك له ، منطوٍ تحت جناحه .

وليتَ شعري لوِ اغتمَّ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ بتصدي أبي بكرٍ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ للإمامةِ . . أكانَ غمُّهُ محموداً أوْ مذموماً ؟ ولا يستريبُ ذو دينٍ أنْ لوْ كانَ ذلكَ . . لكانَ مذموماً ؛ لأنَّ انقيادَهُ للحقِّ وتسليمَهُ الأمرَ إلىٰ مَنْ هوَ أصلحُ منهُ . . أعودُ عليهِ في الدينِ مِنْ تكفُّلِهِ بمصالحِ الخلقِ ، معَ ما فيهِ مِنَ الثوابِ الجزيلِ ، بلْ فرحَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ باستقلالِ مَنْ هوَ أولىٰ منهُ بالأمرِ[1] ، فما بالُ العلماءِ لا يفرحونَ بمثلِ ذلكَ ؟!

وقدْ ينخدعُ بعضُ أهلِ العلمِ بغرورِ الشيطانِ ، فيحدِّثُ نفسَهُ بأنَّهُ لوْ ظهرَ مَنْ هوَ أولىٰ منهُ بالأمرِ . . لفرحَ بهِ ، وإخبارُهُ بذلكَ عنْ نفسِهِ قبلَ التجربةِ والامتحانِ محضُ الجهلِ والغرورِ ، فإنَّ النفسَ سهلةُ القيادِ في الوعدِ بأمثالِ ذلكَ قبلَ نزولِ الأمرِ ، ثمَّ إذا دهاهُ الأمرُ تغيَّرَ ورجعَ ، ولمْ يفِ بالوعدِ ، وذلكَ لا يعرفُهُ إلا مَنْ عرفَ مكايدَ الشيطانِ والنفسِ ، وطالَ اشتغالُهُ بامتحانِها .

فمعرفةُ حقيقةِ الإخلاصِ والعملُ بهِ بحرٌ عميقٌ ، يغرقُ فيهِ الجميعُ ، إلا الشاذَّ النادرَ والفردَ الفذَّ ، وهوَ المستثنىٰ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ ، فليكنِ العبدُ شديدَ التفقُّدِ والمراقبةِ لهٰذهِ الدقائقِ ، وإلا . . التحقَ بأتباعِ الشياطينِ وهوَ لا يشعرُ .

* * *

(١) كما دلَّ علىٰ ذلك الآثار الواردة في قصة البيعة . « إتحاف » (١٠/ ٥٣) .

بيان أقاويل الشيوخ في الإخلاص

قالَ السوسيُّ : (الإخلاصُ فقْدُ رؤيةِ الإخلاصِ ؛ لأنَّ مَنْ شاهدَ في إخلاصِهِ الإخلاصَ . . فقدِ احتاجَ إخلاصُهُ إلىٰ إخلاصٍ)[١] .

وما ذكرَهُ إشارةٌ إلىٰ تصفيةِ العملِ عنِ العجبِ بالعملِ ، فإنَّ الالتفاتَ إلى الإخلاصِ والنظرَ إليهِ عجبٌ ، وهوَ مِنْ جملةِ الآفاتِ ، والخالصُ ما صفا عنْ جميعِ الآفاتِ ، فهٰذا تعرُّضٌ لآفةٍ واحدةٍ[٢] .

وقالَ سهلٌ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ : (الإخلاصُ أنْ يكونَ سكونُ العبدِ وحركاتُهُ للهِ تعالىٰ خاصَّةً)[٣] .

وهٰذهِ كلمةٌ جامعةٌ محيطةٌ بالغرضِ ، وفي معناهُ قولُ إبراهيمَ بنِ أدهمَ : (الإخلاصُ صدقُ النيةِ معَ اللهِ تعالىٰ)[٤] .

وقيلَ لسهلٍ : أيُّ شيءٍ أشدُّ على النفسِ ؟ فقالَ : الإخلاصُ ؛ إذْ ليسَ لها فيهِ نصيبٌ[٥] .

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٨٠) .

(٢) أي : فلا تكون حقيقته جامعة لأفراده . « إتحاف » (١٠/ ٥٤) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٨٠) .

(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٨٠) .

(٥) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٨٠) ، والقشيري في « رسالته » (ص٣٦٢) .

وقالَ رويمٌ : (الإخلاصُ في العملِ هوَ ألا يريدَ صاحبُهُ عليهِ عوضاً في الدارينِ)[1] .

وهٰذا إشارةٌ إلىٰ أنَّ حظوظَ النفسِ آفةٌ آجلاً وعاجلاً ، والعابدُ لأجلِ تنعُّمِ النفسِ بالشهواتِ في الجنةِ معلولُ العبادةِ ، بلِ الحقيقةُ ألا يُرادَ بالعملِ إلا وجهُ اللهِ تعالىٰ ، وهوَ إشارةٌ إلىٰ إخلاصِ الصدِّيقينَ ، وهوَ الإخلاصُ المطلقُ ، فأمَّا مَنْ يعملُ لرجاءِ الجنةِ وخوفِ النارِ . . فهوَ مخلصٌ بالإضافةِ إلىٰ مَنْ يطلبُ الحظوظَ العاجلةَ ، وإلا . . فهوَ في طلبِ حظِّ البطنِ والفرجِ ، وإنَّما المطلوبُ الحقُّ لذوي الألبابِ وجهُ اللهِ تعالىٰ فقطْ .

وقولُ القائلِ : لا يتحرَّكُ الإنسانُ إلا لحظٍّ ، والبراءةُ مِنَ الحظوظِ صفةُ الإلٰهيَّةِ ، ومَنِ ادعىٰ ذلكَ . . فهوَ كافرٌ[2] ، وقدْ قضى القاضي أبو بكرٍ الباقلانيُّ بتكفيرِ مَنْ يدعي البراءةَ مِنَ الحظوظِ ، وقالَ : (هٰذا منْ صفاتِ الإلٰهيةِ) ؟

وما ذكرَهُ حقٌّ ، ولكنَّ القومَ إنَّما أرادوا بهِ البراءةَ عمَّا يسميهِ الناسُ حظوظاً ، وهيَ الشهواتُ الموصوفةُ في الجنةِ فقطْ ، فأمَّا التلذُّذُ بمجرَّدِ المعرفةِ والمناجاةِ والنظرِ إلىٰ وجهِ اللهِ تعالىٰ . . فهٰذا حظُّ هؤلاءِ ، وهٰذا

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٨١) ، والقشيري في « رسالته » (ص٣٦٢) .

(٢) لأنه قد أشرك بالله في صفة من صفاته المختصة به . « إتحاف » (١٠/ ٥٥) .

لا يعدُّهُ الناسُ حظّاً ، بلْ يتعجَّبونَ منهُ ، وهؤلاءِ لوْ عُوِّضوا عمَّا هُمْ فيهِ مِنْ لذَّةِ الطاعةِ والمناجاةِ وملازمةِ الشهودِ للحضرةِ الإلـٰهيةِ سرّاً وجهراً جميعَ نعيمِ الجنةِ . . لاستحقروهُ ، ولمْ يلتفتوا إليهِ ، فحركتُهُمْ لحظٍّ ، وطاعتُهُمْ لحظٍّ ، ولكنْ حظُّهُمْ معبودُهُمْ فقطْ دونَ غيرِهِ .

وقالَ أبو عثمانَ : (الإخلاصُ نسيانُ رؤيةِ الخلقِ بدوامِ النظرِ إلى الخالقِ)[1] .

وهـٰذا إشارةٌ إلىٰ آفةِ الرياءِ فقطْ ، ولذلكَ قالَ بعضُهُمْ : (الإخلاصُ في العملِ ألا يطلعَ عليهِ شيطانٌ فيفسدَهُ ، ولا ملكٌ فيكتبَهُ)[2] ، وهـٰذهِ إشارةٌ إلىٰ مجرَّدِ الإخفاءِ .

وقدْ قيلَ : (الإخلاصُ ما استترَ عنِ الخلائقِ ، وصفا عنِ العلائقِ)[3] ، وهـٰذا أجمعُ للمقاصدِ .

وقالَ المحاسبيُّ : (الإخلاصُ هوَ إخراجُ الخلقِ عنْ معاملةِ الربِّ)[4] ، وهـٰذا إشارةٌ إلىٰ مجرَّدِ نفيِ الرياءِ .

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٨١) ، والقشيري في « رسالته » (ص٣٦٢) ، ورواه البيهقي في « الشعب » (٦٤٧٥) ، وأبو عثمان هو سعيد بن إسماعيل الحيري .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٨١) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٨١) .

(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٨١) .

وكذلكَ قولُ الخوَّاصِ : (مَنْ شربَ مِنْ كأسِ الرئاسةِ . . فقدْ خرجَ عنْ إخلاصِ العبوديةِ)[1] .

وقالَ الحواريونَ لعيسىٰ عليهِ السلامُ : ما الخالصُ مِنَ الأعمالِ ؟ فقالَ : الذي يعملُ العملَ للهِ تعالىٰ لا يحبُّ أنْ يحمدَهُ عليهِ أحدٌ[2] .

وهٰذا أيضاً تعرُّضٌ لتركِ الرياءِ ، وإنَّما خصَّهُ بالذكرِ لأنَّهُ أقوى الأسبابِ المشوشةِ للإخلاصِ .

وقالَ الجنيدُ : (الإخلاصُ تصفيةُ الأعمالِ مِنَ الكدوراتِ)[3] .

وقالَ الفضيلُ : (تركُ العملِ مِنْ أجلِ الناسِ رياءٌ ، والعملُ مِنْ أجلِ الناسِ شركٌ ، والإخلاصُ أنْ يعافيَكَ اللهُ تعالىٰ منهُما)[4] .

وقيلَ : (الإخلاصُ دوامُ المراقبةِ ونسيانُ الحظوظِ كلِّها)[5] .

وهٰذا هوَ البيانُ الكاملُ ، والأقاويلُ في هٰذا كثيرةٌ ، ولا فائدةَ في تكثيرِ النقلِ بعدَ انكشافِ الحقيقةِ ، وإنَّما البيانُ الشافي بيانُ سيِّدِ الأولينَ والآخرينَ

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٨٣) .
(٢) كذا في « القوت » (١٥٦/٢) ، و« تهذيب الأسرار » (ص٢٨٤) ، وقد رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٣٧٥) .
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٨٥) .
(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٨٥) ، ورواه القشيري في « رسالته » (ص٣٦٢) .
(٥) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٨٥) .

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ إذْ سُئِلَ عنِ الإخلاصِ فقالَ : « أنْ تقولَ : ربِّيَ اللهُ ، ثمَّ تستقيمُ كما أُمرتَ »[1] أيْ : لا تعبدُ هواكَ ونفسَكَ ، ولا تعبدُ إلا ربَّكَ ، وتستقيمُ في عبادتِهِ كما أمرتَ ، وهٰذهِ إشارةٌ إلىٰ قطعِ كلِّ ما سوى اللهِ عنْ مجرى النظرِ ، وهوَ الإخلاصُ حقّاً .

* * *

(١) كذا أورد هٰذا الحديث الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٨٥) والمصنف تبع له ، وروى الترمذي (٢٤١٠) ، وابن ماجه (٣٩٧٢) عن سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ؛ حدثني بأمر أعتصم به ، قال : « قل : ربي الله ، ثم استقم . . . » الحديث ، وبلفظه هنا قال الحافظ العراقي : (لم أره بهٰذا اللفظ) . « إتحاف » (١٠/ ٥٧) .

بيان درجات الشوائب والآفات المكدرة للإخلاص

اعلمْ : أنَّ الآفاتِ المشوشةَ للإخلاصِ بعضُها جليٌّ ، وبعضُها خفيٌّ ، وبعضُها ضعيفٌ معَ الجلاءِ ، وبعضُها قويٌّ معَ الخفاءِ ، ولا يُفهمُ اختلافُ درجاتِها في الخفاءِ والجلاءِ إلا بمثالٍ ، وأظهرُ مشوشاتِ الإخلاصِ الرياءُ ، فلنذكرْ منهُ مثالاً فنقولُ :

الشيطانُ يدخلُ الآفةَ على المصلّي مهما كانَ مخلصاً في صلاتهِ ، ثمَّ نظرَ إليهِ جماعةٌ ، أوْ دخلَ عليهِ داخلٌ ، فيقولُ لهُ : حسِّنْ صلاتَكَ حتىٰ ينظرَ إليكَ هـٰذا الحاضرُ بعينِ الوقارِ والصلاحِ ، ولا يزدريَكَ ولا يغتابَكَ ، فتخشعُ جوارحُهُ ، وتسكنُ أطرافُهُ ، وتحسنُ صلاتُهُ ، وهـٰذا هوَ الرياءُ الظاهرُ ، ولا يخفىٰ ذلكَ على المبتدئينَ مِنَ المريدينَ(١) .

❀ ❀ ❀

الدرجةُ الثانية : أنْ يكونَ المريدُ قدْ فهمَ هـٰذهِ الآفةَ وأخذَ منها حذرَهُ ، فصارَ لا يطيعُ الشيطانَ فيها ، ولا يلتفتُ إليهِ ، ويستمرُّ في صلاتِهِ كما كانَ ، فيأتيهِ في معرضِ الخيرِ ، ويقولُ : أنتَ متبوعٌ ومقتدىً بكَ ، ومنظورٌ إليكَ ، وما تفعلُهُ يُؤْثَرُ عنكَ ، ويتأسَّىٰ بكَ غيرُكَ ، فيكونُ لكَ ثوابُ أعمالِهِمْ إنْ أحسنتَ ، وعليكَ الوزرُ إنْ أسأتَ ، فأحسنْ عملَكَ بينَ يديهِ ،

---

(١) وهـٰذه هي الدرجة الأولىٰ .

فعساهُ يقتدي بكَ في الخشوعِ وتحسينِ العبادةِ .

وهٰذا أغمضُ مِنَ الأوَّلِ ، وقدْ ينخدعُ بهِ مَنْ لا ينخدعُ بالأوَّلِ ، وهوَ أيضاً عينُ الرياءِ ، ومبطلٌ للإخلاصِ ؛ فإنَّهُ إنْ كانَ يرى الخشوعَ وحسنَ العبادةِ خيراً لا يرضىٰ لغيرِهِ تركَهُ . . فلِمَ لمْ يرتضِ لنفسِهِ ذلكَ في الخلوةِ ؟ ولا يمكنُ أنْ تكونَ نفسُ غيرِهِ أعزَّ عليهِ مِنْ نفسِهِ ، فهٰذا محضُ التلبيسِ ، بلِ المُقتدىٰ بهِ هوَ الذي استقامَ في نفسِهِ واستنارَ قلبُهُ ، فانتشرَ نورُهُ إلىٰ غيرِهِ ، فيكونُ لهُ ثوابٌ عليهِ ، فأمَّا هٰذا . . فمحضُ النفاقِ والتلبيسِ ، فمَنِ اقتدىٰ بهِ . . أُثيبَ عليهِ ، وأمَّا هوَ . . فيُطالبُ بتلبيسِهِ ، ويُعاقبُ علىٰ إظهارِهِ مِنْ نفسِهِ ما ليسَ متصفاً بهِ .

❋ ❋ ❋

الدرجةُ الثالثةُ ـ وهيَ أدقُّ ممَّا قبلَها ـ : أنْ يجرِّبَ العبدُ نفسَهُ في ذلكَ ، ويتنبَّهَ لكيدِ الشيطانِ ، ويعلمَ أنَّ مخالفتَهُ بينَ الخلوةِ والمشاهدةِ للغيرِ محضُ الرياءِ ، ويعلمَ أنَّ الإخلاصَ في أنْ تكونَ صلاتُهُ في الخلوةِ مثلَ صلاتِهِ في الملأِ ، ويستحييَ مِنْ نفسِهِ ومِنْ ربِّهِ أنْ يتخشَّعَ لمشاهدةِ خلقِهِ تخشُّعاً زائداً علىٰ عادتِهِ ، فيقبلُ علىٰ نفسِهِ في الخلوةِ ، ويحسِّنُ صلاتَهُ على الوجهِ الذي يرتضيهِ في الملأِ ، ويصلي في الملأِ أيضاً كذلكَ ، فهٰذا أيضاً مِنَ الرياءِ الغامضِ ؛ لأنَّهُ حسَّنَ صلاتَهُ في الخلوةِ لتحسُنَ في الملأِ ، فلا يكونُ قدْ فرَّقَ بينَهُما ، فالتفاتُهُ في الخلوةِ والملأِ إلى الخلقِ ، بلِ الإخلاصُ أنْ تكونَ

مشاهدةُ البهائمِ لصلاتِهِ ومشاهدةُ الخلْقِ علىٰ وتيرةٍ واحدةٍ ، فكأنَّ نفسَ هـٰذا ليسَتْ تسمحُ بإساءةِ الصلاةِ بينَ أظهرِ الناسِ ، ثمَّ يستحي مِنْ نفسِهِ أنْ يكونَ في صورةِ المرائينَ ، ويظنُّ أنَّ ذلكَ يزولُ بأنْ تستويَ صلاتُهُ في الخلاءِ والملأِ ، وهيهاتَ ! بلْ زوالُ ذلكَ بألا يلتفتَ إلى الخلقِ كما لا يلتفتُ إلى الجماداتِ في الخلاءِ والملأِ جميعاً ، وهـٰذا منْ شخصٍ مشغولِ الهمِّ بالخلقِ في الملأِ والخلاءِ جميعاً ، وهـٰذا مِنَ المكايدِ الخفيَّةِ للشيطانِ .

❊ ❊ ❊

الدرجةُ الرابعةُ ـ وهيَ أدقُّ وأخفىٰ ـ : أنْ ينظرَ إليهِ الناسُ وهوَ في صلاتِهِ ، فيعجزَ الشيطانُ عنْ أنْ يقولَ لهُ : اخشعْ لأجلِهِمْ ؛ فإنَّهُ قدْ عرفَ أنَّهُ تفطَّنَ لذلكَ ، فيقولُ لهُ الشيطانُ : تفكَّرْ في عظمةِ اللهِ وجلالِهِ ، ومَنْ أنتَ واقفٌ بينَ يديهِ ، واستحيِ مِنْ أنْ ينظرَ اللهُ إلىٰ قلبِكَ وهوَ غافلٌ عنهُ ، فيحضرُ بذلكَ قلبُهُ ، وتخشعُ جوارحُهُ ، ويظنُّ أنَّ ذلكَ عينُ الإخلاصِ ، وهوَ عينُ المكرِ والخداعِ ، فإنَّ خشوعَهُ لوْ كانَ لنظرِهِ إلىٰ جلالِهِ . . لكانَتْ هـٰذهِ الخطرةُ تلازمُهُ في الخلوةِ ، ولكانَ لا يختصُّ حضورُها بحالةِ حضورِ غيرِهِ .

وعلامةُ الأمنِ مِنْ هـٰذهِ الآفةِ : أنْ يكونَ هـٰذا الخاطرُ ممَّا يألفُهُ في الخلوةِ كما يألفُهُ في الملأِ ، ولا يكونَ حضورُ الغيرِ هوَ السببَ في حضورِ الخاطرِ ؛ كما لا يكونُ حضورُ بهيمةٍ سبباً ، فما دامَ يفرِّقُ في أحوالِهِ بينَ مشاهدةِ إنسانٍ ومشاهدةِ بهيمةٍ . . فهوَ بعدُ خارجٌ عنْ صفوِ الإخلاصِ ، مدنسُ الباطنِ بالشركِ الخفيِّ مِنَ الرياءِ ، وهـٰذا الشركُ أخفىٰ في قلبِ ابنِ

آدمَ مِنْ دبيبِ النملةِ السوداءِ في الليلةِ الظلماءِ على الصخرةِ الصماءِ كما وردَ بهِ الخبرُ[1] ، ولا يسلمُ مِنَ الشيطانِ إلا مَنْ دقَّ نظرُهُ ، وسعِدَ بعصمةِ اللهِ وتوفيقِهِ وهدايتِهِ ، وإلا . . فالشيطانُ ملازمٌ للمتشمِّرينَ لعبادةِ اللهِ تعالىٰ ، لا يغفُلُ عنهُمْ لحظةً حتىٰ يحملَهُمْ على الرياءِ في كلِّ حركةٍ مِنَ الحركاتِ ، حتىٰ في كحْلِ العينِ ، وقصِّ الشاربِ ، وطيبِ يومِ الجمعةِ ، ولبسِ الثيابِ ، فإنَّ هـٰذهِ سننٌ في أوقاتٍ مخصوصةٍ ، وللنفسِ فيها حظٌّ خفيٌّ ؛ لارتباطِ نظرِ الخلقِ بها ، ولاستئناسِ الطبعِ بها ، فيدعو الشيطانُ إلىٰ فعلِ ذلكَ ، ويقولُ : هـٰذهِ سنةٌ لا ينبغي أنْ تتركَها ، ويكونُ انبعاثُ القلبِ باطناً لها لأجلِ تلكِ الشهواتِ الخفيَّةِ ، أوْ مشوبةً بها شوباً يخرجُ عنْ حدِّ الإخلاصِ بسببِهِ .

وما لا يسلمُ مِنْ هـٰذهِ الآفاتِ كلِّها فليسَ بخالصٍ ، بلْ مَنْ يعتكفُ في مسجدٍ معمورٍ نظيفٍ حسنِ العمارةِ يأنسُ الطبعُ بهِ ، فالشيطانُ يرغِّبُهُ فيهِ ، ويكثرُ عليهِ مِنْ فضائلِ الاعتكافِ ، وقد يكونُ المحرِّكُ الخفيُّ في سرِّهِ هوَ الأنْسَ بحسنِ صورةِ المسجدِ ، واستراحةَ الطبعِ إليهِ ، ويتبيَّنُ ذلكَ في ميلِهِ إلىٰ أحدِ المسجدينِ أوْ أحدِ الموضعينِ إذا كانَ أحسنَ مِنَ الآخرِ ، وكلُّ ذلكَ امتزاجٌ بشوائبِ الطبعِ وكدوراتِ النفسِ ، ومبطلٌ حقيقةَ الإخلاصِ .

لعمري ؛ الغشُّ الذي يُمزجُ بخالصِ الذهبِ لهُ درجاتٌ متفاوتةٌ ، فمنها

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٢٩١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٣٦٨) .

ما يغلبُ ، ومنها ما يقلُّ ولكنْ يسهلُ دركُهُ ، ومنها ما يدقُّ بحيثُ لا يدركُهُ إلا الناقدُ البصيرُ ، وغشُّ القلبِ ودَغَلُ الشيطانِ وخبثُ النفْسِ أغمضُ مِنْ ذلكَ وأدقُّ كثيراً ، ولهٰذا قيلَ : (ركعتانِ مِنْ عالمٍ أفضلُ مِنْ عبادةِ سنةٍ مِنْ جاهلٍ)[1] ، وأُريدَ بهِ العالمُ البصيرُ بدقائقِ آفاتِ الأعمالِ ، حتىٰ يخلصَ عنها ، فإنَّ الجاهلَ نظرُهُ إلىٰ ظاهرِ العبادةِ واغترارُهُ بها كنظرِ السواديِّ إلىٰ حمرةِ الدينارِ المموَّهِ واستدارتِهِ ، وهوَ مغشوشٌ زائفٌ في نفسِهِ ، وقيراطٌ مِنَ الخالصِ الذي يرتضيهِ الناقدُ خيرٌ مِنْ دينارٍ يرتضيهِ الغِرُّ الغبيُّ .

فهكذا يتفاوتُ أمرُ العباداتِ ، بلْ أشدُّ وأعظمُ ، ومداخلُ الآفاتِ المتطرقةِ إلىٰ فنونِ الأعمالِ لا يمكنُ حصرُها وإحصاؤُها ، فلنقنعْ بما ذكرناهُ مثالاً ، والفطنُ يغنيهِ القليلُ عنِ الكثيرِ ، والبليدُ لا يغنيهُ التطويلُ أيضاً ، فلا فائدةَ في التفصيلِ .

* * *

---

(١) وقد روي في المرفوع نحوه ، روى ابن النجار عن موسى بن جعفر ، عن أبيه ، عن جده : « ركعتان من عالم أفضل من سبعين ركعة من غير عالم » رواه الشيرازي في « الألقاب » من طريق مالك بن دينار ، عن الحسن ، عن أنس ، عن علي رفعه : « ركعة من عالم بالله خير من ألف ركعة من متجاهل بالله » ، وروىٰ أبو نعيم من حديث أنس ـ وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٣٢٣٤) ـ : « ركعتان من رجل ورع أفضل من ألف ركعة من مخلط » . « إتحاف » (١٠/ ٥٩) .

بيان حكم العمل المشوب واستحقاق الثّواب به

اعلمْ : أنَّ العملَ إذا لمْ يكنْ خالصاً لوجهِ اللهِ تعالىٰ ، بلِ امتزجَ بهِ شوبٌ مِنَ الرياءِ أو حظوظِ النفسِ . . فقدِ اختُلفَ في أنَّ ذلكَ هلْ يقتضي ثواباً ، أمْ يقتضي عقاباً ، أمْ لا يقتضي شيئاً أصلاً ، فلا يكونُ لهُ ولا عليهِ ؟

أمَّا الذي لمْ يُردْ بهِ إلا الرياءَ . . فهوَ عليهِ قطعاً ، وهوَ سببُ المقتِ والعقابِ ، وأمَّا الخالصُ لوجهِ اللهِ تعالىٰ . . فهوَ سببُ الثوابِ ، وإنَّما النظرُ في المشوبِ ، وظاهرُ الأخبارِ تدلُّ علىٰ أنَّهُ لا ثوابَ لهُ(١) ، وليسَ تخلو الأخبارُ عنْ تعارضٍ فيهِ .

---

(١) منها ما رواه النسائي (٦/ ٢٥) عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ، ما له ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا شيء له » ، فأعادها ثلاث مرات ، يقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا شيء له » ، ثم قال : « إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتُغي به وجهُهُ » ، ومما ظاهره المعارضة ما رواه الترمذي (٢٣٨٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رجل : يا رسول الله ؛ الرجل يعمل العمل فيسرُّه ، فإذا اطلع عليه . . أعجبه ذلك ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « له أجران ؛ أجر السر ، وأجر العلانية » ، وقد بيَّن المصنف فيما سبق أن لا تعارض ، ومنها أيضاً ما رواه أحمد في « المسند » (٤/ ١٧٩) من حديث سهل بن الحنظلية رضي الله عنه وقد سأله أبو الدرداء رضي الله عنه عِظَةً ، فقال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية فقدمت ، فجاء رجل منهم فجلس في المجلس الذي فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لرجل إلىٰ جنبه : لو رأيتنا حين التقينا نحن والعدو ، فحمل فلان فطعن فقال : خذها وأنا الغلام الغفاري ، كيف ترىٰ في قوله ؟ =

والذي ينقدحُ لنا فيهِ ـ والعلمُ عندَ اللهِ ـ : أنْ ينظرَ إلىٰ قدْرِ قوّةِ البواعثِ ، فإنْ كانَ الباعثُ الدينيُّ مساوياً للباعثِ النفسيِّ . . تقاوما وتساقطا ، وصارَ العملُ لا لهُ ولا عليهِ .

وإنْ كانَ باعثُ الرياءِ أغلبَ وأقوىٰ . . فهوَ ليسَ بنافعٍ ، بل هوَ معَ ذلكَ مضرٌّ ومقتضٍ للعقابِ ، نعم ، العقابُ الذي فيهِ أخفُّ مِنْ عقابِ العملِ الذي تجرَّدَ للرياءِ ولمْ يمتزجْ بهِ شائبةُ التقرُّبِ .

وإنْ كانَ قصدُ التقرُّبِ أغلبَ بالإضافةِ إلى الباعثِ الآخرِ . . فلهُ ثوابٌ بقدْرِ ما فضلَ مِنْ قوّةِ الباعثِ الدينيِّ ، وهٰذا لقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ ، ولقولِهِ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ ، فلا ينبغي أنْ يضيعَ قصدُ الخيرِ ، بلْ إنْ كانَ غالباً علىٰ قصدِ الرياءِ . . حبطَ منهُ القدْرُ الذي يساويهِ وبقيَتْ زيادةٌ ، وإنْ كانَ مغلوباً . . أُسقطَ بسببِهِ شيءٌ مِنْ عقوبةِ القصدِ الفاسدِ .

وكشفُ الغطاءِ عنْ هٰذا : أنَّ الأعمالَ تأثيرُها في القلوبِ بتأكيدِ صفاتِها ، فداعيةُ الرياءِ مِنَ المهلكاتِ ، وإنَّما غذاءُ هٰذا المهلكِ وقوتُهُ العملُ علىٰ وَفْقِهِ ، وداعيةُ الخيرِ مِنَ المنجياتِ ، وإنَّما قوّتُها بالعملِ علىٰ

= قال : ما أُراه إلا قد أبطل أجره ، فسمع ذلك آخر ، فقال : ما أرىٰ بذلك بأساً ، فتنازعا حتىٰ سمع النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : « سبحان الله ! لا بأس أن يُحمد ويُؤجر » .

وَفْقِها ، فإذا اجتمعَتِ الصفتانِ في القلبِ . . فهما متضادتانِ ، فإذا عملَ علىٰ وَفْقِ مقتضى الرياءِ . . فقدْ قوَّىٰ تلكَ الصفةَ ، وإذا كانَ العملُ علىٰ وَفْقِ مقتضى التقرُّبِ . . فقدْ قوَّىٰ أيضاً تلكَ الصفةَ ، وأحدُهُما مهلكٌ والآخرُ منجٍ ، فإنْ كانَ تقويةُ هـٰذا بقدْرِ تقويةِ الآخرِ . . فقدْ تقاوما ، فكانَ كالمستضرِّ بالحرارةِ إذا تناولَ ما يضرُّهُ ، ثمَّ تناولَ مِنَ المبرداتِ ما يقاومُ قدْرَ قوَّتِهِ ، فيكونُ بعدَ تناولِهِما كأنَّهُ لمْ يتناولْهُما ، وإنْ كانَ أحدُهُما غالباً . . لمْ يخلُ الغالبُ عنْ أثرٍ ، فكما لا يضيعُ مثقالُ ذرَّةٍ مِنَ الطعامِ والشرابِ والأدويةِ ، ولا ينفكُّ عنْ أثرٍ في الجسدِ بحكمِ سنَّةِ اللهِ تعالىٰ . . فكذلكَ لا يضيعُ مثقالُ ذرَّةٍ مِنَ الخيرِ والشرِّ ، ولا ينفكُّ عنْ تأثيرٍ في إنارةِ القلبِ أوْ تسويدِهِ ، وفي تقريبِهِ مِنَ اللهِ أوْ إبعادِهِ ، فإذا جاءَ بما يقرِّبُهُ شبراً معَ ما يبعدُهُ شبراً . . فقدْ عادَ إلىٰ ما كانَ ، فلمْ يكنْ لهُ ولا عليهِ ، وإنْ كانَ الفعلُ ممَّا يقرِّبُهُ شبرينِ والآخرُ يبعدُهُ شبراً واحداً . . فضلَ لهُ ـ لا محالةَ ـ شبرٌ ، وقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أتبعِ السيئةَ الحسنةَ . . تمحُها »[1] ، فإذا كانَ الرياءُ المحضُ يمحوهُ الإخلاصُ المحضُ عقيبَهُ ؛ فإذا اجتمعا جميعاً . . فلا بدَّ وأنْ يتدافعا بالضرورةِ .

ويشهدُ لهـٰذا إجماعُ الأمَّةِ علىٰ أنَّ مَنْ خرجَ حاجّاً ومعَهُ تجارةٌ صحَّ حجُّهُ وأُثيبَ عليهِ ، وقدِ امتزجَ بهِ حظٌّ مِنْ حظوظِ النفسِ[2] .

---

(١) رواه الترمذي (١٩٨٧) .

(٢) وقد روى البخاري (٢٠٩٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كانت عكاظٌ ومَجَنَّةُ =

نعمْ ، يمكنُ أنْ يقالَ : إنَّما يُثابُ علىٰ أعمالِ الحجِّ عندَ انتهائِهِ إلىٰ مكَّةَ ، وتجارتُهُ غيرُ موقوفةٍ عليهِ ، فهوَ خالصٌ ، وإنَّما المشتركُ طولُ المسافةِ ، ولا ثوابَ فيهِ مهما قصدَ تجارةً ، ولكنَّ الصوابَ أنْ يُقالَ : مهما كانَ الحجُّ هوَ المحرِّكَ الأصليَّ ، وكانَ غرضُ التجارةِ كالمعينِ والتابعِ . . فلا ينفكُّ نفسُ السفرِ عنْ ثوابٍ ، وما عندي أنَّ الغزاةَ لا يدركونَ في أنفسِهِمْ تفرقةً بينَ غزوِ الكفارِ في جهةٍ تكثرُ فيها الغنائمُ وبينَ جهةٍ لا غنيمةَ فيها[1] ، ويبعدُ أنْ يُقالَ : إدراكُ هـٰذهِ التفرقةِ يحبطُ بالكليّةِ ثوابَ جهادِهِمْ ، بلِ العدلُ أنْ يُقالَ : إذا كانَ الباعثُ الأصليُّ والمزعجُ القويُّ هوَ إعلاءَ كلمةِ اللهِ ، وإنَّما الرغبةُ في الغنيمةِ علىٰ سبيلِ التبعيةِ . . فلا يحبطُ بهِ الثوابُ .

نعمْ ، لا يساوي ثوابُهُ ثوابَ مَنْ لا يلتفتُ قلبُهُ إلى الغنيمةِ أصلاً ، فإنَّ هـٰذا الالتفاتَ نقصانٌ لا محالةَ .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فالآياتُ والأخبارُ تدلُّ علىٰ أنَّ شوبَ الرياءِ محبطٌ للثوابِ ، وفي معناهُ شوبُ طلبِ الغنيمةِ والتجارةِ وسائرِ الحظوظِ ، فقدْ روىٰ طاووسٌ

= وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية ، فلما كان الإسلام . . تأثَّموا من التجارة فيها ، فأنزل الله : (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم في مواسم الحج) ، قرأ ابن عباس كذا .

(١) فالتفرقة بينهما حاصلة ، و(ما) في صدر الجملة نافية ، والعبارة في (ب) : (وما عندي إلا أن الغزاة يدركون في أنفسهم . . .) ، والجملتان بمعنىً .

وعدَّةٌ مِنَ التابعينَ : أنَّ رجلاً سألَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عمَّنْ يصطنعُ المعروفَ ـ أوْ قالَ : يتصدَّقُ ـ فيحبُّ أن يُحمدَ ويُؤجرَ ، فلمْ يدرِ ما يقولُ لهُ حتَّىٰ نزلَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾[1] ، وقدْ قصدَ الأجرَ والحمدَ جميعاً .

وروىٰ معاذٌ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « أدنى الرياءِ شركٌ »[2] .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُقالُ لمَنْ أشركَ في عملِهِ : خذْ أجرَكَ ممَّنْ عملتَ لهُ »[3] .

ورُويَ عنْ عبادةَ بنِ الصامتِ : (أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ : أنا أغنى

---

(١) رواه من حديث طاووس مرسلاً ابنُ المبارك في « الجهاد » (١٢) ، وأشار إلىٰ هـٰذه الرواية البيهقي في « الشعب » (٦٤٣٨) بعد أن رواه عن طاووس عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً عليه ، ولفظه : قال رجل : يا رسول الله ؛ إني أقف الموقف أريد وجه الله وأريد أن يرىٰ موطني ؟ فلم يرد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتىٰ نزلت : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣/ ٢٧٠) ، والطبراني في « الكبير » (٢٠/ ٣٦) .

(٣) أورده الحارث المحاسبي في « الرعاية » (ص٢٣٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وروىٰ نحوه الترمذي (٣١٥٤) ، وابن ماجه (٤٢٠٣) عن أبي سعد بن أبي فضالة الأنصاري رضي الله عنه ، وعند مسلم (٢٩٨٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أيضاً : « قال الله تبارك وتعالىٰ : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري . . تركته وشركه » .

الأغنياءِ عنِ الشركةِ ، مَنْ عملَ لي عملاً فأشركَ معي غيري . . ودعتُ نصيبي لشريكي)[1] .

وروىٰ أبو موسىٰ : أنَّ أعرابياً أتىٰ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ الرجلُ يقاتلُ حميةً ، والرجلُ يقاتلُ شجاعةً ، والرجلُ يقاتلُ ليُرىٰ مكانُهُ ، فمَنْ في سبيل اللهِ ؟ فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ قاتلَ لتكونَ كلمةُ اللهِ هيَ العليا . . فهوَ في سبيلِ اللهِ »[2] .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (تقولونَ : فلانٌ شهيدٌ ، ولعلَّهُ أنْ يكونَ قدْ ملأَ دفتي راحلتِهِ وَرِقاً)[3] .

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ هاجرَ يبتغي شيئاً مِنَ الدنيا . . فهوَ لهُ »[4] .

فنقولُ : هٰذهِ الأحاديثُ لا تناقضُ ما ذكرناهُ ، بلِ المرادُ بها مَنْ لمْ يردْ بذلكَ إلا الدنيا ؛ كقولِهِ : « مَنْ هاجرَ يبتغي شيئاً مِنَ الدنيا . . . » ، وكانَ ذلكَ هوَ الأغلبَ علىٰ همِّهِ ، وقدْ ذكرنا أنَّ ذلكَ عصيانٌ وعدوانٌ ، لا لأنَّ

---

(1) كذا هو عند المحاسبي في « الرعاية » (ص١٦٦ ، ٢٣٨) ، ورواه هناد في « الزهد » (٨٥١) ، وفيه : (فمن كان له معي شريك . . فهو له كله ، لا حاجة لي فيه) ، وودعت : تركت .

(2) رواه البخاري (٧٤٥٨) ، ومسلم (١٩٠٤/ ١٥٠) .

(3) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٦/ ٣٣٢) .

(4) رواه الطبراني في « الكبير » (٩/ ١٠٣) .

طلبَ الدنيا حرامٌ ، ولكنْ طلبُها بأعمالِ الدينِ حرامٌ ؛ لما فيهِ مِنَ الرياءِ وتغييرِ العبادةِ عنْ وضعِها .

وأمَّا لفظُ الشركةِ حيثُ وردَ . . فمطلقُهُ للتساوي ، وقدْ بينَّا أنَّهُ إذا تساوى القصدانِ . . تقاوما ، ولمْ يكنْ لهُ ولا عليهِ ، فلا ينبغي أنْ يُرجىٰ عليهِ ثوابٌ .

ثمَّ إنَّ الإنسانَ عندَ الشركةِ أبداً في خطرٍ ، فإنَّهُ لا يدري أيُّ الأمرينِ أغلبُ علىٰ قصدِهِ ، فربما يكونُ عليهِ وبالاً ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ أيْ : لا يُرجى اللقاءُ معَ الشركةِ التي أحسنُ أحوالِها التساقطُ .

ويجوزُ أنْ يُقالَ أيضاً : منصبُ الشهادةِ لا يُنالُ إلا بالإخلاصِ في الغزوِ ، وبعيدٌ أنْ يُقالَ : مَنْ كانَتْ داعيتُهُ الدينيَّةُ بحيثُ تزعجُهُ إلىٰ مجرَّدِ الغزوِ وإنْ لمْ تَكنْ غنيمةٌ ، وقدرَ علىٰ غزوِ طائفتينِ مِنَ الكفارِ ؛ إحداهما غنيةٌ ، والأخرىٰ فقيرةٌ ، فمالَ إلىٰ جهةِ الأغنياءِ لإعلاءِ كلمةِ اللهِ تعالىٰ وللغنيمةِ . . لا ثوابَ لهُ علىٰ غزوِهِ ألبتةَ ، ونعوذُ باللهِ أنْ يكونَ الأمرُ كذلكَ ، فإنَّ هـٰذا حرجٌ في الدينِ ، ومدخلٌ لليأسِ على المسلمينَ ؛ لأنَّ أمثالَ هـٰذهِ الشوائبِ التابعةِ قطُّ لا ينفكُّ الإنسانُ عنها إلا على الندورِ ، فيكونُ تأثيرُ هـٰذا في نقصانِ الثوابِ ، فأمَّا أنْ يكونَ في إحباطِهِ . . فلا .

نعمِ ، الإنسانُ فيهِ علىٰ خطرٍ عظيمٍ ؛ لأنَّهُ ربما يظنُّ أنَّ الباعثَ الأقوىٰ

هوَ قصدُ التقرُّبِ إلى اللهِ ، ويكونُ الأغلبُ على سرِّهِ الحظَّ النفسيَّ ، وذلكَ ممَّا يخفىٰ غايةَ الخفاءِ ، فلا يحصلُ الأمنُ إلا بالإخلاصِ ، والإخلاصُ قلَّما يستيقنُهُ العبدُ مِنْ نفسِهِ وإنْ بالغَ في الاحتياطِ .

فلذلكَ ينبغي أنْ يكونَ أبداً بعدَ كمالِ الاجتهادِ متردِّداً بينَ الردِّ والقبولِ ، خائفاً أنْ تكونَ في عبادتِهِ آفةٌ يكونُ وبالُها أكثرَ مِنْ ثوابِها فلا تقاوِمُها ، وهٰكذا كانَ الخائفونَ مِنْ ذوي البصائرِ ، وهٰكذا ينبغي أنْ يكونَ كلُّ ذي بصيرةٍ .

ولذلكَ قالَ سفيانُ رحمهُ اللهُ : (لا أعتدُّ بما ظهرَ مِنْ عملي)[1] .

وقالَ عبدُ العزيزِ بنُ أبي روادٍ : (جاورتُ هٰذا البيتَ ستينَ سنةً ، وحججتُ ستينَ حجةً ، فما دخلتُ في شيءٍ مِنْ أعمالِ اللهِ تعالىٰ إلا وحاسبتُ نفسي ، فوجدتُ نصيبَ الشيطانِ أوفىٰ مِنْ نصيبِ اللهِ ، ليتَهُ لا لي ولا عليَّ)[2] .

ومعَ هٰذا فلا ينبغي أنْ يُترَكَ العملُ عندَ خوفِ الآفةِ والرياءِ ، فإنَّ ذلكَ منتهىٰ بغيةِ الشيطانِ منه ، إذِ المقصودُ ألا يفوتَ الإخلاصُ ، ومهما تُرِكَ العملُ . . فقدْ ضُيِّعَ العملُ والإخلاصُ جميعاً .

وقدْ حُكِيَ أنَّ بعضَ الفقراءِ كانَ يخدمُ أبا سعيدٍ الخرَّازَ ويخفُّ في

---

(١) قوت القلوب (٢/ ١٥٧) .

(٢) رواه ابن عدي في « الكامل » (٥/ ٢٩١) ضمن خبرين .

أعمالِهِ ، فتكلَّمَ أبو سعيدٍ يوماً في إخلاصِ الحركاتِ ، فأخذَ الفقيرُ يتفقَّدُ قلبَهُ عندَ كلِّ حركةٍ ويطالبُهُ بالإخلاصِ ، فتعذَّرَ عليهِ قضاءُ الحوائجِ ، واستضرَّ الشيخُ بذلكَ ، فسألَهُ عنْ أمرِهِ ، فأخبرَهُ بمطالبتِهِ نفسَهُ بحقيقةِ الإخلاصِ ، وأنَّهُ يعجزُ عنها في أكثرِ أعمالِهِ فيتركُها ، فقالَ أبو سعيدٍ : لا تفعلْ ؛ إنَّ الإخلاصَ لا يقطعُ المعاملةَ ، فواظبْ على العملِ ، واجتهدْ في تحصيلِ الإخلاصِ ، فما قلتُ لكَ : اتركِ العملَ ، وإنَّما قلتُ لكَ : أخلصِ العملَ[1] .

وقدْ قالَ الفضيلُ : (تركُ العملِ بسببِ الخلقِ رياءٌ ، وفعلُهُ لأجلِ الخلقِ شركٌ)[2] .

* * *

(١) قوت القلوب (٢/ ١٦٣) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٨٥) ، ورواه القشيري في « الرسالة » (ص٣٦٢) .

البَابُ الثَّالِثُ
في الصّدق وفضيلته وحقيقته

فضيلة الصّدق

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الصدقَ يهدي إلى البرِّ ، والبرَّ يهدي إلى الجنةِ ، وإنَّ الرجلَ ليصدقُ حتىٰ يُكتبَ عندَ اللهِ صدِّيقاً ، وإنَّ الكذبَ يهدي إلى الفجورِ ، وإنَّ الفجورَ يهدي إلى النارِ ، وإنَّ الرجلَ ليكذبُ حتىٰ يُكتبَ عندَ اللهِ كذَّاباً »(١) .

ويكفي في فضيلةِ الصدقِ أنَّ الصدِّيقَ مشتقٌّ منهُ ، واللهُ تعالىٰ وصفَ بهِ الأنبياءَ في معرضِ المدحِ والثناءِ فقالَ : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾ .

وقالَ : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾ .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (أربعٌ مَنْ كنَّ فيهِ . . فقدْ ربحَ :

---

(١) رواه البخاري (٦٠٩٤) ، ومسلم (٢٦٠٧) .

الصدقُ ، والحياءُ ، وحسنُ الخلُقِ ، والشكرُ)[1] .

وقالَ بشرُ بنُ الحارثِ : (مَنْ عاملَ اللهَ بالصدقِ .. استوحشَ مِنَ الناسِ)[2] .

وقالَ أبو عبدِ اللهِ الرمليُّ : رأيتُ منصوراً الدينوريَّ في المنامِ ، فقلتُ لهُ : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ فقالَ : غفرَ لي ، ورحمَني ، وأعطاني ما لمْ أُؤَمِّلْ ، فقلتُ لهُ : أحسنُ ما توجَّهَ العبدُ بهِ إلى اللهِ ماذا ؟ قالَ : الصدقُ ، وأقبحُ ما توجَّهَ بهِ الكذبُ[3] .

وقالَ أبو سليمانَ : (اجعلِ الصدقَ مطيَّتَكَ ، والحقَّ سيفَكَ ، واللهَ تعالىٰ غايةَ طِلْبَتِكَ)[1] .

وقالَ رجلٌ لحكيمٍ : ما رأيتُ صادقاً ، فقالَ لهُ : لوْ كنتَ صادقاً .. لعرفتَ الصادقينَ[1] .

وعنْ محمدِ بنِ عليٍّ الكتانيِّ قالَ : (وجدنا دينَ اللهِ تعالىٰ مبنيّاً علىٰ ثلاثةِ أركانٍ : على الحقِّ ، والصدقِ ، والعدلِ ، فالحقُّ على الجوارحِ ، والعدْلُ على القلوبِ ، والصدقُ على العقولِ)[4] .

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٩٠) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٨٩) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/٣٤٧) .
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٨٩) .
(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٩٠) ، والحق على الجوارح بأن يكون =

وقالَ النوريُّ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ ، قالَ : هُمُ الذينَ ادعَوا محبَّةَ الله تعالىٰ ولمْ يكونوا فيها صادقينَ[١] .

وأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ داوودَ عليهِ السلامُ : (يا داوودُ ؛ مَنْ صدقَني في سريرتِهِ . صدقتُهُ عندَ المخلوقينَ في علانيتِهِ)[٢] .

وصاحَ رجلٌ في مجلسِ الشبليِّ ، ورمىٰ بنفسِهِ في دجلةَ ، فقالَ الشبليُّ : إنْ كانَ صادقاً . . فاللهُ تعالىٰ ينجيهِ كما أنجىٰ موسىٰ عليهِ السلامُ ، وإنْ كانَ كاذباً . . فاللهُ تعالىٰ يغرقُهُ كما أغرقَ فرعونَ[٣] .

وقالَ بعضُهُمْ : (أجمعَ الفقهاءُ والعلماءُ علىٰ ثلاثِ خصالٍ أنَّها إذا صحَّتْ . . ففيها النجاةُ ، ولا يتمُّ بعضُها إلا ببعضٍ : الإسلامُ الخالصُ عنِ البدعةِ والهوىٰ ، والصدقُ للهِ تعالىٰ في الأعمالِ ، وطيبُ المطعمِ)[٤] .

= استعمالها في الطاعة علىٰ صريح الحق مما يطابق السنة ، والعدل في القلوب بأن تستوي في المعرفة علىٰ سبيل الاعتدال ، والصدق في العقول بأن تصدق في الملاحظ فلا تخالف السريرة العلانية . « إتحاف » (١٠/ ٦٩) .

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٩٠) ، وفي (أ ، ب ، ج) : (الثوري) بدل (النوري) .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٩١) ، والقشيري في « رسالته » (ص٣٦٨) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٩١) ، وفيه : (فرمىٰ به في دجلة) .

(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٩٢) ، والقول لأبي القاسم بن الختلي الفقيه .

وقالَ وهْبُ بنُ منبهٍ : (وجدتُ علىٰ حاشيةِ التوراةِ اثنينِ وعشرينَ حرفاً ، كانَ صلحاءُ بني إسرائيلَ يجتمعونَ فيقرؤونَها ويتدراسونَها وهي : لا كنزَ أنفعُ مِنَ العلمِ ، ولا مالَ أربحُ مِنَ الحلمِ ، ولا حسبَ أرفعُ مِنَ الأدبِ ، ولا نسبَ أوضعُ مِنَ الغضبِ ، ولا قرينَ أزينُ مِنَ العقلِ ، ولا رفيقَ أشينُ مِنَ الجهلِ ، ولا شرفَ أعزُّ مِنَ التقوىٰ ، ولا كرمَ أوفىٰ مِنْ تركِ الهوىٰ ، ولا عملَ أفضلُ مِنَ الفكرِ ، ولا حسنةَ أعلىٰ مِنَ الصبرِ ، ولا سيئةَ أخزىٰ مِنَ الكبْرِ ، ولا دواءَ ألينُ مِنَ الرفقِ ، ولا داءَ أوجعُ مِنَ الخُرْقِ ، ولا رسولَ أعدلُ مِنَ الحقِّ ، ولا دليلَ أنصحُ مِنَ الصدقِ ، ولا فقرَ أذلُّ مِنَ الطمعِ ، ولا غنىٰ أشقىٰ مِنَ الجمعِ ، ولا حياةَ أطيبُ مِنَ الصحةِ ، ولا معيشةَ أهنأُ مِنَ العفَّةِ ، ولا عبادةَ أحسنُ مِنَ الخشوعِ ، ولا زهدَ خيرٌ مِنَ القُنوعِ ، ولا حارسَ أحفظُ مِنَ الصمتِ ، ولا غائبَ أقربُ مِنَ الموتِ)(١) .

وقالَ محمدُ بنُ سعيدٍ المروزيُّ : (إذا طلبتَ اللهَ تعالىٰ بالصدقِ . . أفادَكَ اللهُ تعالىٰ مرآةً بيدِكَ حتىٰ تبصرَ كلَّ شيءٍ مِنْ عجائبِ الدنيا والآخرةِ)(٢) .

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٩٤) ، ورواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٦/ ٢٤٢) ، **والخُرْق** : قلة العقل ، وسوء التصرف في الأمور ، **والقنوع** : ضدٌّ ، والمراد هنا الرضا ، وعند الخركوشي : (أوضح) بدل (أنصح) .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٩٦) .

وقالَ أبو بكرٍ الورَّاقُ : (احفظِ الصدقَ فيما بينَكَ وبينَ اللهِ تعالىٰ ، والرفقَ فيما بينكَ وبينَ خلقِ اللهِ)[1] .

وقيلَ لذي النونِ : هلْ للعبدِ إلىٰ صلاحِ أمورهِ سبيلٌ؟ فقالَ[2] : [من الخفيف]

قَـدْ بَقِينـا مُـذَبْـذَبِيـنَ حَيـارَىٰ   نَطْلُـبُ ٱلصِّـدْقَ مـا إِلَيْـهِ سَبيـلُ
فَـدَعـاوَى ٱلْهَـوَىٰ تَخِـفُّ عَلَيْنـا   وَخِـلافُ ٱلْهَـوَىٰ عَلَيْنـا ثَقِيـلُ

وقيل لسهلٍ : ما أصلُ هـٰذا الأمرِ الذي نحنُ عليهِ؟ فقالَ : الصدقُ ، والسخاءُ ، والشجاعةُ ، فقيلَ : زدْنا ، فقالَ : التقىٰ ، والحياءُ ، وطيبُ الغذاءِ[3] .

وعنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما : أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سُئِلَ عنِ الكمالِ ، فقالَ : « قولُ الحقِّ ، والعملُ بالصدقِ »[4] .

وعنِ الجنيدِ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ لِيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ﴾ ، قالَ : يسألُ الصادقينَ عندَ أنفسِهِمْ عنْ صدقِهِمْ عندَ ربِّهِمْ ، وهـٰذا أمرٌ علىٰ خطرٍ[5] .

* * *

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٩٧) .
(٢) البيتان للسهروردي في « ديوانه » (ص٥٤) .
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٩٩) .
(٤) كذا هو عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٩٩) ، وقال الحافظ العراقي : (لم أجده بهـٰذا اللفظ) . « إتحاف » (١٠/ ٧٠) .
(٥) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٩٩) .

بيان حقيقة الصّدق ومعناه ومراتبه

اعلمْ : أنَّ لفظَ الصدقِ يُستعملُ في ستةِ معانٍ : صدقٌ في القولِ ، وصدقٌ في النيةِ والإرادةِ ، وصدقٌ في العزمِ ، وصدقٌ في الوفاءِ بالعزمِ ، وصدقٌ في العملِ ، وصدقٌ في تحقيقِ مقاماتِ الدينِ كلِّها ، فمَنِ اتصفَ بالصدقِ في جميعِ ذلكَ . . فهوَ صدِّيقٌ ؛ لأنَّهُ مبالغةٌ في الصدقِ ، ثمَّ همْ أيضاً علىٰ درجاتٍ ، ومَنْ كانَ لهُ حظٌّ في الصدقِ في شيءٍ مِنَ الجملةِ . . فهوَ صادقٌ بالإضافةِ إلىٰ ما فيهِ صدقُهُ .

* * *

الصدقُ الأوَّلُ : صدقُ اللسانِ :

وذلكَ لا يكونُ إلا في الإخبارِ ، أوْ فيما يتضمَّنُ الإخبارَ وينبِّهُ عليهِ[1] ، والخبرُ إمَّا أنْ يتعلَّقَ بالماضي أوْ بالمستقبلِ ، وفيهِ يدخلُ الوفاءُ بالوعدِ والخلفُ فيهِ ، وحقٌّ علىٰ كلِّ عبدٍ أنْ يحفظَ ألفاظَهُ ، فلا يتكلَّمَ إلا بالصدقِ ، وهـٰذا هوَ أشهرُ أنواعِ الصدقِ وأظهرُها ، فمَنْ حفظَ لسانَهُ عنِ

---

(١) أي : بالعرض لا بالقصد الأول ، فقد يدخل في أنواع الكلام من الاستفهام والأمر والدعاء ، وذلك أن قول القائل : أزيدٌ في الدار . . في ضمنه إخبار بكونه جاهلاً بحال زيد ، وكذلك إذا قال : واسني . . في ضمنه أنه محتاج إلى المواساة ، وإذا قال : لا تؤذني . . في ضمنه أنه يؤذيه . « إتحاف » (١٠/ ٧٢) .

الإخبارِ عنِ الأشياءِ علىٰ خلافِ ما هيَ عليهِ. . فهوَ صادقٌ ، ولكنْ لهـٰذا الصدقِ كمالانِ :

أحدُهُما : الاحترازُ عنِ المعاريضِ : فقدْ قيلَ : (في المعاريضِ مندوحةٌ عنِ الكذبِ)[1] ، وذلكَ لأنَّها تقومُ مقامَ الكذبِ ، إذِ المحذورُ مِنَ الكذبِ تفهيمُ الشيءِ علىٰ خلافِ ما هوَ عليهِ في نفسِهِ ، إلا أنَّ ذلكَ ممَّا تمسُّ إليهِ الحاجةُ ، وتقتضيهِ المصلحةُ في بعضِ الأحوالِ ، وفي تأديبِ الصبيانِ والنسوانِ ومَنْ يجري مجراهُمْ ، وفي الحذرِ عنِ الظلمةِ ، وفي قتالِ الأعداءِ والاحترازِ عنِ اطلاعِهِمْ علىٰ أسرارِ الملكِ ، فمَنِ اضطرَّ إلىٰ شيءٍ مِنْ ذلكَ. . فصدقُهُ فيهِ أنْ يكونَ نطقُهُ فيهِ للهِ تعالىٰ فيما يأمرُهُ الحقُّ بهِ ويقتضيهِ الدينُ ، فإذا نطقَ بهِ. . فهوَ صادقٌ وإنْ كانَ كلامُهُ مفهماً غيرَ ما هوَ عليهِ ؛ لأنَّ الصدقَ ما أُريدَ لذاتِهِ ، بلْ للدلالةِ على الحقِّ والدعاءِ إليهِ ، فلا ينظرُ إلىٰ صورتِهِ بلْ إلىٰ معناهُ .

نعمْ ، في مثلِ هـٰذا الموضعِ ينبغي أنْ يعدلَ إلى المعاريضِ ما وجدَ إليهِ سبيلاً ، كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا توجَّهَ إلىٰ سفرٍ. . ورَّىٰ بغيرِهِ[2] ، وذلكَ كي لا ينتهيَ الخبرُ إلى الأعداءِ فيُقصدَ ، وليسَ هـٰذا مِنَ الكذبِ في شيءٍ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليسَ بكذَّابٍ

---

(١) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٠/١٩٩) عن عمران بن حصين رضي الله عنه مرفوعاً وموقوفاً .

(٢) رواه البخاري (٢٩٤٧) ، ومسلم (٢٧٦٩) .

مَنْ أصلحَ بينَ اثنينِ ، فقالَ خيراً أوْ نمىٰ خيراً »[1] .

ورخَّصَ في النطقِ علىٰ وَفْقِ المصلحةِ في ثلاثةِ مواضعَ : مَنْ أصلحَ بينَ اثنينِ ، ومَنْ كانَ لهُ زوجتانِ ، ومَنْ كانَ في مصالحِ الحربِ[2] .

والصدقُ هٰهنا يتحوَّلُ إلى النيةِ ، فلا يُراعىٰ فيهِ إلا صدقُ النيةِ وإرادةُ الخيرِ ، فمهما صحَّ قصدُهُ وصدقَتْ نيّتُهُ وتجرَّدَتْ للخيرِ إرادتُهُ . . كانَ صادقاً وصدِّيقاً كيفَما كانَ لفظُهُ .

ثمَّ التعريضُ فيهِ أولىٰ ، وطريقُهُ ما حُكِيَ عنْ بعضِهِمْ أنَّهُ كانَ يطلبُهُ بعضُ الظلمةِ وهوَ في دارِهِ ، فقالَ لزوجتِهِ : خُطِّي بإصبعِكِ دائرةً ، وضعي الإصبعَ عليها ، وقولي : ليسَ هوَ هٰهنا[3] . واحترزَ بذلكَ عنِ الكذبِ ، ودفعَ الظالمَ عنْ نفسِهِ ، فكانَ قولُهُ صدقاً ، وأفهمَ الظالمَ أنَّهُ ليسَ في الدارِ .

فالكمالُ الأوَّلُ في اللفظِ : أنْ يحترزَ عنْ صريحِ اللفظِ وعنِ المعاريضِ أيضاً إلا عندَ الضرورةِ .

والكمالُ الثاني : أنْ يراعيَ معنى الصدقِ في ألفاظِهِ التي يناجي بها ربَّهُ عزَّ وجلَّ : كقولِهِ : (وجهتُ وجهيَ للذي فطرَ السماواتِ والأرضَ) ، فإنَّ قلبَهُ إنْ كانَ منصرفاً عنِ اللهِ تعالىٰ ، مشغولاً بأمانيِّ الدنيا وشهواتِها . . فهوَ

---

(١) رواه البخاري (٢٦٩٢) ، ومسلم (٢٦٠٥) .

(٢) روىٰ ذلك أبو داوود (٤٩٢١) ، والنسائي في « الكبرىٰ » (٩٠٧٥) .

(٣) أورده النووي في « الأذكار » (ص٦١٣) عن الشعبي .

كاذبٌ ، وكقولِهِ : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، وقولِهِ : أنا عبدُ اللهِ ؛ فإنَّهُ إذا لمْ يتصفْ بحقيقةِ العبوديةِ ، وكانَ لهُ مطلبٌ سوى اللهِ . . لمْ يكنْ كلامُهُ صدقاً ، ولوْ طُولِبَ يومَ القيامةِ بالصدقِ في قولِهِ : أنا عبدُ اللهِ . . لعجزَ عنْ تحقيقِهِ ، فإنَّهُ إنْ كانَ عبداً لنفسِهِ أوْ عبداً لدنيا ، أوْ عبداً لشهواتِهِ . . لمْ يكنْ صادقاً في قولِهِ .

وكلُّ ما تقيَّدَ العبدُ بهِ فهوَ عبدٌ لهُ ، كما قالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (يا عبيدَ الدنيا)[1] ، وقالَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تعسَ عبدُ الدينارِ ، تعسَ عبدُ الدرهمِ ، وعبدُ الحلَّةِ ، وعبدُ الخميصةِ »[2] ، سمَّىٰ كلَّ مَنْ تقيَّدَ قلبُهُ بشيءٍ عبداً لهُ ، وإنَّما العبدُ الحقُّ للهِ عزَّ وجلَّ مَنْ عتقَ أوَّلاً عنْ غيرِ اللهِ تعالىٰ ، فصارَ حرّاً مطلقاً ، فإذا تقدمَتْ هٰذهِ الحريَّةُ . . صارَ القلبُ فارغاً ، فحلَّتْ فيهِ العبوديةُ للهِ ، فتشغلُهُ باللهِ وبمحبتِهِ ، وتقيِّدُ باطنَهُ وظاهرَهُ بطاعتِهِ ، فلا يكونُ لهُ مرادٌ إلا اللهَ تعالىٰ .

ثمَّ قدْ يجاوزُ هٰذا إلىٰ مقامٍ آخرَ أسنىٰ منهُ يُسمَّى الحريةَ ، وهوَ أنْ يعتقَ أيضاً عنْ إرادتِهِ للهِ مِنْ حيثُ هوَ ، بلْ يقنعُ بما يريدُ اللهُ تعالىٰ لهُ مِنْ تقريبٍ أوْ إبعادٍ ، فتفنىٰ إرادتُهُ في إرادةِ اللهِ تعالىٰ ، وهٰذا عبدٌ عتقَ عنْ غيرِ اللهِ فصارَ حرّاً ، ثمَّ عادَ وعتقَ عنْ نفسِهِ فصارَ حرّاً ، وصارَ مفقوداً لنفسِهِ موجوداً لسيِّدِهِ

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٧/ ٤٦٠) (٦٨/ ٦٤) ضمن خبر طويل .

(٢) رواه البخاري (٦٤٣٥) .

ومولاهُ ، إنْ حرَّكَهُ . . تحرَّكَ ، وإن سكَّنَهُ . . سكنَ ، وإنِ ابتلاهُ . . رضيَ ، لمْ يبقَ فيهِ متسعٌ لطلبٍ والتماسٍ واعتراضٍ ، بلْ هوَ بينَ يدي اللهِ تعالىٰ كالميتِ بينَ يدي الغاسلِ ، وهـٰذا منتهى الصدقِ في العبوديةِ للهِ تعالىٰ ، فالعبدُ الحقُّ هوَ الذي وجودُهُ لمولاهُ لا لنفسِهِ ، وهـٰذهِ درجةُ الصدِّيقينَ ، وأمَّا الحريَّةُ عنْ غيرِ اللهِ . . فدرجاتُ الصادقينَ ، وبعدَها تتحقَّقُ العبوديةُ للهِ تعالىٰ ، وما قبلَ هـٰذا فلا يستحقُّ صاحبُهُ أنْ يُسمَّىٰ صادقاً ولا صدِّيقاً ، فهـٰذا هوَ معنى الصدقِ في القولِ .

❁ ❁ ❁

الصدقُ الثاني : في النيةِ والإرادةِ :

ويرجعُ ذلكَ إلى الإخلاصِ ، وهوَ ألا يكونَ لهُ باعثٌ في الحركاتِ والسكناتِ إلا اللهَ تعالىٰ ، فإنْ مازجَهُ شوبٌ مِنْ حظوظِ النفسِ . . بطلَ صدقُ النيةِ ، وصاحبُهُ يجوزُ أنْ يُسمَّىٰ كاذباً ؛ كما روينا في فضيلةِ الإخلاصِ مِنْ حديثِ الثلاثةِ ، حينَ يُسألُ العالمُ : « ما عملتَ فيما علمتَ ؟ فقالَ : فعلتُ كذا وكذا ، فقالَ اللهُ تعالىٰ : كذبتَ ، بلْ أردتَ أنْ يُقالَ : فلانٌ عالمٌ »[1] ، فإنَّهُ لمْ يكذبْهُ ولمْ يقلْ لهُ : لمْ تعملْ ، ولكنْ كذَّبهُ في إرادتِهِ ونيتِهِ .

وقدْ قالَ بعضُهُمْ : (الصدقُ صحةُ التوجُّهِ في القصدِ)[2] .

---

(١) رواه مسلم (١٩٠٥) ، والترمذي (٢٣٨٢) .

(٢) أورده الخركوشي في «تهذيب الأسرار» (ص٢٩١)، وفي (ج، د): (صحة التوحيد) بدل (صحة التوجه) .

وكذلكَ قولُ اللهِ تعالىٰ : ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ ، وقدْ قالوا : إنَّكَ لرسولُ اللهِ ، وهٰذا صدقٌ ، ولكنْ كذَّبَهُمْ لا مِنْ حيثُ نطقُ اللسانِ ، بلْ مِنْ حيثُ ضميرُ القلبِ ، وكانَ التكذيبُ يتطرَّقُ إلى الخبرِ ، وهٰذا القولُ يتضمَّنُ إخباراً بقرينةِ الحالِ ؛ إذْ صاحبُهُ يظهرُ مِنْ نفسِهِ أنَّهُ يعتقدُ ما يقولُ ، فكُذِّبَ في دلالتِهِ بقرينةِ الحالِ علىٰ ما في قلبِهِ ؛ فإنَّهُ كذبَ في ذلكَ وإنْ لمْ يكذبْ فيما يلفظُ بهِ ، فيرجعُ أحدُ معاني الصدقِ إلىٰ خلوصِ النيةِ ، وهوَ الإخلاصُ ، فكلُّ صادقٍ فلا بدَّ وأنْ يكونَ مخلصاً .

❊ ❊ ❊

الصدقُ الثالثُ : صدقُ العزمِ :

فإنَّ الإنسانَ قدْ يقدِّمُ العزمَ على العملِ ، فيقولُ في نفسِهِ : إنْ رزقَني اللهُ مالاً . . تصدقتُ بجميعِهِ أوْ بشطرِهِ ، أوْ إنْ لقيتُ عدواً في سبيلِ اللهِ تعالىٰ . . قاتلتُ ولمْ أبالِ وإنْ قُتلتُ ، وإنْ أعطاني اللهُ تعالىٰ ولايةً . . عدلتُ فيها ولمْ أعصِ اللهَ تعالىٰ بظلمٍ وميلٍ إلىٰ خلقٍ .

فهٰذِهِ العزيمةُ قدْ يصادفُها مِنْ نفسِهِ ، وهيَ عزيمةٌ جازمةٌ صادقةٌ ، وقدْ يكونُ في عزمِهِ نوعُ ميلٍ وتردُّدٍ وضعفٍ يضادُّ الصدقَ في العزيمةِ ، فكانَ الصدقُ هٰهنا عبارةً عنِ التمامِ والقوَّةِ ؛ كما يُقالُ : لفلانٍ شهوةٌ صادقةٌ ، ويُقالُ : هٰذا المريضُ شهوتُهُ كاذبةٌ ؛ مهما لمْ تكنْ شهوتُهُ عنْ سببٍ ثابتٍ قويٍّ أوْ كانَتْ ضعيفةً ، فقدْ يُطلقُ الصدقُ ويُرادُ بهِ هٰذا المعنىٰ ، فالصادقُ

والصدِّيقُ هوَ الذي تُصادَفُ عزيمتُهُ في الخيراتِ كلِّها قويَّةً تامَّةً ، ليسَ فيها ميلٌ ولا ضعفٌ ولا تردُّدٌ ، بلْ تسخو نفسُهُ أبداً بالعزمِ المصممِ الجازمِ على الخيراتِ .

وهوَ كما قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (لأنْ أُقدَّمَ فتُضربَ عنقي في غيرِ حدٍّ أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أتأمَّرَ علىٰ قومٍ فيهِمْ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ)[1] ، فإنَّهُ قدْ وجدَ مِنْ نفسِهِ العزمَ الجازمَ والمحبَّةَ الصادقةَ بأنَّهُ لا يتأمَّرُ معَ وجودِ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ ، وأكَّدَ ذلكَ بما ذكرَهُ مِنَ القتلِ .

ومراتبُ الصدِّيقينَ في العزائمِ تختلفُ ، فقدْ يصادفُ العزمَ ولا ينتهي بهِ إلىٰ أنْ يرضىٰ بالقتلِ فيهِ ، ولكنْ إذا خُلِّيَ ورأيَهُ . . لمْ يقدمْ ، ولوْ ذُكِرَ لهُ حديثُ القتلِ لانتقضَ عزمُهُ[2] ، بلْ في الصادقينَ والمؤمنينَ مَنْ لوْ خُيِّرَ بينَ أنْ يُقتلَ هوَ أوْ أبو بكرٍ . . كانَتْ حياتُهُ أحبَّ إليهِ مِنْ حياةِ أبي بكرٍ الصدِّيقِ رضيَ اللهُ عنهُ .

❀ ❀ ❀

الصدقُ الرابعُ : في الوفاءِ بالعزمِ :

فإنَّ النفسَ قدْ تسخو بالعزمِ في الحالِ ، إذْ لا مشقَّةَ في الوعدِ والعزمِ ،

---

(١) رواه البخاري (٦٨٣٠) ضمن خبر طويل .

(٢) وفي (ج ، ص) : (لم ينقض) بدل (لانتقض) ، وعليه يكون المعنىٰ : ذكر حديث القتل لا ينقضُ عزمه ، ولكن لو طولب بالقتل . . لاحتاج إلىٰ صدق آخر ، هو صدق الوفاء بالعزم .

والمؤنةُ فيهِ خفيفةٌ ، فإذا حقَّتِ الحقائقُ وحصلَ التمكُّنُ ، وهاجَتِ الشهواتُ . . انحلَّتِ العزيمةُ ، وغلبَتِ الشهواتُ ، ولمْ يتفقِ الوفاءُ بالعزمِ ، وهٰذا يضادُّ الصدقَ فيهِ .

ولذلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْـهِ ﴾ ، فقدْ رُوِيَ عنْ أنسٍ : أنَّ عمَّهُ أنسَ بنَ النضرِ لمْ يشهدْ بدراً معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فشقَّ ذلكَ علىٰ قلبِهِ ، وقالَ : أوَّلُ مشهدٍ شهدَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ غبتُ عنهُ ! أما واللهِ لئنْ أراني اللهُ مشهداً معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . ليرينَّ اللهُ ما أصنعُ ، فشهدَ أحداً من العامِ القابلِ ، فاستقبلَهُ سعدُ بنُ معاذٍ ، فقالَ : يا أبا عمرو ؛ إلىٰ أينَ ؟[1] فقالَ : واهاً لريحِ الجنةِ ! إنِّي أجدُها دونَ أحدٍ ، فقاتلَ حتىٰ قُتِلَ ، فوُجِدَ في جسدِهِ بضعٌ وثمانونَ ، ما بينَ رميةٍ وضربةٍ وطعنةٍ ، فقالَتْ أختُهُ بنتُ النضرِ[2] : ما عرفتُ أخي إلا ببنانِهِ ، ونزلَتْ هٰذهِ الآيةُ : ﴿ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْـهِ ﴾[3] .

ووقفَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ مصعبِ بنِ عميرٍ وقدْ سقطَ

---

(١) السائل هو أنس بن النضر رضي الله عنه ، وأبو عمرو هي كنية سعد بن معاذ رضي الله عنه ، وسياق المصنف موهم أن السائل هو سعد ، وأنس لم ينتظر جواب سعد ، بل سرد كلامه .

(٢) هي الرُّبيِّع بنت النضر رضي الله عنها .

(٣) رواه البخاري (٢٨٠٦) ، ومسلم (١٩٠٣) ، والترمذي (٣٢٠٠) واللفظ له .

علىٰ وجهِهِ يومَ أحدٍ شهيداً ، وكانَ صاحبَ لواءِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : ﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ﴾[1] .

وقالَ فضالةُ بنُ عبيدٍ : سمعتُ عمرَ بنَ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « الشهداءُ أربعةٌ : رجلٌ مؤمنٌ جيِّدُ الإيمانِ ، لقيَ العدوَّ فصدقَ اللهَ حتىٰ قُتِلَ ، فذلكَ الذي يرفعُ الناسُ إليهِ أعينَهُمْ يومَ القيامةِ هٰكذا ـ ورفعَ رأسَهُ حتَّىٰ وقعَتْ قلنسوتُهُ ، قالَ الراوي : فلا أدري قلنسوةَ عمرَ أوْ قلنسوةَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ـ ورجلٌ جيِّدُ الإيمانِ إذا لقيَ العدوَّ . . فكأنَّما يُضربُ وجهُهُ بشوكِ الطلحِ ، أتاهُ سهمٌ عائرٌ فقتلَهُ ، فهوَ في الدرجةِ الثانيةِ ، ورجلٌ مؤمنٌ خلطَ عملاً صالحاً وآخرَ سيئاً ، لقيَ العدوَّ فصدقَ اللهَ تعالىٰ حتىٰ قُتِلَ ، فذلكَ في الدرجةِ الثالثةِ ، ورجلٌ مؤمنٌ أسرفَ علىٰ نفسِهِ ، لقيَ العدوَّ فصدقَ اللهَ حتىٰ قُتِلَ ، فذاكَ في الدرجةِ الرابعةِ »[2] .

وقالَ مجاهدٌ : (رجلانِ خرجا علىٰ ملأٍ مِنَ الناسِ قعودٍ ، فقالا : إنْ رزقَنا اللهُ تعالىٰ مالاً . . لنصَّدَّقَنَّ فرُزقوا ، فبخلوا بهِ ، فنزلَتْ : ﴿ وَمِنْهُم

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٢/٢٤٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/١٠٧) عن عبيد بن عمير مرسلاً .
(٢) رواه الترمذي (١٦٤٤) ، وسهم عائر : لا يعلم من أين هو ولا من رماه .

مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَـئِنْ ءَاتَـٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾[١] .

وقالَ بعضُهُمْ : إنَّما هوَ شيءٌ نووهُ في أنفسِهِمْ لمْ يتكلَّموا بهِ[٢] ، فقالَ : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَـئِنْ ءَاتَـٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ۝ فَلَمَّآ ءَاتَـٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾ ، فجعلَ العزمَ عهداً ، وجعلَ الخلْفَ فيهِ كذباً والوفاءَ بهِ صدقاً .

وهٰذا الصدقُ أشدُّ مِنَ الصدقِ الثالثِ ؛ فإنَّ النفسَ قدْ تسخو بالعزمِ ثمَّ تكيعُ[٣] عندَ الوفاءِ لشدَّتِهِ عليها ، ولهيجانِ الشهواتِ عندَ التمكُّنِ وحصولِ الأسبابِ ، ولذلكَ استثنىٰ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ فقالَ : (لأنْ أُقدَّمَ فتُضربَ عنقي أحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أتأمَّرَ علىٰ قومٍ فيهِمْ أبو بكرٍ ، اللهمَّ إلا أنْ تسوِّلَ لي نفسي عندَ القتلِ شيئاً لا أجدُهُ الآنَ ؛ لأنِّي لا آمنُ أنْ يثقلَ عليها ذلكَ فتتغيَّرَ عنْ عزمِها)[٤] ، أشارَ بذلكَ إلىٰ شدَّةِ الوفاءِ بالعزمِ .

وقالَ أبو سعيدٍ الخرَّازُ : رأيتُ في المنامِ كأنَّ ملكينِ نزلا مِنَ السماءِ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الصمت وآداب اللسان » (٥١٩) ، والطبري في « تفسيره » (٦/ ١٠/ ٢٣٩) .

(٢) رواه الطبري في « تفسيره » (٦/ ١٠/ ٢٤٢) عن سعيد بن ثابت .

(٣) تكيع : تجبن وتتلكَّأ .

(٤) رواه البخاري (٦٨٣٠) .

فقالا لي : ما الصدقُ ؟ قلتُ : الوفاءُ بالعهدِ ، فقالا لي : صدقتَ ، وعرجا إلى السماء[1] .

❀ ❀ ❀

الصدقُ الخامسُ : في الأعمالِ :

وهوَ أنْ يجتهدَ حتىٰ لا تدلَّ أعمالُهُ الظاهرةُ علىٰ أمرٍ في باطنِهِ لا يتصفُ هوَ بهِ ، لا بأنْ يتركَ الأعمالَ ، ولكنْ بأنْ يستجرَّ الباطنَ إلىٰ تصديقِ الظاهرِ ، وهـٰذا يخالفُ ما ذكرناهُ مِنْ تركِ الرياءِ ؛ لأنَّ المرائيَ هوَ الذي يقصدُ ذلكَ لأجلِ الخلقِ ، وربَّ واقفٍ علىٰ هيئةِ الخشوعِ في صلاتِهِ ليسَ يقصدُ بهِ مشاهدةَ غيرِهِ ، ولكنْ قلبُهُ غافلٌ عنِ الصلاةِ ، فمَنْ ينظرُ إليهِ يراهُ قائماً بينَ يديِ اللهِ تعالىٰ ، وهوَ بالباطنِ قائمٌ في السوقِ بينَ يدي شهوةٍ مِنْ شهواتِهِ ، فهـٰذهِ أعمالٌ تعربُ بلسانِ الحالِ عنِ الباطنِ إعراباً هوَ فيهِ كاذبٌ ، وهوَ مطالبٌ بالصدقِ في الأعمالِ .

وكذلكَ قدْ يمشي الرجلُ علىٰ هيئةِ السكونِ والوقارِ وليسَ باطنُهُ موصوفاً بذلكَ الوقارِ ، فهـٰذا غيرُ صادقٍ في عملِهِ وإنْ لمْ يكنْ ملتفتاً إلى الخلقِ ولا مرائياً إيَّاهُمْ ، ولا ينجو مِنْ هـٰذا إلا باستواءِ السريرةِ والعلانيةِ ؛ بأنْ يكونَ باطنُهُ مثلَ ظاهرِهِ أوْ خيراً مِنْ ظاهرِهِ .

ومِنْ خيفةِ ذلكَ اختارَ بعضُهُمْ تشويشَ الظاهرِ ، ولبسَ ثيابِ الأشرارِ ؛

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٩٣) .

كي لا يُظنَّ بهِ الخيرُ بسببِ ظاهرِهِ ، فيكونَ كاذباً في دلالةِ الظاهرِ على الباطنِ .

فإذاً ؛ مخالفةُ الظاهرِ للباطنِ إنْ كانَتْ عنْ قصدٍ . . سُمِّيَتْ رياءً ، ويفوتُ بها الإخلاصُ ، وإنْ كانَ عنْ غيرِ قصدٍ . . فيفوتُ بها الصدقُ ، ولذلكَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اللهمَّ ؛ اجعلْ سريرتي خيراً مِنْ علانيتي ، واجعلْ علانيتي صالحةً »[1] .

وقالَ زُبيدُ بنُ الحارثِ : (إذا استوَتْ سريرةُ العبدِ وعلانيتُهُ . . فذلكَ النَّصَفُ ، وإنْ كانَتْ سريرتُهُ أفضلَ مِنْ علانيتِهِ . . فذلكَ الفضلُ ، وإنْ كانَتْ علانيتُهُ أفضلَ مِنْ سريرتِهِ . . فذلكَ الجورُ)[2] .

وأنشدوا[3] : [من الطويل]

إذا ٱلسِّرُّ وَٱلإعْلانُ في ٱلْمُؤْمِنِ ٱسْتَوَىٰ فَقَدْ عَزَّ فِي ٱلدَّارَيْنِ وَٱسْتَوْجَبَ ٱلثَّنا
فَـإِنْ خـالَـفَ ٱلإِعْـلانُ سِـرّاً فَمَـا لَـهُ عَلَىٰ سَعْيِهِ فَضْلٌ سِوَى ٱلْكَدِّ وَٱلْعَنا
كَمَا خالِصُ ٱلدِّينارِ فِي ٱلسُّوقِ نافِقٌ وَمَغْشُوشُهُ ٱلْمَرْدُودُ لا يَقْتَضِي ٱلْمُنَىٰ

وقالَ عقبةُ بنُ عبدِ الغافرِ : (إذا وافقَتْ سريرةُ المؤمنِ علانيتَهُ . .

(١) رواه الترمذي (٣٥٨٦) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٠٤٤٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٥٣) .
(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٦٥٨٤) ، ووقع في النسخ : (زيد) بدل (زبيد) .
(٣) انظر « الكشكول » (٢/ ٣٨٣) .

باهى اللهُ بهِ ملائكتَهُ ، يقولُ : هـٰذا عبدي حقّاً)[1] .

وقالَ معاويةُ بنُ قرَّةَ : (مَنْ يدلُّني علىٰ بكَّاءٍ بالليلِ بسَّامٍ بالنهارِ ؟)[2] .

وقالَ عبدُ الواحدِ بنُ زيدٍ : (كانَ الحسنُ إذا أمرَ بشيءٍ . . كانَ مِنْ أعملِ الناسِ بهِ ، وإذا نهىٰ عنْ شيءٍ . . كانَ مِنْ أتركِ الناسِ لهُ ، ولمْ أرَ أحداً قطُّ أشبهَ سريرةً بعلانيةٍ منهُ)[3] .

وكانَ أبو عبدِ الرحمـٰنِ الزاهدُ يقولُ : (إلـٰهي ؛ عاملتُ الناسَ فيما بيني وبينَهُمْ بالأمانةِ ، وعاملتُكَ فيما بيني وبينَكَ بالخيانةِ) ويبكي .

وقالَ أبو يعقوبَ النهرجوريُّ : (الصدقُ موافقةُ الحقِّ في السرِّ والعلانيةِ)[4] .

فإذاً ؛ مساواةُ السريرةِ للعلانيةِ أحدُ أنواعِ الصدق .

❀ ❀ ❀

الصدقُ السادسُ ـ وهوَ أعلى الدرجاتِ وأعزُّها ـ : الصدقُ في مقاماتِ الدينِ :

كالصدقِ في الخوفِ ، والرجاءِ ، والتعظيمِ ، والزهدِ ، والرضا ،

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٢٦١) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٥٥١) ، ووقع في النسخ : (عطية) بدل (عقبة) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٢٩٨) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٥٨٣) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ١٤٧) عن خالد بن صفوان ، وهو عند ابن أبي الدنيا في « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » (ص٩١) من وصية الحسن نفسه .

(٤) رواه الأزدي في « طبقات الصوفية » (ص ٢٨٦) .

والحبِّ ، والتوكُّلِ ، وسائرِ هٰذهِ الأمورِ ، فإنَّ هٰذهِ الأمورَ لها مبادٍ ينطلقُ الاسمُ بظهورِها ، ثمَّ لها غاياتٌ وحقائقُ ، والصادقُ المحقِّقُ مَنْ نالَ حقيقتَها .

وإذا غلبَ الشيءُ وتمَّتْ حقيقتُهُ . . سُمِّيَ صاحبُهُ صادقاً فيهِ ، كما يُقالُ : فلانٌ صدقَ القتالَ[1] ، ويقالُ : هٰذا هوَ الخوفُ الصادقُ ، وهٰذهِ هيَ الشهوةُ الصادقةُ .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ﴾ .

وسُئِلَ أبو ذرٍّ عنِ الإيمانِ ، فقرأَ هٰذهِ الآيةَ ، فقيلَ لهُ : سألناكَ عنِ الإيمانِ ! فقالَ : سألتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنِ الإيمانِ ، فقرأَ هٰذهِ الآيةَ[2] .

ولنضربْ للخوفِ مثلاً ، فما مِنْ عبدٍ يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ إلا وهوَ خائفٌ مِنَ اللهِ خوفاً ينطلقُ عليهِ الاسمُ ، ولكنَّهُ خوفٌ غيرُ صادقٍ ؛ أيْ : غيرُ

---

(١) يقال : فلان صدقَ القتالَ ؛ إذا بذل الجد ، وكذَّب عنه ؛ إذا جبن .

(٢) رواه المروزي في « تعظيم قدر الصلاة » (٤٠٨ ، ٤٠٩) ، وقال السيوطي في « الدر المنثور » (١/ ٤١٠) (أخرجه ابن أبي حاتم وصححه) ، وساق له روايات عن غير أبي ذر رضي الله عنه .

بالغِ درجةَ الحقيقةِ ، أما تراهُ إذا خافَ سلطاناً أَوْ قاطعَ طريقٍ في سفرِهِ كيفَ يصفرُّ لونُهُ ، وترتعدُ فرائصُهُ ، ويتنغَّصُ عليهِ عيشُهُ ، ويتعذَّرُ عليهِ أكلُهُ ونومُهُ ، وينقسمُ عليهِ فكرُهُ حتَّىٰ لا ينتفعُ بهِ أهلُهُ وولدُهُ ، وقدْ ينزعجُ عنِ الوطنِ فيستبدلُ بالأنسِ الوحشةَ ، وبالراحةِ التعبَ والمشقَّةَ والتعرُّضَ للأخطارِ ، كلُّ ذلكَ خوفاً مِنْ دركِ المحذورِ ، ثمَّ إنَّهُ يخافُ النارَ ، ولا يظهرُ عليهِ شيءٌ مِنْ ذلكَ عندَ جريانِ معصيةٍ عليهِ ، ولذلكَ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لمْ أرَ مثلَ النارِ نامَ هاربُها ، ولا مثلَ الجنةِ نامَ طالبُها »[1] .

فالتحقيقُ في هٰذهِ الأمورِ عزيزٌ جداً ، ولا غايةَ لهٰذهِ المقاماتِ حتىٰ يُنالَ تمامُها ، ولكنْ لكلِّ عبدٍ منهُ حظٌّ بحسَبِ حالِهِ ؛ إمَّا ضعيفٌ وإمَّا قويٌّ ، فإذا قويَ . . سُمِّيَ صادقاً فيهِ .

فمعرفةُ اللهِ تعالىٰ وتعظيمُهُ والخوفُ منهُ لا نهايةَ لهُ ، ولذلكَ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لجبريلَ : « أحبُّ أنْ أراكَ في صورتِكَ التي هيَ صورتُكَ » ، فقالَ : لا تطيقُ ذلكَ ، قالَ : « بلىٰ ، أرني » ، فواعدَهُ البقيعَ في ليلةٍ مقمرةٍ ، فأتاهُ ، فنظرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فإذا هوَ بهِ قدْ سدَّ الأفقَ ـ يعني : جوانبَ السماءِ ـ فوقعَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مغشيّاً عليهِ ، فأفاقَ وقدْ عادَ جبريلُ لصورتِهِ الأولىٰ ، فقال النبي صلَّى اللهُ عليهِ

---

(1) رواه الترمذي (٢٦٠١) ، والبيهقي في « الشعب » (٣٨٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٧٨) .

وسلَّمَ : « ما ظننتُ أنَّ أحداً مِنْ خلقِ اللهِ هـٰكذا » ، قالَ : كيفَ لوْ رأيت إسرافيلَ ؟ إنَّ العرشَ لعلىٰ كاهلِهِ ، وإنَّ رجليهِ قدْ مرقتا تخومَ الأرضينَ السفلىٰ ، وإنَّهُ ليتصاغرُ مِنْ عظمةِ اللهِ تعالىٰ حتىٰ يصيرَ كالوَصَعِ ؛ يعني : كالعصفورِ الصغيرِ[1] .

فانظرْ ما الذي يغشاهُ مِنَ العظمةِ والهيبةِ حتىٰ يرجعَ إلىٰ ذلكَ الحدِّ ، وسائرُ الملائكةِ ليسوا كذلكَ ؛ لتفاوتِهِمْ في المعرفةِ ، فهـٰذا هوَ الصدقُ في التعظيمِ .

وقالَ جابرٌ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مررتُ ليلةَ أُسريَ بي وجبريلُ بالملأِ الأعلىٰ كالحِلْسِ البالي مِنْ خشيةِ اللهِ تعالىٰ »[2] ؛ يعني الكساءَ الذي يُلقىٰ علىٰ ظهر البعيرِ .

وكذلكَ الصحابةُ كانوا خائفينَ ، وما كانوا بلغوا خوفَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ولذلكَ قالَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهما : لنْ يبلغَ الرجلُ حقيقةَ الإيمانِ حتَّىٰ يرى الناسَ كلَّهُمْ حمقىٰ في دينِ اللهِ)[3] .

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٢١) عن ابن شهاب مرسلاً ، والثعلبي في « تفسيره » (١٤٢/١٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، وقد تقدم أنه صلى الله عليه وسلم رأىٰ جبريل عليه السلام علىٰ صورته مرتين ، وهو ما رواه البخاري (٤٨٥٥) ، ومسلم (١٧٧) .

(٢) رواه ابن أبي عاصم في « السنة » (٦٣٤) ، والطبراني في « الأوسط » (٤٦٧٦) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٩٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٠٦/٦) .

وقالَ مطرِّفٌ : (ما مِنَ الناسِ أحدٌ إلا وهوَ أحمقُ فيما بينَهُ وبينَ ربِّهِ ، إلا أنَّ بعضَ الحمقِ أهونُ مِنْ بعضٍ)[1] .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يبلغُ عبدٌ حقيقةَ الإيمانِ حتىٰ ينظرَ إلى الناسِ كالأباعرِ في جنبِ اللهِ تعالىٰ ، ثمَّ يرجعَ إلىٰ نفسِهِ فيجدَها أحقرَ حقيرٍ »[2] .

فالصادقُ إذاً في جميعِ هٰذهِ المقاماتِ عزيزٌ ، ثمَّ درجاتُ الصدقِ لا نهايةَ لها ، وقدْ يكونُ للعبدِ صدقٌ في بعضِ الأمورِ دونَ بعضٍ ، فإنْ كانَ صادقاً في الجميعِ . . فهوَ الصدِّيقُ حقّاً ، قالَ سعدُ بنُ معاذٍ : (ثلاثةٌ أنا فيهنَّ قويٌّ ، وفيما سواهُنَّ ضعيفٌ : ما صليتُ صلاةً قطُّ منذُ أسلمتُ فحدثتُ نفسي حتَّىٰ أفرغَ منها ، ولا شيَّعتُ جنازةً فحدثتُ نفسي بغيرِ ما هيَ قائلةٌ وما هوَ مقولٌ لها حتىٰ يُفرغَ مِنْ دفنِها ، وما سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ قولاً إلا علمتُ أنَّهُ حقٌّ) ، فقالَ ابنُ المسيَّبِ : (ما ظننتُ أنَّ هٰذهِ الخصالَ تجتمعُ إلا في النبيِّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ)[3] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٢٨) ، وابن المبارك في « الزهد » (١٤٩٧) .

(٢) رواه الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص١٧٤) مرفوعاً ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٩٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٢١٢) من طريقه عن خالد بن معدان ، وروى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٧٢٦) عن أبي الدرداء رضي الله عنه : (لا تفقه كل الفقه حتىٰ تمقت الناس في جنب الله ، ثم ترجع إلىٰ نفسك فتكون أشد لها مقتاً) .

(٣) رواه البيهقي في « الشعب » (٢٨٩٤) ، وقول سعيد بن المسيب عنده من قول الزهري ، وعنده أيضاً (٢٨٩٥) من قول ابن عباس رضي الله عنهما .

فهٰذا صدقٌ في هٰذهِ الأمورِ ، وكمْ مِنْ جِلَّةِ الصحابةِ قدْ أدوُا الصلاةَ واتبعوا الجنائزَ ولمْ يبلغوا هٰذا المبلغَ !

فهٰذهِ هيَ درجاتُ الصدقِ ومعانيهِ ، والكلماتُ المأثورةُ عنِ المشايخِ في حقيقةِ الصدقِ في الأغلبِ لا تتعرَّضُ إلا لآحادِ هٰذهِ المعاني .

نعمْ ، قدْ قالَ أبو بكرٍ الورَّاقُ : (الصدقُ ثلاثةٌ : صدقُ التوحيدِ ، وصدقُ الطاعةِ ، وصدقُ المعرفةِ ، فصدقُ التوحيدِ لعامَّةِ المؤمنينَ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ﴾ ، وصدقُ الطاعةِ لأهلِ العلمِ والورعِ ، وصدقُ المعرفةِ لأهلِ الولايةِ الذينَ هُمْ أوتادُ الأرضِ)[١] .

وكلُّ هٰذا يدورُ علىٰ ما ذكرناهُ في الصدقِ السادسِ ، ولكنَّهُ ذكرُ أقسامِ ما فيهِ الصدقُ ، وهوَ أيضاً غيرُ محيطٍ بجميعِ الأقسامِ .

وقالَ جعفرٌ الصادقُ : (الصدقُ هوَ المجاهدةُ ، وألا تختارَ على اللهِ غيرَ اللهِ ؛ كما لمْ يخترْ عليكَ غيرَكَ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ ﴾)[١] .

وقيلَ : أوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ موسىٰ عليهِ السلامُ : (إنِّي إذا أحببتُ عبداً . . ابتليتُهُ ببلايا لا تقومُ بها الجبالُ ؛ لأنظرَ كيفَ صدقُهُ ، فإنْ وجدتُهُ صابراً . . اتخذتُهُ وليّاً وحبيباً ، وإنْ وجدتُهُ جزوعاً يشكوني إلىٰ خلقي . . خذلتُهُ ولمْ أبالِ)[٢] .

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٩٦) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٢٩٨) .



فإذاً ؛ مِنْ علاماتِ الصدقِ كتمانُ المصائبِ والطاعاتِ جميعاً ، وكراهةُ اطلاعِ الخلقِ عليها ، واللهُ أعلمُ .

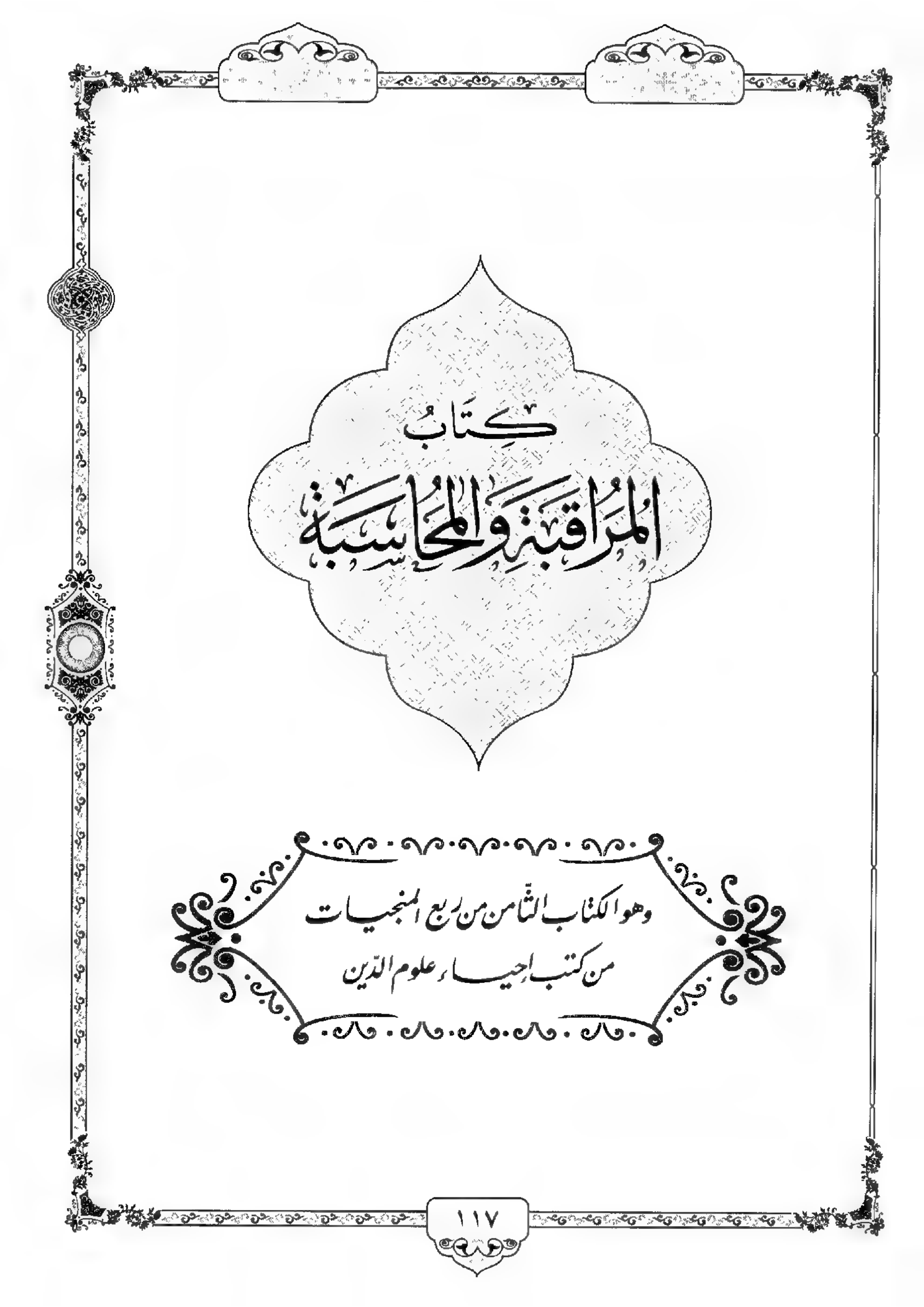
* * *

تمّ كتاب النيّة والإخلاص والصدق

وهو الكتاب السّابع من ربع المنجيات من كتب إحياء علوم الدّين

ولله الحمد والمنّة ، وصلّى الله على خير خلقه محمّد النّبيّ وآله الطّاهرين وسلّم تسليماً

يتلوه كتاب المراقبة والمحاسبة


كتاب
المراقبة والمحاسبة
وهو الكتاب الثامن من ربع المنجيات
من كتب إحياء علوم الدين

كتاب المراقبة والمحاسبة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ القائمِ علىٰ كلِّ نفْسٍ بما كسبَتِ ، الرقيبِ علىٰ كلِّ جارحةٍ بما اجترحَتِ ، المطَّلعِ علىٰ ضمائرِ القلوبِ إذا هجسَتِ ، الحسيبِ علىٰ خواطرِ عبادِهِ إذا اختلجَتِ ، الذي لا يعزبُ عنْ علمِهِ مثقالُ ذرَّةٍ في السماواتِ والأرضِ تحرَّكَتْ أَوْ سكنَتِ ، المحاسبِ على النقيرِ والقطميرِ والقليلِ والكثيرِ مِنَ الأعمالِ وإنْ خفيَتِ ، المتفضِّلِ بقبولِ طاعاتِ العبادِ وإنْ صغرَتِ ، المتطوِّلِ بالعفوِ عنْ معاصيهِمْ وإنْ كثرَتْ ، وإنَّما يحاسبُهُمْ لتعلمَ كلُّ نفْسٍ ما أحضرَتْ ، وتنظرَ فيما قدَّمَتْ وأخَّرَتْ ، فتعلمَ أنَّهُ لولا لزومُها للمراقبةِ والمحاسبةِ في الدنيا . . لشقيَتْ في صعيدِ القيامةِ وهلكَتْ ، وبعدَ المجاهدةِ والمحاسبةِ والمراقبةِ لولا فضْلُ اللهِ بقبولِ بضاعتِها المزجاةِ . . لخابَتْ وخسرَتْ ، فسبحانَ مَنْ عمَّتْ نعمتُهُ كافَّةَ العبادِ وشملَتْ ، واستغرقَتْ رحمتُهُ الخلائقَ في الدنيا والآخرةِ وغمرَتْ ، فبنفحاتِ فضلِهِ اتسعَتِ القلوبُ للإيمانِ وانشرحَتْ ، وبيُمْنِ توفيقِهِ تقيَّدَتِ الجوارحُ بالعباداتِ وتأدَّبَتْ ، وبحسنِ هدايتِهِ انجلَتْ عنِ القلوبِ ظلماتُ الجهلِ وانقشعَتْ ، وبتأييدِهِ ونصرتِهِ انقطعَتْ مكايدُ الشيطانِ واندفعَتْ ، وبلطفِ عنايتِهِ تترجَّحُ كِفَّةُ الحسناتِ إذَا ثقلَتْ ، وبتيسيرِهِ تيسَّرَتْ مِنَ الطاعاتِ

ما تيسَّرَتْ ، فمنهُ العطاءُ والجزاءُ ، والإبعادُ والإدناءُ ، والإسعادُ والإشقاءُ .

والصلاةُ علىٰ محمدٍ سيِّدِ الأنبياءِ ، وعلىٰ آلِهِ سادةِ الأصفياءِ ، وعلىٰ أصحابِهِ قادةِ الأتقياءِ ، وسلَّمَ كثيراً .

أما بعد :

فقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۞ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ۛ وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ﴾ .

فعرفَ أربابُ البصائرِ مِنْ جملةِ العبادِ أنَّ اللهَ تعالىٰ لهُمْ بالمرصادِ ،

وأنهُمْ سيُناقشونَ في الحسابِ ، ويُطالبونَ بمثاقيلِ الذرِّ مِنَ الخطراتِ واللحظاتِ ، وتحقَّقوا أنَّهُ لا ينجيهِمْ مِنْ هـٰذهِ الأخطارِ إلا لزومُ المحاسبةِ ، وصدْقُ المراقبةِ ، ومطالبةُ النفسِ في الأنفاسِ والحركاتِ ، ومحاسبتُها في الخطراتِ واللحظاتِ ، فمَنْ حاسبَ نفسَهُ قبلَ أَنْ يُحاسبَ . . خفَّ في القيامةِ حسابُهُ ، وحضرَ عندَ السؤالِ جوابُهُ ، وحسُنَ منقلبُهُ ومآبُهُ ، ومَنْ لمْ يحاسبْ نفسَهُ . . دامَتْ حسراتُهُ ، وطالَتْ في عرصاتِ القيامةِ وقفاتُهُ ، وقادَتْهُ إلى الخزيِ والمقتِ سيئاتُهُ .

فلمَّا انكشفَ لهُمْ ذلكَ . . علموا أنَّهُ لا ينجيهِمْ منهُ إلا طاعةُ اللهِ تعالىٰ ، وقدْ أمرَهُمْ بالصبرِ والمرابطةِ فقالَ عزَّ مِنْ قائلٍ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ ﴾ ، فرابطوا أنفسَهُمْ أوَّلاً بالمشارطةِ ، ثمَّ بالمراقبةِ ، ثمَّ بالمحاسبةِ ، ثمَّ بالمعاقبةِ ، ثمَّ بالمجاهدةِ ، ثمَّ بالمعاتبةِ ، فكانَ لهُمْ في المرابطةِ ستُّ مقاماتٍ ، ولا بدَّ مِنْ شرحِها وبيانِ حقيقتِها وفضيلتِها ، وتفصيلِ الأعمالِ فيها ، وأصلُ ذلكَ المحاسبةُ ، ولكنْ كلُّ حسابٍ فبعدَ مشارطةٍ ومراقبةٍ ، ويتبعُهُ عندَ الخسرانِ معاتبةٌ ومعاقبةٌ ، فلنذكرْ شرحَ هـٰذهِ المقاماتِ ، وباللهِ التوفيقُ .



المقامُ الأوّلُ مِنَ المرابطة
المُشارطة

اعلمْ : أنَّ مطلبَ المتعاملينَ في التجاراتِ ، المشتركينَ في البضائعِ عندَ المحاسبةِ . . سلامةُ الربحِ ، وكما أنَّ التاجرَ يستعينُ بشريكِهِ فيسلِّمُ إليهِ المالَ حتىٰ يتَّجرَ ثمَّ يحاسبُهُ . . فكذلكَ العقلُ هوَ التاجرُ في طريقِ الآخرةِ[1] ، وإنَّما مطلبُهُ وربحُهُ تزكيةُ النفسِ إذْ بهِ فلاحُها .

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ ، وإنَّما فلاحُها بالأعمالِ الصالحةِ ، والعقلُ يستعينُ بالنفسِ في هٰذهِ التجارةِ ، إذْ يستعملُها ويستسخرُها فيما يزكِّيها ؛ كما يستعينُ التاجرُ بشريكِهِ وغلامِهِ الذي يتَّجرُ في مالِهِ .

وكما أنَّ الشريكَ يصيرُ خصماً منازعاً يجاذبُهُ في الربحِ ، فيحتاجُ إلىٰ أنْ يشارطَهُ أوَّلاً ، ويراقبَهُ ثانياً ، ويحاسبَهُ ثالثاً ، ويعاتبَهُ أو يعاقبَهُ رابعاً . . فكذلكَ العقلُ يحتاجُ إلىٰ مشارطةِ النفسِ أوَّلاً ، فيوظِّفُ عليها الوظائفَ ، ويشرطُ عليها الشروطَ ، ويرشدُها إلىٰ طريقِ الفلاحِ ، ويجزمُ عليها الأمرَ بسلوكِ تلكَ الطريقِ ، ثمَّ لا يغفُلُ عنْ مراقبتِها لحظةً ، فإنَّهُ لوْ أهملَها . . لمْ

---

(١) في (ب) زيادة : (ورأس ماله إنما هو العمر) .

يرَ منها إلا الخيانةَ وتضييعَ رأسِ المالِ ؛ كالعبدِ الخائنِ إذا خلا لهُ الجوُّ وانفردَ بالمالِ .

ثمَّ بعدَ الفراغِ ينبغي أنْ يحاسبَها ويطالبَها بالوفاءِ بما شرطَ عليها ، فإنَّ هٰذهِ تجارةٌ ربحُها الفردوسُ الأعلىٰ ، وبلوغُ سدرةِ المنتهىٰ معَ الأنبياءِ والشهداءِ ، فتدقيقُ الحسابِ في هٰذا معَ النفسِ أهمُّ كثيراً مِنْ تدقيقِهِ في أرباحِ الدنيا ، معَ أنَّها محتقرةٌ بالإضافةِ إلىٰ نعيمِ العقبىٰ ، ثمَّ كيفما كانَتْ فمصيرُها إلى التصرُّمِ والانقضاءِ ، ولا خيرَ في خيرٍ لا يدومُ ، بلْ شرٌّ لا يدومُ خيرٌ مِنْ خيرٍ لا يدومُ ؛ لأنَّ الشرَّ الذي لا يدومُ إذا انقطعَ . . بقيَ الفرحُ بانقطاعِهِ دائماً وقدِ انقضى الشرُّ ، والخيرَ الذي لا يدومُ يبقى الأسفُ على انقطاعِهِ دائماً وقدِ انقضى الخيرُ ، ولذلكَ قيلَ[1] : [من الوافر]

أَشَـدُّ ٱلْغَـمِّ عِنْـدِي فِـي سُـرُورٍ ... تَيَقَّـنَ عَنْـهُ صَـاحِبُـهُ ٱنْتِقَـالا

فحتمٌ علىٰ كلِّ ذي حزمٍ آمنَ باللهِ واليومِ الآخرِ ألا يغفُلَ عنْ محاسبةِ نفسِهِ ، والتضييقِ عليها في حركاتِها وسكناتِها ، وخطراتِها وخطواتِها ؛ فإنَّ كلَّ نفَسٍ مِنْ أنفاسِ العمرِ جوهرةٌ نفيسةٌ لا عوضَ لها ، يمكنُ أنْ يُشترىٰ بها كنزٌ مِنَ الكنوزِ لا يتناهىٰ نعيمُهُ أبدَ الآبادِ ، فانقضاءُ هٰذه الأنفاسِ ضائعةً أوْ مصروفةً إلىٰ ما يجلبُ الهلاكَ خسرانٌ عظيمٌ هائلٌ ، لا تسمحُ بهِ نفسُ عاقلٍ .

فإذا أصبحَ العبدُ وفرغَ مِنْ فريضةِ الصبحِ . . ينبغي أنْ يفرغَ قلبَهُ ساعةً

---

(١) البيت للمتنبي في « ديوانه بشرح العكبري » (٣/ ٢٢٤) .

لمشارطةِ النفسِ ؛ كما أنَّ التاجرَ عندَ تسليمِ البضاعةِ إلى الشريكِ العاملِ يفرغُ المجلسَ لمشارطتِهِ ، فيقولُ للنفسِ : ما لي بضاعةٌ إلا العمرُ ، ومهما فنيَ . . فقدْ فنيَ رأسُ المالِ ، ووقعَ اليأسُ عنِ التجارةِ وطلبِ الربحِ ، وهٰذا اليومُ الجديدُ قدْ أمهلَنِي اللهُ تعالىٰ فيهِ ، وأنسأَني أجلي[1] ، وأنعمَ عليَّ بهِ ، ولوْ توفَّاني . . لكنتُ أتمنَّىٰ أنْ يرجعَني إلى الدنيا يوماً واحداً حتىٰ أعملَ فيهِ صالحاً ، فاحسبي أنَّكِ قدْ تُوفيتِ ، ثمَّ رُددتِ ، فإيَّاكِ ثمَّ إيَّاكِ أنْ تضيِّعي هٰذا اليومَ ، فإنَّ كلَّ نفَسٍ مِنَ الأنفاسِ جوهرةٌ لا قيمةَ لها ، واعلمي يا نفسُ ؛ أنَّ اليومَ والليلةَ أربعٌ وعشرونَ ساعةً ، وقدْ وردَ في الخبرِ أنَّهُ يُنشرُ للعبدِ بكلِّ يومٍ وليلةٍ أربعٌ وعشرونَ خزانةً مصفوفةً ، فيُفتحُ لهُ منها خزانةٌ ، فيراها مملوءةً نوراً مِنْ حسناتِهِ التي عملَها في تلكَ الساعةِ ، فينالُهُ مِنَ الفرحِ والسرورِ والاستبشارِ بمشاهدةِ تلكَ الأنوارِ التي هيَ وسيلةٌ عندَ الملكِ الجبارِ ما لوْ وُزِّعَ علىٰ أهلِ النارِ . . لأدهشَهُمْ ذلكَ الفرحُ عنِ الإحساسِ بألمِ النارِ ، ويُفتحُ لهُ خزانةٌ أخرىٰ سوداءُ مظلمةٌ ، يفوحُ نَتْنُها ، ويتغشاهُ ظلامُها ، وهيَ الساعةُ التي عصى اللهَ تعالىٰ فيها ، فينالُهُ مِنَ الهولِ والفزعِ ما لوْ قُسمَ علىٰ أهلِ الجنةِ لتنغَّصَ عليهم نعيمُها ، ويُفتحُ لهُ خزانةٌ أخرىٰ فارغةٌ ليسَ فيها ما يسرُّهُ ولا ما يسوءُهُ ، وهي الساعةُ التي نامَ فيها ، أوْ غفَلَ ، أوِ اشتغلَ بشيءٍ مِنْ مباحاتِ الدنيا ، فيتحسَّرُ علىٰ خلوِّها ، وينالُهُ مِنْ غبنِ ذلكَ ما ينالُ

(١) يقال : أنسأه الله أجله ونسأه في أجله بمعنىً ؛ أخَّره وفسح له فيه .

القادرَ على الربحِ الكثيرِ والملكِ الكبيرِ إذا أهملَهُ وتساهلَ فيهِ حتىٰ فاتَهُ ، وناهيكِ بهِ حسرةً وغبناً ، وهٰكذا تُعرضُ عليهِ خزائنُ أوقاتِهِ طولَ عمرِهِ[1] .

فيقولُ لنفسِهِ : اجتهدي اليومَ في أنْ تعمُري خزانتَكِ ، ولا تدعيها فارغةً عنْ كنوزِكِ التي هيَ أسبابُ ملكِكِ ، ولا تميلي إلى الكسلِ والدعةِ والاستراحةِ فيفوتَكِ مِن درجاتِ علِّيينَ ما يدركُهُ غيرُكِ ، وتبقىٰ عندَكِ حسرةٌ لا تفارقُكِ وإنْ دخلتِ الجنةَ ، فألمُ الغبنِ والحسرةِ لا يُطاقُ وإنْ كانَ دونَ ألمِ النارِ .

وقدْ قالَ بعضُهُمْ : هبْ أنَّ المسيءَ قدْ عُفِيَ عنهُ ؛ أليسَ قدْ فاتَهُ ثوابُ المحسنينَ ؟![2] أشارَ بهِ إلى الغبنِ والحسرةِ ، وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ﴾ .

---

(١) كذا بألفاظ مقاربة في « القوت » (١/١٠٦) ، ولم يذكر رفعه ، بل قال : (ويقال . . .) ، ورواه مختصراً البيهقي في « الشعب » (٥٠٨) من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً : « ما من ساعة تمر بابن آدم لم يذكر الله فيها إلا تحسَّر عليها يوم القيامة » ، وعنده (٥٠٩ ، ٥١٠) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه مرفوعاً أيضاً : « ليس يتحسَّر أهل الجنة إلا علىٰ ساعة مرَّت بهم لم يذكروا الله فيها » ، وروىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٦/١٤١) عن الأوزاعي : (ليس ساعة من ساعات الدنيا إلا وهي معروضة على العبد يوم القيامة ، يوماً فيوماً ، وساعة فساعة ، ولا تمرُّ به ساعة لم يذكر الله تعالىٰ فيها إلا تقطَّعت نفسه عليها حسرات ، فكيف إذا مرت به ساعة مع ساعة ، ويوم مع يوم ، وليلة مع ليلة ؟!) .

(٢) كذا في « القوت » (١/١٠٦) ، ورواه ابن أبي الدنيا في « التوبة » (٦٩) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٧٤) .

فهٰذهِ وصيتُهُ لنفسِهِ في أوقاتِهِ .

ثمَّ ليستأنفْ لها وصيةً في أعضائِهِ السبعةِ ؛ وهيَ العينُ ، والأذنُ ، واللسانُ ، والبطنُ ، والفرجُ ، واليدُ ، والرجْلُ ، ويسلِّمُها إليها ؛ فإنَّها رعايا خادمةٌ لنفسِهِ في هٰذهِ التجارةِ ، وبها تتمُّ أعمالُ هٰذهِ التجارةِ ، وإنَّ لجهنَّمَ سبعةَ أبوابٍ ، لكلِّ بابٍ منهُمْ جزءٌ مقسومٌ ، وإنَّما تتعيَّنُ تلكَ الأبوابُ لمَنْ عصى اللهَ تعالىٰ بهٰذهِ الأعضاءِ ، فيوصيها بحفظِها عنْ معاصيها .

أمَّا العينُ : فيحفظُها عنِ النظرِ إلىٰ وجهِ مَنْ ليسَ لهُ بمحرمٍ ، أوْ إلىٰ عورةِ مسلمٍ ، أوِ النظرِ إلىٰ مسلمٍ بعينِ الاحتقارِ ، بلْ عنْ كلِّ فضولٍ مستغنىً عنهُ ، فإنَّ اللهَ تعالىٰ يسألُ عبدَهُ عنْ فضولِ النظرِ كما يسألُهُ عنْ فضولِ الكلامِ[1] .

ثمَّ إذا صرفَها عنْ هٰذا لمْ تقنعْ بهِ حتىٰ يشغلَها بما فيهِ نجاتُها وربحُها ، وهوَ ما خُلقَتْ لهُ مِنَ النظرِ إلىٰ عجائبِ صنعِ اللهِ تعالىٰ بعينِ الاعتبارِ ، والنظرِ إلىٰ أعمالِ الخيرِ للاقتداءِ ، والنظرِ في كتابِ اللهِ تعالىٰ وسنةِ رسولِهِ ، ومطالعةِ كتبِ الحكمةِ للاتعاظِ والاستفادةِ .

وهكذا ينبغي أنْ يفصِّلَ الأمرَ عليها في عضوٍ عضوٍ ، لا سيما اللسانُ والبطنُ .

---

(١) كذا أورده المحاسبي في « رسالة المسترشدين » (ص ١٧٩) عن داوود الطائي بلاغاً ، قال : (وقال داوود الطائي لرجل وقد أحدَّ النظر إلىٰ بعض من ينظر إليه : يا هٰذا ؛ اردد نظرك عليك ؛ فإنه بلغني أن الرجل يسأل عن فضول نظره كما يسأل عن فضول عمله) .

أَمَّا اللسانُ : فلأنَّهُ منطلقٌ بالطبعِ ، ولا مؤنةَ عليهِ في الحركةِ ، وجنايتُهُ عظيمةٌ بالغيبةِ ، والكذبِ ، والنميمةِ ، وتزكيةِ النفسِ ، ومذمَّةِ الخلْقِ والأطعمةِ ، واللعنِ ، والدعاءِ على الأعداءِ ، والمماراةِ في الكلامِ ، وغيرِ ذلكَ ممَّا ذكرناهُ في كتابِ آفاتِ اللسانِ ، فهوَ بصددِ ذلكَ كلِّهِ ، معَ أنَّهُ خُلِقَ للذكرِ والتذكيرِ ، وتكرارِ العلمِ والتعليمِ ، وإرشادِ عبادِ اللهِ إلىٰ طريقِ اللهِ ، وإصلاحِ ذاتِ البينِ ، وسائرِ خيراتِهِ ، فليشترطْ علىٰ نفسِهِ ألا يحرِّكَ اللسانَ طولَ نهارِهِ إلا في الذكرِ ، فنطْقُ المؤمنِ ذكرٌ ، ونظرُهُ عبرةٌ ، وصمتُهُ فكرةٌ ، وما يلفظُ مِنْ قولٍ إلا لديهِ رقيبٌ عتيدٌ .

وأمَّا البطنُ : فيكلِّفُهُ تركَ الشرهِ ، وتقليلَ الأكلِ مِنَ الحلالِ ، واجتنابَ الشبهاتِ ، ويمنعُهُ مِنَ الشهواتِ ، ويقتصرُ علىٰ قدْرِ الضرورةِ ، ويشرطُ علىٰ نفسِهِ أنَّها إنْ خالفَتْ شيئاً مِنْ ذلكَ . . عاقبَها بالمنعِ عنْ شهواتِ البطنِ ؛ ليفوتَها أكثرَ ممَّا نالَتْهُ بشهوتِها .

وهكذا يشترطُ عليها في جميعِ الأعضاءِ ، واستقصاءُ ذلكَ يطولُ ، ولا تخفىٰ معاصي الأعضاءِ وطاعاتُها .

ثمَّ يستأنفُ وصيَّتَها في وظائفِ الطاعاتِ التي تتكرَّرُ عليهِ في اليومِ والليلةِ ، ثمَّ في النوافلِ التي يقدرُ عليها ، ويقدرُ على الاستكثارِ منها ، ويرتِّبُ لها تفصيلَها ، وكيفيتَها وكيفيةَ الاستعدادِ لها بأسبابِها .

وهٰذهِ شروطٌ يفتقرُ إليها في كلِّ يومٍ ، ولكنْ إذا تعوَّدَ الإنسانُ شرْطَ ذلكَ

علىٰ نفسِهِ أياماً ، وطاوعتْهُ نفسُهُ في الوفاءِ بجميعِها . . استغنىٰ عنِ المشارطةِ فيها ، وإنْ أطاعَ في بعضِها . . بقيَتِ الحاجةُ إلىٰ تجديدِ المشارطةِ فيما بقيَ ، ولكن لا يخلو كلُّ يومٍ عنْ مهمٍّ جديدٍ ، وواقعةٍ حادثةٍ لها حكمٌ جديدٌ ، وللهِ عليهِ في ذلكَ حقٌّ ، ويكثرُ هـٰذا علىٰ مَنْ يشتغلُ بشيءٍ مِنْ أعمالِ الدنيا ؛ مِنْ ولايةٍ ، أوْ تجارةٍ ، أوْ تدريسٍ ؛ إذْ قلَّما يخلو يومٌ عنْ واقعةٍ جديدةٍ يحتاجُ إلىٰ أنْ يقضيَ حقَّ اللهِ فيها ، فعليهِ أنْ يشترطَ علىٰ نفسِهِ الاستقامةَ فيها ، والانقيادَ للحقِّ في مجاريها ، ويحذِّرَها مغبَّةَ الإهمالِ ، ويعظَها كما يُوعظُ العبدُ الآبقُ المتمرِّدُ ؛ فإنَّ النفسَ بالطبعِ متمردةٌ عنِ الطاعاتِ ، مستعصيةٌ عنِ العبوديةِ ، ولكنَّ الوعظَ والتأديبَ يؤثِّرُ فيها ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

فهـٰذا وما يجرىٰ مجراهُ هوَ أوَّلُ مقامِ المرابطةِ معَ النفسِ ، وهيَ المحاسبةُ قبلَ العملِ ، والمحاسبةُ تارةً تكونُ بعدَ العملِ ، وتارةً قبلَهُ للتحذيرِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ﴾ ، وهـٰذا للمستقبلِ .

وكلُّ نظرٍ في كثرةٍ ومقدارٍ لمعرفةِ زيادةٍ ونقصانٍ فإنَّهُ يُسمَّىٰ محاسبةً ، فالنظرُ فيما بينَ يدي العبدِ في نهارِهِ ليعرفَ زيادتَهُ مِنْ نقصانِهِ مِنَ المحاسبةِ ، وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ :

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ ، ذكرَ ذلكَ تحذيراً وتنبيهاً للاحترازِ منهُ في المستقبلِ .

وروىٰ عبادةُ بنُ الصامتِ أنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ قالَ لرجلٍ سألَهُ أنْ يوصيَهُ ويعظَهُ : « إذا أردتَ أمراً . . فتدبَّرْ عاقبتَهُ ؛ فإنْ كانَ رشداً . . فأمضِهِ ، وإنْ كانَ غيّاً . . فانتهِ عنهُ »[1] .

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (إذا أردتَ أنْ يكونَ العقلُ غالباً للهوىٰ . . فلا تعملْ بقضاءِ الشهوةِ حتىٰ تنظرَ العاقبةَ ، فإنَّ مكثَ الندامةِ في القلبِ أكثرُ مِنْ مكثِ خفةِ الشهوةِ) .

وقالَ لقمانُ : (إنَّ المؤمنَ إذا أبصرَ العاقبةَ . . أمنَ الندامةَ) .

وروىَ شدادُ بنُ أوسٍ عنهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « الكيِّسُ مَنْ دانَ نفسَهُ وعملَ لما بعدَ الموتِ ، والأحمقُ مَنْ أتبعَ نفسَهُ هواها وتمنَّىٰ على اللهِ »[2] ، دانَ نفسَهُ ؛ أيْ : حاسبَها ، ويومُ الدينِ هوَ يومُ الحسابِ ، وقولُهُ : ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ أيْ : لمحاسبونَ .

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤١) عن عبد الله بن مسور أبي جعفر مرسلاً ، ورواه أبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (١/٣٥٩) عن أبي جعفر ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هل أنت مستوصٍ إن أوصيتك ؟ » قلت : نعم ، قال : « إذا هممت بأمر . . فتدبر عاقبته ؛ فإن كان رشداً . . فأمضه ، وإن كان غيّاً . . فانتهِ » .

(٢) رواه الترمذي (٢٤٥٩) ، وابن ماجه (٤٢٦٠) .

وقالَ عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ : (حاسبوا أنفسَكُمْ قبلَ أَنْ تُحاسبوا ، وزنوها قبلَ أنْ تُوزنوا ، وتهيَّؤوا للعرضِ الأكبرِ)[١] .

وكتبَ إلىٰ أبي موسى الأشعريِّ : (حاسبْ نفسَكَ في الرخاءِ قبلَ حسابِ الشدَّةِ)[٢] .

وقالَ لكعبِ الأحبارِ : كيفَ تجدُنا في كتابِ اللهِ ـ يعني التوراةَ ـ ؟ قالَ : ويلٌ لديَّانِ الأرضِ مِنْ ديَّانِ السماءِ ، فعلاهُ بالدِّرَّةِ وقالَ : إلا مَنْ حاسبَ نفسَهُ ، فقالَ كعبٌ : واللهِ يا أميرَ المؤمنينَ ؛ إنَّها إلىٰ جنبِها في التوراةِ ، ما بينَهُما حرفٌ : إلا مَنْ حاسبَ نفسَهُ[٣] .

وهـٰذا كلُّهُ إشارةٌ إلى المحاسبةِ للمستقبلِ ؛ إذْ قالَ : « مَنْ دانَ نفسَهُ فعملَ لما بعدَ الموتِ » ، ومعناهُ : وزنَ الأمورَ أوَّلاً ، وقدَّرَها ، ونظرَ فيها ، وتدبَّرَها ، ثمَّ أقدمَ عليها فباشرَها .

* * *

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣٠٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٥٢) .
(٢) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٤٦٢) ، وفيه : (إلىٰ بعض عمَّاله) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٣٨٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٧٠٠٨) دون قوله : (كيف تجدنا) ، وسؤاله عن نفسه : (كيف تجدني) عند أبي داوود (٤٦٥٦) .

المُرابطة الثّانيَة
المراقبة

إذا أوصى الإنسانُ نفسَهُ ، وشرطَ عليها ما ذكرناهُ . . فلا يبقىٰ إلا المراقبةُ لها عندَ الخوضِ في الأعمالِ ، وملاحظتُها بالعينِ الكالئةِ ؛ فإنَّها إنْ تُركَتْ . . طغَتْ وفسدَتْ .

* * *

ولنذكرْ فضيلةَ المراقبةِ ثمَّ درجاتِها .

فضيلة المراقبة (1)

أمّا الفضيلةُ : فقدْ سألَ جبريلُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنِ الإحسانِ ، فقالَ : « أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّكَ تراهُ ، فإنْ لمْ تكنْ تراهُ فإنَّهُ يراكَ »(2) .

وقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴾ .

وقالَ ابنُ المباركِ لرجلٍ : راقبِ اللهَ تعالىٰ ، فسألَهُ عنْ تفسيرِهِ ، فقالَ : كُنْ أبداً كأنَّكَ ترى اللهَ عزَّ وجلَّ(3) .

وقالَ عبدُ الواحدِ بنُ زيدٍ : (إذا كانَ سيِّدي رقيباً عليَّ . . فما أبالي بغيرِهِ)(4) .

وقالَ أبو عثمانَ المغربيُّ : (أفضلُ ما يُلزمُ الإنسانُ نفسَهُ في هٰذهِ

---

(1) العنوان زيادة من اللجنة العلمية .

(2) رواه البخاري (٥٠) ، ومسلم (٩) ، وفي غير (أ) و(ج) جاء السياق : (. . . كأنك تراه » ، وقال عليه الصلاة والسلام : « اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه . . فإنه يراك ») ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٢٠٢) .

(3) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٦٣) ، وسياق المصنف عنده .

(4) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٦٣) .

الطريقةِ المحاسبةُ والمراقبةُ ، وسياسةُ عملِهِ بالعلمِ)[1] .

وقالَ ابنُ عطاءٍ : (أفضلُ الطاعاتِ مراقبةُ الحقِّ على دوامِ الأوقاتِ)[1] .

وقالَ الجريريُّ : (أمرُنا هٰذا مبنيٌّ على أصلينِ : أنْ تلزمَ نفسَكَ المراقبةَ للهِ عزَّ وجلَّ ، ويكونَ العلمُ على ظاهرِكَ قائماً)[1] .

وقالَ أبو عثمانَ : قالَ لي أبو حفصٍ : (إذا جلستَ للناسِ . . فكُنْ واعظاً لنفسِكَ وقلبِكَ ، ولا يغرَّنَّكَ اجتماعُهُمْ عليكَ ؛ فإنَّهُمْ يراقبونَ ظاهرَكَ ، واللهُ رقيبٌ على باطنِكَ)[2] .

وحُكِيَ أنَّهُ كانَ لبعضِ مشايخِ هٰذهِ الطبقةِ تلميذٌ شابٌّ ، وكانَ يكرمُهُ ويقدمُهُ ، فقالَ لهُ بعضُ أصحابِهِ : كيفَ تكرمُ هٰذا وهوَ شابٌّ ونحنُ شيوخٌ ؟! فدعا بعدَّةِ طيورٍ ، وناولَ كلَّ واحدٍ منهُمْ طائراً وسكِّيناً وقالَ : ليذبحْ كلُّ واحدٍ منكُمْ طائرَهُ في موضعٍ بحيثُ لا يراهُ أحدٌ ، ودفعَ إلى الشابِّ مثلَ ذلكَ ، وقالَ : اذبحْهُ حيثُ لا يراكَ أحدٌ ، فرجعَ كلُّ واحدٍ بطائرِهِ مذبوحاً ، ورجعَ الشابُّ والطائرُ حيٌّ في يدِهِ ، فقالَ : ما لكَ لمْ تذبحْ وقدْ ذبحَ أصحابُكَ ؟ فقالَ : لمْ أجدْ موضعاً لا يراني فيهِ أحدٌ ؛ إذِ اللهُ مطَّلعٌ عليَّ

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٦٤) ، ورواه القشيري في « رسالته » (ص ٣٣٥) .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٦٤) .

في كلِّ مكانٍ ، فاستحسنوا منهُ مراقبتَهُ ، وقالوا : حُقَّ لكَ أنْ تُكرمَ[1] .

وحُكِيَ أنَّ زليخا لمَّا خلَتْ بيوسفَ عليهِ السلامُ.. قامَتْ فغطَّتْ وجهَ صنمِها ، فقالَ يوسفُ : ما لكِ ، أتستحيينَ مِنْ مراقبةِ جمادٍ ولا أستحيي مِنْ مراقبةِ الملكِ الجبَّارِ ؟![2] .

وحُكِيَ عنْ بعضِ الأحداثِ أنَّهُ راودَ جاريةً عنْ نفسِها ، فقالَتْ لهُ : ألا تستحيي ؟ فقالَ : ممَّنْ أستحيي وما يرانا إلا الكواكبُ ؟ قالَتْ : وأينَ مُكَوْكِبُها ؟![3] .

وقالَ رجلٌ للجنيدِ : بِمَ أستعينُ على غضِّ البصرِ ؟ قالَ : بعلمِكَ أنَّ نظرَ الناظرِ إليكَ أسبقُ مِنْ نظرِكَ إلى المنظورِ إليهِ[4] .

وقالَ الجنيدُ : (إنَّما يتحقَّقُ بالمراقبةِ مَنْ يخافُ على فوتِ حظِّهِ مِنْ ربِّهِ عزَّ وجلَّ)[5] .

وعنْ مالكِ بنِ دينارٍ قالَ : جنَّاتُ عدنٍ مِنْ جنَّاتِ الفردوسِ ، وفيها حورٌ خُلقنَ مِنْ وردِ الجنةِ ، قيلَ لهُ : ومَنْ يسكنُها ؟ قالَ : يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ :

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٦٤) ، والقشيري في « رسالته » (ص ٣٣٤) .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٦٥) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٦٥) ، ورواه الخرائطي في « اعتلال القلوب » (٨٣) .

(٤) رواه الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٦٦) .

(٥) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٦٦) .

إنَّما يسكنُ جنَّاتِ عدنٍ الذينَ إذا همُّوا بالمعاصي. . ذكروا عظمتي فراقبوني ، والذين انثنَتْ أصلابُهُمْ مِنْ خشيتي ، وعزَّتي وجلالي ؛ إنِّي لأَهُمُّ بعذابِ أهل الأرضِ ، فإذا نظرتُ إلىٰ أهلِ الجوعِ والعطشِ مِنْ مخافتي. . صرفتُ عنهُمُ العذابَ[1] .

وسُئِلَ المحاسبيُّ عنِ المراقبةِ فقالَ : أوَّلُها علمُ القلبِ بقرْبِ الربِّ تعالىٰ[2] .

وقالَ المرتعشُ : (المراقبةُ مراعاةُ السرِّ بملاحظةِ الغيبِ معَ كلِّ لحظةٍ ولفظةٍ)[3] .

ويُروىٰ أنَّ اللهَ تعالىٰ قالَ لملائكتِهِ : أنتمْ موكَّلونَ بالظواهرِ ، وأنا الرقيبُ على البواطنِ[4] .

وقالَ محمدُ بنُ عليٍّ الترمذيُّ : (اجعلْ مراقبتَكَ لمَنْ لا تغيبُ عنْ نظرِهِ إليكَ ، واجعلْ شكرَكَ لمَنْ لا تنقطعُ نعمُهُ عنكَ ، واجعلْ طاعتَكَ لمَنْ لا تستغني عنهُ ، واجعلْ خضوعَكَ لمَنْ لا تخرجُ عنْ ملكِهِ وسلطانِهِ)[5] .

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (٦٥٩٤) ، وهو عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٦٦) .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٦٧) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٦٧) ، ورواه القشيري في « رسالته » (ص ٣٣٥) .

(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٦٨) .

(٥) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٦٨) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٢٣٥/١٠) .

وقالَ سهلٌ : (لمْ يتزيَّنِ القلبُ بشيءٍ أفضلَ ولا أشرفَ مِنْ علمِ العبدِ بأنَّ اللهَ شاهدُهُ حيثُ كانَ)[1] .

وسُئِلَ بعضُهُمْ عنْ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴾ ، فقالَ : معناهُ : ذلكَ لمَنْ راقبَ ربَّهُ عزَّ وجلَّ ، وحاسبَ نفسَهُ ، وتزوَّدَ لمعادِهِ[2] .

وسُئِلَ ذو النونِ : بمَ ينالُ العبدُ الجنةَ ؟ فقالَ : بخمسٍ : استقامةٌ ليسَ فيها روغانٌ ، واجتهادٌ ليسَ معهُ سهوٌ ، ومراقبةُ اللهِ تعالىٰ في السرِّ والعلانيةِ ، وانتظارُ الموتِ بالتأهُّبِ لهُ ، ومحاسبةُ نفسِكَ قبلَ أنْ تُحاسبَ[3] .

وقدْ قيلَ[4] : [من الطويل]

إذا ما خَلَوْتَ ٱلدَّهْرَ يَوْماً فَلاَ تَقُلْ ... خَلَوْتُ وَلَـٰكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيبُ

وَلا تَحْسَبَنَّ ٱللهَ يَغْفُلُ ساعَةً ... وَلا أَنَّ ما تُخْفِي عَلَيْهِ يَغِيبُ

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْيَوْمَ أَسْرَعُ ذاهِبٍ ... وَأَنَّ غَداً لِلنَّاظِرِينَ قَرِيبُ

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٦٨) .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٦٨) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٦٨) ، ورواه بنحوه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ١١٧) .

(٤) الأبيات متنازع في نسبتها وهي في « روضة العقلاء » (١/ ١٢٣) ، وانظر تخريجها ثمة .

وقالَ حميدٌ الطويلُ لسليمانَ بنِ عليٍّ : عظْني ، فقالَ : لئنْ كنتَ إذا عصيتَ اللهَ خالياً ظننتَ أنَّهُ يراكَ . . لقدِ اجترأتَ علىٰ أمرٍ عظيمٍ ، ولئنْ كنتَ تظنُّ أنَّهُ لا يراكَ . . فلقدْ كفرتَ[١] .

وقالَ سفيانُ الثوريُّ : (عليكَ بالمراقبةِ ممَّنْ لا تخفىٰ عليهِ خافيةٌ ، وعليكَ بالرجاءِ ممَّنْ يملكُ الوفاءَ ، وعليكَ بالحذرِ ممَّنْ يملكُ العقوبةَ)[٢] .

وقالَ فرقدٌ السبخيُّ : (إنَّ المنافقَ ينظرُ ، فإذا لمْ يرَ أحداً . . دخلَ مدخلَ السوءِ ، وإنَّما يراقبُ الناسَ ولا يراقبُ اللهَ تعالىٰ) .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ دينارٍ : خرجتُ معَ عمرَ بنِ الخطابِ رضيَ الله عنهُ إلىٰ مكَّةَ ، فعرَّسْنا في بعضِ الطريقِ ، فانحدرَ علينا راعٍ مِنَ الجبلِ ، فقالَ لهُ : يا راعي ؛ بعني شاةً مِنْ هـٰذهِ الغنمِ ، فقالَ : إنِّي مملوكٌ ، فقالَ : قلْ لسيِّدِكَ : أكلَها الذئبُ ، قالَ : فأينَ اللهُ ؟! قالَ : فبكىٰ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ ، ثمَّ غدا إلى المملوكِ فاشتراهُ مِنْ مولاهُ وأعتقَهُ ، وقالَ : أعتقتْكَ في الدنيا هـٰذهِ الكلمةُ ، وأرجو أنْ تعتقَكَ في الآخرةِ[٣] .

❋ ❋ ❋

---

(١) أورده الراغب في « محاضرات الأدباء » (٤/ ٩٢) ، وسليمان بن علي يومها والي البصرة .

(٢) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (١٠/ ٩٨) .

(٣) روى الخبر عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أبو داوود في « الزهد » (٣٠٦) ، والطبراني في « الكبير » (١٢/ ٢٦٣) .

بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها

اعلمْ : أنَّ حقيقةَ المراقبةِ هيَ ملاحظةُ الرقيبِ ، وانصرافُ الهمِّ إليهِ ، فمَنِ احترزَ مِنْ أمرٍ مِنَ الأمورِ بسببِ غيرِهِ يُقالُ : إنَّهُ يراقبُ فلاناً ويراعي جانبَهُ ، ونعني بهٰذهِ المراقبةِ حالةً للقلبِ يثمرُها نوعٌ مِنَ المعرفةِ ، وتثمرُ تلكَ الحالةُ أعمالاً في الجوارحِ وفي القلبِ .

أمَّا الحالةُ . . فهيَ مراعاةُ القلبِ للرقيبِ ، واشتغالُهُ بهِ ، والتفاتُهُ إليهِ ، وملاحظتُهُ إيَّاهُ ، وانصرافُهُ إليهِ .

وأمَّا المعرفةُ التي تثمرُ هٰذهِ الحالةَ . . فهوَ العلمُ بأنَّ اللهَ مطلعٌ على الضمائرِ ، عالمٌ بالسرائرِ ، رقيبٌ علىٰ أعمالِ العبادِ ، قائمٌ علىٰ كلِّ نفسٍ بما كسبَتْ ، وأنَّ سرَّ القلبِ في حقِّهِ مكشوفٌ ؛ كما أنَّ ظاهرَ البشرةِ للخلقِ مكشوفٌ ، بلْ أشدُّ مِنْ ذلكَ ، فهٰذهِ المعرفةُ إذا صارَتْ يقيناً ؛ أعني : أنَّها خلَتْ عنِ الشكِّ ، ثمَّ استولَتْ بعدَ ذلكَ على القلبِ وقهرَتْهُ ، فربَّ علمٍ لا شكَّ فيهِ لا يغلبُ على القلبِ ؛ كالعلمِ بالموتِ ، فإذا استولَتْ على القلبِ . . استجرَّتِ القلبَ إلىٰ مراعاةِ جانبِ الرقيبِ ، وصرفَتْ همَّهُ إليهِ .

والموقنونَ بهٰذهِ المعرفةِ هُمُ المقرَّبونَ ، وهمْ ينقسمونَ إلى الصدِّيقينَ ، وإلىٰ أصحابِ اليمينِ ، فمراقبتُهُمْ علىٰ درجتينِ :

الدرجةُ الأولىٰ : مراقبةُ المقرَّبينَ مِنَ الصدِّيقينَ :

وهيَ مراقبةُ التعظيمِ والإجلالِ ، وهوَ أنْ يصيرَ القلبُ مستغرقاً بملاحظةِ ذلكَ الجلالِ ، ومنكسراً تحتَ الهيبةِ ، فلا يبقىٰ فيهِ متسعٌ للالتفاتِ إلى الغيرِ أصلاً ، وهـٰذهِ مراقبةٌ لا نطوِّلُ النظرَ في تفصيلِ أعمالِها ؛ فإنَّها مقصورةٌ على القلبِ ، أمَّا الجوارحُ . . فإنَّها تتعطَّلُ عنِ الالتفاتِ إلى المباحاتِ فضلاً عنِ المحظوراتِ ، وإذا تحرَّكَتْ بالطاعاتِ . . كانَتْ كالمستعملةِ بها ، فلا تحتاجُ إلىٰ تدبيرٍ وتثبيتٍ في حفظِها علىٰ سننِ السدادِ ، بلْ يسدِّدُ الرعيةَ مَنْ ملكَ كلِّيَّةَ الراعي ، والقلبُ هوَ الراعي ، فإذا صارَ مستوفىً بالمعبودِ . . صارَتِ الجوارحُ كلُّها مستعملةً جاريةً على السدادِ والاستقامةِ مِنْ غيرِ تكلُّفٍ .

وهـٰذا هوَ الذي صارَ همُّهُ همّاً واحداً ، فكفاهُ اللهُ سائرَ الهمومِ ، ومَنْ نالَ هـٰذهِ الدرجةَ . . فقدْ يغفُلُ عنِ الخلقِ ، حتىٰ لا يبصرُ مَنْ يحضرُ عندَهُ وهوَ فاتحٌ عينيهِ ، ولا يسمعُ ما يُقالُ لهُ معَ أنَّه لا صممَ بهِ ، وقدْ يمرُّ على ابنهِ مثلاً فلا يكلِّمُهُ ، حتىٰ كانَ بعضُهُمْ يجري عليهِ مثلُ ذلكَ ، فقالَ لمَنْ عاتبَهُ : إذا مررتَ بي . . فحرِّكْني[1] .

ولا تستبعدْ هـٰذا ؛ فإنَّكَ تجدُ نظيرَ هـٰذا في القلوبِ المعظِّمةِ لملوكِ الأرضِ ، حتىٰ إنَّ خدمَ الملوكِ قدْ لا يحسُّونَ بما يجري عليهِمْ في مجالسِ

---

(١) أورده المحاسبي في « القصد والرجوع إلى الله » والمطبوع باسم « الوصايا » (ص٣١٤).

الملوكِ لشدَّةِ استغراقِهِمْ بهِمْ ، بلْ قدْ يشتغلُ القلبُ بمهمٍّ حقيرٍ مِنْ مهمَّاتِ الدنيا ، فيغوصُ الرجلُ في الفكرِ فيهِ ويمشي ، فربَّما يخطئُ الموضعَ الذي قصدَهُ ، وينسى الشغلَ الذي نهضَ لهُ .

وقدْ قيلَ لعبدِ الواحدِ بنِ زيدٍ : هلْ تعرفُ في زمانِكَ هـٰذا رجلاً قدِ اشتغلَ بحالِهِ عن الخلقِ ؟ فقالَ : ما أعرفُ[1] إلا رجلاً واحداً سيدخلُ عليكُمُ الساعةَ ، فما كانَ إلا سريعاً حتىٰ دخلَ عتبةُ الغلامُ ، فقالَ لهُ عبدُ الواحدِ بنُ زيدٍ: مِنْ أينَ جئتَ يا عتبةُ ؟ فقالَ : مِنْ موضعِ كذا ، وكانَ طريقُهُ على السوقِ ، فقالَ : مَنْ لقيتَ في الطريقِ ؟ فقالَ : ما رأيتُ أحداً[2] .

ورُوِيَ عنْ يحيىٰ بنِ زكريا عليهما السلامُ : أنَّهُ مرَّ بامرأةٍ ، فدفعَها ، فسقطَتْ علىٰ وجهِها ، فقيلَ لهُ : لمَ فعلتَ هـٰذا ؟ فقالَ : ما ظننتُها إلا جداراً[3] .

وحُكِيَ عنْ بعضِهِمْ أنَّهُ قالَ : مررتُ بجماعةٍ يترامونَ وواحدٌ جالسٌ بعيداً منهُمْ ، فتقدمتُ إليهِ ، فأردتُ أنْ أكلِّمَهُ ، فقالَ : ذكرُ اللهِ تعالىٰ أشهىٰ ، فقلتُ : أنتَ وحدَكَ ؟ فقالَ : معي ربِّي وملكايَ ، فقلتُ : مَنْ سبقَ مِنْ هؤلاءِ ؟ فقالَ : مَنْ غفرَ اللهُ تعالىٰ لهُ ، فقلتُ : أينَ الطريقُ ؟ فأشارَ نحوَ

---

(١) في النسخ : (ما أعرفه) ، والمثبت من (ق) .

(٢) كذا أورده المحاسبي في « الوصايا » (ص ٣١٤) واللفظ له ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٣٣) .

(٣) أورده المحاسبي في « الوصايا » (ص ٣١٤) .

السماءِ ، وقامَ ومشىٰ وقالَ : أكثرُ خلقِكَ شاغلٌ عنكَ[1] .

فهٰذا كلامُ مستغرقٍ بمشاهدةِ اللهِ تعالىٰ ، لا يتكلَّمُ إلا منهُ ، ولا يسمعُ إلا فيهِ ، فهٰذا لا يحتاجُ إلىٰ مراقبةِ لسانِهِ وجوارحِهِ ، فإنَّها لا تتحرَّكُ إلا بما هوَ فيهِ .

ودخلَ الشبليُّ علىٰ أبي الحسينِ النوريِّ وهوَ معتكفٌ ، فوجدَهُ ساكناً حسنَ الاجتماعِ ، لا يتحرَّكُ مِنْ ظاهرِهِ شيءٌ ، فقالَ لهُ : مِنْ أينَ أخذتَ هٰذهِ المراقبةَ والسكونَ ؟ فقالَ : مِنْ سنَّورٍ كانَتْ لنا ، فكانَتْ إذا أرادَتِ الصيدَ . . رابطَتْ رأسَ الجُحْرِ لا تتحرَّكُ لها شعرةٌ .

وقالَ أبو عبدِ اللهِ بنُ خفيفٍ : خرجتُ مِنْ مصرَ أريدُ الرملةَ للقاءِ أبي عليٍّ الروذباريِّ ، فقالَ لي عيسىٰ بنُ يونسَ المصريُّ المعروفُ بالزاهدِ : إنَّ في صورَ شاباً وكهلاً قد اجتمعا علىٰ حالِ المراقبةِ ، فلو نظرتَ إليهما نظرةً لعلَّكَ تستفيدُ منهما ، فدخلتُ صورَ وأنا جائعٌ عطشانُ ، وفي وسطي خرقةٌ ، وليسَ علىٰ كتفي شيءٌ ، فدخلتُ المسجدَ ، فإذا بشخصينِ قاعدينِ مستقبلي القبلةِ ، فسلمتُ عليهما ، فما أجاباني ، فسلمتُ ثانيةً وثالثةً ، فلمْ أسمعِ الجوابَ ، فقلتُ : نشدتُكُما باللهِ إلا رددتُما عليَّ السلامَ ، فرفعَ الشابُّ رأسَهُ مِنْ مرقعتِهِ ، فنظرَ إليَّ وقالَ : يا بنَ خفيفٍ ؛ الدنيا قليلٌ ، وما بقيَ مِنَ القليلِ إلا قليلٌ ، فخذْ مِنَ القليلِ الكثيرَ ، يا بنَ خفيفٍ ؛ ما أقلَّ

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٦٥) .

شغلَكَ حتىٰ تتفرَّغَ إلىٰ لقائِنا ! قالَ : فأخذ بكليَّتي ، فنظرَ إليَّ ثمَّ طأطأَ رأسَهُ في المكانِ ، فبقيتُ عندَهُما حتىٰ صلَّينا الظهرَ والعصرَ ، فذهبَ جوعي وعطشي وعنائي ، فلمَّا كانَ وقتُ العصرِ . . قلتُ : عظْني ، فرفعَ رأسَهُ إليَّ وقالَ : يا بنَ خفيفٍ ؛ نحنُ ـ أصحابَ المصائبِ ـ ليسَ لنا لسانُ العظةِ ، فبقيتُ عندَهُما ثلاثةَ أيامٍ لا آكلُ ولا أشربُ ولا أنامُ ، ولا رأيتُهُما أكلا شيئاً ولا شربا ولا ناما ، فلمَّا كانَ في اليومِ الثالثِ . . قلتُ في سرِّي : أحلِّفُهُما أنْ يعظاني لعلِّي أنْ أنتفعَ بعظتِهِما ، فرفعَ الشابُّ رأسَهُ وقالَ لي : يا بنَ خفيفٍ ؛ عليكَ بصحبةِ مَنْ تذكِّرُكَ اللهَ رؤيتُهُ ، وتقعُ هيبتُهُ علىٰ قلبِكَ ، يعظُكَ بلسانِ فعلِهِ ، ولا يعظُكَ بلسانِ قولِهِ والسلامُ ، قمْ عنّا(١) .

فهٰذهِ درجةُ المراقبينَ الذينَ غلبَ علىٰ قلوبِهِمُ الإجلالُ والتعظيمُ ، فلمْ يبقَ فيهِمْ متَّسعٌ لغيرِ ذلكَ .

❀ ❀ ❀

الدرجةُ الثانيةُ : مراقبةُ الورعينَ مِنْ أصحابِ اليمينِ :

وهُمْ قومٌ غلبَ يقينُ اطلاعِ اللهِ علىٰ ظاهرِهِمْ وباطنِهِمْ علىٰ قلوبِهِمْ ، ولكنْ لمْ تدهشْهُمْ ملاحظةُ الجلالِ ، بلْ بقيتْ قلوبُهُمْ علىٰ حدِّ الاعتدالِ ، متسعةً للتلفُّتِ إلى الأحوالِ والأعمالِ ، إلا أنَّها معَ ممارسةِ الأعمالِ لا تخلو عنِ المراقبةِ .

---

(١) رواه الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ١٦٥) .

نعمْ ، غلبَ عليهِمُ الحياءُ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، فلا يقدمونَ ولا يحجمونَ إلا بعدَ التثبُّتِ فيهِ ، ويمتنعونَ عنْ كلِّ ما يفتضحونَ بهِ في القيامةِ ، فإنَّهُمْ يرونَ اللهَ سبحانه في الدنيا مطَّلِعاً عليهِمْ ، فلا يحتاجونَ إلى انتظارِ القيامةِ .

وتعرفُ اختلافَ الدرجتينِ بالمشاهداتِ ، فإنَّكَ في خلوتِكَ قدْ تتعاطىٰ أعمالاً ، فيحضرُكَ صبيٌّ أوِ امرأةٌ ، فتعلمُ أنَّهُ مطلعٌ عليكَ ، فتستحيي منهُ ، فتحسنُ جلوسَكَ ، وتراعي أحوالَكَ ، لا عنْ إجلالٍ وتعظيمٍ ، بلْ عنْ حياءٍ ، فإنَّ مشاهدتَهُ وإنْ كانَتْ لا تدهشُكَ ولا تستغرقُكَ فإنَّها تهيِّجُ الحياءَ منكَ ، وقدْ يدخلُ عليكَ ملكٌ مِنَ الملوكِ ، أوْ كبيرٌ مِنَ الأكابرِ ، فيستغرقُكَ التعظيمُ حتىٰ تتركَ كلَّ ما أنتَ فيهِ شغلاً بهِ ، لا حياءً منهُ ، فهكذا تختلفُ مراتبُ العبادِ في مراقبةِ اللهِ تعالىٰ .

ومَنْ كانَ في هٰذهِ الدرجةِ فيحتاجُ إلىٰ أنْ يراقبَ جميعَ حركاتِهِ وسكناتِهِ ، وخطراتِهِ ولحظاتِهِ ، وبالجملةِ : جميعَ اختياراتِهِ ، ولهُ فيها نظرانِ : نظرٌ قبلَ العملِ ، ونظرٌ في العملِ .

❁ ❁ ❁

أمّا قبلَ العملِ :

فلينظرْ أنَّ ما ظهرَ لهُ وتحرَّكَ بفعلِهِ خاطرُهُ : أهوَ للهِ خاصَّةً ، أوْ هوَ في هوى النفسِ ومتابعةِ الشيطانِ ؟ فيتوقفُ فيهِ ويتثبَّتُ حتىٰ ينكشفَ لهُ ذلكَ بنورِ

الحقِّ ؛ فإنْ كانَ للهِ تعالىٰ.. أمضاهُ ، وإنْ كانَ لغيرِ اللهِ.. استحيا مِنَ اللهِ وانكفَّ عنهُ ، ثمَّ لامَ نفسَهُ علىٰ رغبتِها فيهِ ، وهمِّها بهِ ، وميلِها إليهِ ، وعرَّفَها سوءَ فعلِها ، وسعيَها في فضيحتِها ، وأنَّها عدوَّةُ نفسِها إنْ لمْ يتداركْها اللهُ بعصمتِهِ ، وهـٰذا التوقُّفُ في بدايةِ الأمورِ إلىٰ حدِّ البيانِ واجبٌ محتومٌ لا محيصَ لأحدٍ عنهُ ، فإنَّ في الخبرِ أنَّهُ يُنشرُ للعبدِ في كلِّ حركةٍ مِنْ حركاتِهِ وإنْ صغُرَتْ ثلاثةُ دواوينَ الديوانُ الأوَّلُ : لِمَ ، والثاني : كيفَ ، والثالثُ : لمَنْ ، ومعنىٰ لِمَ ؛ أيْ : لِمَ فعلتَ هـٰذا ؟ أكانَ عليكَ أنْ تفعلَهُ لمولاكَ أوْ ملتَ إليهِ بشهوتِكَ وهواكَ ؟ فإنْ سلمَ منهُ بأنْ كانَ عليهِ أنْ يعملَ ذلكَ لمولاهُ.. سُئِلَ عنِ الديوانِ الثاني ، فقيلَ : كيفَ فعلتَ هـٰذا ؟ فإنَّ للهِ تعالىٰ في كلِّ عملٍ شرطاً وحكماً لا يُدركُ قدرُهُ ووقتُهُ وصفتُهُ إلا بعلمٍ ، فيُقالُ لهُ : كيفَ فعلتَ ؟ أبعلمٍ محقَّقٍ ، أمْ بجهلٍ وظنٍّ ؟ فإنْ سلمَ مِنْ هـٰذا.. نُشرَ الديوانُ الثالثُ ، وهوَ المطالبةُ بالإخلاصِ ، فيُقالُ : لمَنْ عملتَ ؟ ألوجهِ اللهِ خالصاً وفاءً بقولِكَ : لا إلـٰهَ إلا اللهُ ، فيكونَ أجرُكَ على اللهِ ؟ أوْ لمراءاةِ خلْقٍ مثلِكَ ، فخذْ أجرَكَ منهُ ؟ أمْ عملتَهُ لتنالَ عاجلَ دنياكَ ، فقد وفَّيناكَ نصيبَكَ مِنَ الدنيا ؟ أمْ عملتَهُ بسهوٍ وغفلةٍ ، فقدْ سقطَ أجرُكَ ، وحبطَ عملُكَ ، وخابَ سعيُكَ ؟ وإنْ عملتَ لغيري.. فقدِ استوجبتَ مقتي وعقابي ؛ إذْ كنتَ عبداً لي ، تأكلُ رزقي ، وتترفَّهُ بنعمتي ، ثمَّ تعملُ لغيري ، أما سمعتَني أقولُ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ ، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟

عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ ﴾ ويحَكَ ! أما سمعتَني أقولُ : ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾[1] .

فإذا عرفَ العبدُ أنَّهُ بصددِ هـٰذهِ المطالباتِ والتوبيخاتِ . . طالبَ نفسَهُ قبلَ أنْ تُطالبَ ، وأعدَّ للسؤالِ جواباً ، وللجوابِ صواباً ، فلا يبدي ولا يعيدُ إلا بعدَ التثبُّتِ ، ولا يحرِّكُ جفناً ولا أَنْمُلةً إلا بعدَ التأمُّلِ ، وقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمعاذٍ : « إنَّ الرجلَ ليُسألُ عنْ كحلِ عينيهِ ، وعنْ فتِّهِ الطينَ بإصبعيهِ ، وعنْ لمسهِ ثوبَ أخيهِ »[2] .

وقالَ الحسنُ : (كانَ أحدُهُمْ إذا أرادَ أنْ يتصدَّقَ بصدقةٍ . . نظرَ وتثبَّتَ ، فإنْ كانَ للهِ . . أمضاهُ)[3] .

وقالَ الحسنُ : (رحمَ اللهُ تعالىٰ عبداً وقفَ عندَ همِّهِ ، فإنْ كانَ للهِ . . مضىٰ ، وإنْ كانَ لغيرِهِ . . تأخَّرَ)[4] .

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٨٠) ، ولم يذكره مرفوعاً ، بل قال : (وبلغني) ، وقد تقدم حديث : « الدواوين ثلاثة : ديوان يغفر ، وديوان لا يغفر ، وديوان لا يترك » ، وهو ما رواه أحمد في « المسند » (٦/ ٢٤٠) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ٥٧٥) .

(٢) قوت القلوب (٢/ ١٦٢) ، ورواه ابن أبي حاتم في « تفسيره » (١٧١٩٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٣١) .

(٣) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (١٠/ ١٠٣) .

(٤) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (١٠/ ١٠٣) .

وقالَ في حديثِ سعدٍ حينَ أوصاهُ سلمانُ : (اتقِ اللهَ عندَ همِّكَ إذا هممتَ)[1] .

وقالَ محمدُ بنُ عليٍّ : (إنَّ المؤمنَ وَقَّافٌ متأنٍّ ، يقفُ عندَ همِّهِ ، ليسَ كحاطبِ ليلٍ)[2] .

فهـٰذا هوَ النظرُ الأوَّلُ في هـٰذهِ المراقبةِ ، ولا يخلِّصُ مِنْ هـٰذا إلا العلمُ المتينُ ، والمعرفةُ الحقيقيَّةُ بأسرارِ الأعمالِ وأغوارِ النفسِ ومكايدِ الشيطانِ ، فمتىٰ لمْ يعرفْ نفسَهُ وربَّهُ وعدوَّهُ إبليسَ ، ولمْ يعرفْ ما يوافقُ هواهُ ، ولمْ يميِّزْ بينَهُ وبينَ ما يحبُّهُ اللهُ ويرضاهُ في نيَّتِهِ ، وهمَّتِهِ وفكرتِهِ ، وسكونِهِ وحركتِهِ.. فلا يسلمُ في هـٰذهِ المراقبةِ ، بلِ الأكثرونَ يرتكبونَ الجهلَ فيما يكرهُهُ اللهُ تعالىٰ وهمْ يحسبونَ أنَّهُمْ يحسنونَ صنعاً .

ولا تظنَّنَّ أنَّ الجاهلَ بما يقدرُ على التعلُّمِ فيهِ يُعذرُ بالجهلِ هيهاتَ ! بلْ طلبُ العلمِ فريضةٌ علىٰ كلِّ مسلمٍ ، ولهـٰذا كانَتْ ركعتانِ مِنْ عالمٍ أفضلَ مِنْ ألفِ ركعةٍ مِنْ غيرِ عالمٍ[3] ؛ لأنَّهُ يعلمُ آفاتِ النفوسِ ومكايدَ الشيطانِ

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣١٧/٤) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٩١٠) ولفظه : (يا سعدُ ؛ اذكر الله عند همِّك إذا هممت ، وعند يدك إذا أقسمت ، وعند حكمك إذا حكمت) .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في « ذم الغضب » . « إتحاف » (٨/ ٥٠) ، ونحوه عند البيهقي في « الزهد الكبير » (٩٣٠) .

(٣) وذلك فيما رواه ابن النجار عن موسى بن جعفر ، عن أبيه ، عن جده : « ركعتان من عالم أفضل من سبعين ركعة من غير عالم » رواه الشيرازي في « الألقاب » من طريق =

ومواضعَ الغرورِ ، فيتقي ذلكَ ، والجاهلُ لا يعرفُهُ ، فكيفَ يحترزُ منهُ ، فلا يزالُ الجاهلُ في تعبٍ ، والشيطانُ منهُ في فرحٍ وشماتةٍ ، فنعوذُ باللهِ مِنَ الجهلِ والغفلةِ ، فهوَ رأسُ كلِّ شقاوةٍ ، وأساسُ كلِّ خسرانٍ .

فحكمُ اللهِ تعالىٰ علىٰ كلِّ عبدٍ أنْ يراقبَ نفسَهُ عندَ همِّهِ بالفعلِ وسعيِهِ بالجارحةِ ، فيتوقَّفُ عندَ الهمِّ وعندَ السعيِ حتىٰ ينكشفَ لهُ بنورِ العلمِ أنَّهُ للهِ تعالىٰ فيمضيَهُ ، أوْ هوَ لهوى النفسِ فيتقيَهُ ، ويزجرَ القلبَ عنِ الفكرِ فيهِ ، وعنِ الهمِّ بهِ ، فإنَّ الخطرةَ الأولىٰ في الباطلِ إذا لمْ تدفعْ . . أورثَتِ الرغبةَ ، والرغبةُ تورثُ الهمَّ ، والهمُّ يورثُ جزْمَ القصدِ ، والقصدُ يورثُ الفعلَ ، والفعلُ يورثُ البوارَ والمقتَ ، فينبغي أنْ تحسمَ مادةُ الشرِّ مِنْ منبعِهِ الأوَّلِ ، وهوَ الخاطرُ ، فإنَّ جميعَ ما وراءَهُ يتبعُهُ .

ومهما أشكلَ على العبدِ ذلكَ ، وأظلمَتِ الواقعةُ فلمْ ينكشفْ لهُ . . فليتفكرْ في ذلكَ بنورِ العلمِ ، ويستعذْ باللهِ مِنْ مكرِ الشيطانِ بواسطةِ الهوىٰ ، فإنْ عجزَ عنِ الاجتهادِ والفكرِ بنفسِهِ . . فليستضيءْ بنورِ علماءِ الدينِ ، وليفرَّ مِنَ العلماءِ المضلِّينَ المقبلينَ على الدنيا فرارَهُ مِنَ الشيطانِ ، بلْ أشدَّ ، فقدْ أوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ داوودَ عليهِ السلامُ : (يا داوودُ ؛ لا تسألْ عنِّي عالماً

= مالك بن دينار ، عن الحسن ، عن أنس ، عن علي رفعه : « ركعة من عالم بالله خير من ألف ركعة من متجاهل بالله » ، وروىٰ أبو نعيم من حديث أنس ـ وهو عند الديلمي في « مسند الفردوس » (٣٢٣٤) ـ : « ركعتان من رجل ورع أفضل من ألف ركعة من مخلط » . « إتحاف » (١٠/٥٩) .

أسكرَهُ حبُّ الدنيا فيقطعَكَ عنْ محبَّتي ، أولـٰئك قطَّاعُ الطريقِ علىٰ عبادي)[1] ، فالقلوبُ المظلمةُ بحبِّ الدنيا وشدَّةِ الشرهِ والتكالبِ عليها محجوبةٌ عنْ نورِ اللهِ تعالىٰ ، فإنَّ مستضاءَ أنوارِ القلوبِ حضرةُ الربوبيَّةِ ، فكيفَ يستضيءُ بها مَنِ استدبرَها ، وأقبلَ علىٰ عدوِّها ، وعشقَ بغيضَها ومقيتَها وهيَ شهواتُ الدنيا ؟!

فلتكنْ همَّةُ المريدِ أوَّلاً في إحكامِ العلمِ ، أوْ في طلبِ عالمٍ معرضٍ عنِ الدنيا ، أوْ ضعيفِ الرغبةِ فيها إنْ لمْ يجدْ مَنْ هوَ عديمُ الرغبةِ فيها ، وقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ يحبُّ البصرَ النافذَ عندَ ورودِ الشبهاتِ ، والعقلَ الكاملَ عندَ هجومِ الشهواتِ »[2] ، جمعَ بينَ الأمرينِ ، وهما متلازمانِ حقّاً ، فمَنْ ليسَ لهُ عقلٌ وازعٌ عنِ الشهواتِ . . فليسَ لهُ بصرٌ نافذٌ في الشبهاتِ .

ولذلكَ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « مَنْ قارفَ ذنباً . . فارقَهُ عقلٌ لا يعودُ إليهِ أبداً »[3] ، فما قدْرُ العقلِ الضعيفِ الذي سعدَ الآدميُّ بهِ حتىٰ يعمدَ إلىٰ محوِهِ ومحقِهِ بمقارفةِ الذنوبِ ؟!

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٤١) ، ورواه يحيى بن الحسين بن إسماعيل الشجري في « الأمالي الشجرية » (١/ ٦٣) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ١٩٩) مختصراً ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (١٠٨١) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٩٥٤) من حديث عمران بن الحصين رضي الله عنه .

(٣) قال الحافظ العراقي : (لم أر له أصلاً) . « إتحاف » (٧/ ٢٣١) .

ومعرفةُ آفاتِ الأعمالِ قدِ اندرسَتْ في هٰذهِ الأعصارِ ، فإنَّ الناسَ كلَّهُمْ قدْ هجروا هٰذهِ العلومَ ، واشتغلوا بالتوسُّطِ بينَ الخلقِ في الخصوماتِ الثائرةِ مِنِ اتباعِ الشهواتِ ، وقالوا : هٰذا هوَ الفقهُ ، وأخرجوا هٰذا العلمَ الذي هوَ فقهُ الدينِ عنْ جملةِ العلومِ ، وتجرَّدوا لفقهِ الدنيا الذي ما قُصِدَ بهِ إلا دفعُ الشواغلِ عنِ القلوبِ ليُتفرَّغَ لفقهِ الدينِ ، فكانَ فقهُ الدنيا مِنَ الدينِ بواسطةِ هٰذا الفقهِ ، وفي الخبرِ : (أنتمُ اليومَ في زمانٍ خيرُكُمْ فيهِ المسارعُ ، وسيأتي عليكُمْ زمانٌ خيرُكُمْ فيهِ المتثبِّتُ)[1] .

ولهٰذا توقَّفَ طائفةٌ مِنَ الصحابةِ في القتالِ معَ أهلِ العراقِ وأهلِ الشامِ لما أشكلَ عليهِمُ الأمرُ ؛ كسعدِ بنِ أبي وقاصٍ ، وعبدِ اللهِ بنِ عمرَ ، وأسامةَ ، ومحمدِ بنِ مسلمةَ ، وغيرِهِمْ[2] .

فمَنْ لمْ يتوقَّفْ عندَ الاشتباهِ . . كانَ متبعاً لهواهُ ، معجباً برأيِهِ ، وكانَ ممَّنْ وصفَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذْ قالَ : « فإذا رأيتَ شحّاً مطاعاً ، وهوىً متبعاً ، وإعجابَ كلِّ ذي رأيٍ برأيِهِ . . فعليكَ بخاصَّةِ نفسِكَ »[3] .

وكلُّ مَنْ خاضَ في شبهةٍ بغيرِ تحقيقٍ . . فقدْ خالفَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ ، وقولَهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « إيَّاكُمْ والظنَّ ؛

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٦١) ، وهو من كلام ابن مسعود رضي الله عنه .

(٢) انظر تفصيل ذلك في « الإتحاف » (١٠/ ١٠٥) .

(٣) رواه أبو داوود (٤٣٤١) ، والترمذي (٣٠٥٨) ، وابن ماجه (٤٠١٤) .

فإنَّ الظنَّ أكذبُ الحديثِ »[1] ، وأرادَ بهِ ظنّاً بغيرِ دليلٍ ؛ كما يستفتي بعضُ العوامِّ قلبَهُ فيما أشكلَ عليهِ ويتبعُ ظنَّهُ ، ولصعوبةِ هـٰذا الأمرِ وعظمِهِ كانَ دعاءُ الصديقِ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ : (اللهمَّ ؛ أرِني الحقَّ حقّاً وارزقْني اتباعَهُ ، وأرني الباطلَ باطلاً وارزقْني اجتنابَهُ ، ولا تجعلْهُ متشابهاً عليَّ فأتبعَ الهوىٰ)[2] .

وقالَ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (الأمورُ ثلاثةٌ : أمرٌ استبانَ رشدُهُ فاتبعْهُ ، وأمرٌ استبانَ غيُّهُ فاجتنبْهُ ، وأمرٌ أشكلَ عليكَ فكلْهُ إلىٰ عالمِهِ)[3] .

وقدْ كانَ مِنْ دعاءِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ أنْ أقولَ في الدينِ بغيرِ علمٍ »[4] ، فأعظمُ نعمةِ اللهِ تعالىٰ علىٰ عبادِهِ هوَ العلمُ ، وكشفُ الحقِّ ، والإيمانُ عبارةٌ عنْ نوعِ كشفٍ وعلمٍ ، ولذلكَ قالَ اللهُ تعالى امتناناً علىٰ عبدِهِ : ﴿ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ ، وأرادَ بهِ العلمَ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴾ ، وقالَ : ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ ، وقالَ : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ ﴾ .

---

(١) رواه البخاري (٦٧٢٤) ، ومسلم (٢٥٦٣) .
(٢) كذا في « القوت » (١/ ٧٩) ، وسياق المصنف بنحوه عنده .
(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (١٠/ ٣١٨) .
(٤) أورده الإمام أبو طالب في « قوته » (١/ ٧٩) من دعاء علي رضي الله عنه ، وقال سبحانه في حق النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّى ﴾ .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (الهوىٰ شريكُ العمىٰ ، ومِنَ التوفيقِ التوقُّفُ عندَ الحيرةِ ، ونعمَ طاردُ الهمِّ اليقينُ ، وعاقبةُ الكذبِ الندمُ ، وفي الصدقِ السلامةُ ، ربَّ بعيدٍ أقربُ مِنْ قريبٍ ، وغريبٌ مَنْ لمْ يكنْ لهُ حبيبٌ ، والصديقُ مَنْ صدقَ غيبُهُ ، ولا يعدمْكَ مِنْ حبيبٍ سوءُ الظنِّ ، نعمَ الخُلُقُ التكرُّمُ ، والحياءُ سببٌ إلىٰ كلِّ جميلٍ ، وأوثقُ العرى التقوىٰ ، وأوثقُ سببٍ أخذتَ بهِ سببٌ بينَكَ وبينَ اللهِ تعالىٰ ، إنَّما لكَ مِنْ دنياكَ ما أصلحتَ بهِ مثواكَ ، والرزقُ رزقانِ : رزقٌ تطلبُهُ ، ورزقٌ يطلبُكَ ، فإنْ لمْ تأتِهِ . . أتاكَ ، وإنْ كنتَ جازعاً علىٰ ما أفلتَ مِنْ يديكَ . . فلا تجزعْ علىٰ ما لمْ يصلْ إليكَ ، واستدلَّ علىٰ ما لمْ يكنْ بما كانَ ؛ فإنَّما الأمورُ أشباهٌ ، والمرءُ يسرُّهُ دركُ ما لمْ يكنْ ليفوتَهُ ، ويسوءُهُ فوتُ ما لمْ يكنْ ليدركَهُ ، فما نالَكَ مِنْ دنياكَ فلا تكثرَنْ بهِ فرحاً ، وما فاتَكَ منها فلا تتبعْهُ نفسَكَ أسفاً ، وليكنْ سرورُكَ بما قدَّمتَ وأسفُكَ علىٰ ما خلَّفتَ ، وشغلُكَ لآخرتِكَ ، وهمُّكَ فيما بعدَ الموتِ)[1] ، وغرضُنا مِنْ نقلِ هـٰذهِ الكلماتِ قولُهُ رضيَ اللهُ عنهُ : (ومِنَ التوفيقِ التوقُّفُ عندَ الحيرةِ) .

فإذاً ؛ النظرُ الأوَّلُ للمراقبِ نظرُهُ في الهمِّ والحركةِ : أهيَ للهِ أمْ للهوىٰ ؟ وقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيهِ استكملَ

---

(١) قوت القلوب (١/ ٧٦) إلىٰ قوله : (الأمور أشباه) ، وهو ضمن خطبة عند العسكري في « المواعظ » كما في « كنز العمال » (٤٤٢١٥) .

إيمانَهُ : لا يخافُ في اللهِ لومةَ لائمٍ ، ولا يرائي بشيءٍ مِنْ عملِهِ ، وإذا عرضَ لهُ أمرانِ ؛ أحدُهُما للدنيا ، والآخرُ للآخرةِ . . آثرَ الآخرةَ على الدنيا »[1] .

وأظهرُ ما ينكشفُ لهُ في حركاتِهِ أنْ يكونَ مباحاً ولكنْ لا يعنيهِ ، فيتركُهُ لقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مِنْ حسنِ إسلامِ المرءِ تركُهُ ما لا يعنيهِ »[2] .

* * *

النظرُ الثاني للمراقبةِ عندَ الشروعِ في العملِ :

وذلكَ بتفقُّدِ كيفيةِ العملِ ليقضيَ حقَّ اللهِ تعالىٰ فيهِ ، ويحسنَ النيةَ في إتمامِهِ ، ويكمِّلَ صورتَهُ ، ويتعاطاهُ علىٰ أكملِ ما يمكنُهُ ، وهـٰذا ملازمٌ لهُ في جميعِ أحوالِهِ ، فإنَّهُ لا يخلو في جميعِ أحوالِهِ عنْ حركةٍ وسكونٍ ، فإذا راقبَ اللهَ تعالىٰ في جميعِ ذلكَ . . قدرَ علىٰ عبادةِ اللهِ تعالىٰ فيها بالنيةِ ، وحسنِ الفعلِ ، ومراعاةِ الأدبِ .

فإنْ كانَ قاعداً مثلاً . . فينبغي أنْ يقعدَ مستقبلَ القبلةِ ؛ لقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « خيرُ المجالسِ ما استُقبلَ بهِ القبلةُ »[3] ، ولا يجلسُ متربِّعاً ؛

---

(١) رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٢٤٥٥) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٣/٣٨) .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٢٧٠) ، والطبراني في « الكبير » (١٠/ ٣٢٠) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٧/ ٢٧٢) .

(٣) رواه بلفظه هنا أبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (٢/ ٣٥ ، ٣٢٢) ، والديلمي في « مسند =

إذْ لا يُجالسُ الملوكُ كذلكَ ، وملكُ الملوكِ مطلعٌ عليهِ ، قالَ إبراهيمُ بنُ أدهمَ رحمهُ اللهُ : جلستُ مرَّةً متربعاً ، فسمعتُ هاتفاً يقولُ : هٰكذا تُجالَسُ الملوكُ ؟! فلمْ أجلسْ بعدَ ذلكَ متربعاً .

وإنْ كانَ ينامُ . . فينامُ على اليدِ اليمنىٰ مستقبلَ القبلةِ ، معَ سائرِ الآدابِ التي ذكرناها في مواضعِها ، فكلُّ ذلكَ داخلٌ في المراقبةِ ، بلْ لوْ كانَ في قضاءِ الحاجةِ . . فمراعاتُهُ لآدابِها وفاءٌ بالمراقبةِ .

فإذاً ؛ لا يخلو العبدُ إمَّا أنْ يكونَ في طاعةٍ ، أوْ معصيةٍ ، أوْ مباحٍ ، فمراقبتُهُ في الطاعةِ بالإخلاصِ ، والإكمالِ ، ومراعاةِ الأدبِ وحراستِها عنِ الآفاتِ ، وإنْ كانَ في معصيةٍ . . فمراقبتُهُ بالتوبةِ ، والندمِ ، والإقلاعِ ، والحياءِ ، والاشتغالِ بالتكفيرِ ، وإنْ كانَ في مباحٍ . . فمراقبتُهُ بمراعاةِ الأدبِ ، ثمَّ بشهودِ المنعمِ في النعمةِ ، وبالشكرِ عليها .

ولا يخلو العبدُ في جملةِ أحوالِهِ عنْ بليةٍ لا بدَّ لهُ مِنَ الصبرِ عليها ، ونعمةٍ لا بدَّ لهُ مِنَ الشكرِ عليها ، وكلُّ ذلكَ مِنَ المراقبةِ ، بلْ لا ينفكُّ العبدُ في كلِّ حالٍ مِنْ فرضٍ للهِ تعالىٰ عليهِ : إمَّا فعلٍ يلزمُهُ مباشرتُهُ ، أوْ محظورٍ

= الفردوس » (٢٩٠١) عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً ، وهو عند الطبراني في « الأوسط » (٨٣٥٧) ، وابن عدي في « الكامل » (٢/٣٧٦) بلفظ : « أكرم المجالس . . . » ، وروى البخاري في « الأدب المفرد » (١١٣٧) عن سفيان بن منقذ عن أبيه قال : (كان أكثر جلوس عبد الله بن عمر وهو مستقبل القبلة) ، وروى الحاكم في « المستدرك » (٤/٢٦٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما : « إن لكل شيء شرفاً ، وإن أشرف المجالس ما استقبل به القبلة . . . » .

يلزمُهُ تركُهُ ، أوْ ندبٍ حثَّهُ عليهِ ليسارعَ بهِ إلىٰ مغفرةِ اللهِ تعالىٰ ، ويسابقَ بهِ عبادَ اللهِ ، أوْ مباحٍ فيهِ صلاحُ جسمِهِ وقلبِهِ ، وفيهِ عونٌ لهُ علىٰ طاعتِهِ ، ولكلٍّ واحدٍ مِنَ ذلك حدودٌ لا بدَّ مِنْ مراعاتِها بدوامِ المراقبةِ ، ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾ .

فينبغي أنْ يتفقَّدَ العبدُ نفسَهُ في جميعِ أوقاتِهِ في هـٰذهِ الأقسامِ الثلاثةِ ، فإذا كانَ فارغاً مِنَ الفرائضِ ، وقدرَ على الفضائلِ . . فينبغي أنْ يلتمسَ أفضلَ الأعمالِ ليشتغلَ بها ، فإنَّ مَنْ فاتَهُ مزيدُ ربحٍ وهوَ قادرٌ علىٰ دركِهِ . . فهوَ مغبونٌ ، والأرباحُ تُنالُ بمزايا الفضائلِ ، فبذلكَ يأخذُ العبدُ مِنْ دنياهُ لآخرتِهِ ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ .

وكلُّ ذلكَ إنَّما يمكنُ بصبرِ ساعةٍ واحدةٍ ، فإنَّ الساعاتِ ثلاثٌ : ساعةٌ مضَتْ لا تعبَ فيها على العبدِ كيفَما انقضَتْ ، في مشقةٍ أوْ في رفاهيةٍ ، وساعةٌ مستقبلةٌ لمْ تأتِ بعدُ ، لا يدري العبدُ أيعيشُ إليها أمْ لا ، ولا يدري ما يقضي اللهُ فيها ، وساعةٌ راهنةٌ ينبغي أنْ يجاهدَ فيها نفسَهُ ، ويراقبَ فيها ربَّهُ ، فإنْ لمْ تأتِهِ الساعةُ الثانيةُ . . لمْ يتحسَّرْ علىٰ فواتِ هـٰذهِ الساعةِ ، وإنْ أتتْهُ الساعةُ الثانيةُ . . استوفىٰ حقَّهُ منها كما استوفىٰ مِنَ الأولىٰ ، ولا يطوِّلْ أملَهُ خمسينَ سنةً فيطولَ عليهِ العزمُ على المراقبةِ فيها ، بلْ يكونُ ابنَ وقتِهِ ؛ كأنَّهُ في آخرِ أنفاسِهِ ، فلعلَّهُ آخرُ أنفاسِهِ وهوَ لا يدري .

وإذا أمكنَ أنْ يكونَ آخرَ أنفاسِهِ . . فينبغي أنْ يكونَ علىٰ وجهٍ لا يكرهُ أنْ

يدركَهُ الموتُ وهوَ علىٰ تلكَ الحالةِ ، وتكونَ جميعُ أحوالِهِ مقصورةً علىٰ ما رواهُ أبو ذرٍّ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ مِنْ قولِهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « لا يكونُ المؤمنُ ظاعناً إلا في ثلاثٍ : تزوُّدٍ لمعادٍ ، أوْ مَرَمَّةٍ لمعاشٍ ، أوْ لذةٍ في غيرِ محرَّمٍ »[1] ، وما رُوِيَ عنهُ أيضاً في معناهُ : « وعلى العاقلِ أنْ تكونَ لهُ أربعُ ساعاتٍ : ساعةٌ يناجي فيها ربَّهُ ، وساعةٌ يحاسبُ فيها نفسَهُ ، وساعةٌ يفكِّرُ فيها في صنعِ اللهِ تعالىٰ ، وساعةٌ يخلو فيها للمطعمِ والمشربِ ، فإنَّ في هـٰذهِ الساعةِ عوناً لهُ علىٰ بقيَّةِ الساعاتِ »[2] .

ثمَّ هـٰذهِ الساعةُ التي هوَ فيها مشغولُ الجوارحِ بالمطعمِ والمشربِ لا ينبغي أنْ يخلوَ عنْ عملٍ هوَ أفضلُ الأعمالِ ، وهوَ الذكرُ والفكرُ ، فإنَّ الطعامَ الذي يتناولُهُ مثلاً فيهِ مِنَ العجائبِ ما لوْ تفكَّرَ فيهِ وفطنَ لهُ .. كانَ ذلكَ أفضلَ مِنْ كثيرٍ مِنْ أعمالِ الجوارحِ .

والناسُ فيهِ أقسامٌ :

قسمٌ ينظرونَ إليهِ بعينِ التبصُّرِ والاعتبارِ ، فينظرونَ في عجائبِ صنعتِهِ ، وكيفيةِ ارتباطِ قوامِ الحيواناتِ بهِ ، وكيفيةِ تقديرِ اللهِ تعالىٰ لأسبابِهِ ، وخلقِ الشهوةِ الباعثةِ عليهِ ، وخلقِ الآلاتِ المسخرةِ للشهوةِ فيهِ ؛ كما فصَّلنا بعضَهُ

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٨٩) ، ورواه ابن حبان في « صحيحه » (٣٦١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ١٦٦) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٣/ ٢٧٤) بلفظ : « وعلى العاقل ألا يكون ظاعناً . . . » ، ومرمة : إصلاح .

(٢) كذا في « القوت » (١/ ٨٩) ، وهو ضمن الحديث السابق .

في كتابِ الشكرِ ، وهٰذا مقامُ ذوي الألبابِ .

وقسمٌ ينظرونَ فيهِ بعينِ المقتِ والكراهةِ ، ويلاحظونَ وجهَ الاضطرارِ إليهِ وبودِّهِمْ لوِ استغنوا عنهُ ، ولكنْ يرونَ أنفسَهُمْ مقهورينَ فيهِ ، مسخرينَ لشهواتِهِ ، وهٰذا مقامُ الزاهدينَ .

وقسمٌ يرونَ في الصنعةِ الصانعَ ، ويترقونَ منها إلىٰ صفاتِ الخالقِ ، فتكونُ مشاهدةُ ذلكَ سبباً لتذكُّرِ أبوابٍ مِنَ الفكرِ تنفتحُ عليهِمْ بسببِهِ ، وهوَ أعلى المقاماتِ ، وهوَ مِنْ مقاماتِ العارفينَ وعلاماتِ المحبِّينَ ؛ إذِ المحبُّ إذا رأىٰ صنعةَ حبيبِهِ وكتابَهُ وتصنيفَهُ.. نسيَ الصنعةَ ، واشتغلَ قلبُهُ بالصانعِ ، وكلُّ ما يتردَّدُ العبدُ فيهِ هوَ صنعُ اللهِ تعالىٰ ، فلهُ في النظرِ منهُ إلى الصانعِ مجالٌ رحبٌ إنْ فُتحَتْ لهُ أبوابُ الملكوتِ ، وذلكَ عزيزٌ جداً .

وقسمٌ رابعٌ ينظرونَ إليهِ بعينِ الرغبةِ والحرصِ ، فيتأسَّفونَ علىٰ ما فاتَهُمْ منهُ ، ويفرحونَ بما حضرَهُمْ مِنْ جملتِهِ ، ويذمُّونَ منهُ ما لا يوافقُ هواهُمْ ، ويعيبونَهُ ويذمُّونَ فاعلَهُ ، فيذمُّون الطبيخَ والطبَّاخَ ، ولا يعلمونَ أنَّ الفاعلَ للطبيخِ والطبَّاخِ ولقدرتِهِ ولعلمِهِ هوَ اللهُ تعالىٰ ، وأنَّ مَنْ ذمَّ شيئاً مِنْ خلقِ اللهِ تعالىٰ بغيرِ إذنِ اللهِ فقد ذمَّ اللهَ ، ولذلكَ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تسبُّوا الدهرَ ؛ فإنَّ اللهَ هوَ الدهرُ »[1] .

---

(١) رواه مسلم (٢٢٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وعند البخاري (٤٨٢٦) من حديثه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال الله عز وجل : يؤذيني ابن آدم ، يسبُّ الدهر وأنا الدهر ، بيدي الأمر ، أقلب الليل والنهار » .

فهٰذه هيَ المرابطةُ الثانيةُ بمراقبةِ الأعمالِ على الدوامِ والاتصالِ ، وشرحُ ذلكَ يطولُ ، وفيما ذكرناهُ تنبيهٌ على المنهاجِ لِمَنْ أحكمَ الأصولَ .

* * *

المرابطة الثالثة
محاسبة النفس بعد العمل

ولنذكرْ فضيلةَ المحاسبةِ ثمَّ حقيقتَها :

فضيلة المحاسبة[(١)]

أمّا الفضيلةُ : فقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ ، وهٰذهِ إشارةٌ إلى المحاسبةِ علىٰ ما مضىٰ مِنَ الأعمالِ .

ولذلكَ قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (حاسبوا أنفسَكُمْ قبلَ أنْ تُحاسبوا ، وزنوها قبلَ أنْ تُوزنوا)[(٢)] .

وفي الخبرِ : أنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ جاءَهُ رجلٌ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أوصني ، فقالَ : « أمستوصٍ أنتَ ؟ » ، قالَ : نعمْ ، فقالَ : « إذا هممتَ بأمرٍ . . فتدبَّرْ عاقبتَهُ ، فإنْ كانَ رشداً . . فأمضِهِ ، وإنْ كانَ غيّاً . . فانتهِ عنهُ »[(٣)] .

---

(١) العنوان زيادة من اللجنة العلمية .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣٠٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٥٢) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤١) عن عبد الله بن مسور أبي جعفر مرسلاً ، ورواه أبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (١/ ٣٥٩) عن أبي جعفر ، عن عبد الله بن مسعود =

وفي الخبرِ : « وينبغي للعاقلِ أنْ يكونَ لهُ أربعُ ساعاتٍ . . ساعةٌ يحاسبُ فيها نفسَهُ » .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ، والتوبةُ نظرٌ في الفعلِ بعدَ الفراغِ منهُ بالندمِ عليهِ .

وقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنِّي لأستغفرُ اللهَ تعالىٰ وأتوبُ إليهِ في اليومِ مئةَ مرَّةٍ »[١] .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ .

وعنْ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ : أنَّهُ كانَ يضربُ قدميهِ بالدِّرَّةِ إذا جنَّهُ الليلُ ويقولُ لنفسِهِ : ماذا عملتِ اليومَ ؟

وعنْ ميمونِ بنِ مهرانَ أنَّهُ قالَ : (لا يكونُ العبدُ مِنَ المتقينَ حتىٰ يحاسبَ نفسَهُ أشدَّ مِنْ محاسبةِ شريكِهِ)[٢] ، والشريكانِ يتحاسبانِ بعدَ العملِ .

ورُوِيَ عنْ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها : أنَّ أبا بكرٍ رضوانُ اللهِ عليهِ قالَ لها

= رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هل أنت مستوصٍ إن أوصيتك ؟ » قلت : نعم ، قال : « إذا هممت بأمر . . فتدبر عاقبته ؛ فإن كان رشداً . . فأمضه ، وإن كان غياً . . فانته » .

(١) رواه مسلم (٢٧٠٢) وأبو داوود (١٥١٥) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (٧) .

عندَ الموتِ : ما أحدٌ مِنَ الناسِ أحبَّ إليَّ مِنْ عمرَ ، ثمَّ قالَ لها : كيفَ قلتُ ؟ فأعادَتْ عليهِ ما قالَ ، فقالَ : لا ، ما أحدٌ أعزَّ عليَّ مِنْ عمرَ[1] .

فانظرْ كيفَ نظرَ بعدَ الفراغِ مِنَ الكلمةِ ، فتدبَّرَها وأبدَلَها بكلمةٍ غيرِها .

وحديثُ أبي طلحةَ حينَ شغلَهُ الطائرُ في صلاتِهِ ، فتدبَّرَ ذلكَ ، فجعلَ حائطَهُ صدقةً للهِ تعالىٰ ندماً ورجاءً للعوضِ ممَّا فاتَهُ[2] .

وفي حديثِ عبدِ اللهِ بنِ سلامٍ : أنَّهُ حملَ حزمةً مِنْ حطبٍ ، فقيلَ لهُ : يا أبا يوسفَ ؛ قدْ كانَ في بنيكَ وغلمانِكَ مَنْ يكفيكَ هـٰذا ، فقالَ : أردتُ أنْ أجرِّبَ نفسي هلْ تنكرُهُ ؟[3] .

وقالَ الحسنُ : (المؤمنُ قوَّامٌ علىٰ نفسِهِ يحاسبُها للهِ ، وإنَّما خفَّ الحسابُ علىٰ قومٍ حاسبوا أنفسَهُمْ في الدنيا ، وإنَّما شقَّ الحسابُ يومَ القيامةِ علىٰ قومٍ أخذوا هـٰذا الأمرَ مِنْ غيرِ محاسبةٍ) ، ثمَّ فسَّرَ المحاسبةَ فقالَ : (إنَّ المؤمنَ يفجؤُهُ الشيءُ يعجبُهُ ، فيقولُ : واللهِ ؛ إنَّكَ لتعجبُني ، وإنَّكَ لمنْ حاجتي ، ولكنْ هيهاتَ ! حيلَ بيني وبينَكَ) ، وهـٰذا حسابٌ قبلَ العملِ ، ثمَّ قالَ : (ويفرطُ منهُ الشيءُ ، فيرجعُ إلىٰ نفسِهِ فيقولُ : ماذا أردتُ بهـٰذا ؟

---

(١) رواه البخاري في « الأدب المفرد » (٨٤) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٤/٢٤٧) .

(٢) رواه مالك في « الموطأ » (١/٩٨) .

(٣) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣/٤١٦) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٩/١٣٣) ، ولفظه عند صاحب « الرعاية » (ص ٤١٣) .

واللهِ لا أعذرُ بهـٰذا ، واللهِ لا أعودُ لهـٰذا أبداً إنْ شاءَ اللهُ)[1] .

وقالَ أنسُ بنُ مالكٍ : سمعتُ عمرَ بنَ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ يوماً وقدْ خرجتُ معَهُ حتىٰ دخلَ حائطاً ، فسمعتُهُ يقولُ وبيني وبينَهُ جدارٌ وهوَ في الحائطِ : (عمرُ بنُ الخطابِ أميرُ المؤمنينَ ! بخٍ بخٍ ، واللهِ ؛ لتتقيَنَّ اللهَ أوْ ليعذِّبَنَّكَ)[2] .

وقالَ الحسنُ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ ، قال : (لا يُلقى المؤمنُ إلا يعاتبُ نفسَهُ ؛ ماذا أردتُ بكلمتي ؟ ماذا أردتُ بشربتي ؟ ماذا أردتُ بأكلتي ؟ والفاجرُ يمضي قدماً لا يعاتبُ نفسَهُ)[3] .

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ رحمهُ اللهُ تعالىٰ : (رحمَ اللهُ عبداً قالَ لنفسِهِ : ألستِ صاحبةَ كذا ؟ ألستِ صاحبةَ كذا ؟ ثمَّ ذمَّها ، ثمَّ خطمَها ، ثمَّ ألزمَها كتابَ اللهِ تعالىٰ فكانَ لهُ قائداً)[4] ، وهـٰذا مِنْ معاتبةِ النفسِ كما سيأتي في موضعِهِ .

وقالَ ميمونُ بنُ مهرانَ : (التقيُّ أشدُّ محاسبةً لنفسِهِ مِنْ سلطانٍ غاشمٍ ، ومِنْ شريكٍ شحيحٍ)[5] .

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣٠٧) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٣٥٧) .
(٢) رواه مالك في « الموطأ » (٢/ ٩٩٢) ، وابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (٣) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (٤) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (٨) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (٩) .

وقالَ إبراهيمُ التيميُّ : (مثَّلتُ نفسي في الجنةِ ، آكلُ مِنْ ثمارِها ، وأشربُ مِنْ أنهارِها ، وأعانقُ أبكارَها ، ثمَّ مثلتُ نفسي في النارِ ، آكلُ مِنْ زقُّومِها ، وأشربُ مِنْ صديدِها ، وأعالجُ سلاسلَها وأغلالَها ، فقلتُ لنفسي : يا نفسُ ؛ أيَّ شيءٍ تريدينَ ؟ فقالَتْ : أريدُ أنْ أُردَّ إلى الدنيا فأعملَ صالحاً ، قلتُ : فأنتِ في الأمنيَّةِ فاعملي)[١] .

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ : (سمعتُ الحجَّاجَ يخطبُ وهوَ يقولُ : رحمَ اللهُ امرأً حاسبَ نفسَهُ قبلَ أنْ يصيرَ الحسابُ إلىٰ غيرِهِ ، رحمَ اللهُ امرأً أخذَ بعنانِ عملِهِ فنظرَ ماذا يريدُ بهِ ، رحمَ اللهُ امرأً نظرَ في مكيالِهِ ، رحمَ اللهُ امرأً نظرَ في ميزانِهِ ، فما زالَ يقولُ : رحمَ اللهُ امرأً ، رحمَ اللهُ امرأً حتىٰ أبكاني)[٢] .

وحكىٰ صاحبٌ للأحنفِ بنِ قيسٍ قالَ : (كنتُ أصحبُهُ ، فكانَ عامَّةُ صلاتِهِ بالليلِ الدعاءَ ، وكانَ يجيءُ إلى المصباحِ فيضعُ إصبعَهُ فيهِ حتىٰ يحسَّ بالنارِ ، ثمَّ يقولُ لنفسِهِ : يا حنيفُ ؛ ما حملَكَ علىٰ ما صنعتَ يومَ كذا ؟ ما حملَكَ علىٰ ما صنعتَ يومَ كذا ؟)[٣] .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (١٠) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (١١) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (١٣) ، وفيه : (فيضع إصبعه فيه ثم يقول : حسٍّ . . .) ، وهو اسم صوت يقال لمن تألم من نحو جمرة .

بيان حقيقة المحاسبة بعد العمل

اعلمْ : أنَّ العبدَ كما يكونُ لهُ وقتٌ في أوَّلِ النهارِ يشارطُ فيهِ نفسَهُ علىٰ سبيلِ التوصيةِ بالحقِّ . . فينبغي أنْ يكونَ لهُ في آخرِ النهارِ ساعةٌ يطالبُ فيها النفسَ ويحاسبُها علىٰ جميعِ حركاتِها وسكناتِها ؛ كما يفعلُ التجارُ في الدنيا مع الشركاءِ في آخرِ كلِّ سنةٍ أوْ شهرٍ أوْ يومٍ ؛ حرصاً منهُمْ على الدنيا ، وخوفاً مِنْ أنْ يفوتَهُمْ منها ما لوْ فاتَهُمْ . . لكانَتِ الخيرةُ لهم في فواتِهِ ، ولوْ حصلَ ذلكَ لهُمْ . . فلا يبقىٰ إلا أياماً قلائلَ ، فكيفَ لا يحاسبُ العاقلُ نفسَهُ فيما يتعلَّقُ بهِ خطرُ الشقاوةِ والسعادةِ أبدَ الآبادِ ؟! ما هٰذهِ المساهلةُ إلا عنِ الغفلةِ والخذلانِ وقلَّةِ التوفيقِ ، نعوذُ باللهِ مِنْ ذلكَ .

ومعنى المحاسبةِ معَ الشريكِ : أنْ ينظرَ في رأسِ المالِ ، وفي الربحِ والخسرانِ ؛ ليتبيَّنَ لهُ الزيادةُ مِنَ النقصانِ ، فإنْ كانَ مِنْ فضْلٍ حاصلٍ . . استوفاهُ وشكرَهُ ، وإنْ كانَ مِنْ خسرانٍ . . طالبَهُ بضمانِهِ وكلَّفَهُ تداركَهُ في المستقبلِ ؛ فكذلكَ رأسُ مالِ العبدِ في دينِهِ الفرائضُ ، وربحُهُ النوافلُ والفضائلُ ، وخسرانُهُ المعاصي ، وموسمُ هٰذهِ التجارةِ جملةُ النهارِ ، ومعاملةُ نفسِهِ الأمارةِ بالسوءِ ، فيحاسبُها على الفرائضِ أوَّلاً ، فإنْ أدَّاها علىٰ وجهِها . . شكرَ اللهَ تعالىٰ عليهِ ، ورغَّبَها في مثلِها ، وإنْ فوَّتَها مِنْ أصلِها . . طالبَها بالقضاءِ ، وإنْ أدَّاها ناقصةً . . كلَّفَها الجبرانَ بالنوافلِ ، وإنِ ارتكبَ

معصيةً . . اشتغلَ بعقابِها وتعذيبِها ومعاتبتِها ؛ ليستوفي منها ما يتداركُ بهِ ما فرطَ ، كما يصنعُ التاجرُ بشريكِهِ .

وكما أنَّهُ يفتِّشُ في حسابِ الدنيا عنِ الحبَّةِ والقيراطِ ، فيحفظُ مداخلَ الزيادةِ والنقصانِ ؛ حتىٰ لا يُغبنَ في شيءٍ منها . . فينبغي أنْ يتقيَ غبينةَ النفسِ ومكرَها ، فإنَّها خدَّاعةٌ ملبِّسةٌ مكَّارةٌ ، فليطالبْها أوَّلاً بتصحيحِ الجوابِ عنْ جميعِ ما تكلَّمَ بهِ طولَ نهارِهِ ، وليتكفَّلْ بنفسِهِ مِنَ الحسابِ ما سيتولاَّهُ غيرُهُ في صعيدِ القيامةِ ، وهـٰكذا عنْ نظرِهِ ، بلْ عنْ خواطرِهِ وأفكارِهِ ، وقيامِهِ ، وقعودِهِ ، وأكلِهِ وشربِهِ ونومِهِ ، وحتىٰ عنْ سكوتِهِ أنَّهُ لِمَ سكتَ ؟ وعنْ سكونِهِ لِمَ سكنَ ؟ فإذا عرفَ مجموعَ الواجبِ على النفسِ ، وصحَّ عندَهُ قدْرٌ أدى الواجبَ فيهِ . . كانَ ذلكَ القدْرُ محسوباً لهُ ، فيظهرُ لهُ الباقي علىٰ نفسِهِ ، فليثبتْهُ عليها ، وليكتبْهُ علىٰ صحيفةِ قلبِهِ كما يكتبُ الباقي الذي علىٰ شريكِهِ علىٰ قلبِهِ وفي جريدةِ حسابِهِ .

ثمَّ النفسُ غريمٌ يمكنُ أنْ يُستوفىٰ منهُ الديونُ ، أمَّا بعضُها . . فبالغرامةِ والضمانِ ، وبعضُها بردِّ عينِهِ ، وبعضُها بالعقوبةِ لها علىٰ ذلكَ ، ولا يمكنُ شيءٌ مِنْ ذلكَ إلا بعدَ تحقيقِ الحسابِ ، وتمييزِ الباقي مِنَ الحقِّ الواجبِ عليهِ ، فإذا حصلَ ذلكَ . . اشتغلَ بعدَهُ بالمطالبةِ والاستيفاءِ .

ثمَّ ينبغي أنْ يحاسبَ النفسَ علىٰ جميعِ العمرِ يوماً يوماً ، وساعةً ساعةً ، في جميعِ الأعضاءِ الظاهرةِ والباطنةِ ، كما نُقِلَ عنْ توبةَ بنِ الصمَّةِ وكانَ

بالرقَّةِ ، وكانَ محاسباً لنفسِهِ ، فحسَبَ يوماً فإذا هوَ ابنُ ستينَ سنةً ، فحسبَ أيَّامَها فإذا هيَ أحدٌ وعشرونَ ألفَ يومٍ وخمسُ مئةِ يومٍ ، فصرخَ وقالَ : يا ويلتي ! ألقى الملكَ بأحدٍ وعشرينَ ألفَ ذنبٍ ؟! كيفَ وفي كلِّ يومٍ عشرةُ آلافِ ذنبٍ ؟! ثمَّ خرَّ مغشيّاً عليهِ ، فإذا هوَ ميتٌ ، فسمعوا قائلاً يقولُ : يا لكِ ركضةً إلى الفردوسِ الأعلى ![1] .

فهكذا ينبغي أنْ يحاسبَ نفسَهُ على الأنفاسِ ، وعلىٰ معصيتِهِ بالقلبِ والجوارحِ في كلِّ ساعةٍ ، ولوْ رمى العبدُ بكلِّ معصيةٍ حجراً في دارِهِ.. لامتلأَتْ دارُهُ في مدَّةٍ يسيرةٍ قريبةٍ مِنْ عمرِهِ ، ولكنَّهُ يتساهلُ في حفظِ المعاصي ، والملكانِ يحفظانِ عليهِ ذلكَ ، ﴿ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾ .

* * *

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (٧٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٩١٦) .

المُرابطة الرّابعة
في معاقبة النفس على تقصيرها

مهما حاسبَ نفسَهُ ، فلمْ تسلمْ عنْ مقارفةِ معصيةٍ ، وارتكابِ تقصيرٍ في حقِّ اللهِ تعالىٰ . . فلا ينبغي أنْ يهملَها ، فإنَّه إنْ أهملَها . . سهُلَ عليهِ مقارفةُ المعاصي ، وأنسَتْ بها نفسُهُ ، وعسُرَ عليهِ فطامُها ، وكانَ ذلكَ سببَ هلاكِها ، بلْ ينبغي أنْ يعاقبَها ، فإذا أكلَ لقمةَ شبهةٍ بشهوةِ نفسٍ . . فينبغي أنْ يعاقبَ البطنَ بالجوعِ ، وإذا نظرَ إلىٰ غيرِ مَحْرمٍ ينبغي أنْ يعاقبَ العينَ بمنعِ النظرِ ، وكذلكَ يعاقبُ كلَّ طرفٍ من أطرافِ بدنِهِ بمنعِهِ عنْ شهواتِهِ ، هٰكذا كانَتْ عادةُ سالكي طريقِ الآخرةِ .

فقدْ رُوِيَ عنْ منصورِ بنِ إبراهيمَ : أنَّ رجلاً مِنَ العبَّادِ كلَّمَ امرأةً ، فلمْ يزلْ حتىٰ وضعَ يدَهُ علىٰ فخذِها ، ثمَّ ندمَ ، فوضعَ يدَهُ على النارِ حتىٰ نشَّتْ[1] .

ورُوِيَ أنَّهُ كانَ في بني إسرائيلَ رجلٌ يتعبَّدُ في صومعتِهِ ، فمكثَ كذلكَ زماناً طويلاً ، فأشرفَ ذاتَ يومٍ فإذا هوَ بامرأةٍ ، فافتتنَ بها ، وهمَّ بها ، فأخرجَ رجلَهُ لينزلَ إليها ، فأدركَهُ اللهُ بسابقةٍ ، فقالَ : ما هٰذا الذي أريدُ أنْ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٥٣٩) ، وابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (٥٢) ، ونشَّت : يبست ، والخبر عن منصور بن المعتمر عن إبراهيم النخعي ، ولكن في النسخ ما أثبت ، والله أعلم .

أصنعَ ؟! فرجعَتْ إليهِ نفسُهُ وعصمَهُ اللهِ ، فندمَ ، فلمَّا أرادَ أنْ يعيدَ رجلَهُ إلى الصومعةِ . . قالَ : هيهاتَ هيهاتَ ! رجْلٌ خرجَتْ تريدُ أنْ تعصيَ اللهَ تعودُ معي في صومعتي ؟! لا يكونُ واللهِ ذلكَ أبداً ، فتركَها معلَّقةً في الصومعةِ تصيبُها الأمطارُ والرياحُ والثلجُ والشمسُ حتىٰ تقطَّعَتْ فسقطَتْ ، فشكرَ اللهُ تعالىٰ لهُ ذلكَ ، وأنزلَ في بعضِ كتبِهِ ذكرَهُ[1] .

ويُحكىٰ عنِ الجنيدِ قالَ : سمعتُ ابنَ الكَرَنْبيِّ يقولُ : أصابَتْني ليلةً جنابةٌ ، فاحتجتُ أنْ أغتسلَ ، وكانَتْ ليلةً باردةً ، فوجدتُ في نفسي تأخُّراً وتقصيراً ، فحدثَتْني نفسي بالتأخيرِ حتىٰ أصبحَ وأسخنَ الماءَ أوْ أدخلَ الحمَّامَ ولا أعينُ علىٰ نفسي ، فقلتُ : واعجباهُ ! أنا أعاملُ اللهَ تعالىٰ في طولِ عمري ، فيجبُ لهُ عليَّ حقٌّ ، فلا أجدُ في المسارعةِ ، وأجدُ الوقوفَ والتأخُّرَ ؟! آليتُ ألا أغتسلَ إلا في مرقعتي هـٰذهِ ، وآليتُ ألا أنزعَها ولا أعصرَها ولا أجففَها في الشمسِ[2] .

ويُحكىٰ أنَّ غزوانَ وأبا موسىٰ كانا في بعضِ مغازيهِمْ ، فتكشَّفَتْ جاريةٌ ، فنظرَ إليها غزوانُ ، فرفعَ يدَهُ فلطمَ عينَهُ حتىٰ نفرَتْ وقالَ : إنَّكِ للحَّاظةٌ إلىٰ ما يضرُّكِ[3] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (٥٣) .

(٢) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٤/ ٤١٥) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٦١) عن عتبة بن غزوان الرقاشي قال : قال لي أبو موسى الأشعري : ما لي أرىٰ عينك نافرة ؟ فقلت : إني التفت التفاتة ، =

ونظرَ بعضُهُمْ نظرةً واحدةً إلى امرأةٍ ، فجعلَ علىٰ نفسِهِ ألا يشربَ الماءَ الباردَ طولَ حياتِهِ ، فكانَ يشربُ الماءَ الحارَّ لينغِّصَ علىٰ نفسِهِ العيشَ[1] .

ويُحكىٰ أنَّ حسانَ بنَ أبي سنانٍ مرَّ بغرفةٍ فقالَ : متىٰ بنيَتْ هـٰذهِ ؟ ثمَّ أقبلَ علىٰ نفسِهِ فقالَ : تسألينَ عمَّا لا يعنيكِ ؟! لأعاقبنَّكِ بصومِ سنةٍ ، فصامَها[2] .

وقالَ مالكُ بنُ ضيغمٍ : جاءَ رباحٌ القيسيُّ يسألُ عنْ أبي بعدَ العصرِ ، فقلنا : إنَّهُ نائمٌ ، فقالَ : نومٌ هـٰذهِ الساعةَ ؟! أهـٰذا وقتُ نومٍ ؟! ثمَّ ولَّىٰ منصرفاً ، فأتبعناهُ رسولاً وقلنا : ألا نوقظُهُ لكَ ، فجاءَ الرسولُ وقالَ : هوَ أشغلُ مِنْ أنْ يفهمَ عنِّي شيئاً ، أدركتُهُ وهوَ يدخلُ المقابرَ وهوَ يعاتبُ نفسَهُ ويقولُ : أقُلْتِ : نومٌ هـٰذهِ الساعةَ ؟ أفكانَ هـٰذا عليكِ ؟ ينامُ الرجلُ متىٰ شاءَ ، وما يدريكِ أنَّ هـٰذا ليسَ وقتَ نومٍ ؟! تتكلمينَ بما لا تعلمينَ ، أما إنَّ للهِ عليَّ عهداً لا أنقضُهُ أبداً ؛ لا أوسِّدُكِ الأرضَ لنومٍ حولاً إلا لمرضٍ حائلٍ ، أوْ لعقلٍ زائلٍ ، سوءةً لكِ سوءةً لكِ ، أما تستحينَ ؟! كمْ توبِّخينَ ،

= فرأيت جارية لبعض الجيش ، فلحظتها لحظة ، فصككتها صكة ، فنفرت ، فصارت إلىٰ ما ترىٰ ، فقال : استغفر ربك ، ظلمت عينك ؛ إن لها أول نظرة وعليك ما بعدها .

(1) أورده ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (٣/ ١٤١) ، وصاحب الخبر هو ضيغم بن مالك الراسبي ، والد مالك بن ضيغم الآتي ذكره .

(2) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ١١٥) .

وعنْ غيِّكِ لا تنتهينَ ؟! قالَ : وجعلَ يبكي وهوَ لا يشعرُ بمكاني ، فلمَّا رأيتُ ذلكَ . . انصرفتُ وتركتُهُ[١] .

ويُحكىٰ أنَّ تميماً الداريَّ نامَ ليلةً لمْ يقمْ فيها يتهجَّدُ ، فقامَ سنةً لمْ ينمْ فيها عقوبةً للذي صنعَ[٢] .

وعنْ طلحةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ : انطلقَ رجلٌ ذاتَ يومٍ فنزعَ ثيابَهُ وتمرَّغَ في الرمضاءِ ، وكانَ يقولُ لنفسِهِ : ذوقي ، نارُ جهنَّمَ أشدُّ حرّاً ، أجيفةٌ بالليلِ بطَّالةٌ بالنهارِ ؟! قالَ : فبينا هوَ كذلكَ . . إذْ أبصرَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في ظلِّ شجرةٍ ، فأتاهُ فقالَ : غلبَتْني نفسي ، فقالَ لهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ألمْ يكنْ لكَ بدٌّ مِنَ الذي صنعتَ ؟ أما لقدْ فُتحَتْ لكَ أبوابُ السماءِ ، ولقدْ باهى اللهُ بكَ الملائكةَ » ، ثمَّ قالَ لأصحابِهِ : « تزوَّدوا مِنْ أخيكُمْ » ، فجعلَ الرجلُ يقولُ لهُ : يا فلانُ ؛ ادعُ لي ، يا فلانُ ؛ ادعُ لي ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « عُمَّهُمْ » ، فقالَ : اللهمَّ ، اجعلِ التقوىٰ زادَهُمْ ، واجمعْ على الهدىٰ أمرَهُمْ ، فجعلَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقول : « اللهمَّ ، سدِّدْهُ » ، فقالَ الرجلُ : اللهمَّ ، اجعلِ الجنَّةَ مآبَهُمْ[٣] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (٥٤) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (٥٥) ، والبيهقي في « الشعب » (٢٩٣٥) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (٥٧) ، إذ رواه عن ليث بن أبي سليم عن طلحة ، ولم يعيِّن ، فإن كان الصحابي طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه . . فالحديث منقطع ، فليث لم يدركه ، وإن كان هو طلحة بن مصرف . . فالحديث مرسل ، إذ روايته =

وقالَ حذيفةُ بنُ قتادةَ : قيلَ لرجلٍ : كيفَ تصنعُ بنفسِكَ في شهواتِها ؟ فقالَ : ما علىٰ وجهِ الأرضِ نفسٌ أبغضَ إليَّ منها ، فكيفَ أعطيها شهواتِها ؟ ![(1)] .

ودخلَ ابنُ السمَّاكِ علىٰ داوودَ الطائيِّ حينَ ماتَ وهوَ في بيتِهِ على الترابِ ، فقالَ : يا داوودُ ؛ سجنتَ نفسَكَ قبلَ أنْ تُسجنَ ، وعذَّبتَ نفسَكَ قبلَ أنْ تُعذَّبَ ، فاليومَ ترىٰ ثوابَ مَنْ كنتَ تعملُ لهُ[(2)] .

وعنْ وهبِ بنِ منبهٍ : أنَّ رجلاً تعبَّدَ زماناً ، ثمَّ بدتْ لهُ إلى اللهِ تعالىٰ حاجةٌ ، فصامَ سبعينَ سبتاً يأكلُ في كلِّ سبتٍ إحدىٰ عشرةَ تمرةً ، ثمَّ سألَ حاجتَهُ ، فلمْ يُعطَها ، فرجعَ إلىٰ نفسِهِ وقالَ : منكِ أُتيتُ ، لوْ كانَ فيكِ خيرٌ . . لأُعطيتِ حاجتَكِ ، فنزلَ إليهِ ملكٌ وقالَ : يا بنَ آدمَ ؛ ساعتُكَ هٰذهِ خيرٌ مِنْ عبادتِكَ التي مضَتْ ، وقدْ قضى اللهُ حاجتَكَ[(3)] .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ قيسٍ : كنَّا في غزاةٍ لنا ، فحضرَ العدوُّ ، فصيحَ في

= عن الصحابة وكبار التابعين ، انظر بيان هٰذا في « الإتحاف » (١٠/ ١١٧) ، والحديث رواه عن بريدة رضي الله عنه الروياني في « مسنده » (١) ، والطبراني في « الكبير » (٢/ ٢٢) ، وأبو نعيم في « معرفة الصحابة » (١/ ٤٣٥) .

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (٥٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٢٦٨) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (٥٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٣٤٠) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (٦٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٧٧٠) .

الناسِ ، فقاموا إلى المصافِّ في يومٍ شديدِ الريحِ ، وإذا رجلٌ أمامي وهوَ يخاطبُ نفسَهُ ويقولُ : أيْ نفسي ؛ ألمْ أشهدْ مشهدَ كذا وكذا فقلتِ لي : أهلَكَ وعيالَكَ ، فأطعتُكِ ورجعتُ ، ألمْ أشهدْ مشهدَ كذا وكذا ، فقلتِ لي : أهلَكَ وعيالَكَ ، فأطعتُكِ ورجعتُ ، واللهِ ؛ لأعرضنَّكِ اليومَ على اللهِ أخذَكِ أوْ تركَكِ ، فقلتُ : لأرمقنَّهُ اليومَ ، فرمقتُهُ ، فحملَ الناسُ علىٰ عدوِّهِمْ ، فكانَ في أوائلِهِمْ ، ثمَّ إنَّ العدوَّ حملَ على الناسِ فانكشفوا ، فكانَ في موضعِهِ حتى انكشفوا مرَّاتٍ وهوَ ثابتٌ يقاتلُ ، فواللهِ ؛ ما زالَ ذاكَ دأبَهُ حتىٰ رأيتُهُ صريعاً ، فعددتُ بهِ وبدابتِهِ ستينَ أوْ أكثرَ مِنْ ستينَ طعنةً[1] .

وقدْ ذكرنا حديثَ أبي طلحةَ لمَّا اشتغلَ قلبُهُ في الصلاةِ بطائرٍ في حائطِهِ ، فتصدَّقَ بالحائطِ كفَّارةً لذلكَ[2] ، وأنَّ عمرَ كانَ يضربُ قدميهِ بالدِّرَّةِ كلَّ ليلةٍ ويقولُ : ماذا عملتِ اليومَ ؟ .

وعنْ مجمعٍ أنَّهُ رفعَ رأسَهُ إلى السطحِ ، فوقعَ بصرُهُ على امرأةٍ ، فجعلَ علىٰ نفسِهِ ألا يرفعَ رأسَهُ إلى السماءِ ما دامَ في الدنيا[3] .

وكانَ الأحنفُ بنُ قيسٍ لا يفارقُهُ المصباحُ بالليلِ ، فكانَ يضعُ إصبعَهُ عليهِ ويقولُ لنفسِهِ : ما حملَكِ علىٰ أنْ صنعتِ يومَ كذا كذا ؟[4] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (٢٥) .
(٢) رواه مالك في « الموطأ » (١/ ٩٨) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » . « إتحاف » (١٠/ ١١٨) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (١٣) .

وأنكرَ وهيبُ بنُ الوردِ شيئاً علىٰ نفسِهِ ، فنتفَ شعراتٍ علىٰ صدرِهِ حتىٰ عظُمَ ألمُهُ ، ثمَّ جعلَ يقولُ لنفسِهِ : ويحَكِ ! إنَّما أريدُ بكِ الخيرَ[1] .

ورأىٰ محمدُ بنُ بشرٍ داوودَ الطائيَّ وهوَ يأكلُ عندَ إفطارِهِ خبزاً بغيرِ ملحٍ ، فقالَ لهُ : لوْ أكلتَهُ بملحٍ ، فقالَ : إنَّ نفسي لتدعوني إلى الملحِ منذُ سنةٍ ، ولا ذاقَ داوودُ ملحاً ما دامَ في الدنيا[2] .

فهٰكذا كانَتْ عقوبةُ أولي الحزمِ لأنفسِهِمْ ، والعجبُ أنَّكَ تعاقبُ عبدَكَ وأمتَكَ وأهلَكَ وولدَكَ علىٰ ما يصدرُ منهُمْ مِنْ سوءِ خلقٍ وتقصيرٍ في أمرٍ ، وتخافُ أنَّكَ لوْ تجاوزتَ عنهُمْ . . لخرجَ أمرُهُمْ عنِ الاختيارِ وبغوا عليكَ ؛ ثمَّ تهملُ نفسَكَ وهيَ أعظمُ عدوٍّ لكَ ، وأشدُّ طغياناً عليكَ ، وضررُكَ مِنْ طغيانِها أعظمُ مِنْ ضررِكَ مِنْ طغيانِ أهلِكَ ، فإنَّ غايتَهُمْ أنْ يشوِّشوا عليكَ معيشةَ الدنيا ، ولوْ عقلتَ . . لعلمتَ أنَّ العيشَ عيشُ الآخرةِ ؛ وأنَّ فيهِ النعيمَ المقيمَ الذي لا آخرَ لهُ ؛ ونفسُكَ هيَ التي تنغِّصُ عليكَ عيشَ الآخرةِ ، فهيَ بالمعاقبةِ أولىٰ مِنْ غيرِها .

* * *

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » . « إتحاف » (١٠/ ١١٩) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٣٤٩) .

المرابطة الخامسة
المجاهدة

وهوَ أنَّهُ إذا حاسبَ نفسَهُ فرآها قدْ قارفَتْ معصيةً . . فينبغي أنْ يعاقبَها بالعقوباتِ التي مضَتْ ، وإنْ رآها تتوانىٰ بحكمِ الكسلِ في شيءٍ مِنَ الفضائلِ أوْ وردٍ مِنَ الأورادِ . . فينبغي أنْ يؤدِّبَها بتثقيلِ الأورادِ عليها ، ويلزمَها فنوناً مِنَ الوظائفِ جبراً لما فاتَ منهُ ، وتداركاً لما فرطَ ، فهٰكذا كانَ يعملُ عمَّالُ اللهِ تعالىٰ .

فقدْ عاقبَ عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ نفسَهُ حينَ فاتَتْهُ صلاةُ العصرِ في جماعةٍ بأنْ تصدَّقَ بأرضٍ كانَتْ لهُ قيمتُها مئتا ألفِ درهمٍ .

وكانَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما إذا فاتَتْهُ صلاةٌ في جماعةٍ . . أحيا تلكَ الليلةَ[1] ، وأخَّرَ ليلةً صلاةَ المغربِ حتىٰ طلعَ كوكبانِ ، فأعتقَ رقبتينِ[2] .

وفاتَ ابنَ أبي ربيعةَ ركعتا الفجرِ ، فأعتقَ رقبةً[3] .

وكانَ بعضُهُمْ يجعلُ علىٰ نفسِهِ صومَ سنةٍ ، أوِ الحجَّ ماشياً ، أوِ التصدُّقَ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/٣٠٣) أنه كان إذا فاتته صلاة العشاء في جماعة . . أحيا تلك الليلة .

(٢) قوت القلوب (١/٢٦) .

(٣) رواه عبد الرزاق في « المصنف » (٣/٥٧) .

بجميعِ مالِهِ ، كلُّ ذلكَ مرابطةٌ للنفسِ ومؤاخذةٌ لها بما فيهِ نجاتُها .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : إنْ كانَتْ نفسي لا تطاوِعُني على المجاهدةِ والمواظبةِ على الأورادِ . . فما سبيلُ معالجتِها ؟

فأقولُ :/سبيلُكَ في ذلكَ أنْ تسمعَها ما وردَ في الأخبارِ مِنْ فضلِ المجتهدينَ[1] ، ومِنْ أنفعِ أسبابِ العلاجِ : أنْ تطلبَ صحبةَ عبدٍ مِنْ عبادِ اللهِ مجتهدٍ في العبادةِ ، فتلاحظَ أحوالَهُ ، وتقتديَ بهِ ، كانَ بعضُهُمْ يقولُ : (كنتُ إذا اعترتْني فترةٌ في العبادةِ . . نظرتُ إلىٰ محمدِ بنِ واسعٍ وإلى اجتهادِهِ ، فعملتُ علىٰ ذلكَ أسبوعاً)[2] .

إلا أنَّ هٰذا علاجٌ قدْ تعذَّرَ ؛ إذْ قدْ فُقِدَ في هٰذا الزمانِ مَنْ يجتهدُ في العبادةِ اجتهادَ الأوَّلينَ ، فينبغي أنْ يعدلَ مِنَ المشاهدةِ إلى السماعِ ، فلا شيءَ أنفعُ مِنْ سماعِ أحوالِهِمْ ، ومطالعةِ أخبارِهِمْ ، وما كانوا فيهِ مِنَ الجهدِ الجهيدِ ، وقدِ انقضىٰ تعبُهُمْ ، وبقيَ ثوابُهُمْ ونعيمُهُمْ أبدَ الآبادِ لا ينقطعُ ،

---

(١) كذا في جميع النسخ ، وصُحِّفتْ في نسخة الحافظ العراقي إلى (المتهجدين) ، فأورد أخباراً في فضائل التهجد ، انظر « الإتحاف » (١٠/ ١٢٠) ، أما أخبار المجتهدين . . فسيوردها المصنف قريباً .

(٢) كذا في « القوت » (٢/ ٢١٩) ، والقائل هو جعفر بن سليمان ، وعنه رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٤٧) قال : (كنت إذا وجدت من قلبي قسوة . . نظرت إلىٰ وجه محمد بن واسع نظرة ، وكنت إذا رأيت وجه محمد بن واسع . . حسبت أن وجهه وجه ثكلىٰ) .

فما أعظمَ ملكَهُمْ ! وما أشدَّ حسرةَ مَنْ لا يقتدي بهِمْ ! فيمتِّعُ نفسَهُ أياماً قلائلَ بشهواتٍ مكدَّرةٍ ، ثمَّ يأتيهِ الموتُ ، ويُحالُ بينَهُ وبينَ كلِّ ما يشتهيهِ أبدَ الآبادِ ، نعوذُ باللهِ تعالىٰ مِنْ ذلكَ .

ونحنُ نوردُ مِنْ أوصافِ المجتهدينَ وفضائِلِهِمْ ما يحرِّكُ رغبةَ المريدِ في الاجتهادِ ؛ اقتداءً بهِمْ :

فقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « رحمَ اللهُ أقواماً يحسبُهُمُ الناسُ مرضىٰ وَمَا هُمْ بمرضىٰ » ، قالَ الحسنُ : أجهدَتْهُمُ العبادةُ[1] .

وقالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ ، قالَ الحسنُ : يعملونَ ما عملوا مِنْ أعمالِ البرِّ ، ويخافونَ ألا ينجيَهُمْ ذلكَ مِنْ عذابِ اللهِ تعالىٰ .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « طوبىٰ لمَنْ طالَ عمرُهُ وحسُنَ عملُهُ »[2] .

ويُروىٰ أنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ لملائكتِهِ : ما بالُ عبادي مجتهدينَ ؟ فيقولونَ : إلٰهنا ؛ خوَّفتَهُمْ شيئاً فخافوهُ ، وشوَّقتَهُمْ إلىٰ شيءٍ فاشتاقوا إليهِ ، فيقولُ اللهُ

---

(١) كذا روى المرفوع مرسلاً من قول الحسن وعقبه قول الحسن هنا ابنُ المبارك في « الزهد » (٩٢) ، وفيه : (قوماً) بدل (أقواماً) .

(٢) رواه ابن الجعد في « مسنده » (٣٥٥٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/١١١) عن عبد الله بن بسر رضي الله عنه مرفوعاً ، وروى الترمذي (٢٣٣٠) عن أبي بكرة رضي الله عنه نحوه مرفوعاً .

تباركَ وتعالىٰ : فكيفَ لوْ رآني عبادي ؛ لكانوا أشدَّ اجتهاداً[١] .

وقالَ الحسنُ : (أدركتُ أقواماً وصحبتُ طوائفَ منهُمْ ما كانوا يفرحونَ بشيءٍ مِنَ الدنيا أقبلَ ، ولا يتأسَّفونَ علىٰ شيءٍ منها أدبرَ ، ولهي كانَتْ أهونَ في أعينِهِمْ مِنْ هـٰذا الترابِ الذي تطؤونَهُ بأرجلِكُمْ ، إنْ كانَ أحدُهُمْ ليعيشُ عمرَهُ كلَّهُ ما طُوِيَ لهُ ثوبٌ ، ولا أمرَ أهلَهُ بصنعةِ طعامٍ قطُّ ، ولا جعلَ بينَهُ وبينَ الأرضِ شيئاً قطُّ ، وأدركتُهُمْ عاملينَ بكتابِ ربِّهِمْ وسنةِ نبيِّهِمْ ، إذا جَنَّهُمُ الليلُ . . فقيامٌ علىٰ أطرافِهِمْ ، يفترشونَ وجوهَهُمْ ، تجري دموعُهُمْ علىٰ خدودِهِمْ ، يناجونَ ربَّهُمْ في فكاكِ رقابِهِمْ ، إذا عملوا الحسنةَ . . فرحوا بها ، ودأبوا في شكرِها ، وسألوا اللهَ أنْ يتقبَّلَها ، وإذا عملوا السيئةَ . . أحزنَتْهُمْ ، وسألوا اللهَ أنْ يغفرَها لهُمْ ، واللهِ ؛ ما زالوا كذلكَ وعلىٰ ذلكَ ، وواللهِ ، ما سلموا مِنَ الذنوبِ ولا نجوا إلا بالمغفرةِ)[٢] .

ويُحكىٰ أنَّ قوماً دخلوا علىٰ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ يعودونَهُ في مرضِهِ ، وإذا فيهِمْ شابٌّ ناحلُ الجسمِ ، فقالَ لهُ عمرُ : يا فتىٰ ؛ ما الذي بلغَ بكَ ما أرى ؟ فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ أسقامٌ وأمراضٌ ، فقالَ : سألتُكَ باللهِ إلا صدقتَني ، فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ؛ ذقتُ حلاوةَ الدنيا فوجدتُها مرَّةً ،

---

(١) نقله صاحب « القوت » . « إتحاف » (١٠/ ١٢١) ، وبنحوه أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٦٠) عن وهب بن منبه ، والمعنىٰ في حديث البخاري (٦٤٠٨) ، ومسلم (٢٦٨٩) ، وفيه : « وكيف لو رأوني ؟ قال : يقولون : لو رأوك . . كانوا أشد لك عبادة ، وأشهد تمجيداً وتحميداً ، وأكثر لك تسبيحاً . . . » الحديث .

(٢) رواه أحمد في « الزهد » (١٦٤٣) .

وصغُرَ عندي زهرتُها وحلاوتُها ، واستوىٰ عندي ذهبُها وحجرُها ، وكأني أنظرُ إلىٰ عرشِ ربِّي والناسُ يُساقونَ إلى الجنةِ والنارِ ، فأظمأتُ لذلكَ نهاري ، وأسهرتُ لهُ ليلي ، وقليلٌ حقيرٌ كلُّ ما أنا فيهِ في جنبِ ثوابِ اللهِ تعالىٰ وعقابِهِ[1] .

وقالَ أبو نعيمٍ[2] : كانَ داوودُ الطائيُّ يشربُ الفتيتَ ، ولا يأكلُ الخبزَ ، فقيلَ لهُ في ذلكَ ، فقالَ : (بينَ مضْغِ الخبزِ وشربِ الفتيتِ قراءةُ خمسينَ آيةً) ، ودخلَ رجلٌ عليهِ يوماً فقالَ : إنَّ في سقفِ بيتِكَ جذْعاً مكسوراً ، فقالَ : يا بنَ أخي ؛ إنَّ لي في البيتِ منذُ عشرينَ سنةً ما نظرتُ إلى السقفِ ، وكانوا يكرهونَ فضولَ النظرِ كما يكرهونَ فضولَ الكلامِ[3] .

وقالَ محمدُ بنُ عبدِ العزيزِ : جلسنا إلىٰ أحمدَ بنِ رزينٍ مِنْ غدوةٍ إلى العصرِ ، فما التفتَ يمنةً ولا يسرةً ، فقيلَ لهُ في ذلكَ ، فقالَ : إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ خلقَ العينينِ لينظرَ بهما العبدُ إلىٰ عظمةِ اللهِ تعالىٰ ، فكلُّ مَنْ نظرَ بغيرِ اعتبارٍ . كُتبَتْ عليهِ خطيئةٌ[4] .

---

(١) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٦٧) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٦٨/ ١٩١) .

(٢) هو الفضل بن دكين ، لا صاحب « الحلية » .

(٣) الخبر بتمامه رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ١٦) عن أبي إسماعيل محمد بن إسماعيل الترمذي ، عن أبي نعيم الفضل بن دكين ، والجملة الأخيرة رويت له مفردة أيضاً ، ونحوها عند أبي نعيم في « الحلية » (٧/ ٣٥٢) .

(٤) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٢٣) .

وقالَتْ امرأةُ مسروقٍ : ما كانَ يوجدُ مسروقٌ إلا وساقاهُ منتفختانِ مِنْ طولِ الصلاةِ ، وقالَتْ : واللهِ ؛ إنْ كنتُ لأجلسُ خلفَهُ فأبكي رحمةً لهُ[1] .

وقالَ أبو الدرداءِ : (لولا ثلاثٌ . . ما أحببتُ العيشَ يوماً واحداً : الظمأُ للهِ بالهواجرِ ، والسجودُ للهِ في جوفِ الليلِ ، ومجالسةُ أقوامٍ ينتقونَ أطايبَ الكلامِ كما يُنتقىٰ أطايبُ الثمرِ)[2] .

وكانَ الأسودُ بنُ يزيدَ يجتهدُ في العبادةِ ، ويصومُ في الحرِّ ، حتىٰ يخضرَّ جسدُهُ ويصفرَّ ، وكانَ علقمةُ بنُ قيسٍ يقولُ لهُ : لِمَ تعذِّبُ نفسَكَ ؟ فيقولُ : كرامتَها أريدُ[3] .

وكانَ يصومُ حتىٰ يخضرَّ جسدُهُ ، ويصلِّي حتىٰ يسقطَ ، فدخلَ عليهِ أنسُ بنُ مالكٍ والحسنُ ، فقالا لهُ : إنَّ اللهَ تباركَ وتعالىٰ لمْ يأمرْكَ بكلِّ هـٰذا ، فقالَ : إنَّما أنا عبدٌ مملوكٌ ، لا أدعُ مِنَ الاستكانةِ شيئاً إلا جئتُ بهِ[4] .

وكانَ بعضُ المجتهدينَ يصلِّي كلَّ يومٍ ألفَ ركعةٍ حتىٰ أقعدَ مِنْ

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٩٥) .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٧٧) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٥٠٢) ، وابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (٦٦) .

(٤) الضمير في قوله : (وكان) يومىء أن صاحب الخبر هو الأسود بن يزيد ، وإنما صاحبه هو العلاء بن زياد ؛ كما رواه ابن المبارك في « الزهد » (٩٦٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/٢٤٣) .

رجليهِ[1] ، فكانَ يصلِّي جالساً ألفَ ركعةٍ ، فإذا صلَّى العصرَ . . احتبىٰ ثمَّ قالَ : (عجبتُ للخليقةِ كيفَ أرادَتْ بكَ بدلاً منكَ ! عجبتُ للخليقةِ كيفَ أنسَتْ بسواكَ ! بلْ عجبتُ للخليقةِ كيفَ استنارَتْ قلوبُها بذكرِ سواكَ !)[2] .

وكانَ ثابتٌ البنانيُّ قدْ حُبِّبَ إليهِ الصلاةُ ، فكانَ يقولُ : (اللهمَّ ؛ إنْ كنتَ أذنتَ لأحدٍ أنْ يصليَ لكَ في قبرِهِ . . فأْذَنْ لي أنْ أصلِّيَ في قبري)[3] .

وقالَ الجنيدُ : (ما رأيتُ أعبدَ مِنَ السريِّ ، أتَتْ عليهِ ثمانٌ وتسعونَ سنةً ما رُئِيَ مضطجعاً إلا في علَّةِ الموتِ)[4] .

وقالَ الحارثُ بنُ سعدٍ : مرَّ قومٌ براهبٍ ، فرأَوا ما يصنعُ بنفسِهِ مِنْ شدَّةِ اجتهادِهِ ، فكلَّموهُ في ذلكَ ، فقالَ : وما هٰذا عندَ ما يُرادُ بالخلقِ مِنْ ملاقاةِ الأهوالِ وهمْ غافلونَ ؟! قدِ اعتكفوا علىٰ حظوظِ أنفسِهِمْ ، ونسوا حظَّهُمُ الأكبرَ مِنْ ربِّهِمْ ، فبكى القومُ عنْ آخرِهِمْ .

---

(١) منهم عامر بن عبد الله بن عبد قيس ؛ كما روىٰ ذلك ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (٩٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٢٩١٠) ، ومنهم كهمس بن الحسن كما سيأتي قريباً .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (١٤٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ١٩٥) عن بعضهم .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٤١٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣١٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٢٩١٨) .

(٤) رواه القشيري في « رسالته » (ص ٥٢) .

وعنْ أبي محمدٍ المغازليِّ قالَ : جاورَ أبو محمدٍ الجريريُّ بمكةَ سنةً ، فلمْ ينمْ ، ولمْ يتكلَّمْ ، ولمْ يستندْ إلىٰ عمودٍ ولا إلىٰ حائطٍ ، ولمْ يمدَّ رجليهِ ، فعبرَ عليهِ أبو بكرٍ الكتَّانيُّ ، فسلَّمَ عليهِ وقالَ لهُ : يا أبا محمدٍ ؛ بِمَ قدرتَ على اعتكافِكَ هٰذا ؟ فقالَ : عَلِمَ صدْقَ باطني ، فأعانَني علىٰ ظاهري ، فأطرقَ الكتانيُّ ومشىٰ مفكِّراً[1] .

وعنْ بعضِهِمْ قالَ : دخلتُ علىٰ فتحٍ الموصليِّ ، فرأيتُهُ قدْ مدَّ كفيهِ يبكي حتىٰ رأيتُ الدموعَ تنحدرُ مِنْ بينِ أصابعِهِ ، فدنوتُ منهُ ، فإذا دموعُهُ قدْ خالطَها صفرةٌ ، فقلتُ لهُ : باللهِ يا فتحُ ؛ بكيتَ الدمَ ؟ فقالَ : لولا أنَّكَ حلَّفتَني باللهِ ما أخبرتُكَ ، نعمْ ، بكيتُ دماً ، فقلتُ لهُ : علىٰ ماذا بكيتَ الدموعَ ؟ فقالَ : علىٰ تخلُّفي عنْ واجبِ حقِّ اللهِ تعالىٰ ، وبكيتُ الدمَ على الدموعِ لئلا يكونَ لمْ تصحَّ ليَ الدموعُ[2] ، قالَ : فرأيتُهُ بعدَ موتِهِ في المنامِ ، فقلتُ لهُ : ما صنعَ اللهُ بكَ ؟ قالَ : غفرَ لي ، فقلتُ لهُ : فماذا صنعَ في دموعِكَ ؟ فقالَ : قرَّبَني ربِّي عزَّ وجلَّ وقالَ لي : يا فتحُ ؛ الدمعُ علىٰ ماذا ؟ قلتُ : يا ربِّ ؛ علىٰ تخلُّفي عنْ واجبِ حقِّكَ ، فقالَ : والدمُ علىٰ ماذا ؟ قلتُ : علىٰ دموعي ألا تصحَّ لي ، فقالَ لي : يا فتحُ ؛ ما أردتَ

---

(١) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٩٨/٥) .

(٢) أي : خوفاً من أن تكون دموعي ضاعت سدىً ، وفي غير (ب) : (صحَّت) بدل (لم تصحَّ) .

بهٰذا كلِّهِ ؟ وعزَّتي وجلالي ؛ لقدْ صعدَ حافظاكَ أربعينَ سنةً بصحيفتِكَ ما فيها خطيئةٌ[1] .

وقيلَ : إنَّ قوماً أرادوا سفراً ، فحادوا عنِ الطريقِ ، فانتهوا إلىٰ راهبٍ منفردٍ عنِ الناسِ ، فنادَوهُ ، فأشرفَ عليهِمْ مِنْ صومعتِهِ ، فقالوا : يا راهبُ ؛ إنَّا قدْ أخطأْنا الطريقَ ، فكيفَ هوَ الطريقُ ؟ قالَ : فأومأَ برأسِهِ إلى السماءِ ، فعلمَ القومُ ما أرادَ ، فقالوا : يا راهبُ ؛ إنَّا سائلوكَ ، فهلْ أنتَ مجيبُنا ؟ فقالَ : سلوا ولا تكثروا ؛ فإنَّ النهارَ لنْ يرجعَ ، والعمرَ لا يعودُ ، والطالبَ حثيثٌ ، فعجبَ القومُ مِنْ كلامِهِ ، فقالوا : يا راهبُ ؛ علامَ الخلْقُ غداً عندَ مليكِهِمْ ؟ فقالَ : علىٰ نيَّاتِهِمْ ، فقالوا : أوصِنا ، فقالَ : تزودوا علىٰ قدْرِ سفرِكُمْ ، فإنَّ خيرَ الزادِ ما بلَّغَ البغيةَ ، ثمَّ أرشدَهُمْ إلى الطريقِ ، وأدخلَ رأسَهُ في صومعتِهِ[2] .

وقالَ عبدُ الواحدِ بنُ زيدٍ : مررتُ بصومعةِ راهبٍ مِنْ رهبانِ الصينِ ، فناديتُهُ : يا راهبُ ؛ فلمْ يجبْني ، فناديتُهُ الثانيةَ ، فلمْ يجبْني ، فناديتُهُ الثالثةَ ، فأشرفَ عليَّ وقالَ : يا هٰذا ؛ ما أنا براهبٍ ، إنَّما الراهبُ مَنْ رهبَ اللهَ في سمائِهِ ، وعظَّمَهُ في كبريائِهِ ، وصبرَ علىٰ بلائِهِ ، ورضيَ بقضائِهِ ، وحمدَهُ علىٰ آلائِهِ ، وشكرَهُ علىٰ نعمائِهِ ، وتواضعَ لعظمتِهِ ، وذلَّ لعزَّتِهِ ، واستسلمَ لقدرتِهِ ، وخضعَ لمهابتِهِ ، وفكَّرَ في حسابِهِ وعقابِهِ ،

---

(1) رواه ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (٢/٢/١٢٧) .

(2) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ١٢٦) .

فنهارُهُ صائمٌ ، وليلُهُ قائمٌ ، قدْ أسهرَهُ ذكرُ النارِ ، ومسألةُ الجبّارِ ، فذلكَ هوَ الراهبُ ، وأمَّا أنا .. فكلبٌ عقورٌ ، حبستُ نفسي في هٰذهِ الصومعةِ عنِ الناسِ لئلا أعقرَهُمْ ، فقلتُ : يا راهبُ ؛ فما الذي قطعَ الخلقَ عنِ اللهِ بعدَ أنْ عرفوهُ ؟ فقالَ : يا أخي ؛ لمْ يقطعِ الخلقَ عنِ اللهِ تعالىٰ إلا حبُّ الدنيا وزينتِها ؛ لأنَّها محلُّ المعاصي والذنوبِ ، فالعاقلُ مَنْ رمىٰ بها عنْ قلبِهِ ، وتابَ إلى اللهِ مِنْ ذنبِهِ ، وأقبلَ علىٰ ما يقرِّبُهُ مِنْ ربِّهِ .

وقيلَ لداوودَ الطائيِّ : لو سرَّحتَ لحيتَكَ ، فقالَ : إنِّي إذاً لفارغٌ[1] .

وكانَ أويسٌ القرنيُّ يقولُ : هٰذهِ ليلةُ الركوعِ ، فيحيي الليلَ كلَّهُ في ركعةٍ ، وإذا كانَتِ الليلةُ الآتيةُ .. قالَ : هٰذهِ ليلةُ السجودِ ، فيحيي الليلَ كلَّهُ في سجدةٍ[2] .

وقيلَ : لمَّا تابَ عتبةُ الغلامُ كانَ لا يتهنَّأُ بالطعامِ والشرابِ ، فقالَتْ لهُ أمُّهُ : لوْ رفقتَ بنفسِكَ ، فقالَ : الرفقَ أطلبُ ، دعيني أتعبُ قليلاً وأتنعَّمُ طويلاً[3] .

وقيلَ : حجَّ مسروقٌ ، فما نامَ قطُّ إلا ساجداً[4] .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٣٣٩) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٨٧) .
(٣) بنحوه رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٣٦) ، والناصح له هو عبد الواحد بن زيد .
(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٩٧٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٩٥) .

وقالَ سفيانُ الثوريُّ : (عندَ الصباحِ يحمدُ القومُ السُّرىٰ ، وعندَ المماتِ يحمدُ القومُ التقىٰ)[1] .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ داوودَ : (كانَ أحدُهُمْ إذا بلغَ أربعينَ سنةً . . طوىٰ فراشَهُ)[2] أيْ : كانَ لا ينامُ طولَ الليلِ .

وكانَ كهمسُ بنُ الحسنِ يصلِّي كلَّ يومٍ ألفَ ركعةٍ ، ثمَّ يقولُ لنفسِهِ : قومي يا مأوىٰ كلِّ شرٍّ ، فلمَّا ضعُفَ . . اقتصرَ علىٰ خمسِ مئةٍ ، ثمَّ كانَ يبكي ويقولُ : ذهبَ نصفُ عملي[3] .

وكانَتِ ابنةُ الربيعِ بنِ خُثيمٍ تقولُ لهُ : يا أبةِ ؛ ما لي أرى الناسَ ينامونَ وأراكَ لا تنامُ ؟ فيقولُ : يا بُنتاهُ ؛ إنَّ أباكِ يخافُ البياتَ[4] .

ولمَّا رأَتْ أمُّ الربيعِ ما يلقى الربيعُ مِنَ البكاءِ والسهرِ . . نادتْهُ : يا بنيَّ ؛ لعلَّكَ قتلتَ قتيلاً ؟! فقالَ : نعمْ يا أماهُ ، قالَتْ : فمَنْ هوَ حتىٰ نطلبَ أهلَهُ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ١٥) عن أبي كريمة الكلبي ؛ من عباد أهل الشام ، وقال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (١٠/ ١٢٧) : (رواه البيهقي في « الشعب » ، وأبو نعيم في « الحلية ») .

(٢) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٢٧) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢١١) مختصراً .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٦٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ١١٤) ، والبيات : أن يفجأه العدو ليلاً فيوقع به ، واتفق رسم النسخ : (يا أبة) بالمربوطة ، وهي علىٰ لغة من يقلبها هاءً في الوقف ، وبها قرأ ابن كثير وابن عامر قوله سبحانه : ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا . . . ﴾ الآية .

فيعفوا عنكَ ، فواللهِ ؛ لوْ يعلمونَ ما أنتَ فيهِ .. لرحموكَ وعفَوا عنكَ ، فيقول : يا والدتي ؛ هيَ نفسي[1] .

وعنْ عمرَ ابنِ أختِ بشرِ بنِ الحارثِ قالَ : سمعتُ خالي بشرَ بنَ الحارثِ يقولُ لأمِّي[2] : يا أختي ؛ جوفي وخواصري تضربُ عليَّ ، فقالَتْ لهُ أمِّي : يا أخي ؛ تأذنُ لي حتىٰ أصلحَ لكَ قليلَ حساءٍ بكفٍّ دقيقٍ عندي تتحسَّاهُ يرمُّ جوفَكَ ؟ فقالَ لها : ويحكِ ! أخافُ أنْ يقولَ : مِنْ أينَ لكَ هـٰذا الدقيقُ ؟ فلا أدري أيشٍ أقولُ لهُ ، فبكَتْ أمِّي ، وبكىٰ معَها ، وبكَيتُ معهُمْ ، قالَ عمرُ : ورأتْ أمِّي ما ببشرٍ مِنْ شدَّةِ الجوعِ ، وجعلَ يتنفَّسُ نفساً ضعيفاً ، فقالَتْ لهُ أمِّي : يا أخي ؛ ليتَ أمَّكَ لمْ تلدْني ؛ فقدْ واللهِ تقطَّعَتْ كبدي ممَّا أرىٰ بكَ ، فسمعتُهُ يقولُ لها : وأنا فليتَ أمَّكِ لمْ تلدْني ، وإذْ ولدَتْني لمْ يدرَّ ثديُها عليَّ ، قالَ عمرُ : وكانَتْ أمِّي تبكي عليهِ الليلَ والنهارَ[3] .

وقالَ الربيعُ : أتيتُ أويساً ، فوجدتُه جالساً قدْ صلَّى الفجرَ ، ثمَّ جلسَ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ١١٤) .

(٢) أخوات بشر هنَّ مضغةٌ ، وهي أكبرهن وأكبر من بشر ، وكانت أنيسه ، ومخةٌ ، وهي صاحبة سؤال ابن حنبل في الغزل ، وزبدةٌ ، ولها روايات عنه ، وكلهنَّ من الخيِّرات الزاهدات ، انظر طرفاً من خبرهن عند الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٤/ ٤٣٧) .

(٣) قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (١٠/ ١٢٨) : (رواه أبو الحسن بن جهضم) وذكر إسناده ، ورواه ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (١/ ٢/ ١٩٩) .

فجلستُ ، فقلتُ : لا أشغلُهُ عنِ التسبيحِ ، فمكثَ مكانَهُ حتىٰ صلَّى الظهرَ ، ثمَّ قامَ إلى الصلاةِ حتىٰ صلَّى العصرَ ، ثمَّ جلسَ مكانَهُ حتىٰ صلَّى المغربَ ، ثمَّ ثبتَ مكانَهُ حتىٰ صلَّى العشاءَ ، ثمَّ ثبتَ مكانَهُ حتىٰ صلَّى الصبحَ ، ثمَّ جلسَ ، فغلبتْهُ عيناهُ فقالَ : اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنْ عينٍ نوَّامةٍ ، ومِنْ بطنٍ لا تشبعُ ، فقلتُ : حسبي هـٰذا منهُ ، ثمَّ رجعتُ[1] .

ونظرَ رجلٌ إلىٰ أويسٍ فقالَ : يا أبا عبدِ اللهِ ؛ ما لي أَرَاكَ كأنَّكَ مريضٌ ؟ فقالَ : وما لأويسٍ ألا يكونَ مريضاً ، يطعمُ المريضُ وأويسٌ غيرُ طاعمٍ ، وينامُ المريضُ وأويسٌ غيرُ نائمٍ ؟! وقالَ أحمدُ بنُ حربٍ : يا عجباً لِمَنْ يعرفُ أنَّ الجنةَ تُزيَّنُ فوقَهُ ، وأنَّ النارَ تُسعرُ تحتَهُ . . كيفَ ينامُ بينَهُما ؟!

وقالَ رجلٌ مِنَ النسَّاكِ : أتيتُ إبراهيمَ بنَ أدهمَ ، فوجدتُهُ قدْ صلَّى العشاءَ ، فقعدتُ أرقُبُهُ ، فلفَّ نفسَهُ بعباءةٍ ، ثمَّ رمىٰ بنفسِهِ ، فلمْ ينقلبْ مِنْ جنبٍ إلىٰ جنبٍ الليلَ كلَّهُ حتىٰ طلعَ الفجرُ وأذَّنَ المؤذِّنُ ، فوثبَ إلى الصلاةِ ولمْ يحدثْ وضوءاً ، فحاكَ ذلكَ في صدري ، فقلتُ لهُ : رحمَكَ اللهُ ، قدْ نمتَ الليلَ كلَّهُ مضطجعاً ، ثمَّ لمْ تجدِّدِ الوضوءَ ؟ فقالَ : كنتُ الليلَ كلَّهُ جائلاً في رياضِ الجنةِ أحياناً ، وفي أوديةِ النارِ أحياناً ، فهلْ في ذلكَ نومٌ ؟!

---

(١) رواه ابن حبيب في « عقلاء المجانين » (١٦٤) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٩/٤٤٣) .

وقالَ ثابتٌ البنانيُّ : (أدركتُ رجالاً كانَ أحدُهُمْ يصلِّي ، فيعجزُ حتىٰ ما يأتي فراشَهُ إلا حبواً)[1] .

وقيلَ : مكثَ أبو بكرِ بنُ عياشٍ أربعينَ سنةً لا يضعُ جنبَهُ علىٰ فراشٍ[2] .

ونزلَ الماءُ في إحدىٰ عينيهِ ، فمكثَ عشرينَ سنةً لا يعلمُ بهِ أهلُهُ[3] .

وقيلَ : كانَ وِرْدُ سمنونٍ في كلِّ يومٍ وليلةٍ خمسَ مئةِ ركعةٍ[4] .

وعنْ أبي بكرٍ المُطَّوِّعيِّ قالَ : كانَ وردي في شبيبتي كلَّ يومٍ وليلةٍ أقرأُ فيهِ : (قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) إحدىٰ وثلاثينَ ألفَ مرَّةٍ ، أوْ أربعينَ ألفَ مرَّةٍ ، شكَّ الراوي[5] .

وكانَ منصورُ بنُ المعتمرِ إذا رأيتَهُ.. قلتَ : رجلٌ أُصيبَ بمصيبةٍ ، منكسرُ الطرْفِ ، منخفضُ الصوتِ ، رطْبُ العينينِ ، إنْ حرَّكتَهُ.. جاءَتْ عيناهُ بأربعٍ[6] ، ولقدْ قالَتْ لهُ أمُّهُ : ما هٰذا الذي تصنعُ بنفسِكَ ؟ تبكي الليلَ عامَّتَهُ لا تسكتُ ؟! لعلَّكَ يا بنيَّ أصبتَ نفساً ، لعلَّكَ قتلتَ قتيلاً ؟

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢١٧) من زيادات نعيم بن حماد .
(٢) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٤/ ٣٨٢) .
(٣) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٤/ ٣٨٣) .
(٤) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (٩/ ٢٣٤) .
(٥) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٤/ ٢٩١) .
(٦) لغزارة دمعه ، فهو يسيل من اللحظين والموقين ، وانظر « أساس البلاغة » (ر ب ع) .

فيقولُ : يا أمَّهْ ؛ أنا أعلمُ بما صنعتُ بنفسي[1] .

وقيلَ لعامرِ بنِ عبدِ اللهِ : كيفَ صبرُكَ على سهرِ الليلِ وظمأِ الهواجرِ ؟ فقالَ : هلْ هوَ إلا أنِّي صرفتُ طعامَ النهارِ إلى الليلِ ، ونومَ الليلِ إلى النهارِ ؟! وليسَ في ذلكَ خطيرُ أمرٍ !

وكانَ يقولُ : ما رأيتُ مثلَ الجنةِ نامَ طالبُها ، وما رأيتُ مثلَ النارِ نامَ هاربُها ، وكانَ إذا جاءَ الليلُ . . قالَ : أذهبَ حرُّ النارِ النومَ ، فما ينامُ حتىٰ يصبحَ ، فإذا جاءَ النهارُ . . قالَ : أذهبَ حرُّ النارِ النومَ ، فما ينامُ حتىٰ يمسي ، فإذا جاءَ الليلُ . . قالَ : مَنْ خافَ . . أدلجَ ، عندَ الصباحِ يحمدُ القومُ السُّرىٰ[2] .

وقالَ بعضُهُمْ : صحبتُ عامرَ بنَ عبدِ قيسٍ أربعةَ أشهرٍ ، فما رأيتُهُ نامَ بليلٍ ولا نهارٍ[3] .

ويُروىٰ عنْ رجلٍ مِنْ أصحابِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ قالَ : صلَّيتُ خلفَ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ الفجرَ ، فلمَّا سلَّمَ . . انفتلَ عنْ يمينِهِ وعليهِ كآبةٌ ، فمكثَ حتىٰ طلعَتِ الشمسُ ، ثمَّ قلَّبَ يدَهُ وقالَ : واللهِ ؛ لقدْ رأيتُ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (٩٠) ولم يذكر صدره ، وبتمامه ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (٢/١/٥٥) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٥٧) عن عامر بن عبد الله بن عبد قيس ، وهو الآتي ذكره .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٥٨) .

أصحابَ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وما أرى اليومَ شيئاً يشبهُهُمْ ، كانوا يصبحونَ شعثاً غبراً صفراً ، قدْ باتوا للهِ سُجَّداً وقياماً ، يتلونَ كتابَ اللهِ ، يراوحونَ بينَ أقدامِهِمْ وجباهِهِمْ ، وكانوا إذا ذكروا اللهَ . . مادوا كما يميدُ الشجرُ في يومِ الريحِ ، وهملَتْ أعينُهُمْ حتىٰ تبلَّ ثيابَهُمْ ، وكأنَّ القومَ باتوا غافلينَ ؛ يعني مَنْ كانَ حولَهُ[1] .

وكانَ أبو مسلمٍ الخولانيُّ قدْ علَّقَ سوطاً في مسجدِ بيتِهِ يخوِّفُ بهِ نفسَهُ ، وكانَ يقولُ لنفسِهِ : قومي ، فواللهِ ؛ لأزحفنَّ بكِ زحفاً حتىٰ يكونَ الكللُ منكِ لا مني ، فإذا دخلَتْهُ الفترةُ . . تناولَ سوطَهُ وضربَ بهِ ساقَهُ ويقولُ : أنتِ أولىٰ بالضربِ مِنْ دابتي[2] .

وكانَ يقولُ : أيظنُّ أصحابُ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنْ يستأثروا بهِ دونَنا ، كلا ، واللهِ ؛ لنزاحمنَّهُمْ عليهِ زحاماً حتىٰ يعلموا أنَّهُمْ قدْ خلَّفوا وراءَهُمْ رجالاً[3] .

وكانَ صفوانُ بنُ سليمٍ قدْ تعقَّدَتْ ساقاهُ مِنْ طولِ القيامِ ، وبلغَ مِنَ الاجتهادِ ما لوْ قيلَ لهُ : يومُ القيامةِ غداً . . ما وجدَ متزيَّداً[4] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٢٠٥) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٢٥٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/٧٦) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/١٢٧) .

(٣) أورده ابن الجوزي في « التبصرة » (١/٥٠٠) .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/١٥٩) .

وكانَ إذا جاءَ الشتاءُ. . اضطجعَ على السطحِ ليضرَّ بهِ البردُ ، وإذا كانَ في الصيفِ. . اضطجعَ داخلَ البيوتِ ليجدَ الحرَّ والغمَّ فلا ينامُ ، وإنَّهُ ماتَ وهوَ ساجدٌ[1] .

وكانَ يقولُ : اللهمَّ ؛ إنّي أحبُّ لقاءَكَ فأحبَّ لقائي[2] .

وقالَ القاسمُ بنُ محمدٍ : غدوتُ يوماً ، وكنتُ إذا غدوتُ. . بدأتُ بعائشةَ رضيَ اللهُ عنها أسلِّمُ عليها ، فغدوتُ يوماً إليها ، فإذا هيَ تصلِّي صلاةَ الضحىٰ وهيَ تقرأُ : ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ وتبكي وتدعو وتردِّدُ الآيةَ ، فقمتُ حتىٰ مللتُ وهيَ كما هيَ ، فلمَّا رأيتُ ذلكَ. . ذهبتُ إلى السوقِ ، فقلتُ : أفرغُ مِنْ حاجتي ثمَّ أرجعُ ففرغتُ مِنْ حاجتي ثمَّ رجعتُ وهيَ كما هيَ تردِّدُ الآيةَ وتدعو وتبكي[3] .

وقالَ محمدُ بنُ إسحاقَ : لمَّا وردَ علينا عبدُ الرحمٰنِ بنُ الأسودِ حاجّاً. . اعتلَّتْ إحدىٰ قدميهِ ، فقامَ يصلِّي علىٰ قدمٍ واحدةٍ حتىٰ صلَّى الصبحَ بوضوءِ العشاءِ[4] .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ١٥٩) بنحوه ضمن خبرين .

(٢) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٢٤/ ١٣٥) .

(٣) رواه ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (١/ ٢/ ١٥) ، وعزاه لابن أبي الدنيا ابنُ رجب في « فتح الباري » (٤/ ٢٤٧) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (١٠٧) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٤/ ٢٣١) .

وقالَ بعضُهُمْ : (ما أخافُ مِنَ الموتِ إلا مِنْ حيثُ يحولُ بيني وبينَ قيامِ الليلِ)[١] .

وقالَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ : (سيما الصالحينَ صفرةُ الألوانِ مِنَ السهرِ ، وعمشُ العيونِ مِنَ البكاءِ ، وذبولُ الشفاهِ مِنَ الصومِ ، عليهِمْ غبرةُ الخاشعينَ)[٢] .

وقيلَ للحسنِ : ما بالُ المتهجدينَ أحسنُ الناسِ وجوهاً ؟ فقالَ : إنَّهُمْ خلوا بالرحمـٰنِ ، فألبسَهُمْ نوراً مِنْ نورِهِ[٣] .

وكانَ عامرُ بنُ عبدِ قيسٍ يقولُ : إلـٰهي ؛ خلقتَني ولمْ تؤامرْني ، وتميتُني ولا تعلمُني ، وخلقتَ معي عدوّاً ، وجعلتَهُ يجري منِّي مجرى الدمِ ، وجعلتَهُ يراني ولا أراهُ ، ثمَّ قلتَ لي : استمسكْ ، إلـٰهي ؛ كيفَ أستمسكُ إنْ لمْ تمسكْني ؟ إلـٰهي ؛ في الدنيا الهمومُ والأحزانُ ، وفي الآخرةِ العقابُ والحسابُ ، فأينَ الراحةُ والفرحُ ؟[٤] .

وقالَ جعفرُ بنُ محمدٍ : كانَ عتبةُ الغلامُ يقطعُ الليلَ بثلاثِ صيحاتٍ ، كانَ إذا صلّى العتمةَ وضعَ رأسَهُ بينَ ركبتيهِ يتفكَّرُ ، فإذا مضىٰ ثلثُ الليلِ . .

---

(١) فقد روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٢٧٥) عن أبي سليمان الداراني قوله : (لأهل الطاعة بالهمّ ألذ من أهل اللهو بلهوهم ، ولولا الليل . . ما أحببت البقاء في الدنيا) .

(٢) روىٰ أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٨٦) عن مجاهد قال : (شيعة علي الحلماء العلماء ، الذبل الشفاه ، الأخيار الذين يعرفون بالرهبانية من أثر العبادة) .

(٣) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ٢٨) .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٨٧) .

صاحَ صيحةً ثمَّ يضعُ رأسَهُ بينَ ركبتيهِ يتفكَّرُ ، فإذا مضىٰ ثلثُ الليلِ . . صاحَ صيحةً ثمَّ يضعُ رأسَهُ بينَ ركبتيهِ يتفكَّرُ ، فإذا كانَ السحرُ . . صاحَ صيحةً ، قالَ جعفرُ بنُ محمدٍ : فحدثتُ بهِ بعضَ البصريينَ ، فقالَ : لا تنظرْ إلىٰ صياحِهِ ، ولكنِ انظرْ إلىٰ ما كانَ فيهِ بينَ الصيحتينِ حتىٰ صاحَ[1] .

وعنِ القاسمِ بنِ راشدٍ الشيبانيِّ قالَ : كانَ زمعةُ نازلاً عندنا بالمحصَّبِ ، وكانَ لهُ أهلٌ وبناتٌ ، وكانَ يقومُ فيصلِّي ليلاً طويلاً ، فإذا كانَ السحرُ . . نادىٰ بأعلىٰ صوتِهِ : أيُّها الركبُ المعرسونَ ؛ أكلَّ هٰذا الليلِ ترقدونَ ؟! أفلا تقومونَ فترحلونَ ؟ فيتواثبونَ ، فيُسمعُ مِنْ هٰهنا باكٍ ، ومِنْ هٰهنا داعٍ ، ومِنْ هٰهنا قارىءٌ ، ومِنْ هٰهنا متوضىءٌ ، فإذا طلعَ الفجرُ . . نادىٰ بأعلىٰ صوتِهِ : عندَ الصباحِ يحمدُ القومُ السُّرىٰ[2] .

وقالَ بعضُ الحكماءِ : (إنَّ للهِ عباداً أنعمَ عليهِمْ فعرفوهُ ، وشرحَ صدورَهُمْ فأطاعوهُ ، وتوكَّلوا عليهِ فسلَّموا الخلقَ والأمرَ إليهِ ، فصارَتْ قلوبُهُمْ معادنَ لصفاءِ اليقينِ ، وبيوتاً للحكمةِ ، وتوابيتَ للعظمةِ ، وخزائنَ للقدرةِ ، فهُمْ بينَ الخلائقِ مقبلونَ ومدبرونَ ، وقلوبُهُمْ تجولُ في الملكوتِ ، وتلوذُ بمحجوبِ الغيوبِ ، ثمَّ ترجعُ ومعها طرائفُ مِنْ لطيفِ الفوائدِ ما لا يمكنُ واصفاً أنْ يصفَهُ ، فهُمْ في باطنِ أمورِهِمْ كالديباجِ حسناً ،

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٣٤) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٦٨) .

وهمْ في الظاهرِ مناديلُ مبذولونَ لمَنْ أرادَهُمْ تواضعاً) ، وهـٰذهِ طريقةٌ لا يبلغُ إليها بالتكلُّفِ ، وإنَّما هوَ فضلُ اللهِ يؤتيهِ مَنْ يشاءُ .

وقالَ بعضُ الصالحينَ : بينَما أنا أسيرُ في بعضِ جبالِ بيتِ المقدسِ ، إذْ هبطتُ إلىٰ وادٍ هنالكَ ، فإذا أنا بصوتٍ قدْ علا ، وإذا تلكَ الجبالُ تجيبُهُ لها دويٌّ عالٍ ، فاتبعتُ الصوتَ ، فإذا أنا بروضةٍ عليها شجرٌ ملتفٌّ ، وإذا أنا برجلٍ قائمٍ فيها يردِّدُ هـٰذهِ الآيةَ : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ﴾ إلىٰ قولِهِ : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ ، قالَ : فجلستُ خلفَهُ أسمعُ كلامَهُ وهوَ يردِّدُ هـٰذهِ الآيةَ ؛ إذْ صاحَ صيحةً خرَّ منها مغشياً عليهِ ، فقلتُ : وا أسفاهُ ، هـٰذا لشقائي ، ثمَّ انتظرتُ إفاقتَهُ ، فأفاقَ بعدَ ساعةٍ ، فسمعتُهُ وهوَ يقولُ : أعوذُ بكَ مِنْ مقامِ الكذَّابينَ ، أعوذُ بكَ مِنْ أعمالِ البطَّالينَ ، أعوذُ بكَ مِنْ إعراضِ الغافلينَ ، ثمَّ قالَ : لكَ خشعَتْ قلوبُ الخائفينَ ، وإليكَ فزعَتْ آمالُ المقصرينَ ، ولعظمتِكَ ذلَّتْ قلوبُ العارفينَ ، ثمَّ نفضَ يدَهُ فقالَ : ما لي وللدنيا ، وما للدنيا ولي ؟! عليكِ يا دنيا بأبناءِ جنسِكِ ، وأُلَّافِ نعيمِكِ ، إلىٰ محبيكِ فاذهبي ، وإيَّاهُمْ فاخدعي ، ثمَّ قالَ : أينَ القرونُ الماضيةُ ، وأهلُ الدهورِ السالفةِ ؟ في الترابِ يبلونَ ، وعلى الزمانِ يفنونَ ، فناديتُهُ : يا عبدَ اللهِ ؛ أنا منذُ اليومِ خلفَكَ أنتظرُ فراغَكَ ، فقالَ : وكيفَ يفرغُ مَنْ يبادرُ الأوقاتَ وتبادرُهُ ، يخافُ سبقَها بالموتِ إلىٰ نفسِهِ ؟! أمْ كيفَ يفرغُ مَنْ ذهبتْ أيامُهُ وبقيَتْ آثامُهُ ؟! ثمَّ قالَ : أنتَ لها ولكلِّ شدَّةٍ أتوقَّعُ نزولَها ، ثمَّ لها عنِّي ساعةً وقرأَ : ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴾ ، ثمَّ صاحَ صيحةً أخرىٰ

أشدَّ مِنَ الأولىٰ ، فخرَّ مغشياً عليهِ ، فقلتُ : قدْ خرجَتْ نفسُهُ ، فدنوتُ منهُ ، فإذا هوَ يضطربُ ، ثمَّ أفاقَ وهوَ يقولُ : مَنْ أنا ؟ ما خطري ؟ هبْ لي إساءتي مِنْ فضلِكَ ، وجلِّلْني بسترِكَ ، واعفُ عنْ ذنوبي بكرمِ وجهِكَ إذا وقفتُ بينَ يديكَ ، فقلتُ لهُ : بالذي ترجوهُ لنفسِكَ وتثقُ بهِ إلا كلَّمتَني ، فقالَ : عليكَ بكلامِ مَنْ ينفعُكَ كلامُهُ ، ودعْ كلامَ مَنْ أوبقتْهُ ذنوبُهُ ، إنِّي لفي هٰذا الموضعِ مُذْ شاءَ اللهُ أجاهدُ إبليسَ ويجاهدُني ، فلمْ يجدْ عوناً عليَّ ليخرجَني ممَّا أنا فيهِ غيرَكَ ، فإليكَ عنِّي يا مخدوعُ ، فقدْ عطَّلتَ عليَّ لساني ، وميَّلتَ إلىٰ حديثِكَ شعبةً مِنْ قلبي ، فأنا أعوذُ باللهِ مِنْ شرِّكَ ، ثمَّ أرجو أنْ يعيذَني مِنْ سخطِهِ ، ويتفضَّلَ عليَّ برحمتِهِ ، قالَ : فقلتُ : هٰذا وليٌّ للهِ ؛ أخافُ أنْ أشغلَهُ فأُعاقبَ في موضعي هٰذا ، فانصرفتُ وتركتُهُ .

وقالَ بعضُ الصالحينَ : بينَما أنا أسيرُ في مسيرٍ لي إذ ملتُ إلىٰ شجرةٍ لأستريحَ تحتَها ، فإذا أنا بشيخٍ قدْ أشرفَ عليَّ ، فقالَ لي : يا هٰذا ؛ قُمْ ، فإنَّ الموتَ لمْ يمتْ ، ثمَّ هامَ علىٰ وجهِهِ ، فاتبعتُهُ ، فسمعتُهُ وهوَ يقولُ : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ ، اللهمَّ ؛ باركْ لي في الموتِ ، فقلتُ : وفيما بعدَ الموتِ[1] ، فقالَ : مَنْ أيقنَ بما بعدَ الموتِ شمَّرَ مئزرَ الحذرِ ، ولمْ يكنْ لهُ

---

(١) إذ روى الطبراني في « الأوسط » (٧٦٧٢) من حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت : يا رسول الله ؛ ليس الشهيد إلا من قتل في سبيل الله ؟ فقال : « يا عائشة ؛ إن شهداء أمتي إذاً لقليل ، من قال في يومٍ خمساً وعشرين مرة : اللهم ؛ بارك في الموت وفيما بعد الموت ، ثم مات علىٰ فراشه ، أعطاه الله أجر شهيد » .

في الدنيا مستقرٌّ ، ثمَّ قالَ : يا مَنْ لوجهِهِ عنتِ الوجوهُ ؛ بيِّضْ وجهي بالنظرِ إليكَ ، واملأْ قلبي مِنَ المحبةِ لكَ ، وأجرني مِنْ ذلَّةِ التوبيخِ غداً عندَكَ ، فقدْ آن لي الحياءُ منكَ ، وحانَ لي الرجوعُ عنِ الإعراضِ عنكَ ، ثمَّ قالَ : لولا حلمُكَ .. لمْ يسعْني أجلي ، ولولا عفوُكَ .. لمْ ينبسطْ فيما عندَكَ أملي ، ثمَّ مضىٰ وتركَني .

وقدْ أنشدوا في هٰذا المعنىٰ : [من الوافر]

نَحِيلُ ٱلْجِسْمِ مُكْتَئِبُ ٱلْفُؤادِ ... تَراهُ بِقُنَّةٍ أَوْ بَطْنِ وادِي
يَنُوحُ عَلَىٰ مَعاصٍ فادِحاتٍ ... يُكَدِّرُ ثِقْلُها صَفْوَ ٱلرُّقادِ
فَإِنْ هاجَتْ مَخاوِفُهُ وَزادَتْ ... فَدَعْوَتُهُ أَغِثْنِي يا عِمادِي
فَأَنْتَ بِما أُلاقِيهِ عَلِيمٌ ... كَثِيرُ ٱلصَّفْحِ عَنْ زَلَلِ ٱلْعِبادِ

وقيلَ أيضاً[1] : [من الوافر]

أَلَذُّ مِنَ ٱلتَّلَذُّذِ بِٱلْغَوانِي ... إِذا أَقْبَلْنَ فِي حُلَلٍ حِسانِ
مُنِيبٌ فَرَّ مِنْ أَهْلٍ وَمالٍ ... يَسِيحُ إِلَىٰ مَكانٍ مِنْ مَكانِ
لِيُخْمِلَ ذِكْرَهُ وَيَعِيشَ فَرْداً ... وَيَظْفَرَ فِي ٱلْعِبادَةِ بِٱلأَمانِي
تَلَذُّذُهُ ٱلتِّلاوَةُ أَيْنَ وَلَّىٰ ... وَذِكْرٌ بِٱلْفُؤادِ وَبِٱللِّسانِ
وَعِنْدَ ٱلْمَوْتِ يَأْتِيهِ بَشِيرٌ ... يُبَشِّرُ بِٱلنَّجاةِ مِنَ ٱلْهَوانِ
فَيُدْرِكُ ما أَرادَ وَما تَمَنَّىٰ ... مِنَ ٱلرَّاحاتِ فِي غُرَفِ ٱلْجِنانِ

---

(١) انظر « الكشكول » (١/ ٢٧٤) .

وكانَ كُرزُ بنُ وبرةَ يختمُ القرآنَ في كلِّ يومٍ ثلاثَ مرَّاتٍ ، ويجاهدُ نفسَهُ في العباداتِ غايةَ المجاهدةِ ، فقيلَ لهُ : قدْ أجهدتَ نفسَكَ ، فقالَ : كمْ عمرُ الدنيا ؟ فقيلَ : سبعةُ آلافِ سنةٍ ، فقالَ : كمْ مقدارُ يومِ القيامةِ ، فقيلَ : خمسونَ ألفَ سنةٍ ، فقالَ : كيفَ يعجزُ أحدُكُمْ أنْ يعملَ سُبُعَ يومٍ حتىٰ يأمنَ ذلكَ اليومَ ؟! يعني : أنَّكَ لوْ عشتَ عمرَ الدنيا ، واجتهدتَ سبعةَ آلافِ سنةٍ ، وتخلَّصتَ مِنْ يومٍ واحدٍ كانَ مقدارُهُ خمسينَ ألفَ سنةٍ . . لكانَ ربحُكَ كثيراً ، وكنتَ بالرغبةِ فيهِ جديراً ، فكيفَ وعمرُكَ قصيرٌ والآخرةُ لا غايةَ لها ؟![1] .

فهكذا كانَتْ سيرةُ السلفِ الصالحينَ في مرابطةِ النفسِ ومراقبتِها ، فمهما تمرَّدَتْ نفسُكَ عليكَ ، وامتنعَتْ مِنَ المواظبةِ على العبادةِ . . فطالعْ أحوالَ هؤلاءِ ؛ فإنَّهُ قدْ عزَّ الآنَ وجودُ مثلِهِمْ ، ولوْ قدرتَ علىٰ مشاهدةِ مَنِ اقتدىٰ بهِمْ . . فهوَ أنجعُ في القلبِ ، وأبعثُ على الاقتداءِ ، فليسَ الخبرُ كالمعاينةِ ، وإذا عجزتَ عنْ هٰذا . . فلا تغفُلْ عنْ سماعِ أحوالِ هؤلاءِ ، فإنْ لمْ تكنْ إبل . . فمعزىً .

وخيِّرْ نفسَكَ بينَ الاقتداءِ بهِمْ والكونِ في زمرتِهِمْ وغمارِهِمْ وهُمُ العقلاءُ والحكماءُ وذوو البصائرِ في الدينِ ، وبينَ الاقتداءِ بالجهلةِ الغافلينَ مِنْ أهلِ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (٤١٨) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ١٥٨) ، وكونه يختم القرآن في كل يوم ثلاث مرات رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (١٥٧) .

عصرِكَ ، ولا ترضَ لها أنْ تنخرطَ في سلكِ الحمقىٰ ، وتقنعَ بالتشبُّهِ بالأغبياءِ ، وتؤثرَ مخالفةَ العقلاءِ .

فإنْ حدثَتْكَ نفسُكَ بأنَّ هؤلاءِ رجالٌ أقوياءُ لا يُطاقُ الاقتداءُ بهِم . . فطالعْ أحوالَ النساءِ المجتهداتِ وقلْ لها : يا نفسُ ؛ ألا تستنكفي أنْ تكوني أقلَّ مِنِ امرأةٍ ؟! فأخسسْ برجلٍ يقصرُ عنِ امرأةٍ في أمرِ دينِها ودنياها !

❊ ❊ ❊

ولنذكرِ الآنَ نبذةً مِنْ أحوالِ المجتهداتِ :

فقدْ رُوِيَ عنْ حبيبةَ العدويَّةِ أنَّها كانَتْ إذا صلَّتِ العتمةَ . . قامَتْ علىٰ سطحٍ لها ، وشدَّتْ عليها درعَها وخمارَها ، ثمَّ قالَتْ : إلـٰهي ؛ قدْ غارَتِ النجومُ ، ونامَتِ العيونُ ، وغلَّقَتِ الملوكُ أبوابَها ، وخلا كلُّ حبيبٍ بحبيبِهِ ، وهـٰذا مقامي بينَ يديكَ . ثمَّ تقبلُ علىٰ صلاتِها ، فإذا كانَ السحرُ وطلعَ الفجرُ . . قالَتْ : إلـٰهي ؛ هـٰذا الليلُ قدْ أدبرَ ، وهـٰذا النهارُ قدْ أسفرَ ، فليتَ شعري أقبلتَ منِّي ليلتي فأهنأَ ، أمْ رددتَها عليَّ فأُعزَّى ؟ وعزَّتِكَ ؛ لهـٰذا دأبي ودأبُكَ ما أبقيتَني ، وعزتِكَ ؛ لوِ انتهرتَني عَنْ بابِكَ . . ما برحتُ ؛ لما وقعَ في نفسي مِنْ جودِكَ وكرمِكَ[1] .

ويُروىٰ عنْ عَجْرَدَةَ أنَّها كانَتْ تحيي الليلَ ، وكانَتْ مكفوفةَ البصرِ ، فإذا كانَ في السحرِ . . نادَتْ بصوتٍ لها محزونٍ : إليكَ قطعَ العابدونَ دجى

---

(١) رواه السلمي في « ذكر النسوة المتعبدات الصوفيات » (ص ٩٣) .

الليالي ، يستبقونَ إلىٰ رحمتِكَ وفضْلِ مغفرتِكَ ، فبكَ يا إلـٰهي أسأَلُكَ لا بغيرِكَ أنْ تجعلَني في أوَّلِ زمرةِ السابقينَ ، وأنْ ترفعَني لديكَ في عليينَ في درجةِ المقرَّبينَ ، وأنْ تلحقَني بعبادِكَ الصالحينَ ، فأنتَ أرحمُ الرحماءِ ، وأعظمُ العظماءِ ، وأكرمُ الكرماءِ يا كريمُ ، ثمَّ تخرُّ ساجدةً فيُسمعُ لها وَجْبةٌ ، ثمَّ لا تزالُ تدعو وتبكي إلى الفجرِ[1] .

وقالَ يحيىٰ بنُ بسطامٍ : كنتُ أشهدُ مجلسَ شَعْوانةَ ، فكنتُ أرىٰ ما تصنعُ مِنَ النياحةِ والبكاءِ ، فقلتُ لصاحبٍ لي : لوْ أتيناها إذا خلتْ فأمرناها بالرفقِ بنفسِها ، فقالَ : أنتَ وذاكَ ، قالَ : فأتيناها ، فقلتُ لها : لوْ رفقتِ بنفسِكِ وأقصرتِ عنْ هـٰذا البكاءِ شيئاً ، فكانَ أقوىٰ لكِ علىٰ ما تريدينَ ، قالَ : فبكَتْ ثمَّ قالَتْ : واللهِ ، لوددتُ أنِّي أبكي حتىٰ تنفدَ دموعي ، ثمَّ أبكي دماً حتىٰ لا تبقىٰ قطرةٌ مِنْ دمٍ في جارحةٍ مِنْ جوارحي ، وأنَّىٰ لي بالبكاءِ ، وأنَّىٰ لي بالبكاءِ ؟! فلمْ تزلْ تردِّدُ : (وأنَّىٰ لي بالبكاءِ) حتىٰ غُشِيَ عليها[2] .

وقالَ محمدُ بنُ معاذٍ : حدثَتْني امرأةٌ مِنَ المتعبِّداتِ قالَتْ : رأيتُ في منامي كأنِّي أُدخلتُ الجنةَ ، فإذا أهلُ الجنَّةِ قيامٌ علىٰ أبوابِهِمْ ، فقلتُ : ما شأنُ أهلِ الجنةِ قيامٌ ؟ فقالَ لي قائلٌ : خرجوا ينظرونَ إلىٰ هـٰذهِ المرأةِ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٤٥) ، وعجردة هي العمية ، ذكرها السلمي في « المتعبدات الصوفيات » (ص ٥٣) .

(٢) رواه ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (٢/٢/٣٣) .

التي زُخرفَتِ الجنانُ لقدومِها ، فقلتُ : ومَنْ هـٰذهِ المرأةُ ؟ فقيلَ : أمةٌ سوداءُ مِنْ أهلِ الأُبُلَّةِ يُقالُ لها شَعْوانةُ ، قالَتْ : فقلتُ : أختي واللهِ ، قالَتْ : فبينا أنا كذلكَ . . إذْ أُقبلَ بها علىٰ نجيبةٍ تطيرُ بها في الهواءِ ، فلما رأيتُها . . ناديتُ : يا أختي ؛ أما ترينَ مكاني مِنْ مكانِكِ ، فلوْ دعوتِ لي مولاكِ فألحقَني بكِ ، قالَتْ : فتبسَّمَتْ إليَّ وقالَتْ : لمْ يأْنِ لقدومِكِ ، ولكنِ احفظي عنِّي اثنتينِ : ألزمي الحزنَ قلبَكِ ، وقدِّمي محبَّةَ اللهِ علىٰ هواكِ ، ولا يضرُّكِ متىٰ متِّ[1] .

وقالَ عبيدُ اللهِ بنُ الحسنِ : كانَتْ لي جاريةٌ روميَّةٌ ، وكنتُ بها معجباً ، فكانَتْ في بعض الليالي نائمةً إلىٰ جنبي ، فانتبهَتْ ، فالتمستُها[2] ، فلمْ أجدْها ، فقمتُ أطلبُها ، فإذا هيَ ساجدةٌ وهيَ تقولُ : بحبِّكَ لي إلا ما غفرتَ لي ذنوبي ، فقلتُ لها : لا تقولي : بحبِّكَ لي ، ولكنْ قولي : بحبِّي لكَ ، فقالَتْ : لا يا مولايَ ، بحبِّهِ لي أخرجَني مِنَ الشركِ إلى الإسلامِ ، وبحبِّهِ لي أيقظَ عيني وكثيرٌ مِنْ خلقِهِ نيامٌ[3] .

وقالَ أبو هاشمٍ القرشيُّ : قدمَتْ علينا امرأةٌ مِنْ أهلِ اليمنِ يُقالُ لها سريةُ ، فنزلَتْ في بعضِ ديارِنا ، قالَ : فكنتُ أسمعُ لها مِنَ الليلِ أنيناً

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا . « إتحاف » (١٠/ ١٣٩) .

(٢) أي : طلبتها ، وفي غالب النسخ : (لمستها) .

(٣) رواه الخطيب في « تاريخ بغداد » (١٠/ ٣٠٩) ، وعبيد الله بن الحسن بن الحصين العنبري قاضي البصرة .

وشهيقاً ، فقلتُ يوماً لخادمٍ لي : أشرفي علىٰ هـٰذهِ المرأةِ فانظري ماذا تصنعُ ، قالَ : فأشرفَتْ عليها ، فما رأتْها تصنعُ شيئاً غيرَ أنَّها لا تردُّ طرفَها عنِ السماءِ وهيَ مستقبلَةُ القبلةَ تقولُ : خلقتَ سريةَ ، ثمَّ غذَّيتَها بنعمتِكَ مِنْ حالٍ إلىٰ حالٍ ، وكلُّ أحوالِكَ لها حسنةٌ ، وكلُّ بلائِكَ عندَها جميلٌ ، وهيَ معَ ذلكَ متعرِّضةٌ لسخطِكَ بالتوثُّبِ علىٰ معاصيكَ فلتةً بعدَ فلتةٍ ، أتراها تظنُّ أنَّكَ لا ترىٰ سوءَ فعالِها وأنتَ عليمٌ خبيرٌ ، وأنتَ علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ ؟ ![1] .

وقالَ ذو النونِ المصريُّ : خرجتُ ليلةً مِنْ وادي كنعانَ ، فلمَّا علوتُ الواديَ . . إذا سوادٌ مقبلٌ عليَّ وهوَ يقولُ : ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾ ويبكي ، فلمَّا قرُبَ منِّي السوادُ . . إذا هيَ امرأةٌ عليها جبَّةُ صوفٍ ، وبيدِها ركوةٌ ، فقالَتْ لي : مَنْ أنتَ ؟ غيرَ فازعةٍ منِّي ، فقلتُ : رجلٌ غريبٌ ، فقالَتْ : يا هـٰذا ؛ وهلْ يُوجدُ معَ اللهِ غربةٌ ، قالَ : فبكيتُ لقولِها ، فقالَتْ لي : ما الذي أبكاكَ ؟ فقلتُ : وقعَ الدواءُ علىٰ داءٍ قدْ قرحَ ، فأسرعَ في نجاحِهِ ، قالَتْ : فإنْ كنتَ صادقاً . . فلمَ بكَيتَ ؟ قلت :

---

(١) رواه ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (١٨٢/٢/١) ، والمتعبدة عنده اسمها (سوية) ، وتمام الخبر : (ثم صرخت وسقطت ، فنزلت الجارية فأخبرتني بسقطتها ، فلما أصبحنا . . نظرنا فإذا هي قد ماتت) ، وعند السلمي في « المتعبدات الصوفيات » (ص ١١٧) متعبدة اسمها سُرَيرة الشرقية ، ووقع في (ف) : (سريرة) بدل (سرية) .

يرحمُكِ اللهُ ، والصادقُ لا يبكي ؟ قالَتْ : لا ، قلتُ : ولِمَ ذاكَ ؟ قالَتْ : لأنَّ البكاءَ راحةُ القلبِ ، فسكتُّ متعجباً مِنْ قولِها[1] .

وقالَ أحمدُ بنُ عليٍّ : استأْذنَّا علىٰ عفيرةَ[2] ، فحجبَتْنا ، فلازمنا البابَ ، فلمَّا علمَتْ ذلكَ . . قامَتْ لتفتحَ البابَ لنا ، فسمعتُها وهيَ تقولُ : اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ ممَّنْ جاءَ يشغلُني عنْ ذكرِكَ ، ثمَّ فتحَتِ البابَ ودخلنا عليها ، فقلنا لها : يا أمةَ اللهِ ؛ ادعي لنا ، فقالَتْ : جعلَ اللهُ قراكُمْ في بيتي المغفرةَ ، ثمَّ قالَتْ لنا : مكثَ عطاءٌ السلميُّ أربعينَ سنةً لا ينظرُ إلى السماءِ ، فحانَتْ منهُ نظرةٌ ، فخرَّ مغشياً عليهِ ، فأصابَهُ فتقٌ في بطنِهِ ، فيا ليتَ عُفيرةَ إذْ رفعَتْ رأسَها . . لمْ تعصِ ، ويا ليتَها إذْ عصَتْ . . لمْ تعدْ[3] .

وقالَ بعضُ الصالحينَ : خرجتُ يوماً إلى السوقِ ومعي جاريةٌ حبشيةٌ ، فاحتبستُها في موضعٍ بناحيةِ السوقِ ، وذهبتُ في بعضِ حوائجي ، وقلتُ : لا تبرحي حتىٰ أنصرفَ إليكِ ، قالَ : فانصرفتُ ، فلمْ أجدها في الموضعِ ، فانصرفتُ إلىٰ منزلي وأنا شديدُ الغضبِ عليها ، فلمَّا رأتْني . . عرفَتِ الغضبَ في وجهي ، فقالَتْ لي : يا مولايَ ؛ لا تعجلْ عليَّ ، إنَّكَ أجلستَني في موضعٍ لمْ أرَ فيهِ ذاكراً للهِ تعالىٰ ، فخفتُ أنْ يُخسفَ بذلكَ

---

(١) رواه مع زيادة أبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٣٤١) .

(٢) انظر بعض أخبارها عند ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (٢/ ٤/ ٢٠) ، وعند السلمي في « المتعبدات الصوفيات » (ص ٣٩) عابدة باسم (غُفيرة) ، وهي في بعض نسخ أشار إليها الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (١٠/ ١٤٠) .

(٣) رواه مختصراً أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٢١) .



الموضعِ ، فعجبتُ لقولِها وقلتُ لها : أنتِ حرَّةٌ ، فقالَتْ : ساءَ ما صنعتَ ، كنتُ أخدمُكَ فيكونُ لي أجرانِ ، وأمَّا الآنَ . . فقدْ ذهبَ عنِّي أحدُهُما[1] .

وقالَ ابنُ العلاءِ السعديُّ : كانَتْ لي ابنةُ عمٍّ يُقالُ لها بريرةُ ، تعبَّدَتْ ، وكانَتْ تكثرُ القراءةَ في المصحفِ ، فكلَّما أَتَتْ علىٰ آيةٍ فيها ذكرُ النارِ . . بكَتْ ، فلمْ تزلْ تبكي حتىٰ ذهبَتْ عيناها مِنَ البكاءِ ، فقالَ بنو عمِّها : انطلقوا بنا إلىٰ هـٰذهِ المرأةِ حتىٰ نعذلَها في كثرةِ البكاءِ ، قالَ : فدخلنا عليها فقلنا لها : يا بريرةُ ؛ كيفَ أصبحتِ ؟ فقالَتْ : أصبحنا أضيافاً منيخينَ بأرضِ غربةٍ ننتظرُ متىٰ نُدعىٰ فنجيبُ ، فقلنا لها : كمْ هـٰذا البكاءُ ؟! قدْ ذهبَتْ عيناكِ منهُ فقالَتْ : إنْ يكنْ لعينيَّ عندَ اللهِ خيرٌ . . فما يضرُّهُما ما ذهبَ منهُما في الدنيا ، وإنْ كانَ لهما عندَ اللهَ شرٌّ . . فسيزيدُهما بكاءً أطولَ مِنْ هـٰذا ، وأعرضَتْ ، قالَ : فقالَ القومُ : قوموا بنا ، فهيَ واللهِ في شيءٍ غيرِ ما نحنُ فيهِ[2] .

وكانَتْ معاذةُ العدويَّةُ إذا جاءَ النهارُ . . تقولُ : هـٰذا يومي الذي أموتُ فيهِ ، فما تطعمُ حتىٰ تمسي ، فإذا جاءَ الليلُ . . تقولُ : هـٰذهِ الليلةُ التي أموتُ فيها ، فتصلِّي حتىٰ تصبحَ[3] .

---

(١) رویٰ ما يقربه البيهقي في « الشعب » (٢٩٦٣) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا . « إتحاف » (١٠/١٤١) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « التهجد وقيام الليل » (٨١) .

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : بتُّ ليلةً عندَ رابعةَ ، فقامَتْ إلىٰ محرابٍ لها ، وقمتُ أنا إلىٰ ناحيةٍ مِنَ البيتِ ، فلمْ تزلْ قائمةً إلى السحرِ ، فلمَّا كانَ السحرُ . . قلتُ : ما جزاءُ مَنْ قوَّانا علىٰ قيامِ هـٰذهِ الليلةِ ؟ قالَتْ : جزاؤُهُ أنْ تصومَ لهُ غداً[1] .

وكانَتْ شَعْوانةُ تقولُ في دعائِها : (إلـٰهي ؛ ما أشوقَني إلىٰ لقائِكَ ، وأعظمَ رجائي لجزائِكَ ! وأنتَ الكريمُ الذي لا يخيبُ لديكَ أملُ الآملينَ ، ولا يبطلُ عندَكَ شوقُ المشتاقينَ .

إلـٰهي ؛ إنْ كانَ دنا أجلي ، ولمْ يقرِّبْني منكَ عملي . . فقدْ جعلتُ الاعترافَ بالذنبِ وسائلَ عِلَلي ، فإنْ عفوتَ . . فمَنْ أولىٰ منكَ بذلكَ ؟! وإنْ عذَّبتَ . . فمَنْ أعدلُ منكَ هنالكَ ؟!

إلـٰهي ؛ قدْ جرتُ علىٰ نفسي في النظرِ لها ، وبقيَ لها حسنُ نظرِكَ ، فالويلُ لها إنْ لمْ تسعدْها .

إلـٰهي ؛ إنَّكَ لمْ تزلْ بي برّاً أيامَ حياتي ، فلا تقطعْ عنِّي برَّكَ بعدَ مماتي ، ولقدْ رجوتُ ممَّنْ تولاَّني في حياتي بإحسانِهِ أنْ يشفعَهُ عند مماتي بغفرانِهِ .

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٢٩٦٩) ، ولكن عزاه لجعفر بن سليمان ، لا لأبي سليمان الداراني .

إلـٰهي ؛ كيفَ أيئَسُ مِنْ حسنِ نظرِكَ بعدَ مماتي ولمْ تولني إلا الجميلَ في حياتي ؟!

إلـٰهي ؛ إنْ كانَتْ ذنوبي قدْ أخافَتْني . . فإنَّ محبَّتي لكَ قدْ أجارَتْني ، فتولَّ مِنْ أمري ما أنتَ أهلُهُ ، وعُدْ بفضلِكَ علىٰ مَنْ غرَّهُ جهلُهُ .

إلـٰهي ؛ لوْ أردتَ إهانتي . . لما هديتَني ، ولوْ أردتَ فضيحتي . . لمْ تسترْني ، فمتعْني بما لهُ هديتَني ، وأدمْ لي ما بهِ سترتَني .

إلـٰهي ؛ ما أظنُّكَ تردُّني في حاجةٍ أفنيتُ فيها عمري .

إلـٰهي ؛ لولا ما قارفتُ مِنَ الذنوبِ . . ما خفتُ عقابَكَ ، ولولا ما عرفتُ مِنْ كرمِكَ . . ما رجوتُ ثوابَكَ)[1] .

وقالَ الخوَّاصُ : دخلنا علىٰ زُجْلَةَ العابدةِ[2] ، وكانَتْ قدْ صامَتْ حتى اسودَّتْ وبكَتْ حتىٰ عميَتْ ، وصلَّتْ حتىٰ أُقعدَتْ ، وكانَتْ تصلِّي قاعدةً ، فسلَّمنا عليها ، ثمَّ ذكرناها شيئاً مِنَ العفوِ ليهونَ عليها الأمرُ ، قالَ : فشهقَتْ ثمَّ قالَتْ : علمي بنفسي قرَّحَ فؤادي وكلمَ كبدي ، واللهِ ؛ لوددتُ أنَّ اللهَ لمْ يخلقْني ولمْ أكُ شيئاً مذكوراً ، ثمَّ أقبلَتْ علىٰ صلاتِها[3] .

---

(١) عزا رواية الخبر الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (١٠/ ١٤٢) لابن أبي الدنيا .

(٢) زُجْلة : بزاي مضمومة وجيم ، مولاة لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما أو مولاة لعاتكة بنت معاوية ، روت عن أم الدرداء . انظر « تبصير المنتبه بتحرير المشتبه » (٢/ ٥٩٧) .

(٣) رواه ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (٢/ ٢/ ٢٥) .

فعليكَ إنْ كنتَ مِنَ المرابطينَ المراقبينَ لنفسِكَ أنْ تطالعَ أحوالَ الرجالِ والنساءِ مِنَ المجتهدينَ ؛ لينبعثَ نشاطُكَ ، ويزيدَ حرصُكَ ، وإيَّاكَ أنْ تنظرَ إلىٰ أهلِ عصرِكَ ؛ فإنَّكَ إنْ تطعْ أكثرَ مَنْ في الأرضِ يضلُّوكَ عنْ سبيلِ اللهِ .

وحكاياتُ المجتهدينَ غيرُ محصورةٍ ، وفيما ذكرناهُ كفايةٌ للمعتبرِ ، وإنْ أردتَ مزيداً . . فعليكَ بالمواظبةِ علىٰ مطالعةِ كتابِ « حليةُ الأولياءِ »[1] ، فهوَ مشتملٌ علىٰ شرحِ أحوالِ الصحابةِ والتابعينَ ومَنْ بعدَهُمْ ، وبالوقوفِ عليهِ يستبينُ لكَ بعْدُكَ وبعْدُ أهلِ عصرِكَ مِنْ أهلِ الدينِ .

فإنْ حدَّثتْكَ نفسُكَ بالنظرِ إلىٰ أهلِ زمانِك ، وقالَتْ : إنَّما تيسَّرَ الخيرُ في ذلكَ الزمانِ لكثرةِ الأعوانِ ، والآنَ فإنْ خالفتَ أهلَ زمانِكَ . . رأوكَ مجنوناً ، وسخروا بكَ ، فوافقْهُمْ فيما هُمْ فيهِ وعليهِ ، فلا يجري عليكَ إلا ما يجري عليهِمْ ، والمصيبةُ إذا عمَّتْ . . طابَتْ ؛ فإيَّاكَ أنْ تتدلَّىٰ بحبلِ غرورِها ، وتنخدعَ بتزويرِها ، وقلْ لها : أرأيتِ لوْ هجمَ سيلٌ جارفٌ يغرقُ أهلَ البلدِ ، وثبتوا علىٰ مواضعِهِمْ ، ولمْ يأخذوا حذرَهُمْ لجهلِهِمْ بحقيقةِ الحالِ ، وقدرتِ أنتِ علىٰ أنْ تفارقيهِمْ وتركبي في سفينةٍ تتخلَّصي بها مِنَ الغرقِ . . فهلْ يختلجُ في نفسِكِ أنَّ المصيبةَ إذا عمَّتْ . . طابَتْ ؟ أمْ تتركينَ موافقتَهُمْ ، وتستجهلينَهُمْ في صنيعِهِمْ ، وتأخذينَ حذرَكِ ممَّا دهاكِ ؟ فإذا

---

(١) للإمام الحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني ، المتوفىٰ سنة (٤٣٠هـ) ، قال الذهبي في « سير أعلام النبلاء » (١٧/٤٥٩) : (وكانوا يقولون : لما صنَّف كتاب « الحلية » . . حمل إلىٰ نيسابور حال حياته ، فاشتروه بأربع مئة دينار) .

كنتِ تتركينَ موافقتَهُمْ خوفاً مِنَ الغرقِ وعذابُ الغرقِ لا يتمادىٰ إلا ساعةً . . فكيفَ لا تهربينَ مِنْ عذابِ الأبدِ وأنتِ متعرضةٌ لهُ في كلِّ حالٍ ؟ ومِنْ أينَ تطيبُ المصيبةُ إذا عمَّتْ ولأهلِ النارِ شغلٌ شاغلٌ عنِ الالتفاتِ إلى العمومِ والخصوصِ ، ولمْ يهلكِ الكفَّارُ إلا بموافقةِ أهلِ زمانِهِمْ حيثُ قالوا : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ ؟!

فعليكَ إذا اشتغلتَ بمعاتبةِ نفسِكَ أوْ بحملِها على الاجتهادِ فاستعصَتْ ألا تتركَ معاتبتَها وتوبيخَها ، وتقريعَها وتعريفَها سوءَ نظرِها لنفسِها ، فعساها تنزجرُ عنْ طغيانِها .

* * *

المرابطة السادسة
في توبيخ النفس ومعاتبتها

اعلمْ : أنَّ أعدىٰ عدوِّكَ نفسُكَ التي بينَ جنبيكَ ، وقدْ خُلقَتْ أمَّارةً بالسوءِ ، ميَّالةً إلى الشرِّ ، فرارةً مِنَ الخيرِ ، وأُمرتَ بتزكيتِها وتقويمِها ، وقودِها بسلاسلِ القهرِ إلىٰ عبادةِ ربِّها وخالقِها ، ومنعِها عنْ شهواتِها ، وفطامِها عنْ لذَّاتِها ، فإنْ أهملتَها . . جمحَتْ وشردَتْ ، ولمْ تظفرْ بها بعدَ ذلكَ ، وإنْ لازمتَها بالتوبيخِ والمعاتبةِ ، والعذلِ والملامةِ . . كانَتْ نفسُكَ هيَ النفسَ اللوَّامةَ التي أقسمَ اللهُ تعالىٰ بها ، ورجوتَ أنْ تصيرَ النفسَ المطمئنةَ ، المدعوةَ إلىٰ أنْ تدخلَ في زمرةِ عبادِ اللهِ راضيةً مرضيةً ، فلا تغفُلَنْ ساعةً عنْ تذكيرِها ومعاتبتِها ، ولا تشتغلَنْ بوعظِ غيرِكَ ما لمْ تشتغلْ أوَّلاً بوعظِ نفسِكَ .

أوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ عيسىٰ عليهِ السلامُ : (يا بنَ مريمَ ؛ عظْ نفسَكَ ؛ فإنِ اتعظَتْ . . فعظِ الناسَ ، وإلا . . فاستحيِ منِّي)[1] .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وسبيلُكَ أنْ تُقبلَ عليها فتقرِّرَ عندَها جهلَها وغباوتَها ، وأنَّها أبداً تتعزَّزُ بفطنتِها وهدايتِها ، ويشتدُّ أنفُها واستنكافُها إذا نُسبَتْ إلى الحمقِ ، فتقولُ لها :

---

(١) رواه أحمد في « الزهد » (٣٠٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٨٢) .

يا نفسُ ؛ ما أعظمَ جهلَكِ ! تدَّعينَ الحكمةَ والذكاءَ والفطنةَ وأنتِ أشدُّ الناسِ غباوةً وحمقاً ؟! أما تعرفينَ ما بينَ يديكِ مِنَ الجنةِ والنارِ ، وأنَّكِ صائرةٌ إلىٰ إحداهُما على القربِ ؟ فما لكِ تفرحينَ وتضحكينَ ، وتشتغلينَ باللهوِ وأنتِ مطلوبةٌ لهٰذا الخطبِ الجسيمِ ، وعساكِ اليومَ تُختطفينَ أوْ غداً ؟! فأراكِ ترينَ الموتَ بعيداً ويراهُ اللهُ قريباً ، أما تعلمينَ أنَّ كلَّ ما هوَ آتٍ قريبٌ ، وأنَّ البعيدَ ما ليسَ بآتٍ ؟ أما تعلمينَ أنَّ الموتَ يأتي بغتةً مِنْ غيرِ تقديمِ رسولٍ ، ومِنْ غيرِ مواعدةٍ ومواطأةٍ ، وأنَّهُ لا يأتي في شيءٍ دونَ شيءٍ ، ولا في شتاءٍ دونَ صيفٍ ، ولا في صيفٍ دونَ شتاءٍ ، ولا في نهارٍ دونَ ليلٍ ، ولا في ليلٍ دونَ نهارٍ ، ولا يأتي في الصبا دونَ الشبابِ ، ولا في الشبابِ دونَ الصبا ، بلْ كلُّ نَفَسٍ مِنَ الأنفاسِ يمكنُ أنْ يكونَ فيهِ الموتُ فجأةً ، فإنْ لمْ يكنِ الموتُ فجأةً . . فيكونُ المرضُ فجأةً ، ثمَّ يفضي إلى الموتِ ؟! فما لكِ لا تستعدينَ للموتِ وهوَ أقربُ إليكِ مِنْ كلِّ قريبٍ ؟! أما تتدبرينَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾ ؟!

ويحَكِ يا نفسُ ! إنْ كانَتْ جراءتُكِ علىٰ معصيةِ اللهِ لاعتقادِكِ أنَّ اللهَ لا يراكِ . . فما أعظمَ كفرَكِ ! وإنْ كانَ معَ علمِكِ باطلاعِهِ عليكِ . . فما أشدَّ وقاحتكِ وأقلَّ حياءَكِ !

ويحَكِ يا نفسُ ! لوْ واجهَكِ عبدٌ مِنْ عبيدِكِ ، بلْ أَخٌ مِنْ إخوانِكِ بما تكرهينَهُ كيفَ كانَ غضبُكِ عليهِ ومقتُكِ لهُ ؟! فبأيِّ جسارةٍ تتعرَّضينَ

لمقتِ اللهِ وغضبِهِ وشديدِ عقابِهِ ؟! أفتظنِّينَ أنَّكِ تطيقينَ عذابَهُ ؟ هيهاتَ هيهاتَ ! جرِّبي نفسَكِ إنْ ألهاكِ البطرُ عنْ أليمِ عذابِهِ ؛ فاحتبسي ساعةً في الشمسِ ، أوْ في بيتِ الحمَّامِ ، أوْ قرِّبي إصبعَكِ مِنَ النارِ ؛ ليتبيَّنَ لكِ قدْرُ طاقتِكِ ، أمْ تغترِّينَ بكرمِ اللهِ تعالىٰ وفضلِهِ ، واستغنائِهِ عنْ طاعتِكِ وعبادتِكِ ، فما لكِ لا تعوِّلينَ علىٰ كرمِ اللهِ تعالىٰ في مهمَّاتِ دنياكِ ؟! فإذا قصدكِ عدوٌّ . . فلِمَ تستنبطينَ الحيلَ في دفعِهِ ولا تكلينَهُ إلىٰ كرمِ اللهِ تعالى ؟! وإنْ أرهقَتْكِ حاجةٌ إلىٰ شهوةٍ مِنْ شهواتِ الدنيا ممَّا لا ينقضي إلا بالدينارِ والدرهمِ . . فما لكِ تنزعينَ الروحَ في طلبِها وتحصيلِها مِنْ وجوهِ الحيلِ ؟! فلِمَ لا تعوِّلينَ علىٰ كرمِ اللهِ تعالىٰ حتىٰ يعثرَ بكِ علىٰ كنزٍ ، أوْ يسخِّرَ عبداً مِنْ عبيدِهِ فيحملَ إليكِ حاجتَكِ مِنْ غيرِ سعيٍ منكِ ولا طلبٍ ؟! أفتحسبينَ أنَّ اللهَ كريمٌ في الآخرةِ دونَ الدنيا وقدْ عرفتِ أنَّ سنةَ اللهِ لا تبديلَ لها ، وأنَّ ربَّ الدنيا والآخرةِ واحدٌ ، وأَنْ ليسَ للإنسانِ إلا ما سعى ؟!

ويحَكِ يا نفسُ ! ما أعجبَ نفاقَكِ ودعاويَكِ الباطلةَ ! فإنَّكِ تدعينَ الإيمانَ بلسانِكِ وأثرُ النفاقِ ظاهرٌ عليكِ ، ألمْ يقلْ لكِ سيِّدُكِ ومولاكِ : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ وقال في أمرِ الآخرةِ : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ ، فقدْ تكفَّلَ لكِ بأمرِ الدنيا خاصةً ، وصرفَكِ عنِ السعيِ فيها ، فكذبتِهِ بأفعالِكِ ، وأصبحتِ تتكالبينَ علىٰ طلبِها تكالبَ المدهوشِ المستهتَرِ ، ووكلَ أمرَ الآخرةِ إلىٰ سعيِكِ ، فأعرضتِ عنها إعراضَ المغرورِ المستحقرِ ! ما هٰذا مِنْ علاماتِ الإيمانِ ، لوْ كانَ الإيمانُ

باللسانِ . . فلماذا كانَ المنافقونَ في الدرْكِ الأسفلِ مِنَ النارِ ؟!

ويحَكِ يا نفسُ ! كأنَّكِ لا تؤمنينَ بيومِ الحسابِ ، وتظنِّينَ أنَّكِ إذا متِّ . . انفلتِّ وتخلصتِ ، وهيهاتَ ! أتحسبينَ أنَّكِ تُتركينَ سدىً ، ألمْ تكوني نطفةً مِنْ منيٍّ يُمنىٰ ، ثمَّ كنتِ علقةً فخلقَ فسوَّىٰ ، أليسَ ذلكَ بقادرٍ علىٰ أنْ يحييَ الموتى ؟! فإنْ كانَ هـٰذا إضمارَكِ . . فما أكفرَكِ وأجهلَكِ ! أما تتفكَّرينَ أنَّهُ مِنْ ماذا خلقَكِ ؟ مِنْ نطفةٍ خلقَكِ فقدَّرَكِ ، ثمَّ السبيلَ يسَّرَكِ ، ثمَّ أماتَكِ فأقبرَكِ ، أفتكذِّبينَهُ في قولِهِ : ثمَّ إذا شاءَ أنشرَكِ ؟ ، فإنْ لمْ تكوني مكذبةً . . فما لكِ لا تأخذينَ حذرَكِ ؟! ولوْ أنَّ يهودياً أخبرَكِ في ألذِّ أطعمتِكِ بأنَّهُ يضرُّكِ في مرضِكِ . . لصبرتِ عنهُ وتركتِهِ وجاهدتِ نفسَكِ فيهِ ، أفكانَ قولُ الأنبياءِ المؤيَّدينَ بالمعجزاتِ ، وقولُ اللهِ تعالىٰ في كتبهِ المنزلةِ أقلَّ عندَكِ تأثيراً مِنْ قولِ يهوديٍّ يخبرُكِ عنْ حدسٍ وتخمينٍ وظنٍّ ، معْ نقصانِ عقلٍ وقصورِ علمٍ ؟! والعجبُ أنَّهُ لوْ أخبرَكِ طفلٌ بأنَّ في ثوبِكِ عقرباً . . لرميتِ ثوبَكِ في الحالِ مِنْ غيرِ مطالبةٍ لهُ بدليلٍ وبرهانٍ ، أفكانَ قولُ الأنبياءِ والعلماءِ والحكماءِ وكافَّةِ الأولياءِ أقلَّ عندَكِ مِنْ قولِ صبيٍّ مِنْ جملةِ الأغبياءِ ؟! أمْ صارَ حرُّ جهنَّمَ ، وأغلالُها وأنكالُها ، وزقُّومُها ومقامعُها ، وصديدُها وسمومُها ، وأفاعيها وعقاربُها . . أحقرَ عندَكِ مِنْ عقربٍ لا تحسينَ بألمِها إلا يوماً أوْ أقلَّ منهُ ؟! ما هـٰذا أفعالَ العقلاءِ ، بلْ لوِ انكشفَ للبهائمِ حالُكِ . . لضحكوا منكِ ، وسخروا مِنْ عقلِكِ .

فإنْ كنتِ يا نفسُ قدْ عرفتِ جميعَ ذلكَ وآمنتِ بهِ . . فما لكِ تسوِّفينَ

العملَ والموتُ لكِ بالمرصادِ ، ولعلَّهُ يختطفُكِ مِنْ غيرِ مهلةٍ ؟! فبماذا أمنتِ استعجالَ الأجلِ ؟! وهبْكِ أنَّكِ وُعدتِ بالإمهالِ مئةَ سنةٍ ؛ أفتظنينَ أنَّ مَنْ يُطعمُ الدابّةَ في حضيضِ العقبةِ يفلحُ ويقدرُ علىٰ قطعِ العقبةِ بها ؟ إنْ ظننتِ ذلكَ . . فما أعظمَ جهلَكِ ! أرأيتِ لوْ سافرَ رجلٌ ليتفقَّهَ في الغربةِ ، فأقامَ فيها سنينَ متعطِّلاً بطَّالاً ، يَعِدُ نفسَهُ بالتفقُّهِ في السنةِ الأخيرةِ عندَ رجوعِهِ إلىٰ وطنِهِ . . هلْ كنتِ تضحكينَ مِنْ عقلِهِ وظنِّهِ أنَّ تفقيهَ النفسِ ممَّا يطمعُ فيهِ بمدَّةٍ قريبةٍ أوْ حسبانَهُ أنَّ مناصبَ الفقهاءِ تُنالُ مِنْ غيرِ تفقُّهٍ اعتماداً علىٰ كرمِ اللهِ سبحانَهُ ؟! ثمَّ هبْ أنَّ الجهدَ في آخرِ العمرِ نافعٌ ، وأنَّهُ موصلٌ إلى الدرجاتِ العلا ؛ فلعلَّ اليومَ آخرُ عمرِكِ ، فلِمَ لا تشتغلينَ فيهِ بذلكَ ؟ فإنْ أُوحيَ إليكِ بالإمهالِ . . فما المانعُ لكِ مِنَ المبادرةِ ، وما الباعثُ لكِ على التسويفِ ؟ هلْ لهُ سببٌ إلا عجزُكِ عنْ مخالفةِ شهوتِكِ لما فيه مِنَ التعبِ والمشقةِ ؟ أفتنتظرينَ يوماً يأتيكِ لا تعسرُ فيهِ مخالفةُ الشهواتِ ، هـٰذا يومٌ لمْ يخلقْهُ اللهُ قطُّ ، ولا يخلقُهُ ، فلا تكونُ الجنةُ قطُّ إلا محفوفةً بالمكارهِ ، ولا تكونُ المكارهُ قطُّ خفيفةً على النفوسِ ، وهـٰذا محالٌ وجودُهُ . أما تتأمَّلينَ مذْ كمْ تَعِدِينَ نفسَكِ وتقولينَ : غداً وغداً ؟! فقدْ جاءَ الغدُ وصارَ يوماً ، فكيفَ وجدتِهِ ؟ أما علمتِ أنَّ الغدَ الذي جاءَ وصارَ يوماً كانَ لهُ حكمُ الأمسِ ؟! لا بلْ ما تعجزينَ عنهُ اليومَ فأنتِ غداً عنهُ أعجزُ وأعجزُ ؛ لأنَّ الشهوةَ كالشجرةِ الراسخةِ التي تُعبِّدَ العبدُ بقلعِها ، فإذا عجزَ العبدُ عنْ قلعِها للضعفِ وأخَّرَها . . كانَ كمَنْ عجزَ عنْ قلعِ شجرةٍ وهوَ شابٌّ قويٌّ ، فأخَّرَها إلىٰ سنةٍ

أخرىٰ ، معَ العلمِ بأنَّ طولَ المدَّةِ يزيدُ الشجرةَ قوةً ورسوخاً ، ويزيدُ القالعَ ضعفاً ووهناً ، فما لا يقدرُ عليهِ في الشبابِ فلا يقدرُ عليهِ قطُّ في المشيبِ ، بلْ مِنَ العناءِ رياضةُ الهَرِمِ ، ومِنَ التعذيبِ تهذيبُ الذيبِ ، والقضيبُ الرطْبُ يقبلُ الانحناءَ ، فإذا جفَّ وطالَ عليهِ الزمانُ . . لمْ يقبلْ ذلكَ .

فإذا كنتِ أيَّتُها النفسُ لا تفهمينَ هـٰذهِ الأمورَ الجليَّةَ وتركنينَ إلى التسويفِ . . فما لكِ تدَّعينَ الحكمةَ ؟! وأيةُ حماقةٍ تزيدُ علىٰ هـٰذهِ الحماقةِ ؟!

ولعلَّكِ تقولينَ : (ما يمنعُني عنِ الاستقامةِ إلا حرصي علىٰ لذَّةِ الشهواتِ ، وقلَّةُ صبري على الآلامِ والمشقَّاتِ) ، فما أجهلَكِ وأقبحَ اعتذارَكِ ! إنْ كنتِ صادقةً في ذلكَ . . فاطلبي التنعُّمَ بالشهواتِ الصافيةِ عنِ الكدوراتِ الدائمةِ أبدَ الآبادِ ، ولا مطمعَ في ذلكَ إلا في الجنةِ ، فإنْ كنتِ ناظرةً لشهوتِكِ . . فالنظرُ لها في مخالفتِها ، فربَّ أكلةٍ تمنعُ أكلاتٍ ، وما قولُكِ في عقلِ مريضٍ أشارَ عليهِ الطبيبُ بتركِ الماءِ الباردِ ثلاثةَ أيامٍ ليصحَّ ويهنأَ بشربهِ طولَ عمرهِ ، وأخبرَهُ أنَّهُ إنْ شربَ ذلكَ . . مرضَ مرضاً مزمناً ، وامتنعَ عليهِ شربُهُ طولَ العمرِ ، فما مقتضى العقلِ في قضاءِ حقِّ الشهوةِ : أيصبرُ ثلاثةَ أيامٍ ليتنعَّمَ طولَ العمرِ ، أمْ يقضي شهوتَهُ في الحالِ خوفاً مِنْ ألمِ المخالفةِ ثلاثةَ أيامٍ حتىٰ يلزمَهُ ألمُ المخالفةِ ثلاثَ مئةِ يومٍ ، وثلاثةَ آلافِ يومٍ ، وجميعُ عمرِكِ بالإضافةِ إلى الأبدِ الذي هوَ مدَّةُ نعيمِ أهلِ الجنةِ وعذابِ أهلِ النارِ أقلُّ مِنْ ثلاثةِ أيامٍ بالإضافةِ إلىٰ جميعِ العمرِ وإنْ طالَتْ مدَّتُهُ ؟

وليتَ شعري ألمُ الصبرِ عنِ الشهواتِ أعظمُ شدَّةً وأطولُ مدَّةً ، أوْ ألمُ النارِ في دركاتِ جهنَّمَ ؟! فمَنْ لا يطيقُ الصبرَ علىٰ ألمِ المجاهدةِ كيفَ يطيقُ ألمَ عذابِ اللهِ ؟!

ما أراكِ تتوانينَ عنِ النظرِ لنفسِكِ إلا لكفرٍ خفيٍّ أوْ لحمقٍ جليٍّ :

أمَّا الكفرُ الخفيُّ . . فهوَ ضعفُ إيمانِكِ بيومِ الحسابِ ، وقلَّةُ معرفتِكِ بعظمِ قدْرِ الثوابِ والعقابِ .

وأمَّا الحمقُ الجليُّ . . فاعتمادُكِ علىٰ كرمِ اللهِ تعالىٰ وعفوِهِ مِنْ غيرِ التفاتٍ إلىٰ مكرِهِ واستدراجِهِ ، واستغنائِهِ عنْ عبادتِكِ ، معَ أنَّكِ لا تعتمدينَ علىٰ كرمِهِ في لقمةٍ مِنَ الخبزِ ، أوْ حبَّةٍ مِنَ المالِ ، أوْ كلمةٍ واحدةٍ تسمعينَها مِنَ الخلقِ ، بلْ تتوصَّلينَ إلىٰ غرضِكِ في ذلكَ بجميعِ الحيلِ ، وبهٰذا الجهلِ تستحقينَ لقبَ الحماقةِ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حيثُ قالَ : « الكيسُ مَنْ دانَ نفسَهُ وعملَ لما بعدَ الموتِ ، والأحمقُ مَنْ أتبعَ نفسَهُ هواها وتمنَّىٰ على اللهِ الأمانيَّ »[1] .

ويحَكِ يا نفسُ ! لا ينبغي أنْ تغرَّكِ الحياةُ الدنيا ، ولا يغرنَّكِ باللهِ الغرورُ ، فانظري لنفسِكِ ؛ فما أمرُكِ بمهمٍّ لغيرِكِ ، ولا تضيِّعي أوقاتَكِ ، فالأنفاسُ معدودةٌ ، فإذا مضىٰ منكِ نَفَسٌ . . فقدْ ذهبَ بعضُكِ ، فاغتنمي

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٥٩) ، وابن ماجه (٤٢٦٠) ، وعندهما (والعاجز) بدل (والأحمق) .

الصحةَ قبلَ السقمِ ، والفراغَ قبلَ الشغلِ ، والغنىٰ قبلَ الفقرِ ، والشبابَ قبلَ الهرمِ ، والحياةَ قبلَ الموتِ ، واستعدي للآخرةِ علىٰ قدْرِ بقائِكِ فيها .

يا نفسُ ؛ أما تستعدِّينَ للشتاءِ بقدْرِ طولِ مدَّتِهِ ؛ فتجمعينَ لهُ القوتَ والكسوةَ والحطبَ وجميعَ الأسبابِ ، ولا تتكلينَ في ذلكَ علىٰ فضْلِ اللهِ وكرمِهِ حتىٰ يدفعَ عنكِ البردَ مِنْ غيرِ جبَّةٍ ولبْدٍ وحطبٍ وغيرِ ذلكَ ؛ فإنَّهُ قادرٌ علىٰ ذلكَ ، أفتظنينَ أيَّتُها النفسُ أنَّ زمهريرَ جهنَّمَ أخفُّ برداً أوْ أقصرُ مدَّةً مِنْ زمهريرِ الشتاءِ ؟! أفتظنينَ أنَّ العبدَ ينجو منها بغيرِ سعيٍ ؟! هيهاتَ ! كما لا يندفعُ بردُ الشتاءِ إلا بالجبَّةِ والنارِ وسائرِ الأسبابِ . . فلا يندفعُ حرُّ النارِ وبردُها إلا بحصنِ التوحيدِ وخندقِ الطاعاتِ ، وإنَّما كرمُ اللهِ تعالىٰ في أنْ عرَّفَكِ طريقَ التحصُّنِ ، ويسَّرَ لكِ أسبابَهُ ، لا في أنْ يدفعَ عنكِ العذابَ دونَ حصنِهِ ، كما أنَّ كرمَ اللهِ تعالىٰ في دفعِ بردِ الشتاءِ أنْ خلقَ النارَ ، وهداكِ لطريقِ استخراجِها مِنْ بينِ حديدةٍ وحجرٍ حتىٰ تدفعي بها بردَ الشتاءِ عنْ نفسِكِ ، وكما أنَّ شراءَ الحطبِ والجبةِ ممَّا يستغني عنهُ خالقُكِ ومولاكِ ، وإنَّما تشتريهِ لنفسِكِ ؛ إذْ خلقَهُ سبباً لاستراحتِكِ . . فطاعاتُكِ ومجاهداتُكِ أيضاً هوَ مستغنٍ عنها ، وإنَّما هيَ طريقُكِ إلىٰ نجاتِكِ ، فمَنْ أحسنَ . . فلنفسِهِ ، ومَنْ أساءَ . . فعليها ، واللهُ غنيٌّ عنِ العالمينَ .

ويحَكِ يا نفسُ ؛ انزعي عنْ جهلِكِ ، وقيسي آخرتَكِ بدنياكِ ، فما خلقُكُمْ ولا بعثُكُمْ إلا كنفسٍ واحدةٍ ، وكما بدأْنا أولَّ خلقٍ نعيدُهُ ، وكما بدأَكُمْ تعودونَ ، وسنةُ اللهِ تعالىٰ لا تجدينَ لها تبديلاً ولا تحويلاً .

ويحَكِ يا نفسُ ! ما أراكِ إلا ألفتِ الدنيا وأنستِ بها ، فعسرَ عليكِ مفارقتُها وأنتِ مقبلةٌ علىٰ مقاربتِها ، وتؤكدينَ في نفسِكِ مودَّتَها ، فاحسبي أنَّكِ غافلةٌ عنْ عقابِ اللهِ وثوابِهِ ، وعنْ أهوالِ القيامةِ وأحوالِها ، فما أنتِ مؤمنةٌ بالموتِ المفرِّقِ بينَكِ وبينَ محابِّكِ ؟ أفتري أنَّ مَنْ يدخلُ دارَ ملكٍ ليخرجَ مِنَ الجانبِ الآخرِ ، فمدَّ بصرَهُ إلىٰ وجهٍ مليحٍ يعلمُ أنَّهُ يستغرقُ ذلكَ قلبَهُ ، ثمَّ يضطرُّ ـ لا محالةَ ـ إلىٰ مفارقتِهِ . أهوَ معدودٌ مِنَ العقلاءِ أمْ مِنَ الحمقى ؟

أما تعلمينَ أنَّ الدنيا دارٌ لملكِ الملوكِ ، وما لكِ فيها إلا مجازٌ ، وكلُّ ما فيها لا يصحبُ المجتازينَ بها بعدَ الموتِ ، ولذلكَ قالَ سيِّدُ البشرِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ روحَ القدسِ نفثَ في رُوعي : أحببْ مَنْ أحببتَ فإنَّكَ مفارقُهُ[1] ، واعملْ ما شئتَ فإنَّكَ مجزيٌّ بهِ ، وعشْ ما شئتَ فإنَّكَ ميتٌ »[2] .

ويحَكِ يا نفسُ ! أما تعلمينَ أنَّ كلَّ مَنْ يلتفتُ إلىٰ ملاذِّ الدنيا ، ويأنسُ بها معَ أنَّ الموتَ مِنْ ورائِهِ . . فإنَّما يستكثرُ مِنَ الحسرةِ عندَ المفارقةِ ، وإنَّما يتزوَّدُ مِنَ السمِّ المهلكِ وهوَ لا يدري ؟! أوما تنظرينَ إلى الذينَ مضوا كيفَ

---

(١) في غير (ص) : (ما) بدل (من) .
(٢) روىٰ لفظ : « إن روح القدس نفث في روعي » عبد الرزاق في « المصنف » (١١/ ١٢٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٢٧) ، وتتمة الحديث رواها أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٢٠٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٥٨) .

بنوا وعلَوا ، ثمَّ ذهبوا وخلَّوا ، وكيفَ أورثَ اللهُ أرضَهُمْ وديارَهُمْ أعداءَهُمْ ، أما ترينَهُمْ[1] كيفَ يجمعونَ ما لا يأكلونَ ، ويبنونَ ما لا يسكنونَ ، ويؤملونَ ما لا يدركونَ ، يبني كلُّ واحدٍ قصراً مرفوعاً إلىٰ جهةِ السماءِ ، ومقرُّهُ قبرٌ محفورٌ تحتَ الأرضِ ، فهلْ في الدنيا حمقٌ وانتكاسٌ أعظمُ مِنْ هـٰذا ؟! يعمُرُ الواحدُ دنياهُ وهوَ مرتحلٌ عنها يقيناً ، ويخرِّبُ آخرتَهُ وهوَ صائرٌ إليها قطعاً ! أما تستحيينَ يا نفسُ مِنْ مساعدةِ هؤلاءِ الحمقىٰ علىٰ حماقتِهِمْ .

واحسبي أنَّكِ لستِ ذاتَ بصيرةٍ تهتدي إلىٰ هـٰذهِ الأمورِ ، وإنَّما تميلينَ بالطبعِ إلى التشبُّهِ والاقتداءِ ، فقيسي عقلَ الأنبياءِ والعلماءِ والحكماءِ بعقلِ هؤلاءِ المكبِّينَ على الدنيا ، واقتدي مِنَ الفريقينِ بمَنْ هوَ أعقلُ عندَكِ إنْ كنتِ تعتقدينَ في نفسِكِ العقلَ والذكاءَ .

يا نفسُ ؛ ما أعجبَ أمرَكِ وأشدَّ جهلَكِ وأظهرَ طغيانَكِ ! عجباً لكِ ! كيفَ تعمينَ عنْ هـٰذهِ الأمورِ الواضحةِ الجليّةِ ولعلَّكِ يا نفسُ أسكرَكِ حبُّ الجاهِ ، وأدهشَكِ عنْ فهمِها ، أوَما تتفكرينَ أنَّ الجاهَ لا معنىٰ لهُ إلا ميلُ القلوبِ منْ بعضِ الناسِ إليكِ ؟ فاحسبي أنَّ كلَّ مَنْ علىٰ وجهِ الأرضِ سجدَ لكِ وأطاعَكِ ، أفما تعرفينَ أنَّهُ بعدَ خمسينَ سنةً لا تبقينَ أنتِ ولا أحدٌ ممَّنْ علىٰ وجهِ الأرضِ ممَّنْ عبدَكِ وسجدَ لكِ ، وسيأتي زمانٌ لا يبقىٰ ذكرُكِ ولا ذكرُ مَنْ ذكرَكِ ؛ كما أتىٰ على الملوكِ الذينَ كانوا مِنْ قبلِكِ ،

---

(١) في جميع النسخ : (أما تراهم) ، والمثبت من (ق) .

فـ ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ ، فكيفَ تبيعينَ يا نفسُ ما يبقىٰ أبدَ الآبادِ بما لا يبقىٰ أكثرَ مِنْ خمسينَ سنةً إنْ بقيَ ؟! هـٰذا إنْ كنتِ ملكاً مِنْ ملوكِ الأرضِ ، سلمَ لكِ الشرقُ والغربُ ، حتىٰ أذعنَتْ لكِ الرقابُ ، وانتظمَتْ لكِ الأسبابُ ، كيفَ ويأبىٰ إدبارُكِ وشقاوتُكِ أنْ يسلمَ لكِ أمرُ محلتِكِ ، بلْ أمرُ دارِكِ فضلاً عنْ محلتِكِ ؟! فإنْ كنتِ يا نفسُ لا تتركينَ الدنيا رغبةً في الآخرةِ لجهلِكِ وعمىٰ بصيرتِكِ . . فما لكِ لا تتركينَها ترفُّعاً عنْ خسَّةِ شركائِها ، وتنزُّهاً عنْ كثرةِ عنائِها ، وتوقِّياً مِنْ سرعةِ فنائِها ؟! أمْ ما لكِ لا تزهدينَ في قليلِها بعدَ أنْ زهدَ فيكِ كثيرُها ؟! وما لكِ تفرحينَ بدنيا إنْ ساعدَتْكِ . . فلا تخلو بلدُكِ عنْ جماعةٍ منَ اليهودِ والمجوسِ يسبقونَكِ بها ، ويزيدونَ عليكِ في نعيمِها وزينتِها ، فأفٍّ لدنيا يسبقُكِ بها هؤلاءِ الأخسَّاءُ ، فما أجهلَكِ وأخسَّ همَّتَكِ وأسقطَ رأيَكِ ! إذْ رغبتِ عنْ أنْ تكوني في زمرةِ المقرَّبينَ مِنَ النبيينَ والصدِّيقينَ في جوارِ ربِّ العالمينَ أبدَ الآبدينِ ؛ لتكوني في صفِّ النعالِ مِنْ جملةِ الحمقى الجاهلينَ أياماً قلائلَ ، فيا حسرةً عليكِ إذْ خسرتِ الدنيا والدينَ .

فبادري ـ ويحَكِ يا نفسُ ـ فقدْ أشرفتِ على الهلاكِ ، واقتربَ الموتُ ، ووردَ النذيرُ ، فمَنْ ذا يصلِّي عنكِ بعدَ الموتِ ، ومَنْ ذا يصومُ عنكِ بعدَ الموتِ ، ومَنْ ذا يترضَّىٰ عنكِ ربَّكِ بعدَ الموتِ ؟!

ويحَكِ يا نفسُ ! ما لكِ إلا أيامٌ معدودةٌ هيَ بضاعتُكِ ، إنِ اتجرتِ فيها وقدْ ضيَّعتِ أكثرَها ؛ فلوْ بكيتِ بقيةَ عمرِكِ علىٰ ما ضيَّعتِ منها . . لكنتِ

مقصرةً في حقِّ نفسكِ ، فكيفَ إذا ضيَّعتِ البقيةَ وأصررتِ علىٰ عادتكِ ؟!

أما تعلمينَ يا نفسُ أنَّ الموتَ موعدُكِ ، والقبرَ بيتُكِ ، والترابَ فراشُكِ ، والدودَ أنيسُكِ ، والفزعَ الأكبرَ بينَ يديكِ ، أما علمتِ يا نفسُ أنَّ عسكرَ الموتىٰ علىٰ بابِ البلدِ ينتظرونَكِ ، وقدْ آلوا كلُّهُمْ علىٰ أنفسِهِمْ بالأيمانِ المغلَّظةِ أنَّهُمْ لا يبرحونَ مِنْ مكانِهِمْ ما لمْ يأخذوكِ معَهُمْ .

أما تعلمينَ يا نفسُ أنَّهُمْ يتمنَّونَ الرجعةَ إلى الدنيا يوماً ليشتغلوا بتداركِ ما فرطَ منهُمْ ، وأنتِ في أمنيَّتِهِمْ ، ويومٌ مِنْ عمرِكِ لوْ بيعَ منهم بالدنيا بحذافيرِها .. لاشتروهُ لوْ قدروا عليهِ ، وأنتِ تضيعينَ أيَّامَكِ في الغفلةِ والبطالةِ .

ويحَكِ يا نفسُ ! أما تستحيينَ ؟! تزيِّنينَ ظاهرَكِ للخلقِ ، وتبارزينَ اللهَ في السرِّ بالعظائمِ ، أفتستحيينَ مِنَ الخلقِ ولا تستحيينَ مِنَ الخالقِ ؟! ويحَكِ ! أهوَ أهونُ الناظرينَ عليكِ ؟! أتأمرينَ الناسَ بالخيرِ وأنتِ متلطِّخةٌ بالرذائلِ ، تدعينَ إلى البرِّ وأنتِ منهُ فارَّةٌ ، وتذكرينَ باللهِ وأنتِ لهُ ناسيةٌ ، أما تعلمينَ يا نفسُ أنَّ المذنبَ أنتنُ مِنَ العذرةِ ، وأنَّ العذرةَ لا تطهِّرُ غيرَها ؟! فلِمَ تطمعينَ في تطهيرِ غيرِكِ وأنتِ غيرُ طيِّبةٍ في نفسِكِ ؟!

ويحَكِ يا نفسُ ! لوْ عرفتِ نفسَكِ حقَّ المعرفةِ .. لظننتِ أنَّ الناسَ ما يصيبُهُمْ بلاءٌ إلا بشؤمِكِ .

ويحَكِ يا نفسُ ! قدْ جعلتِ نفسَكِ حماراً لإبليسَ يقودُكِ إلىٰ حيثُ

يريدُ ، ويسخرُ بكِ ، ومعَ هـٰذا فتعجبينَ بعملِكِ وفيهِ مِنَ الآفاتِ ما لوْ نجوتِ منها رأساً برأسٍ . . لكانَ الربحُ في يديكِ ، وكيفَ تعجبينَ بعملِكِ معَ كثرةِ خطاياكِ وزلَلِكِ ، وقدْ لعنَ اللهُ إبليسَ بخطيئةٍ واحدةٍ بعدَ أنْ عبدَهُ مئتي ألفِ سنةٍ ، وأخرجَ آدمَ مِنَ الجنةِ بخطيئةٍ واحدةٍ معَ كونِهِ نبيَّهُ وصفيَّهُ ؟!

ويحَكِ يا نفسُ ! ما أغدَركِ !

ويحَكِ يا نفسُ ! ما أوقحَكِ !

ويحَكِ يا نفسُ ! ما أجهلَكِ وما أجرأَكِ على المعاصي !

ويحَكِ كمْ تعقدينَ فتنقضينَ .

ويحَكِ كمْ تعهدينَ فتغدرينَ .

ويحَكِ يا نفسُ ! أتشتغلينَ معَ هـٰذهِ الخطايا بعمارةِ دنياكِ كأنَّكِ غيرُ مرتحلةٍ عنها ؟! أما تنظرينَ إلىٰ أهلِ القبورِ كيفَ كانوا جمعوا كثيراً ، وبنَوا مشيداً ، وأمَّلوا بعيداً ، فأصبحَ جمعُهُمْ بوراً ، وبنيانهم قبوراً ، وأملُهُمْ غروراً ؟!

ويحَكِ يا نفسُ ! أما لكِ بهِمْ عبرةٌ ؟! أما لكِ إليهِمْ نظرةٌ ؟! أتظنينَ أنَّهُمْ دعوا إلى الآخرةِ وأنتِ مِنَ المخلَّدينَ ؟! هيهاتَ هيهاتَ ! ساءَ ما تتوهَّمينَ ، ما أنتِ إلا في هدمِ عمرِكِ منذُ سقطتِ مِنْ بطنِ أمِّكِ ، فابني علىٰ وجهِ الأرضِ قصرَكِ ، فإنَّ بطنَها عنْ قليلٍ يكونُ قبرَكِ ! أما تخافينَ إذا بلغَتِ النفسُ منكِ التراقيَ أنْ تبدوَ رسلُ ربِّكِ منحدرةً إليكِ بسوادِ الألوانِ ، وكلَحِ

الوجوهِ ، وبشرى العذابِ ؟! فهلْ ينفعُكِ حينئذٍ الندمُ ، أوْ يُقبلُ منكِ الحزنُ ، أوْ يُرحمُ منكِ البكاءُ ؟

والعجبُ كلُّ العجبِ منكِ يا نفسُ أنَّكِ معَ هـٰذا تدَّعينَ البصيرةَ والفطنةَ ، ومِنْ فطنتِكِ أنَّكِ تفرحينَ كلَّ يومٍ بزيادةِ مالِكِ ، ولا تحزنينَ بنقصانِ عمرِكِ ، وما نفعُ مالٍ يزيدُ وعمرٍ ينقصُ ؟!

ويحَكِ يا نفسُ ! تعرضينَ عنِ الآخرةِ وهيَ مقبلةٌ عليكِ ، وتقبلينَ على الدنيا وهيَ معرضةٌ عنكِ ، فكمْ مِنْ مستقبلٍ يوماً لمْ يستكملْهُ ، وكمْ مِنْ مؤمِّلٍ لغدٍ لمْ يبلغْهُ ، فأنتِ تشاهدينَ ذلكَ في إخوانِكِ وأقاربِكِ وجيرانِكِ ، وترينَ تحسُّرَهُمْ عندَ الموتِ ، ثمَّ لا ترجعينَ عنْ جهالتِكِ !

فاحذري أيَّتُها النفسُ المسكينةُ يوماً آلى اللهُ فيهِ علىٰ نفسِهِ ألا يتركَ عبداً أمرَهُ في الدنيا ونهاهُ حتىٰ يسألَهُ عنْ عملِهِ ؛ دقيقِهِ وجليلِهِ ، سرِّهِ وعلانيتِهِ ، فانظري يا نفسُ بأيِّ بدنٍ تقفينَ بينَ يدي اللهِ ؟ وبأيِّ لسانٍ تجيبينَ ؟ وأَعدِّي للسؤالِ جواباً ، وللجوابِ صواباً ، واعملي بقيَّةَ عمرِكِ في أيامٍ قصارٍ لأيامٍ طوالٍ ، وفي دارِ زوالٍ لدارِ مُقامةٍ ، وفي دارِ حزنٍ ونصَبٍ لدارِ نعيمٍ وخلودٍ ، اعملي قبلَ ألا تعملي ، اخرجي مِنَ الدنيا اختياراً خروجَ الأحرارِ قبلَ أنْ تخرجي منها على الاضطرارِ ، ولا تفرحي بما يساعدُكِ مِنْ زهراتِ الدنيا ، فربَّ مسرورٍ مغبونٌ ، وربَّ مغبونٍ لا يشعرُ ، فويلٌ لمَنْ لهُ الويلُ ثمَّ لا يشعرُ ، يضحكُ ويفرحُ ، ويلهو ويمرحُ ، ويأكلُ ويشربُ ، وقدْ حقَّ لهُ في كتابِ اللهِ تعالىٰ أنَّهُ مِنْ وقودِ النارِ !

فليكنْ نظرُكِ يا نفسُ إلى الدنيا اعتباراً ، وسعيُكِ لها اضطراراً ، ورفضُكِ لها اختياراً ، وطلبُكِ للآخرةِ ابتداراً ، ولا تكوني ممَّنْ يعجزُ عنْ شكرِ ما أُوتيَ ، ويبتغي الزيادةَ فيما بقيَ ، وينهى الناسَ ولا ينتهي .

واعلمي يا نفسُ أنَّهُ ليسَ للدينِ عوضٌ ، ولا للإيمانِ بدلٌ ، ولا للجسدِ خلفٌ ، ومَنْ كانَتْ مطيَّتُهُ الليلَ والنهارَ . . فإنَّهُ يُسارُ بهِ وإنْ لمْ يسرْ .

فاتعظي يا نفسُ بهاذهِ الموعظةِ ، واقبلي هاذهِ النصيحةَ ، فإنَّ مَنْ أعرضَ عنِ الموعظةِ . . فقدْ رضيَ بالنارِ ، وما أراكِ بها راضيةً ، ولا لهاذهِ الموعظةِ واعيةً ، فإنْ كانَتِ القساوةُ تمنعُكِ عنْ قبولِ الموعظةِ . . فاستعيني عليها بدوامِ التهجُّدِ والقيامِ ؛ فإنْ لمْ تزلْ . . فبالمواظبةِ على الصيامِ ، فإنْ لمْ تزلْ . . فبقلةِ المخالطةِ والكلامِ ، فإنْ لمْ تزلْ . . فبصلةِ الأرحامِ ، واللطفِ بالأيتامِ ، فإنْ لمْ تزلْ . . فاعلمي أنَّ اللهَ قدْ طبعَ علىٰ قلبكِ وأقفلَ عليهِ ، وأنَّهُ قدْ تراكمَتْ ظلمةُ الذنوبِ علىٰ ظاهرِهِ وباطنِهِ ، فوطِّني نفسَكِ على النارِ ، فقدْ خلقَ اللهُ الجنةَ وخلقَ لها أهلاً ، وخلقَ النارَ وخلقَ لها أهلاً ، فكلٌّ ميسَّرٌ لما خُلِقَ لهُ ، فإنْ لمْ يبقَ فيكِ مجالٌ للوعظِ . . فاقنطي مِنْ نفسِكِ ، والقنوطُ كبيرةٌ مِنَ الكبائرِ نعوذُ باللهِ مِنْ ذلكَ ، فلا سبيلَ لكِ إلى القنوطِ ، ولا سبيلَ لكِ إلى الرجاءِ معَ انسدادِ طرقِ الخيرِ عليكِ ، فإنَّ ذلكَ اغترارٌ وليسَ برجاءٍ ، فانظري الآنَ هلْ يأخذُكِ حزنٌ علىٰ هاذهِ المصيبةِ التي ابتليتِ بها ؟ وهلْ تسمحُ عينُكِ بدمعةٍ رحمةً منكِ علىٰ نفسِكِ ، فإنْ

سمحَتْ . . فمستقى الدمعِ مِنْ بحرِ الرحمةِ ، فقدْ بقيَ فيكِ موضعٌ للرجاءِ ، فواظبي على النياحةِ والبكاءِ ، واستغيثي بأرحمِ الراحمينَ ، واشتكي إلىٰ أكرمِ الأكرمينَ ، وأدمني الاستغاثةَ ، ولا تملِّي طولَ الشكايةِ ؛ لعلَّهُ أَنْ يرحمَ ضعفَكِ ويغيثَكِ ، فإنَّ مصيبتكِ قدْ عظمَتْ ، وبليتكِ قدْ تفاقمَتْ ، وتماديَكِ قدْ طالَ ، وقدِ انقطعَتْ منكِ الحيلُ ، وراحَتْ عنكِ العللُ ، فلا مذهبَ ولا مطلبَ ، ولا مستغاثَ ولا مهربَ ، ولا ملجأَ ولا منجىٰ إلا إلىٰ مولاكِ ، فافزعي إليهِ بالتضرُّعِ ، واخشعي في تضرُّعِكِ علىٰ قدْرِ عظمِ جهلِكِ وكثرةِ ذنوبِكِ ؛ لأنَّهُ يرحمُ المتضرِّعَ الذليلَ ، ويغيثُ الطالبَ المتلهِّفَ ، ويجيبُ دعوةَ المضطرِّ .

وقدْ أصبحتِ واللهِ إليهِ اليومَ مضطرةً ، وإلىٰ رحمتِهِ محتاجةً ، وقدْ ضاقَتْ بكِ السبلُ ، وانسدَّتْ عليكِ الطرقُ ، وانقطعَتْ منكِ الحيلُ ، ولمْ تنجعْ فيكِ العظاتُ ، ولمْ يكسركِ التوبيخُ ، فالمطلوبُ منهُ كريمٌ ، والمسؤولُ جوادٌ ، والمستغاثُ بهِ برٌّ رؤوفٌ ، والرحمةُ واسعةٌ ، والكرمُ فائضٌ ، والعفوُ شاملٌ ، وقُولي : (يا أرحمَ الراحمينَ ، يا رحمانُ ، يا رحيمُ ، يا حليمُ ، يا عظيمُ ، يا كريمُ ؛ أنا المذنبُ المصرُّ ، أنا الجريءُ الذي لا أقلعُ ، أنا المتمادي الذي لا أستحي ، هـٰذا مقامُ المتضرِّعِ المسكينِ ، والبائسِ الفقيرِ ، والضعيفِ الحقيرِ ، والهالكِ الغريقِ ؛ فعجِّلْ إغاثتي وفرجي ، وأرني آثارَ رحمتِكَ ، وأذقْني بردَ عفوِكَ ومغفرتِكَ ، وارزقْني قوَّةَ عصمتِكَ ، يا أرحمَ الراحمينَ) اقتداءً بأبيكِ آدمَ عليهِ السلامُ ، فقدْ قالَ وهبُ بنُ منبهٍ :

لما أهبطَ اللهُ عزَّ وجلَّ آدمَ إلى الأرضِ مِنَ الجنةِ . . مكثَ لا ترقأُ لهُ دمعةٌ ، فاطلعَ اللهُ عزَّ وجلَّ عليهِ في اليومِ السابعِ وهوَ محزونٌ كئيبٌ كظيمٌ منكِّسٌ رأسَهُ فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : يا آدمُ ؛ ما هـٰذا الجهدُ الذي أرىٰ بكَ ؟ قالَ : يا ربِّ ؛ عظمَتْ مصيبتي ، وأحاطَتْ بي خطيئتي ، وأُخرجتُ مِنْ ملكوتِ ربِّي ، فصرتُ في دارِ الهوانِ بعدَ الكرامةِ ، وفي دارِ الشقاءِ بعدَ السعادةِ ، وفي دارِ النصبِ بعدَ الراحةِ ، وفي دارِ البلاءِ بعدَ العافيةِ ، وفي دارِ الزوالِ بعدَ القرارِ ، وفي دارِ الموتِ والفناءِ بعدَ الخلودِ والبقاءِ ، فكيفَ لا أبكي علىٰ خطيئتي ؟ فأوحى اللهُ تعالىٰ إليهِ : يا آدمُ ؛ ألمْ أصطفِكَ لنفسي ، وأحللتُكَ داري ، وخصصتُكَ بكرامتي ، وحذَّرتُكَ سخطي ؟ ألمْ أخلقْكَ بيدي ، ونفختُ فيكَ مِنْ روحي ، وأَسجدتُ لكَ ملائكتي ، فعصيتَ أمري ، ونسيتَ عهدي ، وتعرَّضتَ لسخطي ، فوعزَّتي وجلالي ؛ لوْ ملأتُ الأرضَ رجالاً كلَّهُمْ مثلَكَ ، يعبدونَني ويسبِّحونَني ثمَّ عصوني . . لأنزلتُهُمْ منازلَ العاصينَ ، فبكىٰ آدمُ عليهِ السلامُ عندَ ذلكَ ثلاثَ مئةِ عامٍ[1] .

وكانَ عبيدُ اللهِ البجليُّ كثيرَ البكاءِ[2] ، يقولُ في بكائِهِ طولَ ليلِهِ : (إلـٰهي ؛ أنا الذي كلَّما طالَ عمري . . زادَتْ ذنوبي ، أنا الذي كلَّما هممتُ

---

(١) رواه ابن قدامة في « التوابين » (ص ٩) ، وروى ابن سعد في « طبقاته » (١/١٥) عن الحسن : (بكىٰ آدم على الجنة ثلاث مئة سنة) .

(٢) في غير (ف) : (عبد الله) بدل (عبيد الله) .

بتركِ خطيئةٍ . . عرضَتْ لي شهوةٌ أخرىٰ ، وا عبيداهُ ؛ خطيئةٌ لمْ تبلَ وصاحبُها في طلبِ أخرى ! وا عبيداهُ ؛ إنْ كانَتِ النارُ لكَ مقيلاً ومأوىً ، وا عبيداهُ ؛ إنْ كانَتِ المقامعُ لرأسِكَ تهيَّأُ ، وا عبيداهُ ؛ قُضيَتْ حوائجُ الطالبينَ ولعلَّ حاجتَكَ لا تُقضىٰ) .

وقالَ منصورُ بنُ عمَّارٍ : سمعتُ في بعضِ الليالي بالكوفةِ عابداً يناجي ربَّهُ وهوَ يقولُ : (يا ربِّ ؛ وعزَّتِكَ ما أردتُ بمعصيتِكَ مخالفتَكَ ، ولا عصيتُكَ إذْ عصيتُكَ وأنا بمكانِكَ جاهلٌ ، ولا لعقوبتِكَ متعرِّضٌ ، ولا لنظرِكَ مستخفٌّ ، ولكنْ سوَّلَتْ لي نفسي ، وأعانَني علىٰ ذلكَ شِقوتي ، وغرَّني سترُكَ المرخيُّ عليَّ ، فعصيتُكَ بجهلي ، وخالفتُكَ بفعلي ، فمِنْ عذابِكَ الآنَ مَنْ يستنقذُني ، أوْ بحبلِ مَنْ أعتصمُ إنْ قطعتَ حبلَكَ عنِّي ؟ وا سوءتاهُ مِنَ الوقوفِ بينَ يديكَ غداً إذا قيلَ للمخفِّينَ : جوزوا ، وقيلَ للمثقلينَ : حُطُّوا ، أمعَ المخفِّينَ أجوزُ أمْ معَ المثقلينَ أحطُّ ؟ ويلي ! كلَّما كبرَتْ سنِّي . . كثرَتْ ذنوبي ، ويلي ! كلَّما طالَ عمري . . كثرَتْ معاصيَّ ، فمِنْ كمْ أتوبُ ؟ وفي كمْ أعودُ ؟ أما آنَ لي أنْ أستحييَ مِنْ ربِّي ؟)[1] .

فهٰذهِ طرقُ القومِ في مناجاةِ مولاهُمْ ، وفي معاتبةِ نفوسِهِمْ ، وإنَّما مطلبُهُمْ مِنَ المناجاةِ الاسترضاءُ ، ومقصدُهُمْ مِنَ المعاتبةِ التنبيهُ

---

(١) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص ١١٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٩/٣٢٨) ، وفي (ج ، ص) : (فإلىٰ متىٰ أتوب ؟ وإلىٰ متىٰ أعود ؟) بدل (فمن كم أتوب ؟ وفي كم أعود) ؟ .

والاسترعاءُ ، فمَنْ أهملَ المعاتبةَ والمناجاةَ . . لمْ يكنْ لنفسِهِ مراعياً ، ويوشكُ ألا يكونَ اللهُ تعالىٰ عنهُ راضياً ، والسلامُ .

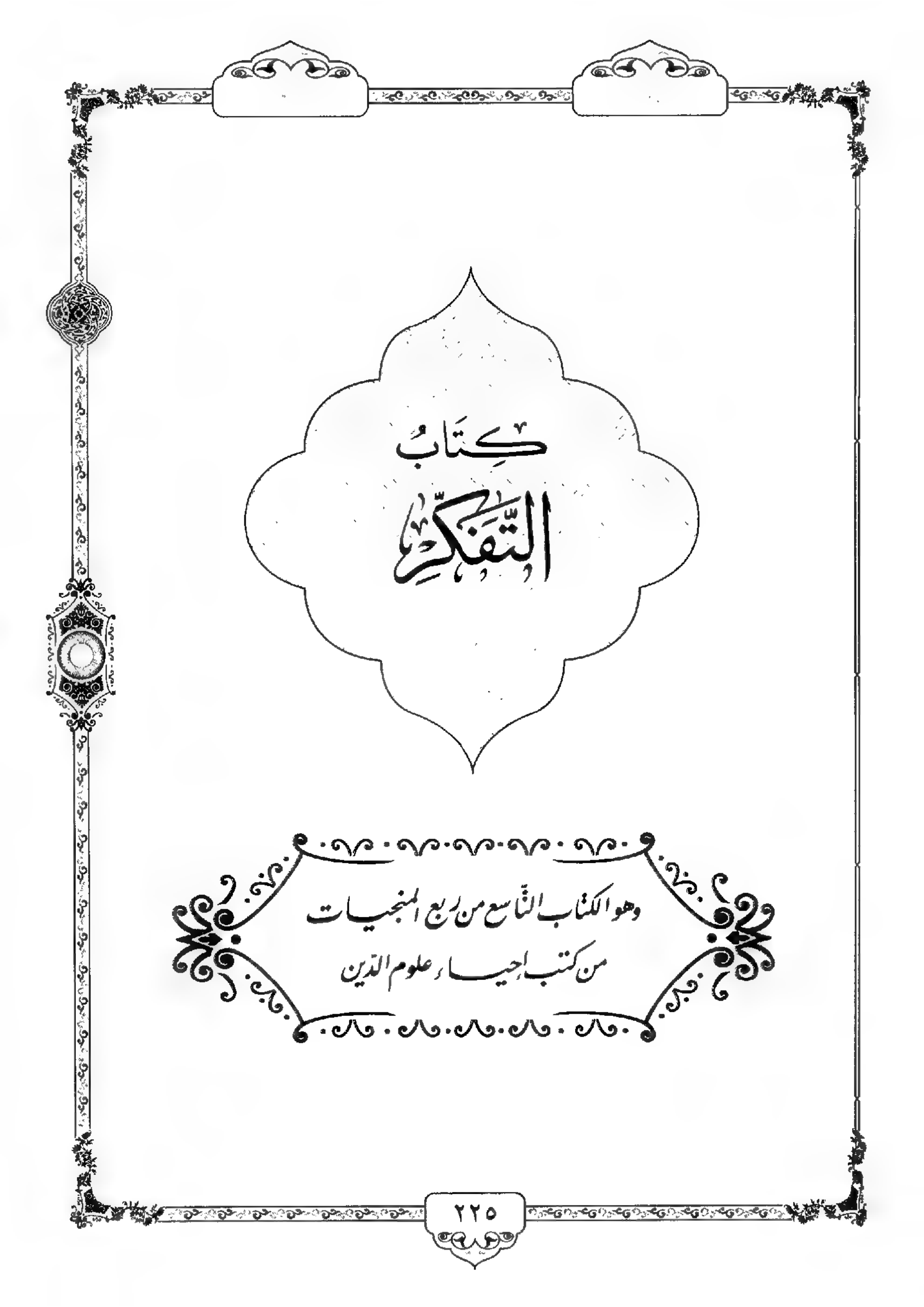
* * *

تمّ كتاب المراقبة والمحاسبة

وهو الكتاب الثامن من ربع المنجيات من كتب إحياء علوم الدين

والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمدٍ وآله أجمعين

يتلوه كتاب التفكّر



كتاب التفكر

وهو الكتاب التاسع من ربع المنجيات
من كتب إحياء علوم الدين



كتاب التفكّر

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الذي لمْ يقدرْ لانتهاءِ عزَّتِهِ نحواً ولا قُطراً[1] ، ولمْ يجعلْ لمراقي أقدامِ الأوهامِ ومرمىٰ سهامِ الأفهامِ إلىٰ حمىٰ عظمتِهِ مجرىً ، بلْ تركَ قلوبَ الطالبينَ في بيداءِ كبريائِهِ والهةً حيرىٰ ، كلَّما اهتزَّتْ لنيلِ مطلوبِها. . ردَّتْها سُبُحاتُ الجلالِ قسراً ، وإذا همَّتْ بالانصرافِ آيسةً. . نُوديَتْ مِنْ سرادقاتِ الجمالِ صبراً صبراً ، ثمَّ قيلَ لها : أجيلي في ذلِّ العبوديةِ منكِ فكراً ؛ لأنَّكِ لوْ تفكَّرتِ في جلالِ الربوبيَّةِ. . لمْ تقدري لهُ قدْراً ، وإنْ طلبتِ وراءَ التفكُّرِ في صفاتِكِ أمراً. . فانظري في نعمِ اللهِ تعالىٰ وأياديهِ كيفَ توالَتْ عليكِ تترىٰ ، وجدِّدي لكلِّ نعمةٍ منها ذكراً وشكراً ، وتأمَّلي في بحارِ المقاديرِ كيفَ فاضَتْ على العالمينَ خيراً وشرّاً ، ونفعاً وضُراً ، وعسراً ويسراً ، وفوزاً وخُسراً ، وجبراً وكسراً ، وطيّاً ونشراً ، وإيماناً وكفراً ، وعرفاناً ونُكراً ، فإنْ جاوزتِ النظرَ في الأفعالِ إلى النظرِ في الذاتِ. . فقدْ حاولتِ أَمراً إِمْراً ، وخاطرتِ بنفسكِ مجاوزةً حدَّ طاقةِ البشريَّةِ ظلماً

---

(١) أي : لم يجعل لغلبته الآتية علىٰ كل الظاهر والباطن جهة ولا ناحية . « إتحاف » (١٠/ ١٦٠) .

وجوراً ، فقدِ انبهرَتِ العقولُ دونَ مبادي إشراقِهِ وانتكصَتْ علىٰ أعقابِها اضطراراً وقهراً .

والصلاةُ علىٰ محمدٍ سيِّدِ ولدِ آدمَ وإنْ كانَ لمْ يعدَّ سيادتَهُ فخراً[١] ، صلاةً تبقىٰ لنا في عرصاتِ القيامةِ عُدَّةً وذخراً ، وعلىٰ آلهِ وأصحابِهِ الذينَ أصبحَ كلُّ واحدٍ منهُمْ في سماءِ الدينِ بدراً ، ولطوائفِ المسلمينَ صدراً ، وسلَّمْ تسليماً كثيراً .

أمّا بعد :

فقدْ وردَتِ السنَّةُ بأنَّ تفكُّرَ ساعةٍ خيرٌ مِنْ عبادةِ سنةٍ[٢] ، وكثُرَ الحثُّ في كتابِ اللهِ تعالىٰ على التدبُّرِ والاعتبارِ ، والنظرِ والافتكارِ ، ولا يخفىٰ أنَّ الفكرَ هوَ مفتاحُ الأنوارِ ، ومبدأُ الاستبصارِ ، وهوَ شبكةُ العلومِ ، ومصيدةُ المعارفِ والفهومِ ، وأكثرُ الناسِ قدْ عرفوا فضلَهُ ورتبتَهُ ، ولكنْ جهلوا حقيقتَهُ وثمرتَهُ ، ومصدرَهُ وموردَهُ ، ومجراهُ ومسرحَهُ ، وطريقَهُ وكيفيتَهُ ،

---

(١) إذ روى الترمذي (٣١٤٨) ، وابن ماجه (٤٣٠٨) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » .

(٢) إذ روىٰ أبو الشيخ في « العظمة » (٤٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « فكرة ساعة خير من عبادة ستين سنة » ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٢٣٩٧) من حديث أنس رضي الله عنه : « تفكُّر ساعة في اختلاف الليل والنهار خير من عبادة ثمانين سنة » .

وروى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٧٢٨) ، وهناد في « الزهد » (٩٤٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٠٩) عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : (تفكُّر ساعة خير من قيام ليلة) .

ولمْ يعلمْ أنَّهُ كيفَ يتفكَّرُ ؟ وفيماذا يتفكَّرُ ؟ ولماذا يتفكَّرُ ؟ وما الذي يُطلبُ بهِ ؟ أهوَ مرادٌ لعينِهِ ، أمْ لثمرةٍ تُستفادُ منهُ ؟ فإنْ كانَ لثمرةٍ . . فما تلكَ الثمرةُ ؟ أهيَ مِنَ العلومِ ، أوْ مِنَ الأحوالِ ، أوْ منهُما جميعاً ؟

وكشفُ جميعِ ذلكَ مهمٌّ ، ونحنُ نذكرُ أوَّلاً فضيلةَ التفكُّرِ ، ثمَّ حقيقةَ التفكُّرِ وثمرتَهُ ، ثمَّ مجاريَ الفكرِ ومسارحَهُ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

* * *

فضيلة التفكر

قدْ أمرَ اللهُ تعالىٰ بالتفكُّرِ والتدبُّرِ في كتابِهِ العزيزِ في مواضعَ لا تُحصىٰ ، وأثنىٰ على المتفكرينَ فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾ .

وقدْ قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : إنَّ قوماً تفكَّروا في اللهِ عزَّ وجلَّ ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تفكَّروا في خلْقِ اللهِ ، ولا تتفكَّروا في اللهِ ؛ فإنَّكُمْ لنْ تقدروا قدرَهُ »[١] .

وعنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ خرجَ علىٰ قومٍ ذاتَ يومٍ وهُمْ يتفكَّرونَ ، فقالَ : « ما لكمْ لا تتكلَّمونَ ؟ » فقالوا : نتفكَّرُ في خلقِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، قالَ : « فكذلكَ فافعلوا ، تفكَّروا في خلقِهِ ، ولا تتفكَّروا فيهِ ، فإنَّ بهـٰذا المغربِ أرضاً بيضاءَ ، نورُها بياضُها أو بياضُها نورُها مسيرةَ الشمسِ أربعينَ يوماً ، بها خلقٌ مِنْ خلقِ اللهِ عزَّ وجلَّ لمْ يعصوا اللهَ طرفةَ عينٍ » ، قالوا : يا رسولَ اللهِ ؛ فأينَ الشيطانُ منهُمْ ؟ قالَ : « ما يدرونَ خُلِقَ الشيطانُ

(١) كذا رواه الخركوشي بسنده في « تهذيب الأسرار » (ص٦٩٣) ، ورواه أبو الشيخ في « العظمة » (٢) ، والبيهقي في « الأسماء والصفات » (ص٢٧١ ، ٣٨٩) ، ورواه من حديث عبد الله بن سلام رضي الله عنه أبو نعيم في « الحلية » (٦/٦٦) ، ومن حديث ابن عمر رضي الله عنهما البيهقي في « الشعب » (١١٩) .

أم لا » ، قالوا : مِنْ ولدِ آدمَ ؟ قالَ : « لا يدرونَ خُلِقَ آدمُ أمْ لا »[1] .

وعنْ عطاءٍ قالَ : انطلقتُ يوماً أنا وعبيدُ بنُ عميرٍ إلىٰ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها فكلَّمتْنا وبينَنا وبينَها حجابٌ ، فقالَتْ : يا عبيدُ ؛ ما يمنعُكَ مِنْ زيارتِنا ؟ قالَ : قولُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « زُرْ غبّاً تزددْ حبّاً »[2] ، قالَ ابنُ عميرٍ : فأخبرينا بأعجبِ شيءٍ رأيتِهِ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، قالَ : فبكَتْ وقالَتْ : كلُّ أمرِهِ كانَ عجباً ، أتاني في ليلتي ، حتىٰ مسَّ جلدُهُ جلدي ، ثمَّ قالَ : « ذريني أتعبَّدُ لربِّي عزَّ وجلَّ » ، فقامَ إلى القربةِ فتوضَّأَ منها ، ثمَّ قامَ يصلِّي ، فبكىٰ حتىٰ بلَّ لحيتَهُ ، ثمَّ سجدَ حتىٰ بلَّ الأرضَ ، ثمَّ اضطجعَ علىٰ جنبِهِ حتىٰ أتىٰ بلالٌ يؤذنُهُ بصلاةِ الصبحِ ، فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما يبكيكَ وقدْ غفرَ اللهُ لكَ ما تقدَّمَ مِنْ ذنبِكَ وما تأخَّرَ ؟ فقالَ : « ويحَكَ يا بلالُ ! وما يمنعُني أنْ أبكيَ وقدْ أنزلَ اللهُ تعالىٰ عليَّ في هٰذهِ الليلةِ : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ » ، ثمَّ قالَ : « ويلٌ لمَنْ قرأَها ولمْ يتفكَّرْ فيها »[3] .

---

(١) كذا عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٦٩٣) ، ورواه أبو الشيخ في « العظمة » (٩٥٣) عن بعض أئمة الكوفة يرفعه ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٧٠٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، وابن الجوزي في « المنتظم » (١/٦١) عن عثمان بن أبي دهرس بلاغاً .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣/٣٤٧) .

(٣) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٦٩٤) ، ورواه كذلك ابن أبي الدنيا في « التفكر » كما أشار الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (١٠/١٦٣) .

فقيلَ للأوزاعيِّ : ما غايةُ التفكُّرِ فيهنَّ ؟ قالَ : يقرؤُهُنَّ ويعقلُهُنَّ[1] .

وعنْ محمدِ بنِ واسعٍ : أنَّ رجلاً مِنْ أهلِ البصرةِ ركبَ إلىٰ أمِّ ذرٍّ بعدَ موتِ أبي ذرٍّ ، فسألَها عنْ عبادةِ أبي ذرٍّ ، فقالَتْ : كانَ نهارَهُ أجمعَ في ناحيةِ البيتِ يتفكَّرُ[2] .

وعنِ الحسنِ قالَ : (تفكُّرُ ساعةٍ خيرٌ مِنْ قيامِ ليلةٍ)[3] .

وعنِ الفضيلِ قالَ : (الفكر مرآةٌ تريكَ حسناتِكَ وسيئاتِكَ)[4] .

وقيلَ لإبراهيمَ : إنَّكَ تطيلُ الفكرةَ ، فقالَ : الفكرةُ مخُّ العقلِ[5] .

وكانَ سفيانُ بنُ عيينةَ كثيراً ما يتمثَّلُ ويقول[6] : [من المتقارب]

إذا ٱلْمَـرْءُ كَـانَـتْ لَـهُ فِكْـرَةٌ ... فَفِـي كُـلِّ شَـيْءٍ لَـهُ عِبْـرَةٌ

---

(1) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٦٩٤) ، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب « التفكر » . « إتحاف » (١٠/ ١٦٣) .

(2) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٦٩٤) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ١٦٤) .

(3) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٦٩٥) ، ورواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٣٧١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٧١) .

(4) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٦٩٥) ، ورواه أبو الشيخ في « العظمة » (١٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٠٨) عن الفضيل عن الحسن من قوله .

(5) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٦٩٥) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٠٨) مع الخبر السابق .

(6) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٦٩٥) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٣٠٦) ، وانظر « المدهش » (١/ ٣٦٨) .

وعنْ طاووسٍ قالَ : قالَ الحواريُّونَ لعيسى ابنِ مريمَ عليهِ السلامُ : يا روحَ اللهِ ؛ هلْ على الأرضِ اليومَ مثلُكَ ؟ فقالَ : نعمْ ، مَنْ كانَ منطقُهُ ذكراً ، وصمتُهُ فكراً ، ونظرُهُ عبرةً . . فإنَّهُ مثلي[1] .

وقالَ الحسنُ : (مَنْ لمْ يكنْ كلامُهُ حكمةً . . فهوَ لغوٌ ، ومَنْ لمْ يكنْ سكوتُهُ تفكُّراً . . فهوَ سهوٌ ، ومَنْ لمْ يكنْ نظرُهُ اعتباراً . . فهوَ لهوٌ)[2] .

وفي قولِ اللهِ تعالىٰ : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ ، قالَ : أمنعُ قلوبَهُمُ التفكُّرَ في أمري[3] .

وعنْ أبي سعيدٍ الخدريِّ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أعطوا أعينَكُمْ حظَّها مِنَ العبادةِ » ، فقالوا : يا رسولَ اللهِ ؛ وما حظُّها مِنَ العبادةِ ؟ قالَ : « النظرُ في المصحفِ والتفكُّرُ فيهِ ، والاعتبارُ عندَ عجائبِهِ »[4] .

---

(١) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٦٩٥) ، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب « التفكر » . « إتحاف » (١٠/ ١٦٤) .

(٢) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٦٩٥) ، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب « التفكر » . « إتحاف » (١٠/ ١٦٤) .

(٣) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٦٩٥) ، ورواه أبو الشيخ في « العظمة » (١١) عن الفريابي .

(٤) قال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (١٠/ ١٦٤) : (قال العراقي : رواه ابن أبي الدنيا في كتاب « التفكر » ، ومن طريقه أبو الشيخ في « العظمة » [١٢] بإسناد ضعيف ، انتهىٰ ، قلت : ورواه أيضاً الحكيم في « النوادر » [ص٣٣٣] ، والبيهقي في « الشعب » [٢٠٣٠] وضعفه) ، وهو عند الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٦٩٥) .

وعنِ امرأةٍ كانَتْ تسكنُ الباديةَ قريباً مِنْ مكةَ أنَّها قالَتْ : (لوْ تطالعَتْ قلوبُ المتقينَ بفكرِها إلىٰ ما قدْ ذُخِرَ لها في حجبِ الغيوبِ مِنْ خيرِ الآخرةِ . . لمْ يصفُ لهُمْ في الدنيا عيشٌ ، ولمْ تقرَّ لهُمْ في الدنيا عينٌ)[1] .

وكانَ لقمانُ يطيلُ الجلوسَ وحدَهُ ، فكانَ يمرُّ بهِ مولاهُ فيقولُ : يا لقمانُ ؛ إنَّكَ تديمُ الجلوسَ وحدَكَ ، فلوْ جلستَ معَ الناسِ كانَ آنسَ لكَ ، فيقولُ لقمانُ : إنَّ طولَ الوحدةِ أفهمُ للفكرِ ، وطولُ الفكرةِ دليلٌ علىٰ طريقِ الجنةِ[2] .

وقالَ وهبُ بنُ منبهٍ : (ما طالَتْ فكرةُ امرىءٍ قطُّ إلا علمَ ، وما علمَ امرؤٌ قطُّ إلا عملَ)[3] .

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ : (الفكرةُ في نعمِ اللهِ عزَّ وجلَّ مِنْ أفضلِ العبادةِ)[4] .

---

(١) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٦٩٦) ، ورواه الخرائطي في « اعتلال القلوب » (٣٧) .

(٢) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٦٩٦) ، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب « التفكر » . « إتحاف » (١٠/ ١٦٤) .

(٣) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٦٩٦) ، ورواه أبو الشيخ في « العظمة » (٥٦) .

(٤) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٦٩٦) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (١٠/ ١٦٤) .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ المباركِ يوماً لسهلِ بنِ عليٍّ ورآهُ ساكتاً متفكِّراً : أينَ بلغتَ ؟ قالَ : الصراطَ[1] .

وقالَ بشرٌ : (لوْ تفكَّرَ الناسُ في عظمةِ اللهِ تعالىٰ . . ما عصَوُا اللهَ عزَّ وجلَّ)[2] .

وعنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : (ركعتانِ مقتصدتانِ في تفكُّرٍ خيرٌ مِنْ قيامِ ليلةٍ بلا قلبٍ)[3] .

وبينا أبو شريحٍ يمشي . . إذْ جلسَ فتقنَّعَ بكسائِهِ ، فجعلَ يبكي ، فقلنا : ما يبكيكَ ؟ قالَ : تفكَّرتُ في ذهابِ عمري ، وقلَّةِ عملي ، واقترابِ أجلي[4] .

وقالَ أبو سليمانَ : (عوِّدوا أعينَكُمُ البكاءَ ، وقلوبَكُمُ التفكُّرَ)[5] .

وقالَ أبو سليمانَ : (الفكرُ في الدنيا حجابٌ عنِ الآخرةِ ، وعقوبةٌ لأهلِ

---

(١) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٦٩٦) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (١٠/ ١٦٤) .

(٢) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٦٩٦) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٣٣٧) .

(٣) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٦٩٦) ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٨٨) ، وأبو الشيخ في « العظمة » (٤٤) .

(٤) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٦٩٦) ، ورواه ابن أبي الدنيا في « العمر والشيب » (٢٢) .

(٥) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٦٩٧) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٢٧٤) ، وأبو سليمان هو الداراني .

الولايةِ ، والفكرُ في الآخرةِ يورثُ الحكمةَ ، ويحيي القلوبَ)[1] .

وقالَ حاتمٌ : (مِنَ العبرةِ يزيدُ العلمُ ، ومِنَ الذكرِ يزيدُ الحبُّ ، ومِنَ التفكُّرِ يزيدُ الخوفُ)[2] .

وقالَ ابنُ عباسٍ : (التفكُّرُ في الخيرِ يدعو إلى العملِ بهِ ، والندمُ على الشرِّ يدعو إلىٰ تركِهِ)[3] .

ويُروىٰ أنَّ اللهَ تعالىٰ قالَ في بعضِ كتبِهِ : « إنِّي لستُ أقبلُ كلامَ كلِّ حكيمٍ ، ولكنْ أنظرُ إلىٰ همِّه وهواهُ ، فإذا كانَ همُّهُ وهواهُ لي . . جعلتُ صمتَهُ تفكُّراً ، وكلامَهُ حمداً وإنْ لمْ يتكلَّمْ »[4] .

وقالَ الحسنُ : (إنَّ أهلَ العقلِ لمْ يزالوا يعودونَ بالذكرِ على الفكرِ ، وبالفكرِ على الذكرِ ، حتى استنطقوا قلوبَهُمْ ، فنطقَتْ بالحكمةِ)[5] .

---

(١) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٦٩٧) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٩/ ٢٧٨) ضمن خبر طويل .

(٢) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٦٩٧) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » . « إتحاف » (١٠/ ١٦٥) .

(٣) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٦٩٧) ، ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب « التفكر » . « إتحاف » (١٠/ ١٦٥) .

(٤) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٦٩٧) ، ورواه الدارمي في « سننه » (٢٥٨) عن المهاصر بن حبيب مرسلاً ، وفيه : (جعلت صمته حمداً لي ووقاراً وإن لم يتكلم) .

(٥) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٦٩٧) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ١٩) ، وزاد في رواية : (وورثوا السر) .

وقالَ إسحاقُ بنُ خلفٍ : كانَ داوودُ الطائيُّ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ علىٰ سطحٍ في ليلةٍ قمراءَ ، فتفكَّرَ في ملكوتِ السماواتِ والأرضِ وهوَ ينظرُ إلى السماءِ ويبكي حتىٰ وقعَ في دارِ جارٍ لهُ ، قالَ : فوثبَ صاحبُ الدارِ مِنْ فراشِهِ عرياناً وبيدِهِ سيفٌ ، وظنَّ أنَّهُ لصٌّ ، فلمَّا نظرَ إلىٰ داوودَ . . رجعَ ووضعَ السيفَ وقالَ : مَنْ ذا الذي طرحَكَ مِنَ السطحِ ؟ قالَ : ما شعرتُ بذلكَ[1] .

وقالَ الجنيدُ : (أشرفُ المجالسِ وأعلاها الجلوسُ معَ الفكرةِ في ميدانِ التوحيدِ ، والتنسُّمُ بنسيمِ المعرفةِ ، والشربُ بكأسِ المحبَّةِ مِنْ بحرِ الودادِ ، والنظرُ بحسنِ الظنِّ للهِ عزَّ وجلَّ) ، ثمَّ قالَ : (يا لها مِنْ مجالسَ ما أجلَّها ! ومِنْ شرابٍ ما ألذَّهُ ! طوبىٰ لمَنْ رُزِقَهُ)[2] .

وقالَ الشافعيُّ رضيَ اللهُ عنهُ : (استعينوا على الكلامِ بالصمتِ ، وعلى الاستنباطِ بالفكرِ)[3] .

وقالَ أيضاً : (صحَّةُ النظرِ في الأمورِ نجاةٌ مِنَ الغرورِ ، والعزمُ في الرأيِ سلامةٌ مِنَ التفريطِ والندمِ ، والرويةُ والفكرُ يكشفانِ عنِ الحزمِ والفطنةِ ، ومشاورةُ الحكماءِ ثباتٌ في النفسِ وقوَّةٌ في البصيرةِ ، ففكِّرْ قبلَ

---

(١) كذا أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٦٩٧) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/٣٥٨) .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٦٩٨) .

(٣) رواه ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (١/٢/١٥١) .

أَنْ تعزمَ ، وتدبَّرْ قبلَ أَنْ تهجمَ ، وشاورْ قبلَ أَنْ تقدمَ)[1] .

وقالَ أيضاً : (الفضائلُ أربعٌ : إحداها : الحكمةُ ، وقوامُها الفكرةُ ، والثانيةُ : العفَّةُ ، وقوامُها في الشهوةِ ، والثالثةُ : القوةُ ، وقوامُها في الغضبِ ، والرابعةُ : العدْلُ ، وقوامُهُ في اعتدالِ قوى النفسِ)[2] .

فهٰذهِ أقاويلُ العلماءِ في الفكرةِ ، وما شرعَ أحدٌ منهُمْ في ذكرِ حقيقتِها وبيانِ مجاريها .

* * *

(1) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » . « إتحاف » (١٠/ ١٦٥) .

(2) رواه البيهقي في « مناقب الشافعي » . « إتحاف » (١٠/ ١٦٥) .

بيان حقيقة الفكر وثمرته

اعلمْ : أنَّ معنى الفكرِ هوَ إحضارُ معرفتينِ في القلبِ ليستثمرَ منهُما معرفةً ثالثةً .

ومثالُهُ : أنَّ مَنْ مالَ إلى العاجلةِ ، وآثرَ الحياةَ الدنيا ، وأرادَ أنْ يعرفَ أنَّ الآخرةَ أولىٰ بالإيثارِ مِنَ العاجلةِ . . فلهُ طريقانِ :

أحدُهُما : أنْ يسمعَ مِنْ غيرِهِ أنَّ الآخرةَ أولىٰ بالإيثارِ مِنَ العاجلةِ ، فيقلِّدَهُ ويصدِّقَهُ مِنْ غيرِ بصيرةٍ بحقيقةِ الأمرِ ، فيميلُ بعملِهِ إلىٰ إيثارِ الآخرةِ اعتماداً علىٰ مجرَّدِ قولِهِ ، وهـٰذا يُسمَّىٰ تقليداً ، ولا يُسمَّىٰ معرفةً .

والطريقُ الثاني : أنْ يعرفَ أنَّ الأبقىٰ أولىٰ بالإيثارِ ، ثمَّ يعرفَ أنَّ الآخرةَ أبقىٰ ، فيحصلُ لهُ مِنْ هاتينِ المعرفتينِ معرفةٌ ثالثةٌ ، وهوَ أنَّ الآخرةَ أولىٰ بالإيثارِ ، ولا يمكنُ تحقُّقُ المعرفةِ بأنَّ الآخرةَ أولىٰ بالإيثارِ إلا بالمعرفتينِ السابقتينِ ، فإحضارُ المعرفتينِ السابقتينِ في القلبِ للتوصُّلِ بهِ إلى المعرفةِ الثالثةِ يُسمَّىٰ تفكُّراً واعتباراً ، وتذكُّراً ونظراً ، وتأمُّلاً وتدبراً .

أمَّا التدبُّرُ والتأمُّلُ والتفكُّرُ . . فعباراتٌ مترادفةٌ علىٰ معنىً واحدٍ ، ليسَ تحتها معانٍ مختلفةٌ .

وأمَّا اسمُ التذكُّرِ والاعتبارِ والنظرِ . . فهيَ مختلفةُ المعاني ، وإنْ كانَ أصلُ المسمَّىٰ واحداً ؛ كما أنَّ اسمَ الصارمِ والمهنَّدِ والسيفِ يتواردُ علىٰ

شيءٍ واحدٍ ولكنْ باعتباراتٍ مختلفةٍ ، فالصارمُ يدلُّ على السيفِ مِنْ حيثُ هوَ قاطعٌ ، والمهنَّدُ يدلُّ عليهِ مِنْ حيثُ نسبتُهُ إلىٰ موضعِهِ ، والسيفُ يدلُّ دلالةً مطلقةً مِنْ غيرِ إشعارٍ بهـٰذهِ الزوائدِ ؛ فكذلكَ الاعتبارُ ينطلقُ علىٰ إحضارِ المعرفتينِ مِنْ حيثُ إنَّهُ يعبرُ منهُما إلىٰ معرفةٍ ثالثةٍ ، فإنْ لمْ يقعِ العبورُ ، ولمْ يكنْ إلا الوقوفُ على المعرفتينِ . . فينطلقُ عليهِ اسمُ التذكُّرِ ، لا اسمُ الاعتبارِ .

وأمَّا النظرُ والتفكُّرُ . . فيقعُ عليهِ مِنْ حيثُ إنَّ فيهِ طلبَ معرفةٍ ثالثةٍ ، فمَنْ ليسَ يطلبُ المعرفةَ الثالثةَ لا يُسمَّىٰ ناظراً ، فكلُّ متفكِّرٍ فهوَ متذكِّرٌ ، وليسَ كلُّ متذكِّرٍ متفكراً .

وفائدةُ التذكارِ تكرارُ المعارفِ على القلبِ لتترسَّخَ وتثبتَ ولا تنمحيَ عنِ القلبِ ، وفائدةُ التفكُّرِ تكثيرُ العلمِ واستجلابُ معرفةٍ ليسَتْ حاصلةً ، فهـٰذا هوَ الفرقُ بينَ التذكُّرِ والتفكُّرِ .

والمعارفُ إذا اجتمعَتْ في القلبِ وازدوجَتْ علىٰ ترتيبٍ مخصوصٍ . . أثمرَتْ معرفةً أخرىٰ ، فالمعرفةُ نتاجُ المعرفةِ ، فإذا حصلَتْ معرفةٌ وازدوجَتْ معَ معرفةٍ أخرىٰ . . حصلَ مِنْ ذلكَ نتاجٌ آخرُ ، وهـٰكذا يتمادى النتاجُ وتتمادى العلومُ ، ويتمادى الفكرُ إلىٰ غيرِ نهايةٍ ، وإنَّما تنسدُّ طريقُ زيادةِ المعارفِ بالموتِ أوِ العوائقِ ، هـٰذا لمَنْ يقدرُ على استثمارِ العلومِ ويهتدي إلىٰ طريقِ التفكُّرِ .

وأما أكثرُ الناسِ . . فإنَّما مُنعوا الزيادةَ في العلومِ لفقدِهِمْ رأسَ المالِ ، وهوَ المعارفُ التي منها تُستثمرُ العلومُ ؛ كالذي لا بضاعةَ لهُ ، فإنَّهُ لا يقدرُ على الربحِ ، وقدْ يملكُ البضاعةَ ولكنْ لا يحسنُ صنعةَ التجارةِ ، فلا يربحُ شيئاً ؛ فكذلكَ قدْ يكونُ معَهُ مِنَ المعارفِ ما هوَ رأسُ مالِ العلومِ ، ولكنَّهُ ليسَ يحسنُ استعمالَها وتأليفَها ، وإيقاعَ الازدواجِ المفضي إلى النتاجِ فيها .

ومعرفةُ طريقِ الاستعمالِ والاستثمارِ تارةً تكونُ بنورٍ إلـٰهيٍّ في القلبِ يحصلُ بالفطرةِ ؛ كما كان للأنبياءِ صلواتُ اللهِ عليهم أجمعينَ ، وذلكَ عزيزٌ جداً ، وقدْ تكونُ بالتعلُّمِ والممارسةِ ، وهوَ الأكثرُ .

ثمَّ المتفكِّرُ قدْ تحضرُهُ هـٰذهِ المعارفُ ، وتحصلُ لهُ الثمرةُ وهوَ لا يشعرُ بكيفيةِ حصولِها[1] ، ولا يقدرُ على التعبيرِ عنها لقلَّةِ ممارستِهِ لصناعةِ التعبيرِ والإيرادِ[2] ، فكمْ مِنْ إنسانٍ يعلمُ أنَّ الآخرةَ أولىٰ بالإيثارِ علماً حقيقياً ، ولوْ سُئِلَ عنْ سببِ معرفتِهِ . . لمْ يقدرْ علىٰ إيرادِهِ والتعبيرِ عنهُ ، معَ أنَّهُ لمْ تحصلْ معرفتُهُ إلا عنِ المعرفتينِ السابقتينِ ، وهوَ أنَّ الأبقىٰ أولىٰ بالإيثارِ ، وأنَّ الآخرةَ أبقىٰ مِنَ الدنيا ، فتحصلُ لهُ معرفةٌ ثالثةٌ ، وهوَ أنَّ الآخرةَ أولىٰ بالإيثارِ ، فرجعَ حاصلُ حقيقةِ الفكرِ إلىٰ إحضارِ معرفتينِ للتوصلِ بهما إلىٰ معرفةٍ ثالثةٍ .

---

(١) لأن ذلك الحصول عبارة عن انتقال القلب بسرعة من معرفة إلىٰ معرفة ، فربما لا يحس به صاحبه ، ويظن أنه واقف عند المعرفة الأولىٰ . « إتحاف » (١٠/ ١٦٨) .

(٢) في (ص) وحدها : (في الإيراد) بدل (والإيراد) .

وأمَّا ثمرةُ الفكرِ.. فهيَ العلومُ والأحوالُ والأعمالُ ، ولكنْ ثمرتُهُ الخاصَّةُ العلمُ لا غيرُ .

نعمْ ، إذا حصلَ العلمُ في القلبِ.. تغيَّرَ حالُ القلبِ ، وإذا تغيَّرَ حالُ القلبِ.. تغيَّرَتْ أعمالُ الجوارحِ ، فالعملُ تابعُ الحالِ ، والحالُ تابعُ العلمِ ، والعلمُ تابعُ الفكرِ ، فالفكرُ إذاً هوَ المبدأُ والمفتاحُ للخيراتِ كلِّها ، وهـٰذا هوَ الذي يكشفُ لكَ عنْ فضيلةِ التفكُّرِ ، وأنَّهُ خيرٌ مِنَ الذكرِ والتذكُّرِ ؛ لأنَّ في الفكرِ ذكراً وزيادةً ، وذكرُ القلبِ خيرٌ مِنْ عملِ الجوارحِ ، بلْ شرُفَ العملُ لما فيهِ مِنَ الذكرِ .

فإذاً ؛ التفكُّرُ أفضلُ مِنْ جملةِ الأعمالِ ، ولذلكَ قيلَ : « تفكُّرُ ساعةٍ خيرٌ مِنْ عبادةِ سنةٍ »[1] ، فقيلَ : هوَ الذي ينقلُ مِنَ المكارهِ إلى المحابِّ ، ومِنَ الرغبةِ والحرصِ إلى الزهدِ والقناعةِ[2] .

---

(١) روىٰ أبو الشيخ في « العظمة » (٤٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : « فكرة ساعة خير من عبادة ستين سنة » ، والديلمي في « مسند الفردوس » (٢٣٩٧) عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « تفكُّر ساعة في اختلاف الليل والنهار خير من عبادة ثمانين سنة » .
وروى ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٧٢٨) ، وهناد في « الزهد » (٩٤٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٠٩) عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : (تفكر ساعة خير من قيام ليلة) .

(٢) قوت القلوب (١/ ١٤) .

وقيلَ : هوَ الذي يحدِثُ مشاهدةً وتقوىٰ ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾[1] .

وإنْ أردتَ أنْ تعرفَ كيفيةَ تغيُّرِ الحالِ بالفكرِ . . فمثالُهُ ما ذكرناهُ مِنْ أمرِ الآخرةِ ؛ فإنَّ الفكرَ فيهِ يعرِّفُنا أنَّ الآخرةَ أولىٰ بالإيثارِ ، فإذا رسخَتْ هـٰذهِ المعرفةُ يقيناً في قلوبِنا . . تغيَّرَتِ القلوبُ إلى الرغبةِ في الآخرةِ ، والزهدِ في الدنيا ، وهـٰذا ما عنيناهُ بالحالِ ؛ إذْ كانَ حالُ القلبِ قبلَ هـٰذهِ المعرفةِ حبَّ العاجلةِ والميلَ إليها ، والنفرةَ عنِ الآخرةِ وقلَّةَ الرغبةِ فيها ، وبهـٰذهِ المعرفةِ تغيَّرَ حالُ القلبِ ، وتبدَّلَتْ إرادتُهُ ورغبتُهُ ، ثمَّ أثمرَ تغيُّرُ الإرادةِ أعمالَ الجوارحِ في اطِّراحِ الدنيا ، والإقبالِ علىٰ أعمالِ الآخرةِ ، فهـٰهنا خمسُ درجاتٍ :

أولاها : التذكُّرُ ؛ وهوَ إحضارُ المعرفتينِ في القلبِ .

وثانيتُها : التفكُّرُ ؛ وهوَ طلبُ المعرفةِ المقصودةِ منهما .

والثالثةُ : حصولُ المعرفةِ المطلوبةِ ، واستنارةُ القلبِ بها .

والرابعةُ : تغيُّرُ حالِ القلبِ عمَّا كانَ بسببِ حصولِ نورِ المعرفةِ .

والخامسةُ : خدمةُ الجوارحِ للقلبِ بحسَبِ ما تجدَّدَ لهُ مِنَ الحالِ .

فكما يُضربُ الحجرُ على الحديدِ فيخرجُ منهُ نارٌ يستضيءُ بها الموضعُ ،

---

(١) قوت القلوب (١/ ١٤) .

فتصيرُ العينُ مبصرةً بعدَ أنْ لمْ تكنْ مبصرةً ، وتنتهضُ الأعضاءُ للعملِ . . فكذلكَ زنادُ نورِ المعرفةِ هوَ الفكرُ ، فيجمعُ بينَ المعرفتينِ كما يُجمعُ بينَ الحجرِ والحديدِ ، ويؤلِّفُ بينَهما تأليفاً مخصوصاً كما يُضربُ الحجرُ على الحديدِ ضرباً مخصوصاً ، فينبعثُ نورُ المعرفةِ كما تنبعثُ النارُ مِنَ الحديدِ ، ويتغيَّرُ القلبُ بسببِ هـٰذا النورِ حتىٰ يميلَ إلىٰ ما لمْ يكنْ يميلُ إليهِ كما يتغيَّرُ البصرُ بنورِ النارِ ، فيرىٰ ما لمْ يكنْ يراهُ ، ثمَّ تنتهضُ الأعضاءُ للعملِ بمقتضىٰ حالِ القلبِ كما ينتهضُ العاجزُ عنِ العملِ بسببِ الظلمةِ للعملِ عندَ إدراكِ البصرِ ما لمْ يكنْ يبصرُهُ .

فإذاً ؛ ثمرةُ الفكرِ العلومُ والأحوالُ ، والعلومُ لا نهايةَ لها ، والأحوالُ التي تُتصوّرُ أنْ تتقلَّبَ على القلبِ لا يمكنُ حصرُها ، ولهـٰذا لوْ أرادَ مريدٌ أنْ يحصرَ فنونَ الفكرِ ومجاريَهُ ، وأنَّهُ فيماذا يتفكَّرُ . . لمْ يقدرْ عليهِ ؛ لأنَّ مجاريَ الفكرِ غيرُ محصورةٍ ، وثمراتِهِ غيرُ متناهيةٍ .

نعمْ ، نحنُ نجتهدُ في ضبطِ مجاريهِ بالإضافةِ إلىٰ مهماتِ العلومِ الدينيّةِ ، وبالإضافةِ إلى الأحوالِ التي هيَ مقاماتُ السالكينَ ، ويكونُ ذلكَ ضبطاً جُمليّاً ؛ فإنَّ تفصيلَ ذلكَ يستدعي شرحَ العلومِ كلِّها ، وجملةُ هـٰذهِ الكتبِ كالشرحِ لبعضِها ، فإنَّها مشتملةٌ علىٰ علومٍ ، تلكَ العلومُ تُستفادُ مِنْ أفكارٍ مخصوصةٍ ، فلنشرْ إلىٰ ضبطِ المجامعِ ؛ فبهِ يحصلُ الوقوفُ علىٰ مجاري الفكرِ .

* * *

بيان مجاري الفكر

اعلمْ : أنَّ الفكرَ قدْ يجري في أمرٍ يتعلَّقُ بالدينِ ، وقدْ يجري فيما يتعلَّقُ بغيرِ الدينِ ، وإنَّما غرضُنا ما يتعلَّق بالدينِ ، فلنتركِ القسمَ الآخرَ .

ونعني بالدينِ : المعاملةَ التي بينَ العبدِ وبينَ الربِّ تعالىٰ ، فجميعُ أفكارِ العبدِ إمَّا أنْ تتعلَّقَ بالعبدِ وصفاتِهِ وأحوالِهِ ، وإمَّا أنْ تتعلَّقَ بالمعبودِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ ، لا يمكنُ أنْ يخرجَ عنْ هـٰذينِ القسمينِ .

وما يتعلَّقُ بالعبدِ إمَّا أنْ يكونَ نظراً فيما هوَ محبوبٌ عندَ الربِّ تعالىٰ ، أوْ فيما هوَ مكروهٌ ، ولا حاجةَ إلى الفكرِ في غيرِ هـٰذينِ القسمينِ .

وما يتعلَّقُ بالربِّ تعالىٰ إمَّا أنْ يكونَ نظراً في ذاتِهِ وصفاتِهِ وأسمائِهِ الحسنىٰ ، وإمَّا أنْ يكونَ في أفعالِهِ وملكِهِ وملكوتِهِ ، وجميعِ ما في السماواتِ والأرضِ وما بينَهما .

وينكشفُ لكَ انحصارُ الفكرِ في هـٰذهِ الأقسامِ بمثالٍ ، وهوَ أنَّ حالَ السائرينَ إلى اللهِ تعالىٰ والمشتاقينَ إلىٰ لقائِهِ يضاهي حالَ العشَّاقِ ، فلنتخذِ العاشقَ المستهترَ مثالَنا ، فنقولُ : العاشقُ المستغرقُ الهمِّ بعشقِهِ لا يعدو فكرُهُ مِنْ أنْ يتعلَّقَ بمعشوقِهِ ، أوْ يتعلَّقَ بنفسِهِ ، فإنْ تفكَّرَ في معشوقِهِ . فإمَّا أنْ يتفكَّرَ في جمالِهِ وحسنِ صورتِهِ في ذاتِهِ ؛ ليتنعَّمَ بالفكرِ فيهِ وبمشاهدتِهِ ، وإمَّا أنْ يتفكَّرَ في أفعالِهِ اللطيفةِ الحسنةِ الدالَّةِ علىٰ أخلاقِهِ وصفاتِهِ ؛ ليكونَ

ذلكَ مضعفاً للذَّتِهِ ومقوياً لمحبتِهِ ، وإنْ تفكَّرَ في نفسِهِ . . فيكونُ فكرُهُ في صفاتِهِ التي تسقطُهُ مِنْ عينِ محبوبِهِ حتىٰ يتنزَّهَ عنها ، أوْ في الصفاتِ التي تقرِّبُهُ منهُ وتحبِّبُهُ إليهِ حتىٰ يتصفَ بها ، فإنْ تفكَّرَ في شيءٍ خارجٍ عنْ هـٰذهِ الأقسامِ . . فذلكَ خارجٌ عنْ حدِّ العشقِ ، وهوَ نقصانٌ فيهِ ؛ لأنَّ العشقَ التامَّ الكاملَ ما يستغرقُ العاشقَ ويستوفي القلبَ ، حتىٰ لا يتركَ فيهِ متسعاً لغيرِهِ ، فمحبُّ اللهِ تعالىٰ ينبغي أنْ يكونَ كذلكَ ، فلا يعدو نظرُهُ وتفكُّرُهُ محبوبَهُ ، ومهما كانَ تفكُّرُهُ محصوراً في هـٰذهِ الأقسامِ الأربعةِ . . لمْ يكنْ خارجاً عنْ مقتضى المحبَّةِ أصلاً .

❁ ❁ ❁

فلنبدأْ بالقسمِ الأوَّلِ :

وهوَ تفكُّرُهُ في صفاتِ نفسِهِ وأفعالِ نفسِهِ ؛ ليميزَ المحبوبَ منها عنِ المكروهِ ، فإنَّ هـٰذا الفكرَ هوَ الذي يتعلَّقُ بعلمِ المعاملةِ الذي هوَ مقصودُ هـٰذا الكتابِ ، وأمَّا القسمُ الآخرُ[1] . . فيتعلَّقُ بعلمِ المكاشفةِ .

ثمَّ كلُّ واحدٍ ممَّا هوَ مكروهٌ عندَ اللهِ تعالىٰ أوْ محبوبٌ ينقسمُ إلىٰ ظاهرٍ ؛ كالطاعاتِ والمعاصي ، وإلىٰ باطنٍ ؛ كالصفاتِ المنجياتِ والمهلكاتِ التي محلُّها القلبُ ، وذكرنا تفصيلَها في ربعِ المهلكاتِ والمنجياتِ .

والطاعاتُ والمعاصي تنقسمُ إلىٰ ما يتعلَّقُ بالأعضاءِ السبعةِ ، وإلىٰ

---

(١) وهو التفكر في ذاته سبحانه وصفاته وأفعاله ، وسيأتي ، ولوَّح لمبادئه المصنف في كتابه « المقصد الأسنىٰ شرح أسماء الله الحسنىٰ » .

ما يُنسبُ إلىٰ جميعِ البدنِ ؛ كالفرارِ مِنَ الزحفِ ، وعقوقِ الوالدينِ ، والسكنىٰ في المسكنِ الحرامِ .

❁ ❁ ❁

ويجبُ في كلِّ واحدٍ مِنَ المكارهِ التفكُّرُ في ثلاثةِ أمورٍ :

الأوَّلُ : التفكُّرُ في أنَّهُ هلْ هوَ مكروهٌ عندَ اللهِ أمْ لا ؟ فربَّ شيءٍ لا يظهرُ كونُهُ مكروهاً ، بلْ يُدركُ بدقيقِ النظرِ .

والثاني : التفكُّرُ في أنَّهُ إنْ كانَ مكروهاً . . فما طريقُ الاحترازِ عنهُ ؟

والثالثُ : أنَّ هـٰذا المكروهَ هلْ هوَ متصفٌ بهِ في الحالِ فيتركَهُ ؟ أوْ هوَ متعرِّضٌ لهُ في الاستقبالِ فيحترزَ عنهُ ؟ أوْ قارفَهُ فيما مضىٰ مِنَ الأحوالِ فيحتاجَ إلىٰ تداركِهِ ؟

❁ ❁ ❁

وكذلكَ كلُّ واحدٍ مِنَ المحبوباتِ ينقسمُ هـٰذهِ الانقساماتِ ، فإذا جُمعَتْ هـٰذهِ الأقسامُ . . زادَتْ مجاري الفكرِ في هـٰذهِ الأقسامِ علىٰ مئةٍ ، والعبدُ مدفوعٌ إلى التفكُّرِ إمَّا في جميعِها ، أوْ في أكثرِها ، وشرحُ آحادِ هـٰذهِ الأقسامِ يطولُ ، ولكنِ انحصرَ هـٰذا القسمُ في أربعةِ أنواعٍ : الطاعاتُ ، والمعاصي ، والصفاتُ المهلكاتُ ، والصفاتُ المنجياتُ ، فلنذكرْ في كلِّ نوعٍ مثالاً ليقيسَ بهِ المريدُ سائرَها ، وينفتحَ لهُ بابُ الفكرِ ، ويتسعَ عليهِ طريقُهُ .

❁ ❁ ❁

النوعُ الأوّلُ : المعاصي :

ينبغي أنْ يفتِّشَ العبدُ صبيحةَ كلِّ يومٍ جميعَ أعضائِهِ السبعةِ تفصيلاً ، ثمَّ بدنَهُ على الجملةِ ؛ هلْ هوَ في الحالِ ملابسٌ لمعصيةٍ بها فيتركَها ؟ أوْ لابَسَها بالأمسِ فيتداركَها بالتركِ والندمِ ، أوْ هوَ متعرِّضٌ لها في نهارِهِ فيستعدَّ للاحترازِ والتباعدِ عنها ؟

فينظرُ في اللسانِ ويقولُ : إنَّهُ متعرِّضٌ للغيبةِ ، والكذبِ ، وتزكيةِ النفسِ ، والاستهزاءِ بالغيرِ ، والمماراةِ ، والممازحةِ ، والخوضِ فيما لا يعني ، إلىٰ غيرِ ذلكَ مِنَ المكارهِ ، فيقرِّرُ أوّلاً في نفسِهِ أنَّها مكروهةٌ عندَ اللهِ تعالىٰ ، ويتفكَّرُ في شواهدِ القرآنِ والسنةِ علىٰ شدَّةِ العذابِ فيها ، ثمَّ يتفكَّرُ في أحوالِهِ أنَّهُ كيفَ يتعرَّضُ لها مِنْ حيثُ لا يشعرُ ، ثمَّ يتفكَّرُ أنَّهُ كيفَ يحترزُ منهُ ؟ ويعلمُ أنَّهُ لا يتمُّ لهُ ذلكَ إلا بالعزلةِ والانفرادِ ، أوْ بألا يجالسَ إلا صالحاً تقياً ينكرُ عليهِ مهما تكلَّمَ بما يكرهُهُ اللهُ تعالىٰ ، أوْ يضعُ حجراً في فيهِ إذا جالسَ غيرَهُ ؛ حتىٰ يكونَ ذلكَ مذكِّراً لهُ ، فهكذا يكونُ الفكرُ في حيلةِ الاحترازِ .

ويتفكَّرُ في سمعِهِ أنَّهُ يصغي بهِ إلى الغيبةِ ، والكذبِ ، وفضولِ الكلامِ ، وإلى اللهوِ ، والبدعةِ ، وأنَّ ذلكَ إنَّما يسمعُهُ مِنْ زيدٍ وعمرٍو ، وأنَّهُ كيفَ ينبغي أنْ يحترزَ عنهُ بالاعتزالِ ، أوْ بالنهيِ عنِ المنكرِ مهما سمعَ ذلكَ .

ويتفكرُ في بطنِهِ أنَّهُ إنَّما يعصي اللهَ تعالىٰ فيهِ بالأكلِ والشربِ ؛ إمَّا بكثرةِ

الأكلِ مِنَ الحلالِ ؛ فإنَّ ذلكَ مكروهٌ عندَ اللهِ ، ومقوٍّ للشهوةِ التي هيَ سلاحُ الشيطانِ عدوِّ اللهِ ، وإمَّا بأكلِ الحرامِ أوِ الشبهةِ ، فينظرُ مِنْ أينَ مطعمُهُ وملبسُهُ ومسكنُهُ ؟ وما مكسبُهُ ؟ ويتفكَّرُ في طرقِ الحلالِ ومداخلِهِ ، ثمَّ يتفكَّرُ في وجوهِ الحيلةِ في الاكتسابِ منهُ والاحترازِ مِنَ الحرامِ ، ويقرِّرُ علىٰ نفسِهِ أنَّ العباداتِ كلَّها ضائعةٌ معَ أكلِ الحرامِ ، وأنَّ أكلَ الحلالِ هوَ أساسُ العباداتِ كلِّها ، وأنَّ اللهَ تعالىٰ لا يقبلُ صلاةَ عبدٍ في ثمنِ ثوبِهِ درهمٌ حرامٌ كما وردَ في الخبرِ[1] .

فهكذا يتفكَّرُ في أعضائِهِ ، ففي هـٰذا القدْرِ كفايةٌ عنِ الاستقصاءِ ، فمهما حصلَ بالتفكُّرِ حقيقةُ المعرفةِ بهـٰذهِ الأحوالِ . . اشتغلَ بالمراقبةِ طولَ النهارِ حتىٰ يحفظَ الأعضاءَ عنها .

* * *

وأمَّا النوعُ الثاني ، وهوَ الطاعاتُ :

فينظرُ أوَّلاً في الفرائضِ المكتوبةِ عليهِ أنَّهُ كيفَ يؤدِّيها ؟ وكيفَ يحرسُها عنِ النقصانِ والتقصيرِ ؟ أوْ كيفَ يجبرُ نقصانَها بكثرةِ النوافلِ ؟ ثمَّ يرجعُ إلىٰ عضوٍ عضوٍ فيتفكَّرُ في الأفعالِ التي تتعلَّقُ بها ممَّا يحبُّهُ اللهُ تعالىٰ ، فيقولُ مثلاً :

إنَّ العينَ خُلقَتْ للنظرِ في ملكوتِ السماواتِ والأرضِ عبرةً ، ولتُستعملَ

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٩٨) .

في طاعةِ اللهِ تعالىٰ ، وتنظرَ في كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ وسنَّةِ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وأنا قادرٌ علىٰ أنْ أشغلَ العينَ بمطالعةِ القرآنِ والسنةِ ، فلِمَ لا أفعلُهُ ؟ وأنا قادرٌ علىٰ أنْ أنظرَ إلىٰ فلانٍ المطيعِ بعينِ التعظيمِ فأدخلَ السرورَ علىٰ قلبِهِ ، وأنظرَ إلىٰ فلانٍ الفاسقِ بعينِ الازدراءِ فأزجرَهُ بذلكَ عنْ معصيتِهِ ، فلِمَ لا أفعلُهُ ؟

وكذلكَ يقولُ في سمعِهِ : إنِّي قادرٌ على استماعِ كلامِ ملهوفٍ ، أوِ استماعِ حكمةٍ وعلمٍ ، أوِ استماعِ قراءةٍ وذكرٍ ، فما لي أعطِّلُهُ وقدْ أنعمَ اللهُ تعالىٰ عليَّ بهِ ، وأودعنيهِ لأشكرَهُ ، فما لي أكفرُ نعمةَ اللهِ فيهِ بتضييعِهِ أوْ تعطيلِهِ ؟

وكذلكَ يتفكَّرُ في اللسانِ ويقولُ : إنِّي قادرٌ علىٰ أنْ أتقرَّبَ إلى اللهِ تعالىٰ بالتعليمِ والوعظِ والتودُّدِ إلىٰ قلوبِ أهلِ الصلاحِ ، وبالسؤالِ عنْ أحوالِ الفقراءِ ، وإدخالِ السرورِ علىٰ قلبِ زيدٍ الصالحِ وعمروٍ العالمِ بكلمةٍ طيِّبةٍ ، وكلُّ كلمةٍ طيبةٍ فإنَّها صدقةٌ .

وكذلكَ يتفكَّرُ في مالِهِ فيقولُ : أنا قادرٌ علىٰ أنْ أتصدَّقَ بالمالِ الفلانيِّ ؛ فإنِّي مستغنٍ عنهُ ، ومهما احتجتُ إليهِ . . رزقَني اللهُ تعالىٰ مثلَهُ ، وإنْ كنتُ محتاجاً الآنَ . . فأنا إلىٰ ثوابِ الإيثارِ أحوجُ منِّي إلىٰ ذلكَ المالِ .

وهكذا يفتِّشُ عنْ جميعِ أعضائِهِ ، وجملةِ بدنِهِ وأموالِهِ ، بلْ عنْ دوابِّهِ وغلمانِهِ وأولادِهِ ، فإنَّ كلَّ ذلكَ أدواتُهُ وأسبابُهُ ، ويقدرُ علىٰ أنْ يطيعَ اللهَ

تعالىٰ بها ، فيستنبطُ بدقيقِ الفكرِ وجوهَ الطاعاتِ الممكنةِ بها ، ويتفكَّرُ فيما يرغِّبُهُ في البدارِ إلىٰ تلكَ الطاعاتِ ، ويتفكَّرُ في إخلاصِ النيَّةِ فيها ، ويطلبُ لها مظانَّ الاستحقاقِ حتىٰ يزكوَ بها عملُهُ ، وقسْ علىٰ هـٰذا سائرَ الطاعات .

❀ ❀ ❀

وأمَّا النوعُ الثالثُ : فهيَ الصفاتُ المهلكةُ التي محلُّها القلبُ :

فيعرفُها ممَّا ذكرناهُ في ربعِ المهلكاتِ ، وهيَ استيلاءُ الشهوةِ ، والغضبِ ، والبخلِ ، والكبرِ ، والعجبِ ، والرياءِ ، والحسدِ ، وسوءِ الظنِّ ، والغفلةِ ، والغرورِ ، وغيرِ ذلكَ ، ويتفقَّدُ مِنْ قلبِهِ هـٰذهِ الصفاتِ ، فإنْ ظنَّ أنَّ قلبَهُ منزَّهٌ عنها . . فيتفكَّرُ في كيفيَّةِ امتحانِهِ ، والاستشهادِ بالعلاماتِ عليهِ ؛ فإنَّ النفسَ أبداً تعدُ بالخيرِ مِنْ نفسِها وتخلفُ ، فإذا ادَّعَتِ التواضعَ والبراءةَ مِنَ الكبرِ . . فينبغي أنْ تُجرَّبَ بحملِ حزمةِ حطبٍ في السوقِ ، كما كانَ الأوَّلونَ يجرِّبونَ بهِ أنفسَهُمْ ، وإذا ادَّعَتِ الحلمَ . . تُعرَّضُ لغضبٍ ينالُهُ مِنْ غيرِهِ ، ثمَّ يجرِّبُها في كظمِ الغيظِ ، وكذلكَ في سائرِ الصفاتِ .

وهـٰذا تفكُّرٌ في أنَّهُ هلْ هوَ موصوفٌ بالصفةِ المكروهةِ أمْ لا ؟ ولذلكَ علاماتٌ ذكرناها في ربعِ المهلكاتِ ، فإذا دلَّتِ العلامةُ علىٰ وجودِها . . فكَّرَ في الأسبابِ التي تقبِّحُ تلكَ الصفاتِ عندَهُ[1] ، وتبيَّنَ أنَّ منشأَها مِنَ الجهلِ

(١) في بعض النسخ يحتمل قراءة (تقبِّح) : (تنتجُ) ، وهو معنىً لا يبعد .

والغفلةِ وخبثِ الدُّخْلةِ ؛ كما لوْ رأىٰ في نفسِهِ عُجْباً بالعملِ ، فيتفكَّرُ ويقولُ : إنَّما عملي ببدني وجارحتي ، وبقدرتي وإرادتي ، وكلُّ ذلك ليسَ منِّي ولا إليَّ ، وإنَّما هوَ مِنْ خلقِ اللهِ عزَّ وجلَّ وفضلِهِ عليَّ ، فهوَ الذي خلقَني ، وخلقَ جارحتي ، وخلقَ قدرتي وإرادتي ، وهوَ الذي حرَّكَ أعضائي بقدرتِهِ ، وأقدرَني وأرادَ إرادتي ، فكيفَ أعجبُ بعملي أوْ بنفسي ولا قوامَ لنفسي بنفسي ؟!

وإذا أحسَّ في نفسِهِ بالكبرِ . . قرَّرَ علىٰ نفسِهِ ما فيهِ مِنَ الحماقةِ ، ويقولُ لها : لِمَ ترينَ نفسَكِ أكبرَ والكبيرُ مَنْ هوَ عندَ اللهِ كبيرٌ ؟ وذلكَ ينكشفُ بعدَ الموتِ ، وكمْ مِنْ كافرٍ في الحالِ يموتُ مقرَّباً إلى اللهِ تعالىٰ بنزوعِهِ عنِ الكفرِ ، وكمْ مِنْ مسلمٍ يموتُ شقيّاً بتغيُّرِ حالِهِ عندَ الموتِ بسوءِ الخاتمةِ ! فإذا عرفَ أنَّ الكبرَ مهلكٌ ، وأنَّ أصلَهُ الحماقةُ . . فيتفكَّرُ في علاجِ إزالةِ ذلكَ ؛ بأنْ يتعاطىٰ أفعالَ المتواضعينَ .

وإذا وجدَ في نفسِهِ شهوةَ الطعامِ وشرهَهُ . . تفكَّرَ في أنَّ هـٰذهِ صفةُ البهائمِ ، ولوْ كانَ في شهوةِ الطعامِ والوقاعِ كمالٌ . . لكانَ ذلكَ مِنْ صفاتِ اللهِ تعالىٰ وصفاتِ الملائكةِ ؛ كالعلمِ والقدرةِ ، ولما اتصفَ بهِ البهائمُ ، ومهما كانَ الشرهُ عليهِ أغلبَ . . كانَ بالبهائمِ أشبهَ ، وعنِ الملائكةِ المقرَّبينَ أبعدَ .

وكذلكَ يقرِّرُ علىٰ نفسِهِ في الغضبِ ، ثمَّ يتفكَّرُ في طريقِ العلاجِ ، وكلُّ

ذلكَ ذكرناهُ في هٰذهِ الكتبِ ، فمَنْ يريدُ أنْ يتسعَ لهُ طريقُ الفكرِ . . فلا بدَّ لهُ مِنْ تحصيلِ ما في هٰذهِ الكتبِ .

❀ ❀ ❀

وأمَّا النوعُ الرابعُ ، وهوَ المنجياتُ :

فهوَ التوبةُ ، والندمُ على الذنوبِ ، والصبرُ على البلاءِ ، والشكرُ على النعماءِ ، والخوفُ والرجاءُ ، والزهدُ في الدنيا ، والإخلاصُ والصدقُ في الطاعاتِ ، ومحبةُ اللهِ تعالىٰ وتعظيمُهُ ، والرضا بأفعالِهِ ، والشوقُ إليهِ ، والخشوعُ والتواضعُ لهُ وكلُّ ذلكَ ذكرناهُ في هٰذا الربعِ ، وذكرنا أسبابَهُ وعلاماتِهِ : فليتفكَّرِ العبدُ كلَّ يومٍ في قلبِهِ ما الذي يعوزُهُ مِنْ هٰذهِ الصفاتِ التي هيَ المقرِّبةُ إلى اللهِ تعالى ؟ فإذا افتقرَ إلىٰ شيءٍ منها . . فليعلمْ أنَّها أحوالٌ لا يثمرُها إلا علومٌ ، وأنَّ العلومَ لا يثمرُها إلا أفكارٌ .

فإذا أرادَ أنْ يكتسبَ لنفسِهِ حالَ التوبةِ والندمِ . . فليفتِّشْ ذنوبَهُ أوَّلاً ، وليتفكَّرْ فيها ، وليجمعْها علىٰ نفسِهِ ، وليعظمْها في قلبِهِ ، ثمَّ لينظرْ في الوعيدِ والتشديدِ الذي وردَ في الشرعِ فيها ، وليتحقَّقْ عندَ نفسِهِ أنَّهُ متعرِّضٌ لمقتِ اللهِ تعالىٰ ؛ حتىٰ ينبعثَ لهُ حالُ الندمِ .

وإذا أرادَ أنْ يستثيرَ مِنْ قلبِهِ حالَ الشكرِ . . فلينظرْ في إحسانِ اللهِ تعالىٰ إليهِ ، وأياديهِ عليهِ ، وفي إرسالِهِ جميلَ سترِهِ عليهِ ، علىٰ ما شرحنا بعضَهُ في كتابِ الشكرِ ، فليطالعْ ذلكَ .

وإذا أرادَ حالَ المحبَّةِ والشوقِ . . فليتفكَّرْ في جلالِ اللهِ تعالىٰ وجمالِهِ ، وعظمتِهِ وكبريائِهِ ، وذلكَ بالنظرِ في عجائبِ حكمتِهِ وبدائعِ صنعِهِ ، كما سنشيرُ إلىٰ طرفٍ يسيرٍ منهُ في القسمِ الثاني مِنَ الفكرِ .

وإذا أرادَ حالَ الخوفِ . . فلينظرْ أوّلاً في ذنوبِهِ الظاهرةِ والباطنةِ ، ثمَّ لينظرْ في الموتِ وسكراتِهِ ، ثمَّ فيما بعدَهُ مِنْ سؤالِ منكرٍ ونكيرٍ ، وعذابِ القبرِ ، وحيَّاتِهِ وعقاربِهِ وديدانِهِ ، ثمَّ في هولِ النداءِ عندَ نفخةِ الصورِ ، ثمَّ في هولِ المحشرِ عندَ جمعِ الخلائقِ علىٰ صعيدٍ واحدٍ ، ثمَّ في المناقشةِ في الحسابِ ، والمضايقةِ في النقيرِ والقطميرِ ، ثمَّ في الصراطِ ودقتِهِ وحدَّتِهِ ، ثمَّ في خطرِ الأمرِ عندَهُ أنَّهُ يُصرفُ إلى الشمالِ فيكونُ مِنْ أصحابِ النارِ ، أوْ يُصرفُ إلى اليمينِ فينزلُ دارَ القرارِ ، ثمَّ ليحضِرْ بعدَ أهوالِ القيامةِ في قلبِهِ صورةَ جهنَّمَ ودركاتِها ، ومقامعِها وأهوالِها ، وسلاسلِها وأغلالِها ، وزقُّومِها وصديدِها ، وأنواعِ العذابِ فيها ، وقبْحِ صورةِ الزبانيةِ الموكَّلينَ بها ، وأنَّهُمْ كلَّما نضجَتْ جلودُهُمْ بُدِّلَتْ جلوداً غيرَها ، وأنَّهُمْ كلَّما أرادوا أنْ يخرجوا منها . . أُعيدوا فيها ، وأنَّهم إذا رأَوْها مِنْ مكانٍ بعيدٍ . . سمعوا لها تغيُّظاً وزفيراً ، وهلُمَّ جرّاً إلىٰ جميعِ ما وردَ في القرآنِ مِنْ شرحِها .

وإذا أرادَ أنْ يستجلبَ حالَ الرجاءِ . . فلينظرْ إلى الجنَّةِ ونعيمِها ، وأشجارِها وأنهارِها ، وحورِها وولدانِها ، ونعيمِها المقيمِ ، وملكِها الدائمِ .

فهكذا طريقُ الفكرِ الذي تُطلبُ بهِ العلومُ التي تثمرُ اجتلابَ أحوالٍ محبوبةٍ ، أوِ التنزُّهَ عنْ صفاتٍ مذمومةٍ ، وقدْ ذكرنا في كلِّ واحدةٍ مِنْ هـٰذهِ الأحوالِ كتاباً مفرداً يُستعانُ بهِ علىٰ تفصيلِ الفكرِ .

أمَّا بذكرِ مجامعِهِ . . فلا يُوجدُ فيهِ أنفعُ منْ قراءَةِ ٱلْقرآنِ بالتفكُّرِ ، فإنَّهُ جامعٌ لجميعِ المقاماتِ والأحوالِ ، وفيهِ شفاءٌ للعالمينَ ، وفيهِ ما يورثُ الخوفَ والرجاءَ ، والصبرَ والشكرَ ، والمحبةَ والشوقَ ، وسائرَ الأحوالِ ، وفيهِ ما يزجرُ عنْ سائرِ الصفاتِ المذمومةِ ، فينبغي أنْ يقرأَهُ العبدُ ويردِّدَ الآيةَ التي هوَ محتاجٌ إلى التفكُّرِ فيها مرَّةً بعدَ أخرىٰ ، ولوْ مئةَ مرَّةٍ[1] ، فقراءةُ آيةٍ بتفكُّرٍ وفهمٍ خيرٌ مِنْ ختمةٍ بغيرِ تدبُّرٍ وفهمٍ ، وليتوقَّفْ في التأمُّلِ فيها ولوْ ليلةً واحدةً ، فإنَّ تحتَ كلِّ كلمةٍ منها أسراراً لا تنحصرُ ، ولا يُوقفُ عليها إلا بدقيقِ الفكرِ عنْ صفاءِ القلبِ بعدَ صدقِ المعاملةِ .

وكذلكَ مطالعةُ أخبارِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فإنَّهُ قد أُوتيَ جوامعَ الكلمِ ، وكلُّ كلمةٍ مِنْ كلماتِهِ بحرٌ مِنْ بحورِ الحكمةِ ، لوْ تأمَّلَها العالمُ حقَّ التأمُّلِ . . لمْ ينقطعْ فيها نظرُهُ طولَ عمرِهِ .

وشرحُ آحادِ الآياتِ والأخبارِ يطولُ ، فانظرْ إلىٰ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ روحَ القدسِ نفثَ في رُوعي : أحببْ مَنْ أحببتَ فإنَّكَ

---

(١) حتىٰ يعثر علىٰ مقصوده منها ، ومتىٰ دام العبد علىٰ ذلك . . طهُر قلبه وغزر علمه . « إتحاف » (١٠/ ١٧٥) .

مفارقُهُ ، وعِشْ ما شئتَ فإنَّكَ ميتٌ ، واعملْ ما شئتَ فإنَّكَ مجزيٌّ بهِ »[1] ، فإنَّ هـٰذهِ الكلماتِ جامعةٌ حكمَ الأولينَ والآخرينَ ، وهيَ كافيةٌ للمتأمِّلينَ فيها طولَ العمرِ ، إذْ لوْ وقفوا علىٰ معانيها ، وغلبَتْ علىٰ قلوبِهِمْ غلبةَ يقينٍ . . لاستغرقَتْهُمْ ، ولحالَ ذلكَ بينَهُمْ وبينَ التلفُّتِ إلى الدنيا بالكليَّةِ .

فهـٰذا هوَ طريقُ الفكرِ في علومِ المعاملةِ وصفاتِ العبدِ مِنْ حيثُ هيَ محبوبةٌ عندَ اللهِ تعالىٰ أوْ مكروهةٌ ، والمبتدئُ ينبغي أنْ يكونَ مستغرقَ الوقتِ في هـٰذهِ الأفكارِ ؛ حتىٰ يعمرَ قلبَهُ بالأخلاقِ المحمودةِ والمقاماتِ الشريفةِ ، وينزِّهَ باطنَهُ وظاهرَهُ عنِ المكارهِ .

وليعلمْ أنَّ هـٰذا معَ أنَّهُ أفضلُ مِنْ سائرِ العباداتِ فليسَ هوَ لهُ غايةَ المطلبِ ، بلِ المشغولُ بهِ محجوبٌ عنْ مطلبِ الصدِّيقينَ ، وهوَ التنعُّمُ بالفكرِ في جلالِ اللهِ تعالىٰ وجمالِهِ ، واستغراقِ القلبِ بحيثُ يفنىٰ عنْ نفسِهِ ؛ أيْ : ينسىٰ نفسَهُ وأحوالَهُ ، ومقاماتِهِ وصفاتِهِ ، فيكونُ مستغرقَ الهمِّ بالمحبوبِ ، كالعاشقِ المستهترِ عندَ لقاءِ الحبيبِ ؛ فإنَّهُ لا يتفرَّغُ للنظرِ في أحوالِ نفسِهِ وأوصافِها ، بلْ يبقىٰ كالمبهوتِ الغافلِ عنْ نفسِهِ ، وهوَ منتهىٰ لذَّةِ العشَّاقِ .

فأمَّا ما ذكرناهُ . . فهوَ تفكُّرٌ في عمارةِ الباطنِ ليصلحَ للقرْبِ والوصالِ ، فإذا ضيَّعَ جميعَ عمرِهِ في إصلاحِ نفسِهِ . . فمتىٰ يتنعَّمُ بالقرْبِ ؟!

---

(1) روىٰ لفظ : « إن روح القدس نفث في روعي » عبد الرزاق في « المصنف » (١١/١٢٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١٠/٢٦) ، وتتمة الحديث رواها أبو نعيم في « الحلية » (٣/٢٠٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٥٨) .

ولذلكَ كانَ الخوَّاصُ يدورُ في البوادي ، فلقيَهُ الحسينُ بنُ منصورٍ ، وقالَ : فيمَ أنتَ ؟ قالَ : أدورُ في البوادي أصحِّحُ حالي في التوكُّلِ ، فقالَ الحسينُ : أفنيتَ عمرَكَ في عمرانِ باطنِكَ ، فأينَ الفناءُ في التوحيدِ ؟![1] .

فالفناءُ في الواحدِ الحقِّ هوَ غايةُ مقصدِ الطالبينَ ، ومنتهىٰ نعيمِ الصدِّيقينَ ، وأمَّا التنزُّهُ عنِ الصفاتِ المهلكاتِ . . فيجري مجرى الخروجِ عنِ العدَّةِ في النكاحِ ، وأمَّا الاتصافُ بالصفاتِ المنجياتِ وسائرِ الطاعاتِ . . فيجري مجرىٰ تهيئةِ المرأةِ جهازَها ، وتنظيفِها وجهَها ، ومشطِها شعرَها ؛ لتصلحَ بذلكَ للقاءِ زوجِها ، فإنِ استغرقَتْ جميعَ عمرِها في تبرئةِ الرحمِ وتزيينِ الوجهِ . . كانَ ذلكَ حجاباً لها عنْ لقاءِ المحبوبِ .

فهكذا ينبغي أنْ تفهمَ طريقَ الدينِ إنْ كنتَ مِنْ أهلِ المجالسةِ .

وإنْ كنتَ كالعبدِ السوءِ ، لا يتحرَّكُ إلا خوفاً مِنَ الضربِ ، وطمعاً في الأجرةِ . . فدونَكَ وإتعابَ البدنِ بالأعمالِ الظاهرةِ ، فإنَّ بينَكَ وبينَ القلبِ حجاباً كثيفاً ، فإذا قضيتَ حقَّ الأعمالِ . . كنتَ مِنْ أهلِ الجنةِ ، ولكنْ للمجالسةِ أقوامٌ آخرونَ[2] .

وإذا عرفتَ مجالَ الفكرِ في علومِ المعاملةِ التي بينَ العبدِ وبينَ ربِّهِ . . فينبغي أنْ تتخذَ ذلكَ عادتَكَ وديدنَكَ صباحاً ومساءً ، فلا تغفُلُ عنْ نفسِكَ ،

---

(١) رواه القشيري في « الرسالة » (ص ٢٩٧) .

(٢) في (ب) زيادة : (وهو معنىٰ قوله : ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾) .

وعنْ صفاتِكَ المبعدةِ مِنَ اللهِ تعالىٰ ، وأحوالِكَ المقرِّبةِ إليهِ سبحانَهُ وتعالىٰ ، بلْ كلُّ مريدٍ فينبغي أنْ يكونَ لهُ جريدةٌ يثبتُ فيها جملةَ الصفاتِ المهلكاتِ ، وجملةَ الصفاتِ المنجياتِ ، وجملةَ المعاصي والطاعاتِ ، ويعرضُ نفسَهُ عليها كلَّ يومٍ .

ويكفيهِ مِنَ المهلكاتِ النظرُ في عشرةٍ ، فإنَّهُ إنْ سلمَ منها.. سلمَ مِنْ غيرِها ؛ وهيَ البخلُ ، والكبرُ ، والعجبُ ، والرياءُ ، والحسدُ ، وشدَّةُ الغضبِ ، وشرهُ الطعامِ ، وشرهُ الوقاعِ ، وحبُّ المالِ ، وحبُّ الجاهِ .

ومِنَ المنجياتِ عشرةٌ ؛ الندمُ على الذنوبِ ، والصبرُ على البلاءِ ، والرضا بالقضاءِ ، والشكرُ على النعماءِ ، واعتدالُ الخوفِ والرجاءِ ، والزهدُ في الدنيا ، والإخلاصُ في الأعمالِ ، وحسنُ الخُلُقِ معَ الخلْقِ ، وحبُّ اللهِ تعالىٰ ، والخشوعُ لهُ .

فهـٰذهِ عشرونَ خصلةً ، عشرةٌ مذمومةٌ ، وعشرةٌ محمودةٌ ، فمهما كُفِيَ مِنَ المذموماتِ واحدةً.. فيخطُّ عليها في جريدتِهِ ، ويدعُ الفكرَ فيها ، ويشكرُ اللهَ تعالىٰ علىٰ كفايتِهِ إيَّاها ، وتنزيهِهِ قلبَهُ عنها ، ويعلمُ أنَّ ذلكَ لمْ يتمَّ إلا بتوفيقِ اللهِ تعالىٰ وعونِهِ ، ولوْ وكلَهُ إلىٰ نفسِهِ.. لمْ يقدرْ علىٰ محوِ أقلِّ الرذائلِ عنْ نفسِهِ ، فيقبلُ على التسعةِ الباقيةِ ، وهـٰكذا يفعلُ حتىٰ يخطَّ على الجميعِ ، وكذا يطالبُ نفسَهُ بالاتصافِ بالمنجياتِ ، فإذا اتصفَ بواحدةٍ منها ؛ كالتوبةِ والندمِ مثلاً.. خطَّ عليها ، واشتغلَ بالباقي ، وهـٰذا يحتاجُ إليهِ المريدُ المشمِّرُ .

وأمَّا أكثرُ الناسِ مِنَ المعدودينَ مِنَ الصالحينَ . . فينبغي أنْ يثبتوا في جرائِدِهِمُ المعاصيَ الظاهرةَ ؛ كأكلِ الشبهةِ ، وإطلاقِ اللسانِ بالغيبةِ والنميمةِ والمراءِ والثناءِ على النفسِ ، والإفراطِ في معاداةِ الأعداءِ وموالاةِ الأولياءِ ، والمداهنةِ معَ الخلقِ في تركِ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ ، فإنَّ أكثرَ مَنْ يعدُّ نفسَهُ مِنْ وجوهِ الصالحينَ لا ينفكُّ عنْ جملةٍ مِنْ هـٰذهِ المعاصي في جوارحِهِ .

وما لمْ تطهرِ الجوارحُ عنِ الآثامِ . . لا يمكنُ الاشتغالُ بعمارةِ القلبِ وتطهيرِهِ ، بلْ كلُّ فريقٍ مِنَ الناسِ يغلبُ عليهِمْ نوعٌ مِنَ المعصيةِ ، فينبغي أنْ يكونَ تفقُّدُهُمْ لها وتفكُّرُهُمْ فيها لا في معاصٍ هُمْ بمعزلٍ عنها .

مثالُهُ : العالمُ الورعُ ، فإنَّهُ لا يخلو في غالبِ الأمرِ عنْ إظهارِ نفسِهِ بالعلمِ وطلبِ الشهرةِ ، وانتشارِ الصيتِ ؛ إمَّا بالتدريسِ أوْ بالوعظِ ، ومَنْ فعلَ ذلكَ . . تصدَّىٰ لفتنةٍ عظيمةٍ ، لا ينجو منها إلا الصدِّيقونَ ، فإنَّهُ إنْ كانَ كلامُهُ مقبولاً حسنَ الوقْعِ في القلوبِ . . لمْ ينفكَّ عنِ الإعجابِ والخيلاءِ ، والتزيُّنِ والتصنُّعِ ، وذلكَ مِنَ المهلكاتِ ، وإنْ رُدَّ كلامُهُ . . لمْ يخلُ عنْ أنفةٍ وغيظٍ وحقدٍ علىٰ مَنْ يردُّهُ وهوَ أكثرُ مِنْ غيظِهِ علىٰ مَنْ يردُّ كلامَ غيرِهِ ، وقدْ يلبِّسُ الشيطانُ عليهِ ويقولُ : إنَّ غيظَكَ مِنْ حيثُ إنَّهُ ردَّ الحقَّ وأنكرَهُ ، فإنْ وجدَ تفرقةً بينَ أنْ يُردَّ عليهِ كلامُهُ أوْ يُردَّ علىٰ عالمٍ آخرَ . . فهوَ مغرورٌ وضُحْكةٌ للشيطانِ .

ثمَّ مهما كانَ لهُ ارتياحٌ بالقبولِ ، وفرحٌ بالثناءِ ، واستنكافٌ مِنَ الردِّ

أوِ الإعراضِ . . لمْ يخلُ عنْ تكلُّفٍ وتصنُّعٍ لتحسينِ اللفظِ والإيرادِ ؛ حرصاً على استجلابِ الثناءِ ، واللهُ لا يحبُّ المتكلِّفينَ ، والشيطانُ قدْ يلبِّسُ عليهِ ويقولُ : إنَّما حرصُكَ علىٰ تحسينِ الألفاظِ والتكلُّفِ فيها لينتشرَ الحقُّ ، ويحسُنَ موقعُهُ في القلبِ إعلاءً لدينِ اللهِ تعالىٰ ، فإنْ كانَ فرحُهُ بحسنِ ألفاظِهِ وثناءِ الناسِ عليهِ أكثرَ مِنْ فرحِهِ بثناءِ الناسِ علىٰ واحدٍ مِنْ أقرانِهِ . . فهوَ مخدوعٌ ، وإنَّما يدندنُ حولَ طلبِ الجاهِ ، وهوَ يظنُّ أنَّ مطلبَهُ الدينُ .

ومهما اختلجَ ضميرُهُ بهـٰذهِ الصفاتِ . . ظهرَ علىٰ ظاهرِهِ ذلكَ ، حتىٰ يكونَ للموقِّرِ لهُ المعتقدِ لفضلِهِ أكثرَ احتراماً ، ويكونَ بلقائِهِ أشدَّ فرحاً واستبشاراً ممَّنْ يغلو في موالاةِ غيرِهِ ، وإنْ كانَ ذلكَ الغيرُ مستحقاً للموالاةِ ، وربما ينتهي الأمرُ بأهلِ العلمِ إلىٰ أنْ يتغايروا تغايرَ النساءِ ، فيشقُّ علىٰ أحدِهِمْ أنْ يختلفَ بعضُ تلامذتِهِ إلىٰ غيرِهِ ، وإنْ كانَ يعلمُ أنَّهُ منتفعٌ بغيرِهِ ومستفيدٌ منهُ في دينِهِ !

وكلُّ هـٰذا رشحُ الصفاتِ المهلكاتِ المستكنَّةِ في سرِّ القلبِ ، التي قدْ يظنُّ العالمُ النجاةَ منها وهوَ مغرورٌ فيها ، وإنَّما ينكشفُ ذلكَ بهـٰذهِ العلاماتِ ، ففتنةُ العالمِ عظيمةٌ ، وهوَ إمَّا مالكٌ وإمَّا هالكٌ ، ولا مطمعَ لهُ في سلامةِ العوامِّ[1] ، فمَنْ أحسَّ في نفسِهِ بهـٰذهِ الصفاتِ . . فالواجبُ عليهِ الانفرادُ والعزلةُ وطلبُ الخمولِ ، والمدافعةُ للفتاوىٰ مهما سُئِلَ ، فقدْ كانَ

---

(١) فإن العوام قد يعذرون ، بخلاف العالم . « إتحاف » (١٠/١٧٨) .

المسجدُ يحوي في زمنِ الصحابةِ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُمْ جمعاً مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، كلُّهُمْ مفتونَ ، وكانوا يتدافعونَ الفتوىٰ ، وكلُّ مَنْ كانَ يفتي كانَ يودُّ أنْ يكفيَهُ غيرُهُ[1] .

وعندَ هٰذا ينبغي أنْ يتقيَ شياطينَ الإنسِ إذا قالوا : لا تفعلْ هٰذا ؛ فإنَّ هٰذا البابَ لوْ فُتحَ . . لاندرسَتِ العلومُ مِنْ بينِ الخلقِ ، وليقلْ لهُمْ : إنَّ دينَ الإسلامِ مستغنٍ عنِّي ؛ فإنَّهُ قدْ كانَ معموراً قبلي ، وكذلكَ يكونُ بعدي ، ولوْ متُّ . . لمْ تنهدمْ أركانُ الإسلامِ ، فإنَّ الدينَ مستغنٍ عنِّي ، وأنا لستُ بمستغنٍ عنْ إصلاحِ قلبي ، وأمَّا أداءُ ذلكَ إلى اندراسِ العلمِ . . فخيالٌ يدلُّ علىٰ غايةِ الجهلِ ، فإنَّ الناسَ لوْ حُبسوا في السجنِ ، وقُيِّدوا بالقيودِ ، وتُوعِّدوا بالنارِ علىٰ طلبِ العلمِ . . لكانَ حبُّ العلوِّ والرئاسةِ يحملُهُمْ علىٰ

---

(1) فقد روى ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٦/ ٨٧) ـ عن تدافع الصحابة للفتوىٰ ـ عن عبد الرحمٰن بن أبي ليلىٰ قال : (أدركت عشرين ومئة من الأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يُسأل أحدهم عن المسألة فيردها هٰذا إلىٰ هٰذا ، وهٰذا إلىٰ هٰذا ، حتىٰ ترجع إلى الأول) .
وروىٰ مسلم عن أبي المنهال أنه قال : سألت البراء بن عازب عن الصرف فقال : سل زيد بن أرقم ؛ فهو أعلم ، فسألت زيداً فقال : سل البراء ؛ فإنه أعلم ، ثم قالا : نهىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيع الورق بالذهب ديناً .
وروى ابن سعد في « الطبقات » (٨/ ٢٣٠) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٦/ ٨٦) ـ عن تمنّي أحدهم لو يكفيه الآخر الفتيا ـ عن عبد الرحمٰن بن أبي ليلىٰ قال : (لقد أدركت في هٰذا المسجد عشرين ومئة من الأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما أحد منهم يحدث حديثاً إلا ودّ أن أخاه كفاه الحديث ، ولا يُسأل عن فتيا إلا ودّ أن أخاه كفاه الفتيا) .

كسرِ القيودِ ، وهدمِ حيطانِ الحصونِ والخروجِ منها ، والاشتغالِ بطلبِ العلمِ ، فالعلمُ لا يندرسُ ما دامَ الشيطانُ يحبِّبُ إلى الخلقِ الرئاسةَ ، والشيطانُ لا يفترُ عنْ عملِهِ إلىٰ يومِ القيامةِ ، بلْ ينتهضُ لنشرِ العلمِ أقوامٌ لا نصيبَ لهُمْ في الآخرةِ ؛ كما قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ يؤيِّدُ هٰذا الدينَ بأقوامٍ لا خلاقَ لهُمْ »[١] ، « وإنَّ اللهَ ليؤيِّدُ هٰذا الدينَ بالرجلِ الفاجرِ »[٢] ، فلا ينبغي أنْ يغترَّ العالمُ بهٰذهِ التلبيساتِ فيشتغلَ بمخالطةِ الخلقِ ، حتىٰ يتربَّىٰ في قلبِهِ حبُّ الجاهِ والثناءِ والتعظيمِ ؛ فإنَّ ذلكَ بذرُ النفاقِ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حبُّ الجاهِ والمالِ ينبتُ النفاقَ في القلبِ كما ينبتُ الماءُ البقلَ »[٣] ، وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما ذئبانِ ضاريانِ أرسلا في زريبةِ غنمٍ بأكثرَ إفساداً فيها مِنْ حبِّ الجاهِ والمالِ في دينِ المرءِ المسلمِ »[٤] .

ولا ينقلعُ حبُّ الجاهِ مِنَ القلبِ إلا بالاعتزالِ عنِ الناسِ ، والهربِ مِنْ مخالطتِهِمْ ، وتركِ كلِّ ما يزيدُ جاهَهُ في قلوبِهِمْ ، فليكنْ فكرُ العالمِ في التفطُّنِ لخفايا هٰذهِ الصفاتِ مِنْ قلبِهِ ، وفي استنباطِ طريقِ الخلاصِ منها ، وهٰذهِ وظيفةُ العالمِ المتقي .

---

(١) رواه النسائي في « السنن الكبرىٰ » (٨٨٣٣) .

(٢) رواه البخاري (٣٠٦٢) ، ومسلم (١١١) .

(٣) قال الحافظ العراقي : (لم أجده بهٰذا اللفظ) . « إتحاف » (٨/ ١٤٤) .

(٤) رواه الترمذي (٢٣٧٦) عن كعب بن مالك رضي الله عنه ، والطبراني في « الأوسط » (٦٢٧٥) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه كلاهما مرفوعاً .

فأمَّا أمثالُنا . . فينبغي أنْ يكونَ تفكُّرُنا فيما يقوي إيمانَنا بيومِ الحسابِ ؛ إذْ لوْ رآنا السلفُ الصالحونَ . . لقالوا قطعاً : إنَّ هؤلاءِ لا يؤمنونَ بيومِ الحسابِ ، فما أعمالُنا أعمالَ مَنْ يؤمنُ بالجنةِ والنارِ ، فإنَّ مَنْ خافَ شيئاً . . هربَ منهُ ، ومَنْ رجا شيئاً . . طلبَهُ ، وقدْ علمنا أنَّ الهربَ مِنَ النارِ بتركِ الشبهاتِ والحرامِ وبتركِ المعاصي ونحنُ منهمكونَ فيها ، وأنَّ طلبَ الجنةِ بتكثيرِ نوافلِ الطاعاتِ ونحنُ مقصرونَ في الفرائضِ منها ، فلمْ يحصلْ لنا مِنْ ثمرةِ العلمِ إلا أنَّهُ يُقتدىٰ بنا في الحرصِ على الدنيا والتكالبِ عليها ، ويُقالُ : لوْ كانَ هـٰذا مذموماً . . لكانَ العلماءُ أحقَّ وأولىٰ باجتنابِهِ منَّا ، فليتَنا كنَّا كالعوامِّ ؛ إذا متنا . . ماتَتْ معنا ذنوبُنا ، فما أعظمَ الفتنةَ التي تعرَّضْنا لها لوْ تفكَّرنا ! فنسألُ اللهَ تعالىٰ أنْ يصلحَنا ويصلحَ بنا ، ويوفِّقَنا للتوبةِ قبلَ أنْ يتوفَّانا ؛ إنَّهُ الكريمُ اللطيفُ بنا ، المنعمُ علينا .

فهـٰذهِ مجاري أفكارِ العلماءِ والصالحينَ في علمِ المعاملةِ ، فإنْ فرغوا منها . . انقطعَ التفاتُهُمْ عنْ أنفسِهِمْ ، وارتقوا منها إلى التفكُّرِ في جلالِ اللهِ وعظمتِهِ ، والتنعُّمِ بمشاهدتِهِ بعينِ القلبِ ، ولا يتمُّ ذلكَ إلا بعدَ الانفكاكِ مِنْ جميعِ المهلكاتِ ، والاتصافِ بجميعِ المنجياتِ ، وإنْ ظهرَ شيءٌ منهُ قبلَ ذلكَ . . كانَ مدخولاً معلولاً ، مكدّراً مقطوعاً ، وكانَ ضعيفاً كالبرقِ الخاطفِ ، لا يثبتُ ولا يدومُ ، ويكونُ كالعاشقِ الذي خلا بمعشوقِهِ ، ولكنْ تحتَ ثيابِهِ حيَّاتٌ وعقاربُ تلدغُهُ مرَّةً بعدَ أخرىٰ ، فتنغِّصُ عليهِ لذةَ المشاهدةِ ، ولا طريقَ لهُ في إكمالِ التنعُّمِ إلا بإخراجِ العقاربِ والحيَّاتِ مِنْ

ثيابِهِ ، وهـٰذهِ الصفاتُ المذمومةُ عقاربُ وحيَّاتٌ ، وهيَ مؤذياتٌ ومشوشاتٌ ، وفي القبرِ يزيدُ أَلمُ لدغِها علىٰ لدغِ العقاربِ والحيَّاتِ ، فهـٰذا القدْرُ كافٍ في التنبيه علىٰ مجاري فكرِ العبدِ في صفاتِ نفسِهِ المحبوبةِ والمكروهةِ عندَ ربِّهِ تعالىٰ .

❊ ❊ ❊

القسمُ الثاني : الفكرُ في جلالِ اللهِ وعظمتِهِ وكبريائِهِ ، وفيهِ مقامانِ :

المقامُ الأعلىٰ : الفكرُ في ذاتِهِ وصفاتِهِ ومعاني أسمائِهِ : وهـٰذا ممَّا مُنِعَ منهُ ، حيثُ قيلَ : « تفكَّروا في خلقِ اللهِ تعالىٰ ولا تتفكَّروا في ذاتِ اللهِ »[1] ، وذلكَ لأنَّ العقولَ تتحيَّرُ فيهِ ، فلا يطيقُ مدَّ البصرِ إليهِ إلا الصدِّيقونَ ، ثمَّ لا يطيقونَ دوامَ النظرِ ، بلْ سائرُ الخلقِ أحوالُ أبصارِهِمْ بالإضافةِ إلىٰ جلالِ اللهِ تعالىٰ كحالِ بصرِ الخُفَّاشِ بالإضافةِ إلىٰ نورِ الشمسِ ، فإنَّهُ لا يطيقُهُ أَلبتةَ ، بلْ يختفي نهاراً ، وإنَّما يتردَّدُ ليلاً لينظرَ في بقيةِ نورِ الشمسِ إذا وقعَ على الأرضِ ، وأحوالُ الصدِّيقينَ كحالِ الإنسانِ في النظرِ إلى الشمسِ ، فإنَّهُ يقدرُ على النظرِ إليها ولا يطيقُ دوامَهُ ، ويُخشىٰ

---

(١) رواه الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٦٩٣) ، وأبو الشيخ في « العظمة » (٢) ، والبيهقي في « الأسماء والصفات » (ص ٢٧١ ، ٣٨٩) عن ابن عباس رضي الله عنهما ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/٦٦) عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه ، والبيهقي في « الشعب » (١١٩) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، كلهم مرفوعاً .

علىٰ بصرِهِ لوْ أدامَ النظرَ ، ونظرُهُ المختطفُ إليها يورثُ العمشَ ويفرِّقُ البصرَ ، وكذلكَ النظرُ إلىٰ ذاتِ اللهِ تعالىٰ يورثُ الحيرةَ والدَّهَشَ واضطرابَ العقلِ ، فالصوابُ إذاً ألا يُتعرَّضَ لمجاري الفكرِ في ذاتِ اللهِ سبحانَهُ وصفاتِهِ ، فإنَّ أكثرَ العقولِ لا تحتملُهُ .

بلِ القدْرُ اليسيرُ الذي صرَّحَ بهِ بعضُ العلماءِ ، وهوَ أنَّ اللهَ تعالىٰ مقدَّسٌ عنِ المكانِ ، ومنزَّهٌ عنِ الأقطارِ والجهاتِ ، وأنَّهُ ليسَ داخلَ العالمِ ولا خارجَهُ ، ولا هوَ متصلٌ بالعالمِ ولا هوَ منفصلٌ عنهُ ، قدْ حيَّرَ عقولَ أقوامٍ حتىٰ أنكروهُ إذْ لمْ يطيقوا سماعَهُ ومعرفتَهُ ، بلْ ضعفَتْ طائفةٌ عنِ احتمالِ أقلَّ مِنْ هـٰذا ؛ إذْ قيلَ لهُمْ : إنَّهُ يتعاظمُ ويتعالىٰ عنْ أنْ يكونَ لهُ رأسٌ ورجْلٌ ويدٌ وعينٌ وعضوٌ ، وأنْ يكونَ جسماً مشخصاً لهُ مقدارٌ وحجمٌ ، فأنكروا هـٰذا ، وظنُّوا أنَّ ذلكَ قدْحٌ في عظمةِ اللهِ وجلالِهِ ، حتىٰ قالَ بعضُ الحمقىٰ مِنَ العوامِّ : إنَّ هـٰذا وصفُ بطيخٍ هنديٍّ لا وصفُ الإلـٰهِ ؛ لظنِّ المسكينِ أنَّ الجلالةَ والعظمةَ في هـٰذهِ الأعضاءِ ، وهـٰذا لأنَّ الإنسانَ لا يعرفُ إلا نفسَهُ ، فلا يستعظمُ إلا نفسَهُ ، فكلُّ ما لا يساويهِ في صفاتِهِ . . فلا يفهمُ العظمةَ فيهِ !

نعمْ ، غايتُهُ أنْ يقدِّرَ نفسَهُ جميلَ الصورةِ ، جالساً علىٰ سريرٍ ، وبينَ يديهِ غلمانٌ يمتثلونَ أمرَهُ ، فلا جرمَ غايتُهُ أنْ يقدِّرَ ذلكَ في حقِّ اللهِ تعالىٰ وتقدَّسَ حتَّىٰ يفهمَ العظمةَ ، بلْ لوْ كانَ للذبابِ عقلٌ وقيلَ لهُ : ليسَ لخالِقِكَ جناحانِ ، ولا يدٌ ولا رجْلٌ ، ولا لهُ طيرانٌ . . لأنكرَ ذلكَ وقالَ : كيفَ يكونُ خالقي أنقصَ منِّي ؟! أفيكونُ مقصوصَ الجناحِ ؟! أوَيكونُ زمناً

لا يقدرُ على الطيرانِ ؟! أوَيكونُ لي آلةٌ وقدرةٌ لا يكونُ لهُ مثلُها وهوَ خالقي ومصوِّري ؟!

وعقولُ أكثرِ الخلقِ قريبٌ مِنْ هـٰذا العقلِ ، وإنَّ الإنسانَ لجهولٌ ظلومٌ كفَّارٌ ، ولذلكَ أوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ بعضِ أنبيائِهِ : (لا تخبرْ عبادي بصفاتي فينكروني ، ولكنْ أخبرْهُمْ عنِّي بما يفهمونَ)[1] .

❋ ❋ ❋

ولمَّا كانَ النظرُ في ذاتِ اللهِ تعالىٰ وصفاتِهِ مخطراً مِنْ هـٰذا الوجهِ . . اقتضىٰ أدبُ الشرعِ وصلاحُ الخلقِ ألا يُتعرَّضَ لمجاري الفكرِ فيهِ ، لكنَّا نعدلُ إلى **المقامِ الثاني ، وهوَ النظرُ في أفعالِهِ ، ومجاري قدرِهِ ، وعجائبِ صنعِهِ وبدائعِ أمرِهِ في خلقِهِ** ، فإنَّها تدلُّ علىٰ جلالِهِ وكبريائِهِ ، وتقدُّسِهِ وتعاليهِ ، وتدلُّ علىٰ كمالِ علمِهِ وحكمتِهِ ، وعلىٰ نفاذِ مشيئتِهِ وقدرتِهِ ، فينظرُ إلىٰ صفاتِهِ مِنْ آثارِ صفاتِهِ ؛ فإنَّا لا نطيقُ النظرَ إلىٰ صفاتِهِ ؛ كما أنَّا لا نطيقُ النظرَ إلى الشمسِ ، فننظرُ إلى الأرضِ مهما استنارَتْ بنورِ الشمسِ ، ونستدلُّ بذلكَ علىٰ عظمِ نورِ الشمسِ بالإضافةِ إلىٰ نورِ القمرِ وسائرِ الكواكبِ ؛ لأنَّ نورَ الأرضِ مِنْ آثارِ نورِ الشمسِ ، والنظرُ في الأثرِ يدلُّ على المؤثِّرِ دلالةً ما ، وإنْ كانَ لا يقومُ مقامَ النظرِ في نفسِ المؤثِّرِ ، وجميعُ

---

(١) وقد بوَّب إمام المحدثين البخاري في « صحيحه » لهـٰذا المعنىٰ حيث قال : (باب من خَصَّ بالعلم قوماً دون قوم كراهية ألا يفهموا) ، وعلَّق قول سيدنا علي رضي الله عنه : (حدِّثوا الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يكذب الله ورسوله) .

موجوداتِ الدنيا أثرٌ مِنْ آثارِ قدرةِ اللهِ تعالىٰ ، ونورٌ مِنْ أنوارِ ذاتِهِ ، بلْ لا ظلمةَ أشدُّ مِنَ العدمِ ، ولا نورَ أظهرُ مِنَ الوجودِ ، ووجودُ الأشياءِ كلِّها نورٌ مِنْ أنوارِ ذاتِهِ تعالىٰ وتقدَّسَ ؛ إذْ قوامُ وجودِ الأشياءِ بذاتِهِ القيُّومِ بنفسِهِ ، كما أنَّ قوامَ نورِ الأجسامِ بنورِ الشمسِ المضيئةِ بنفسِها ، ومهما انكشفَ بعضُ الشمسِ . . فقدْ جرَتِ العادةُ بأنْ يُوضعَ طستُ ماءٍ حتىٰ تُرى الشمسُ فيهِ ، ويمكنُ النظرُ إليها ، فيكونُ الماءُ واسطةً يغضُّ قليلاً مِنْ نورِ الشمسِ حتىٰ يُطاقَ النظرُ إليها ؛ فكذلكَ الأفعالُ واسطةٌ نشاهدُ فيها صفاتِ الفاعلِ ولا يبهرُنا نورُ الذاتِ بعدَ أنْ تباعدنا عنها بواسطةِ الأفعالِ ، فهـٰذا سرُّ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تفكَّروا في خلقِ اللهِ ، ولا تتفكَّروا في ذاتِ اللهِ تعالىٰ » .

* * *

بيان كيفية التفكّر في خلق الله تعالى

اعلمْ : أنَّ كلَّ ما في الوجودِ ممَّا سوى اللهِ تعالىٰ فهوَ فعلُ اللهِ وخلقُهُ ، وكلُّ ذرَّةٍ مِنَ الذرَّاتِ ؛ مِنْ جوهرٍ وعرضٍ ، وصفةٍ وموصوفٍ . . ففيها عجائبُ وغرائبُ تظهرُ بها حكمةُ اللهِ وقدرتُهُ ، وجلالُهُ وعظمتُهُ ، وإحصاءُ ذلكَ غيرُ ممكنٍ ؛ لأنَّهُ لوْ كانَ البحرُ مداداً لذلكَ . . لنفدَ البحرُ قبلَ أنْ ينفدَ عُشْرُ عَشِيرِهِ ، ولكنَّا نشيرُ إلىٰ جملٍ منهُ ؛ ليكونَ ذلكَ كالمثالِ لما عداهُ ، فنقولُ : الموجوداتُ المخلوقةُ منقسمةٌ :

إلىٰ ما لا يُعرفُ أصلُها ، فلا يمكنُنا التفكُّرُ فيها ، وكمْ مِنَ الموجوداتِ التي لا نعلمُها ؛ كما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ، ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

وإلىٰ ما يُعرفُ أصلُها وجملتُها ولا يُعرفُ تفصيلُها فيمكنُنا أنْ نتفكَّرَ في تفصيلِها ، وهيَ منقسمةٌ إلىٰ ما أدركناهُ بحسِّ البصرِ ، وإلىٰ ما لا ندركُهُ بالبصرِ .

أمَّا الذي لا ندركُهُ بالبصرِ . . فكالملائكةِ ، والجنِّ ، والشياطينِ ، والعرشِ ، والكرسيِّ ، وغيرِ ذلكَ ، ومجالُ الفكرِ في هٰذهِ الأشياءِ ممَّا يضيقُ ويغمضُ ، فلنعدلْ إلى الأقربِ إلى الأفهامِ ، وهيَ المدركاتُ بحسِّ

البصرِ ، وتلكَ هيَ السماواتُ السبعُ والأرضُ وما بينَهُما .

فالسماواتُ مشاهدةٌ بكواكبِها ، وشمسِها وقمرِها ، وحركتِها ودورانِها في طلوعِها وغروبِها ، والأرضُ مشاهدةٌ بما فيها مِنْ جبالِها ومعادنِها ، وأنهارِها وبحارِها ، وحيوانِها ونباتِها ، وما بينَ السماءِ والأرضِ وهوَ الجوُّ مدركٌ بغيومِها ، وأمطارِها وثلوجِها ، ورعدِها وبرقِها ، وصواعقِها وشهْبِها وعواصفِ رياحِها ، فهـٰذهِ هيَ الأجناسُ المشاهدةُ مِنَ السماواتِ والأرضِ وما بينَهما ، وكلُّ جنسٍ منها ينقسمُ إلىٰ أنواعٍ ، وكلُّ نوعٍ ينقسمُ إلىٰ أقسامٍ ، ويتشعَّبُ كلُّ قسمٍ إلىٰ أصنافٍ ، ولا نهايةَ لانشعابِ ذلكَ وانقسامِهِ في اختلافِ صفاتِهِ وهيئاتِهِ ومعانيهِ الظاهرةِ والباطنةِ ، وجميعُ ذلكَ مجالُ الفكرِ ، فلا تتحرَّكُ ذرَّةٌ في السماواتِ والأرضِ ؛ مِنْ جمادٍ ونباتٍ وحيوانٍ ، وفلكٍ وكوكبٍ . . إلا واللهُ تعالىٰ هوَ محرِّكُها ، وفي حركتِها حكمةٌ أوْ حكمتانِ ، أوْ عشرٌ ، أوْ ألفُ حكمةٍ ، كلُّ ذلكَ شاهدٌ للهِ تعالىٰ بالوحدانيةِ ، ودالٌّ علىٰ جلالِهِ وكبريائِهِ ، وهيَ الآياتُ الدالَّةُ عليهِ .

وقدْ وردَ القرآنُ بالحثِّ على التفكُّرِ في هـٰذهِ الآياتِ ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ ، وكما قالَ تعالىٰ : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ ، مِنْ أوَّلِ القرآنِ إلىٰ آخرِهِ ، فلنذكرْ كيفيةَ الفكرِ في بعضِ الآياتِ .

* * *

فمِنْ آياتِهِ : الإنسانُ المخلوقُ مِنَ النطفةِ ، وأقربُ شيءٍ إليكَ نفسُكَ ، وفيكَ مِنَ العجائبِ الدالَّةِ علىٰ عظمةِ اللهِ تعالىٰ ما تنقضي الأعمارُ في الوقوفِ علىٰ عُشْرِ عَشِيرِهِ ، وأنتَ غافلٌ عنهُ ، فيا مَنْ هوَ غافلٌ عنْ نفسِهِ وجاهلٌ بها ؛ كيفَ تطمعُ في معرفةِ غيركَ ؟ وقدْ أمرَكَ اللهُ تعالىٰ بالتدبُّرِ في نفسِكَ في كتابِهِ العزيزِ فقالَ : ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ .

وذكرَ أنَّكَ مخلوقٌ مِنْ نطفةٍ قذرةٍ فقالَ : ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۞ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۞ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۞ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۞ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۞ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ۞ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۞ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ .

وقالَ تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ .

وقالَ : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ ﴾ .

ثم ذكرَ كيفَ جعلَ النطفةَ علقةً ، والعلقةَ مضغةً ، والمضغةَ عظاماً فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۞ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۞ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً . . . ﴾ الآية .

فتكريرُ ذكرِ النطفةِ في الكتابِ العزيزِ ليسَ ليُسمعَ لفظُهُ ويُترك التفكُّرُ في معناهُ ، فانظرِ الآنَ إلى النطفةِ وهيَ قطرةٌ مِنَ الماءِ قذرةٌ ، لوْ تُركَتْ ساعةً ليضربها الهواءُ . . فسدَتْ وأنتنَتْ ، كيفَ أخرجَها ربُّ الأربابِ مِنَ الصلبِ والترائبِ ، وكيفَ جمعَ بينَ الذكرِ والأنثىٰ ، وألقى الألفةَ والمحبَّةَ في قلوبِهِمْ ، وكيفَ قادَهُمْ بسلسلةِ المحبةِ والشهوةِ إلى الاجتماعِ ، وكيفَ استخرجَ النطفةَ مِنَ الرجلِ بحركةِ الوقاعِ ، وكيفَ استجلبَ دمَ الحيضِ مِنْ أعماقِ العروقِ وجمعَهُ في الرحمِ ، ثمَّ كيفَ خلقَ المولودَ مِنَ النطفةِ ، وسقاهُ بماءِ الحيضِ ، وغذَّاهُ حتىٰ نما وربا وكبرَ ، وكيفَ جعلَ النطفةَ وهيَ بيضاءُ مشرقةٌ علقةً حمراءَ ، ثمَّ كيفَ جعلَها مضغةً ، ثمَّ كيفَ قسمَ أجزاءَ النطفةِ وهيَ متشابهةٌ متساويةٌ إلى العظامِ ، والأعصابِ ، والعروقِ ، والأوتارِ ، واللحمِ ، ثمَّ كيفَ ركَّبَ مِنَ اللحومِ والأعصابِ والعروقِ الأعضاءَ الظاهرةَ ، فدوَّرَ الرأسَ ، وشقَّ السمعَ والبصرَ والأنفَ والفمَ وسائرَ المنافذِ ، ثمَّ مدَّ اليدَ والرجْلَ ، وقسمَ رؤوسَها بالأصابعِ ، وقسمَ الأصابعَ بالأناملِ ، ثمَّ كيفَ ركَّبَ الأعضاءَ الباطنةَ مِنَ القلبِ ، والمعدةِ ، والكبدِ ، والطحالِ ، والرئةِ ، والرحمِ ، والمثانةِ ، والأمعاءِ ، كلٌّ واحدٍ علىٰ شكلٍ مخصوصٍ ، ومقدارٍ مخصوصٍ ، لعملٍ مخصوصٍ ، ثمَّ كيفَ قسمَ كلَّ عضوٍ مِنْ هـٰذهِ الأعضاءِ بأقسامٍ أخرَ ، فركَّبَ العينَ مِنْ سبعِ طبقاتٍ ؛ لكلِّ طبقةٍ وصْفٌ مخصوصٌ وهيئةٌ مخصوصةٌ ، لوْ فُقدَتْ طبقةٌ منها ، أوْ زالَتْ صفةٌ مِنْ صفاتِها . . تعطَّلَتِ العينُ عنِ الإبصارِ !

فلوْ ذهبنا نصفُ ما في آحادِ هٰذهِ الأعضاءِ مِنَ العجائبِ والآياتِ. . لانقضىٰ فيهِ الأعمارُ ، فانظرِ الآنَ إلى العظامِ وهيَ أجسامٌ قويَّةٌ صلبةٌ كيفَ خلقَها مِنْ نطفةٍ سخيفةٍ رقيقةٍ ، ثمَّ جعلَها قواماً للبدنِ وعماداً لهُ ، ثمَّ قدَّرَها بمقاديرَ مختلفةٍ وأشكالٍ مختلفةٍ ؛ فمنهُ صغيرٌ وكبيرٌ ، وطويلٌ ومستديرٌ ، ومجوَّفٌ ومصمتٌ ، وعريضٌ ودقيقٌ .

ولمَّا كانَ الإنسانُ محتاجاً إلى الحركةِ بجملةِ بدنِهِ وببعضِ أعضائِهِ مفتقراً للتردُّدِ في حاجاتِهِ . . لمْ يجعلْ عظمَهُ عظماً واحداً ، بلْ عظاماً كثيرةً بينَها مفاصلُ ؛ حتىٰ تتيسَّرَ بها الحركةُ ، وقدَّرَ شكلَ كلٍّ واحدٍ منها علىٰ وَفْقِ الحركةِ المطلوبةِ بها ، ثمَّ وصلَ مفاصلَها ، وربطَ بعضَها بالبعضِ بأوتارٍ أنبتَها مِنْ أحدِ طرفيِ العظمِ ، وألصقَهُ بالطرفِ الآخرِ كالرباطِ لهُ ، ثمَّ خلقَ في أحدِ طرفيِ العظمِ زوائدَ خارجةً منهُ ، وفي الآخرِ حفراً غائصةً فيهِ موافقةً لشكلِ الزوائدِ ؛ لتدخلَ فيها وتنطبقَ عليها ، فصارَ العبدُ إنْ أرادَ تحريكَ جزءٍ مِنْ بدنِهِ . . لمْ يمتنعْ عليهِ ، ولولا المفاصلُ . . لتعذَّرَ عليهِ ذلكَ .

ثمَّ انظرْ كيفَ خلقَ عظامَ الرأسِ ، وكيفَ جمعَها وركَّبَها ، وقدْ ركَّبَها مِنْ خمسةٍ وخمسينَ عظماً مختلفةَ الأشكالِ والصورِ ، فألَّفَ بعضَها إلىٰ بعضٍ بحيث استوتْ بهِ كرةُ الرأسِ كما تراهُ ؛ فمنها ستةٌ تخصُّ القحْفَ ، وأربعةَ عشرَ للَّحيِ الأعلىٰ ، واثنانِ للَّحيِ الأسفلِ ، والبقيةُ هيَ الأسنانُ ، بعضُها عريضةٌ تصلحُ للطحنِ ، وبعضُها حادَّةٌ تصلحُ للقطعِ ، وهيَ الأنيابُ والأضراسُ والثنايا .

ثمَّ جعلَ الرقبةَ مركباً للرأسِ ، وركَّبَها مِنْ سبعِ خرزاتٍ مجوَّفاتٍ مستديراتٍ ، فيها تحريفاتٌ وزياداتٌ ونقصاناتٌ[1] ؛ لينطبقَ بعضُها علىٰ بعضٍ ، ويطولُ ذكرُ وجهِ الحكمةِ فيها .

ثمَّ ركَّبَ الرقبةَ على الظهرِ ، وركَّبَ الظهرَ مِنْ أسفلِ الرقبةِ إلىٰ منتهىٰ عظمِ العجزِ مِنْ أربعٍ وعشرينَ خرزةً ، وركَّبَ عظمَ العجزِ مِنْ ثلاثةِ أجزاءٍ مختلفةٍ ، ويتصلُ بهِ مِنْ أسفلِهِ عظْمُ العُصْعُصِ ، وهوَ أيضاً مؤلَّفٌ مِنْ ثلاثةِ أجزاءٍ ، ثمَّ وصلَ عظامَ الظهرِ بعظامِ الصدرِ ، وعظامِ الكتفِ ، وعظامِ اليدينِ ، وعظامِ العانةِ ، وعظامِ العجزِ ، ثمَّ رتَّبَ عظامَ الفخذينِ والساقينِ وأصابعِ الرجلينِ ، فلا نطوِّلُ بذكرِ عددِ ذلكَ .

ومجموعُ عددِ العظامِ في بدنِ الإنسانِ مئتا عظمٍ وثمانيةٌ وأربعونَ عظماً ، سوى العظامِ الصغيرةِ التي حُشِيَ بها خللُ المفاصلِ ، فانظرْ كيفَ خلقَ جميعَ ذلكَ مِنْ نطفةٍ سخيفةٍ رقيقةٍ .

وليسَ المقصودُ مِنْ ذكرِ أعدادِ العظامِ أنْ نعرفَ عددَها ؛ فإنَّ هٰذا علمٌ قريبٌ يعرفُهُ الأطباءُ والمشرِّحونَ ، وإنَّما الغرضُ أنْ ننظرَ منها في مدبِّرِها وخالقِها أنَّهُ كيفَ قدَّرَها ودبَّرَها ، وخالفَ بينَ أشكالِها وأقدارِها ، وخصَّصَها بهٰذا العددِ المخصوصِ ؛ لأنَّهُ لوْ زادَ عليها واحداً . . لكانَ وبالاً على الإنسانِ يحتاجُ إلىٰ قلعِهِ ، ولوْ نقصَ منها واحداً . . لكانَ نقصاناً يحتاجُ

(١) في (أ ، ب) : (تجويفات) بدل (تحريفات) .

إلىٰ جبرِهِ ، فالطبيبُ ينظرُ فيها ليعرفَ وجهَ العلاجِ في جبرِها ، وأهلُ البصائرِ ينظرونَ فيها ليستدلُّوا بها علىٰ جلالةِ خالقِها ومصوِّرِها ، فشتانَ بينَ النظرينِ .

ثمَّ انظرْ كيفَ خلقَ اللهُ تعالىٰ آلاتٍ لتحريكِ العظامِ ، وهيَ العضلاتُ ، فخلقَ في بدنِ الإنسانِ خمسَ مئةِ عضلةٍ وتسعاً وعشرينَ عضلةً ، والعضلةُ هيَ المركبةُ مِنْ لحمٍ وعصبٍ ، ورُبُطٍ وأغشيةٍ ، وهيَ مختلفةُ المقاديرِ والأشكالِ بحسَبِ اختلافِ مواضعِها وقدرِ حاجاتِها ، فأربعٌ وعشرونَ عضلةً منها هيَ لتحريكِ حدقةِ العينِ وأجفانِها ، لوْ نقصَتْ واحدةٌ مِنْ جملتِها . . اختلَّ أمرُ العينِ ، وهـٰكذا لكلِّ عضوٍ عضلاتٌ بعددٍ مخصوصٍ وقدْرٍ مخصوصٍ .

وأمرُ الأعصابِ والعروقِ والأوردةِ والشرايينِ ، وعددِها ومنابتِها وانشعاباتِها . . أعجبُ مِنْ هـٰذا كلِّهِ ، وشرحُهُ يطولُ ، فللتفكُّرِ مجالٌ في آحادِ هـٰذهِ الأجزاءِ ، ثمَّ في آحادِ هـٰذهِ الأعضاءِ ، ثمَّ في جملةِ البدنِ .

فكلُّ ذلكَ نظرٌ إلىٰ عجائبِ أجسامِ البدنِ ، وعجائبُ المعاني والصفاتِ التي لا تُدركُ بالحواسِّ أعظمُ ، فانظرِ الآنَ إلىٰ ظاهرِ الإنسانِ وباطنِهِ ، وإلىٰ بدنِهِ وصفاتِهِ ، فترىٰ فيهِ مِنَ العجائبِ والصنعةِ ما يُقضىٰ بهِ العجبُ ، وكلُّ ذلكَ صنعُ اللهِ عزَّ وجلَّ في قطرةِ ماءٍ قذرةٍ ، فترىٰ مَنْ هـٰذا صنعُهُ في قطرةِ ماءٍ . . فما صنعُهُ في ملكوتِ السماواتِ وكواكبِها ؟ وما حكمتُهُ في أوضاعِها وأشكالِها ، ومقاديرِها وأعدادِها ، واجتماعِ بعضِها وتفرُّقِ بعضِها ، واختلافِ صورِها وتفاوتِ مشارقِها ومغاربِها ؟

فلا تظنَّنَّ أنَّ ذرَّةً مِنْ ملكوتِ السماواتِ تنفكُّ عنْ حكمةٍ وحكمٍ ، بلْ هي أحكمُ خلقاً ، وأتقنُ صنعاً ، وأجمعُ للعجائبِ مِنْ بدنِ الإنسانِ ، بلْ لا نسبةَ لجميعِ ما في الأرضِ إلىٰ عجائبِ السماواتِ ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ۞ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۞ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴾ .

فارجعِ الآنَ إلى النطفةِ وتأمَّلْ حالَها أوَّلاً ، وما صارَتْ إليهِ ثانياً ، وتأمَّلْ أنَّهُ لوِ اجتمعَ الجنُّ والإنسُ علىٰ أنْ يخلقوا للنطفةِ سمعاً أوْ بصراً أوْ عقلاً أوْ قدرةً أوْ علماً أوْ روحاً ، أو يخلقوا فيها عظماً أوْ عرقاً أوْ عصباً أوْ جلداً أوْ شعراً . . هلْ يقدرونَ علىٰ ذلكَ ؟! بلْ لوْ أرادوا أنْ يعرفوا كُنْهَ حقيقتِهِ ، وكيفيَّةَ خلقتِهِ بعدَ أنْ خلقَ اللهُ تعالىٰ ذلكَ . . لعجزوا عنهُ .

فالعجبُ منكَ ! لوْ نظرتَ إلىٰ صورةِ إنسانٍ مصوَّرٍ علىٰ حائطٍ تأنَّقَ النقَّاشُ في تصويرِها حتَّىٰ قرُبَ ذلكَ مِنْ صورةِ الإنسانِ ، وقالَ الناظرُ إليها : كأنَّهُ إنسانٌ . . عظُمَ تعجُّبُكَ من صنعةِ النقَّاشِ وحذقِهِ ، وخفَّةِ يدِهِ ، وتمامِ فطنتِهِ ، وعظُمَ في قلبِكَ محلُّهُ ، معَ أنَّكَ تعلمُ أنَّ تلكَ الصورةَ إنَّما تمَّتْ بالصبغِ والقلمِ وبالحائطِ وباليدِ وبالقدرةِ وبالعلمِ وبالإرادةِ ، وشيءٌ مِنْ ذلكَ ليسَ مِنْ فعلِ النقَّاشِ ولا خلقِهِ ، بلْ هوَ مِنْ خلقِ غيرِهِ ، وإنَّما منتهىٰ فعلِهِ الجمعُ بينَ الصبغِ والحائطِ علىٰ ترتيبٍ مخصوصٍ ، فيكثرُ تعجُّبُكَ منهُ وتستعظمُهُ وأنتَ ترى النطفةَ القذرةَ كانَتْ معدومةً ، فخلقَها خالقُها في الأصلابِ والترائبِ ، ثمَّ أخرجَها منها وشكَّلَها فأحسنَ تشكيلَها ، وقدَّرَها فأحسنَ تقديرَها ، وصوَّرَها فأحسنَ تصويرَها ، وقسَّمَ أجزاءَها المتشابهةَ إلىٰ

أجزاءٍ مختلفةٍ ، فأحكمَ العظامَ في أرجائِها ، وحسَّنَ أشكالَ أعضائِها ، وزيَّنَ ظاهرَها وباطنَها ، ورتَّبَ عروقَها وأعصابَها ، وجعلَها مجرىً لغذائِها ؛ ليكونَ ذلكَ سببَ بقائِها ، وجعلَها سميعةً بصيرةً ، عالمةً ناطقةً ، فخلقَ لها الظهرَ أساساً لبدنِها ، والبطنَ حاوياً لآلاتِ غذائِها ، والرأسَ جامعاً لحواسِّها .

ففتحَ العينينِ ورتَّبَ طبقاتِها ، وأحسنَ شكلَها ولونَها وهيئاتِها ، ثمَّ حماها بالأجفانِ لتسترَها ، وتحفظَها وتصقلَها ، وتدفعَ الأقذاءَ عنها ، ثمَّ أظهرَ في مقدارِ عدسةٍ منها صورةَ السماواتِ معَ اتساعِ أكنافِها وتباعدِ أقطارِها ، فهوَ ينظرُ إليها .

ثمَّ شقَّ أذنيهِ وأودعَهُما ماءً مرّاً ليحفظَ سمعَها ، ويدفعَ الهوامَّ عنها ، وحوَّطَها بصدفةِ الأذنِ لتجمعَ الصوتَ فتردَّهُ إلىٰ صماخِها ، ولتحسَّ بدبيبِ الهوامِّ إليها ، وجعلَ فيها تحريفاتٍ واعوجاجاتٍ لتكثرَ حركةُ ما يدبُّ فيها(١) ، ويطولَ طريقُهُ ، فيتنبَّهَ عنِ النومِ صاحبُها إذا قصدَها دابَّةٌ في حالِ النومِ .

ثمَّ رفعَ الأنفَ مِنْ وسطِ الوجهِ ، وأحسنَ شكلَهُ ، وفتحَ منخريهِ ، وأودعَ فيهِ حاسَّةَ الشمِّ ليستدلَّ باستنشاقِ الروائحِ علىٰ مطاعمِهِ وأغذيتِهِ ، وليستنشقَ بمنفذِ المنخرينِ روحَ الهواءِ غذاءً لقلبِهِ ، وترويحاً لحرارةِ باطنِهِ .

---

(١) في غير (ص) : (تجويفات) بدل (تحريفات) .

وفتحَ الفمَ وأودعَهُ اللسانَ ناطقاً وترجماناً ومعرباً عمَّا في القلبِ ، وزيَّنَ الفمَ بالأسنانِ ، ولتكونَ آلةً للطحنِ والكسرِ والقطعِ ، فأحكمَ أصولَها ، وحدَّدَ رؤوسَها ، وبيَّضَ لونَها ، ورتَّبَ صفوفَها ، متساويةَ الرؤوسِ ، متناسقةَ الترتيبِ كأنَّها الدرُّ المنظومُ .

وخلقَ الشفتينِ وحسَّنَ لونَها وشكلَها ؛ لتنطبقَ على الفمِ فتسدَّ منفذَهُ ، وليتمَّ بها حروفُ الكلامِ .

وخلقَ الحنجرةَ وهيَّأَها لخروجِ الأصواتِ ، وخلقَ للسانِ قدرةَ الحركاتِ والتقطيعاتِ ، لتُقطِّعَ الصوتَ في مخارجَ مختلفةٍ تختلفُ بها الحروفُ ؛ ليتسعَ بها طريقُ النطقِ بكثرتِها .

ثمَّ خلقَ الحناجرَ مختلفةَ الأشكالِ في الضيقِ والسعةِ ، والخشونةِ والملاسةِ ، وصلابةِ الجوهرِ ورخاوتِهِ ، والطولِ والقصرِ ، حتى اختلفَتْ بسببِها الأصواتُ ، فلا يتشابهُ صوتانِ ، بلْ يظهرُ بينَ كلِّ صوتينِ فُرقانٌ ، حتىٰ يميزَ السامعُ بعضَ الناسِ عنْ بعضٍ بمجرَّدِ الصوتِ في الظلمةِ .

ثمَّ زيَّنَ الرأسَ بالشعورِ والأصداغِ ، وزيَّنَ الوجهَ باللحيةِ والحاجبينِ ، وزيَّنَ الحاجبَ برقَّةِ الشعرِ واستقواسِ الشكلِ ، وزيَّنَ العينينِ بالأهدابِ .

ثمَّ خلقَ الأعضاءَ الباطنةَ ، وسخَّرَ كلَّ واحدٍ لفعلٍ مخصوصٍ ، فسخَّرَ المعدةَ لنضجِ الغذاءِ ، والكبدَ لإحالةِ الغذاءِ إلى الدمِ ، والطحالَ والمرارةَ والكليةَ لخدمةِ الكبدِ ، فالطحالُ يخدمُها بجذبِ السوداءِ عنها ، والمرارةُ

تخدمُها بجذبِ الصفراءِ عنها ، والكليةُ تخدمُها بجذبِ المائيةِ عنها ، والمثانةُ تخدمُ الكليةَ بقبولِ الماءِ عنها ، ثمَّ تخرجُهُ في طريقِ الإحليلِ ، والعروقُ تخدمُ الكبدَ في إيصالِ الدمِ إلىٰ سائرِ أطرافِ البدنِ .

ثمَّ خلقَ اليدينِ وطوَّلَهما لتمتدَّ إلى المقاصدِ ، وعرَّضَ الكفَّ ، وقسَّمَ الأصابعَ الخمسَ ، وقسَّمَ كلَّ إصبعٍ بثلاثِ أناملَ ، ووضعَ الأربعةَ في جانبٍ والإبهامَ في جانبٍ ؛ لتدورَ الإبهامُ على الجميعِ ، ولوِ اجتمعَ الأوَّلونَ والآخرونَ علىٰ أنْ يستنبطوا بدقيقِ الفكرِ وجهاً آخرَ في وضعِ الأصابعِ سوىٰ ما وُضعَتْ عليهِ مِنْ بعدِ الإبهامِ عنِ الأربعةِ ، وتفاوتِ الأربعةِ في الطولِ ، وترتيبِها في صفٍّ واحدٍ . . لمْ يقدروا عليهِ ؛ إذْ بهـٰذا الترتيبِ صلحَتِ اليدُ للقبضِ والإعطاءِ ، فإنْ بسطَها . . كانَتْ لهُ طبقاً يضعُ عليها ما يريدُ ، وإنْ جمعَها . . كانَتْ لهُ آلةً للضربِ ، وإنْ ضمَّها ضمّاً غيرَ تامٍّ . . كانَتْ مغرفةً لهُ ، وإنْ بسطَها وضمَّ أصابعَها . . كانَتْ مجرفةً لهُ ، ثمَّ خلقَ الأظفارَ علىٰ رؤوسِها زينةً للأناملِ ، وعماداً لها مِنْ ورائِها حتىٰ لا تنقطعَ ، وليلتقطَ بها الأشياءَ الدقيقةَ التي لا تتناولُها الأناملُ ، وليحكَّ بها بدنَهُ عندَ الحاجةِ ، فالظفرُ الذي هوَ أخسُّ الأعضاءِ لوْ عدمَهُ الإنسانُ وظهرَ بهِ حكَّةٌ . . لكانَ أعجزَ الخلقِ وأضعفَهُمْ ، ولمْ يقمْ أحدٌ مقامَهُ في حكِّ بدنِهِ ، ثم هدى اليدَ إلىٰ موضعِ الحكِّ ؛ حتىٰ تمتدُّ إليهِ ولوْ في النومِ والغفلةِ مِنْ غيرِ حاجةٍ إلىٰ طلبٍ ، ولوِ استعانَ بغيرِهِ . . لمْ يعثرْ علىٰ موضعِ الحكِّ إلا بعدَ تعبٍ طويلٍ .

ثمَّ خلقَ هـٰذا كلَّهُ مِنَ النطفةِ ، وهيَ في داخلِ الرحمِ في ظلماتٍ ثلاثٍ ،

ولوْ كُشفَ الغطاءُ والغشاءُ ، وامتدَّ البصرُ إليهِ . . لكانَ يرى التخطيطَ والتصويرَ يظهرُ عليها شيئاً فشيئاً ، ولا يرى المصوِّرَ ولا آلتَهُ ، فهلْ رأيتَ مصوِّراً أو فاعلاً لا يمسُّ آلتَهُ ومصنوعَهُ ولا يلاقيهِ وهوَ يتصرَّفُ فيهِ ؟! فسبحانَهُ ما أعظمَ شانَهُ وأظهرَ برهانَهُ !

ثمَّ انظرْ معَ كمالِ قدرتِهِ إلىٰ تمامِ رحمتِهِ ، فإنَّهُ لما ضاقَ الرحمُ عنِ الصبيِّ لمَّا كبرَ كيفَ هداهُ السبيلَ حتىٰ تنكَّسَ وتحرَّكَ ، وخرجَ مِنْ ذلكَ المضيقِ ، وطلبَ المنفذَ كأنَّهُ عاقلٌ بصيرٌ بما يحتاجُ إليهِ .

ثمَّ لمَّا خرجَ واحتاجَ إلى الغذاءِ كيفَ هداهُ إلى التقامِ الثدي ، ثمَّ لمَّا كانَ بدنُهُ سخيفاً لا يحتملُ الأغذيةَ الكثيفةَ كيفَ دبَّرَ لهُ في خلقِ اللبنِ اللطيفِ ، واستخرجَهُ مِنْ بينِ الفرثِ والدمِ سائغاً خالصاً ، وكيفَ خلقَ الثديينِ وجمعَ فيهما اللبنَ ، وأنبتَ منهما حَلَمتينِ علىٰ قدْرِ ما ينطبقُ عليهِ فمُ الصبيِّ ، ثمَّ فتحَ في حَلَمةِ الثدي ثقباً ضيِّقاً جداً حتىٰ لا يخرجَ اللبنُ منهُ إلا بعدَ المصِّ تدريجاً ، فإنَّ الطفلَ لا يطيقُ منهُ إلا القليلَ ، ثمَّ كيفَ هداهُ للامتصاصِ حتىٰ يستخرجَ مِنْ ذلكَ المضيقِ اللبنَ الكثيرَ عندَ شدَّةِ الجوعِ .

ثمَّ انظرْ إلىٰ عطفِهِ ورحمتِهِ ورأفتِهِ كيفَ أخَّرَ خلْقَ الأسنانِ إلىٰ تمامِ الحولينِ ؛ لأنَّهُ في الحولينِ لا يتغذَّىٰ إلا باللبنِ ، فيستغني عنِ السنِّ ، وإذا كبرَ . . لمْ يوافقْهُ اللبنُ السخيفُ ، ويحتاجُ إلىٰ طعامٍ غليظٍ ، ويحتاجُ الطعامُ إلى المضغِ والطحنِ ، فأنبتَ لهُ الأسنانَ عندَ الحاجةِ ، لا قبلَها ولا بعدَها ، فسبحانَهُ كيفَ أخرجَ تلكَ العظامَ الصلبةَ في تلكَ اللِّثَاتِ اللينةِ !

ثمَّ حنَّنَ قلوبَ الوالدينِ عليهِ للقيامِ بتدبيرِهِ في الوقتِ الذي كانَ عاجزاً عنْ تدبيرِ نفسِهِ ، فلوْ لمْ يسلِّطِ اللهُ تعالى الرحمةَ على قلوبِهما . . لكانَ الطفلُ أعجزَ الخلقِ عنْ تدبيرِ نفسِهِ .

ثمَّ انظرْ كيفَ رزقَهُ القدرةَ والتمييزَ والعقلَ والهدايةَ تدريجاً حتى بلغَ وتكاملَ ؛ فصارَ مراهقاً ، ثمَّ شاباً ، ثمَّ كهلاً ، ثمَّ شيخاً ، إمَّا كفوراً أوْ شكوراً ، مطيعاً أوْ عاصياً ، مؤمناً أو كافراً ؛ تصديقاً لقولِهِ تعالى : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ .

فانظرْ إلى اللطفِ والكرمِ ، ثمَّ إلى القدرةِ والحكمةِ . . تبهرْكَ عجائبُ الحضرةِ الربانيةِ .

فالعجبُ كلُّ العجبِ ممَّنْ يرى خطّاً حسناً أوْ نقشاً حسناً على حائطٍ فيستحسنُهُ ، فينصرفُ جميعُ همِّهِ إلى التفكُّرِ في النقَّاشِ والخطَّاطِ ، وأنَّهُ كيفَ نقشَهُ وخطَّهُ ، وكيفَ اقتدرَ عليهِ ، ولا يزالُ يستعظمُهُ في نفسِهِ ويقولُ : ما أحذقَهُ ! وما أكملَ صنعتَهُ وأحسنَ قدرتَهُ ! ثمَّ ينظرُ إلى هٰذهِ العجائبِ في نفسِهِ وفي غيرِهِ ، ثمَّ يغفُلُ عنْ صانعِهِ ومصوِّرِهِ ، فلا تدهشُهُ عظمتُهُ ، ولا يحيِّرُهُ جلالُهُ وحكمتُهُ !

فهٰذهِ نبذةٌ مِنْ عجائبِ بدنِكَ التي لا يمكنُ استقصاؤُها ، فهوَ أقربُ مجالٍ لفكرِكَ ، وأجلى شاهدٍ على عظمةِ خالقِكَ ، وأنتَ غافلٌ عنْ ذلكَ ،

مشغولٌ ببطنِكَ وفرجِكَ ، لا تعرفُ مِنْ نفسِكَ إلا أنْ تجوعَ فتأكلَ ، وتشبعَ فتنامَ ، وتشتهيَ فتجامعَ ، وتغضبَ فتقاتلَ ، والبهائمُ كلُّها تشاركُكَ في معرفةِ ذلكَ ، وإنَّما خاصِّيَّةُ الإنسانِ التي حُجبَتِ البهائمُ عنها معرفةُ اللهِ تعالىٰ بالنظرِ في ملكوتِ السماواتِ والأرضِ ، وعجائبِ الآفاقِ والأنفسِ ؛ إذْ بها يدخلُ العبدُ في زمرةِ الملائكةِ المقرَّبينَ ، ويُحشرُ في زمرةِ النبيِّينَ والصدِّيقينَ مقرَّباً مِنْ حضرةِ ربِّ العالمينَ ، وليسَتْ هٰذهِ المنزلةُ للبهائمِ ، ولا لإنسانٍ رضيَ مِنَ الدنيا بشهواتِ البهائمِ ، فإنَّهُ شرٌّ مِنَ البهيمةِ بكثيرٍ ؛ إذْ لا قدرةَ للبهيمةِ علىٰ ذلكَ ، وأمَّا هوَ . . فقدْ خلقَ اللهُ لهُ القدرةَ ، ثمَّ عطَّلَها ، وكفرَ نعمةَ اللهِ فيها ، فأولئكَ كالأنعامِ بلْ هُمْ أضلُّ سبيلاً .

وإذا عرفتَ طريقَ الفكرِ في نفسِكَ . . فتفكَّرْ في الأرضِ التي هيَ مقرُّكَ ، ثمَّ في أنهارِها وبحارِها ، وجبالِها ومعادنِها ، ثمَّ ارتفعْ منها إلىٰ ملكوتِ السماواتِ .

* * *

أمَّا الأرضُ . . فمِنْ آياتِهِ : أنْ خلقَ الأرضَ فراشاً ومهاداً ، وسلكَ فيها سبلاً فجاجاً ، وجعلَها ذلولاً لتمشوا في مناكبِها ، وجعلَها قارَّةً لا تتحرَّكُ ، وأرسىٰ فيها الجبالَ أوتاداً لها تمنعُها مِنْ أنْ تميدَ ، ثمَّ وسَّعَ أكنافَها حتىٰ عجزَ الآدميونَ عنْ بلوغِ جميعِ جوانبِها وإنْ طالَتْ أعمارُهُمْ وكثُرَ تطوافُهُمْ ، فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴾ ،

وقالَ تعالىٰ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا ﴾ .

وقدْ أكثرَ في كتابِهِ العزيزِ مِنْ ذكرِ الأرضِ ليُتفكَّرَ في عجائبِها ، فظهرُها مقرٌّ للأحياءِ ، وبطنُها مرقدٌ للأمواتِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴾ .

فانظرْ إلى الأرضِ وهيَ ميتةٌ ، فإذا أنزلَ عليها الماءَ اهتزَّتْ وربَتْ ، واخضرَّتْ وأنبتَتْ عجائبَ النباتِ ، وخرجَتْ منها أصنافُ الحيواناتِ .

ثمَّ انظرْ كيفَ أحكمَ جوانبَ الأرضِ بالجبالِ الراسياتِ ، الشوامخِ الصمِّ الصلابِ ، وكيفَ أودعَ المياهَ تحتَها ، ففجَّرَ العيونَ ، وأسالَ الأنهارَ تجري علىٰ وجهِها ، وأخرجَ مِنَ الحجارةِ اليابسةِ ومِنَ الترابِ الكدرِ ماءً رقيقاً ، عذباً صافياً زلالاً ، وجعلَ بهِ كلَّ شيءٍ حيٍّ ، فأخرجَ بهِ فنونَ الأشجارِ والنباتِ ؛ مِنْ حبٍّ ، وعنبٍ وقضْبٍ ، وزيتونٍ ونخلٍ ورمانٍ وفواكهَ كثيرةٍ لا تُحصىٰ ، مختلفةَ الأشكالِ والألوانِ ، والطعومِ والصفاتِ والروائحِ ، يفضِّلُ بعضَها علىٰ بعضٍ في الأُكُلِ ، تُسقىٰ جميعُها بماءٍ واحدٍ ، وتخرجُ مِنْ أرضٍ واحدةٍ .

وإنْ قلتَ : إنَّ اختلافَها باختلافِ بذورِها وأصولِها . . فمتىٰ كانَ في النواةِ نخلةٌ مطوَّقةٌ بعناقيدِ الرطبِ ؟ ومتىٰ كانَ في حبَّةٍ واحدةٍ سبعُ سنابلَ ، في كلِّ سنبلةٍ مئةُ حبَّةٍ ؟!

ثمَّ انظرْ إلىٰ أرضِ البوادي ، وفتِّشْ ظاهرَها وباطنَها ، فتراها تراباً متشابهاً ، فإذا أنزلَ عليها الماءَ.. اهتزَّتْ وربَتْ ، وأنبتَتْ مِنْ كلِّ زوجٍ بهيجٍ ، ألواناً مختلفةً ، ونباتاً متشابهاً وغيرَ متشابهٍ ، لكلِّ واحدٍ طعمٌ وريحٌ ولونٌ وشكلٌ يخالفُ الآخرَ .

ثمَّ انظرْ إلىٰ كثرتِها ، واختلافِ أصنافِها ، وكثرةِ أشكالِها ، ثمَّ اختلافِ طبائعِ النباتِ وكثرةِ منافعِهِ ، وكيفَ أودعَ اللهُ تعالىٰ العقاقيرَ المنافعَ الغريبةَ ؛ فهٰذا النباتُ يغذِّي ، وهٰذا يقوِّي ، وهٰذا يحيي ، وهٰذا يقتلُ ، وهٰذا يبرِّدُ ، وهٰذا يسخِّنُ ، وهٰذا إذا حصلَ في المعدةِ.. قمعَ الصفراءَ مِنْ أعماقِ العروقِ ، وهٰذا يستحيلُ إلى الصفراءِ ، وهٰذا يقمعُ البلغمَ والسوداءَ ، وهٰذا يستحيلُ إليهما ، وهٰذا يصفِّي الدمَ ، وهٰذا يستحيلُ دماً ، وهٰذا يفرِحُ ، وهٰذا ينوِّمُ ، وهٰذا يقوِّي ، وهٰذا يضعِفُ ، فلمْ تنبتْ مِنَ الأرضِ ورقةٌ ولا نبتةٌ إلا وفيها منافعُ لا يقوى البشرُ على الوقوفِ علىٰ كنهِها .

وكلُّ واحدٍ مِنْ هٰذا النباتِ يحتاجُ الفلاحُ في تربيتِهِ إلىٰ عملٍ مخصوصٍ ؛ فالنخلُ تُؤبَّرُ ، والكرمُ يكسحُ[1] ، والزرعُ ينقَّىٰ عنهُ الحشيشُ والدَّغَلُ ، وبعضُ ذلكَ يُستنبتُ ببثِّ البذرِ في الأرضِ ، وبعضُهُ بغرسِ الأغصانِ ، وبعضُهُ يُركَّبُ في الشجرِ ، ولوْ أردنا أنْ نذكرَ اختلافَ أجناسِ النباتِ وأنواعِهِ ومنافعِهِ وأحوالِهِ وعجائبِهِ.. لانقضَتِ الأيَّامُ في وصفِ

---

(١) أي : يقطع وينقىٰ ويقلَّم . « إتحاف » (١٠/ ٢٠٠) .

ذلكَ ، فيكفيكَ مِنْ كلِّ جنسٍ نبذةٌ يسيرةٌ تدلُّكَ علىٰ طريقِ الفكرِ ، فهـٰذهِ عجائبُ النباتِ .

* * *

ومِنْ آياتِهِ : الجواهرُ المودعةُ تحتَ الجبالِ ، والمعادنُ الحاصلةُ مِنَ الأرضِ ، ففي الأرضِ قطعٌ متجاوراتٌ مختلفةٌ ، فانظرْ إلى الجبالِ كيفَ يخرجُ منها الجواهرُ النفيسةُ ؛ مِنَ الذهبِ ، والفضةِ ، والفيروزجِ ، واللعلِ[1] وغيرِها ، بعضُها منطبعةٌ تحتَ المطارقِ ؛ كالذهبِ والفضةِ والنحاسِ والرصاصِ والحديدِ ، وبعضُها لا ينطبعُ ؛ كالفيروزجِ واللعلِ ، وكيفَ هدى اللهُ تعالى الناسَ إلى استخراجِها وتنقيتِها ، واتخاذِ الأواني والآلاتِ والنقودِ والحليِّ منها .

ثمَّ انظرْ إلىٰ معادنِ الأرضِ ؛ مِنَ النفطِ ، والكبريتِ ، والقارِ ، وغيرِها ، وأقلُّها الملحُ ، ولا يُحتاجُ إليهِ إلا لتطييب الطعامِ ، ولوْ خلتْ عنهُ بلدةٌ . . لتسارعَ الهلاكُ إليها ، فانظرْ إلىٰ رحمةِ اللهِ تعالىٰ كيفَ خلقَ بعضَ الأراضي سبخةً بجوهرِها ، بحيثُ يجتمعُ فيها الماءُ الصافي مِنَ المطرِ فيستحيلُ ملحاً مالحاً محرقاً ، لا يمكنُ تناولُ مثقالٍ منهُ ؛ ليكونَ ذلكَ تطييباً لطعامِكَ إذا أكلتَهُ ، فيهنأَ عيشُكَ .

وما مِنْ جمادٍ ولا حيوانٍ ولا نباتٍ إلا وفيهِ حكمةٌ وحكمٌ مِنْ هـٰذا

---

(١) وهو حجر أحمر شبه الياقوت ، يجلب من معادن أرض بذخشان . «إتحاف» (١٠/ ٢٠١) .

الجنسِ ، ما خُلِقَ شيءٌ منها عبثاً ولا لعباً ولا هزلاً ، بلْ خُلِقَ الكلُّ بالحقِّ ، وكما ينبغي وعلى الوجهِ الذي ينبغي ، وكما يليقُ بجلالِهِ وكرمِهِ ولطفِهِ ، ولذلكَ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ .

* * *

ومِنْ آياتِهِ : أصنافُ الحيواناتِ وانقسامُها إلىٰ ما يطيرُ وإلىٰ ما يمشي ، وانقسامُ ما يمشي إلىٰ ما يمشي علىٰ رجْلينِ ، وإلىٰ ما يمشي علىٰ أربعٍ ، وعلىٰ عشرٍ ، وعلىٰ مئةٍ كما يُشاهدُ في بعضِ الحشراتِ ، ثمَّ انقسامُها في المنافعِ والصورِ والأشكالِ والأخلاقِ والطباعِ .

فانظرْ إلىٰ طيورِ الجوِّ ، وإلىٰ وحوشِ البرِّ ، وإلى البهائمِ الأهليةِ ، ترىٰ فيها مِنَ العجائبِ ما لا تشكُّ معهُ في عظمةِ خالقِها وقدرةِ مقدِّرِها ، وحكمةِ مصوِّرِها ، وكيفَ يمكنُ أنْ يُستقصىٰ ذلكَ ؟! بلْ لوْ أردنا أنْ نذكرَ عجائبَ البقَّةِ أوِ النملةِ أوِ النحلةِ أوِ العنكبوتِ وهيَ مِنْ صغارِ الحيواناتِ ؛ في بنائِها بيتَها ، وفي جمعِها غذاءَها ، وفي إلفِها لزوجِها ، وفي ادخارِها لنفسِها ، وفي حذقِها في هندسةِ بيتِها ، وفي هدايتِها إلىٰ حاجاتِها . . لمْ نقدرْ علىٰ ذلكَ .

فترى العنكبوتَ يبني بيتَهُ علىٰ طرفِ طريقٍ أوْ نهرٍ ، فيطلبُ أوَّلاً موضعينِ متقاربينِ بينَهُما فرجةٌ بمقدارِ ذراعٍ فما دونَهُ ، حتىٰ يمكنَهُ أنْ يصلَ

بالخيطِ بينَ طرفيهِ ، ثمَّ يبتدئُ فيلقي اللعابَ الذي هوَ خيطُهُ علىٰ جانبٍ ليلتصقَ بهِ ، ثمَّ يغدو إلى الجانبِ الآخرِ فيحكمُ الطرفَ الآخرَ مِنَ الخيطِ ، ثمَّ كذلكَ يتردَّدُ ثانياً وثالثاً ، ويجعلُ بعْدَ ما بينَهُما متناسباً تناسباً هندسياً ، حتىٰ إذا أحكمَ معاقدَ القِمْطِ ، ورتَّبَ الخيوطَ كالسَّدىٰ . . اشتغلَ باللحمةِ ، فيضعُ اللحمةَ على السَّدىٰ ، ويضيفُ بعضَهُ إلىٰ بعضٍ ، ويحكمُ العقدَ علىٰ موضعِ التقاءِ اللحمةِ بالسَّدىٰ ، ويرعىٰ في جميعِ ذلكَ تناسبَ الهندسةِ ، ويجعلُ ذلكَ شبكةً يقعُ فيها البقُّ والذبابُ ، ويقعدُ في زاويةٍ مترصِّداً لوقوعِ الصيدِ في الشبكةِ ، فإذا وقعَ الصيدُ . . بادرَ إلىٰ أخذِهِ وأكلِهِ ، فإنْ عجزَ عنِ الصيدِ كذلكَ . . طلبَ لنفسِهِ زاويةً مِنْ حائطٍ ، ووصلَ بينَ طرفي الزاويةِ بخيطٍ ، ثمَّ علَّقَ نفسَهُ منها بخيطٍ آخرَ ، وبقي منتكساً في الهواءِ ينتظرُ ذبابةً تطيرُ ، فإذا طارَ ذبابٌ . . رمىٰ بنفسِهِ إليهِ فأخذَهُ ، ولفَّ خيطَهُ علىٰ رجليهِ وأحكمَهُ ثمَّ أكلَهُ .

وما مِنْ حيوانٍ صغيرٍ ولا كبيرٍ إلا وفيهِ مِنَ العجائبِ ما لا يُحصىٰ ، أفترىٰ أنَّهُ تعلَّمَ هـٰذهِ الصنعةَ مِنْ نفسِهِ ، أوْ تكوَّنَ بنفسِهِ ، أوْ كوَّنَهُ آدميٌّ وعلَّمَهُ ، أوْ لا هاديَ لهُ ولا معلِّمَ ؟!

أفيشكُّ ذو بصيرةٍ في أنَّهُ مسكينٌ ضعيفٌ عاجزٌ ، بلِ الفيلُ العظيمُ شخصُهُ الظاهرةُ قوتُهُ عاجزٌ عنْ أمرِ نفسِهِ ، فكيفَ هـٰذا الحيوانُ الضعيفُ ؟! أفلا يشهدُ هوَ بشكلِهِ وصورتِهِ وحركتِهِ وهدايتِهِ وعجائبِ صنعتِهِ لفاطرِهِ الحكيمِ ، وخالقِهِ القادرِ العليمِ ؟!

فالبصيرُ يرىٰ في هـٰذا الحيوانِ الصغيرِ مِنْ عظمةِ الخالقِ المدبِّرِ وجلالِهِ ، وكمالِ قدرتِهِ وحكمتِهِ . . ما تتحيَّرُ فيهِ الألبابُ والعقولُ ، فضلاً عنْ سائرِ الحيواناتِ .

وهـٰذا البابُ أيضاً لا حصرَ لهُ ؛ فإنَّ الحيواناتِ وأشكالَها وأخلاقَها وطباعَها غيرُ محصورةٍ ، وإنَّما سقطَ تعجُّبُ القلوبِ منها لأنسِها بكثرةِ المشاهدةِ .

نعمْ ، إذا رأىٰ حيواناً غريباً ولوْ دوداً . . تجدَّدَ تعجُّبُهُ ، وقالَ : سبحانَ اللهِ ما أعجبَهُ ! والإنسانُ أعجبُ الحيواناتِ وليسَ يتعجَّبُ مِنْ نفسِهِ ، بلْ لوْ نظرَ إلى الأنعامِ التي ألفَها ، ونظرَ إلىٰ أشكالِها وصورِها ، ثمَّ إلىٰ منافعِها وفوائدِها ؛ مِنْ جلودِها ، وأصوافِها ، وأوبارِها ، وأشعارِها ، التي جعلَها اللهُ لباساً لخلقِهِ ، وأكناناً لهُمْ في ظعنِهِمْ وإقامتِهِمْ ، وآنيةً لأشربتِهِمْ ، وأوعيةً لأغذيتِهِمْ ، وصواناً لأقدامِهِمْ ، وجعلَ ألبانَها ولحومَها أغذيةً لهُمْ ، ثمَّ جعلَ بعضَها زينةً للركوبِ ، وبعضَها حاملةً للأثقالِ ، قاطعةً للبوادي والمفازاتِ البعيدةِ . . لأكثرَ الناظرُ التعجُّبَ مِنْ حكمةِ خالقِها ومُصوِّرِها ؛ فإنَّهُ ما خلقَها إلا بعلمٍ محيطٍ بجميعِ منافعِها ، سابقٍ علىٰ خلقِهِ إيَّاها .

فسبحانَ مَنِ الأمورُ مكشوفةٌ في علمِهِ مِنْ غيرِ تفكُّرٍ ، ومِنْ غيرِ تأمُّلٍ وتدبُّرٍ ، ومِنْ غيرِ استعانةٍ بوزيرٍ أوْ مشيرٍ ، فهوَ العليمُ الخبيرُ ، الحكيمُ القديرُ ، فلقدِ استخرجَ بأقلِّ القليلِ ممَّا خلقَهُ صدْقَ الشهادةِ مِنْ قلوبِ

العارفينَ بتوحيدِهِ ، فما للخلقِ إلا الإذعانُ لقهرِهِ وقدرتِهِ ، والاعترافُ بربوبيتِهِ ، والإقرارُ بالعجزِ عنْ معرفةِ جلالِهِ وعظمتِهِ ، فمَنْ ذا الذي يُحصي ثناءً عليهِ ؟! بلْ هوَ كما أثنىٰ علىٰ نفسِهِ ، وإنَّما غايةُ معرفتِنا الاعترافُ بالعجزِ عنْ معرفتِهِ ، فنسألُ اللهَ تعالىٰ أنْ يكرمَنا بهدايتِهِ بمنِّهِ ورأفتِهِ .

* * *

ومِنْ آياتِهِ : البحارُ العميقةُ المكتنفةُ لأقطارِ الأرضِ التي هيَ قطعٌ مِنَ البحرِ الأعظمِ المحيطِ بجميعِ الأرضِ ، حتىٰ إنَّ جميعَ المكشوفِ مِنَ البوادي والجبالِ عنِ الماءِ بالإضافةِ إلى الماءِ كجزيرةٍ صغيرةٍ في بحرٍ عظيمٍ ، وبقيةُ الأرضِ مستورةٌ بالماءِ ، قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الأرضُ في البحرِ كالإصطبلِ في الأرضِ »[1] ، فانسبْ إصطبلاً إلىٰ جميعِ الأرضِ ، واعلمْ أنَّ الأرضَ بالإضافةِ إلى البحرِ مثلُهُ ، وقدْ شاهدتَ عجائبَ الأرضِ وما فيها ، فتأمَّلِ الآنَ عجائبَ البحرِ ، فإنَّ عجائبَ ما فيهِ مِنَ الحيوانِ والجواهرِ أضعافُ عجائبِ ما تشاهدُهُ علىٰ وجهِ الأرضِ ، كما أنَّ سعتَهُ أضعافُ سعةِ الأرضِ .

ولعظمِ البحرِ كانَ فيهِ مِنَ الحيواناتِ العظامِ ما تُرىٰ ظهورُها في البحرِ فتُظَنُّ أنَّها جزيرةٌ ، فينزلُ الركَّابُ عليها ، فربَّما تحسُّ بالنيرانِ إذا اشتعلَتْ فتتحرَّكَ ، فيُعلمُ أنَّها حيوانٌ ، وما مِنْ صنفٍ مِنْ أصنافِ حيوانِ البرِّ ؛ مِنْ

---

(١) قال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (٩/ ٥٨٩) .

فرسٍ ، أوْ طيرٍ ، أوْ بقرٍ ، أوْ إنسانٍ . . إلا وفي البحرِ أمثالُهُ وأضعافُهُ ، وفيهِ أجناسٌ لا يُعهدُ لها نظيرٌ في البرِّ ، وقدْ ذُكرَتْ أوصافُها في مجلَّداتٍ ، وجمعَها أقوامٌ عُنوا بركوبِ البحرِ وجمْعِ عجائبِهِ .

ثمَّ انظرْ كيفَ خلقَ اللهُ سبحانَهُ وتعالى اللؤلؤَ ودوَّرَهُ في صدفِهِ تحتَ الماءِ ، وانظرْ كيفَ أنبتَ المرجانَ مِنْ صمِّ الصخورِ تحتَ الماءِ ، وإنَّما هوَ نباتٌ علىٰ هيئةِ شجرٍ ينبتُ مِنَ الحجرِ .

ثمَّ تأمَّلْ ما عداهُ مِنَ العنبرِ وأصنافِ النفائسِ التي يقذفُها البحرُ وتُستخرجُ منهُ .

ثمَّ انظرْ إلىٰ عجائبِ السفنِ كيفَ أمسكَها اللهُ تعالىٰ علىٰ وجهِ الماءِ ، وسيَّرَ فيها التجارَ وطلابَ الأموالِ وغيرَهُمْ ، وسخَّرَ لهُمُ الفلكَ لتحملَ أثقالَهُمْ ، ثمَّ أرسلَ الرياحَ لتسوقَ السفنَ ، ثمَّ عرَّفَ الملاَّحينَ مواردَ الرياحِ ومهابَّها ومواقيتَها .

ولا يُستقصىٰ على الجملةِ عجائبُ صنعِ اللهِ في البحرِ في مجلداتٍ .

وأعجبُ مِنْ ذلكَ كلِّهِ ما هوَ أظهرُ مِنْ كلِّ ظاهرٍ ، وهوْ كيفيةُ قطرةِ الماءِ ، وهوَ جسمٌ رقيقٌ لطيفٌ سيَّالٌ مُشفٌّ ، متصلُ الأجزاءِ كأنَّهُ شيءٌ واحدٌ ، لطيفُ التركيبِ ، سريعُ القبولِ للتقطيعِ كأنَّهُ منفصلٌ ، مسخَّرٌ للتصرُّفِ ، قابلٌ للانفصالِ والاتصالِ ، بهِ حياةُ كلِّ ما علىٰ وجهِ الأرضِ مِنْ حيوانٍ ونباتٍ ، فلوِ احتاجَ العبدُ إلىٰ شربةِ ماءٍ ومُنِعَ منها . . لبذلَ جميعَ خزائنِ الأرضِ وملكِ الدنيا في تحصيلِها لوْ ملكَ ذلكَ ، ثمَّ إذا شربَها ومُنِعَ

مِنْ إخراجِها . . لبذلَ جميعَ خزائنِ الأرضِ وملكِ الدنيا في إخراجِها ، فالعجبُ مِنَ الآدميِّ كيفَ يستعظمُ الدينارَ والدرهمَ ونفائسَ الجواهرِ ويغفُلُ عنْ نعمةِ اللهِ تعالىٰ في شربةِ ماءٍ إذا احتاجَ إلىٰ شربِها أوِ الاستفراغِ عنها . . بذلَ جميعَ الدنيا فيها !

فتأمَّلْ في عجائبِ المياهِ والأنهارِ ، والآبارِ والبحارِ ، ففيها متسعٌ للفكرِ ومجالٌ .

وكلُّ ذلكَ شواهدُ متظاهرةٌ ، وآياتٌ متناصرةٌ ، ناطقةٌ بلسانِ حالِها ، مفصحةٌ عنْ جلالِ بارئِها ، معربةٌ عنْ كمالِ حكمتِهِ فيها ، مناديةٌ أربابَ القلوبِ بنغماتِها ، قائلةٌ لكلِّ ذي لبٍّ : أما تراني وترىٰ صورتي وتركيبي وصفاتي ، ومنافعي واختلافَ حالاتي وكثرةَ فوائدي ؟ أتظنُّ أنِّي تكوَّنتُ بنفسي أوْ خلقَني أحدٌ مِنْ جنسي ؟! أوَما تستحيي أنْ تنظرَ في كلمةٍ مرقومةٍ مِنْ ثلاثةِ أحرفٍ ، فتقطعَ بأنَّها صنعةُ آدميٍّ عالمٍ قادرٍ مريدٍ متكلِّمٍ ، ثمَّ تنظرَ إلىٰ عجائبِ الخطوطِ الإلـٰهيةِ المرقومةِ علىٰ صفحاتِ وجهي بالقلمِ الإلـٰهي الذي لا تدركُ الأبصارُ ذاتَهُ ولا حركتَهُ ولا اتصالَهُ بمحلِّ الخطِّ . . ثمَّ ينفكَّ قلبُكَ عنْ جلالةِ صانعِهِ ؟!

وتقولُ النطفةُ لأربابِ السمعِ والقلبِ ، لا للذينَ هُمْ عنِ السمعِ معزولونَ : توهمْني في ظلمةِ الأحشاءِ مغموسةً في دمِ الحيضِ ، في الوقتِ الذي يظهرُ التخطيطُ والتصويرُ علىٰ وجهي ، فينقشُ النقَّاشُ حدقتي ، وأجفاني وجبهتي ، وخدي وشفتي ، فترى النقوشَ تظهرُ شيئاً فشيئاً على

التدريجِ ، ولا ترىٰ داخل النطفةِ نقَّاشاً ولا خارجَها ، ولا داخلَ الرحمِ ولا خارجَها ، ولا خبرَ منها للأمِ ولا للأبِ ، ولا للنطفةِ ولا للرحمِ ، أفما هـٰذا النقاشُ بأعجبَ ممَّنْ تشاهدُهُ ينقشُ بالقلمِ صورةً عجيبةً لوْ نظرتَ إليها مرَّةً أوْ مرتينِ لتعلمتَها[١] ، فهلْ تقدرُ علىٰ أنْ تتعلَّمَ هـٰذا الجنسَ مِنَ النقشِ والتصويرِ الذي يعمُّ ظاهرَ النطفةِ وباطنَها وجميعَ أجزائِها ، مِنْ غيرِ ملامسةٍ للنطفةِ ، ومِنْ غيرِ اتصالٍ بها لا مِنْ داخلٍ ولا مِنْ خارجٍ ؟!

فإنْ كنتَ لا تتعجبُ مِنْ هـٰذهِ العجائبِ ، ولا تفهمُ منها أنَّ الذي صوَّرَ ونقشَ وقدَّرَ لا نظيرَ لهُ ، ولا يساويهِ سبحانهُ نقَّاشٌ ولا مصوِّرٌ ، كما أنَّ نقشَهُ وصنعَهُ لا يساويهِ نقشٌ وصنعٌ ، فبينَ الفاعلينِ مِنَ المباينةِ والتباعدِ ما بينَ الفعلينِ ، فإنْ كنتَ لا تتعجَّبُ مِنْ هـٰذا . . فتعجَّبْ مِنْ عدمِ تعجُّبِكَ ؛ فإنَّهُ أعجبُ مِنْ كلِّ عجبٍ ، فإنَّ الذي أعمىٰ بصيرتَكَ معَ هـٰذا الوضوحِ ومنعَكَ اليقينَ معَ هـٰذا البيانِ . . جديرٌ بأنْ تتعجَّبَ منهُ .

فسبحانَ مَنْ هدىٰ وأضلَّ ، وأغوىٰ وأرشدَ ، وأشقىٰ وأسعدَ ، وفتحَ بصائرَ أحبابِهِ فشاهدوهُ في جميعِ ذرَّاتِ العالمِ وأجزائِهِ ، وأعمىٰ قلوبَ أعدائِهِ واحتجبَ عنهُمْ بعزِّهِ وعلائِهِ ! فلهُ الخلقُ والأمرُ ، والامتنانُ والفضلُ ، واللطفُ والقهرُ ، لا رادَّ لحكمِهِ ، ولا معقِّبَ لقضائِهِ .

❊ ❊ ❊

---

(١) في غير (ب) : (لتعلمته) بدل (لتعلمتها) .

ومِنْ آياتِهِ : الهواءُ اللطيفُ المحبوسُ بينَ مقعَّرِ السماءِ ومحدَّبِ الأرضِ ، يُدركُ بحسِّ اللمسِ عندَ هبوبِ الرياحِ جسمُهُ ، ولا يُرىٰ بالعينِ شخصُهُ ، وجملتُهُ مثلُ البحرِ الواحدِ ، والطيورُ محلِّقةٌ في جوِّ السماءِ ومستبقةٌ ، سباحةٌ فيهِ بأجنحتِها كما تسبحُ حيواناتُ البحرِ في الماءِ ، وتضطربُ جوانبُهُ وأمواجُهُ عندَ هبوبِ الرياحِ كما تضطربُ أمواجُ البحرِ ، فإذا حرَّكَ اللهُ الهواءَ وجعلَهُ ريحاً هابَّةً ؛ فإنْ شاءَ . . جعلَهُ بشراً بينَ يدَيْ رحمتِهِ ؛ كما قالَ سبحانَهُ : ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ ، فيصلُ بحركتِهِ رَوْحُ الهواءِ إلى الحيواناتِ والنباتاتِ ، فتستعدُّ للنماءِ ، وإنْ شاءَ . . جعلَهُ عذاباً على العصاةِ مِنْ خليقتِهِ ؛ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ .

ثمَّ انظرْ إلىٰ لطفِ الهواءِ ، ثمَّ شدَّتِهِ وقوَّتِهِ مهما ضغطَ في الماءِ ، فالزقُّ المنفوخُ يتحاملُ عليهِ الرجلُ القويُّ ليغمسَهُ في الماءِ فيعجزُ عنهُ ، والحديدُ الصلبُ تضعُهُ علىٰ وجهِ الماءِ فيرسبُ فيهِ ، فانظرْ كيفَ ينقبضُ الهواءُ مِنَ الماءِ بقوَّتِهِ معَ لطافتِهِ ! وبهٰذهِ الحكمةِ أمسكَ اللهُ تعالى السفنَ علىٰ وجهِ الماءِ ، وكذلكَ كلُّ مجوَّفٍ فيهِ هواءٌ لا يغوصُ في الماءِ ؛ لأنَّ الهواءَ ينقبضُ عنِ الغوصِ في الماءِ ، فلا ينفصلُ عنِ السطحِ الداخلِ مِنَ السفينةِ ، فتبقى السفينةُ الثقيلةُ معَ قوَّتِها وصلابتِها معلَّقةً مِنَ الهواءِ اللطيفِ ، كالذي يقعُ في بئرٍ فيتعلَّقُ بذيلِ رجلٍ قويٍّ ممتنعٍ عنِ الهويِّ في البئرِ ، فالسفينةُ بمقعَّرِها تتشبَّثُ بأذيالِ الهواءِ القويِّ حتىٰ تمتنعَ مِنَ الهويِّ والغوصِ في الماءِ ،

فسبحانَ مَنْ علَّقَ المركبَ الثقيلَ في الهواءِ اللطيفِ مِنْ غيرِ علاقةٍ تُشاهدُ وعقدةٍ تُشدُّ !

ثمَّ انظرْ إلىٰ عجائبِ الجوِّ وما يظهرُ فيهِ مِنَ الغيومِ ، والرعودِ والبروقِ ، والأمطارِ والثلوجِ ، والشهبِ والصواعقِ ، فهيَ عجائبُ ما بينَ السماءِ والأرضِ ، وقدْ أشارَ القرآنُ إلىٰ جملةِ ذلكَ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ ، وهٰذا هوَ الذي بينَهُما ، وأشارَ إلىٰ تفصيلِهِ في مواضعَ شتىٰ حيثُ قالَ عزَّ مِنْ قائلٍ : ﴿ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ، وحيثُ تعرَّضَ للرعدِ والبرقِ ، والسحابِ والمطرِ ، فإذا لمْ يكنْ لكَ حظٌّ مِنْ هٰذهِ الجملةِ إلا أنْ ترى المطرَ بعينِكَ ، وتسمعَ الرعدَ بأذنِكَ . . فالبهيمةُ تشاركُكَ في هٰذهِ المعرفةِ ، فارتفعْ مِنْ حضيضِ عالمِ البهائمِ إلىٰ عالمِ الملأِ الأعلىٰ ، فقدْ فتحتَ عينَكَ فأدركتَ ظاهرَها ، فغمِّضْ عينَكَ الظاهرةَ وانظرْ ببصيرتِكَ الباطنةِ لترىٰ عجائبَ باطنِها وغرائبَ أسرارِها .

وهٰذا أيضاً بابٌ يطولُ الفكرُ فيهِ ، ولا مطمعَ في استقصائِهِ ، فتأمَّلِ السحابَ الكثيفَ المظلمَ كيفَ تراهُ يجتمعُ في جوٍّ صافٍ لا كدورةَ فيهِ ، وكيفَ يخلقُهُ اللهُ تعالىٰ إذا شاءَ ومتىٰ شاءَ ، وهوَ معَ رخاوتِهِ حاملٌ للماءِ الثقيلِ ، وممسكٌ لهُ في جوِّ السماءِ ، إلىٰ أنْ يأذنَ اللهُ في إرسالِ الماءِ وتقطيعِ القطراتِ ، كلُّ قطرةٍ بالقدْرِ الذي أرادَهُ اللهُ تعالىٰ ، وعلى الشكلِ الذي شاءَهُ ، فترى السحابَ يرشُّ الماءَ على الأرضِ ، ويرسلُهُ قطراتٍ

متفاصلةً لا تدركُ قطرةٌ منها قطرةً ، ولا تتصلُ واحدةٌ بأخرىٰ ، بلْ تنزلُ كلُّ واحدةٍ في الطريقِ الذي رُسِمَ لها لا تعدلُ عنهُ ، فلا يتقدَّمُ المتأخِّرُ ، ولا يتأخَّرُ المتقدِّمُ ، حتىٰ يصيبَ الأرضَ قطرةً قطرةً ، فلوِ اجتمعَ الأوَّلونَ والآخرونَ علىٰ أنْ يخلقوا منها قطرةً ، أوْ يعرفوا عددَ ما ينزلُ منها في بلدةٍ واحدةٍ ، أو قريةٍ واحدةٍ . . لعجزَ حسابُ الجنِّ والإنسِ عنْ ذلكَ ، فلا يعلمُ عددَها إلا الذي أوجدَها .

ثمَّ كلُّ قطرةٍ منها عُيِّنَتْ لكلِّ جزءٍ مِنَ الأرضِ مخصوصٍ ، ولكلِّ حيوانٍ فيها مِنْ طيرٍ ووحشٍ وجميعِ الحشراتِ والدوابِّ ، مكتوبٌ علىٰ تلكَ القطرةِ بخطٍّ إلـٰهيٍّ لا يُدركُ بالبصرِ الظاهرِ أنَّها رزقُ الدودةِ الفلانيَّةِ التي في ناحيةِ الجبلِ الفلانيِّ ، تصلُ إليها عندَ عطشِها في الوقتِ الفلانيِّ ، هـٰذا معَ ما في انعقادِ البرَدِ الصلبِ مِنَ الماءِ اللطيفِ ، وفي تناثرِ الثلوجِ كالقطنِ المندوفِ مِنَ العجائبِ التي لا تُحصىٰ .

كلُّ ذلكَ فضْلٌ مِنَ الجبارِ القادرِ ، وقهرٌ مِنَ الخلاَّقِ القاهرِ ، ما لأحدٍ مِنَ الخلقِ فيهِ شِرْكٌ ولا مدخلٌ ، بلْ ليسَ للمؤمنينَ مِنْ خلقِهِ إلا الاستكانةُ والخضوعُ تحتَ جلالِهِ وعظمتِهِ[١] ، ولا للعميانِ الجاحدينَ إلا الجهلُ بكيفيتِهِ ، ورجمُ الظنونِ بذكرِ سببِهِ وعلَّتِهِ ، فيقولُ الجاهلُ المغرورُ : إنَّما ينزلُ الماءُ لأنَّهُ ثقيلٌ بطبعِهِ ، وإنَّما هـٰذا سببُ نزولِهِ ، ويظنُّ أنَّ هـٰذهِ معرفةٌ

---

(١) في جميع النسخ : (تحت جماله وعظمته) ، والمثبت من (ق) .

انكشفَتْ لهُ ، ويفرحُ بها ، ولوْ قيلَ لهُ : ما معنى الطبعِ ؟ وما الذي خلقَهُ ؟ وما الذي خلقَ الماءَ الذي طبعُهُ الثقلُ ؟ وما الذي رقَّى الماءَ المصبوبَ في أسافلِ الشجرِ إلىٰ أعالي الأغصانِ وهوَ ثقيلٌ بطبعِهِ ؟ فكيفَ هوىٰ إلىٰ أسفلَ ثمَّ ارتفعَ إلىٰ فوقٍ في داخلِ تجاويفِ الأشجارِ شيئاً شيئاً بحيثُ لا يُرىٰ ولا يُشاهدُ حتىٰ ينتشرَ في جميعِ أطرافِ الأوراقِ ، فيغذِّيَ كلَّ جزءٍ مِنْ كلِّ ورقةٍ ، ويجريَ إليها في تجاويفِ عروقٍ شعريَّةٍ صغارٍ ، يُرىٰ منهُ العرقُ الذي هوَ أصلُ الورقةِ ، ثمَّ ينتشرَ مِنْ ذلكَ العرقِ الكبيرِ الممدودِ في طولِ الورقةِ عروقٌ صغارٌ ، فكأنَّ الكبيرَ نهرٌ ، وما انشعبَ عنهُ جداولُ ، ثمَّ ينشعبَ مِنَ الجداولِ سواقٍ أصغرُ منها ، ثمَّ ينتشرَ منها خيوطٌ عنكبوتيَّةٌ دقيقةٌ تخرجُ عنْ إدراكِ البصرِ ، حتىٰ تنبسطَ في جميعِ عرضِ الورقةِ ، فيصلَ الماءُ في أجوافِها إلىٰ سائرِ أجزاءِ الورقةِ ليغذيَها وينميَها ويزينَها ، وتبقىٰ طراوتُها ونضارتُها ، وكذلكَ إلىٰ سائرِ أجزاءِ الفواكهِ ، فإنْ كانَ الماءُ يتحرَّكُ بطبعِهِ إلىٰ أسفلَ . . فكيفَ تحرَّكَ إلىٰ فوقٍ ؟ فإنْ كانَ ذلكَ بجذبِ جاذبٍ . . فما الذي سخَّرَ ذلكَ الجاذبَ ؟ فإنْ كانَ ينتهي بالآخرةِ إلىٰ خالقِ السماواتِ والأرضِ ، وجبَّارِ الملكِ والملكوتِ . . فلِمَ لا يُحالُ عليهِ في أوَّلِ الأمرِ ؟! فنهايةُ الجاهلِ بدايةُ العاقلِ .

❋ ❋ ❋

ومِنْ آياتِهِ : ملكوتُ السماواتِ ، وما فيها مِنَ الكواكبِ ، وهوَ الأمرُ كلُّهُ ، ومَنْ أدركَ الكلَّ وفاتَهُ عجائبُ السماواتِ . . فقدْ فاتَهُ الكلُّ تحقيقاً ؛

فالأرضُ والبحارُ والهواءُ وكلُّ جسمٍ سوى السماواتِ بالإضافةِ إلى السماواتِ . . كقطرةٍ في بحرٍ وأصغرَ . ثمَّ انظرْ كيفَ عظَّمَ اللهُ تعالىٰ أمرَ السماواتِ والنجومِ في كتابِهِ ، فما مِنْ سورةٍ إلا وتشتملُ علىٰ تفخيمِها في مواضعَ ، وكمْ مِنْ قَسَمٍ في القرآنِ بها ؛ كقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴾ ، ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴾ ، ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴾ ، ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴾ ، وكقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴾ ، وكقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴾ ، وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ ، وقولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ . فقدْ علمتَ أنَّ عجائبَ النطفةِ القذرةِ عجزَ عنْ معرفتِها الأولونَ والآخرونَ ، وما أقسمَ اللهُ بها ، فما ظنُّكَ بما أقسمَ اللهُ تعالىٰ بهِ ، وأحالَ الأرزاقَ عليهِ ، وأضافَها إليهِ ؟ فقالَ تعالىٰ : ﴿ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ .

وأثنىٰ على المتفكِّرينَ فيهِ فقالَ : ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ، وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ويلٌ لِمَنْ قرأَ هـٰذهِ الآيةَ ثمَّ مسحَ بها سبلتَهُ »(١) أيْ : تجاوزَها مِنْ غيرِ فكرٍ .

وذمَّ المعرضينَ عنها فقالَ : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ .

فأيُّ نسبةٍ لجميعِ البحارِ والأرضِ إلى السماءِ ، وهيَ متغيِّراتٌ على

---

(١) قوت القلوب (١/ ٢٥٤) ، وروى ابن حبان في « صحيحه » (٦٢٠) نحوه .

القرْبِ والسماواتُ صلابٌ شدادٌ ، محفوظاتٌ عنِ التغيُّرِ إلىٰ أنْ يبلغَ الكتابُ أجلَهُ ، ولذلكَ سمَّاهُ اللهُ تعالىٰ محفوظاً فقالَ : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾ ، وقالَ : ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ ، وقالَ : ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ۞ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴾ ؟!

فانظرْ إلى الملكوتِ لترىٰ عجائبَ العزِّ والجبروتِ ، ولا تظنَّنَّ أنَّ معنى النظرِ إلى الملكوتِ بأنْ تمدَّ البصرَ إليهِ ، فترىٰ زرقةَ السماءِ وضوءَ الكواكبِ وتفرُّقَها ، فإنَّ البهائمَ تشاركُكَ في هـٰذا النظرِ ، فإنْ كانَ هـٰذا هوَ المرادَ . . فلِمَ مدحَ اللهُ تعالىٰ إبراهيمَ عليهِ السلامُ بقولِهِ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ؟! لا بلْ كلُّ ما يُدركُ بحاسَّةِ البصرِ فالقرآنُ يعبِّرُ عنهُ بالملكِ والشهادةِ ، وما غابَ عنِ الأبصارِ فيعبِّرُ عنهُ بالغيبِ والملكوتِ ، واللهُ تعالىٰ عالمُ الغيبِ والشهادةِ ، وجبَّارُ الملكِ والملكوتِ ، ولا يحيطُ أحدٌ بشيءٍ مِنْ علمِهِ إلا بما شاءَ ، وهوَ عالمُ الغيبِ فلا يظهرُ علىٰ غيبِهِ أحداً إلا مَنِ ارتضىٰ مِنْ رسولٍ .

فأطلْ أيُّها العاقلُ فكرَكَ في الملكوتِ ، فعسىٰ يُفتحُ لكَ أبوابُ السماءِ ، فتجولَ بقلبِكَ في أقطارِها ، إلىٰ أنْ يقومَ قلبُكَ بينَ يدي عرشِ الرحمـٰنِ ، فعندَ ذلكَ ربَّما يُرجىٰ لكَ أنْ تبلغَ رتبةَ عمرَ بنِ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ حيثُ قالَ : (رأىٰ قلبي ربِّي) ، وهـٰذا لأنَّ بلوغَ الأقصىٰ لا يكونُ إلا بعدَ مجاوزةِ الأدنىٰ ، وأدنىٰ شيءٍ إليكَ نفسُكَ ، ثمَّ الأرضُ التي هيَ مقرُّكَ ، ثم الهواءُ المكتنفُ لكَ ، ثمَّ النباتُ والحيوانُ وما علىٰ وجهِ الأرضِ ، ثمَّ عجائبُ

الجوِّ وهوَ ما بينَ السماءِ والأرضِ ، ثمَّ السماواتُ السبعُ بكواكبِها ، ثمَّ الكرسيُّ ، ثمَّ العرشُ ، ثمَّ الملائكةُ الذينَ هُمْ حملةُ العرشِ وخزَّانُ السماواتِ ، ثمَّ منهُ تجاوزْ إلى النظرِ إلىٰ ربِّ العرشِ والكرسيِّ والسماواتِ والأرضِ وما بينَهُما ، فبينَكَ وبينَهُ هـٰذهِ المفاوزُ الفيحُ ، والمسافاتُ الشاسعةُ ، والعقباتُ الشاهقةُ ، وأنتَ بعدُ لمْ تفرغْ مِنَ العقبةِ القريبةِ النازلةِ ، وهي معرفةُ ظاهرِ نفسِكَ ، ثمَّ صرتَ تطلقُ اللسانَ بوقاحتِكَ وتدَّعي معرفةَ ربِّكَ ، وتقولُ : قدْ عرفتُهُ وعرفتُ خلقَهُ ، ففيماذا أتفكَّرُ ؟ وإلىٰ ماذا أتطلَّعُ ؟

فارفعِ الآنَ رأسَكَ إلى السماءِ ، وانظرْ فيها وفي كواكبِها ، وفي دورانِها ، وطلوعِها وغروبِها ، وشمسِها وقمرِها ، واختلافِ مشارقِها ومغاربِها ، ودؤوبِها في الحركةِ على الدوامِ مِنْ غيرِ فتورٍ في حركتِها ، ومِنْ غيرِ تغيُّرٍ في مسيرِها ، بلْ تجري جميعاً في منازلَ مرتبةٍ ، بحسابٍ مقدَّرٍ ، لا يزيدُ ولا ينقصُ ، إلىٰ أنْ يطويَها اللهُ تعالىٰ طيَّ السجلِ للكتابِ .

وتدبَّرْ عددَ كواكبِها وكثرتِها واختلافِ ألوانِها ، فبعضُها يميلُ إلى الحمرةِ ، وبعضُها إلى البياضِ ، وبعضُها إلى اللونِ الرصاصيِّ .

ثمَّ انظرْ كيفيةَ أشكالِها ، فبعضُها علىٰ صورةِ العقربِ ، وبعضُها علىٰ صورةِ الحملِ والثورِ والأسدِ والإنسانِ ، وما مِنْ صورةٍ في الأرضِ إلا ولها مثالٌ في السماءِ .

ثمَّ انظرْ إلىٰ مسيرِ الشمسِ في فلكِها في مدَّةِ سنةٍ ، ثمَّ هيَ تطلعُ في كلِّ

يومٍ وتغربُ بسيرٍ آخرَ سخَّرَها لهُ خالقُها ، ولولا طلوعُها وغروبُها . . لما اختلفَ الليلُ والنهارُ ، ولمْ تُعرفِ المواقيتُ ، ولأطبقَ الظلامُ على الدوامِ ، أوِ الضياءُ على الدوامِ ، وكانَ لا يتميَّزُ وقتُ المعاشِ عنْ وقتِ الاستراحةِ .

فانظرْ كيفَ جعلَ اللهُ تعالىٰ الليلَ لباساً ، والنومَ سباتاً ، والنهارَ معاشاً ، وانظرْ إلىٰ إيلاجِهِ الليلَ في النهارِ ، والنهارَ في الليلِ ، وإدخالِهِ الزيادةَ والنقصانَ عليهما علىٰ ترتيبٍ مخصوصٍ .

وانظرْ إلىٰ إمالتِهِ مسيرَ الشمسِ عنْ وسطِ السماءِ[1] حتى اختلفَ بسببِهِ الصيفُ والشتاءُ ، والربيعُ والخريفُ ، فإذا انخفضَتِ الشمسُ مِنْ وسطِ السماءِ في سيرِها . . بردَ الهواءُ ، وظهرَ الشتاءُ ، وإذا استوَتْ في وسطِ السماءِ . . اشتدَّ القيظُ ، وإذا كانَتْ فيما بينَهُما . . اعتدلَ الزمانُ .

وعجائبُ السماواتِ لا مطمعَ في إحصاءِ عُشْرِ عَشِيرِ جزءٍ مِنْ أجزائِها ، وإنَّما هـٰذا تنبيهٌ علىٰ طريقِ الفكرِ .

واعتقدْ على الجملةِ أنَّهُ ما مِنْ كوكبٍ مِنَ الكواكبِ إلا وللهِ تعالىٰ حكمٌ كثيرةٌ في خلقِهِ ، ثمَّ في مقدارِهِ ، ثمَّ في شكلِهِ ، ثمَّ في لونِهِ ، ثمَّ في وضعِهِ مِنَ السماءِ وقربِهِ مِنْ وسطِ السماءِ وبعْدِهِ ، وقربِهِ مِنَ الكواكبِ التي بجنبِهِ

---

(١) والمراد بوسط السماء : المجرة المسماة بأم النجوم ، وهي دائرة متصلة اتصال الطوق ، وتسمىٰ أيضاً : منطقة الفلك . « إتحاف » (١٠/ ٢١٣) .

وبعْدِهِ ، وقسْ ذلكَ بما ذكرناهُ مِنْ أعضاءِ بدنِكَ ؛ إذْ ما مِنْ جزءٍ إلا وفيهِ حكمةٌ بلْ حكمٌ كثيرةٌ ، وأمرُ السماءِ أعظمُ ، بلْ لا نسبةَ لعالمِ الأرضِ إلىٰ عالمِ السماءِ ، لا في كبرِ جسمِهِ ، ولا في كثرةِ معانيهِ ، وقسِ التفاوتَ الذي بينَهما في كثرةِ المعاني بما بينَهُما مِنَ التفاوتِ في كبرِ الأرضِ ، فأنتَ تعرفُ مِنْ كبرِ الأرضِ واتساعِ أطرافِها أنَّهُ لا يقدرُ آدميٌّ علىٰ أنْ يدركَها ويدورَ بجوانبِها .

وقدِ اتفقَ الناظرونَ علىٰ أنَّ الشمسَ مثلُ الأرضِ مئةَ مرَّةٍ ونيِّفاً وستينَ مرةً ، وفي الأخبارِ ما يدلُّ علىٰ عظمِها[1] ، والكواكبُ التي تراها أصغرُها مثلُ الأرضِ ثمانيَ مرَّاتٍ ، وأكبرُها ينتهي إلىٰ قريبٍ مِنْ مئةٍ وعشرينَ مرَّةً مثلَ الأرضِ ، وبهـٰذا تعرفُ ارتفاعَها وبعدَها ؛ إذْ للبعدِ صارتْ تُرىٰ صغاراً ، ولذلكَ أشارَ تعالىٰ إلىٰ بعدِها فقالَ : ﴿ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴾ ، وفي الأخبارِ أنَّ بينَ كلِّ سماءٍ إلى الأخرىٰ مسيرةَ خمسِ مئةِ عامٍ[2] .

فإذا كانَ هـٰذا مقدارَ كوكبٍ واحدٍ مِنَ الأرضِ . . فانظرْ إلىٰ كثرةِ الكواكبِ ، ثمَّ انظرْ إلى السماءِ التي الكواكبُ مركوزةٌ فيها وإلىٰ عظمِها ، ثمَّ انظرْ إلىٰ سرعةِ حركتِها وأنتَ لا تحسُّ بحركتِها فضلاً عنْ أنْ تدركَ سرعتَها ، لكنْ لا تشكُّ في أنَّها في لحظةٍ تسيرُ مقدارَ عرضِ كوكبٍ ؛ لأنَّ الزمانَ مِنْ

---

(١) منها ما رواه أحمد في « المسند » (٢/٢٠٧) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : رأىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم الشمس حين غربت ، فقال : « في نار الله الحامية ، لولا ما يزعها من أمر الله . . لأهلكت ما على الأرض » .

(٢) رواه الترمذي (٣٥٤٠) .

طلوعِ أوَّل جزءٍ مِنْ كوكبٍ إلىٰ تمامِهِ يسيرٌ ، وذلكَ الكوكبُ هوَ مثلُ الأرضِ مئةَ مرَّةٍ وزيادةً ، فقدْ دارَ الفلكُ في هـٰذهِ اللحظةِ مثلَ الأرضِ مئةَ مرَّةٍ ، وهـٰكذا يدورُ على الدوامِ وأنتَ غافلٌ عنهُ .

وانظرْ كيفَ عبَّر جبريلُ عليهِ السلامُ عنْ سرعةِ حركتِهِ إذْ قالَ لهُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « هلْ زالَتِ الشمسُ ؟ » فقالَ : لا نعمْ ، فقالَ : « كيفَ تقولُ : لا نعمْ ؟ » فقالَ : مِنْ حينَ قلتُ : لا إلىٰ أنْ قلتُ : نعمْ . . سارَتِ الشمسُ مسيرةَ خمسِ مئةِ عامٍ[1] .

فانظرْ إلىٰ عظمِ شخصِها ، ثمَّ إلىٰ خفَّةِ حركتِها .

ثمَّ انظرْ إلىٰ قدرةِ الفاطرِ الحكيمِ كيفَ أثبتَ صورتَها معَ اتساعِ أكنافِها في حدقةِ العينِ معَ صغرِها ، حتىٰ تجلسَ على الأرضِ وتفتحَ عينيكَ نحوَها فترىٰ جميعَها .

فهـٰذهِ السماءُ بعظمِها وكثرةِ كواكبِها لا تنظرْ إليها ، بلِ انظرْ إلىٰ بارئِها كيفَ خلقَها ، ثمَّ أمسكَها مِنْ غيرِ عمدٍ ترونَها ، ومِنْ غيرِ علاقةٍ مِنْ فوقِها تتدلَّىٰ بها ، وكلُّ العالمِ كبيتٍ واحدٍ والسماءُ سقفُهُ ، فالعجبُ منكَ أنَّكَ تدخلُ بيتَ غنيٍّ فتراهُ مزوَّقاً بالصبغِ ، مموَّهاً بالذهبِ ، فلا ينقطعُ تعجُّبُكَ منهُ ، ولا تزالُ تذكرُهُ وتصفُ حسنَهُ طولَ عمرِكَ ، وأنتَ أبداً تنظرُ إلىٰ هـٰذا

---

(١) كذا في « القوت » (١/ ٢٥) ، وفيه : (قطعت في الفلك خمسين ألف فرسخ) ، وقال الحافظ العراقي : (لم أجد له أصلاً) . « إتحاف » (١٠/ ٢١٥) .

البيتِ العظيمِ ، وإلىٰ أرضِهِ ، وإلىٰ سقفِهِ ، وإلىٰ هوائِهِ ، وإلىٰ عجائبِ أمتعتِهِ ، وغرائبِ حيواناتِهِ ، وبدائعِ نقوشِهِ ، ثمَّ لا تتحدَّثُ فيهِ ، ولا تلتفتُ بقلبِكَ إليهِ ، فما هـٰذا البيتُ دونَ ذلكَ البيتِ الذي تصفُهُ ، بلْ ذلكَ البيتُ هوَ أيضاً جزءٌ مِنَ الأرضِ التي هيَ أخسُّ أجزاءِ هـٰذا البيتِ ، ومع هـٰذا فلا تنظرُ إليه ! ليسَ لهُ سببٌ إلا أنَّهُ بيتُ ربِّكَ ، هوَ الذي انفردَ ببنائِهِ وترتيبِهِ ، وأنتَ قدْ نسيتَ نفسَكَ وربَّكَ وبيتَ ربِّكَ ، واشتغلتَ ببطنِكَ وفرجِكَ ، ليسَ لكَ همٌّ إلا شهوتَكَ أوْ حشمتَكَ ، وغايةُ شهوتِكَ أنْ تملأَ بطنَكَ ، ولا تقدرُ علىٰ أنْ تأكلَ عُشْرَ ما تأكلُهُ بهيمةٌ ، فتكونُ البهيمةُ فوقَكَ بعشرِ درجاتٍ ، وغايةُ حشمتِكَ أنْ تقبلَ عليكَ عشرةٌ أوْ مئةٌ مِنْ معارفِكَ فينافقونَ بألسنتِهِمْ بينَ يديكَ ، ويضمرونَ خبائثَ الاعتقاداتِ عليكَ ، وإنْ صدقوكَ في مودَّتِهِمْ إيَّاكَ . . فلا يملكونَ لكَ ولا لأنفسِهِمْ ضراً ولا نفعاً ، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً ، وقدْ يكونُ في بلدِكَ مِنْ أغنياءِ اليهودِ والنصارىٰ مَنْ يزيدُ جاهُهُ علىٰ جاهِكَ ، وقدِ اشتغلتَ بهـٰذا الغرورِ ، وغفلتَ عنِ النظرِ في جمالِ ملكوتِ السماواتِ والأرضِ ، ثمَّ غفلتَ عنِ التنعُّمِ بالنظرِ إلىٰ جلالِ مالكِ الملكوتِ والملكِ .

وما مثلُكَ ومثلُ عقلِكَ إلا كمثلِ النملةِ تخرجُ مِنْ جحرِها الذي حفرتْهُ في قصرٍ مشيدٍ مِنْ قصورِ الملكِ ، رفيعِ البنيانِ ، حصينِ الأركانِ ، مزيَّنٍ بالجواري والغلمانِ ، وأنواعِ الذخائرِ والنفائسِ ، فإنَّها إذا خرجَتْ مِنْ جحرِها ، ولقيَتْ صاحبتَها . . لمْ تتحدَّثْ ـ لوْ قدرَتْ على النطقِ ـ إلا عنْ

بيتِها وغذائِها ، وكيفيةِ ادخارِها ، فأمَّا حالُ القصرِ والملكِ الذي في القصرِ . . فهيَ بمعزلٍ عنهُ وعنِ التفكُّرِ فيهِ ، بلْ لا قدرةَ لها على المجاوزةِ بالنظرِ عنْ نفسِها وغذائِها وبيتِها إلىٰ غيرِها .

وكما غفلَتِ النملةُ عنِ القصرِ وعنْ أرضِهِ وسقفِهِ وحيطانِهِ وسائرِ بنيانِهِ ، وغفلَتْ أيضاً عنْ سكَّانِهِ . . فأنتَ أيضاً غافلٌ عنْ بيتِ اللهِ تعالىٰ ، وعنْ ملائكتِهِ الذينَ هُمْ سكَّانُ سماواتِهِ ، فلا تعرفُ مِنَ السماءِ إلا ما تعرفُهُ النملةُ مِنْ سقفِ بيتِكَ ، ولا تعرفُ مِنْ ملائكةِ السماواتِ إلا ما تعرفُهُ النملةُ منكَ ومِنْ سكَّانِ بيتِكَ !

نعمْ ، ليسَ للنملةِ طريقٌ إلىٰ أنْ تعرفَكَ وتعرفَ عجائبَ قصرِكَ وبدائعَ صنعةِ الصانعِ فيهِ ، وأمَّا أنتَ . . فلكَ قدرةٌ علىٰ أنْ تجولَ في الملكوتِ وتعرفَ من عجائبِهِ ما الخلقُ غافلونَ عنهُ .

ولنقبضْ عِنانَ الكلامِ عنْ هٰذا النمطِ ، فإنَّهُ مجالٌ لا آخرَ لهُ ، ولوِ استقصينا أعماراً طويلةً . . لمْ نقدرْ علىٰ شرحِ ما تفضَّلَ اللهُ تعالىٰ علينا بمعرفتِهِ ، وكلُّ ما عرفناهُ قليلٌ نزْرٌ حقيرٌ بالإضافةِ إلىٰ ما عرفَهُ جملةُ العلماءِ والأولياءِ ، وما عرفوهُ قليلٌ نزْرٌ حقيرٌ بالإضافةِ إلىٰ ما عرفَهُ الأنبياءُ عليهِمُ السلامُ ، وجملةُ ما عرفوهُ قليلٌ بالإضافةِ إلىٰ ما عرفَهُ نبيُّنا محمدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وما عرفَهُ الأنبياءُ كلُّهُمْ قليلٌ بالإضافةِ إلىٰ ما عرفَهُ الملائكةُ المقرَّبونَ ؛ كإسرافيلَ وجبريلَ وغيرِهما ، ثمَّ جميعُ علومِ الملائكةِ والجنِّ

والإنسِ إذا أضيفَ إلىٰ علمِ اللهِ سبحانَهُ وتعالىٰ لمْ يستحقَّ أنْ يُسمَّىٰ علماً ، بلْ هوَ إلىٰ أنْ يُسمَّىٰ دهشاً وحيرةً وقصوراً وعجزاً أقربُ .

فسبحانَ مَنْ عرَّفَ عبادَهُ ما عرَّفَ ، ثمَّ خاطبَ جميعَهُمْ فقالَ : ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ .

فهٰذا بيانُ معاقدِ الجملِ التي يجولُ فيها فكرُ المتفكِّرينَ في خلقِ اللهِ تعالىٰ ، وليسَ فيها فكرٌ في ذاتِ اللهِ تعالىٰ ، ولكنْ يُستفادُ مِنَ الفكرِ في الخلقِ ـ لا محالةَ ـ معرفةُ الخالقِ وعظمتِهِ ، وجلالِهِ وقدرتِهِ ، وكلما استكثرتَ مِنْ معرفةِ عجيبِ صنعِ اللهِ تعالىٰ . . كانَتْ معرفتُكَ بجلالِهِ وعظمتِهِ أتمَّ ، وهٰذا كما أنَّكَ تعظِّمُ عالماً بسببِ معرفتِكَ بعلمِهِ ، فلا تزالُ تطلعُ علىٰ غريبةٍ غريبةٍ مِنْ تصنيفِهِ أوْ شعرِهِ فتزدادُ بهِ معرفةً ، وتزدادُ محبَّةً لهُ وتوقيراً وتعظيماً واحتراماً ، حتىٰ إنَّ كلَّ كلمةٍ مِنْ كلماتِهِ ، وكلَّ بيتٍ عجيبٍ مِنْ أبياتِ شعرِهِ . . يزيدُهُ محلاً في قلبِكَ ، ويستدعي التعظيمَ لهُ في نفسِكَ .

فهكذا تأمَّلْ في خلقِ اللهِ تعالىٰ وتصنيفِهِ وتأليفِهِ ، وكلُّ ما في الوجودِ مِنْ خلقِ اللهِ تعالىٰ وتصنيفِهِ ، والنظرُ والفكرُ فيهِ لا يتناهىٰ أبداً ، وإنَّما لكلِّ عبدٍ منهُ بقدْرِ ما رُزِقَ ، فلنقتصرْ علىٰ ما ذكرناهُ ، ولنضفْ إلىٰ هٰذا ما فصَّلناهُ في كتابِ الشكرِ ، فإنَّا نظرنا في ذلكَ الكتابِ في فعلِ اللهِ تعالىٰ مِنْ حيثُ هوَ إحسانٌ إلينا وإنعامٌ علينا ، وفي هٰذا الكتابِ نظرُنا فيهِ مِنْ حيثُ إنَّهُ فعلُ اللهِ تعالىٰ فقطْ .

وكلُّ ما نظرنا فيهِ فإنَّ الطبيعيَّ[1] ينظرُ فيهِ ويكونُ نظرُهُ سببَ ضلالِهِ وشقاوتِهِ ، والموفَّقُ ينظرُ فيهِ فيكونُ سببَ هدايتِهِ وسعادتِهِ ، وما مِنْ ذرَّةٍ في السماءِ والأرضِ إلا واللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ يضلُّ بها مَنْ يشاءُ ، ويهدي بها مَنْ يشاءُ ، فمَنْ نظرَ في هٰذهِ الأمورِ مِنْ حيثُ إنَّها فعلُ اللهِ تعالىٰ وصنعُهُ . . استفادَ منهُ المعرفةَ بجلالِ اللهِ تعالىٰ وعظمتِهِ واهتدىٰ بهِ ، ومَنْ نظرَ فيها قاصراً للنظرِ عليها مِنْ حيثُ تأثيرُ بعضِها في بعضٍ ، لا مِنْ حيثُ ارتباطُها بمسبِّبِ الأسبابِ . . فقدْ شقيَ وارتدىٰ ، فنعوذُ باللهِ مِنَ الضلالِ ، ونسألُهُ أنْ يجنبَنا مزلَّةَ أقدامِ الجهَّالِ بمنِّهِ وكرمِهِ وفضلِهِ ، وجودِهِ ورحمتِهِ .

* * *

تم كتاب التفكر

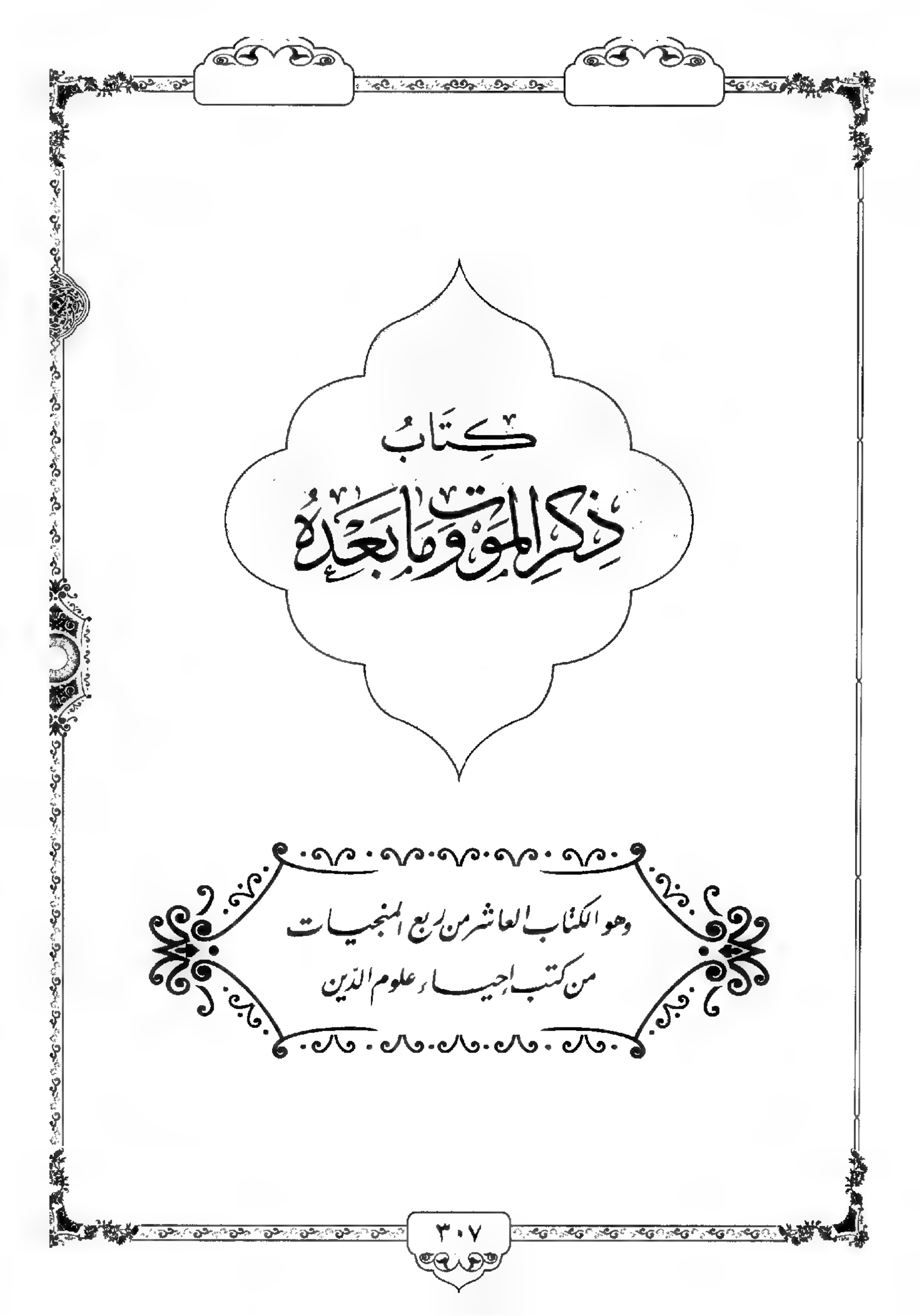
وهو الكتاب التاسع من ربع المنجيات من كتب إحياء علوم الدين

والحمد لله أولاً وآخراً ، والصلاة والسلام على نبيه وآله باطناً وظاهراً

يتلوه كتاب ذكر الموت وما بعده

---

(١) الذي يذهب إلىٰ تأثير الطبائع في الأشياء . « إتحاف » (١٠/٢١٩) .



كتاب ذكر الموت وما بعده

وهو الكتاب العاشر من ربع المنجيات
من كتب إحياء علوم الدين

كتاب ذكر الموت وما بعده

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الذي قصمَ بالموتِ رقابَ الجبابرةِ ، وكسرَ بهِ ظهورَ الأكاسرةِ ، وقصرَ بهِ آمالَ القياصرةِ ، الذينَ لمْ تزلْ قلوبُهُم عنْ ذكرِ الموتِ نافرةً ، حتىٰ جاءَهَمُ الوعدُ الحقُّ فأرداهُمْ في الحافرةِ ، فنُقلوا مِنَ القصورِ إلى القبورِ ، ومِنْ ضياءِ المهودِ إلىٰ ظلمةِ اللحودِ ، ومِنْ ملاعبةِ الجواري والغلمانِ إلىٰ مصاحبةِ الهوامِّ والديدانِ ، ومِنَ التنعُّمِ بالطعامِ والشرابِ إلى التمرُّغِ في الترابِ ، ومِنْ أُنْسِ العشرةِ إلىٰ وحشةِ الوحدةِ ، ومِنَ المضجعِ الوثيرِ إلى المصرعِ الوبيلِ ، فانظرْ هلْ وجدوا مِنَ الموتِ حصناً وعزّاً ، أوِ اتخذوا مِنْ دونِهِ حجاباً وحرزاً ؟! وانظرْ هلْ تحسُّ منهُمْ مِنْ أحدٍ أوْ تسمعُ لهُمْ رِكْزاً ؟!

فسبحانَ مَن تفرَّدَ بالقهرِ والاستيلاءِ ، واستأثرَ باستحقاقِ البقاءِ ، وأذلَّ أصنافَ الخلقِ بما كتبَ عليهِمْ مِنَ الفناءِ ، ثمَّ جعلَ الموتَ مخلصاً للأتقياءِ ، وموعداً في حقِّهِمْ للِّقاءِ ، وجعلَ القبرَ سجناً للأشقياءِ ، وحبساً ضيقاً عليهِمْ إلىٰ يومِ الفصلِ والقضاءِ ، فلهُ الإنعامُ بالنعمِ المتظاهرةِ[1] ، ولهُ الانتقامُ

---

(١) أي : العديدة المعاونة بعضها بعضاً . « إتحاف » (١٠/ ٢٢١) .

بالنقمِ القاهرةِ ، ولهُ الشكرُ في السماواتِ والأرضِ ، ولهُ الحمدُ في الأولىٰ والآخرةِ .

والصلاةُ علىٰ محمدٍ ذي المعجزاتِ الظاهرةِ ، والآياتِ الباهرةِ ، وعلىٰ آلِهِ وأصحابِهِ وسلَّمَ تسليماً كثيراً .

أما بعد :

فجديرٌ بمَنِ الموتُ مصرعُهُ ، والترابُ مضجعُهُ ، والدودُ أنيسُهُ ، ومُنْكَرٌ ونَكِيرٌ جليسُهُ ، والقبرُ مقرُّهُ ، وبطنُ الأرضِ مستقرُّهُ ، والقيامةُ موعدُهُ ، والجنَّةُ أوِ النارُ موردُهُ . ألاَّ يكونَ لهُ فكرٌ إلاَّ في الموتِ ، ولا ذكرٌ إلاَّ لهُ ، ولا استعدادٌ إلاَّ لأجلِهِ ، ولا تدبيرٌ إلاَّ فيهِ ، ولا تطلُّعٌ إلاَّ إليهِ ، ولا تعريجٌ إلاَّ عليهِ ، ولا اهتمامٌ إلاَّ بهِ ، ولا حومٌ إلاَّ حولَهُ ، ولا انتظارٌ وتربُّصٌ إلاَّ لهُ ، وحقيقٌ بأنْ يعُدَّ نفسَهُ مِنَ الموتىٰ ويراها في أصحابِ القبورِ ؛ فإنَّ كلَّ ما هوَ آتٍ قريبٌ ، والبعيدُ ما ليسَ بآتٍ .

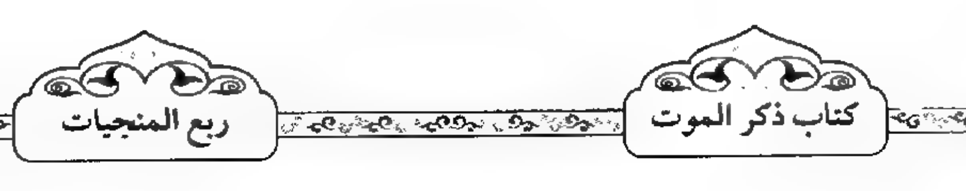
وقدْ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الكيِّسُ مَنْ دانَ نفسَهُ وعملَ لما بعدَ الموتِ »[1] ، ولنْ يتيسَّرَ الاستعدادُ للشيءِ إلاَّ عندَ تجدُّدِ ذكرِهِ على القلبِ ، ولا يتجدَّدُ ذكرُهُ إلاَّ عندَ التذكُّرِ بالإصغاءِ إلى المذكِّراتِ لهُ ، والنظرِ في المنبِّهاتِ عليهِ .

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٥٩) ، وابن ماجه (٤٢٦٠) من حديث شدّاد بن أوس رضي الله عنه .

ونحنُ نذكرُ مِنْ أمرِ الموتِ ومقدماتِهِ ولواحقِهِ ، وأحوالِ الآخرةِ والقيامةِ ، والجنَّةِ والنارِ . . ما لا بدَّ للعبدِ مِنْ تذكارِهِ على التكرارِ ، وملازمتِهِ بالافتكارِ والاستبصارِ ؛ ليكونَ ذلكَ مستحثاً على الاستعدادِ فقدْ قرُبَ لما بعدَ الموتِ الرحيلُ ، فما بقيَ مِنَ العمرِ إلاَّ قليلٌ ، والخلقُ عنهُ غافلونَ ، ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ ، ونحنُ نذكرُ ما يتعلَّقُ بالموتِ في شطرينِ .

* * *



الشَّطْرُ الأَوَّلُ
في مقدّمات الموت وتوابعه إلى نفخة الصّور
وفيه ثمانية أبواب

* * *

البَابُ الأوّلُ
في فضل ذكر الموت والترغيب في الإكثار من ذكره

اعلمْ : أنَّ المنهمكَ في الدنيا ، المكبَّ علىٰ غرورِها ، المحبَّ لشهواتِها . . يغفُلُ قلبُهُ ـ لا محالةَ ـ عنْ ذكرِ الموتِ فلا يذكرُهُ ، وإذا ذُكِّرَ بهِ . . كرهَهُ ونفرَ منهُ ، أولئكَ همُ الذينَ قالَ اللهُ تعالىٰ فيهِمْ : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

ثمَّ الناسُ إمَّا منهمكٌ ، أو تائبٌ مبتدئٌ ، أوْ عارفٌ منتهٍ .

❊ ❊ ❊

أمَّا المنهمكُ : فلا يذكرُ الموتَ ، وإنْ ذكرَهُ . . فيذكرُهُ للتأسُّفِ علىٰ دنياهُ ، ويشتغلُ بمذمَّتِهِ ، وهٰذا يزيدُهُ ذكرُ الموتِ مِنَ اللهِ بعداً .

❊ ❊ ❊

وأمَّا التائبُ : فإنَّهُ يكثرُ ذكرَ الموتِ ؛ لينبعثَ بهِ مِنْ قلبِهِ الخوفُ والخشيةُ ، فيفيَ بتمامِ التوبةِ ، وربَّما يكرهُ الموتَ خيفةً مِنْ أَنْ يختطفَهُ قبلَ تمامِ التوبةِ وقبلَ إصلاحِ الزادِ ، وهوَ معذورٌ في كراهةِ الموتِ ، ولا يدخلُ هٰذا تحتَ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ كرهَ لقاءَ اللهِ . . كرهَ اللهُ

لقاءَهُ »[1] فإنَّ هٰذا ليسَ يكرهُ الموتَ ولقاءَ اللهِ ، وإنَّما يخافُ فوتَ لقاءِ اللهِ لقصورِهِ وتقصيرِهِ ، وهو كالذي يتأخَّرُ عنْ لقاءِ الحبيبِ مشتغلاً بالاستعدادِ للقائِهِ علىٰ وجهٍ يرضاهُ ، فلا يُعدُّ كارهاً للقائِهِ ، وعلامةُ هٰذا : أنْ يكونَ دائمَ الاستعدادِ لهُ ، لا شغلَ لهُ سواهُ ، وإلا . . التحقَ بالمنهمكِ في الدنيا .

❁ ❁ ❁

وأمَّا العارفُ : فإنَّهُ يذكرُ الموتَ دائماً ؛ لأنَّهُ موعدُ لقائِهِ بحبيبِهِ ، والمحبُّ لا ينسىٰ قطُّ موعدَ لقاءِ الحبيبِ ، وهٰذا في غالبِ الأمرِ يستبطىءُ مجيءَ الموتِ ويحبُّ مجيئَهُ ؛ ليتخلَّصَ مِنْ دارِ العاصينَ ، وينتقلَ إلىٰ جوارِ ربِّ العالمينَ ، كما رُوِيَ عنْ حذيفةَ : أنَّهُ لمَّا حضرَتْهُ الوفاةُ . . قالَ : (حبيبٌ جاءَ علىٰ فاقةٍ ، لا أفلحَ مَنْ ندمَ ، اللهمَّ ؛ إنْ كنتَ تعلمُ أنَّ الفقرَ أحبُّ إليَّ مِنَ الغنىٰ ، والسقمَ أحبُّ إليَّ مِنَ الصحةِ ، والموتَ أحبُّ إليَّ مِنَ الحياةِ . . فسهِّلْ عليَّ الموتَ حتىٰ ألقاكَ)[2] .

فإذاً ؛ التائبُ معذورٌ في كراهةِ الموتِ ، وهٰذا معذورٌ في حبِّ الموتِ وتمنِّيهِ ، وأعلىٰ منهما رتبةً مَنْ فوَّضَ أمرَهُ إلى اللهِ تعالىٰ ، فصارَ لا يختارُ لنفسِهِ موتاً ولا حياةً ، بلْ يكونُ أحبُّ الأشياءِ إليهِ أحبَّها إلىٰ مولاهُ ، فهٰذا

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٧) ، ومسلم (٢٦٨٣) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٨٢) بنحوه .

قدِ انتهىٰ بفرطِ الحبِّ والولاءِ إلىٰ مقامِ التسليمِ والرضا ، وهوَ الغايةُ والمنتهىٰ[1] .

❁ ❁ ❁

وعلىٰ كلِّ حالٍ : ففي ذكرِ الموتِ ثوابٌ وفضلٌ ؛ فإنَّ المنهمكَ أيضاً يستفيدُ بذكرِ الموتِ التجافيَ عنِ الدنيا ؛ إذْ يتنغَّصُ عليهِ نعيمُهُ ، ويتكدَّرُ عليهِ صفوُ لذَّتِهِ ، وكلُّ ما يكدِّرُ على الإنسانِ اللذاتِ والشهواتِ . . فهوَ مِنْ أسبابِ النجاةِ .

❁ ❁ ❁

---

(١) لأنه لا يتصور وقوع ذلك إلا بعد كمال المحبة ، فلو تمنىٰ أهل النهىٰ من أولي الألباب غاية الأماني ، فكونت لهم علىٰ ما تمنوا . . لكان رضاهم عن الله في تدبيره ومعرفتهم بحسن تقديره خيراً لهم من تحري أمانيهم ، وأفضل لهم عند الله من قِبَلِ أن الله أحكم الحاكمين . « إتحاف » (١٠/٢٢٣) .

بيان فضل ذكر الموت كيفما كان

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أكثروا مِنْ ذكرِ هاذمِ اللذّاتِ »[١] أي : نغِّصوا بذكرِهِ اللذاتِ حتىٰ ينقطعَ ركونُكُمْ إليها ، فتقبلوا على اللهِ تعالىٰ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لَوْ تعلمُ البهائمُ مِنَ الموتِ ما يعلمُ ابنُ آدمَ . . ما أكلتُمْ منها سميناً »[٢] .

وقالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : يا رسولَ اللهِ ؛ هلْ يُحشرُ معَ الشهداءِ أحدٌ ؟ قالَ : « نعمْ ؛ مَنْ يذكرُ الموتَ في اليومِ والليلةِ عشرينَ مرَّةً »[٣] .

وإنَّما سببُ هٰذهِ الفضيلةِ كلِّها أنَّ ذكرَ الموتِ يوجبُ التجافيَ عنْ دارِ الغرورِ ، ويتقاضى الاستعدادَ للآخرةِ ، والغفلةُ عنِ الموتِ تدعو إلى الانهماكِ في شهواتِ الدنيا .

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٠٧) ، والنسائي (٤/٤) ، وابن ماجه (٤٢٥٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه القضاعي في « مسند الشهاب » (١٤٣٤) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٧٣) عن أم صُبَيَّة الجهنية رضي الله عنها مرفوعاً .

(٣) رواه الطبراني في « الأوسط » (٧٦٧٢) ولفظه : أنها قالت : يا رسول الله ؛ ليس الشهيد إلا من قتل في سبيل الله ؟ فقال : « يا عائشة ؛ إن شهداء أمتي إذاً لقليل ، من قال في يوم خمسة وعشرين مرة : اللهم ؛ بارك لي في الموت وفيما بعد الموت ، ثم مات علىٰ فراشه . . أعطاه الله أجر شهيد » .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تحفةُ المؤمنِ الموتُ »[1] .

وإنَّما قالَ هٰذا لأنَّ الدنيا سجنُ المؤمنِ ؛ إذْ لا يزالُ فيها في عناءٍ مِنْ مقاساةِ نفسِهِ ، ورياضةِ شهواتِهِ ، ومدافعةِ شيطانِهِ ، فالموتُ إطلاقٌ لهُ مِنْ هٰذا العذابِ ، والإطلاقُ تحفةٌ في حقِّهِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الموتُ كفارةٌ لكلِّ مسلمٍ »[2] .

وأرادَ بهٰذا المسلمَ حقّاً ، المؤمنَ صدقاً ، الذي سلمَ المسلمونَ مِنْ لسانِهِ ويدِهِ ، وتحقَّقَتْ فيهِ أخلاقُ المؤمنينَ ، ولمْ يتدنَّسْ مِنَ المعاصي إلا باللممِ والصغائرِ ، فالموتُ يطهِّرُهُ منها ويكفِّرُها بعدَ اجتنابِهِ الكبائرَ ، وإقامتِهِ الفرائضَ[3] .

وقالَ عطاءٌ الخراسانيُّ : مرَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بمجلسٍ قدِ

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٥٩٩) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣١٩) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما مرفوعاً ، والتحفة : ما أُطرف به الرجل من البر واللطف ، فالموت خير تحفة يهديها الحق سبحانه لعباده المؤمنين .

(٢) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (ص٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ١٢١) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (١٧١) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٤٢٠) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً ، قال الحافظ السخاوي في « المقاصد الحسنة » (١٢٠٩) : (وصححه أبو بكر ابن العربي ، وقال العراقي في « أماليه » : إنه ورد من طرق يبلغ بها رتبة الحسن) .

(٣) أو يحمل الحديث علىٰ موت مخصوص ، كما روى البخاري (٢٨٣٠) ، ومسلم (١٩١٦) من حديث أنس رضي الله عنه أيضاً مرفوعاً : « الطاعون شهادة لكل مسلم » .

استعلاءُ الضحكُ ، فقالَ : « شُوبوا مجلسَكمْ بذكرِ مكدِّرِ اللذَّاتِ » ، قالوا : وما مكدِّرُ اللذَّاتِ ؟ قالَ : « الموتُ »[1] .

وقالَ أنسٌ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أكثروا مِنْ ذكرِ الموتِ ؛ فإنَّهُ يمحِّصُ الذنوبَ ويزهِّدُ في الدنيا »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كفىٰ بالموتِ مفرِّقاً »[3] .

وقالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « كفىٰ بالموتِ واعظاً »[4] .

وخرجَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلى المسجدِ ؛ فإذا قومٌ يتحدَّثونَ ويضحكونَ ، فقالَ : « اذكروا الموتَ ، أما والذي نفسي بيدِهِ ؛ لوْ تعلمونَ ما أعلمُ . . لضحكتُمْ قليلاً ، ولبكيتُمْ كثيراً »[5] .

---

(١) قال الحافظ العراقي : (رواه ابن أبي الدنيا في كتاب « الموت » هٰكذا مرسلاً ، ورويناه في « أمالي الخلال » من حديث أنس ، ولا يصح) . « إتحاف » (١٠/٢٢٨) ، وقد روىٰ نحوه أبو نعيم في « الحلية » (٩/٢٥٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٨٠٢) من حديث أنس رضي الله عنه قال : مرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوم يضحكون أو يمزحون ، فقال : « أكثروا ذكر هاذم اللذات » .

(٢) قال الحافظ العراقي : (رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » بإسناد ضعيف جداً) . « إتحاف » (١٠/٢٢٨) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (٣٢٨) ، والحارث بن أبي أسامة في « مسنده » (٩٠٨) .

(٤) رواه القضاعي في « مسند الشهاب » (١٤١٠) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٧٢) من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنهما مرفوعاً ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (١٤٨) من زيادات نعيم بن حماد موقوفاً علىٰ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٥) قال الحافظ العراقي : (رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » من حديث ابن عمر بإسناد =

وذُكِرَ عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رجلٌ ، فأحسنوا الثناءَ عليهِ ، فقالَ : « كيفَ ذكرُ صاحبِكُمْ للموتِ ؟ » قالوا : ما كنَّا نكادُ نسمعُهُ يذكرُ الموتَ ، قالَ : « فإنَّ صاحبَكُمْ ليسَ هناكَ »[(١)] .

وقالَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : أتيتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عاشرَ عشرةٍ ، فقالَ رجلٌ مِنَ الأنصارِ : مَنْ أكيسُ الناسِ وأكرمُ الناسِ يا رسولَ اللهِ ؟ فقالَ : « أكثرُهُمْ ذكراً للموتِ ، وأشدُّهُمْ استعداداً لهُ ، أولئكَ هُمُ الأكياسُ ، ذهبوا بشرفِ الدنيا وكرامةِ الآخرةِ »[(٢)] .

* * *

وأمَّا الآثارُ :

فقدْ قالَ الحسنُ رحمَهُ اللهُ تعالىٰ : فضحَ الموتُ الدنيا ، فلمْ يتركْ لذي لبٍّ فرحاً[(٣)] .

وقالَ الربيعُ بنُ خُثَيمٍ : ما غائبٌ ينتظرُهُ المؤمنُ خيراً لهُ مِنَ الموتِ[(٤)] ،

= ضعيف). « إتحاف » (١٠/ ٢٢٩)، ورواه تمام في « فوائده » (٤٨٤) من حديثه أيضاً .

(١) رواه البزار في « مسنده » (٦٩٤٩) ، وابن عدي في « الكامل » (٧/ ١٥٣) من حديث أنس رضي الله عنه .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « مكارم الأخلاق » (٣) ، والطبراني في « الكبير » (١٢/ ٤١٧) ، ورواه مختصراً ابن ماجه (٤٢٥٩) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ١٤٩) .

(٤) رواه ابن أبي شيبة (٣٥٩٨٩) ، وابن المبارك في « الزهد » (٢٧٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ١١٤) .

وكانَ يقولُ : لا تشعروا بي أحداً ، وسلُّوني إلىٰ ربِّي سلاًّ[1] .

وكتبَ بعضُ الحكماءِ إلىٰ رجلٍ مِنْ إخوانِهِ : يا أخي ؛ احذرِ الموتَ في هٰذهِ الدارِ قبلَ أنْ تصيرَ إلىٰ دارٍ تتمنَّىٰ فيها الموتَ فلا تجدُهُ[2] .

وكانَ ابنُ سيرينَ إذا ذُكِرَ عندَهُ الموتُ . . ماتَ كلُّ عضوٍ منهُ[3] .

وكانَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ يجمعُ كلَّ ليلةٍ الفقهاءَ ، فيتذاكرونَ الموتَ والقيامةَ والآخرةَ ، ثمَّ يبكونَ حتىٰ كأنَّ بينَ أيديهِمْ جنازةً[4] .

وقالَ إبراهيمُ التيميُّ : شيئانِ قطعا عنِّي لذاذةَ الدنيا : ذكرُ الموتِ ، والوقوفُ بينَ يديِ اللهِ تعالىٰ[5] .

وقالَ كعبٌ : مَنْ عرفَ الموتَ . . هانَتْ عليهِ مصائبُ الدنيا وهمومُها[6] .

وقالَ مطرِّفٌ : رأيتُ فيما يرى النائمُ كأنَّ قائلاً يقولُ في وسَطِ مسجدِ

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٣٣) ، وفي (أ) : (إذا أنا متُّ . . فلا تشعروا . . .) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا . « إتحاف » (١٠/ ٢٣١) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٢٧٢) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٥٥٧ ، ٥٥٨) .

(٤) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٥/ ٢٣٩) .

(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٨٨) عن عبد الأعلى التيمي .

(٦) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٤٤) .

البصرةِ: قطعَ ذكرُ الموتِ قلوبَ الخائفينَ ، فواللهِ ؛ ما تراهُمْ إلاَّ والهينَ[1] .

وقالَ أشعثُ : كنَّا ندخلُ على الحسنِ ؛ فإنَّما هوَ النارُ ، وأمرُ الآخرةِ ، وذكرُ الموتِ[2] .

وقالَتْ صفيَّةُ رضيَ اللهُ عنها : (إنَّ امرأةً شكَتْ إلىٰ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها قساوةَ قلبِها ، فقالَتْ : أكثري ذكرَ الموتِ . . يرقَّ قلبُكِ ، ففعلَتْ ، فرقَّ قلبُها ، فجاءَتْ تشكرُ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها)[3] .

وكانَ عيسىٰ عليهِ السلامُ إذا ذُكِرَ الموتُ عندَهُ . . يقطرُ جلدُهُ دماً[4] .

وكانَ داوودُ عليهِ السلامُ إذا ذكرَ الموتَ والقيامةَ . . بكىٰ حتىٰ تنخلعَ أوصالُهُ ، فإذا ذكرَ الرحمةَ . . رجعَتْ إليهِ نفسُهُ[5] .

وقالَ الحسنُ : (ما رأيتُ عاقلاً قطُّ إلا أصبتُهُ مِنَ الموتِ حَذِراً ، وعليهِ حزيناً)[6] .

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ لبعضِ العلماءِ[7] : عظْني ، فقالَ : أنتَ أوَّلُ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (٢٣٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٤٥) ، قاله لعبد العزيز بن سلمان ، فخرَّ مغشياً عليه .

(٢) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٣/ ٢٠٧) يقارن حاله بحال ابن سيرين ، وقوله : (فإنما هو النار) أي : في ذكرها وذكر أحوالها .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب « الموت » . « إتحاف » (١٠/ ٢٣١) .

(٤) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٧/ ٤٦٨) عن أبي عمر الضرير بلاغاً .

(٥) رواه بنحوه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٢٨) .

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب « الموت » . « إتحاف » (١٠/ ٢٣٢) .

(٧) هو يزيد الرقاشي رحمه الله تعالىٰ .

خليفةٍ يموتُ ؟! قالَ : زِدْني ، قالَ : ليسَ مِنْ آبائِكَ أحدٌ إلىٰ آدمَ إلا ذاقَ الموتَ ، وقدْ جاءَتْ نوبتُكَ ، فبكىٰ عمرُ لذلكَ[1] .

وكانَ الربيعُ بنُ خُثَيمٍ قدْ حفرَ قبراً في دارِهِ ، فكانَ ينامُ فيهِ كلَّ يومٍ مرَّاتٍ ، يستديمُ بذلكَ ذكرَ الموتِ[2] ، وكانَ يقولُ : لوْ فارقَ ذكرُ الموتِ قلبي ساعةً واحدةً . . لفسدَ[3] .

وقالَ مطرِّفُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ الشخِّيرِ : إنَّ هـٰذا الموتَ قدْ نغَّصَ علىٰ أهلِ النعيمِ نعيمَهُم ، فاطلبوا نعيماً لا موتَ فيهِ[4] .

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ لعنبسةَ : أكثرْ ذكرَ الموتِ ؛ فإنْ كنتَ واسعَ العيشِ . . ضيَّقَهُ عليكَ ، وإنْ كنتَ ضيِّقَ العيشِ . . وسَّعَهُ عليكَ[5] .

وقالَ أبو سليمانَ الدارانيُّ : قلتُ لأمِّ هارونَ : أتحبِّينَ الموتَ ؟ قالَتْ : لا ، قلتُ : ولمَ ؟ قالَتْ : لوْ عصيتُ آدمياً . . ما اشتهيتُ لقاءَهُ ، فكيفَ أحبُّ لقاءَهُ وقدْ عصيتُهُ ؟![6] .

* * *

---

(١) رواه البيهقي في « الزهد » (٥٥١) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب « الموت » . « إتحاف » (١٠/ ٢٣٢) .
(٣) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٥٨٠)، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ١١٦) .
(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٢٠٤) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٥٥٥) .
(٥) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٢٦٤) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٥٥٣) .
(٦) رواه عبد الجبار الخولاني في « تاريخ داريا » (ص١١٢) .

بيان الطريق في تحقيق ذكر الموت في القلب

اعلمْ : أنَّ الموتَ هائلٌ ، وخطرَهُ عظيمٌ ، وغفلةُ الناسِ عنهُ لقلَّةِ فكرِهِمْ فيهِ وذكرِهِمْ لهُ ، ومَنْ يذكرُهُ ليسَ يذكرُهُ بقلبٍ فارغٍ ، بلْ بقلبٍ مشغولٍ بشهواتِ الدنيا . . فلا ينجعُ ذكرُ الموتِ في قلبِهِ[1] ، فالطريقُ فيهِ أنْ يفرِّغَ العبدُ قلبَهُ عنْ كلِّ شيءٍ إلا عنْ ذكرِ الموتِ الذي هوَ بينَ يديهِ ، كالذي يريدُ أنْ يقطعَ مفازةً مخطرةً ، أوْ يركبَ البحرَ ؛ فإنَّهُ لا يتفكَّرُ إلا فيهِ ، فإذا باشرَ ذكرُ الموتِ قلبَهُ . . فيوشكُ أنْ يؤثِّرَ فيهِ ، وعندَ ذلكَ يقلُّ فرحُهُ وسرورُهُ بالدنيا ، وينكسرُ قلبُهُ .

وأوقعُ طريقٍ فيهِ : أنْ يكثرَ ذكرَ أشكالِهِ وأقرانِهِ الذينَ مضوا قبلَهُ ، فيتذكَّرَ موتَهُمْ ومصارعَهُمْ تحتَ الترابِ ، ويتذكَّرَ صورَهُمْ في مناصبِهِمْ وأحوالِهِمْ ، ويتأمَّلَ كيفَ محا الترابُ الآنَ حسنَ صورِهِمْ ، وكيفَ تبدَّدَتْ أجزاؤُهُمْ في قبورِهِمْ ، وكيفَ أرملوا نساءَهُمْ ، وأيتموا أولادَهُمْ ، وضيَّعوا أموالَهُمْ ، وخلَتْ منهُمْ مساجدُهُمْ ومجالسُهُمْ ، وانقطعَتْ آثارُهُمْ .

فمهما تذكَّرَ رجلٌ رجلاً ، وفصَّلَ في قلبِهِ حالَهُ وكيفيةَ موتِهِ ، وتوهَّمَ صورَتَهُ ، وتذكَّرَ نشاطَهُ وتردُّدَهُ ، وتأمُّلَهُ للعيشِ والبقاءِ ، ونسيانَهُ للموتِ ، وانخداعَهُ بمواتاةِ الأسبابِ ، وركونَهُ إلى القوَّةِ والشبابِ ، وميلَهُ إلى

---

(١) يقال : نجع الوعظ والخطاب في فلان ، مجازٌ ؛ أي : عمل فيه ودخل فأثَّر .

الضحكِ واللهوِ ، وغفلتَهُ عمَّا بينَ يديهِ مِنَ الموتِ الذريعِ والهلاكِ السريعِ ، وأنَّهُ كيفَ كانَ يتردَّدُ والآنَ قدْ تهدَّمَتْ رِجْلاَهُ ومفاصلُهُ ، وكيفَ كانَ ينطقُ وقدْ أكلَ الدودُ لسانَهُ ، وكيفَ كانَ يضحكُ وقدْ أكلَ الترابُ أسنانَهُ ، وكيف كانَ يدبِّرُ لنفسِهِ ما لا يحتاجُ إليهِ إلىٰ عشرِ سنينَ في وقتٍ لمْ يكنْ بينَهُ وبينَ الموتِ إلا شهرٌ وهوَ غافلٌ عما يُرادُ بهِ ، حتىٰ جاءَهُ الموتُ في وقتٍ لمْ يحتسبْهُ ، فانكشفَ لهُ صورةُ الملكِ ، وقرعَ سمعَهُ النداءُ إمَّا بالجنةِ أوْ بالنارِ . . فعندَ ذلكَ ينظرُ في نفسِهِ أنَّهُ مثلُهُمْ ، وغفلتَهُ كغفلتِهِمْ ، وستكونُ عاقبتُهُ كعاقبتِهِمْ .

قالَ أبو الدرداءِ رضيَ اللهُ عنهُ : (إذا ذكرتَ الموتىٰ . . فعدَّ نفسَكَ كأحدِهِمْ)(١) .

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (السعيدُ مَنْ وُعِظَ بغيرِهِ)(٢) .

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ : ألا ترونَ أنَّكُمْ تجهِّزونَ كلَّ يومٍ غادياً أوْ رائحاً إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، تضعونَهُ في صدعٍ مِنَ الأرضِ ، قدْ توسَّدَ الترابَ ، وخلَّفَ الأحبابَ ، وقطعَ الأسبابَ ؟!(٣) .

فملازمةُ هٰذهِ الأفكارِ وأمثالِها معَ دخولِ المقابرِ ومشاهدةِ المرضىٰ . .

---

(١) رواه أبو داوود في « الزهد » (٢٢٦) ضمن قول له رضي الله عنه .
(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (٣/ ١٧٤) ، ورفعه من حديثه القضاعي في « مسند الشهاب » (٧٦) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٢٦٦) .

هوَ الذي يجدِّدُ ذكرَ الموتِ في القلبِ ، حتىٰ يغلبَ عليهِ بحيثُ يصيرُ نصبَ عينيهِ ، فعندَ ذلكَ يوشكُ أنْ يستعدَّ لهُ ، ويتجافىٰ عنْ دارِ الغرورِ ، وإلا . . فالذكرُ بظاهرِ القلبِ وعذبةِ اللسانِ قليلُ الجدوىٰ في التحذيرِ والتنبيهِ .

ومهما طابَ قلبُهُ بشيءٍ مِنَ الدنيا . . ينبغي أنْ يتذكَّرَ في الحالِ أنَّهُ لا بدَّ لهُ مِنْ مفارقتِهِ .

نظرَ ابنُ مطيعٍ ذاتَ يومٍ إلىٰ دارِهِ ، فأعجبَهُ حسنُها ، فبكىٰ ثمَّ قالَ : واللهِ ؛ لولا الموتُ . . لكنتُ بكِ مسروراً ، ولولا ما نصيرُ إليهِ مِنْ ضيقِ القبورِ . . لقرَّتْ بالدنيا أعينُنا ، ثمَّ بكىٰ بكاءً شديداً حتى ارتفعَ صوتُهُ[1] .

* * *

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٢٧٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٢٨٣) ، وابن مطيع : هو عبد الله بن مطيع بن الأسود القرشي العدوي المدني .

البَابُ الثَّاني
في طول الأمل ، وفضيلة قِصَر الأمل ، وسبب طوله ، وكيفيّة معالجته

فضيلة قِصَر الأمل

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعبدِ اللهِ بنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : « إذا أصبحتَ . . فلا تحدِّثْ نفسَكَ بالمساءِ ، وإذا أمسيتَ . . فلا تحدِّثْ نفسَكَ بالصباحِ ، وخذْ مِنْ حياتِكَ لموتِكَ ، ومِنْ صحَّتِكَ لسقمِكَ ؛ فإنَّكَ يا عبدَ اللهِ لا تدري ما اسمُكَ غداً »[1] .

وروىٰ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « إنَّ أشدَّ ما أخافُ عليكُمْ خصلتانِ : اتباعُ الهوىٰ ، وطولُ الأملِ ، فأمَّا اتباعُ الهوىٰ . . فإنَّهُ يعدلُ عنِ الحقِّ ، وأمَّا طولُ الأملِ . . فإنَّهُ الحبُّ للدنيا » ، ثمَّ قالَ : « ألا إنَّ اللهَ تعالىٰ يعطي الدنيا مَنْ يحبُّ ويبغضُ ، وإذا أحبَّ عبداً . . أعطاهُ الإيمانَ ، ألا إنَّ للدينِ أبناءَ ، وللدنيا أبناءً ، فكونوا مِنْ أبناءِ الدينِ ، ولا تكونوا مِنْ أبناءِ الدنيا ، ألا إنَّ الدنيا قدِ ارتحلَتْ موليةً ، ألا إنَّ الآخرةَ قدِ ارتحلَتْ مقبلةً ، ألا وإنَّكُمْ في يومِ عملٍ ليسَ فيهِ حسابٌ ، ألا وإنَّكُمْ

---

(١) رواه بهٰذا اللفظ مرفوعاً الروياني في « مسنده » (١٤١٨) ، وعبد الجبار الخولاني في « تاريخ داريا » (ص٩٦)، ورواه موقوفاً على ابن عمر رضي الله عنهما البخاري (٦٤١٦).

توشكونَ في يومِ حسابٍ ليسَ فيهِ عملٌ »[1] .

وقالَتْ أمُّ المنذرِ : اطلعَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ذاتَ عشيةٍ إلى الناسِ فقالَ : « أيُّها الناسُ ؛ أما تستحيونَ مِنَ اللهِ ؟! » قالوا : وما ذاكَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « تجمعونَ ما لا تأكلونَ ، وتأملونَ ما لا تدركونَ ، وتبنونَ ما لا تسكنونَ ؟! »[2] .

وقالَ أبو سعيدٍ الخدريُّ رضيَ اللهُ عنهُ : اشترىٰ أسامةُ بنُ زيدٍ مِنْ زيدِ بنِ ثابتٍ وليدةً بمئةِ دينارٍ إلىٰ شهرٍ ، فسمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « ألا تعجبونَ مِنْ أسامةَ المشتري إلىٰ شهرٍ ؟! إنَّ أسامةَ لطويلُ الأملِ ، والذي نفسي بيدِهِ ؛ ما طرفَتْ عينايَ . . إلا ظننتُ أنَّ شفريَّ لا يلتقيانِ حتىٰ يقبضَ اللهُ روحي ، ولا رفعتُ طرفي فظننتُ أنّي واضعُهُ حتىٰ أُقبضَ ، ولا لقمتُ لقمةً . . إلا ظننتُ أنّي لا أسيغُها حتىٰ أغصَّ بها مِنَ الموتِ » ثمَّ قالَ : « يا بني آدمَ ؛ إنْ كنتُمْ تعقلونَ . . فعدُّوا أنفسَكُمْ مِنَ الموتىٰ ، والذي نفسي بيدِهِ ؛ إنَّ ما تُوعدونَ لآتٍ ، وما أنتُمْ بمعجزينَ »[3] .

---

(1) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٣) ، وروىٰ بعده نحوه من حديث جابر رضي الله عنه .

(2) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٥) ، ومن طريقه البيهقي في « الشعب » (١٠٠٧٨) ، وأم المنذر : هي سلمىٰ بنت قيس الأنصارية رضي الله عنها ، ورواه عن أم الوليد بنت عمر رضي الله عنها الطبرانيُّ في « الكبير » (٢٥/ ١٧٢) ، وابن عدي في « الكامل » (٧/ ٩٧) بنحوه .

(3) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٦) ، والطبراني في « مسند الشاميين » =

وعنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ يخرجُ يُهَرِيقُ الماءَ فيتمسَّحُ بالترابِ ، فأقولُ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنَّ الماءَ منكَ قريبٌ ؛ فيقولُ : « ما يدريني ، لعلِّي لا أبلغُهُ »[١] .

ورُوِيَ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أخذَ ثلاثةَ أعوادٍ ، فغرزَ عوداً بينَ يديهِ ، والآخرَ إلىٰ جنبِهِ ، وأمَّا الثالثُ . . فأبعدَهُ ، فقالَ : « هلْ تدرونَ ما هـٰذا ؟ » قالوا : اللهُ ورسولُهُ أعلمُ ، قالَ : « هـٰذا الإنسانُ ، وهـٰذا الأجلُ ، وذاكَ الأملُ يتعاطاهُ ابنُ آدمَ ويختلجُهُ الأجلُ دونَ الأملِ »[٢] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مُثِّلَ ابنُ آدمَ وإلىٰ جنبِهِ تسعٌ وتسعونَ منِيَّةً ، إنْ أخطأتْهُ المنايا . . وقعَ في الهرمِ حتىٰ يموتَ »[٣] .

= (١٥٠٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٩١) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٨٠) .

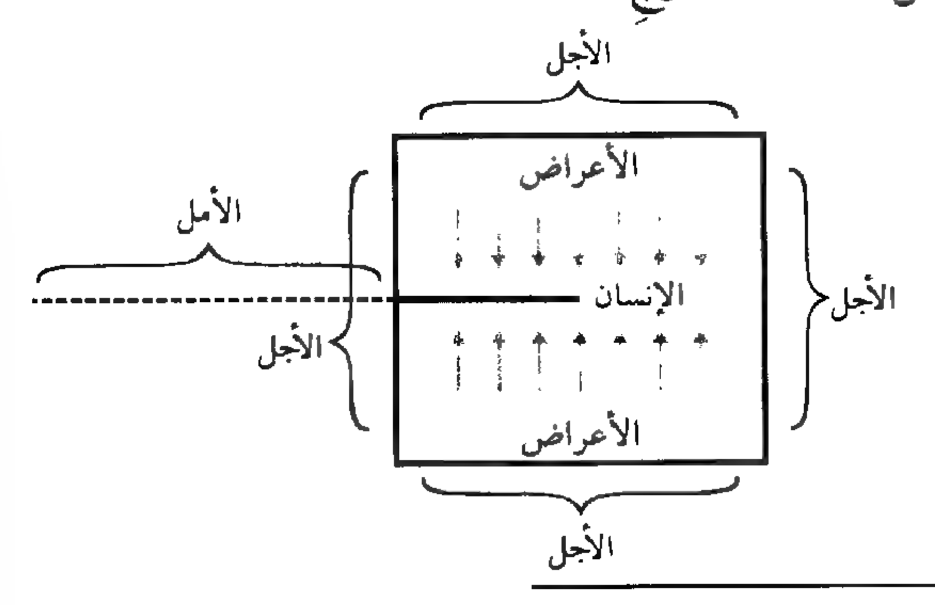
(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٩٢) ، وأحمد في « المسند » (١/ ٢٨٨) ، وابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٧) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٣/ ١٧) ، والرامهرمزي في « أمثال الحديث » (٧٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٣١١) ، والبيهقي في « الزهد الكبير » (٤٥٧) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً ، ورواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٥٤) ، وابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٠) من رواية أبي المتوكل الناجي مرسلاً ، واللفظ له ، ورواه أيضاً (١١) عنه عن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعاً .

(٣) رواه الترمذي (٢١٥٠ ، ٢٤٥٦) ، وابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٣) واللفظ له ، ويجوز في « مثل » أن يكون مبنياً للمجهول ، أو اسماً مرفوعاً على الابتداء وما بعده مخفوض ، والتقدير : مثل ابن آدم مثل الذي يكون إلىٰ جنبه تسعة وتسعون منية ، فكأن في الكلام حذفاً ، وانظر « فيض القدير » (٥/ ٥١٦) .

قالَ ابنُ مسعودٍ : (هـٰذا المرءُ ، وهـٰذهِ الحتوفُ حولَهُ شوارعُ إليهِ ، والهرمُ وراءَ الحتوفِ ، والأملُ وراءَ الهرمِ ، فهوَ يؤمِّلُ وهـٰذهِ الحتوفُ شوارعُ إليهِ ، فأيُّها أُمرَ بهِ . . أخذَهُ ، فإنْ أخطأَتْهُ الحتوفُ . . قتلَهُ الهرمُ ، وهو ينظرُ إلى الأملِ)[1] .

وقالَ عبدُ اللهِ : خطَّ لنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ خطّاً مربعاً ، وخطَّ وسطَهُ خطّاً ، وخطَّ خطوطاً إلىٰ جنبِ الخطِّ ، وخطَّ خطّاً خارجاً وقالَ : « أتدرونَ ما هـٰذا ؟ » قلنا : اللهُ ورسولُهُ أعلمُ ، قالَ : « هـٰذا الإنسانُ » للخطِّ الذي في الوسطِ ، « وهـٰذا الأجلُ محيطٌ بهِ ، وهـٰذهِ الأعراضُ » للخطوطِ التي حولَهُ « تنهشُهُ ، إنْ أخطأَهُ هـٰذا . . نهشَهُ هـٰذا ، وذاكَ الأملُ » للخطِّ الخارجِ[2] .



(١) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٤) .
(٢) رواه البخاري (٦٤١٧) ، وابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٣) ، والرسم المثبت من (أ) ، ونحوه في باقي النسخ .

وقالَ أنسٌ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يهرمُ ابنُ آدمَ ويبقىٰ معَهُ اثنتانِ : الحرصُ والأملُ » ، وفي روايةٍ : « وتشبُّ منهُ اثنتانِ : الحرصُ على المالِ ، والحرصُ على العمرِ »[١] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نجا أوَّلُ هـٰذهِ الأمَّةِ باليقينِ والزهدِ ، ويهلكُ آخرُ هـٰذهِ الأمةِ بالبخلِ والأملِ »[٢] .

وقيلَ : بينَما عيسىٰ عليهِ السلامُ جالسٌ وشيخٌ يعملُ بمسحاةٍ يثيرُ بها الأرضَ ؛ فقالَ عيسىٰ : اللهمَّ ؛ انزعْ منهُ الأملَ ، فوضعَ الشيخُ المسحاةَ واضطجعَ ، فلبثَ ساعةً ، فقالَ عيسىٰ : اللهمَّ ؛ ارددْ إليهِ الأملَ ، فقامَ ، فجعلَ يعملُ ، فسألَهُ عيسىٰ عنْ ذلكَ ، فقالَ : بينَما أنا أعملُ ؛ إذْ قالَتْ لي نفسي : إلىٰ متىٰ تعملُ وأنتَ شيخٌ كبيرٌ ؟ فألقيتُ المسحاةَ واضطجعتُ ، ثمَّ قالَتْ لي نفسي : واللهِ ؛ لا بدَّ لكَ مِنْ عيشٍ ما بقيتَ ، فقمتُ إلىٰ مسحاتي[٣] .

وقالَ الحسنُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أكلُّكُمْ يحبُّ أنْ يدخلَ الجنَّةَ ؟ » قالوا : نعمْ يا رسولَ اللهِ ، قالَ : « قصِّروا مِنَ الأملِ ،

---

(١) رواهما ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٨ ، ١٩) ، وبالرواية الثانية رواه مسلم (١٠٤٧) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٢٠) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٤٦) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٢٢) .

وثبتوا آجالَكُمْ بينَ أبصارِكُمْ ، واستحيوا مِنَ اللهِ حقَّ الحياءِ »(١) .

وكانَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ في دعائِهِ : « اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنْ دنيا تمنعُ خيرَ الآخرةِ ، وأعوذُ بكَ مِنْ حياةٍ تمنعُ خيرَ المماتِ ، وأعوذُ بكَ مِنْ أملٍ يمنعُ خيرَ العملِ »(٢) .

❁ ❁ ❁

الآثار :

قالَ مطرِّفُ بنُ عبدِ اللهِ : لو علمتُ متىٰ أجلي . . لخشيتُ علىٰ ذهابِ عقلي ، ولكنَّ اللهَ تعالىٰ مَنَّ علىٰ عبادِهِ بالغفلةِ عنِ الموتِ ، ولولا الغفلةُ . . ما تهنَّؤُوا بعيشٍ ، ولا قامَتْ بينَهُمُ الأسواقُ(٣) .

وقالَ الحسنُ : السهوُ والأملُ نعمتانِ عظيمتانِ علىٰ بني آدمَ ، ولولاهُما . . ما مشى المسلمونَ في الطرقِ(٤) .

وقالَ الثوريُّ : بلغني أنَّ الإنسانَ خُلِقَ أحمقَ ، ولولا ذلكَ . . لَمْ يهنأْهُ العيشُ(٥) .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٣١) عن الحسن مرسلاً .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٤٦) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٢١٠) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٣٠) بلفظ : « وجدت الغفلة التي ألقى الله عز وجلَّ في قلوب الصديقين من خلقه رحمةً رحمهم بها ، ولو ألقىٰ في قلوبهم من الخوف علىٰ قدر معرفتهم به . . ما هنأهم العيش » .
(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ١٦٤) .
(٥) رواه البيهقي في « الشعب » (١٠٣١) .

وقالَ سعيدُ بنُ عبدِ الرحمـٰنِ : إنَّما عُمِّرَتِ الدنيا بقلَّةِ عقولِ أهلِها[1] .

وقالَ سلمانُ الفارسيُّ رضيَ اللهُ عنهُ : (ثلاثٌ أعجبَتْنِي حتىٰ أضحكَتْنِي : مؤمِّلُ الدنيا والموتُ يطلبُهُ ، وغافلٌ وليسَ يُغفَلُ عنهُ ، وضاحكٌ ملءَ فيهِ ولا يدري أساخطٌ ربُّ العالمينَ عليهِ أمْ راضٍ ، وثلاثٌ أحزنَتْنِي حتىٰ أبكَتْنِي : فراقُ الأحبَّةِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وحزبِهِ ، وهولُ المطلعِ ، والوقوفُ بينَ يدي ربِّي ولا أدري إلى الجنَّةِ يُؤمرُ بي أوْ إلى النَّارِ)[2] .

وقالَ بعضُهُمْ : رأيتُ زرارةَ بنَ أبي أوفىٰ بعدَ موتِهِ في المنامِ ، فقلتُ : أيُّ الأعمالِ أبلغُ عندَكُمْ ؟ قالَ : التَّوكلُ وقصرُ الأملِ[3] .

وقالَ الثوريُّ : الزُّهدُ في الدنيا قِصرُ الأملِ ، ليسَ بأكلِ الغليظِ ولا لبسِ العباءةِ[4] .

وسألَ المفضَّلُ بنُ فضالةَ ربَّهُ أنْ يرفعَ عنهُ الأملَ ، فذهبَتْ عنهُ شهوةُ الطعامِ والشرابِ ، ثمَّ دعا ربَّهُ فردَّ عليه الأملَ ، فرجعَ إلى الطعامِ والشرابِ[5] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٢٧) .
(٢) رواه أحمد في « الزهد » (٨٣٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/٢٠٧) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٣٠) .
(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/٣٨٦) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٣٣) .

وقيلَ للحسنِ : يا أبا سعيدٍ ؛ ألا تغسلُ قميصَكَ ؟! فقالَ : الأمرُ أعجلُ مِنْ ذلكَ[١] .

وقالَ الحسنُ : الموتُ معقودٌ بنواصِيكُمْ ، والدنيا تُطوىٰ مِنْ ورائِكُمْ[٢] .

وقالَ بعضُهُمْ : أنا كرجلٍ مادٍّ عنقَهُ والسيفُ عليهِ ينتظرُ متىٰ تُضربُ عنقُهُ[٣] .

وقالَ داوودُ الطَّائيُّ : لوْ أمَّلتُ أنْ أعيشَ شهراً . . لرأيتُني قدْ أتيتُ عظيماً ، وكيفَ أؤمِّلُ ذلكَ وأرى الفجائعَ تغشى الخلائقَ في ساعاتِ الليلِ والنَّهارِ ؟![٤] .

وحُكيَ أنَّهُ جاءَ شقيقٌ البلخيُّ إلىٰ أستاذٍ لهُ يُقالُ لهُ : أبو هاشمٍ الرمانيُّ وفي طرفِ كسائِهِ شيءٌ مصرورٌ ، فقالَ لهُ أستاذُهُ : أيشٍ هـٰذا الذي معَكَ ؟ فقالَ : لوزاتٌ دفعَهَا إليَّ أخٌ لي وقالَ : أحبُّ أنْ تفطرَ عليهَا ، فقالَ : يا شقيقُ ؛ وأنتَ تحدِّثُ نفسَكَ أنَّكَ تبقىٰ إلى الليلِ ؟! لا كلَّمْتُكَ أبداً ، قالَ : فأغلقَ في وجهي البابَ ودخلَ[٥] .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٧٠) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٧١) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٤١) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٤٢) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » . « إتحاف » (١٠/ ٢٤١) .

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمةُ اللهِ عليهِ في خطبتِهِ : إنَّ لكلِّ سفرٍ زاداً لا محالةَ ، فتزوَّدُوا لسفرِكُمْ مِنَ الدنيا إلى الآخرةِ التَّقوىٰ ، وكونوا كمَنْ عاينَ ما أعدَّ اللهُ مِنْ ثوابِهِ وعقابِهِ .. ترغبُوا وترهبُوا ، ولا يطولَنَّ عليكُمُ الأمدُ فتقسوَ قلوبُكُمْ ، وتنقادُوا لعدوِّكُمْ ؛ فإنَّهُ واللهِ ؛ ما بُسطَ أملُ مَنْ لا يدري لعلَّهُ لا يصبحُ بعدَ مسائِهِ ولا يمسي بعدَ صباحِهِ ، وربَّما كانتْ بينَ ذلكَ خطفاتُ المنايا ، وكمْ رأيتُ ورأيتُمْ مَنْ كانَ بالدنيا مغترّاً ، وإنَّما تقرُّ عينُ مَنْ وثقَ بالنَّجاةِ مِنْ عذابِ اللهِ تعالىٰ ، وإنَّما يفرحُ مَنْ أمِنَ مِنْ أهوالِ القيامةِ ، فأمَّا مَنْ لا يداوي كَلْماً إلاَّ أصابَهُ جرحٌ مِنْ ناحيةٍ أخرىٰ .. فكيفَ يفرحُ ؟! أعوذُ باللهِ مِنْ أنْ آمرَكُمْ بما أنهىٰ عنهُ نفسي ، فتخسرَ صفقتي وتظهرَ عيبتي ، وتبدوَ مسكنتي في يومٍ يبدو فيهِ الغنىٰ والفقرُ ، والموازينُ فيهِ منصوبةٌ ، لقَدْ عُنيتُمْ بأمرٍ لوْ عُنيَتْ بهِ النُّجومُ .. لانكدرَتْ ، ولوْ عُنيَتْ بهِ الجبالُ .. لذابَتْ ، ولوْ عُنيَتْ بهِ الأرضُ .. لتشقَّقَتْ ، أمَا تعلمونَ أنَّهُ ليسَ بينَ الجنَّةِ والنَّارِ منزلةٌ ، وأنَّكُمْ صائرونَ إلىٰ إحداهُما ؟![1] .

وكتبَ رجلٌ إلىٰ أخٍ لهُ : أمَّا بعدُ : فإنَّ الدنيا حلمٌ ، والآخرةَ يقظةٌ ، والمتوسطَ بينَهُما الموتُ ، ونحنُ في أضغاثِ أحلامٍ ، والسَّلامُ[2] .

وكتبَ آخرُ إلىٰ أخٍ لهُ : إنَّ الحزنَ على الدنيا طويلٌ ، والموتَ مِنَ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٢٩١ ـ ٢٩٢) ، وفيه : (عيلتي) بدل (عيبتي) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٥٢) .

الإنسانِ قريبٌ ، وللنَّقصِ في كلِّ يومٍ منهُ نصيبٌ ، وللبلىٰ في جسمِهِ دبيبٌ ، فبادِرْ قبلَ أنْ تُنادىٰ بالرَّحيلِ ، والسلامُ[1] .

وقالَ الحسنُ : كانَ آدمُ عليهِ السَّلامُ قبلَ أنْ يُخطىءَ أملُهُ خلفَ ظهرِهِ ، وأجلُهُ بينَ عينيْهِ ، فلمَّا أصابَ الخطيئةَ . . حُوِّلَ فجُعلَ أملُهُ بينَ عينيْهِ ، وأجلُهُ خلفَ ظهرِهِ[2] .

وقالَ عبيدُ اللهِ بنُ شميطٍ : سمعتُ أبي يقولُ : أيُّها المغترُّ بطولِ صحتِهِ ، أمَا رأيتَ ميتاً قَطُّ مِنْ غيرِ سقمٍ ؟! أيُّها المغترُّ بطولِ المهلةِ ؛ أمَا رأيتَ مأخوذاً قطُّ مِنْ غيرِ عدةٍ ؟! إنَّكَ لوْ فكَّرتَ في طولِ عمرِكَ . . لنسيتَ ما قدْ تقدَّمَ مِنْ لذَّاتِكَ ، أبالصِّحَّةِ تغترونَ ، أمْ بطولِ العافيةِ تمرحونَ ، أمِ الموتَ تأمنونَ ، أمْ علىٰ ملكِ الموتِ تجترئُونَ ؟! إنَّ ملكَ الموتِ إذا جاءَ . . لا يمنعُهُ منكَ ثروةُ مالِكَ ، ولا كثرةُ احتشادِكَ ، أما علمتَ أنَّ ساعةَ الموتِ ذاتُ كربٍ وغصصٍ وندامةٍ على التفريطِ ؟! ثمَّ يقولُ : رحمَ اللهُ عبداً عملَ لما بعدَ الموتِ ، رحمَ اللهُ عبداً نظرَ لنفسِهِ قبلَ نزولِ الموتِ[3] .

وقالَ أبو زكريا التيميُّ : بينَما سليمانُ بنُ عبدِ الملكِ في المسجدِ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٧ ـ ١٨) وفيه : (وللنفس) بدل (وللنقص) ، وبعد قوله : (بالرحيل) : (واجتهد في العمل في دار الممر قبل أن ترحل إلىٰ دار المقر) .

(٢) رواه أحمد في « الزهد » (٢٦٢) ، وابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٦٠) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٦٧) ، وفي غير (ف) : (عبد الله بن شميط) .

الحرامِ ؛ إذْ أُتِيَ بحجرٍ منقورٍ ، فطلبَ مَنْ يقرؤُهُ ، فأُتِيَ بوهبِ بنِ منبِّهٍ ؛ فإذا فيهِ : ابنَ آدمَ ؛ إنَّكَ لوْ رأيتَ قربَ ما بقيَ مِنْ أجلِكَ . . لزهدتَ في طولِ أملِكَ ، ولرغبتَ في الزيادةِ مِنْ عملِكَ ، ولقصرتَ مِنْ حرصِكَ وحيلِكَ ، وإنَّما يلقاكَ غداً ندمُكَ لوْ قدْ زلَّتْ بكَ قدمُكَ ، وأسلمَكَ أهلُكَ وحشمُكَ ، وفارقَكَ الولدُ والقريبُ ، ورفضَكَ الوالدُ والنَّسيبُ ، فلا أنتَ إلىٰ دنياكَ عائدٌ ، ولا في حسناتِكَ زائدٌ ، فاعملْ ليومِ القيامةِ قبلَ الحسرةِ والنَّدامةِ ، قالَ : فبكىٰ سليمانُ بكاءً شديداً[1] .

وقالَ بعضُهُمْ : رأيتُ كتاباً مِنْ محمَّدِ بنِ يوسفَ إلىٰ عبدِ الرَّحمـٰنِ بنِ يوسفَ : سلامٌ عليكَ ، فإنِّي أحمدُ اللهَ إليكَ الذي لا إلـٰهَ إلاَّ هوَ ، **أمَّا بعدُ** : فإنِّي أحذِّرُكَ متحوَّلَكَ مِنْ دارِ مُهلتِكَ إلىٰ دارِ إقامتِكَ وجزاءِ أعمالِكَ ، فتصيرُ في قرارِ باطنِ الأرضِ بعدَ ظاهرِهَا ، فيأتيكَ منكرٌ ونكيرٌ فيقعدانِكَ وينتهرانِكَ ، فإنْ يكنِ اللهُ معَكَ . . فلاَ بأسَ ولاَ وحشةَ ولاَ فاقةَ ، وإنْ يكنْ غيرُ ذلكَ . . فأعاذَني اللهُ وإياكَ مِنْ سوءِ مصرَعٍ ، وضيقِ مضجعٍ ، ثمَّ تبلغُكَ صيحةُ الحشرِ ونفخُ الصُّورِ ، وقيامُ الجبَّارِ جلَّ جلالُهُ لفصلِ قضاءِ الخلائقِ ، وخلاءِ الأرضِ مِنْ أهلِهَا ، والسماواتِ مِنْ سُكَّانِها ، فباحَتِ الأسرارُ ، وأُسعرَتِ النَّارُ ، ووُضعَتِ الموازينُ ، وجِيءَ بالنبيِّينَ والشهداءِ ، وقُضِيَ بينَهُمْ بالحقِّ ، وقيلَ : الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، فكمْ مِنْ مفتضَحٍ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٦٩) .

ومستورٍ ؟! وكمْ مِنْ هالكٍ وناجٍ ؟! وكمْ مِنْ معذَّبٍ ومرحومٍ ؟! فيا ليتَ شِعري ! ما حالي وحالُكَ يومَئذٍ ؟! ففي هـٰذا ما هدمَ اللذاتِ ، وسلَّىٰ عنِ الشَّهواتِ ، وقصَّرَ عنِ الأملِ ، وأيقظَ النائمينَ ، وحذَّرَ الغافلينَ ، أعانَنا اللهُ وإياكَ علىٰ هـٰذا الخطرِ العظيمِ ، وأوقعَ الدنيا والآخرةَ مِنْ قلبي وقلبِكَ موقعَهُمَا مِنْ قلوبِ المتقينَ ؛ فإنَّما نحنُ بهِ ولهُ ، والسَّلامُ[1] .

وخطبَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمةُ اللهِ عليهِ فحمدَ اللهَ وأثنىٰ عليهِ وقالَ : (أيُّها النَّاسُ ؛ إنَّكُم لمْ تُخلقوا عبثاً ولنْ تُتركُوا سدىً ، وإنَّ لكمْ معاداً يجمعُكُمُ اللهُ فيهِ للحكمِ والفصلِ فيما بينَكُمْ ، فخابَ وشقيَ عبدٌ أخرجَهُ اللهُ مِنْ رحمتِهِ التي وسعَتْ كلَّ شيءٍ ، وجنَّتِهِ التي عرضُها السَّماواتُ والأرضُ ، وإنَّما يكونُ الأمانُ غداً لمَنْ خافَ واتقىٰ ، وباعَ قليلاً بكثيرٍ ، وفانياً بباقٍ ، وشقوةً بسعادةٍ ، ألا ترونَ أنَّكُم في أسلابِ الهالكينَ ، وسيخلفُهُ بعدكُمُ الباقونَ ؟! ألا ترونَ أنَّكُم في كلِّ يومٍ تشيِّعونَ غادياً ورائحاً إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، قدْ قضىٰ نحبَهُ وانقطعَ أملُهُ ، فتضعونَهُ في بطنِ صدعٍ مِنَ الأرضِ غيرَ موسَّدٍ ولا ممهَّدٍ ، قدْ خلعَ الأسبابَ وفارقَ الأحبابَ وواجَهَ الحسابَ ؟! وايمُ اللهِ ؛ إنِّي لأقولُ مقالتي هـٰذهِ ولا أعلمُ عندَ أحدِكُمْ مِنَ الذنوبِ أكثرَ مما أعلمُ مِنْ نفسي ، ولكنَّها سننٌ مِنَ اللهِ عادلةٌ ، أمرَ فيها بطاعتِهِ ، ونهىٰ فيها عنْ معصيتِهِ ، وأستغفرُ اللهَ) ، ووضعَ كمَّهُ علىٰ وجهِهِ وبكىٰ حتىٰ بلَّتْ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٦٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٢٣٦) .

دموعُهُ لحيتَهُ ، وما عادَ إلىٰ مجلسِهِ حتىٰ ماتَ[1] .

وقالَ القعقاعُ بنُ حكيمٍ : (قدِ استعددتُ للموتِ منذُ ثلاثينَ سنةً ، فلوْ أتاني . . ما أحببتُ تأخيرَ شيءٍ عَنْ شيءٍ)[2] .

وقالَ الثوريُّ : (رأيتُ شيخاً في مسجدِ الكوفةِ يقولُ : أنا في هٰذا المسجدِ منذُ ثلاثينَ سنةً أنتظرُ الموتَ أنْ ينزلَ بي ، لوْ أتاني . . ما أمرتُهُ بشيءٍ ولا نهيتُهُ عنْ شيءٍ ، ولا لي علىٰ أحدٍ شيءٌ ، ولا لأحدٍ عندي شيءٌ)[3] .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ ثعلبةَ : (تضحكُ ولعلَّ أكفانَكَ قدْ خرجَتْ مِنْ عندِ القصَّارِ ؟!)[4] .

وقالَ أبو محمَّدِ بنُ عليٍّ الزاهدُ : (خرجنا في جنازةٍ بالكوفةِ ، وخرجَ فيها داوودُ الطَّائيُّ فانتبذَ فقعدَ ناحيةً وهيَ تُدفنُ ، فجئتُ فقعدتُ قريباً منهُ ، فتكلَّمَ فقالَ : مَنْ خافَ الوعيدَ . . قصرَ عليهِ البعيدُ ، ومَنْ طالَ أملُهُ . . ضعفَ عملُهُ ، وكلُّ ما هوَ آتٍ قريبٌ) .

واعلمْ يا أخي : أنَّ كلَّ شيءٍ يشغلُكَ عنْ ربِّكَ . . فهوَ عليكَ مشؤومٌ .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٧٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٢٩٥) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٧٨) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٧٩) .
(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٤٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٨٠٤) .

واعلم : أنَّ أهلَ الدنيا جميعاً مِنْ أهلِ القبورِ ، إنَّما يندمونَ علىٰ ما يخلفونَ ، ويفرحونَ بما يقدِّمونَ ، فما ندمَ عليهِ أهلُ القبورِ . أهلُ الدنيا عليهِ يقتتلونَ ، وفيهِ يتنافسونَ ، وعليهِ عندَ القضاةِ يختصمونَ[1] .

ورُويَ أنَّ معروفاً الكرخيَّ رحمةُ اللهِ عليهِ أقامَ الصلاةَ ، قالَ محمدُ بنُ أبي توبةَ : فقالَ لي : تقدَّمْ ، فقلتُ : إنِّي إنْ صلَّيتُ بكُمْ هـٰذهِ الصلاةَ . . لمْ أصلِّ بكُمْ غيرَها ، فقالَ معروفٌ : وأنتَ تحدِّثُ نفسَكَ أنْ تصلِّيَ صلاةً أخرى ؟! نعوذُ باللهِ مِنْ طولِ الأملِ ، فإنَّهُ يمنعُ خيرَ العملِ[2] .

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمةُ اللهِ عليهِ في خطبتِهِ : (إنَّ الدنيا ليسَتْ بدارِ قرارِكُمْ ، دارٌ كتبَ اللهُ عليها الفناءَ ، وكتبَ علىٰ أهلِهَا الظعنَ مِنْها ، فكَمْ مِنْ عامرٍ موثقٍ عمَّا قليلٍ يخربُ ؟! وكَمْ مِنْ مقيمٍ مغتبطٍ عمَّا قليلٍ يظعنُ ؟! فأحسنوا رحمَكُمُ اللهُ منهَا الرِّحلةَ بأحسنِ ما يحضرُكُمْ مِنَ النقلةِ ، وتزوَّدوا ؛ فإنَّ خيرَ الزادِ التقوىٰ ، إنَّما الدنيا كفيءِ ظلالٍ قلصَ فذهبَ ، بينا ابنُ آدمَ في الدنيا ينافسُ وهو بها قريرُ العينِ ؛ إذْ دعاهُ اللهُ بقدرِهِ ، ورماهُ بيومِ حتفِهِ فسلبَهُ آثارَهُ ودنياهُ ، وصيَّرَ لقومٍ آخرينَ مصانعَهُ ومغناهُ ، إنَّ الدنيا لا تسرُّ بقدرِ ما تضرُّ ، إنَّها تسرُّ قليلاً وتحزنُ طويلاً)[3] .

وعنْ أبي بكرٍ الصِّديقِ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ : أنَّهُ كانَ يقولُ في

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٣٥٧) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٠٢) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٢٩٢) .

خطبتِهِ : (أينَ الوضاءةُ الحسنةُ وجوهُهُم المعجبونَ بشبابِهِم ؟! أينَ الملوكُ الذينَ بنوُا المدائنَ وحصَّنوها بالحيطانِ ؟! أينَ الذينَ كانوا يُعطونَ الغلبةَ في مواطنِ الحربِ ؟! قَدْ تضعضعَ بهِمُ الدهرُ فأصبحوا في ظلماتِ القبورِ ، الوحا الوحا ، ثمَّ النَّجا النَّجا)[1] .

* * *

---

(1) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/٣٢٥) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠١١١) ، وقوله : (**الوحا الوحا**) أي : السرعة السرعة .

بيان السبب في طول الأمل وعلاجه

اعلمْ : أنَّ طولَ الأملِ لهُ سببانِ : أحدُهُما : الجهلُ ، والآخرُ : حبُّ الدنيا .

أمَّا حبُّ الدنيا : فهوَ أنَّهُ إذا أنسَ بها وبشهواتِهَا ولذَّاتِها وعلائقِها . . ثقلَ علىٰ قلبِهِ مفارقتُها ، فامتنعَ قلبُهُ عنِ الفكرِ في الموتِ الذي هوَ سببُ مفارقتِها ، وكلُّ مَنْ كرهَ شيئاً . . دفعَهُ عن نفسِهِ ، والإنسانُ مشغوفٌ بالأماني الباطلةِ ، فيمنِّي نفسَهُ أبداً بما يوافقُ مرادَهُ ، وإنَّما يوافقُ مرادَهُ البقاءُ في الدنيا ، فلا يزالُ يتوهمُهُ ويقدرُهُ في نفسِهِ ، ويقدرُ توابعَ البقاءِ وما يحتاجُ إليهِ مِنْ مالٍ وأهلٍ ودارٍ وأصدقاءَ ودوابَّ ، وسائرِ أسبابِ الدنيا ، فيصيرُ قلبُهُ عاكفاً علىٰ هـٰذا الفكرِ ، موقوفاً عليهِ ، فيلهوْ عنْ ذكرِ الموتِ ولا يقدِّرُ قربَهُ .

فإنْ خطرَ لهُ في بعضِ الأحوالِ أمرُ الموتِ والحاجةُ إلى الاستعدادِ لهُ . . سوَّفَ ووعدَ نفسَهُ وقالَ : الأيامُ بينَ يديكَ فإلىٰ أنْ تكبَرَ ثمَّ تتوبَ ، وإذا كبرَ . . فيقولُ : إلىٰ أنْ تصيرَ شيخاً ، فإذا صارَ شيخاً . . قالَ : إلىٰ أنْ تفرغَ مِنْ بناءِ هـٰذهِ الدارِ وعمارةِ هـٰذهِ الضيعةِ ، أو ترجعَ مِنْ هـٰذهِ السفرةِ ، أوْ تفرغَ مِنْ تدبيرِ هـٰذا الولدِ وجهازِهِ وتدبيرِ مسكنٍ لهُ ، أو تفرغَ مِنْ قهرِ هـٰذا العدوِّ الذي يشمتُ بكَ ، فلا يزالُ يسوِّفُ ويؤخِّرُ ، ولا يخوضُ في شغلٍ إلاَّ ويتعلَّقُ بإتمامِ ذلكَ الشغلِ عشرةُ أشغالٍ أُخرَ ، وهـٰكذا على التدريجِ يؤخِّرُ

يوماً بعدَ يومٍ ، ويقضي بهِ شغلٌ إلىٰ شغلٍ ، بلْ إلىٰ أشغالٍ إلىٰ أنْ تختطفَهُ المنيّةُ في وقتٍ لا يحتسبُهُ ، فتطولُ عندَ ذلكَ حسرتُهُ .

وأكثرُ أهلِ النار صياحُهُم مِنْ سوفَ ، يقولونَ : واحزناهُ مِنْ سوفَ ! والمسوِّفُ المسكينُ لا يدري أنَّ الذي يدعوهُ إلى التسويفِ اليومَ هوَ معَهُ غداً ، وإنَّما يزدادُ بطولِ المدةِ قوةً ورسوخاً ، ويظنُّ أنَّهُ يُتصوَّرُ أنْ يكونَ للخائضِ في الدنيا والحافظِ لها فراغٌ قطُّ ، وهيهاتَ ! ما فرغَ منْها إلاَّ مَنِ اطَّرحَها .

فَمـا قَضَـىٰ أَحَـدٌ مِنْهـا لُبـانَتَـهُ ... وَمـا ٱنْتَهَـىٰ أَرَبٌ إلاَّ إِلَـىٰ أَرَبِ[1]

وأصلُ هـٰذهِ الأماني كلِّها : حبُّ الدنيا والأنسُ بها ، والغفلةُ عنْ معنىٰ قولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أحبِبْ ما أحببتَ ؛ فإنَّكَ مفارقُهُ »[2] .

❁ ❁ ❁

وأمَّا الجهلُ : فهوَ أنَّ الإنسانَ قدْ يعوِّلُ علىٰ شبابِهِ فيستبعدُ قربَ الموتِ معَ الشبابِ ، وليسَ يتفكَّرُ المسكينُ أنَّ مشايخَ بلدِهِ لو عُدُّوا . . لكانوا أقلَّ مِنْ عُشرِ رجالِ البلدِ ؛ وإنَّما قلُّوا لأنَّ الموتَ في الشبابِ أكثرُ ، فإلىٰ أنْ يموتَ شيخٌ يموتُ ألفُ صبيٍّ وشابٍّ ، وقدْ يستبعدُ الموتَ لصحتِهِ ، ويستبعدُ الموتَ فجأةً ، ولا يدري أنَّ ذلكَ غيرُ بعيدٍ ، وإنْ كانَ ذلكَ بعيداً . .

---

(١) البيت من البسيط ، وهو للمتنبي في « ديوانه بشرح العكبري » (١/ ٩٥) .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣٢٥) ، والطبراني في « الأوسط » (٤٢٩٠) عن سهل بن سعد رضي الله عنه .

فالمرضُ فجأةً غيرُ بعيدٍ ، وكلُّ مرضٍ فإنَّما يقعُ فجأةً ، وإذا مرضَ . . لمْ يكنِ الموتُ بعيداً .

ولوْ تفكَّرَ هـٰذا الغافلُ وعلمَ أنَّ الموتَ ليسَ لهُ وقتٌ مخصوصٌ مِنْ شبابٍ وشيبٍ وكهولةٍ ، ومِنْ صيفٍ وشتاءٍ ، وخريفٍ وربيعٍ ، ومِنْ ليلٍ ونهارٍ . . لعظُمَ استشعارُهُ واشتغلَ بالاستعدادِ لهُ ، ولكنَّ الجهلَ بهـٰذهِ الأمورِ وحبَّ الدنيا دعوَاهُ إلىٰ طولِ الأملِ ، وإلى الغفلةِ عَنْ تقديرِ الموتِ القريبِ ، فهوَ أبداً يظنُّ أنَّ الموتَ يكونُ بينَ يديهِ ولا يقدِّرُ نزولَهُ بهِ ووقوعَهُ فيهِ ، وهوَ أبداً يظنُّ أنَّهُ يشيِّعُ الجنائزَ ولا يقدِّرُ أنْ تُشيَّعَ جنازتُهُ ؛ لأنَّ هـٰذا قد تكررَ عليهِ وألفَهُ وهوَ مشاهدةُ موتِ غيرِهِ ، فأمَّا موتُ نفسِهِ . . فلمْ يألفْهُ ، ولاَ يُتصورُ أنْ يألفَهُ ؛ فإنَّهُ لا يقعُ ، وإذا وقعَ . . لمْ يقعْ دفعةً أخرىٰ بعدَهُ ، فهوَ الأوَّلُ وهوَ الآخرُ .

وسبيلُهُ : أنْ يقيسَ نفسَهُ بغيرِهِ ، ويعلمَ أنَّهُ لا بدَّ وأنْ تُحملَ جنازتُهُ ويُدفنَ في قبرِهِ ، ولعلَّ اللبنَ الذي يُغطَّىٰ بهِ لحدُهُ قدْ ضُرِبَ وفُرِغَ منهُ وهُوَ لا يدري ، فتسويفُهُ جهلٌ محضٌ .

وإذا عرفتَ أنَّ سببَهُ الجهلُ وحبُّ الدنيا . . فعلاجُهُ دفعُ سببِهِ .

أمَّا الجهلُ . . فيُدفعُ بالفكرِ الصَّافي مِنَ القلبِ الحاضرِ ، وسماعِ الحكمةِ البالغةِ مِنَ القلوبِ الطَّاهرةِ .

وأمَّا حبُّ الدنيا . . فالعلاجُ في إخراجِهِ مِنَ القلبِ شديدٌ ، وهوَ الدَّاءُ العضالُ الذي أعيا الأوَّلينَ والآخرينَ علاجُهُ ، ولا علاجَ لهُ إلاَّ الإيمانُ باليومِ

الآخرِ ، وبما فيهِ مِنْ عظيمِ العقابِ وجزيلِ الثَّوابِ ، ومهما حصلَ لهُ اليقينُ بذلكَ . . ارتحلَ عنْ قلبهِ حُبُّ الدنيا ، فإنَّ حبَّ الخطيرِ هوَ الذي يمحوْ عنِ القلبِ حبَّ الحقيرِ ، فإذا رأىٰ حقارةَ الدنيا ونفاسةَ الآخرةِ . . استنكفَ أنْ يلتفتَ إلى الدنيا كلِّها وإنْ أُعطيَ ملكَ الأرضِ مِنَ المشرقِ إلى المغربِ ، فكيفَ وليسَ لكلِّ عبدٍ مِنَ الدنيا إلاَّ قدرٌ يسيرٌ مكدَّرٌ منغَّصٌ ؟! فكيفَ يفرحُ بهَا أو يترسخُ في القلبِ حبُّها معَ الإيمانِ بالآخرةِ ؟! فنسألُ اللهَ تعالىٰ أنْ يرينَا الدنيا كما أراها الصالحينَ مِنْ عبادِهِ .

ولا علاجَ في تقريرِ الموتِ في القلبِ مثلُ النظرِ إلىٰ مَنْ ماتَ مِنَ الأقرانِ والأشكالِ ، وأنَّهُمْ كيفَ جاءَهُمُ الموتُ في وقتٍ لم يحتسبوا ، أمَّا مَنْ كانَ مستعدّاً . . فقدْ فازَ فوزاً عظيماً ، وأمَّا مَنْ كانَ مغروراً بطولِ الأملِ . . فقدْ خسرَ خُسراناً مبيناً .

فلينظرِ الإنسانُ كلَّ ساعةٍ في أطرافِهِ وأعضائِهِ ، وليتدبَّرْ أنَّها كيفَ تأكلُها الديدانُ لا محالةَ ، وكيفَ تتفتَّتُ عظامُها ، وليتفكرْ أنَّ الدودَ يبدأُ بحدقتِهِ اليمنىٰ أوَّلاً أو باليسرى ؟ فما علىٰ بدنِهِ شيءٌ إلاَّ وهوَ طُعمةٌ للدودِ ، وما لهُ مِنْ نفسِهِ إلاَّ العلمُ والعملُ الخالصُ لوجهِ اللهِ تعالىٰ ، وكذلكَ يتفكَّرُ فيما سنوردُهُ مِنْ عذابِ القبرِ ، وسؤالِ منكرٍ ونكيرٍ ، ومِنَ الحشرِ والنشرِ وأهوالِ القيامةِ ، وفزعِ النداءِ يومَ العرضِ الأكبرِ ، فأمثالُ هـٰذهِ الأفكارِ هيَ التي تجدِّدُ ذكرَ الموتِ علىٰ قلبِهِ ، وتدعوهُ إلى الاستعدادِ لهُ .

* * *

بيان مراتب الناس في طول الأمل وقصره

اعلمْ : أنَّ الخلقَ في ذلكَ يتفاوتونَ .

فمنهُمْ : مَنْ يأملُ البقاءَ ويشتهي ذلكَ أبداً ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ .

❁ ❁ ❁

ومنهُمْ : مَنْ يأملُ البقاءَ إلى الهرمِ ـ وهو أقصى العمرِ الذي شاهدَهُ ورآهُ ـ وهوَ الذي يحبُّ الدنيا حبّاً شديداً ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الشيخُ شابٌّ في حبِّ طلبِ الدنيا وإنِ التفَّتْ ترقُوَتاهُ مِنَ الكبرِ ، إلاَّ الذينَ اتقوا وقليلٌ ما هُمْ »(١) .

❁ ❁ ❁

ومنهُمْ : مَنْ يأملُ إلىٰ سنةٍ ، فلا يشتغلُ بتدبيرِ ما وراءَ ذلكَ ، فلا يقدرُ لنفسِهِ وجوداً في عامٍ قابلٍ ، ولكن هـٰذا يستعدُّ في الصيفِ للشتاءِ ، وفي الشتاءِ للصيفِ ، فإذا جمعَ ما يكفيهِ لسنتِهِ . . اشتغلَ بالعبادةِ .

❁ ❁ ❁

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٥٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٢٣) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه موقوفاً ، وانظر « الإتحاف » (١٠/ ٢٥١) .

ومنهُمْ : مَنْ يأملُ مدةَ الصيفِ أوِ الشتاءِ ، فلا يدخرُ في الصيفِ ثيابَ الشتاءِ ، ولا في الشتاءِ ثيابَ الصيفِ .

❋ ❋ ❋

ومنهُمْ : مَنْ يرجعُ أملُهُ إلىٰ يومٍ وليلةٍ ، فلا يستعدُّ إلاَّ لنهارِهِ ، وأمَّا للغدِ . . فلا ، قالَ عيسىٰ عليهِ السَّلامُ : لا تهتموا برزقِ غدٍ ، فإنْ يكنْ غدٌ مِنْ آجالِكُمْ . . فستأتي فيهِ أرزاقُكُمْ معَ آجالِكُمْ ، وإنْ لمْ يكنْ مِنْ آجالِكُمْ . . فلا تهتموا لآجالِ غيرِكُمْ[1] .

❋ ❋ ❋

ومنهُمْ : مَنْ لا يجاوزُ أملُهُ ساعةً كما قالَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يا عبدَ اللهِ ، إذا أصبحتَ . . فلا تحدِّثْ نفسَكَ بالمساءِ ، وإذا أمسيتَ . . فلا تحدِّثْ نفسَكَ بالصباحِ »[2] .

❋ ❋ ❋

ومنهُمْ : مَنْ لا يقدِّرُ البقاءَ أيضاً ساعةً ، كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ

---

(١) رواه أحمد في « الزهد » عن سفيان بنحوه . « إتحاف » (١٠/٢٥١) ، وفي (أ) : (لأرزاق) بدل (لآجال) .

(٢) رواه بهـٰذا اللفظ مرفوعاً الروياني في « مسنده » (١٤١٨) ، وعبد الجبار الخولاني في « تاريخ داريا » (ص٩٦) ، ورواه موقوفاً على ابن عمر رضي الله عنهما البخاري (٦٤١٦) .

وسلَّمَ يتيمَّمُ معَ القدرةِ على الماءِ قبلَ مضيِّ ساعةٍ ويقولُ : « لعلِّي لا أبلغُهُ »[1] .

❁ ❁ ❁

ومنهُمْ : مَنْ يكونُ الموتُ نصبَ عينيهِ كأنَّهُ واقعٌ بهِ ، فهوَ ينتظرُهُ ، وهاذا الإنسانُ هوَ الذي يصلي صلاةَ مودِّعٍ ، وفيهِ وردَ ما نُقلَ عنْ معاذِ بنِ جبلٍ رضيَ اللهُ عنهُ لمَّا سألَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ حقيقةِ إيمانِهِ فقالَ : (ما خطوتُ خطوةً إلاَّ ظننتُ أنِّي لا أُتبعُها أخرىٰ)[2] ، وكما نُقلَ عنِ الأسودِ وهوَ حبشيٌّ أنَّهُ كانَ يصلِّي ليلاً ويلتفتُ يميناً وشمالاً ، فقالَ لهُ قائلٌ : ما هاذا ؟! قالَ : أنتظرُ ملكَ الموتِ من أيِّ جهةٍ يأتيني .

❁ ❁ ❁

فهاذه مراتبُ الناسِ ، ولكلٍّ درجاتٌ عندَ اللهِ ، وليسَ مَنْ أملُهُ مقصورٌ علىٰ شهرٍ كمنْ أملُهُ شهرٌ ويومٌ ، بلْ بينَهما تفاوتٌ في الدرجةِ عندَ اللهِ ؛ فإنَّ اللهَ لا يظلمُ مثقالَ ذرَّةٍ ، ومنْ يعملْ مثقالَ ذرَّةٍ خيراً . . يرهُ .

ثمَّ يظهرُ أثرُ قصرِ الأملِ في المبادرةِ إلى العملِ ، وكلُّ إنسانٍ يدَّعي أنَّهُ قصيرُ الأملِ وهو كاذبٌ ، وإنَّما يظهرُ ذلكَ بأعمالِهِ ؛ فإنَّه يعتني بأسبابٍ ربَّما

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٩٢) ، وأحمد في « المسند » (١/ ٢٨٨) ، وابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (٧) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٤٢) .

لا يحتاجُ إليها في سنةٍ ، فيدلُّ ذلكَ علىٰ طولِ أملِهِ ، وإنَّما علامةُ التوفيقِ أنْ يكونَ الموتُ نصبَ العينِ لا يغفلُ عنهُ ساعةً ، فيستعدَّ للموتِ الذي يردُ عليهِ في الوقتِ ، فإنْ عاشَ إلى المساءِ . . شكرَ اللهَ تعالىٰ علىٰ طاعتِهِ ، وفرحَ بأنَّهُ لم يضيِّعْ نهارَهُ ، بلِ استوفىٰ منهُ حظَّهُ وادَّخرَهُ لنفسِهِ ، ثمَّ يستأنفُ مثلَه إلى الصباحِ ، وهـٰكذا إذا أصبحَ ، ولا يتيسَّرُ هـٰذا إلاَّ لمَنْ فرَّغَ القلبَ عنِ الغدِ وما يكونُ فيهِ ، فمثلُ هـٰذا إذا ماتَ . . سعدَ وغنمَ ، وإنْ عاشَ . . سُرَّ بحسنِ الاستعدادِ ولذةِ المناجاةِ ، فالموتُ لهُ سعادةٌ ، والحياةُ لهُ مزيدٌ .

فليكنِ الموتُ علىٰ بالِكَ يا مسكينُ ؛ فإنَّ السيرَ حادٍ بكَ وأنتَ غافلٌ عنْ نفسِكَ ، ولعلَّكَ قدْ قاربتَ المنزلَ وقطعتَ المسافةَ ، ولا تكونُ كذلكَ إلاَّ بمبادرةِ العملِ اغتناماً لكلِّ نَفَسٍ أُمهلتَ فيهِ .

* * *

بيان المبادرة إلى العمل ، وحذر آفة التأخير

اعلمْ : أنَّ مَنْ لهُ أخوانِ غائبانِ ينتظرُ قدومَ أحدِهِما في غدٍ ، وينتظرُ قدومَ الآخرِ بعدَ شهرٍ أو سنةٍ . . فلا يستعدُّ للذي يقدمُ إلىٰ شهرٍ أوْ سنةٍ ، وإنَّما يستعدُّ للذي ينتظرُ قدومَهُ غداً ، فالاستعدادُ نتيجةُ قربِ الانتظارِ ، فمَنِ انتظرَ مجيءَ الموتِ بعدَ سنةٍ . . اشتغلَ قلبُهُ بالمدَّةِ ونسيَ ما وراءَ المدَّةِ ، ثمَّ يصبحُ كلَّ يومٍ وهوَ منتظرٌ للسَّنةِ بكمالِهَا لا يُنقِصُ مِنْها اليومَ الذي مضىٰ ، وذلكَ يمنعُهُ مِنْ مبادرةِ العملِ أبداً ؛ فإنَّهُ أبداً يرىٰ لنفسِهِ متَّسعاً في تلكَ السنةِ ، فيؤخرُ العملَ كما قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما ينتظرُ أحدُكُم مِنَ الدنيا إلاَّ غنىً مطغياً ، أو فقراً منسياً ، أو مرضاً مفسداً ، أو هرماً مفنِّداً ، أو موتاً مجهزاً ، أوِ الدجالَ فالدجالُ شرُّ غائبٍ يُنتظرُ ، أو الساعة والساعةُ أدهىٰ وأمرُّ »[1] .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لرجلٍ وهوَ يعظُهُ : « اغتنمْ خمساً قبلَ خمسٍ : شبابَكَ قبلَ هرمِكَ ، وصحتَكَ قبلَ سقمِكَ ، وغِناكَ قبلَ فقرِكَ ، وفراغَكَ قبلَ شغلِكَ ، وحياتَكَ قبلَ موتِكَ »[2] .

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٠٦) .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣٠٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٧٦٧) .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نعمتانِ مغبونٌ فيهما كثيرٌ مِنَ النَّاسِ : الصحةُ ، والفراغُ »[١] أي : أنَّهُ لا يغتنمُهُما ، ثمَّ يعرفُ قدرَهُما عندَ زوالِهِما .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ خافَ . . أدلجَ ، ومَنْ أدلجَ . . بلغَ المنزلَ ، ألا إنَّ سلعةَ اللهِ غاليةٌ ، ألا إنَّ سلعةَ اللهِ الجنَّةُ »[٢] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « جاءَتِ الراجفةُ تتبعُهَا الرادفةُ ، جاءَ الموتُ بما فيهِ »[٣] .

وكانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا آنسَ مِنْ أصحابِهِ غفلةً أو غرةً . . نادىٰ فيهِمْ بصوتٍ رفيعٍ : « أتتكُمُ المنيةُ راتبةً لازمةً ، إمَّا بشقاوةٍ وإمَّا بسعادةٍ »[٤] .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أنا النذيرُ ، والموتُ المغيرُ ، والساعةُ الموعدُ »[٥] .

وقالَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : خرجَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ

---

(١) رواه البخاري (٦٤١٢) .
(٢) رواه الترمذي (٢٤٥٠) .
(٣) رواه الترمذي (٢٤٥٧) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١١٧) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٨٤) عن زيد السليمي مرسلاً .
(٥) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٦١٤٩) ، وابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١١٨) .

والشمسُ علىٰ أطرافِ السَّعفِ فقالَ : « ما بقيَ مِنَ الدنيا إلاَّ مثلُ ما بقيَ مِنْ يومِنَا هـٰذا في مثلِ ما مضىٰ منه »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مثلُ الدنيا مثلُ ثوبٍ شُقَّ مِنْ أولِهِ إلىٰ آخرِهِ فبقيَ متعلقاً بخيطٍ في آخرِهِ ، فيوشكُ ذلكَ الخيطُ أنْ ينقطعَ »[2] .

وقالَ جابرٌ : كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا خطبَ فذكرَ الساعةَ . . رفعَ صوتَهُ ، واحمرَّتْ وجنتاهُ كأنَّهُ منذرُ جيشٍ يقولُ : صبَّحَتكُمْ ومسَّتكُمْ ثمَّ يقولُ : « بُعثتُ أنا والساعةُ كهاتينِ » وقرنَ بينَ إصبعيهِ[3] .

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : تلا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ النورَ إذا دخلَ الصدرَ . . انفسحَ » فقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ هلْ لذلكَ مِنْ علامةٍ تُعرفُ ؟ قالَ : « نعمِ ، التجافي عنْ دارِ الغرورِ ، والإنابةُ إلىٰ دارِ الخلودِ ، والاستعدادُ للموتِ قبلَ نزولِهِ »[4] .

وقالَ السديُّ : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ أي : أيُّكم

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٤٤٤) ، وأحمد في « المسند » (٢/ ١٣٣) ، وانظر « الإتحاف » (١٠/ ٢٥٥) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٣١) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٧٥٩) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٢٤) ، ونحوه عند مسلم (٨٦٧) ، وفي (أ) : (عيناه) بدل (وجنتاه) وهي موافقة لما في « مسلم » ، وفي (ج) : (صبحتكم ومسيتكم) بدل (صبحتكم ومسَّتكم) .

(٤) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣١١) ، وابن أبي شيبة (٣٥٤٥٦) .

أكثرُ للموتِ ذكراً ، وأحسنُ لهُ استعداداً ، وأشدُّ منهُ خوفاً وحذراً[1] .

وقالَ حذيفةُ : ما مِنْ صباحٍ ولا مساءٍ . . إلاَّ ومنادٍ ينادي : أيُّها الناسُ ؛ الرحيلَ الرحيلَ ، وتصديقُ ذلكَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ۞ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ۞ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ أي : في الموتِ[2] .

وقالَ سحيمٌ مولىٰ بني تميمٍ : جلستُ إلىٰ عامرِ بنِ عبدِ اللهِ وهوَ يصلي ، فأوجزَ في صلاتِهِ ثمَّ أقبلَ عليَّ فقالَ : أرحْني بحاجتِكَ ؛ فإني أبادرُ ، قلتُ : وما تبادرُ ؟ قالَ : ملكَ الموتِ رحمَكَ اللهُ ، قالَ : فقمتُ عنهُ وقامَ إلىٰ صلاتِهِ[3] .

ومرَّ داوودُ الطائيُّ فسألَهُ رجلٌ عنْ حديثٍ فقالَ : دعْني إنَّما أبادرُ خروجَ نفسِي[4] .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (التُّؤدةُ في كلِّ شيءٍ خيرٌ إلاَّ في أعمالِ الآخرةِ)[5] .

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (١٠٣٠١) ، وابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٣٢) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٣٥) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٣٦) .
(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٣٣٥ـ ٣٣٦) .
(٥) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٧٦٩) ، وابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٣٩) عن عمر رضي الله عنه موقوفاً ، ورواه الحاكم في « المستدرك » (١/ ٦٤) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (١٠/ ١٩٤) من حديث سعد بن أبي وقاص مرفوعاً .

وقالَ المنذرُ : سمعتُ مالكَ بنَ دينارٍ يقولُ لنفسِهِ : ويحَكِ ! بادري قبلَ أن يأتيَكِ الأمرُ ، ويحَكِ ! بادري قبلَ أن يأتيَكِ الأمرُ. . . حتىٰ كرَّرَ ذلكَ ستينَ مرةً أسمعُهُ ولاَ يراني[1] .

وكانَ الحسنُ يقولُ في موعظتِهِ : المبادرةَ المبادرةَ ؛ فإنَّما هيَ الأنفاسُ لوْ حُبِسَتِ. . انقطعَتْ عنكُمْ أعمالُكُم التي تقربونَ بها إلى اللهِ عزَّ وجلَّ ، رحمَ اللهُ امرأً نظرَ لنفسِهِ وبكىٰ علىٰ ذنوبِهِ ، ثمَّ قرأَ هـٰذهِ الآيةَ : ﴿ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ يعني : الأنفاسَ ، آخرُ العددِ خروجُ نفسِكَ ، آخرُ العددِ فراقُ أهلِكَ ، آخرُ العددِ دخولُكَ في قبرِكَ[2] .

واجتهدَ أبو موسى الأشعريُّ قبلَ موتِهِ اجتهاداً شديداً ، فقيلَ لهُ : لو أمسكتَ ورفقتَ بنفسِكَ بعضَ الرفقِ ، فقالَ : (إنَّ الخيلَ إذا أُرسلَتْ فقاربَتْ رأسَ مجراها. . أخرجَتْ جميعَ ما عندها ، والذي بقيَ مِنْ أجَلي أقلُّ مِن ذلكَ) ، قالَ : فلم يزلْ علىٰ ذلكَ حتىٰ ماتَ ، وكانَ يقولُ لامرأتِهِ : (شدِّي رحلَكِ ؛ فليسَ علىٰ جهنَّمَ معبرٌ)[3] .

وقالَ بعضُ الخلفاءِ علىٰ منبرِهِ[4] : (عبادَ اللهِ ؛ اتقوا اللهَ ما استطعتُمْ ،

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٤٤) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٤٦) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٥١) .
(٤) وهو سيدنا علي رضي الله عنه .

وكونوا قوماً صيحَ بهم فانتبهوا ، وعلموا أنَّ الدنيا ليسَتْ لهم بدارٍ فاستبدلوا ، واستعِدُّوا للموتِ ، فقدْ أظلَّكُم ، وترحَّلوا ؛ فقدْ جَدَّ بكُمْ ، وإنَّ غايةً تنقصُها اللحظةُ وتهدِمُها الساعةُ لجديرةٌ بقصرِ المدةِ ، وإنَّ غائباً يجدُّ بِهِ الجديدانِ الليلُ والنَّهارُ لحريٌّ بسرعةِ الأوبةِ ، وإنَّ قادماً يحلُّ بالفوزِ أو الشقوةِ لمستحقٌّ لأفضلِ العدَّةِ ، فالتقيُّ عندَ ربِّهِ مَنْ ناصَحَ نفسَهُ ، وقدَّمَ توبتَهُ وغلَبَ شهوتَهُ ، فإنَّ أجلَهُ مستورٌ عنهُ ، وأملَهُ خادعٌ لهُ ، والشيطانَ موكَّلٌ بهِ ، يمنِّيهِ التوبةَ ليسوِّفَها ، ويزينُ لهُ المعصيةَ ليرتكبَهَا ، حتىٰ تهجمَ منيَّتُهُ عليهِ أغفلَ ما يكونُ عنهَا ، وإنَّه ما بينَ أحدِكُمْ وبينَ الجنَّةِ أو النَّارِ إلا الموتُ أن ينزلَ به ، فيا لها مِن حسرةٍ علىٰ ذي غفلةٍ أنْ يكونَ عمرُهُ عليهِ حجةً وأن ترديَهُ أيامُهُ إلىٰ شقوةٍ ! جعلَنا اللهُ وإيَّاكُم ممَّنْ لا تبطرُهُ نعمةٌ ، ولا تقصرُ بهِ عنْ طاعةِ اللهِ معصيةٌ ، ولا يحلُّ بهِ بعدَ الموتِ حسرةٌ ، إنَّهُ سميعُ الدعاءِ ، وإنَّهُ بيدِهِ الخيرُ دائماً فعَّالٌ لما يشاءُ)[1] .

وقالَ بعضُ المفسرينَ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ قال : بالشهواتِ واللذَّاتِ ، ﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾ قالَ : بالتوبةِ ، ﴿ وَٱرْتَبْتُمْ ﴾ قالَ : شككتُم ، ﴿ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ قالَ : الموتُ ، ﴿ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ قالَ : الشيطانُ[2] .

وقالَ الحسنُ : (تصبَّروا وتشدَّدوا ؛ فإنَّما هيَ أيامٌ قلائلُ ، وإنَّما أنتُمْ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٦١) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٦٦) .

ركبٌ وقوفٌ يوشكُ أنْ يُدعى الرجلُ منكم فيجيبَ ولا يلتفتَ ، فانتقلوا بصالحِ ما بحضرتِكُمْ)[1] .

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (ما مِنْكُمْ مِنْ أحدٍ أصبحَ . . إلاَّ وهوَ ضيفٌ ومالُهُ عاريةٌ ، والضيفُ مرتحلٌ والعاريةُ مؤدَّاةٌ)[2] .

وقالَ أبو عبيدةَ النَّاجيُّ : دخلنا على الحسنِ في مرضِهِ الذي ماتَ فيهِ فقالَ : (مرحباً بكُم وأهلاً ، وحيَّاكُمُ اللهُ بالسَّلامِ ، وأحلَّنا وإيَّاكُم دارَ المقامِ ، هٰذهِ علانيةٌ حسنةٌ إن صبرتُم وصدقتُم واتقيتُم ، فلا يكنْ حظُّكُم مِنْ هٰذا الخبرِ ـ رحمَكُمُ اللهُ ـ أنْ تسمعوهُ بهٰذهِ الأذنِ وتخرجوهُ من هٰذهِ الأذنِ ؛ فإنَّهُ مَنْ رأىٰ محمَّداً صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . فقد رآهُ غادياً ورائحاً لم يضع لبنةً علىٰ لبنةٍ ولا قصبةً علىٰ قصبةٍ ، ولكنْ رُفع لهُ علمٌ فشمَّرَ إليهِ ، الوحا الوحا ، النجا النجا ، علامَ تُعرِّجونَ ؟ أتيتُم وربِّ الكعبةِ كأنَّكم والأمرَ معاً ، رحمَ اللهُ عبداً جعلَ العيشَ عيشاً واحداً ، فأكلَ كسرةً ، ولبسَ خَلَقاً ، ولزقَ بالأرضِ ، واجتهدَ في العبادةِ ، وبكىٰ على الخطيئةِ ، وهربَ مِنَ العقوبةِ ، وابتغى الرحمةَ حتىٰ يأتيَهُ أجلُهُ وهوَ علىٰ ذلكَ)[3] .

وقالَ عاصمٌ الأحولُ : قالَ لي فضيلٌ الرقاشيُّ وأنا أسائلُهُ : (يا هٰذا ؛

---

(1) رواه ابن أبي الدنيا في « محاسبة النفس » (٦٣) .

(2) رواه الطبراني في « الكبير » (٩/١٠١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ١٣٤) .

(3) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٧٦) ، وابن حبان في « الثقات » (٣/ ٣٢٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ١٥٤) .

لا يشغلَنَّكَ كثرةُ الناسِ عن نفسِكَ ؛ فإنَّ الأمرَ يخلصُ إليكَ دونَهُم ، ولا تقلْ : أذهبُ هٰهنا وهٰهنا فينقطعَ عنكَ النَّهارُ في لا شيءَ ، فإنَّ الأمرَ محفوظٌ عليكَ ، ولم ترَ شيئاً قطُّ أحسنَ طلباً ولا أسرعَ إدراكاً من حسنةٍ حديثةٍ لذنبٍ قديمٍ)[1] .

* * *

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « قصر الأمل » (١٨٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣/ ١٢٠) .

البَابُ الثَّالِثُ
في سكرات الموت، وشدته، وما يستحب من الأحوال عند الموت

اعلمْ : أنَّه لو لمْ يكنْ بينَ يديِ العبدِ المسكينِ كربٌ ولاَ هولٌ ولا عذابٌ سوىٰ سكراتِ الموتِ بمجرَّدها . . لكانَ جديراً بأن يتنغصَ عليهِ عيشُهُ ، ويتكدَّرَ عليهِ سرورُهُ ، ويفارقَهُ سهوُهُ وغفلتُهُ[1] ، وحقيقاً بأن تطولَ فيه فكرتُهُ ، ويعظمَ لهُ استعدادُهُ ، لا سيما وهو في كلِّ نفسٍ بصددِهِ ؛ كما قالَ بعضُ الحكماءِ : (كربٌ بيدِ سواكَ لا تدري متىٰ يغشاكَ) .

وقالَ لقمانُ لابنِهِ : (يا بنيَّ ؛ أمرٌ لا تدري متىٰ يلقاكَ . . استعدَّ لهُ قبلَ أنْ يفجاكَ) .

والعجبُ أنَّ الإنسانَ لو كانَ في أعظمِ اللذَّاتِ وأطيبِ مجالسِ اللهوِ فانتظرَ أن يدخلَ عليهِ جنديٌّ فيضربَهُ خمسَ خشباتٍ . . لتكدرَتْ عليهِ لذَّتُهُ وفسدَ عليهِ عيشُهُ ، وهوَ في كلِّ نفَسٍ بصددِ أن يدخلَ عليهِ ملكُ الموتِ بسكراتِ النزعِ وهوَ عنهُ غافلٌ ! فما لهـٰذا سببٌ إلاَّ الجهلُ والغرورُ .

❊ ❊ ❊

واعلمْ : أنَّ شدةَ الألمِ في سكراتِ الموتِ لا يعرفُها بالحقيقةِ إلاَّ مَنْ

---

(١) في (أ ، ب ، د) : (شهوته) بدل (سهوه) .

ذاقَهَا ، ومَنْ لم يذقْهَا . . فإنَّما يعرفُها إمَّا بالقياسِ إلى الآلامِ التي أدركَها ، وإمَّا بالاستدلالِ بأحوالِ الناسِ في النزعِ علىٰ شدةِ ما هم فيهِ .

فأمَّا القياسُ الذي يشهدُ لهُ . . فهوَ أنَّ كلَّ عضوٍ لا روحَ فيهِ فلا يحسُّ بالألمِ ، فإذا كانَ فيهِ الروحُ . . فالمدرِكُ للألمِ هوَ الروحُ ، فمهما أصابَ العضوَ جرحٌ أو حريقٌ . . سرى الأثرُ إلى الروحِ ، فبقدرِ ما يسري إلى الروحِ يتألمُ ، والمؤلمُ يتفرقُ على اللحمِ والدمِ وسائرِ الأجزاءِ ، فلا يصيبُ الروحَ إلاَّ بعضُ الألمِ ، فإنْ كانَ في الآلامِ ما يباشرُ نفسَ الروحِ ولا يلاقي غيرَهُ . . فما أعظمَ ذلكَ الألمَ وما أشدَّهُ ! والنَّزعُ عبارةٌ عن مؤلمٍ نزلَ بنفسِ الروحِ فاستغرقَ جميعَ أجزائِهِ ، حتىٰ لمْ يبقَ جزءٌ من أجزاءِ الروحِ المنتشرِ في أعماقِ البدنِ إلاَّ وقدْ حلَّ بهِ الألمُ ، فلو أصابَتْهُ شوكةٌ . . فالألمُ الذي يجدُهُ إنَّما يجري في جزءٍ مِنَ الروحِ يلاقي ذلكَ الموضعَ الذي أصابَتْهُ الشوكةُ .

وإنَّما يعظمُ أثرُ الاحتراقِ لأنَّ أجزاءَ النَّارِ تغوصُ في سائرِ أجزاءِ البدنِ ، فلا يبقىٰ جزءٌ مِنَ العضوِ المحترقِ ظاهراً وباطناً إلاَّ وتصيبُهُ النَّارُ ، فتحسُّهُ الأجزاءُ الروحانيَّةُ المنتشرةُ في سائرِ أجزاءِ اللحمِ .

وأمَّا الجراحةُ . . فإنَّما تصيبُ الموضعَ الذي مسَّهُ الحديدُ فقطْ ، فكانَ لذلكَ ألمُ الجرحِ دونَ ألمِ النَّارِ .

فألمُ النزعِ يهجمُ علىٰ نفسِ الروحِ ويستغرقُ جميعَ أجزائِهِ ؛ فإنَّهُ المنزوعُ المجذوبُ مِنْ كلِّ عرقٍ مِنَ العروقِ ، وعصبٍ من الأعصابِ ، وجزءٍ مِنَ

الأجزاءِ ، ومفصلٍ مِنَ المفاصلِ ، ومِنْ أصلِ كلِّ شعرةٍ وبشرةٍ مِنَ الفَرْقِ إلى القدمِ ، فلا تسأَلْ عَنْ كربِهِ وألمِهِ ، حتىٰ قالوا : إنَّ الموتَ لأشدُّ مِنْ ضربٍ بالسيفِ ونشرٍ بالمناشيرِ وقرضٍ بالمقاريضِ ؛ لأنَّ قطعَ البدنِ بالسيفِ إنَّما يؤلمُ لتعلقِهِ بالروحِ ، فكيفَ إذا كانَ المتناولُ المباشرُ نفسَ الروحِ ؟!

وإنَّما يستغيثُ المضروبُ ويصيحُ لبقاءِ قوَّتِهِ في قلبِهِ وفي لسانِهِ ، وإنَّما انقطعَ صوتُ الميتِ وصياحُهُ معَ شدةِ ألمِهِ ؛ لأنَّ الكربَ قدْ بالغَ فيهِ وتصاعدَ علىٰ قلبِهِ ، وغلبَ كلَّ موضعٍ منهُ ، فهدَّ كلَّ قوةٍ ، وضَعَّفَ كلَّ جارحةٍ ، فلمْ يتركْ لهُ قوةَ الاستغاثةِ .

أمَّا العقلُ . . فقد غشيَهُ وشوشَهُ ، وأمَّا اللسانُ . . فقدْ أبكمَهُ ، وأمَّا الأطرافُ . . فقد ضعَّفَها ، ويودُّ لوْ قدَرَ على الاستراحةِ بالأنينِ والصِّياحِ والاستغاثةِ ، ولكنَّهُ لا يقدرُ علىٰ ذلكَ ، فإنْ بقيَتْ فيهِ قوةٌ . . سمعتَ لهُ عندَ نزعِ الروحِ وجذبِهَا خُواراً وغرغرةً مِنْ حلقِهِ وصدرِهِ ، وقدْ تغيَّرَ لونُهُ واربدَّ حتىٰ كأنَّهُ ظهرَ منهُ الترابُ الذي هوَ أصلُ فطرتِهِ ، وقد جُذِبَ منهُ كلُّ عرقٍ علىٰ حيالِهِ ، فالألمُ منتشرٌ في داخلِهِ وخارجِهِ حتىٰ ترتفعَ الحدقتانِ إلىٰ أعالي أجفانِهِ ، وتتقلصَ الشفتانِ ويتقلصَ اللسانُ إلىٰ أصلِهِ ، وترتفعَ الأنثيانِ إلىٰ أعالي موضعِهما ، وتخضرَّ أناملُهُ ، فلا تسألْ عن بدنٍ يُجذبُ منهُ كلُّ عرقٍ مِنْ عروقِهِ ! ولوْ كانَ المجذوبُ عرقاً واحداً . . لكانَ ألمُهُ عظيماً ، فكيفَ والمجذوبُ نفسُ الروحِ المتألمِ لا مِنْ عرقٍ واحدٍ ، بل مِنْ جميعِ العروقِ ؟!

ثمَّ يموتُ كلُّ عضوٍ مِنْ أعضائِهِ تدريجاً ، فتبردُ أولاً قدماهُ ، ثمَّ ساقاهُ ، ثم فخذاهُ ، ولكلِّ عضوٍ سكرةٌ بعدَ سكرةٍ وكربةٌ بعدَ كربةٍ ، حتىٰ يبلغَ بها إلى الحلقومِ ، فعندَ ذلكَ ينقطعُ نظرُهُ عنِ الدنيا وأهلِها ، ويُغلقُ دونَهُ بابُ التوبةِ ، وتحيطُ بهِ الحسرةُ والندامةُ .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ « تُقبلُ توبةُ العبدِ ما لم يغرغرْ »[1] .

وقالَ مجاهدٌ في قولهِ تعالىٰ : ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ ﴾ قالَ : (إذا عاينَ الرسلَ . . فعندَ ذلكَ تبدو لهُ صفحةُ وجهِ ملكِ الموتِ ، فلا تسألْ عَنْ طعمِ مرارةِ الموتِ وكربِهِ عندَ ترادفِ سكراتِهِ !) .

ولذلكَ كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « اللهمَّ ؛ هوِّنْ علىٰ محمَّدٍ سكراتِ الموتِ »[2] .

والنَّاسُ إنَّما يستعيذونَ منهُ ولا يستعظمونَهُ لجهلِهم بهِ[3] ؛ فإنَّ الأشياءَ قبلَ وقوعِها إنَّما تُدركُ بنورِ النبوةِ والولايةِ ، ولذلكَ عظمَ خوفُ الأنبياءِ عليهِمُ السلامُ والأولياءِ مِنَ الموتِ، حتىٰ قالَ عيسىٰ عليهِ السَّلامُ : (يا معشرَ الحواريينَ ؛ ادعوا اللهَ تعالىٰ أن يهوِّنَ عليَّ هـٰذهِ السكرةَ ؛ يعني الموتَ ،

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٣٧) ، وابن ماجه (٤٢٥٣) .
(٢) رواه الترمذي (٩٧٨) ، وابن ماجه (١٦٢٣) ، وعند البخاري (٦٥١٠) نحوه .
(٣) في (ف ، ص) : (إنما لا يستعيذون) ، وكلاهما بمعنىً .

فقد خفتُ الموتَ مخافةً أوقفَني خوفي مِنَ الموتِ على الموتِ)[١] .

ورُوِيَ أنَّ نفراً من بني إسرائيلَ مروا بمقبرةٍ ، فقالَ بعضُهُم لبعضٍ : لو دعوتُمُ اللهَ تعالىٰ أن يخرجَ لكُمْ مِنْ هـٰذهِ المقبرةِ ميتاً تسألونَهُ ، فدعوُا اللهَ تعالىٰ ؛ فإذا هُمْ برجلٍ قدْ قامَ وبينَ عينيهِ أثرُ السجودِ قدْ خرجَ مِنْ قبرٍ مِنَ القبورِ ، فقالَ : يا قومِ ؛ ما أردتُم منِّي ؟ لقدْ ذقتُ الموتَ منذُ خمسينَ سنةً ما سكنَتْ مرارةُ الموتِ مِنْ قلبي[٢] .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (لا أغبطُ أحداً يهونُ عليهِ الموتُ بعدَ الذي رأيتُ مِنْ شدَّةِ موتِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ)[٣] .

ورُوِيَ أنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ كانَ يقولُ : « اللهمَّ ؛ إنَّكَ تأخذُ الروحَ مِنْ بينِ العصبِ والقصبِ والأناملِ ، اللهمَّ ؛ فأعنِّي على الموتِ وهوِّنْهُ عليَّ »[٤] .

وعنِ الحسنِ : أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ذكرَ الموتَ وغصتَهُ وألمَهُ فقالَ : « هوَ قدرُ ثلاثِ مئةِ ضربةٍ بالسَّيْفِ »[٥] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (١٠/ ٢٦٠) .

(٢) رواه عبد بن حميد في « المنتخب » (١١٥٧) ، وأحمد في « الزهد » (٨٨) .

(٣) رواه الترمذي (٩٧٩) ، وعند البخاري (٤٤٤٦) نحوه .

(٤) قال العراقي : (رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » من حديث طعمة بن غيلان الجعفي ، وهو معضل سقط منه الصحابي والتابعي) . « إتحاف » (١٠/ ٢٦٠) .

(٥) قال العراقي : (رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » هـٰكذا مرسلاً ورجاله ثقات) . « إتحاف » (١٠/ ٢٦٠).

وسُئلَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عَنِ الموتِ وشدَّتِهِ فقالَ : « إنَّ أهونَ الموتِ بمنزلةِ حسكةٍ في صوفٍ ، فهل تخرجُ الحسكةُ مِنَ الصوفِ إلاَّ ومعَها صوفٌ »[1] .

ودخلَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ مريضٍ ثمَّ قالَ : « إنِّي أعلمُ ما يلقىٰ ، ما منهُ عرقٌ إلاَّ ويألمُ للموتِ علىٰ حدَتِهِ »[2] .

وكانَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ يحضُّ على القتالِ ويقولُ : (إنْ لم تُقتلوا . . تموتوا ، والذي نفسي بيدِهِ ؛ لألفُ ضربةٍ بالسيفِ أهونُ مِنْ موتٍ علىٰ فراشٍ)[3] .

وقالَ الأوزاعيُّ : (بلغَنا أنَّ الميتَ يجدُ ألمَ الموتِ ما لمْ يُبعثْ مِنْ قبرِهِ)[4] .

وقالَ شدادُ بنُ أوسٍ : (الموتُ أفظعُ هولٍ في الدنيا والآخرةِ على المؤمنِ ، وهوَ أشدُّ منْ نشرٍ بالمناشيرِ وقرضٍ بالمقاريضِ وغليٍ في القدورِ ،

---

(1) قال العراقي : (رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » من رواية شهر بن حوشب مرسلاً) . « إتحاف » (١٠/ ٢٦٠) ، والحَسَك : نبات تعلق ثمرته بصوف الغنم .

(2) رواه الطبراني في « الكبير » (٦/ ٢٦٩) ، والبزار في « مسنده » (٢٥١٢) .

(3) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (١٠/ ٢٦١) .

(4) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (١٠/ ٢٦١) ، وروىٰ أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٤٤) عن كعب قال : (لا يذهب عن الميت ألم الموت ما دام في قبره وإنه لأشدُّ ما يمر على المؤمن ، وأهون ما يصيب الكافر) .

ولوْ أنَّ الميتَ نُشرَ فأخبرَ أهلَ الدنيا بألمِ الموتِ . . ما انتفعوا بعيشٍ ولا لذُّوا بنومٍ)[١] .

وعَنْ زيدِ بنِ أسلمَ عَنْ أبيهِ قالَ : (إذا بقيَ على المؤمنِ مِنْ درجاتِهِ شيءٌ لم يبلغْها بعملِهِ . . شُدِّدَ عليهِ الموتُ ؛ ليبلغَ بسكراتِ الموتِ وكربِهِ درجتَهُ في الجنَّةِ ، وإذا كانَ للكافرِ معروفٌ لم يُجزَ بهِ في الدنيا . . هُوِّنَ عليهِ في الموتِ ؛ ليستكملَ ثوابَ معروفِهِ فيصيرَ إلى النَّارِ)[٢] .

وعَنْ بعضِهِم أنَّهُ كانَ يسألُ كثيراً مِنَ المرضىٰ : كيفَ تجدونَ الموتَ ؟ فلمَّا مرضَ . . قيلَ لهُ : فأنتَ كيفَ تجدُهُ ؟ فقالَ : (كأنَّ السماواتِ مطبقةٌ على الأرضِ ، وكأنَّ نفسي تخرجُ مِنْ ثقبِ إبرةٍ)[٣] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « موتُ الفجأةِ راحةٌ للمؤمنِ ، وأسفٌ على الفاجرِ »[٤] .

ورُوِيَ عن مكحولٍ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « لوْ أنَّ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (١٠/ ٢٦١) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » ، وفيه : عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم عن أبيه ، فالمراد بأبيه هو زيد بن أسلم ، والضمير راجع إلىٰ عبد الرحمٰن ، وفي سياق المصنف خطأ ، ولو قال : عن عبد الرحمٰن بن زيد بن أسلم عن أبيه . . لأصاب . « إتحاف » (١٠/ ٢٦١) .

(٣) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣/ ٤٥٤ ـ ٤٥٥) ، وابن سعد في « الطبقات » (٥/ ٨١) .

(٤) رواه أحمد في « المسند » (٦/ ١٣٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٧٤٠) .

شعرةً منْ شعرِ الميتِ وُضِعَتْ علىٰ أهلِ السماواتِ والأرضِ.. لماتوا بإذنِ اللهِ ، لأنَّ في كلِّ شعرةٍ الموتَ ، ولا يقعُ الموتُ بشيءٍ إلاَّ ماتَ »[1] .

ويُروىٰ : (لوْ أنَّ قطرةً مِنْ ألمِ الموتِ وُضعَتْ علىٰ جبالِ الأرضِ كلِّها.. لذابَتْ)[2] .

ورُوِيَ أنَّ إبراهيمَ عليهِ السَّلامُ لمَّا ماتَ.. قالَ اللهُ تعالىٰ لهُ : كيفَ وجدتَ الموتَ يا خليلي ؟ فقالَ : (كسفُّودٍ جُعِلَ في صوفٍ رطبٍ ثم جُذِبَ ، فقالَ : أما إنَّا قد هوَّنا عليكَ)[3] .

ورُوِيَ عَنْ موسىٰ عليهِ السَّلامُ : أنَّهُ لمَّا صارَتْ روحُهُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ.. قالَ لَهُ ربُّهُ : يا موسىٰ ؛ كيفَ وجدتَ الموتَ ؟ قالَ : وجدتُ نفسي كالعصفورِ حينَ يُقلىٰ على المِقْلىٰ ، لا يموتُ فيستريحَ ، ولا ينجو فيطيرَ[4] .

---

(١) قال العراقي : (رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » ، وفيه : « لو أن ألم شعرة ») . « إتحاف » (١٠/ ٢٦٢) .

(٢) روىٰ أبو بكر المروزي في « الجنائز » عن أبي ميسرة رفعه : « لو أن قطرة من ألم الموت وضعت علىٰ أهل السماء والأرض.. لماتوا جميعاً ، وإن في القيامة لساعة تضعف علىٰ شدة الموت سبعين ضعفاً » . « إتحاف » (١٠/ ٢٦٢) .

(٣) رواه أحمد في « الزهد » (٤١٠) ، وفيه : (وجدت نفسي تنزع بالبلاء) بدل (كسفود جعل في صوف رطب ثم جذب) ، وسفود ، كتنور : حديدة ذات شعب مُعقَّفة يشوىٰ بها .

(٤) رواه أحمد في « الزهد » . « إتحاف » (١٠/ ٢٦٢) .

ورُويَ عنهُ أنَّهُ قالَ : وجدتُ نفسي كشاةٍ حيةٍ تُسلخُ بيدِ القصابِ[1] .

ورُويَ عَنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : أنَّهُ كانَ عندهُ قدحٌ مِنْ ماءٍ عندَ الموتِ ، فجعلَ يدخلُ يدَهُ في الماءِ ثمَّ يمسحُ بها وجهَهُ ويقولُ : « اللهمَّ ؛ هوِّنْ عليَّ سكراتِ الموتِ »[2] وفاطمةُ رضيَ اللهُ عنها تقولُ : وا كرباهُ لكربِكَ يا أبتاهُ ! وهوَ يقولُ : « لا كربَ علىٰ أبيكِ بعدَ اليومِ »[3] .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ لكعبِ الأحبارِ : يا كعبُ ؛ حدِّثْنا عنِ الموتِ ، فقالَ : (نعمْ يا أميرَ المؤمنينَ ، الموتُ كغصنٍ كثيرِ الشوكِ أُدخلَ في جوفِ رجلٍ ، وأخذَتْ كلُّ شوكةٍ بعرقٍ ، ثمَّ جذبَهُ رجلٌ شديدُ الجذبِ ، فأخذَ ما أخذَ وأبقىٰ ما أبقىٰ)[4] .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ العبدَ ليعالجُ كربَ الموتِ وسكراتِ الموتِ ، وإنَّ مفاصلَهُ ليسلِّمُ بعضُها علىٰ بعضٍ تقولُ : عليكَ السَّلامُ ، تفارقُني وأفارقُكَ إلىٰ يومِ القيامةِ »[5] .

❀ ❀ ❀

فهٰذهِ سكراتُ الموتِ علىٰ أولياءِ اللهِ وأحبابِه ، فما حالُنا ونحنُ

---

(١) رواه أيضاً أحمد في « الزهد » . « إتحاف » (١٠/ ٢٦٢) .
(٢) رواه الترمذي (٩٧٨) ، وابن ماجه (١٦٢٣) ، وعند البخاري (٦٥١٠) نحوه .
(٣) رواه ابن حبان (٦٦٢٢) ، وأصل الحديث في « البخاري » (٤٤٦٢) .
(٤) رواه ابن أبي شيبة في « مصنفه » (٣٦٧٩٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٣٦٥) .
(٥) رواه الديلمي في « الفردوس » (٦٥٩٠) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٥٠٠) .

المنهمكونَ في المعاصي ، وتتوالىٰ علينا معَ سكراتِ الموتِ بقيةُ الدواهي ؟! فإنَّ دواهيَ الموتِ ثلاثةٌ :

الأولىٰ : شدَّةُ النزعِ كما ذكرناهُ .

❀ ❀ ❀

الداهيةُ الثانيةُ : مشاهدةُ صورةِ ملكِ الموتِ ، ودخولُ الروعِ والخوفِ منهُ على القلبِ ، فلوْ رأىٰ صورتَهُ التي يقبضُ عليها روحَ العبدِ المذنبِ أعظمُ الرجالِ قوةً . . لمْ يطقْ رؤيتَهُ ؛ فقد رُويَ عَنْ إبراهيمَ الخليلِ عليهِ السَّلامُ : أنَّهُ قالَ لملكِ الموتِ : هلْ تستطيعُ أن تريَني صورتَكَ التي تقبضُ فيها روحَ الفاجرِ ؟ قالَ : لا تطيقُ ذلكَ ، قالَ : بلىٰ ، قالَ : فأعرِضْ عنِّي ، فأعرضَ عنهُ ، ثمَّ التفتَ ؛ فإذا هوَ برجلٍ أسودَ قائمِ الشعرِ ، منتنِ الرِّيحِ أسودِ الثيابِ ، يخرجُ مِنْ فيهِ ومناخرِهِ لهيبُ النَّارِ والدخانِ ، فغُشيَ علىٰ إبراهيمَ عليهِ السَّلامُ ، ثمَّ أفاقَ وقدْ عادَ ملكُ الموتِ إلىٰ صورتِهِ الأولىٰ ، فقالَ : يا ملكَ الموتِ ؛ لوْ لمْ يلقَ الفاجرُ عندَ موتِهِ إلاَّ صورةَ وجهِكَ . . لكانَ حسبَهُ[(١)] .

ورَوىٰ أبو هريرةَ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أنَّ داوودَ عليهِ السَّلامُ كانَ رجلاً غيوراً ، وكانَ إذا خرجَ . . غلَّقَ الأبوابَ ، فأغلقَ ذاتَ يومٍ وخرجَ ، فأشرفَتِ امرأتُهُ ؛ فإذا هيَ برجلٍ في الدارِ ، فقالَتْ : مَنْ أدخلَ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (١٠/ ٢٦٣) .

هـٰذا الرجلَ ؟ لئنْ جاءَ داوودُ . . ليلقيَنَّ منهُ عتباً ، فجاءَ داوودُ عليهِ السَّلامُ فرآهُ فقالَ : مَنْ أنتَ ؟ فقالَ : أنا الذي لا أهابُ الملوكَ ولا يمنعُ مني الحجّابُ ، فقالَ : فأنتَ واللهِ إذاً ملكُ الموتِ ، وزمَّلَ داوودُ عليهِ السَّلامُ مكانَهُ »[1] .

ورُويَ أنَّ عيسىٰ عليهِ السَّلامُ مرَّ بجمجمةٍ فضربَها برجلِه ، فقالَ : تكلَّمي بإذنِ اللهِ تعالىٰ ، فقالَتْ : يا روحَ اللهِ ؛ أنا ملكُ زمانِ كذا وكذا ، بينا أنا جالسٌ في ملكي عليَّ تاجي وحولي جنودي وحشمي علىٰ سريرِ ملكي ؛ إذ بدا لي ملكُ الموتِ ، فزالَ مني كلُّ عضوٍ علىٰ حيالِهِ ، ثمَّ خرجَتْ نفسي إليه ، فيا ليتَ ما كانَ مِنْ تلكَ الجموعِ كانَ فرقةً ! ويا ليتَ ما كانَ مِنْ ذلك الأنسِ كانَ وحشةً ![2] .

فهـٰذِهِ داهيةٌ يلقاها العصاةُ ويُكفاها المطيعونَ ؛ فقدْ حكى الأنبياءُ مجردَ سكرةِ النزعِ دونَ الروعةِ التي يدركُها مَنْ يشاهدُ صورةَ ملكِ الموتِ كذلكَ ، ولوْ رآها في منامِهِ ليلةً . . لتنغصَ عليهِ بقيةُ عمرِهِ ، فكيفَ برؤيتِهِ في مثلِ تلكَ الحالِ ؟!

وأمَّا المطيعُ . . فإنَّهُ يراهُ في أحسنِ صورةٍ وأجملِها ؛ فقدْ روىٰ عكرمةُ

---

(1) رواه أحمد في « المسند » (٢/٤١٩) بنحوه ، وابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (١٠/ ٢٦٤) ، وفي (ي) : (عنتاً) بدل (عتباً) ، **وزمَّل** : غطَّىٰ ؛ أي : غطَّىٰ نفسه في ذلك المكان .

(2) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٩) بنحوه .

عنِ ابنِ عباسٍ : (أنَّ إبراهيمَ عليهِ السَّلامُ كانَ رجلاً غيوراً ، وكانَ لهُ بيتٌ يتعبَّدُ فيهِ ، فإذا خرجَ . . أغلقَهُ ، فرجعَ ذاتَ يومٍ ؛ فإذا برجلٍ في جوفِ البيتِ ، فقالَ : مَنْ أدخلَكَ داري ؟ فقالَ : أدخلَنيها ربُّها ، فقالَ : أنا ربُّها ، فقالَ : أدخلَنيها مَنْ هوَ أملكُ بها منِّي ومنْكَ ، فقالَ : فمَنْ أنتَ مِنَ الملائكةِ ؟ قالَ : أنا ملكُ الموتِ ، قالَ : هلْ تستطيعُ أنْ تريَني الصورةَ التي تقبضُ فيها روحَ المؤمنِ ؟ قالَ : نعم ، فأعرِضْ عنِّي ، فأعرضَ عنه ، ثمَّ التفتَ ؛ فإذا هوَ بشابٍّ فذكرَ مِنْ حسنِ وجهِهِ وحسنِ ثيابِهِ وطيبِ ريحِهِ ، فقالَ : يا ملكَ الموتِ ؛ لوْ لمْ يلقَ المؤمنُ عندَ الموتِ إلاَّ صورتَكَ . . كانَ حسبَهُ)[1] .

ومنها : مشاهدةُ الملكينِ الحافظينِ ، قالَ وهيبٌ : بلغَنا أنَّهُ ما مِنْ ميتٍ يموتُ حتىٰ يتراءىٰ لهُ ملكاهُ الكاتبانِ عملَهُ ، فإنْ كانَ مطيعاً . . قالا لهُ : جزاكَ اللهُ عنا خيراً ؛ فربَّ مجلسِ صدقٍ أجلستَنا ، وعملٍ صالحٍ أحضرتَنا ، وإنْ كانَ فاجراً . . قالاَ لهُ : لا جزاكَ اللهُ عنا خيراً ؛ فربَّ مجلسِ سوءٍ قدْ أجلستَنا ، وعملٍ غيرِ صالحٍ قدْ أحضرتَنا ، وكلامٍ قبيحٍ قدْ أسمعتَنا ، فلا جزاكَ اللهُ عنا خيراً ، فذلك شخوصُ بصرِ الميتِ إليهما ولا يرجعُ إلى الدنيا أبداً[2] .

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (١٠/ ٢٦٥) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (١٠/ ٢٦٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/ ١٥١ـ١٥٢) .

الداهيةُ الثالثةُ : مشاهدةُ العصاةِ مواضعَهُمْ مِنَ النَّارِ ، وخوفُهم قبلَ المشاهدةِ ؛ فإنَّهم في حالِ السكراتِ وقد تخاذلَتْ قواهمْ ، واستسلمَتْ للخروجِ أرواحُهُمْ ، ولنْ تخرجَ أرواحُهُمْ ما لمْ يسمعوا نغمةَ ملكِ الموتِ بإحدى البُشريينِ ؛ إمَّا : أبشرْ يا عدوَّ اللهِ بالنَّارِ ، أو : أبشرْ يا وليَّ اللهِ بالجنَّةِ ، وعنْ هـٰذا كانَ خوفُ أربابِ الألبابِ .

وقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لنْ يخرجَ أحدُكُمْ مِنَ الدنيا حتىٰ يعلمَ أينَ مصيرُهُ ، وحتىٰ يرىٰ مقعدَهُ مِنَ الجنَّةِ أوِ النَّارِ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أحبَّ لقاءَ اللهِ .. أحبَّ اللهُ لقاءَهُ ، ومَنْ كرهَ لقاءَ اللهِ .. كرهَ اللهُ لقاءَهُ » فقالوا : كلُّنا نكرهُ الموتَ ، قالَ : « ليسَ ذاكَ بذاكَ ، إنَّ المؤمنَ إذا فُرِجَ لهُ عما هوَ قادمٌ عليهِ .. أحبَّ لقاءَ اللهِ وأحبَّ اللهُ لقاءَهُ »[2] .

ورُوِيَ أنَّ حذيفةَ بنَ اليمانِ قالَ لأبي مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ وهوَ لما بِهِ مِن آخرِ الليلِ : قمْ فانظرْ أيُّ ساعةٍ هـٰذهِ ، فقامَ أبو مسعودٍ ثمَّ جاءَهُ فقالَ : قدْ طلعَتِ الحمراءُ ، فقالَ حذيفةُ رضيَ اللهُ عنهُ : أعوذُ باللهِ مِنْ صباحٍ إلى النَّارِ[3] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (١٠/٢٦٦) .

(٢) رواه البخاري (٦٥٠٧) ، ومسلم (٢٦٨٤) بنحوه .

(٣) رواه ابن أبي شيبة في « مصنفه » (١٠٩٨٢) ، والطبراني في « الكبير » (٣/١٦٣) ، وفي النسخ : (لابن مسعود ... فقام ابن مسعود) ، والتصويب من المصادر ، وانظر « الإتحاف » (١٠/٢٦٦) .

ودخلَ مروانُ علىٰ أبي هريرةَ فقالَ مروانُ : اللهمَّ ؛ خفِّفْ عنهُ ، فقالَ أبو هريرةَ : اللهمَّ ؛ اشددْ ، ثمَّ بكىٰ أبو هريرةَ وقالَ : (واللهِ ؛ ما أبكي حزناً على الدنيا ولا جزعاً من فراقِكُمْ ، ولكن أنتظرُ إحدى البشريينِ مِنْ ربي ؛ بجنَّةٍ أمْ بنارٍ)(١) .

ورُوِيَ في الحديثِ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ إذا رضيَ عَنْ عبدٍ . . قالَ : يا ملكَ الموتِ ؛ اذهبْ إلىٰ فلانٍ فأتني بروحِهِ لأريحَهُ ، حسبي مِنْ عملِهِ ، قدْ بلوتُهُ فوجدتُهُ حيثُ أحبُّ ، فينزلُ ملكُ الموتِ ومعَهُ خمسُ مئةٍ مِنَ الملائكةِ معَهم قضبانُ الريحانِ وأصولُ الزعفرانِ ، كلُّ واحدٍ منهم يبشِّرُهُ ببشارةٍ سوىٰ بشارةِ صاحبِهِ ، وتقومُ الملائكةُ صفينِ لخروجِ روحِهِ معَهم الريحانُ ، فإذا نظرَ إليهِمْ إبليسُ . . وضعَ يدَهُ علىٰ رأسِهِ ثمَّ صرخَ ، قالَ : فيقولُ لهُ جنودُهُ : ما لكَ يا سيِّدَنا ؟ فيقولُ : أما ترونَ ما أُعطيَ هٰذا العبدُ مِنَ الكرامةِ ؟! أينَ كنتُم عَنْ هٰذا ؟ قالوا : قد جهدنا بهِ فكانَ معصوماً »(٢) .

وقالَ الحسنُ : (لا راحةَ للمؤمنِ إلاَّ في لقاءِ اللهِ تعالىٰ ، ومَنْ كانَتْ راحتُهُ في لقاءِ اللهِ تعالىٰ . . فيومُ الموتِ يومُ سرورِهِ وفرحِهِ ، وأمنِهِ وعزِّهِ وشرفِهِ)(٣) .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (١٠/٢٦٧) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (١٠/٢٦٧) .

(٣) رواه أحمد في « الزهد » (٨٤٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٨/١٣٣) بنحوه من =

وقيلَ لجابرِ بنِ زيدٍ عندَ الموتِ : ما تشتهي ؟ قالَ : نظرةً إلى الحسنِ ، فلمَّا دخلَ عليهِ الحسنُ . . قيلَ لهُ : هٰذا الحسنُ ، فرفعَ طرفَهُ إليهِ ثمَّ قالَ : يا إخوتاهُ ؛ الساعةَ واللهِ أفارقُكُمْ إلى النَّارِ أو إلى الجنَّةِ[1] .

وقالَ محمدُ بنُ واسعٍ عندَ الموتِ : (يا إخوتاهُ ؛ عليكمُ السَّلامُ ، إلى النَّارِ أو يعفوَ اللهُ)[2] .

وتمنَّىٰ بعضُهم أنْ يبقىٰ في النزعِ أبداً ولا يُبعثَ لثوابٍ ولا عقابٍ .

فخوفُ سوءِ الخاتمةِ قطعَ قلوبَ العارفينَ ، وهيَ مِنَ الدواهي العظيمةِ عندَ الموتِ ، وقدْ ذكرنَا معنىٰ سوءِ الخاتمةِ وشدةَ خوفِ العارفينَ منهُ في كتابِ الخوفِ والرجاءِ ، وهو لائقٌ بهٰذا الموضعِ ، ولكنَّا لا نطولُ بذكرِهِ وإعادتِهِ .

* * *

= حديث ابن مسعود رضي الله عنه ، وقال الزبيدي في « الإتحاف » (١٠/ ٢٧٠) : (قال السخاوي : ورفعه بعضهم واستشهد له بحديث عائشة : « من أحب لقاء الله . . أحب الله لقاءه ») .

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٨٩) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٤٨) .

بيان ما يستحب من أحوال المحتضر عند الموت

اعلمْ : أنَّ المحبوبَ عندَ الموتِ مِنْ صورةِ المحتضرِ هوَ الهدوءُ والسكونُ ، ومِنْ لسانِهِ أنْ يكونَ ناطقاً بالشهادةِ ، ومِنْ قلبِهِ أن يكونَ حسنَ الظنِّ باللهِ تعالىٰ .

❁ ❁ ❁

أمَّا الصورةُ : فقد رُويَ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « ارقبوا الميتَ عندَ ثلاثٍ : إذا رشحَ جبينُهُ ، وذرفَتْ عيناهُ ، ويبسَتْ شفتاهُ .. فهيَ مِنْ رحمةِ اللهِ قدْ نزلَتْ بهِ ، وإذا غطَّ غطيطَ المخنوقِ ، واحمرَّ لونُهُ ، وأزبدَتْ شفتاهُ .. فهوَ مِنْ عذابِ اللهِ قدْ نزلَ بهِ »(١) .

❁ ❁ ❁

وأمَّا انطلاقُ لسانِهِ بكلمةِ الشهادةِ : فهيَ علامةُ الخيرِ .

قالَ أبو سعيدٍ الخدريُّ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لقِّنوا موتاكُمْ : لا إلـٰهَ إلاَّ اللهُ »(٢) ، وفي روايةِ حذيفةَ : « فإنَّها تهدمُ ما قبلها مِنَ الخطايا »(٣) .

---

(١) رواه الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (ص١٢٥) .
(٢) رواه مسلم (٩١٦) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٢) .

وقالَ عثمانُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ ماتَ وهوَ يعلمُ أنَّهُ لا إلـهَ إلاَّ اللهُ . . دخلَ الجنَّةَ »[1] ، وقالَ عبيدُ اللهِ : « وهوَ يشهدُ »[2] .

وقالَ عثمانُ : (إذا احتضرَ الميتُ . . فلقِّنوهُ : لا إلـهَ إلاَّ اللهُ ؛ فإنَّهُ ما مِنْ عبدٍ يُختمُ لهُ بها عندَ موتِهِ إلاَّ كانَتْ زادَهُ إلى الجنَّةِ)[3] .

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ : (احضروا موتاكُم وذكِّروهم ؛ فإنَّهُم يرونَ ما لا ترونَ ، ولقِّنوهُم : لا إلـهَ إلاَّ اللهُ)[4] .

وقالَ أبو هريرةَ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « حضرَ ملكُ الموتِ رجلاً يموتُ ، فنظرَ في قلبِهِ فلم يجدْ فيهِ شيئاً ، ففكَّ لحييهِ فوجدَ طرفَ لسانِهِ لاصقاً بحنكِهِ يقولُ : لا إلـهَ إلاَّ اللهُ ، فغُفرَ له بكلمةِ الإخلاصِ »[5] .

وينبغي للملقِّنِ ألاَّ يلحَّ في التلقينِ ، ولكنْ يتلطَّفُ ؛ فربَّما لا ينطلقُ لسانُ المريضِ فيشقُّ عليهِ ذلكَ ، ويؤدي إلى استثقالِهِ التلقينَ وكراهيتِهِ

---

(١) رواه مسلم (٢٦) .
(٢) رواه النسائي في « الكبرىٰ » (١٠٨٨٦) ، من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وأحمد في « المسند » (٥/٢٢٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٧) من حديث معاذ رضي الله عنه .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٥) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٨) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٩) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٨٤) .

للكلمةِ ، ويُخشىٰ أنْ يكونَ ذلكَ سببَ سوءِ الخاتمةِ ، وإنَّما معنىٰ هٰذهِ الكلمةِ أنْ يموتَ الرجلُ وليسَ في قلبه شيءٌ غيرُ اللهِ ، فإذا لم يبقَ لهُ مطلوبٌ سوى الواحدِ الحقِّ . . كانَ قدومُهُ بالموتِ علىٰ محبوبِه غايةَ النعيمِ في حقِّهِ .

وإنْ كانَ القلبُ مشغوفاً بالدنيا ملتفتاً إليها متأسِّفاً علىٰ لذَّاتِها ، وكانَتِ الكلمةُ علىٰ رأسِ اللسانِ ولم ينطوِ القلبُ علىٰ تحقيقِها . . وقعَ الأمرُ في خطرِ المشيئةِ ، فإنَّ مجردَ حركةِ اللسانِ قليلُ الجدوىٰ إلاَّ أنْ يتفضَّلَ اللهُ تعالىٰ بالقبولِ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا حسنُ الظنِّ : فهوَ مستحبٌّ في هٰذا الوقتِ ، وقدْ ذكرنا ذلكَ في كتابِ الرجاءِ .

وقدْ وردَتِ الأخبارُ بفضلِ حسنِ الظنِّ باللهِ ، دخلَ واثلةُ بنُ الأسقعِ علىٰ مريضٍ فقالَ : أخبرْني كيفَ ظنُّكَ باللهِ تعالى ؟ قالَ : أغرقَتْني ذنوبٌ لي وأشفيتُ علىٰ هلكةٍ ، ولكنِّي أرجو رحمةَ ربي ، فكبَّرَ واثلةُ ، وكبَّرَ أهلُ البيتِ بتكبيرِهِ ، وقالَ : اللهُ أكبرُ ، سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « يقولُ اللهُ تعالىٰ : أنا عندَ ظنِّ عبدي بي ، فليظنَّ بي ما شاءَ »[1] .

ودخلَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ شابٍّ وهوَ يموتُ فقالَ : « كيفَ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (١٦) ، وأحمد في « المسند » (٣/ ٤٩١) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٧٥) .

تجدُكَ ؟ » فقالَ : أرجو اللهَ وأخافُ ذنوبي ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما اجتمعا في قلبِ عبدٍ في مثلِ هـٰذا الموطنِ إلاَّ أعطاهُ اللهُ الذي يرجو ، وآمنَهُ مِنَ الذي يخافُ »[1] .

وقالَ ثابتٌ البنانيُّ : كانَ شابٌّ بهِ حدةٌ ، وكانَتْ لهُ أمٌّ تعظُهُ كثيراً وتقولُ لهُ : يا بنيَّ ؛ إنَّ لكَ يوماً فاذكرْ يومَكَ ، فلمَّا نزلَ بهِ أمرُ اللهِ تعالىٰ . . أكبَّتْ عليهِ أمُّهُ وجعلَتْ تقولُ لهُ : يا بنيَّ ؛ قدْ كنتُ أحذِّرُكَ مصرعَكَ هـٰذا وأقولُ : إنَّ لكَ يوماً ، فقالَ : يا أمَّهْ ؛ إنَّ لي رباً كثيرَ المعروفِ ، وإنِّي لأرجو ألاَّ يعدمَني اليومَ بعضَ معروفِهِ ، قالَ ثابتٌ : فرحمَهُ اللهُ تعالىٰ بحسنِ ظنِّهِ بربِّهِ[2] .

وقالَ جابرُ بنُ وداعةَ : كانَ شابٌّ بهِ زهوٌ فاحتُضرَ ، فقالَتْ لهُ أمُّهُ : يا بنيَّ ؛ توصي بشيءٍ ؟ قالَ : نعمْ ، خاتمي لا تسلبينيهِ ؛ فإنَّ فيهِ ذكرَ اللهِ تعالىٰ ، فلعلَّ اللهَ أنْ يرحمَني ، فلمَّا دُفنَ . . رُئيَ في المنامِ فقالَ : أخبروا أمي أنَّ الكلمةَ قد نفعَتْني ، وأنَّ اللهَ تعالىٰ قدْ غفرَ لي[3] .

ومرضَ أعرابيٌّ فقيلَ لهُ : إنَّكَ تموتُ ، فقالَ : أينَ يُذهبُ بي ؟ قالوا :

---

(١) رواه الترمذي (٩٨٣) ، وابن ماجه (٤٢٦١) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن » (٣٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/٣٢٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٧١٢) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن » (٣٨) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٧١٥) ، وفيه وفي (ق) : (رهق) بدل (زهو) .

إلى اللهِ تعالىٰ ، قالَ : فما كراهتي أنْ أذهبَ إلىٰ من لا يُرى الخيرُ إلاَّ منهُ[1] .

وقالَ المعتمرُ بنُ سليمانَ : قالَ أبي حينَ حضرَتْهُ الوفاةُ : يا معتمرُ ؛ حدِّثْني بالرُّخَصِ لعلِّي ألقى اللهَ عزَّ وجلَّ وأنا حسنُ الظنِّ بهِ[2] .

وكانوا يستحبُّونَ أن يُذكرَ للعبدِ محاسنُ عملِهِ عندَ موتِهِ ؛ لكي يحسنَ ظنَّهُ بربِّهِ[3] .

* * *

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن » (٤٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٧١٧) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٣١) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٧٧) ، وفي (أ) : (أحسنُ) بدل (حسن) وهي موافقة لما في « الحلية » .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن » (٣٠) .

بيان الحسرة عند لقاء ملك الموت بحكاياتٍ يُعرِب لسان الحال عنها

قالَ أشعثُ بنُ أسلمَ : سألَ إبراهيمُ عليهِ السَّلامُ ملكَ الموتِ ـ واسمهُ عزرائيلُ ، وله عينانِ : عينٌ في وجهِهِ وعينٌ في قفاهُ ـ فقالَ : يا ملكَ الموتِ ؛ ما تصنعُ إذا كانَ نفسٌ بالمشرقِ ونفسٌ بالمغربِ ، ووقعَ الوباءُ بأرضٍ والتقى الزحفانِ . . كيفَ تصنعُ ؟ قال : أدعو الأرواحَ بإذنِ اللهِ تعالىٰ فتكونُ بينَ إصبعيَّ هاتينِ ، وقالَ : قدْ دُحيَتْ لهُ الأرضُ فتُركَتْ مثلَ الطَّسْتِ بينَ يديهِ ، يتناولُ منها حيثُ يشاءُ ، قالَ : وهوَ الذي بشَّرَهُ بأنَّهُ خليلُ اللهِ عزَّ وجلَّ(١) .

وقالَ سليمانُ بنُ داوودَ عليهما السلامُ لملكِ الموتِ عليه السَّلامُ : ما لي لا أراكَ تعدلُ بينَ النَّاسِ ، تأخذُ هـٰذا وتدعُ هـٰذا ؟! قالَ : ما أنا بذلكَ بأعلمَ منكَ ، إنَّما هيَ صحفٌ أو كتبٌ تُلقىٰ إليَّ فيها أسماءٌ(٢) .

وقالَ وهبُ بنُ منبهٍ : كانَ ملكٌ مِنَ الملوكِ أرادَ أنْ يركبَ إلىٰ أرضٍ فدعا بثيابٍ ليلبسَها فلم تعجبْهُ ، فطلبَ غيرَها حتىٰ لبسَ ما أعجبَهُ بعدَ مرَّاتٍ ، وكذلكَ طلبَ دابةً فأُتيَ بها فلمْ تعجبْهُ حتىٰ أُتيَ بدوابَّ فركبَ أحسنَها ، فجاءَ إبليسُ فنفخَ في منخرِهِ نفخةً فملأهُ كبراً ، ثمَّ سارَ وسارَتْ معَهُ الخيولُ وهوَ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (١٠/ ٢٧٩) ، وأبو الشيخ في « العظمة » (٤٤٣) .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « مصنفه » (٣٥٤٠٨) .

لا ينظرُ إلى النَّاسِ كبراً ، فجاءَهُ رجلٌ رثُّ الهيئةِ فسلَّمَ عليهِ فلمْ يردَّ عليهِ السَّلامَ ، فأخذَ بلجامِ دابتِهِ فقالَ : أرسلِ اللجامَ ؛ فقدْ تعاطيتَ أمراً عظيماً ، فقالَ : إنَّ لي إليكَ حاجةً ، قالَ : اصبرْ حتىٰ أنزلَ ، قالَ : لا ، الآنَ ، فقهرَهُ علىٰ لجامِ دابتِهِ ، فقالَ : اذكرْها ، قالَ : هوَ سرٌّ ، فأدنىٰ لهُ رأسَهُ ، فسارَّهُ وقالَ : أنا ملكُ الموتِ ، فتغيَّرَ لونُ الملكِ واضطربَ لسانُهُ ، ثمَّ قالَ : دعْني حتىٰ أرجعَ إلىٰ أهلي فأقضيَ حاجتي وأودِّعَهم ، قالَ : لا ، واللهِ ؛ لا ترىٰ أهلَكَ وثقَلَكَ أبداً[1] ، فقبضَ روحَهُ ، فخرَّ كأنَّهُ خشبةٌ ، ثمَّ مضىٰ فلقيَ عبداً مؤمناً في تلكَ الحالِ ، فسلَّمَ عليهِ فردَّ عليهِ السَّلامَ ، فقالَ : إنَّ لي حاجةً أذكرُهَا في أذنِكَ ، فقالَ : هاتِ ، فسارَّهُ وقالَ : أنا ملكُ الموتِ ، فقالَ : مرحباً وأهلاً بمَنْ طالَتْ غيبتُهُ عليَّ ، فواللهِ ؛ ما كانَ في الأرضِ غائبٌ أحبَّ إليَّ أنْ ألقاهُ مِنْكَ ، فقالَ لهُ ملكُ الموتِ : اقضِ حاجتَكَ التي خرجتَ لها ، فقالَ : ما لي حاجةٌ أكبرُ عندي ولا أحبُّ إليَّ مِنْ لقاءِ اللهِ تعالىٰ ، قالَ : فاخترْ علىٰ أيِّ حالٍ شئتَ أنْ أقبضَ روحَكَ ، فقالَ : وتقدرُ علىٰ ذلكَ ؟ قالَ : نعمْ ، إنِّي أُمرتُ بذلكَ ، قالَ : فدعْني حتىٰ أتوضأَ وأُصليَ فاقبضْ روحي وأنا ساجدٌ ، فقبضَ روحَهُ وهوَ ساجدٌ[2] .

وقالَ بكرُ بنُ عبدِ اللهِ المزنيُّ : جمعَ رجلٌ مِنْ بني إسرائيلَ مالاً ، فلمَّا

---

(١) الثَّقَلُ : متاع المسافر وحشمه وكل شيء نفيس مصون .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (١٠/ ٢٨٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٠٢ـ ٢٠٣) .

أشرفَ على الموتِ. . قالَ لبنيهِ : أروني أصنافَ أموالي ، فأُتيَ بشيءٍ كثيرٍ مِنَ الخيلِ والإبلِ والرقيقِ وغيرِها ، فلمَّا نظرَ إليهِ . . بكىٰ تحسُّراً عليهِ ، فرآهُ ملكُ الموتِ وهو يبكي فقالَ لهُ : ما يبكيكَ ؟ فوالذي خوَّلَك ؛ ما أنا بخارجٍ مِن منزِلكَ حتىٰ أفرِّقَ بينَ روحِكَ وبدنِكَ ، قالَ : فالمهلةَ حتىٰ أفرِّقَهُ ، قالَ : هيهاتَ ! انقطعَتْ عنكَ المهلةُ ، فهلاَّ كانَ ذلكَ قبلَ حضورِ أجلِكَ ؟! فقبضَ روحَهُ[1] .

ورُويَ أنَّ رجلاً جمعَ مالاً فأوعىٰ ، ولم يدَعْ صنفاً مِنَ المالِ إلاَّ اتخذَهُ ، وابتنىٰ قصراً ، وجعلَ عليهِ بابينِ وثيقينِ ، وجمعَ عليهِ حرساً من غلمانِهِ ، ثمَّ جمعَ أهلَهُ وصنعَ لهم طعاماً ، وقعدَ علىٰ سريرِهِ ورفعَ إحدىٰ رجليهِ على الأخرىٰ وهم يأكلونَ ، فلمَّا فرغوا . . قالَ : يا نفسُ ؛ انعمي لسنينَ ؛ فقدْ جمعتُ لكِ ما يكفيكِ ، فلم يفرغْ مِنْ كلامِهِ حتىٰ أقبلَ إليهِ ملكُ الموتِ في هيئةِ رجلٍ عليهِ خُلقانٌ مِنَ الثيابِ ، في عنقِهِ مخلاةٌ يتشبَّهُ بالمساكينِ ، فقرعَ البابَ بشدةٍ عظيمةٍ قرعاً أفزعَهُ وهوَ علىٰ فراشِهِ ، فوثبَ إليهِ الغلمانُ وقالوا : ما شأنُكَ ؟ فقالَ : ادعوا لي مولاكم ، فقالوا : وإلىٰ مثلِكَ يخرجُ مولانا ؟! قالَ : نعمْ ، فأخبرُوهُ بذلكَ ، فقالَ : هلاَّ فعلتُمْ بهِ وفعلتُمْ ، فقرعَ البابَ قرعةً أشدَّ مِنَ الأولىٰ ، فوثبَ إليهِ الحرسُ ، فقالَ : أخبروهُ أنِّي ملكُ الموتِ ، فلمَّا سمعوهُ . . أُلقيَ عليهمُ الرعبُ ، ووقعَ علىٰ مولاهمُ الذلُّ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (١٠/ ٢٨١) .

والتخشعُ ، فقالَ : قولوا لهُ قولاً ليناً ، وقولوا لهُ : هلْ تأخذُ بهِ أحداً ؟ فدخلَ عليهِ وقالَ : اصنعْ في مالِكَ ما أنتَ صانعٌ ؛ فإنِّي لستُ بخارجٍ منها حتىٰ أخرجَ نفسَكَ ، فأمرَ بمالِهِ حتىٰ وُضِعَ بينَ يديهِ ، فقالَ حينَ رآهُ : لعنَكَ اللهُ مِنْ مالٍ ؛ أنتَ شغلتَني عَنْ عبادةِ ربي ، ومنعتَني أنْ أتخلَّىٰ لربي ، فأنطقَ اللهُ المالَ فقالَ : لِمَ تسبُّني وقدْ كنتَ تدخلُ على السُّلطانِ بي ويُردُّ المتَّقونَ عَنْ بابِهِ ، وكنتَ تنكحُ المتنعماتِ بي ، وتجلسُ مجالسَ الملوكِ بي ، وتردُّ المتقينَ ، وتنفقُني في سبيلِ الشرِّ فلاَ أمتنعُ منكَ ، ولوْ أنفقتَني في سبيلِ الخيرِ . . نفعتُكَ ؟! خُلقتُ وابنَ آدمَ مِنْ ترابٍ ، فمنطلقٌ ببرٍّ ومنطلقٌ بإثمٍ ، ثمَّ قبضَ ملكُ الموتِ روحَهُ فسقطَ[1] .

وقالَ وهبُ بنُ منبهٍ : قبضَ ملكُ الموتِ روحَ جبارٍ مِنَ الجبابرةِ ما في الأرضِ مثلُهُ ، ثمَّ عرجَ إلى السماءِ ، فقالتِ الملائكةُ : لمَنْ كنتَ أشدَّ رحمةً ممَّنْ قبضتَ روحَهُ ؟ قالَ أُمرتُ بقبضِ نفسِ امرأةٍ في فلاةٍ مِنَ الأرضِ ، فأتيتُها وقد ولدَتْ مولوداً ، فرحمتُها لغربتِها ورحمتُ ولدَها لصغرِهِ وكونِهِ في الفلاةِ لا متعهدَ لهُ بها ، فقالتِ الملائكةُ : الجبارُ الذي قبضتَ الآنَ روحَهُ هوَ ذلكَ المولودُ الذي رحمتَهُ ، فقالَ ملكُ الموتِ : سبحانَ اللطيفِ لما يشاءُ ![2] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (١٠/ ٢٨١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٢٤٠ ـ ٢٤١) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (١٠/ ٢٨١) .

وقالَ عطاءُ بنُ يسارٍ : إذا كانَ ليلةُ النصفِ من شعبانَ . . دُفعَ إلىٰ ملكِ الموتِ صحيفةٌ فيُقالُ : اقبضْ في هٰذهِ السنةِ مَنْ في هٰذهِ الصحيفةِ ، قالَ : فإنَّ العبدَ ليغرسُ الغراسَ وينكحُ الأزواجَ ويبني البنيانَ وإنَّ اسمَهُ في تلكَ الصحيفةِ وهوَ لا يدري(١) .

وقالَ الحسنُ : ما مِنْ يومٍ إلاَّ وملكُ الموتِ يتصفحُ كلَّ بيتٍ ثلاثَ مرَّاتٍ ، فمَنْ وجدَهُ منهم قدِ استوفىٰ رزقَهُ وانقضىٰ أجلُهُ . . قبضَ روحَهُ ، فإذا قبضَ روحَهُ . . أقبلَ أهلُهُ برنةٍ وبكاءٍ ، فيأخذُ ملكُ الموتِ بعضادتيِ البابِ فيقولُ : واللهِ ؛ ما أكلتُ لهُ رزقاً ، ولا أفنيتُ له عمراً ، ولا انتقصتُ لهُ أجلاً ، وإنَّ لي فيكم لعودةً ثمَّ عودةً حتىٰ لا أبقيَ منكم أحداً ، قالَ الحسنُ : فواللهِ ؛ لو رأوا مقامَهُ وسمعوا كلامَهُ . . لذهلوا عَنْ ميتِهِمْ ، ولبَكَوا علىٰ أنفسِهِم(٢) .

وقالَ يزيدُ الرقاشيُّ : بينما جبَّارٌ مِنَ الجبابرةِ مِنْ بني إسرائيلَ جالسٌ في منزلِهِ قدْ خلاَ ببعضِ أهلِهِ ؛ إذْ نظرَ إلىٰ شخصٍ قدْ دخلَ مِنْ بابِ بيتِهِ ، فثارَ إليهِ فزعاً مُغضَباً ، فقالَ : مَنْ أنتَ ؟ ومَنْ أدخلَكَ داري ؟ فقالَ : أمَّا الذي

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (١٠/ ٢٨١) ، ويؤيده ما رواه الديلمي في « الفردوس » (٢٤١٠) : « تقطع الآجال من شعبان إلىٰ شعبان حتىٰ إن الرجل لينكح ويولد له وقد خرج اسمه في الموتىٰ » .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (١٠/ ٢٨٢) ، وأبو الشيخ في « العظمة » (٤٤١) .

أدخلَني الدارَ . . فربُها ، وأمَّا أنا . . فالذي لا يمنعُني الحجابُ ، ولا أستأذنُ على الملوكِ ، ولا أخافُ صولةَ المتسلِّطينَ ، ولا يمتنعُ مني كلُّ جبارٍ عنيدٍ ولا شيطانٍ مريدٍ ، قالَ : فسُقِطَ في يديِ الجبارِ وأُرعدَ حتىٰ سقطَ منكبّاً لوجهِهِ ، ثمَّ رفعَ إليه رأسَهُ مستعطفاً متذللاً لهُ ، فقالَ لهُ : أنتَ إذاً ملكُ الموتِ ، قالَ : أنا هوَ ، قالَ : فهل أنتَ ممهلي حتىٰ أحدثَ عهداً ؟ قالَ : هيهاتَ ! انقطعَتْ مدتُكَ ، وانقضَتْ أنفاسُكَ ، ونفِدَتْ ساعاتُكَ ، فليسَ إلىٰ تأخيرِكَ سبيلٌ ، قالَ : فإلىٰ أينَ تذهبُ بي ؟ قالَ : إلىٰ عملِكَ الذي قدَّمتَهُ ، وإلىٰ بيتِكَ الذي مهَّدتَهُ ، قالَ : فإنِّي لمْ أقدِّمْ عملاً صالحاً ، ولم أمهِّدْ بيتاً حسناً ، قالَ : فإلىٰ لظىٰ نزاعةً للشوىٰ ، ثمَّ قبضَ روحَهُ ، فسقطَ ميتاً بينَ أهلِهِ ، فمِنْ بينِ صارخٍ وباكٍ .

قالَ يزيدُ الرقاشيُّ : لوْ يعلمونَ سوءَ المنقلبِ . . كانَ العويلُ علىٰ ذلكَ أكثرَ[1] .

وعنِ الأعمشِ عَنْ خيثمةَ قالَ : دخلَ ملكُ الموتِ علىٰ سليمانَ بنِ داوودَ عليهما السَّلامُ ، فجعلَ ينظرُ إلىٰ رجلٍ من جلسائِهِ يديمُ النظرَ إليهِ ، فلمَّا خرجَ . . قالَ الرجلُ : مَنْ هـٰذا ؟ قال : هـٰذا ملكُ الموتِ ، قالَ : لقدْ رأيتُهُ ينظرُ إليَّ كأنَّهُ يريدُني ، قالَ : فماذَا تريدُ ؟ قالَ : أريدُ أنْ تخلِّصَني منهُ فتأمرَ الريحَ حتىٰ تحملَني إلىٰ أقصى الهندِ ، ففعلَتِ الريحُ ذلكَ .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (١٠/ ٢٨٣) .

ثمَّ قالَ سليمانُ لملكِ الموتِ بعدَ أنْ أتاهُ ثانياً : رأيتُكَ تديمُ النظرَ إلىٰ واحدٍ من جلسائي ، قالَ : نعمْ ، كنتُ أتعجبُ منهُ ؛ لأنِّي كنتُ أُمرتُ أنْ أقبضَهُ بأقصى الهندِ في ساعةٍ قريبةٍ ، وكانَ عندَكَ فعجبتُ مِنْ ذلكَ[1] .

* * *

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في « مصنفه » (٣٥٤٠٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/ ١١٨) .

البَابُ الرَّابِعُ
في وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده

وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم

اعلمْ : أنَّ في رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أسوةً حسنةً حيّاً وميتاً ، وفعلاً وقولاً ، وجميعُ أحوالِهِ عبرةٌ للنَّاظرينَ وتبصرةٌ للمستبصرينَ[1] ؛ إذْ لمْ يكنْ أحدٌ أكرمَ على اللهِ تعالىٰ منهُ ؛ إذْ كانَ خليلَ اللهِ وحبيبَهُ ونجيَّهُ ، وكانَ صفيَّهُ ورسولَهُ ونبيَّهُ ، فانظرْ هلْ أمهلَهُ ساعةً عندَ انقضاءِ مدتِهِ ؟ وهلْ أخَّرَهُ لحظةً بعدَ حضورِ منيَّتِهِ ؟ لا ، بلْ أرسلَ إليهِ الملائكةَ الكرامَ الموكَّلينَ بقبضِ أرواحِ الأنامِ ، فجدُّوا بروحِهِ الزكيَّةِ الكريمةِ لينقلوها ، وعالجوها ليرحلوها عنْ جسدِهِ الطاهرِ إلىٰ رحمةٍ ورضوانٍ وخيراتٍ حسانٍ ، بلْ إلىٰ مقعدِ صدقٍ في جوارِ الرحمـٰنِ ، فاشتدَّ معَ ذلكَ في النزعِ كربُهُ وظهرَ أنينُهُ ، وترادفَ قلقُهُ وارتفعَ حنينُهُ ، وتغيَّرَ لونُهُ وعرقَ جبينُهُ ، واضطربَتْ في الانقباضِ والانبساطِ شمالُهُ ويمينُهُ ، حتىٰ بكىٰ لمصرعِهِ مَنْ حضرَهُ ، وانتحبَ لشدَّةِ حالِهِ مَنْ شاهدَ منظرَهُ ، فهلْ رأيتَ منصبَ النبوَّةِ دافعاً عنهُ مقدوراً ؟! أوْ هلْ راقبَ الملكُ فيهِ أهلاً وعشيراً ؟! وهلْ سامحَهُ إذْ كانَ للحقِّ نصيراً ، وللخلقِ

---

(١) في (د ، ص) : (وبصيرة) .

بشيراً ونذيراً ؟! هيهاتَ ! بلِ امتثلَ ما كانَ بهِ مأموراً ، واتبعَ ما وجدَهُ في اللوحِ مسطوراً .

فهـٰذا كانَ حالَهُ وهوَ عندَ اللهِ ذو المقامِ المحمودِ والحوضِ المورودِ ، وهوَ أوَّلُ مَنْ تنشقُّ عنهُ الأرضُ ، وهوَ صاحبُ الشفاعةِ يومَ العرضِ ، فالعجبُ أنَّا لا نعتبرُ بهِ ! ولسنا علىٰ ثقةٍ فيما نلقاهُ ، بلْ نحنُ أُسَراءُ الشهواتِ ، وقرناءُ المعاصي والسيئاتِ ، فما بالُنا لا نتَّعِظُ بمصرعِ محمَّدٍ سيِّدِ المرسلينَ وإمامِ المتقينَ وحبيبِ ربِّ العالمينَ ؟!

لعلَّنا نظنُّ أنَّا مُخلَّدونَ ، أو نتوهمُ أنَّا معَ سوءِ أفعالِنا عندَ اللهِ مُكْرَمونَ ، هيهاتَ هيهاتَ ! بلْ نتيقنُ أنَّا جميعاً على النارِ واردونَ ، ثمَّ لا ينجو منها إلاَّ المتقونَ ، فنحنُ للورودِ مستيقنونَ ، وللصَّدَرِ عنها متوهِّمونَ ، لا ، بلْ ظلمنا أنفسَنا إنْ كنَّا لذلكَ لغالبِ الظنِّ منتظرينَ ، فما نحنُ واللهِ مِنَ المتقينَ وقدْ قالَ اللهُ ربُّ العالمينَ : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ .

فلينظرْ كلُّ عبدٍ إلىٰ نفسِهِ أنَّه إلى الظالمينَ أقربُ أمْ إلى المتقينَ ؟ فانظرْ إلىٰ نفسِكَ بعدَ أنْ تنظرَ إلىٰ سيرةِ السلفِ الصالحينَ ؛ فلقدْ كانوا معَ ما وُفِّقوا لهُ من الخائفينَ ، ثمَّ انظرْ إلىٰ سيِّدِ المرسلينَ ؛ فإنَّهُ كانَ مِنْ أمرِهِ علىٰ يقينٍ ؛ إذْ كانَ سيِّدَ النبيينَ وقائدَ المتقينَ ، واعتبرْ كيفَ كانَ كربُهُ عندَ فراقِ الدنيا ، وكيفَ اشتدَّ أمرُهُ عندَ الانقلابِ إلىٰ جنَّةِ المأوىٰ .

قالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : دخلنا علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في بيتِ أمِّنا عائشةَ رضيَ اللهُ عنها حينَ دنا الفراقُ ، فنظرَ إلينا فدمعَتْ عيناهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ثمَّ قالَ : « مرحباً بكُمْ ، حيَّاكمُ اللهُ ، آواكمُ اللهُ ، نصرَكمُ اللهُ ، أوصيكُمْ بتقوى اللهِ ، وأوصي بكمُ اللهَ ، إنِّي لكم منهُ نذيرٌ مبينٌ ألاَّ تعلوا على اللهِ في عبادِهِ وبلادِهِ ، وقدْ دنا الأجلُ والمنقلبُ إلى اللهِ ، وإلىٰ سدرةِ المنتهىٰ وإلىٰ جنَّةِ المأوىٰ وإلى الكأسِ الأوفىٰ ، فاقرؤُوا علىٰ أنفسِكُمْ وعلىٰ من دخلَ في دينِكُم بعدي مني السَّلامَ ورحمةَ اللهِ »[1] .

ورُوِيَ أنَّه صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ لجبريلَ عليهِ السَّلامُ عندَ موتِهِ : « مَنْ لأمَّتي بعدي ؟ » فأوحى اللهُ تعالىٰ إلىٰ جبريلَ أنْ بشِّرْ حبيبي أنِّي لا أخذلُهُ في أمَّتِهِ ، وبشِّرْهُ بأنَّهُ أسرعُ الناسِ خروجاً مِنَ الأرضِ إذا بُعثوا ، وسيِّدُهُم إذا جُمعوا ، وأنَّ الجنَّة محرمةٌ على الأممِ حتىٰ تدخلَها أمَّتُهُ ، فقالَ : « الآنَ قرَّتْ عيني »[2] .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : أمرَنَا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنْ نغسلَهُ بسبعِ قربٍ من سبعةِ آبارٍ ، ففعلنا ذلكَ ، فوجدَ راحةً فخرجَ فصلَّىٰ بالنَّاسِ ، واستغفرَ لأهلِ أحدٍ ودعا لهم ، وأوصىٰ بالأنصارِ فقالَ : « أمَّا بعدُ : يا معشرَ المهاجرينَ ؛ فإنَّكم تزيدونَ وأصبحَتِ الأنصارُ لا تزيدُ علىٰ

---

(١) رواه البزار في « مسنده » (٢٠٢٨) ، والطبراني في « الأوسط » (٤٠٠٨) .
(٢) رواه الطبراني في « الكبير » (٣/ ٥٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٧٧) .

هيئتِها التي هيَ عليها اليومَ ، وإنَّ الأنصارَ عيبتي التي آويتُ إليها[1] ، فأكرِمُوا كريمَهم ـ يعني : محسنَهُم ـ وتجاوزوا عن مسيئِهم » ثمَّ قالَ : « إنَّ عبداً خُيِّرَ بينَ الدنيا وبينَ ما عندَ اللهِ فاختارَ ما عندَ اللهِ » ، فبكىٰ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ وظنَّ أنَّهُ يريدُ نفسَهُ ، فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « علىٰ رِسلِكَ يا أبا بكرٍ ، سدُّوا هـٰذهِ الأبوابَ الشوارعَ في المسجدِ إلاَّ بابَ أبي بكرٍ ؛ فإنِّي لا أعلمُ امرأً أفضلَ عندي في الصحبةِ مِنْ أبي بكرٍ »[2] .

قالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (فقُبضَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في بيتي ، وفي يومي ، وبينَ سحري ونحري ، وجمعَ اللهُ بينَ ريقي وريقِهِ عندَ الموتِ ، فدخلَ عليَّ أخي عبدُ الرحمـٰنِ وبيدِهِ سواكٌ ، فجعلَ ينظرُ إليهِ ، فعرفتُ أنه يعجبُهُ ذلك ، فقلتُ : آخذُهُ لكَ ، فأومأَ برأسِهِ أنْ نعمْ ، فناولتُهُ إيَّاهُ ، فأدخلَهُ في فيهِ ، فاشتدَّ عليهِ ، فقلتُ : أُليِّنُهُ لكَ ، فأومأَ برأسِهِ أنْ نعمْ ، فليَّنْتُهُ ، وكانَ بينَ يديهِ ركوةٌ فيها ماءٌ ، فجعلَ يدخلُ يدَهُ فيها ويمسحُ بها وجهَهُ ويقولُ : « لا إلـٰهَ إلاَّ اللهُ ، إنَّ للموتِ لسكراتٍ » ثمَّ نصبَ يدَهُ يقولُ : « الرفيقَ الأعلىٰ ، الرفيقَ الأعلىٰ » فقلتُ : إذاً واللهِ لا يختارُنا)[3] .

وروىٰ سعيدُ بنُ عبدِ اللهِ عَنْ أبيهِ قالَ : لمَّا رأتِ الأنصارُ أنَّ رسولَ اللهِ

---

(1) عيبتي : أي : موضع سري .
(2) رواه الدارمي في « مسنده » (٨٢) ، وأصل الحديث عند البخاري (١٩٨ ، ٣٦٥٥) .
(3) رواه البخاري (٤٤٤٩) واللفظ له ، ومسلم (٢٤٤٤) .

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يزدادُ ثقلاً.. أطافوا بالمسجدِ ، فدخلَ العباسُ رضيَ اللهُ عنهُ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فأعلمَهُ بمكانِهم وإشفاقِهِمْ ، ثمَّ دخلَ عليهِ الفضلُ فأعلمَهُ بمثلِ ذلكَ ، ثمَّ دخلَ عليهِ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ فأعلمَهُ بمثلِهِ ، فمدَّ يدَهُ وقالَ : « ها » فتناولوه ، فقال : « ما يقولونَ ؟ » قالوا : يقولونَ : نخشىٰ أنْ تموتَ ، وتصايحَ نساؤُهم لاجتماعِ رجالِهم إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فثارَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فخرجَ متوكِّئاً علىٰ عليٍّ والفضلِ ، والعباسُ أمامَهُ ، ورسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ معصوبُ الرأسِ يخطُّ برجليهِ ، حتىٰ جلسَ علىٰ أسفلِ مرقاةٍ مِنَ المنبرِ وثابَ الناسُ إليهِ ، فحمدَ اللهَ تعالىٰ وأثنىٰ عليهِ وقالَ : « أيُّها النَّاسُ ؛ إنَّهُ بلغَني أنَّكم تخافونَ عليَّ الموتَ كأنَّهُ استنكارٌ منكُم للموتِ ، وما تنكرونَ مِنْ موتِ نبيِّكُم ؟! أَلَمْ أُنعَ إليكُم وتُنعَ إليكُم أنفسُكُم ؟! هلْ خُلِّدَ نبيٌّ قبلي فيمَنْ بُعثَ فأُخلَّدَ فيكم ؟! ألا إنِّي لاحقٌ بربِّي وإنَّكم لاحقونَ بهِ ، وإنِّي أوصيكُم بالمهاجرين الأولينَ خيراً ، وأوصي المهاجرينَ فيما بينَهُم ؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قالَ : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ . . . ﴾ إلىٰ آخرِها ، وإنَّ الأمورَ تجري بإذنِ اللهِ ، فلا يحملنَّكُمُ استبطاءُ أمرٍ على استعجالِهِ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ لا يعجَلُ لعجلةِ أحدٍ ، ومَنْ غالبَ اللهَ . . غلبَهُ ، ومَنْ خادعَ اللهَ . . خدعَهُ ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴾ ؟!

وأُوصيكم بالأنصارِ خيراً ؛ فإنَّهمُ الذينَ تبوَّءُوا الدارَ والإيمانَ مِنْ

قبلِكُمْ ؛ أنْ تحسنوا إليهم ، ألَمْ يشاطروكمُ الثمارَ ؟! ألَمْ يوسّعوا عليكُم في الديارِ ؟! ألَمْ يؤثروكُمْ علىٰ أنفسِهِم وبهمُ الخصاصةُ ؟! ألاَ فمَنْ وليَ أنْ يحكمَ بينَ رجلينِ. . فليقبلْ مِنْ محسنِهِم وليتجاوزْ عَنْ مسيئِهم ، ألاَ ولا تستأثروا عليهمْ ، ألا وإنِّي فرطٌ لكُمْ وأنْتُم لاحقونَ بي ، ألاَ وإنَّ موعدَكمُ الحوضُ ، حوضي أعرضُ ممَّا بين بصرى الشامِ وصنعاءِ اليمنِ ، يصبُّ فيهِ ميزابُ الكوثرِ ماءً أشدَّ بياضاً مِنَ اللَّبَنِ ، وألينَ مِنَ الزبدِ ، وأحلىٰ مِنَ الشهدِ ، مَنْ شربَ منهُ. . لمْ يظمأْ أبداً ، حصباؤُهُ اللؤلؤُ ، وبطحاؤُهُ مِنْ مسكٍ ، مَنْ حُرِمَهُ في الموقفِ غداً. . حُرِمَ الخيرَ كلَّهُ ، ألاَ فمَنْ أحبَّ أنْ يَرِدَهُ عليَّ غداً. . فليكففْ لسانَهُ ويدَهُ إلاَّ ممَّا ينبغي » .

فقالَ العباسُ : يا نبيَّ اللهِ ؛ أوصِ بقريشٍ ، فقالَ : « إنَّما أُوصي بهٰذا الأمرِ قريشاً ، والناسُ تبعٌ لقريشٍ ، بَرُّهم لبَرِّهم وفاجرُهم لفاجرِهِم ، فاستوصوا آلَ قريشٍ بالنَّاسِ خيراً ، يا أيُّها النَّاسُ ؛ إنَّ الذنوبَ تغيِّرُ النعمَ وتبدِّلُ القسمَ ، فإذا برَّ الناسُ. . برَّهم أئمتُهُم ، وإذا فجرَ الناسُ. . عقُّوهم ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ »[1] .

وروى ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ لأبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ : « سلْ يا أبا بكرٍ » فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ دنا الأجلُ ؟

---

(١) قال العراقي : (هو مرسل ضعيف وفيه نكارة ، ولم أجد له أصلاً) ، وقال الزبيدي : (أسنده سيف بن عمر في كتاب « الفتوح » هٰكذا ، وأورده الفاكهاني في « الفجر المنير ») . انظر « الإتحاف » (١٠/ ٢٩٠) .

فقالَ : « قدْ دنا الأجلُ وتدلَّىٰ » فقالَ : ليهنِكَ يا نبيَّ اللهِ ما عندَ اللهِ ، فليتَ شعري عنْ منقلبِنا ، فقالَ : « إلى اللهِ تعالىٰ وإلىٰ سدرةِ المنتهىٰ ، ثمَّ إلىٰ جنَّةِ المأوىٰ والفردوسِ الأعلىٰ ، والكأسِ الأوفىٰ والرفيقِ الأعلىٰ ، والحظِّ والعيشِ المهنا » فقالَ : يا نبيَّ اللهِ ؛ مَنْ يلي غسلَكَ ؟ قالَ : « رجالٌ مِنْ أهلِ بيتي الأدنىٰ فالأدنىٰ » قالَ : ففيمَ نكفنُكَ ؟ قالَ : « في ثيابي هٰذهِ ، وفي حُلَّةٍ يمانيةٍ ، وفي بياضِ مصرَ » فقالَ : كيفَ الصلاةُ عليكَ منَّا ؟ وبكينا وبكىٰ ثمَّ قالَ : « مهلاً غفرَ اللهُ لكُم ، وجزاكُمْ عَنْ نبيِّكُم خيراً ، إذا غسَّلتُموني وكفَّنتُموني . . فضعوني علىٰ سريري في بيتي هٰذا علىٰ شفيرِ قبري ، ثمَّ اخرجوا عنِّي ساعةً ؛ فإنَّ أوَّلَ مَنْ يصلِّي عليَّ اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ ﴾ ، ثمَّ يأذنُ للملائكةِ في الصلاةِ عليَّ ، فأولُ مَنْ يدخلُ عليَّ مِنْ خلقِ اللهِ ويصلِّي عليَّ جبريلُ ، ثمَّ ميكائيلُ ، ثمَّ إسرافيلُ ، ثمَّ ملكُ الموتِ معَ جنودٍ كثيرةٍ ، ثمَّ الملائكةُ بأجمعِها صلَّى اللهُ عليهِم أجمعينَ ، ثمَّ أنتُم ، فادخلوا عليَّ أفواجاً فصلُّوا عليَّ أفواجاً زمرةً زمرةً ، وسلِّموا تسليماً ولا تؤذوني بتزكيةٍ ولا صيحةٍ ولا رنةٍ ، وليبدأْ منكمُ الإمامُ وأهلُ بيتي الأدنىٰ فالأدنىٰ ، ثمَّ زمرُ النساءِ ، ثمَّ زمرُ الصبيانِ » قالَ : فمَنْ يدخلُكَ القبرَ ؟ قالَ : « زمرٌ مِنْ أهلِ بيتي الأدنىٰ فالأدنىٰ معَ ملائكةٍ كثيرةٍ لا ترونَهُم وهُمْ يرونَكُمْ ، قوموا فأدُّوا عنِّي إلىٰ مَنْ بعدي »[1] .

---

(١) رواه البزار في «مسنده» (٢٠٢٨)، والطبراني في «الأوسط» (٤٠٠٨)، وابن سعد في «الطبقات» (٢/ ٢٢٤ ـ ٢٢٥) وفيه : (وليبتدىء بالصلاة عليَّ رجال من أهلي ثم نساؤهم ثم أنتم) .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ زمعةَ : (جاءَ بلالٌ في أولِ شهرِ ربيعٍ الأولِ فأذنَ بالصلاةِ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مروا أبا بكرٍ يصلي بالناسِ » فخرجتُ فلم أرَ بحضرةِ البابِ إلاَّ عمرَ في رجالٍ ليسَ فيهم أبو بكرٍ ، فقلتُ : قمْ يا عمرُ فصلِّ بالناسِ ، فقامَ عمرُ ، فلمَّا كبرَ وكانَ رجلاً صيتاً . . سمعَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ صوتَهُ بالتكبيرِ فقالَ : « أينَ أبو بكرٍ ؟ يأبى اللهُ ذلكَ والمسلمونَ ـ قالها ثلاثَ مراتٍ ـ مروا أبا بكرٍ فليصلِّ بالناسِ » ، فقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : يا رسولَ اللهِ ؛ إنَّ أبا بكرٍ رجلٌ أسيفٌ ، إذا قامَ في مقامِكَ . . غلبَهُ البكاءُ ، فقالَ : « مروا أبا بكرٍ فليصلِّ بالناسِ » فقالَتْ عائشةُ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنَّ أبا بكرٍ رجلٌ رقيقُ القلبِ ، إذا قامَ في مقامِكَ . . غلبَهُ البكاءُ ، فقالَ : « إنَّكُنَّ صويحباتُ يوسفَ ، مروا أبا بكرٍ فليصلِّ بالناسِ » قالَ : فصلىٰ أبو بكرٍ بعد الصلاةِ التي صلَّىٰ عمرُ)[1] .

وكانَ عمرُ يقولُ لعبدِ اللهِ بنِ زمعةَ بعدَ ذلكَ : (ويحَكَ ! ماذا صنعتَ بي ؟! واللهِ ؛ لولا أنِّي ظننتُ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أمرَكَ . . ما فعلتُ) ، فيقولُ عبدُ اللهِ : (إنِّي لمْ أرَ أحداً أولىٰ بذلكَ منكَ)[2] .

قالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (وما قلتُ ذلكَ ولا صرفتُهُ عَنْ أبي بكرٍ إلاَّ

---

(١) رواه أبو داوود (٤٦٦٠) ، وأصله في « البخاري » (٦٦٤ ، ٦٧٨) ، و« مسلم » (٤١٨) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٤/ ٣٢٢) .

رغبةً بهِ عَنِ الدنيا ، ولمَا في الولايةِ مِنَ المخاطرةِ والهلكةِ إلاَّ ما سلَّمَ اللهُ ، وخشيتُ أيضاً ألاَّ يكونَ الناسُ يحبونَ رجلاً صلَّىٰ في مقامِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهوَ حيٌّ أبداً إلاَّ أنْ يشاءَ اللهُ يحسدونَهُ ويبغونَ إليهِ ، ويتشاءمونَ بهِ ، فإذا الأمرُ أمرُ اللهِ ، والقضاءُ قضاؤُهُ ، وعصمَهُ اللهُ مِنْ كلِّ ما تخوَّفتُ عليهِ من أمرِ الدنيا والدينِ)[1] .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : فلمَّا كانَ اليومُ الذي ماتَ فيهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . رأَوْا منهُ خفةً في أولِ النَّهارِ ، فتفرَّقَ عنهُ الرجالُ إلىٰ منازِلهم وحوائجِهم مستبشرينَ ، وأخلوا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بالنساءِ ، فبينا نحنُ علىٰ ذلكَ لمْ نكنْ علىٰ مثلِ حالِنا في الرجاءِ والفرحِ قبلَ ذلكَ ؛ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اخرجنَ عنِّي ، هٰذا الملكُ يستأذنُ عليَّ » فخرجَ مَنْ في البيتِ غيري ، ورأسُهُ في حجري ، فجلسَ وتنحَّيتُ في ناحيةِ البيتِ ، فناجى الملكَ طويلاً ، ثمَّ إنَّهُ دعاني فأعادَ رأسَهُ في حجري ، وقالَ للنسوةِ : « ادخلنَ » فقلتُ : ما هٰذا بحسِّ جبريلَ عليهِ السلامُ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أجلْ يا عائشةُ ؛ هٰذا ملكُ الموتِ ، جاءَني فقالَ : إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أرسلَني وأمرَني ألاَّ أدخلَ

---

(١) رواه البخاري (٤٤٤٥) بلفظ : « فقالت : لقد راجعته وما حملني علىٰ كثرة مراجعته إلا أنه لم يقع في قلبي أنه يحب الناس بعده رجلاً قام مقامه أبداً ، ولا كنت أرىٰ أنه لن يقوم أحد مقامه إلا تشاءم الناس به ، فأردت أن يعدل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أبي بكر » . « إتحاف » (١٠/ ٢٩٢) .

عليكَ إلاَّ بإذنٍ ، فإنْ لمْ تأْذنْ لي . . أرجعْ ، وإنْ أذنتَ لي . . دخلتُ ، وأمرَني ألاَّ أقبضَ روحَكَ حتىٰ تأمرَني ، فماذا أمرُكَ ؟ فقلتُ : اكففْ حتىٰ يأتيَني جبريلُ عليهِ السلامُ ، فهٰذهِ ساعةُ جبريلَ » .

فقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : فاستقبلَنا بأمرٍ لم يكنْ لهُ عندَنا جوابٌ ولا رأيٌ ، فوَجَمْنا وكأنَّما ضُربنا بصاخَّةٍ ما نحيرُ إليهِ شيئاً[1] ، وما يتكلمُ أحدٌ مِنْ أهلِ البيتِ إعظاماً لذلكَ الأمرِ ، وهيبةً ملأَتْ أجوافَنَا .

قالَتْ : وجاءَ جبريلُ في ساعتِهِ ، فسلَّمَ فعرفتُ حسَّهُ ، وخرجَ أهلُ البيتِ ، فدخلَ فقالَ : إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقرأُ عليكَ السَّلامَ ويقولُ : كيفَ تجدُكَ ؟ وهوَ أعلمُ بالذي تجدُ منكَ ، ولكنْ أرادَ أنْ يزيدَكَ كرامةً وشرفاً ، وأنْ يتمَّ كرامتَكَ وشرفَكَ على الخلقِ ، وأن تكونَ سنَّةً في أمتِكَ[2] ، فقالَ : « أجدُني وجعاً » قالَ : أبشِرْ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ أرادَ أن يبلِّغَكَ ما أعدَّ لكَ .

فقالَ : « يا جبريلُ ؛ إنَّ ملكَ الموتِ استأذنَ عليَّ . . . » وأخبرَهُ الخبرَ فقالَ جبريلُ : يا محمدُ ؛ إنَّ ربَّكَ إليكَ مشتاقٌ ، ألمْ أعلمْكَ الذي يريدُ بكَ ؟! لا واللهِ ما استأذنَ ملكُ الموتِ علىٰ أحدٍ قطُّ ولا يستأذنُ عليهِ أبداً ، إلاَّ أنَّ ربَّكَ متمٌّ شرفَكَ ، وهوَ إليكَ مشتاقٌ ، قالَ : « فلا تبرحْ إذاً حتىٰ يجيءَ »[3] .

---

(١) **الصاخة** : المصيبة الشديدة ، **ونحير** : نرجع .

(٢) أي : إذا دخلوا على المريض فيقولون كذلك . « إتحاف » (١٠/ ٢٩٢) .

(٣) رواه الطبراني في « الكبير » (٣/ ٥٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٧٦) بنحوه .

وأذنَ للنساءِ فقالَ : « ادني يا فاطمةُ » فأكبَّتْ عليهِ فناجاها ، فرفعَتْ رأسَها وعيناها تذرفانِ وما تُطيقُ الكلامَ ، ثمَّ قالَ : « أدني مني رأسَكِ » فأكبَّتْ عليهِ فناجاها ، فرفعَتْ رأسَها وهيَ تضحكُ وما تُطيقُ الكلامَ ، فكانَ الذي رأينا منها عجباً ، فسألْنَها بعدَ ذلكَ فقالَتْ : أخبرَني وقالَ : « إني ميتٌ اليومَ » فبكيتُ ، ثمَّ قالَ : « إنِّي دعوتُ اللهَ تعالىٰ أنْ يُلحقَكِ بي في أولِ أهلي ، وأنْ يجعلَكِ معي » فضحكتُ[١] ، وأدنتِ ابنيها منهُ فشمَّهُما[٢] .

قالَتْ : وجاءَ ملكُ الموتِ ، فسلَّمَ واستأذنَ ، فأذنَ لهُ ، فقالَ الملكُ : ما تأمرُ يا محمدُ ؟ قالَ : « ألحقْني بربِّي الآنَ » فقالَ : بلىٰ مِنْ يومِكَ هـٰذا ، أمَا إنَّ ربَّكَ إليكَ مشتاقٌ ، ولم يترددْ عن أحدٍ ترددَهُ عنكَ ، ولم ينهني عن الدخولِ علىٰ أحدٍ إلا بإذنِ غيرِكَ ، ولكنْ ساعتُكَ أمامَكَ ، وخرجَ .

قالَتْ : وخرجَ جبريلُ فقالَ : عليكَ السلامُ يا رسولَ اللهِ ، هـٰذا آخرُ ما أنزلُ فيه إلى الأرضِ أبداً ، طُويَ الوحيُ ، وطُويَتِ الدنيا ، وما كانت لي في الأرضِ حاجةٌ غيرَكَ ، وما لي فيها حاجةٌ إلاَّ حضورُكَ ثمَّ لزومُ موقفي ، قالت : لا والذي بعثَ محمداً بالحقِّ ؛ ما في البيتِ أحدٌ يستطيعُ أن يحيرَ

---

(١) رواه البخاري (٤٤٣٣) ، ومسلم (٢٤٥٠) .
(٢) في (ب) : (وأذن لها فدنت منه فشمَّها) ، وفي (ص) : (وأدنت ابنتها منه فشمَّها) .

إليهِ في ذلكَ كلمةً ، ولا يبعثَ إلىٰ أحدٍ من رجالِهِ ؛ لعظمِ ما يسمعُ مِنْ حديثِهِ ووجدِنا وإشفاقِنا[1] .

قالَتْ : فقمتُ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حتىٰ أضعَ رأسَهُ بينَ ثديَيَّ وأمسكتُ بصدرِهِ ، وجعلَ يُغمىٰ عليهِ حتىٰ يغلبَ[2] وجبهتُهُ ترشحُ رشحاً ما رأيتُهُ مِنْ إنسانٍ قطُّ ، فجعلتُ أسلتُ ذلكَ العرقَ وما وجدتُ رائحةَ شيءٍ قطُّ أطيبَ منهُ ، فكنتُ أقولُ لهُ إذا أفاقَ : بأبي وأمي ونفسي وأهلي ما تلقىٰ جبهتُكَ مِنَ الرشحِ ، فقالَ : « يا عائشةُ ؛ إنَّ نفسَ المؤمنِ تخرجُ بالرشحِ ، ونفسَ الكافرِ تخرجُ مِنْ شدقِهِ كنفسِ الحمارِ »[3] .

فعندَ ذلكَ ارتعنا ، وبعثنا إلىٰ أهلينا ، فكانَ أولُ رجلٍ جاءَنا ولم يشهدْهُ أخي ، بعثَهُ إليَّ أبي ، فماتَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قبلَ أنْ يجيءَ أحدٌ ، وإنَّما صدَّهمُ اللهُ عنهُ لأنَّهُ ولاهُ جبريلَ وميكائيلَ .

وجعلَ إذا أُغميَ عليهِ قالَ : « بلِ الرفيقَ الأعلىٰ » كأنَّ الخيرةَ تُعادُ عليهِ[4] .

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٣/ ١٢٩) بنحوه .

(٢) وفيه جواز الإغماء على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، قال ابن حجر في « شرح الشمائل » : لكن قيده الشيخ أبو حامد من أئمتنا بغير الطويل ، وجزم به البلقيني ، قال السبكي : ليس كإغماء غيرهم لأنه إنما يستر حواسهم الظاهرة دون قلوبهم ؛ لأنها إذا عصمت من النوم الأخف فالإغماء أولىٰ . « إتحاف » (١٠/ ٢٩٣) .

(٣) رواه الطبراني (٩/ ١٧٥) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٧٣٨) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه موقوفاً .

(٤) رواه البخاري (٤٤٣٧) ، ومسلم (٢٤٤٤) .

فإذا أطاقَ الكلامَ . . قالَ : « الصلاةَ الصلاةَ ، إنَّكم لا تزالونَ متماسكينَ ما صليتُم جميعاً ، الصلاةَ الصلاةَ » كانَ يُوصي بها حتىٰ ماتَ وهوَ يقولُ : « الصلاةَ الصلاةَ »[1] .

قالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (ماتَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بينَ ارتفاعِ الضُّحىٰ وانتصافِ النهارِ يومَ الاثنينِ)[2] .

قالَتْ فاطمةُ رضيَ اللهُ عنها : (ما لقيتُ مِنْ يومِ الاثنينِ ؟! واللهِ ؛ لا تزالُ الأمةُ تُصابُ فيهِ بعظيمةٍ) .

وقالَتْ أمُّ كلثومٍ يومَ أُصيبَ عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ بالكوفةِ مثلَها : (ما لقيتُ مِنْ يومِ الاثنينِ ؟! ماتَ فيهِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وفيهِ قُتلَ بَعلي عمرُ ، وفيهِ قُتلَ أبي ، فما لقيتُ مِنْ يومِ الاثنينِ ؟!) .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (لمَّا ماتَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ . . اقتحمَ النَّاسُ حينَ ارتفعتِ الرنةُ ، وسجَّىٰ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الملائكةُ بثوبِهِ ، فاختلفوا ، فكذَّبَ بعضُهم بموتِهِ ، وأُخرس بعضُهم فما تكلَّمَ إلاَّ بعدَ البعدِ ، وخلطَ آخرونَ فلاثوا الكلامَ بغيرِ بيانٍ ، وبقيَ آخرونَ ومعَهم عقولُهم ، وأُقعدَ آخرونَ ، فكانَ عمرُ بنُ الخطابِ فيمَنْ كذَّبَ بموتِهِ ، وعليٌّ فيمَنْ أُقعدَ ، وعثمانُ فيمَنْ أُخرسَ ، فخرجَ عمرُ على الناسِ

---

(١) رواه أبو داوود (٥١٥٦) ، وابن ماجه (٢٦٩٨) من حديث عليّ رضي الله عنه .

(٢) رواه ابن سعد في « الطبقات » (٢/ ٢٣٨) ، وفيه : (يوم الاثنين حين زاغت الشمس) .

وقالَ : إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لم يمتْ ، وليرجعَنَّهُ اللهُ عزَّ وجلَّ ، وليقطعَنَّ أيديَ رجالٍ وأرجلَهُمْ مِنَ المنافقينَ يتمنَّونَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الموتَ ، إنَّما واعدَهُ ربُّهُ عزَّ وجلَّ كما واعدَ موسىٰ عليهِ السَّلامُ ، وهوَ آتيكُمْ ـ وفي روايةٍ أنَّهُ قالَ : يا أيُّها الناسُ ؛ كفُّوا ألسنتكُم عَنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ فإنَّهُ لمْ يمتْ ، واللهِ ؛ لاَ أسمعُ أحداً يذكرُ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قدْ ماتَ إلاَّ علوتُهُ بسيفي هـٰذا ـ وأمَّا عليٌّ . . فإنَّهُ أُقعدَ فلمْ يبرحْ في البيتِ ، وأمَّا عثمانُ . . فجعلَ لا يكلِّمُ أحداً ، يُؤخذُ بيدِهِ فيُجاءُ بِهِ ويُذهبُ بهِ ، ولم يكنْ أحدٌ مِنَ المسلمينَ في مثلِ حالِ أبي بكرٍ والعباسِ ؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ عزمَ لهما بالتوفيقِ والسَّدادِ وإنْ كانَ النَّاسُ لمْ يرعوا إلاَّ بقولِ أبي بكرٍ ، ثمَّ جاءَ العباسُ فقالَ : واللهِ الذي لا إلـٰهَ إلاَّ هوَ ؛ لقدْ ذاقَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الموتَ ، ولقدْ قالَ وهوَ بينَ أظهرِكُم : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾[1] .

وبلغَ أبا بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ الخبرُ وهوَ في بني الحارثِ بنِ الخزرجِ ، فجاءَ ودخلَ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فنظرَ إليهِ ثمَّ أكبَّ عليهِ

---

(١) قال العراقي : (هـٰذا السياق بطوله منكر لم أجد له أصلاً) قال الحافظ الزبيدي : (قلت : بل رواه ابن أبي الدنيا من حديث ابن عمر بسند ضعيف ، وعزاه صاحب « المواهب » لابن المنير) ، وأما قول عمر رضي الله عنه . . فرواه ابن حبان (٦٨٧٥) ، وأصله عند البخاري (٣٦٧٠) . انظر « الإتحاف » (١٠/ ٢٩٨) .

فقبَّلَهُ ثمَّ قالَ : بأبي أنتَ وأمي يا رسولَ اللهِ ، ما كانَ اللهُ ليذيقَكَ الموتَ مرَّتينِ ، فقد واللهِ توفيَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ثمَّ خرجَ إلى النَّاسِ فقالَ : أيُّها النَّاسُ ؛ مَنْ كانَ يعبدُ محمداً . . فإنَّ محمداً قد ماتَ ، ومَنْ كانَ يعبدُ ربَّ محمدٍ . . فإنَّهُ حيٌّ لا يموتُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ . . . ﴾ الآيةَ ، فكأنَّ الناسَ لم يسمعوا هٰذهِ الآيةَ إلا يومَئذٍ)[1] .

وفي روايةٍ : أنَّ أبا بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ لمَّا بلغَهُ الخبرُ . . دخلَ بيتَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهوَ يصلي على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وعيناهُ تهملانِ ، وغُصَصُهُ ترتفعُ كقصعِ الجِرَّةِ[2] ، وهوَ في ذلكَ جلدُ الفعلِ والمقالِ ، فأكبَّ عليهِ ، فكشفَ الثوبَ عَنْ وجهِهِ وقبَّلَ جبينَهُ وخدَّيهِ ومسحَ وجهَهُ ، وجعلَ يبكي ويقولُ : (بأبي أنتَ وأمي ونفسي وأهلي ، طبتَ حيّاً وميتاً ، انقطعَ لموتِكَ ما لمْ ينقطعْ لموتِ أحدٍ مِنَ الأنبياءِ ، وهوَ النبوَّةُ ، فعظمتَ عنِ الصفةِ وجللتَ عنِ البكاءِ ، وخصصتَ حتىٰ صرتَ مسلاةً[3] ، وعممتَ حتىٰ صرنا فيكَ سواءً ، ولولا أنَّ موتَكَ كانَ اختياراً منكَ . . لجدنا لحزنِكَ بالنفوسِ ، ولولا أنَّكَ نهيتَ عنِ البكاءِ . . لأنفذنا عليكَ ماءَ الشؤونِ[4] ، فأمَّا ما لا نستطيعُ

---

(١) رواه البخاري (١٢٤٢) .

(٢) في (ج) ونسخة الحافظ الزبيدي : (كقطع) . « إتحاف » (١٠/ ٢٩٩) .

(٣) أي : بحيث يتسلون بك . « إتحاف » (١٠/ ٢٩٩) .

(٤) أي : مدامع العيون . « إتحاف » (١٠/ ٢٩٩) .

نفيَهُ عنَّا . . فكمدٌ وادكارٌ محالفانِ لا يبرحانِ ، اللهمَّ ؛ فأبلغْهُ عنَّا ، اذكرْنا يا محمَّدُ صلَّى اللهُ عليكَ عندَ ربِّكَ ، ولنكنْ مِنْ بالِكَ ، فلولا ما خلفتَ مِنَ السكينةِ . . لمْ يقمْ أحدٌ لِما خلفتَ مِنَ الوحشةِ ، اللهمَّ ؛ أبلغْ نبيَّكَ عنَّا واحفظْهُ فينا)[1] .

وعن ابنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما : (أنهُ لما دخلَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ البيتَ وصلَّىٰ وأثنىٰ . . عجَّ أهلُ البيتِ عجيجاً سمعَهُ أهلُ المصلَّىٰ ، كلَّما ذكرَ شيئاً . . ازدادوا ، فما سكَّنَ عجيجَهُم إلاَّ تسليمُ رجلٍ على البابِ صيتٍ جلدٍ قالَ : السَّلامُ عليكم يا أهلَ البيتِ : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ . . . ﴾ الآيةَ ، إنَّ في اللهِ خلفاً مِنْ كلِّ أحدٍ ، ودركاً لكلِّ رغبةٍ ، ونجاةً مِنْ كلِّ مخافةٍ ، فاللهَ فارجوا وبهِ فثِقوا وعليهِ فتوكَّلوا ؛ فإنَّما المصابُ مَنْ حُرِمَ الثوابَ ، فاستمعوا لهُ وأنكروهُ وقطعوا البكاءَ ، فلمَّا انقطعَ البكاءُ . . فُقِدَ صوتُهُ ، فاطَّلعَ أحدُهم فلمْ يرَ أحداً ، ثمَّ عادوا فبكَوا ، فناداهم منادٍ آخرُ لا يعرفونَ صوتَهُ : يا أهلَ البيتِ ؛ اذكروا اللهَ واحمدوه علىٰ كلِّ حالٍ . . تكونوا مِنَ المخلصينَ ، إنَّ في اللهِ عزاءً مِنْ كلِّ مصيبةٍ ، وعوضاً مِنْ كلِّ رغيبةٍ ، فاللهَ فأطيعوا ، وبأمرِهِ فاعملوا ، فقالَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ : هـٰذا الخضرُ واليسعُ

---

(1) قال العراقي : (رواه ابن أبي الدنيا في « الضراء » من حديث ابن عمر بسند ضعيف) قال الحافظ الزبيدي : (وفيه : « ما لم ينقطع لموت أحدٍ من الناس » ولم يقل : « وهو النبوة ») . « إتحاف » (١٠/ ٣٠٠) .

عليهما السَّلامُ ، حضرا النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ)[١] .

واستوفى القعقاعُ بنُ عمرٍو حكايةَ خطبةِ أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ فقالَ : (قامَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ في الناسِ خطيباً حيثُ قضى النَّاسُ عبراتِهِم بخطبةٍ جلُّها الصلاةُ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فحمدَ اللهَ علىٰ كلِّ حالٍ وأثنىٰ عليهِ وقالَ : أشهدُ أنْ لا إلـٰهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ ، صدقَ وعدَهُ ، ونصرَ عبدَهُ ، وغلبَ الأحزابَ وحدَهُ ، فللّهِ الحمدُ وحدَهُ ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُهُ وخاتمُ أنبيائِهِ ، وأشهدُ أنَّ الكتابَ كما نزلَ ، وأنَّ الدينَ كما شرعَ ، وأنَّ الحديثَ كما حدَّثَ ، وأنَّ القولَ كما قالَ ، وأنَّ اللهَ هوَ الحقُّ المبينُ .

اللهمَّ ؛ فصلِّ علىٰ محمَّدٍ عبدِكَ ورسولِكَ ونبيِّكَ وحبيبِكَ وأمينِكَ وخيرتِكَ وصفوتِكَ بأفضلِ ما صلَّيتَ بهِ علىٰ أحدٍ مِنْ خلقِكَ .

اللهمَّ ؛ واجعلْ صلواتِكَ ومعافاتَكَ ورحمتَكَ وبركاتِكَ علىٰ سيِّدِ المرسلينَ وخاتمِ النبيِّينَ وإمامِ المتقينَ ؛ محمَّدٍ قائدِ الخيرِ وإمامِ الخيرِ ورسولِ الرحمةِ .

اللهمَّ ؛ قرِّبْ زلفتَهُ وعظِّمْ برهانَهُ وكرِّمْ مقامَهُ ، وابعثْهُ مقاماً محموداً

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣/ ٥٧ ـ ٥٨) ، والبيهقي في « الكبرىٰ » (٤/ ٦٠) ، قال العراقي : (لم أجد فيه ذكر اليسع) ، وقال الحافظ الزبيدي (هكذا أخرجه سيف بن عمر التميمي في كتاب « الردة » له عن سعيد بن عبد الله عن ابن عمر رضي الله عنهما ، وفيه : « هـٰذا الخضر وإلياس قد حضرا وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ») . انظر « الإتحاف » (١٠/ ٣٠٠) .

يغبطُهُ بِهِ الأولونَ والآخرونَ ، وانفعْنا بمقامِهِ المحمودِ يومَ القيامةِ ، واخلفْهُ فينا في الدنيا والآخرةِ ، وبلِّغْهُ الدرجةَ والوسيلةَ مِنَ الجنَّةِ .

اللهمَّ ؛ صلِّ علىٰ محمَّدٍ وعلىٰ آلِ محمَّدٍ ، وباركْ علىٰ محمَّدٍ وعلىٰ آلِ محمَّدٍ ، كما صلَّيتَ وباركتَ علىٰ إبراهيمَ ؛ إنَّكَ حميدٌ مجيدٌ .

أيُّها النَّاسُ ؛ إنَّهُ مَنْ كانَ يعبدُ محمداً . . فإنَّ محمداً قدْ ماتَ ، ومَنْ كانَ يعبدُ اللهَ . . فإنَّ اللهَ حيٌّ لم يمتْ ، وإنَّ اللهَ تعالىٰ قد تقدَّمَ إليكم في أمرِهِ فلا تدعوه جزعاً ؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قدِ اختارَ لنبيِّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ما عندَهُ علىٰ ما عندَكم ، وقبضَهُ إلىٰ ثوابِهِ ، وخلفَ فيكم كتابَهُ وسنةَ نبيِّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فمَنْ أخذَ بهما . . عرفَ ، ومَنْ فرقَ بينَهما . . أنكرَ ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ ولا يشغلَنَّكم الشيطانُ بموتِ نبيِّكم ، ولا يفتننَّكُم عنْ دينِكم ، وعاجلوا الشيطانَ بالخيرِ . . تعجزوه ، ولا تستنظروه . . فيلحقَ بكُمْ ويفتنَكُمْ)[1] .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما : (لمَّا فرغَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ مِنْ خطبتِهِ . . قالَ : يا عمرُ ؛ أنتَ الذي بلغَني أنَّكَ تقولُ : ما ماتَ نبيُّ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؟! أما ترىٰ أنَّ نبيَّ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ يومَ كذا : كذا وكذا ، ويومَ كذا : كذا وكذا ، وقالَ اللهُ تعالىٰ في كتابِهِ :

---

(١) رواه بطوله سيف بن عمر التميمي في كتاب « الفتوح » له عن عمرو بن تمام عن أبيه عن القعقاع . « إتحاف » (١٠/ ٣٠٢) .

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ ؟! فقالَ : واللهِ ؛ لكأنِّي لمْ أسمعْ بها في كتابِ اللهِ تعالىٰ قبلَ الآنَ ؛ لما نزلَ بنا ، أشهدُ أنَّ الكتابَ كما نزلَ ، وأنَّ الحديثَ كما حدَّثَ ، وأنَّ اللهَ حيٌّ لا يموتُ ، إنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجعونَ ، وصلواتُ اللهِ علىٰ رسولِهِ ، وعندَ اللهِ نحتسبُ رسولَهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ثمَّ جلسَ إلىٰ أبي بكرٍ)[1] .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : (لمَّا اجتمعوا لغسلِهِ . . قالوا : واللهِ ؛ لا ندري كيفَ نغسلُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، أنجردُهُ عَنْ ثيابِهِ كما نصنعُ بموتانا أم نغسلُهُ في ثيابِهِ ؟ قالَتْ : فأرسلَ اللهُ عليهمُ النَّومَ حتىٰ ما بقيَ مِنْهُم رجلٌ إلاَّ واضعٌ لحيتَهُ علىٰ صدرِهِ نائماً ، ثمَّ قالَ قائلٌ لا ندري مَنْ هوَ : اغسلوا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وعليهِ ثيابُهُ ، فانتبهوا ففعلوا ذلكَ ، فغُسلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في قميصِهِ ، حتىٰ إذا فرغوا من غسلِهِ . . كُفنَ)[2] .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : (أردنا خلعَ قميصِهِ ، فنُودينا : لا تخلعوا عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ثيابَهُ ، فأقررناهُ ، فغسلناهُ في قميصِهِ كما نغسلُ موتانا مستلقياً ما نشاءُ أن يُقلبَ لنا منهُ عضوٌ لم نبالغْ فيهِ إلاَّ قُلبَ لنا

---

(١) رواه البخاري (٤٤٥٢) بنحوه ، وفيه : « والله ؛ لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل الآية حتىٰ تلاها أبو بكر فتلقاها منه الناس كلهم ، فما أسمع أحداً من الناس إلا يتلوها » .

(٢) رواه أبو داوود (٣١٤١) .

حتىٰ نفرغَ منهُ ، وإنَّ معَنا لحفيفاً في البيتِ كالريحِ الرُّخاءِ ، ويصوتُ بنا : ارفقوا برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ فإنَّكُم ستكفونَ) .

فهكذا كانَتْ وفاةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ولم يتركْ سبَداً ولا لبَداً إلاَّ دُفِنَ معَهُ[1] ، قالَ أبو جعفرٍ : فُرِشَ لحدُهُ بمفرشِهِ وقطيفتِهِ ، وفُرِشَتْ ثيابُهُ عليها التي كانَ يلبسُ يقظانَ[2] على القطيفةِ والمفرشِ ، ثمَّ وُضعَ عليها في أكفانِهِ[3] .

فلم يتركْ بعدَ وفاتِهِ مالاً ، ولا بنىٰ في حياتِهِ لبنةً علىٰ لبنةٍ ، ولا وضعَ قصبةً علىٰ قصبةٍ ، ففي وفاتِهِ عبرةٌ تامةٌ ، وللمسلمينَ بهِ أسوةٌ حسنةٌ .

* * *

---

(١) أي : قليلاً أو كثيراً .

(٢) أي : التي كان يلبسها في حياته .

(٣) رواه مسلم (٩٦٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ : (جعل في قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم قطيفة حمراء) ، وانظر « الإتحاف » (١٠/ ٣٠٤) .

وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه

لمَّا احتُضرَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ.. جاءَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها فتمثَّلَتْ بهٰذا البيتِ[1] : [من الطويل]

لَعَمْرُكَ مَا يُغْنِي ٱلثَّراءُ عَنِ ٱلْفَتى ... إِذا حَشْرَجَتْ يَوْماً وَضاقَ بِها الصَّدْرُ

فكشفَ عنْ وجهِهِ وقالَ : (ليسَ كذلكَ ، ولكِنْ قولي : ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ انظروا ثوبيَّ هٰذينِ فاغسلوهما وكفِّنوني فيهما ؛ فإنَّ الحيَّ إلى الجديدِ أحوجُ مِنَ الميتِ)[2] .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها عندَ موتِهِ[3] : [من الطويل]

وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى ٱلْغَمامُ بِوَجْهِهِ ... رَبيعَ الْيَتامىٰ عِصْمَةً للأَرامِلِ

فقالَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (ذاكَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ)[4] .

ودخلوا عليهِ في مرضِهِ فقالوا : ألا ندعو لكَ طبيباً ينظرُ إليكَ ؟ قالَ رضيَ اللهُ عنهُ : (قدْ نظرَ إليَّ طبيبي وقالَ : إنِّي فعَّالٌ لما أريدُ)[5] .

---

(١) البيت لحاتم الطائي في « ديوانه » (ص ٢١٠) .
(٢) رواه أحمد في « الزهد » (٥٦٣) ، وابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٣٦) .
(٣) البيت لأبي طالب في « ديوانه » (ص ٧٥) .
(٤) رواه أحمد في « المسند » (١/٧) ، وابن أبي شيبة في « مصنفه » (٢٦٥٩١) .
(٥) رواه أحمد في « الزهد » (٥٨٧) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/٣٤) ، وابن أبي شيبة في « مصنفه » (٣٥٥٨١) ، وفي (ب) : (الطبيب) بدل (طبيبي) .

ودخلَ عليهِ سلمانُ الفارسيُّ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ يعودُهُ ، فقالَ : يا أبا بكرٍ ؛ أوصنا فقالَ : (إنَّ اللهَ فاتحٌ عليكمُ الدنيا ؛ فلا تأخذنَّ منها إلا بلاغَكَ ، واعلمْ أنَّ مَنْ صلَّىٰ صلاةَ الصبحِ . . فهوَ في ذمةِ اللهِ تعالىٰ ، فلا تخفرَنَّ اللهَ في ذمَّتِهِ فيكبَّكَ في النَّارِ علىٰ وجهِكَ)[1] .

ولمَّا ثقلَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ تعالىٰ عنهُ وأرادَ الناسُ منهُ أن يستخلفَ . . فاستخلفَ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ ، فقالَ الناسُ لهُ : استخلَفتَ علينا فظّاً غليظاً ، فماذا تقولُ لربِّكَ ؟ فقالَ : (أقولُ استخلفتُ علىٰ خلقِكَ خيرَ خلقِكَ) ، ثمَّ أرسلَ إلىٰ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ فجاءَ فقالَ : (إنِّي موصيكَ بوصيةٍ ، اعلم : أنَّ للهِ حقّاً في النهارِ لا يقبلُهُ في الليلِ ، وأنَّ لهُ حقّاً في الليلِ لا يقبلُهُ في النهارِ ، وأنَّهُ لا يقبلُ النافلةَ حتىٰ تُؤدَّى الفريضةُ ، وإنَّما ثقلَتْ موازينُ مَنْ ثقلَتْ موازينُهُم يومَ القيامةِ باتباعِهِمُ الحقَّ في الدنيا وثقلِهِ عليهِمْ ، وحُقَّ لميزانٍ لا يُوضعُ فيهِ إلاَّ الحقُّ أن يثقلَ ، وإنَّما خفَّتْ موازينُ مَنْ خَفَّتْ موازينُهُم يومَ القيامةِ باتباعِهِمُ الباطلَ وخفَّتِهِ عليهِمْ ، وحُقَّ لميزانٍ لا يُوضعُ فيهِ إلاَّ الباطلُ أن يخفَّ ، وإنَّ اللهَ ذكرَ أهلَ الجنَّةِ بأحسنِ أعمالِهِمْ ، وتجاوزَ عن سيِّئاتِهم ، فيقولُ القائلُ : أنا دونَ هؤلاءِ ، ولا أبلغُ مبلغَ

---

(١) الشطر الأول من الحديث رواه أحمد في « الزهد » (٨٢٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/١٩٦) من حديث سلمان رضي الله عنه في وفاته ، والشطر الثاني منه : رواه ابن ماجه (٣٩٤٥) ، وعند مسلم (٦٥٧) من حديث جندب رضي الله عنه نحوه . وانظر « الإتحاف » (١٠/٣٠٧) .

هؤلاءِ ، وإنَّ اللهَ ذكرَ أهلَ النَّارِ بأسوأِ أعمالِهم ، وردَّ عليهِم صالحَ الذي عملوا ، فيقولُ القائلُ : أنا أفضلُ مِنْ هؤلاءِ ، وإنَّ اللهَ تعالىٰ ذكرَ آيةَ الرحمةِ وآيةَ العذابِ ؛ ليكونَ المؤمنُ راغباً راهباً ، ولا يلقي بيدِهِ إلى التَّهلكةِ ، ولا يتمنَّىٰ على اللهِ غيرَ الحقِّ ، فإنْ حفظتَ وصيَّتي هـٰذهِ . . فلا يكونَنَّ غائبٌ أحبَّ إليكَ مِنَ الموتِ ولا بدَّ لكَ منهُ ، وإنْ ضيعتَ وصيَّتي . . فلا يكونَنَّ غائبٌ أبغضَ إليكَ مِنَ الموتِ ولا بدَّ لكَ منهُ ولستَ بمعجزِهِ)[1] .

وقالَ سعيدُ بنُ المسيَّبِ : لمَّا احتُضرَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ . . أتاهُ ناسٌ مِنَ الصحابةِ فقالوا : يا خليفةَ رسولِ اللهِ ؛ زوِّدْنا ؛ فإنَّا نراكَ لما بكَ ، فقالَ أبو بكرٍ : مَنْ قالَ هؤلاءِ الكلماتِ ثمَّ ماتَ . . جعلَ اللهُ روحَهُ في الأفقِ المبينِ ، قالوا : وما الأفقُ المبينُ ؟ قالَ : قاعٌ بينَ يدي العرشِ ، فيه رياضٌ وأنهارٌ وأشجارٌ ، يغشاهُ كلَّ يومٍ مئةُ رحمةٍ ، فمَنْ قالَ هـٰذا القولَ . . جعلَ اللهُ روحَهُ في ذلكَ المكانِ :

اللهمَّ ؛ إنَّكَ ابتدأتَ الخلقَ مِنْ غيرِ حاجةٍ بكَ إليهِمْ ، ثمَّ جعلتَهُم فريقينِ : فريقاً للنعيمِ ، وفريقاً للسعيرِ ، فاجعلْني للنعيمِ ولا تجعلْني للسعيرِ .

اللهمَّ ؛ إنَّكَ خلقتَ الخلقَ فرقاً ، وميزتَهُم قبلَ أنْ تخلقَهُمْ ، فجعلتَ منهم شقيّاً وسعيداً ، وغويّاً ورشيداً ، فلا تشقني بمعاصيكَ .

اللهمَّ ؛ إنَّكَ علمتَ ما تكسبُ كلُّ نفسٍ قبلَ أنْ تخلقَها ، فلا محيصَ لها

(١) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٨٢١١) .

ممَّا علمتَ ، فاجعلْني ممَّنْ تستعملُهُ بطاعتِكَ .

اللهمَّ ؛ إنَّ أحداً لا يشاءُ حتىٰ تشاءَ ، فاجعلْ مشيئتكَ أنْ أشاءَ ما يقرِّبُني إليكَ .

اللهمَّ ؛ إنَّكَ قد قدَّرتَ حركاتِ العبادِ فلا يتحرَّكُ شيءٌ إلاَّ بإذنِكَ ، فاجعلْ حركاتي في تقواكَ .

اللهمَّ ؛ إنَّكَ خلقتَ الخيرَ والشرَّ وجعلتَ لكلِّ واحدٍ منهما عاملاً يعملُ به ، فاجعلْني مِنْ خيرِ القسمينِ .

اللهمَّ ؛ إنَّكَ خلقتَ الجنَّةَ والنَّارَ وجعلتَ لكلِّ واحدةٍ منهما أهلاً ، فاجعلْني مِنْ سكانِ جنَّتِكَ .

اللهمَّ ؛ إنَّكَ أردتَ بقومِ الإيمانَ وشرحتَ لهُ صدورَهُم ، وأردتَ بقومٍ الضلالَ وضيَّقتَ بهِ صدورَهُم ، فاشرحْ صدري للإيمانِ وزيِّنْهُ في قلبِي .

اللهمَّ ؛ إنَّكَ دبَّرتَ الأمورَ فجعلتَ مصيرَها إليكَ ، فأحيني بعدَ الموتِ حياةً طيِّبةً ، وقرِّبْني إليكَ زلفىٰ .

اللهمَّ ؛ مَنْ أصبحَ وأمسىٰ ثقتُهُ ورجاؤُهُ غيرُكَ . . فأنتَ ثقتي ورجائي ، ولا حولَ ولا قوةَ إلاَّ باللهِ العليِّ العظيمِ .

قالَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ : هـٰذا كلُّهُ في كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ[1] .

* * *

(١) أورده المتقي الهندي في « كنز العمال » (٣٥٧٣٠) وعزاه لابن أبي الدنيا في «الدعاء».

وفاة عمر رضي الله عنه

قالَ عمرُو بنُ ميمونٍ : كنتُ قائماً غداةَ أُصيبَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ ، ما بيني وبينَهُ إلاَّ عبدُ اللهِ بنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما ، وكانَ إذا مرَّ بينَ الصَّفينِ . . قامَ بينَهما ، فإذا رأىٰ خللاً . . قالَ : استووا حتىٰ إذا لم يرَ فيهم خللاً . . تقدَّمَ فكبَّرَ ، قالَ : وربَّما قرأَ (سورةَ يوسفَ) أو (النحلِ) أو نحوَ ذلكَ في الركعةِ الأولىٰ حتىٰ يجتمعَ الناسُ .

فما هوَ إلاَّ أنْ كبَّرَ . . فسمعتُهُ يقولُ : قتلَني . . أوْ أكلَني الكلبُ ، حينَ طعنَهُ أبو لؤلؤةَ وطارَ العلجُ بسكينٍ ذاتِ طرفينِ لا يمرُّ علىٰ أحدٍ يميناً ولا شمالاً إلاَّ طعنَهُ حتىٰ طعنَ ثلاثةَ عشرَ رجلاً ، فماتَ منهُم تسعةٌ ، وفي روايةٍ : سبعةٌ ، فلمَّا رأىٰ ذلكَ رجلٌ مِنَ المسلمينَ . . طرحَ عليهِ برنساً ، فلمَّا ظنَّ العلجُ أنَّهُ مأخوذٌ . . نحرَ نفسَهُ .

وتناولَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ عبدَ الرحمـٰنِ بنَ عوفٍ فقدَّمَهُ ، فأمَّا مَنْ كانَ يلي عمرَ . . فقدْ رأىٰ ما رأيتُ ، وأمَّا نواحي المسجدِ . . فلا يدرونَ ما الأمرُ ، غيرَ أنَّهم فقدوا صوتَ عمرَ وهم يقولونَ : سبحانَ اللهِ ، سبحانَ اللهِ ، فصلَّىٰ بهم عبدُ الرحمـٰنِ صلاةً خفيفةً ، فلمَّا انصرفوا . . قالَ : يا بنَ عباسٍ ؛ انظرْ مَنْ قتلَني .

قالَ : فجالَ ساعةً ثمَّ جاءَ فقالَ : غلامُ المغيرةِ بنِ شعبةَ ، فقالَ عمرُ

رضيَ اللهُ عنهُ : قاتلَهُ اللهُ ، لقدْ كنتُ أمرتُ بهِ معروفاً .

ثمَّ قالَ : الحمدُ للهِ الذي لمْ يجعلْ منيَّتي بيدِ رجلٍ مسلمٍ ، قدْ كنتَ أنتَ وأبوكَ تحبَّانِ أنْ يكثرَ العلوجُ بالمدينةِ ، وكانَ العباسُ أكثرَهُم رقيقاً ، فقالَ ابنُ عباسٍ : إنْ شئتَ . . فعلتُ ـ أيْ : إنْ شئتَ . . قتلناهم ـ قالَ : بعدما تكلمُوا بلسانِكم ، وصلَّوا إلىٰ قبلتِكُمْ ، وحجوا حجَّكُم ؟! فاحتُملَ إلىٰ بيتِهِ فانطلقنا معَهُ .

قالَ : وكأنَّ الناسَ لمْ تصبْهم مصيبةٌ قبلَ يومَئذٍ ، فقائلٌ يقولُ : أخافُ عليهِ ، وقائلٌ يقولُ : لا بأسَ ، فأُتيَ بنبيذٍ فشربَ منهُ فخرجَ مِنْ جوفِهِ ، ثمَّ أُتيَ بلبنٍ فشربَ منهُ فخرجَ مِنْ جوفِهِ[1] ، فعرفوا أنَّهُ ميِّتٌ .

قالَ : فدخلنا عليهِ وجاءَ الناسُ يثنونَ عليهِ ، وجاءَ رجلٌ شابٌّ فقالَ : أبشرْ يا أميرَ المؤمنينَ ببشرىٰ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ ؛ قد كانَ لكَ مِنْ صحبةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وقِدَمٍ في الإسلامِ ما قدْ علمتَ ، ثمَّ وليتَ فعدلتَ ، ثمَّ شهادةٍ ، فقالَ : وددتُ أنَّ ذلكَ كانَ كفافاً لا عليَّ ولا لي ، فلمَّا أدبرَ الرجلُ ؛ إذا إزارُهُ يمسُّ الأرضَ ، فقالَ : ردُّوا عليَّ الغلامَ ، فقالَ : يا بنَ أخي ؛ ارفعْ ثوبَكَ ؛ فإنَّهُ أبقىٰ لثوبِكَ وأتقىٰ لربِّكَ .

ثمَّ قالَ : يا عبدَ اللهِ ؛ انظرْ ما عليَّ مِنَ الدَّيْنِ ، فحسبوهُ فوجدوهُ ستةً وثمانينَ ألفاً أوْ نحوَهُ ، فقالَ : إنْ وفَّىٰ بهِ مالُ آلِ عمرَ . . فأدِّهِ مِنْ أموالِهِمْ ،

---

(١) في (ب) و(ص) : (جرحه) وهي إحدىٰ روايات البخاري .

وإلاَّ فسلْ في بني عديٍّ بنِ كعبٍ ، فإنْ لمْ تفِ أموالُهُم . . فسلْ في قريشٍ ، ولا تعْدُهُم إلىٰ غيرِهم وأدِّ عنِّي هـٰذا المالَ ، انطلقْ إلىٰ أمِّ المؤمنينَ عائشةَ فقلْ : عمرُ يقرأُ عليكِ السلامَ ، ولا تقلْ : أميرُ المؤمنينَ ؛ فإنِّي لستُ اليومَ للمؤمنينَ أميراً ، وقلْ : يستأذنُ عمرُ بنُ الخطابِ أنْ يُدفنَ معَ صاحبيهِ .

فذهبَ عبدُ اللهِ فسلَّمَ واستأذنَ ، ثمَّ دخلَ عليها فوجدَها قاعدةً تبكي ، فقالَ : يقرأُ عليكِ عمرُ بنُ الخطابِ السَّلامَ ، ويستأذنُ أنْ يُدفنَ معَ صاحبيهِ ، فقالَتْ : كنتُ أريدُهُ لنفسي ، ولأوثرَنَّهُ اليومَ علىٰ نفسي ، فلمَّا أقبلَ . . قيلَ : هـٰذا عبدُ اللهِ بنُ عمرَ قدْ جاءَ ، فقالَ : ارفعوني ، فأسندَهُ رجلٌ إليهِ ، فقالَ : ما لديكَ ؟ قالَ : الذي تحبُّ يا أميرَ المؤمنينَ ، قدْ أذنَتْ ، قالَ : الحمدُ للهِ ، ما كانَ شيءٌ أهمَّ إليَّ مِنْ ذلكَ ، فإذا أنا قُبضتُ . . فاحملوني ، ثمَّ سلِّم وقلْ : يستأذنُ عمرُ ، فإنْ أذنَتْ لي . . فأدخلوني ، وإن ردَّتْني . . ردُّوني إلىٰ مقابرِ المسلمينَ .

وجاءَتْ أُمُّ المؤمنينَ حفصةُ رضيَ اللهُ عنها والنساءُ يسترنَها ، فلمَّا رأيناها . . قمنا ، فولجَتْ عليهِ ، فبكَتْ عندَهُ ساعةً ، واستأذنَ الرجالُ فولجَتْ داخلاً ، فسمعنا بكاءَها مِنَ الداخلِ ، فقالوا : أوصِ يا أميرَ المؤمنينَ واستخلِفْ ، قالَ : ما أرىٰ أحقَّ بهـٰذا الأمرِ مِنْ هؤلاءِ النفرِ الذينَ تُوفيَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وهوَ عنْهم راضٍ ، فسمَّىٰ عليّاً وعثمانَ والزبيرَ وطلحةَ وسعداً وعبدَ الرحمـٰنِ ، وقالَ : يشهدُكم عبدُ اللهِ بنُ عمرَ وليسَ لهُ مِنَ الأمرِ شيءٌ ـ كهيئةِ التعزيةِ لهُ ـ فإنْ أصابَتِ الإمارةُ سعداً . .

فذاكَ ، وإلاَّ . . فليستعِنْ بهِ أيُّكم أُمِّرَ ؛ فإنِّي لم أعزلْهُ مِنْ عجزٍ ولا خيانةٍ .

وقالَ : أُوصي الخليفةَ مِنْ بعدي بالمهاجرينَ الأولينَ أنْ يعرفَ لهم حقَّهم ، ويحفظَ لهُمْ حرمتَهُم ، وأوصيهِ بالأنصارِ خيراً ، الذين تبوَّءُوا الدارَ والإيمانَ مِنْ قبلِهم ؛ أنْ يقبلَ مِنْ محسنِهم ، وأنْ يعفوَ عَنْ مسيئِهم ، وأوصِيهِ بأهلِ الأمصارِ خيراً ؛ فإنَّهم ردءُ الإسلامِ وجباةُ المالِ وغيظُ العدوِّ ، وألاَّ يأخذَ مِنْهم إلاَّ فضلَهم عَنْ رضاً مِنْهم ، وأوصيهِ بالأعرابِ خيراً ؛ فإنَّهم أصلُ العربِ ومادةُ الإسلامِ ؛ أنْ يأخذَ مِنْ حواشي أموالِهم ويردَّ علىٰ فقرائِهم ، وأوصيهِ بذمَّةِ اللهِ عزَّ وجلَّ وذمَّةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ؛ أنْ يوفيَ لهُمْ بعهدِهم ، وأنْ يقاتلَ مِنْ ورائِهم ، ولا يُكلَّفوا إلاَّ طاقتَهُم .

قالَ : فلمَّا قُبضَ . . خرجنا بهِ فانطلقنا نمشي ، فسلَّمَ عبدُ اللهِ بنُ عمرَ وقالَ : يستأذنُ عمرُ بنُ الخطابِ ، فقالَتْ : أدخلوهُ ، فأُدخلَ فوُضعَ هنالكَ معَ صاحبيهِ . . . الحديثَ[١] .

وعنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « قالَ لي جبريلُ عليهِ السَّلامُ : ليبكِ الإسلامُ علىٰ موتِ عمرَ »[٢] .

وعنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما قالَ : (وُضِعَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ علىٰ سريرِهِ فتكنَّفَهُ الناسُ[٣] يدعونَ ويصلونَ قبلَ أنْ يُرفعَ وأنا فيهم . . فلم يرُعْني

---

(١) رواه البخاري (٣٧٠٠) وفيه : (تسير معها) بدل (يسترنها) .

(٢) رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٤٥٢٣) ، والآجري في « الشريعة » (١٣٩١).

(٣) أي : أحاطوا به . « إتحاف » (١٠/ ٣١٥) .

إلاَّ رجلٌ قد أخذَ بمنكبي ، فالتفتُّ ؛ فإذا هوَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ ، فترحَّمَ علىٰ عمرَ وقالَ : ما خلَّفتَ أحداً أحبَّ إليَّ أنْ ألقى اللهَ بمثلِ عملِهِ منكَ ، وايمُ اللهِ ؛ إنْ كنتُ لأظنُّ أنْ يجعلَكَ اللهُ مَع صاحبيكَ ؛ وذلكَ أني كنتُ كثيراً أسمعُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « ذهبتُ أنا وأبو بكرٍ وعمرُ ، ودخلتُ أنا وأبو بكرٍ وعمرُ ، وخرجتُ أنا وأبو بكرٍ وعمرُ » فإنِّي كنتُ لأرجو أوْ لأظنُّ أنْ يجعلَكَ اللهُ معَهما)[1] .

* * *

---

(١) رواه البخاري (٣٦٨٥) ، ومسلم (٢٣٨٩) .

وفاة عثمان رضي الله عنه

الحديثُ في قتلِهِ مشهورٌ[1] ، وقدْ قالَ عبدُ اللهِ بنُ سلامٍ : أتيتُ أخي عثمانَ لأسلمَ عليهِ وهوَ محصورٌ ، فدخلتُ عليهِ فقالَ : مرحباً بأخي ، رأيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الليلةَ في هٰذهِ الخوخةِ ـ وهي خوخةٌ في البيتِ ـ فقالَ : « يا عثمانُ ، حصروكَ ؟ » قلتُ : نعمْ ، قالَ : « عطشوكَ ؟ » قلتُ : نعمْ ، فأدلىٰ إليَّ دلواً فيهِ ماءٌ فشربتُ حتىٰ رويتُ ، حتىٰ إني لأجدُ بردَهُ بينَ ثديَيَّ وبينَ كتفيَّ ، وقالَ لي : « إنْ شئتَ . . نُصرتَ عليهمْ ، وإنْ شئتَ . . أفطرتَ عندَنا » فاخترتُ أنْ أُفطرَ عندَهُ ، فقُتلَ ذلكَ اليومَ رضيَ اللهُ عنهُ[2] .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ سلامٍ لِمَنْ حضرَ تشحُّطَ عثمانَ في الموتِ حينَ جُرِحَ : ماذا قالَ عثمانُ وهوَ يتشحَّطُ ؟ قالوا : سمعناهُ يقولُ : (اللهمَّ ؛ اجمعْ أمَّةَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ) ثلاثاً ، قالَ : والذي نفسي بيدِهِ ؛ لو دعا اللهَ ألاَّ يجتمعوا أبداً . . ما اجتمعوا إلىٰ يومِ القيامةِ[3] .

---

(١) رواه ابن سعد في « الطبقات » (٣/٦٨) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٩/٤٠٧ـ٤٠٨) ، وانظر « الإتحاف » (١٠/٣١٥ـ٣١٦) .

(٢) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٩/٣٨٦) ، والحارث في « مسنده » كما في « بغية الباحث » (٩٧٩) ، وعند أحمد في « المسند » (١/٧٢) ، والبزار في « مسنده » (٣٤٧) : « اصبر ؛ فإنك تفطر عندنا الليلة » .

(٣) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٩/٤٠٢) .

وعَنْ ثمامةَ بنِ حزنٍ القشيريِّ قالَ : شهدتُ الدارَ حينَ أشرفَ عليهم عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ فقالَ : ائتوني بصاحبيكُمُ اللذينِ ألَّباكُمْ عليَّ ، قالَ : فجيءَ بهما كأنَّهما جملانِ أوْ حمارانِ ، فأشرفَ عليهِمْ عثمانُ رضيَ اللهُ عنهُ فقالَ : أنشدُكمْ باللهِ والإسلامِ ؛ هلْ تعلمونَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قدمَ المدينةَ وليسَ بها ماءٌ يُستعذبُ غيرَ بئرِ رومةَ فقالَ : « مَنْ يشتري بئرَ رومةَ يجعلُ دلوَهُ معَ دلاءِ المسلمينَ بخيرٍ لهُ مِنْها في الجنَّةِ ؟ » فاشتريتُها مِنْ صلبِ مالي ، فأنتُمُ اليومَ تمنعوني أنْ أشربَ منها ومِنْ ماءِ البحرِ ؟ قالوا : اللهمَّ نعمْ ، قالَ : أنشدُكمُ اللهَ والإسلامَ ؛ هلْ تعلمونَ أنَّ المسجدَ كانَ قدْ ضاقَ بأهلِهِ فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ يشتري بقعةَ آلِ فلانٍ فيزيدُها في المسجدِ بخيرٍ مِنْها في الجنَّةِ ؟ » فاشتريتُها مِنْ صلبِ مالي ، فأنتُمُ اليومَ تمنعوني أنْ أُصليَ فيها ركعتينِ ؟ قالوا : اللهمَّ نعمْ ، قالَ : أنشدُكمُ اللهَ والإسلامَ ؛ هلْ تعلمونَ أنِّي جهزتُ جيشَ العسرةِ مِنْ مالي ؟ قالوا : اللهمَّ نعمْ ، قالَ : أنشدُكمُ اللهَ والإسلامَ ؛ هلْ تعلمونَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ علىٰ ثبيرٍ بمكةَ ومعَهُ أبو بكرٍ وعمرُ وأنا ، فتحرَّكَ الجبلُ حتىٰ تساقَطَتْ حجارتُهُ بالحضيضِ ، قالَ : فركضَهُ برجلِهِ وقالَ : « اسكنْ ثبيرُ ، فإنَّما عليكَ نبيٌّ وصدِّيقٌ وشهيدانِ ؟ » قالوا : اللهمَّ نعمْ ، قال : اللهُ أكبرُ ، شهدوا لي وربِّ الكعبةِ أنِّي شهيدٌ[1] .

---

(١) رواه الترمذي (٣٧٠٣) ، والنسائي (٦/ ٢٣٥) ، وفيه : (تمنعوني أن أشرب منها حتىٰ أشرب من ماء البحر) بدل (تمنعوني أن أشرب منها ومن ماء البحر) .

ورُوِيَ عَنْ شيخٍ مِنْ ضبةَ : أنَّ عثمانَ رضيَ اللهُ عنهُ حينَ ضُرِبَ والدماءُ تسيلُ علىٰ لحيتِهِ.. جعلَ يقولَ : (لا إلـٰهَ إلاَّ أنتَ سبحانَكَ إنِّي كنتُ مِنَ الظالمينَ ، اللهمَّ ؛ إنِّي أستعديكَ عليهِمْ ، وأستعينُكَ علىٰ جميعِ أموري ، وأسألُكَ الصبرَ علىٰ ما ابتليتَني)[١] .

❋ ❋ ❋

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٩/ ٤٠١) .

وفاة سيدنا علي رضي الله عنه

قالَ الأصبغُ الحنظليُّ : لمَّا كانتِ الليلةُ التي أُصيبَ فيها عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ . . أتاهُ ابنُ النبَّاحِ حينَ طلعَ الفجرُ يؤذنُهُ بالصلاةِ وهو مضطجعٌ متثاقلٌ ، فعادَ الثانيةَ وهوَ كذلكَ ، ثمَّ عادَ الثالثةَ ، فقامَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ يمشي وهوَ يقولُ[1] : [من الهزج]

أُشْـدُدْ حَيـازِيمَـكَ[2] لِلْمَـوْتِ ... فَـإِنَّ ٱلْمَـوْتَ لاقِيكَـا

وَلا تَجْـزَعْ مِـنَ ٱلْمَـوْتِ ... إِذا حَـلَّ بِـوادِيكَـا

فلمَّا بلغَ البابَ الصغيرَ . . شدَّ عليهِ ابنُ ملجمٍ فضربَهُ ، فخرجَتْ أمُّ كلثومٍ ابنةُ عليٍّ رضيَ اللهُ عنها فجعلَتْ تقولُ : ما لي ولصلاةِ الغداةِ ؟! قُتلَ زوجي أميرُ المؤمنينَ صلاةَ الغداةِ ، وقُتلَ أبي صلاةَ الغداةِ[3] .

وعَنْ شيخٍ مِنْ قريشٍ : أنَّ علياً رضيَ اللهُ عنهُ لمَّا ضربَهُ ابنُ ملجمٍ . . قالَ : (فزتُ وربِّ الكعبةِ)[4] .

---

(١) ديوان سيدنا علي الموسوم بـ« أنوار العقول لوصي الرسول » (ص ٣٦٤) .

(٢) **الحيزوم**: ما استدار بالظهر والبطن أو ضلع الفؤاد ، وما اكتنف الحلقوم من جانب الصدر.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٥١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٢/٥٥٥) ، والأبيات رواها عنه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٢٦٥٥٥) ، والطبراني في « الكبير » (١/١٠٥) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٥٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٢/٥٦١) .

وعَنْ محمدِ بنِ عليٍّ أنَّهُ لمَّا ضُرِبَ أوصىٰ بنيهِ ، ثمَّ لم ينطقْ إلاَّ بـ(لا إلـهَ إلاَّ اللهُ) حتىٰ قُبِضَ[1] .

وفاة الحسن رضي الله عنه[2]

ولمَّا ثقلَ الحسنُ بنُ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُما . . دخلَ عليهِ الحسينُ رضيَ اللهُ عنهُ فقالَ : يا أخي ؛ لأيِّ شيءٍ تجزعُ ؟! تقدمُ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وعلىٰ عليِّ بنِ أبي طالبٍ وهما أبواكَ ، وعلىٰ خديجةَ بنتِ خويلدٍ وفاطمةَ بنتِ محمدٍ وهما أماكَ ، وعلىٰ حمزةَ وجعفرٍ وهما عمَّاكَ ، قالَ : يا أخي ، أقدمُ علىٰ أمرٍ لم أقدمْ علىٰ مثلِهِ[3] .

وفاة الحسين رضي الله عنه[2]

وعَنْ محمَّدِ بنِ الحسنِ قالَ : لمَّا نزلَ القومُ بالحسينِ رضيَ اللهُ عنهُ وأيقنَ أنَّهم قاتلوه . . قامَ في أصحابِهِ خطيباً ، فحمدَ اللهَ تعالىٰ وأثنىٰ عليه ثمَّ قالَ : (قَدْ نزلَ مِنَ الأمرِ ما ترونَ ، وإنَّ الدنيا قدْ تغيَّرَتْ وتنكَّرَتْ ، وأدبرَ معروفُها ، وانشمرَتْ حتىٰ لم يبقَ منها إلا كصبابةِ الإناءِ ، إلاَّ خسيسُ عيشٍ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٥٣) ، والطبراني في « الكبير » (١/ ٩٧) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٢/ ٥٦٢) .

(٢) العنوان زيادة من اللجنة العلمية .

(٣) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٣/ ٢٨٦) ، وانظر « الإتحاف » (١٠/ ٣٢٠).

كالمرعى الوبيلِ ، ألا ترونَ الحقَّ لا يُعملُ بهِ والباطلَ لا يُتناهىٰ عنهُ ؟! ليرغبِ المؤمنُ في لقاءِ اللهِ تعالىٰ ، وإنِّي لا أرى الموتَ إلاَّ سعادةً ، والحياةَ معَ الظالمينَ إلاَّ جرماً)[1] .

* * *

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (٣/ ١١٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٤/ ٢١٧ ـ ٢١٨) .

الباب الخامس
في كلام المحتضرين من الخلفاء، والأمراء والصالحين

لمَّا حضرَتْ معاويةَ بنَ أبي سفيانَ الوفاةُ.. قالَ : أقعدوني ، فأُقعدَ ، فجعلَ يسبِّحُ اللهَ تعالىٰ ويذكرُهُ ، ثمَّ بكىٰ وقالَ : تذكرُ ربَّكَ يا معاويةُ بعدَ الهرمِ والانحطاطِ ، ألا كانَ هـٰذا وغصنُ الشبابِ نضرٌ ريّانُ ؟! وبكىٰ حتىٰ علا بكاؤُهُ وقالَ : يا ربِّ ؛ ارحمِ الشيخَ العاصيَ ذا القلبِ القاسي ، اللهمَّ ؛ أَقِلِ العثرةَ واغفرِ الزلَّةَ ، وعُدْ بحلمِكَ علىٰ مَنْ لمْ يرجُ غيرَكَ ولم يثقْ بأحدٍ سواكَ[1] .

ورُوِيَ عَنْ شيخٍ مِنْ قريشٍ : أنَّهُ دخلَ معَ جماعةٍ عليهِ في مرضِهِ ، فرأوا في جلدِهِ غضوناً ، فحمدَ اللهَ وأثنىٰ عليهِ ثمَّ قالَ : (**أمَّا بعدُ** : فهلِ الدنيا أجمعُ إلا ما جرَّبنا ورأينا ؟! أما واللهِ ؛ لقدِ استقبلنا زهرتَها بجدتِنا ، وباستلذاذِنا بعيشِنا ، فما لبثَتْنا الدنيا أنْ نقضَتْ ذلكَ منَّا حالاً بعدَ حالٍ وعروةً بعدَ عروةٍ ، فأصبحَتِ الدنيا وقدْ وترَتْنا وأخلقَتْنا ، واستلأمَتْ إلينا ،

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن » (١١١) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٩/ ٢٢٧) ، وفيه : تمثل معاوية عند موته :

هو الموت لا منجىٰ من الموت والذي		نحاذر بعد الموت أدهىٰ وأفظع

فأفٌّ للدنيا مِنْ دارٍ ! ثمَّ أفٌّ لها مِنْ دارٍ !)[١] .

ويُروىٰ أنَّ آخرَ خطبةٍ خطبَها معاويةُ رضيَ الله عنهُ أنْ قالَ : (أيُّها النَّاسُ ؛ إنِّي مِنْ زرعٍ قدِ استحصدَ ، وإنِّي قد وُليتكُم ولنْ يليَكُم أحدٌ بعدي إلاَّ وهوَ شرٌّ مني كما كانَ مَنْ قبلي خيراً منِّي ، ويا يزيدُ إذا وفَّىٰ أجلي . . فولِّ غسلي رجلاً لبيباً ؛ فإنَّ اللبيبَ مِنَ اللهِ بمكانٍ ، فلينعمِ الغسلَ وليجهرْ بالتكبيرِ ، ثمَّ اعمدْ إلىٰ منديلٍ في الخزانةِ فيهِ ثوبٌ مِنْ ثيابِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقراضةٌ من شعرِهِ وأظفارِهِ ، فاستودعِ القراضةَ أنفي وفمي وأذني وعيني ، واجعلِ الثوبَ علىٰ جلدي دونَ أكفاني ، ويا يزيدُ ؛ احفظْ وصيةَ اللهِ في الوالدينِ ، فإذا أدرجتُموني في جريدَتي ووضعتُموني في حفرتي . . فخلوا معاويةَ وأرحمَ الراحمينَ)[٢] .

وقالَ محمدُ بنُ عقبةَ : لمَّا نزلَ بمعاويةَ الموتُ . . قالَ : (يا ليتَني كنتُ رجلاً مِنْ قريشٍ بذي طوىً ، وأنِّي لم ألِ مِنْ هـٰذا الأمرِ شيئاً)[٣] .

ولمَّا حضرَتْ عبدَ الملكِ بنَ مروانَ الوفاةُ . . نظرَ إلىٰ غسالٍ بجانبِ دمشقَ يلوي ثوباً بيدِهِ ، ثمَّ يضربُ بهِ المغسلةَ ، فقالَ عبدُ الملكِ : واللهِ ليتَني كنتُ غسالاً آكلُ منْ كسبِ يدي يوماً بيومٍ ، ولمْ ألِ مِنْ أمرِ النَّاسِ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٦٢) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٦٥) ، وفي (ص) : (جديدي) بدل (جريدتي) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٧٤) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٥٩/٢٢٣) .

شيئاً ، فبلغَ ذلكَ أبا حازمٍ فقالَ : الحمدُ للهِ الذي جعلَهم إذا حضرَهُمُ الموتُ يتمنَّونَ ما نحنُ فيهِ ، وإذا حضرَنا الموتُ لمْ نتمنَّ ما هم فيهِ[1] .

وقيلَ لعبدِ الملكِ بنِ مروانَ في مرضِهِ الذي ماتَ فيهِ : كيفَ تجدُكَ يا أميرَ المؤمنينَ ؟ قالَ : أجدُني كما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ . . . ﴾ الآيةَ[2]، وماتَ .

وقالَتْ فاطمةُ بنتُ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ امرأةُ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رحمةُ اللهِ عليهِ : كنتُ أسمعُ عمرَ في مرضِهِ الذي ماتَ فيهِ يقولُ : اللهمَّ ؛ أخفِ عليهِم موتي ولوْ ساعةً مِنْ نهارٍ ، فلمَّا كانَ اليومُ الذي قُبضَ فيهِ . . خرجتُ مِنْ عندِهِ ، فجلستُ في بيتٍ آخرَ بيني وبينَهُ بابٌ ، وهوَ في قبةٍ لهُ ، فسمعتُهُ يقولُ : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ، ثمَّ هدأَ ، فجعلتُ لا أسمعُ لهُ حركةً ولا كلاماً ، فقلتُ لوصيفٍ لهُ : انظرْ أنائمٌ هوَ ؟ فلمَّا دخلَ . . صاحَ ، فوثبتُ ؛ فإذا هوَ ميتٌ[3] .

وقيلَ لهُ لمَّا حضرَهُ الموتُ : اعهدْ يا أميرَ المؤمنينَ ، قالَ : أحذِّرُكم مثلَ مصرعي هـٰذا ؛ فإنَّهُ لا بدَّ لكم منهُ[4] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٧٥) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٧/١٥٨) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٧٨) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٧/١٥٦) .

(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٣٣٥) ، وابن المبارك في « الزهد » (٨٨٧) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٨٧) .

ورُويَ أنَّهُ لما ثقلَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ . . دُعيَ لهُ طبيبٌ ، فلمَّا نظرَ إليهِ . . قالَ : أرى الرجلَ قدْ سُقيَ السمَّ ، ولاَ آمنُ عليهِ الموتَ ، فرفعَ عمرُ بصرَهُ إليهِ وقالَ : ولا تأمنُ الموتَ أيضاً علىٰ مَنْ لمْ يُسقَ السمَّ ، قالَ الطبيبُ : هل أحسستَ بذلكَ يا أميرَ المؤمنينَ ؟ قالَ : نعمْ ، قدْ عرفتُ ذلكَ حينَ وقعَ في بطني ، قالَ : فتعالجْ يا أميرَ المؤمنينَ ؛ فإنِّي أخافُ أنْ تذهبَ نفسُكَ ، قالَ : ربي خيرُ مذهوبٍ إليهِ ، واللهِ ؛ لوْ علمتُ أنَّ شفائي عندَ شحمةِ أذني . . ما رفعتُ يدي إلىٰ أذني فتناولتُه ، اللهمَّ ؛ خِرْ لعمرَ في لقائِكَ ، فلمْ يلبثْ إلاَّ أياماً حتىٰ ماتَ[1] .

وقيلَ : لمَّا حضرَتْهُ الوفاةُ بكىٰ ، فقيلَ لهُ : ما يبكيكَ يا أميرَ المؤمنينَ ؟! أبشرْ ؛ فقدْ أحيا اللهُ بكَ سنناً ، وأظهرَ بكَ عدلاً ، فبكىٰ ثمَّ قالَ : أليسَ أُوقفُ فأُسألُ عَنْ أمرِ هـٰذا الخلقِ ، فواللهِ ؛ لوْ عدلتُ فيهم . . لخفتُ علىٰ نفسي ألاَّ تقومَ بحجتِها بينَ يدي اللهِ تعالىٰ إلاَّ أنْ يلقِّنَها اللهُ حجَّتَها ، فكيفَ بكثيرٍ ممَّا ضيَّعنا ؟! وفاضَتْ عيناهُ ، فلمْ يلبثْ إلاَّ يسيراً حتىٰ ماتَ[2] .

ولمَّا قربَ وقتُ موتِهِ . . قالَ : أجلسوني ، فأجلسوهُ ، فقالَ : أنا الذي أمرتَني فقصَّرتُ ، ونهيتَني فعصَيتُ ـ ثلاثَ مراتٍ ـ ولكنْ لا إلـٰهَ إلاَّ اللهُ ، ثمَّ رفع رأسَهُ فأحدَّ النظرَ ، فقيلَ لهُ في ذلكَ فقالَ : إنِّي لأرىٰ حضرةً[3] ما هم

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٨٨) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٨٩) .

(٣) في (أ ، ن ، ف) : (خضرة) بدل (حضرة) .

بإنسٍ ولا جنٍّ ، ثمَّ قُبضَ رحمةُ اللهِ عليهِ[1] .

وحُكيَ عنْ هارونَ الرشيدِ أنَّهُ انتقىٰ أكفانَهُ عندَ الموتِ بيدِهِ ، وكانَ ينظرُ إليها ويقولُ : ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۝ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴾ .

وفرشَ المأمونُ رماداً واضطجعَ عليهِ وكانَ يقولُ : يا مَنْ لا يزولُ ملكُهُ ؛ ارحمْ مَنْ قدْ زالَ ملكُهُ[2] .

وكانَ المعتصمُ يقولُ عندَ موتِهِ : لوْ علمتُ أنَّ عمري هٰكذا قصيرٌ . . ما فعلتُ ما فعلتُ[3] .

وكانَ المنتصرُ يضطربُ علىٰ نفسِهِ عندَ موتِهِ ، فقيلَ لهُ : لا بأسَ عليكَ يا أميرَ المؤمنينَ ، فقالَ : ليسَ إلاَّ هٰذا ، لقدْ ذهبَتِ الدنيا وأقبلتِ الآخرةُ[4] .

وقالَ عمرُو بن العاصِ في الوفاةِ ـ وقد نظرَ إلىٰ صناديقَ ـ لبنيهِ : مَنْ يأخذُها بما فيها ؟ ليتَهُ كانَ بعراً[5] .

وقالَ الحجاجُ عندَ موتِهِ : اللهمَّ اغفرْ لي ؛ فإنَّ النَّاسَ يقولونَ : إنَّكَ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٣٣٥) ، وابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٩٠) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (١١٧) عن بعض الملوك ، وفي (أ) : (وحكي عن الواثق أنه فرش) بدل (وفرش المأمون) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٩٩) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (١٠٠) .

(٥) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣/ ٤٥٣) ، وابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (١٠٦) .

لا تغفرُ لي ، فكانَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ تعجبُهُ هـٰذهِ الكلمةُ منهُ ويغبطُهُ عليها ، ولمَّا حُكيَ ذلكَ للحسنِ قالَ : أقالَها ؟ قيلَ : نعمْ ، قالَ : عسى[1] .

* * *

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/٣٤٥) ، وابن أبي الدنيا في « حسن الظن » (١١٥) .

بيان أقاويل جماعة من خصوص الصالحين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أهل التصوف رضي الله عنهم أجمعين

لما حضرَتْ معاذاً رضيَ اللهُ عنهُ الوفاةُ . . قالَ : (اللهمَّ ؛ إنِّي قد كنتُ أخافُكَ ، وأنا اليومَ أرجوكَ ، اللهمَّ ؛ إنَّكَ تعلمُ أنِّي لمْ أكنْ أحبُّ الدنيا وطولَ البقاءِ فيها لجريِ الأنهارِ ولا لغرسِ الأشجارِ ، ولكنْ لظمأِ الهواجرِ ومكابدةِ الساعاتِ ، ومزاحمةِ العلماءِ بالركبِ عندَ حلقِ الذكرِ)[1] .

ولمَّا اشتدَّ بهِ النزعُ ، ونزعَ نزعاً لم ينزعْهُ أحدٌ . . فكانَ كلَّما أفاقَ مِنْ غمرةٍ فتحَ طرفَهُ ثمَّ قالَ : (ربِّ اخنقْني خنقَكَ ، فوعزَّتِكَ ؛ إنَّكَ لتعلمُ أنَّ قلبي يحبُّكَ)[2] .

ولمَّا حضرَتْ سلمانَ الوفاةُ . . بكىٰ ، فقيلَ لهُ : ما يبكيكَ ؟ قالَ : (ما أبكي جزعاً على الدنيا ، ولكنْ عهدَ إلينا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنْ تكونَ بلغةُ أحدِنا مِنَ الدنيا كزادِ الرَّاكبِ ، فلمَّا ماتَ سلمانُ . . نُظِرَ في جميعِ

---

(١) رواه أحمد في « الزهد » (١٠١١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٣٩) ، وابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (١٢٧) ، وفيه : (لكري الأنهار) بدل (لجري الأنهار) وهي نسخة أشار إليها الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (١٠/ ٣٢٨) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٤٠) ، وابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (١٢٨) .

ما تركَ ؛ فإذا قيمتُهُ بضعةَ عشرَ درهماً)[1] .

ولمَّا حضرَتْ بلالاً الوفاةُ.. قالَتْ امرأتُهُ : وا حزناهُ ! فقالَ : (بلْ وا طرباهُ ، غداً نلقى الأحبَّةَ ؛ محمداً وحزبَهُ)[2] .

وقيلَ : فتحَ عبدُ اللهِ بنُ المباركِ عينَهُ عندَ الوفاةِ وضحكَ وقالَ : ﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴾[3] .

ولمَّا حضرَتْ إبراهيمَ النخعيَّ الوفاةُ.. بكىٰ ، فقيلَ لهُ : ما يبكيكَ ؟ قالَ : أنتظرُ مِنَ اللهِ رسولاً يبشرُني بالجنَّةِ أوِ بالنَّارِ[4] .

ولمَّا حضرَتِ ابنَ المنكدرِ الوفاةُ بكىٰ ، فقيلَ لهُ : ما يبكيكَ ؟ فقالَ : واللهِ ؛ ما أبكي لذنبٍ أعلمُ أنِّي أتيتُهُ ، ولكنْ أخافُ أنِّي أتيتُ شيئاً حسبتُهُ هيِّناً وهوَ عندَ اللهِ عظيمٌ[5] .

ولمَّا حضرَتْ عامرَ بنَ عبدِ قيسٍ الوفاةُ.. بكىٰ ، فقيلَ لهُ : ما يبكيكَ ؟ قالَ : ما أبكي جزعاً مِنَ الموتِ ، ولا حرصاً على الدنيا ، ولكِنْ أبكي علىٰ ما يفوتُني مِنْ ظمأِ الهواجرِ ، وعلىٰ قيامِ الليلِ في الشتاءِ[6] .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٥/٤٣٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/١٩٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٩١٢) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٢٩٤)، والقشيري في « الرسالة » (ص٥٠١).
(٣) رواه القشيري في « الرسالة » (ص٥٠١) .
(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/٢٢٤) ، وابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (١٤٨).
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٢٣٥) ، والبيهقي في « الشعب » (٢٨٤) .
(٦) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/٨٨) ، والبيهقي في « الشعب » (٣٦٤٨) .

ولمَّا حضرَتْ فضيلاً الوفاةُ . . غُشِيَ عليهِ ، ثمَّ فتحَ عينيهِ وقالَ : وا بُعدَ سفري ! وا قلةَ زادي ![1] .

ولمَّا حضرَتِ ابنَ المباركِ الوفاةُ . . قالَ لنصرٍ مولاهُ : اجعلْ رأسي على الترابِ ، فبكىٰ نصرٌ ، فقالَ لهُ : ما يبكيكَ ؟ قالَ : ذكرتُ ما كنتَ فيهِ مِنَ النعيمِ ، وأنتَ هوَ ذا تموتُ فقيراً غريباً ، قالَ : اسكتْ ؛ فإني سألتُ اللهَ تعالىٰ أنْ يحيينَي حياةَ الأغنياءِ ، وأنْ يميتَني موتَ الفقراءِ ، ثمَّ قالَ لهُ : لقِّنّي ، ولا تعدْ عليَّ ما لم أتكلمْ بكلامٍ ثانٍ[2] .

وقالَ عطاءُ بنُ يسارٍ : تبدَّىٰ إبليسُ لرجلٍ عندَ الموتِ فقالَ لهُ : نجوتَ ، فقالَ : مَا أمنتُكَ بعدُ[3] .

وبكىٰ بعضُهم عندَ الموتِ ، فقيلَ لهُ : ما يبكيكَ ؟ قالَ : آيةٌ في كتابِ اللهِ تعالىٰ ؛ قولُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[4] .

ودخلَ الحسنُ علىٰ رجلٍ يجودُ بنفسِهِ فقالَ : إنَّ أمراً هـٰذا أولُهُ لجديرٌ أنْ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (١٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ : « ما أبكي علىٰ دنياكم ، ولكن أبكي علىٰ بعد سفري وقلة زادي ؛ فإني أمسيت في صعود مهبطة علىٰ جنة ونار ولا أدري أيتهما يؤخذ بي » ، وفي (ن) : (وا بعد سفراه ، وقلة زاداه) .

(٢) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (٣٨٧) .

(٣) رواه البيهقي في « الشعب » (٨٢٩) ، وابن المبارك في « الزهد » (٣٠٨) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (١٧٩) .

يُتَّقىٰ آخرُهُ ، وإنَّ أمراً هٰذا آخرُهُ لجديرٌ أنْ يُزهدَ في أولِهِ[1] .

وقالَ الجريريُّ : كنتُ عندَ الجنيدِ في حالِ نزعِهِ ، وكانَ يومَ الجمعةِ ويومَ النيروزِ ، وهوَ يقرأُ القرآنَ ، فختمَ فقلتُ لهُ : في هٰذه الحالةِ يا أبا القاسمِ ؟ فقالَ : ومَنْ أولىٰ بذلكَ منِّي ، وهوَ ذا تُطوىٰ صحيفتي ؟![2] .

وقالَ رويمٌ : حضرتُ وفاةَ أبي سعيدٍ الخرَّازِ وهوَ يقولُ[3] : [من الطويل]

حَنِينُ قُلوبِ ٱلْعارِفِينَ إِلَى ٱلذِّكْرِ ... وَتَذْكارُهُمْ وَقْتَ ٱلْمُناجاةِ لِلسِّرِّ

أُدِيرَتْ كُؤُوسٌ لِلْمَنايا عَلَيْهِمُ ... فَأَغْفَوْا عَنِ ٱلدُّنْيا كَإِغْفاءِ ذِي ٱلسُّكْرِ

هُمُومُهُمُ جَوَّالَةٌ بِمُعَسْكَرٍ ... بِهِ أَهْلُ وُدِّ ٱللهِ كَٱلأَنْجُمِ ٱلزُّهْرِ

فَأَجْسامُهُمْ فِي ٱلأَرْضِ قَتْلَىٰ بِحُبِّهِ ... وَأَرْواحُهُمْ فِي ٱلْحُجْبِ نَحْوَ ٱلْعُلاَ تَسْرِي

فَما عَرَّسُوا إِلاَّ بِقُرْبِ حَبِيبِهِمْ ... وَما عَرَجُوا مِنْ مَسِّ بُؤْسٍ وَلا ضُرِّ

وقيلَ للجنيدِ : إنَّ أبا سعيدٍ الخرازَ كانَ كثيرَ التواجدِ عندَ الموتِ ، فقالَ : لمْ يكنْ بعجبٍ أنْ تطيرَ روحُهُ اشتياقاً[4] .

---

(١) رواه البيهقي في « الزهد الكبير » (٥٤٩) ، وابن أبي الدنيا في « المحتضرين » (٢٤٤) بنحوه .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٢٩٨٤) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٥٠٠) .

(٣) أورده القشيري في « الرسالة » (ص٥٠١ ـ ٥٠٢) ، وانظر الأبيات في « بحر الدموع » (ص٧١) .

(٤) أورده القشيري في « الرسالة » (ص٥٠٢) .

وقيلَ لذي النُّونِ عندَ موتِهِ : ما تشتهي ؟ قالَ : أَنْ أعرفَهُ قبلَ موتي بلحظةٍ[1] .

وقيلَ لبعضِهم وهوَ في النزعِ : قلِ : اللهُ ، فقالَ : إلىٰ متىٰ تقولونَ : اللهُ وأنا محترقٌ باللهِ[2] .

وقالَ بعضُهم : كنتُ عندَ ممشاذَ الدينوريِّ ، فقدمَ فقيرٌ وقالَ : السَّلامُ عليكم ، هلْ هـٰهنا موضعٌ نظيفٌ يمكنُ الإنسانَ أَنْ يموتَ فيهِ ، قالَ : فأشاروا إليهِ بمكانٍ ، وكانَ ثمَّ عينُ ماءٍ ، فجددَ الفقيرُ الوضوءَ ، وركعَ ما شاءَ اللهُ ومضىٰ إلىٰ ذلكَ المكانِ ، ومدَّ رجليهِ وماتَ[3] .

وكانَ أبو العباسِ الدينوريُّ يتكلمُ في مجلسِهِ يوماً ، فصاحَتِ امرأةٌ تواجداً ، فقالَ لها : موتي ، فقامتِ المرأةُ : فلمَّا بلغَتْ بابَ الدارِ . . التفتَتْ إليهِ وقالَتْ : قدْ متُّ ، ووقعَتْ ميتةً[4] .

ويُحكىٰ عَنْ فاطمةَ أختِ أبي عليٍّ الروذباريِّ قالَتْ : لمَّا قربَ أجلُ أبي عليٍّ الروذباريِّ وكانَ رأسُهُ في حجري . . فتحَ عينيهِ وقالَ : هـٰذهِ أبوابُ

---

(١) أورده القشيري في « الرسالة » (ص٥٠٢) ، والمعنىٰ : أن ذا النون رأىٰ نفسه مقصراً عن القيام بحقِّ معرفته ، فعدَّ معرفته كلا معرفة ، فطلب أن يستغرق في جلال اللهِ وكماله بحسب ما علمه من ذلك . « إتحاف » (١٠/ ٣٤١) .

(٢) أورده القشيري في « الرسالة » (ص٥٠٢) .

(٣) أورده القشيري في « الرسالة » (ص٥٠٢) .

(٤) أورده القشيري في « الرسالة » (ص٥٠٢) .

السماءِ قدْ فُتحَتْ ، وهـٰذهِ الجنانُ قدْ زُيِّنَتْ ، وهـٰذا قائلٌ يقولُ : يا أبا عليٍّ ؛ قدْ بلَّغناكَ الرتبةَ القصوىٰ وإنْ لمْ تردْها ، ثمَّ أنشأَ يقولُ[1] : [من الوافر]

وَحَقِّكَ لا نَظَرْتُ إِلَىٰ سِواكا ... بِعَيْنِ مَوَدَّةٍ حَتَّىٰ أَراكا
أَراكَ مُعَذِّبِي بِفُتُورِ لَحْظٍ ... وَبِالْخَدِّ الْمُوَرَّدِ مِنْ جَناكا[2]

وقيلَ للجنيدِ : قلْ : لاَ إلـٰهَ إلاَّ اللهُ ، فقالَ : ما نسيتُهُ فأذكرَهُ[3] .

وسألَ جعفرُ بنُ نصيرٍ بكرانَ الدينوريَّ خادمَ الشبليِّ : ما الذي رأيتَ منهُ ؟ فقالَ : قالَ : عليَّ درهمُ مظلمةٍ ، وقدْ تصدقتُ عنْ صاحبِهِ بألوفٍ ، فما علىٰ قلبي شغلٌ أعظمَ منهُ ، ثمَّ قالَ : وضِّئْني للصلاةِ ، ففعلتُ ، فنسيتُ تخليلَ لحيتِهِ وقدْ أمسكَ علىٰ لسانِهِ ، فقبضَ علىٰ يدي وأدخلَها في لحيتِهِ ثمَّ ماتَ ، فبكىٰ جعفرٌ وقالَ : ما تقولونَ في رجلٍ لم يفتْهُ في آخرِ عمرِهِ أدبٌ مِنْ آدابِ الشريعةِ ؟![4] .

وقيلَ لبشرِ بنِ الحارثِ لمَّا احتُضرَ وكانَ يشقُّ عليهِ : كأنَّكَ تحبُّ الحياةَ ، فقالَ : القدومُ على اللهِ تعالىٰ شديدٌ[5] .

وقيلَ لصالحِ بنِ مسمارٍ : ألا توصي بابنِكَ وعيالِكَ ؟ فقالَ : إنِّي

---

(١) أورده القشيري في « الرسالة » (ص٥٠٣) ، وانظر « طبقات الأولياء » (ص٥٢) .
(٢) في (ق) : (حياكا) بدل (جناكا) .
(٣) أورده القشيري في « الرسالة » (ص٥٠٥) .
(٤) أورده القشيري في « الرسالة » (ص٥٠٥) .
(٥) أورده القشيري في « الرسالة » (ص٥٠١) .

لأستحيي مِنَ اللهِ تعالىٰ أنْ أوصيَ بهمْ إلىٰ غيرِه[1] .

ولمَّا احتُضرَ أبو سليمانَ الدارانيُّ . . أتاهُ أصحابُهُ فقالوا : أبشرْ ؛ فإنَّكَ تقدمُ علىٰ ربٍّ غفورٍ رحيمٍ ، فقالَ لهُم : ألا تقولونَ : احذرْ ؛ فإنَّكَ تقدمُ علىٰ ربٍّ يحاسبُكَ بالصغيرِ ويعاقبُكَ بالكبيرِ ؟![2] .

ولمَّا احتُضرَ أبو بكرٍ الواسطيُّ . . قيلَ لهُ : أوصنا ، فقالَ : احفظوا مرادَ الحقِّ فيكم[3] .

واحتُضرَ بعضُهم فبكَتِ امرأتُهُ ، فقالَ لها : ما يبكيكِ ؟ فقالَتْ : عليكَ أبكي ، فقالَ : إنْ كنتِ باكيةً . . فابكي علىٰ نفسِكِ ، فلقدْ بكيتُ لهـٰذا اليومِ أربعينَ سنةً .

وقالَ الجنيدُ : دخلتُ علىٰ سريٍّ السقطيِّ أعودُهُ في مرضِ موتِهِ ، فقلتُ : كيفَ تجدُكَ ؟ فأنشأَ يقولُ : [من الخفيف]

كَيْفَ أَشْكُو إِلَىٰ طَبِيبِيَ ما بِي ... وَٱلَّذِي بِي أَصابَنِي مِنْ طَبِيبِي

فأخذتُ المروحةَ لأروِّحَهُ فقالَ : كيفَ يجدُ ريحَ المروحةِ مَنْ جوفُهُ يحترقُ ؟! ثمَّ أنشأَ يقولُ[4] : [من البسيط]

ٱلْقَلْبُ مُحْتَرِقٌ وَٱلدَّمْعُ مُسْتَبِقٌ ... وَٱلْكَرْبُ مُجْتَمِعٌ وَٱلصَّبْرُ مُفْتَرِقُ

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٣٤) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٣٤) .
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٣٥) .
(٤) انظر « المنتظم » (٧/ ٦٣) ، و« بغية الطلب » (٩/ ٤٢٢٦) .

كَيْفَ ٱلْقَرارُ عَلَىٰ مَنْ لا قَرارَ لَهُ		مِمّا جَناهُ ٱلْهَوَىٰ وَٱلشَّوْقُ وَٱلْقَلَقُ
يا رَبِّ إِنْ يَكُ شَيْءٌ فِيْهِ لِي فَرَجٌ		فَٱمْنُنْ عَلَيَّ بِهِ ما دامَ بِي رَمَقُ

وحُكِيَ أنَّ قوماً مِنْ أصحابِ الشبليِّ رحمةُ اللهِ عليهِ دخلوا عليهِ وهوَ في الموتِ ، فقالوا لهُ : قلْ : لا إلـٰهَ إلاَّ اللهُ ، فأنشأَ يقولُ[1] : [من المديد]

إِنَّ بَيْتاً أَنْتَ ساكِنُهُ		غَيْرُ مُحْتاجٍ إِلَى السُّرُجِ
وَجْهُكَ ٱلْمَأْمُولُ حُجَّتُنا		يَوْمَ يَأْتِي ٱلنَّاسُ بِٱلْحُجَجِ
لا أَتاحَ ٱللهُ لِي فَرَجاً		يَوْمَ أَدْعُو مِنْكَ بِٱلْفَرَجِ

وحُكيَ أنَّ أبا العباسِ بنَ عطاءٍ دخلَ على الجنيدِ في وقتِ نزعِهِ ، فسلَّمَ عليهِ فلمْ يجبْهُ ، ثمَّ أجابَ بعدَ ساعةٍ وقالَ : اعذرْني ؛ فإنِّي كنتُ في وردي ، ثمَّ ولَّىٰ وجهَهُ إلى القبلةِ وكبرَ وماتَ[2] .

وقيلَ للكتانيِّ لمَّا حضرَتْهُ الوفاةُ : ما كانَ عملُكَ ؟ فقالَ : لوْ لمْ يقربْ أجلي . . ما أخبرتُكُم بِهِ ، وقفتُ علىٰ بابِ قلبي أربعينَ سنةً ، فكلَّما مرَّ فيهِ غيرُ اللهِ . . حجبتُهُ عنهُ[3] .

وحُكِيَ عَنِ المعتمرِ قالَ : كنتُ فيمَنْ حضرَ الحكمَ بنَ عبدِ الملكِ حينَ جاءَهُ الحقُّ ، فقلتُ : اللهمَّ ؛ هوِّنْ عليهِ سكراتِ الموتِ ؛ فإنَّهُ كانَ

---

(١) ديوانه (ص١٣٩) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٤٠) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٥٠٧) .
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٤١) .

وكانَ . . فذكرتُ محاسنَهُ ، فأفاقَ فقالَ : مَنِ المتكلمُ ؟ فقلتُ : أنا ، فقالَ : إنَّ ملكَ الموتِ عليهِ السَّلامُ يقولُ لي : إني بكلِّ سخيٍّ رفيقٌ ، ثمَّ طُفِئ(١) .

ولمَّا حضرَتْ يوسفَ بنَ أسباطٍ الوفاةُ شهدَهُ حذيفةُ فوجدَهُ قلقاً ، فقالَ : يا أبا محمدٍ ؛ هـٰذا أوانُ القلقِ والجزعِ ؟! فقالَ : يا أبا عبدِ اللهِ ؛ وكيفَ لا أقلقُ ولا أجزعُ وإني لا أعلمُ أنِّي صدقتُ اللهَ تعالىٰ في شيءٍ مِنْ عملي ، فقالَ حذيفةُ : وا عجباهُ لهـٰذا الرجلِ الصالحِ ! يحلفُ عندَ موتِهِ أنَّهُ لا يعلمُ أنَّهُ صدقَ اللهَ تعالىٰ في شيءٍ مِنْ عملِهِ(٢) .

وعَنِ المغازليِّ قالَ : دخلتُ علىٰ شيخٍ لي مِنْ أصحابِ هـٰذهِ القصةِ وهوَ عليلٌ ، وهوَ يقولُ : يمكنُكَ أنْ تعملَ ما تريدُ فارفقْ بي(٣) .

ودخلَ بعضُ المشايخِ علىٰ ممشاذَ الدينوريِّ في وقتِ وفاتِهِ فقالَ لهُ : فعلَ اللهُ تعالىٰ وصنعَ مِنْ بابِ الدعاءِ ، فضحكَ ثمَّ قالَ : منذُ ثلاثينَ سنةً تُعرضُ عليَّ الجنَّةُ بما فيها فما أعرتُها طرفي(٤) .

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٤١) ، وفي « الإتحاف » (١٠/٣٤٣) : (الحكم بن المطلب) وهو موافق لما في « مكارم الأخلاق » (٤٨٢) ، و« المؤتلف والمختلف » (٢/٦٧٥) .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٤١) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٤٢) .

(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٤٢) .

وقيلَ لرويمٍ عندَ الموتِ : قلْ : لا إلـهَ إلاَّ اللهُ ، فقالَ : لا أحسنُ غيرَهُ[1] .

ولمَّا حضرَتِ النُّوريَّ الوفاةُ . . قيلَ لهُ : قلْ : لا إلـهَ إلاَّ اللهُ ، فقالَ : أليسَ ثَمَّ أمرٌ ؟![2] .

ودخلَ المزنيُّ على الشافعيِّ رحمَهُ اللهُ في مرضِهِ الذي تُوفيَ فيهِ ، فقالَ لهُ : كيفَ أصبحتَ يا أبا عبدِ اللهِ ؟ فقالَ : أصبحتُ مِنَ الدنيا راحلاً ، وللإخوانِ مفارقاً ، ولسوءِ عملي ملاقياً ، وبكأسِ المنيَّةِ شارباً ، وعلى اللهِ تعالىٰ وارداً ، ولا أدري أروحي تصيرُ إلى الجنَّةِ فأهنيَها ، أم إلى النَّارِ فأعزيَها ؟ ثمَّ أنشأَ يقولُ[3] : [من الطويل]

وَلمّا قَسا قَلْبي وَضاقَتْ مَذاهِبي ... جَعَلْتُ رَجائِي نَحْوَ عَفوِكَ سُلَّما
تَعاظَمَنِي ذَنْبِي فَلَمّا قَرَنْتُهُ ... بِعَفْوِكَ رَبِّي كانَ عَفْوُكَ أَعْظَما
فَما زِلْتَ ذا عَفْوٍ عَنِ ٱلذَّنْبِ لَمْ تزَلْ ... تَجُودُ وَتَعْفُو مِنَّةً وَتَكَرُّما
وَلَوْلاكَ لَمْ يُغوَ بِإِبْلِيسَ عابِدٌ ... فَكَيْفَ وَقَدْ أَغْوَىٰ صَفِيَّكَ آدَما

ولمَّا حضرَتْ أحمدَ بنَ خضرويهِ الوفاةُ . . سُئلَ عَنْ مسألةٍ ، فدمعَتْ عيناهُ وقالَ : يا بنيَّ ؛ بابٌ كنتُ أدقُّهُ خمساً وتسعينَ سنةً هو ذا يُفتحُ لي

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٤٢٨) .
(٢) أورده القشيري في « الرسالة » (ص٥٠٤) .
(٣) ديوانه (ص١١٩) .

الساعةَ ، لا أدري أيُفتحُ بالسعادةِ أو بالشقاوةِ ، فأنَّىٰ لي أوانُ الجوابِ ؟! [1] .

فهٰذهِ أقاويلُهُم ، وإنَّما اختلفَتْ بحسبِ اختلافِ أحوالِهِمْ ، فغلبَ علىٰ بعضِهِمُ الخوفُ ، وعلىٰ بعضِهِمُ الرجاءُ ، وعلىٰ بعضِهِمُ الشوقُ والحبُّ ، فتكلَّمَ كلٌّ واحدٍ علىٰ مقتضىٰ حالِهِ ، والكلُّ صحيحٌ بالإضافةِ إلىٰ أحوالِهِمْ .

* * *

---

(1) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١٠/ ٤٢) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٧١ ـ ٧٢) .

البَابُ السَّادِسُ
في أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر وحكم زيارة القبور

اعلمْ : أنَّ الجنازةَ عبرةٌ للبصيرِ ، وفيها تنبيهٌ وتذكيرٌ ، إلاَّ لأهلِ الغفلةِ ؛ فإنَّها لا تزيدُهم مشاهدتُها إلاَّ قساوةً ؛ لأنَّهم يظنُّونَ أنَّهم أبداً إلىٰ جنازةِ غيرِهم ينظرونَ ، ولا يحسبونَ أنَّهم لا محالةَ على الجنائزِ يُحملونَ ، أو يحسبونَ ذلكَ ولكنَّهم على القربِ لا يقدِّرونَ[1] ، ولا يتفكَّرونَ أنَّ المحمولينَ على الجنائزِ كلَّهم هٰكذا كانوا يحسبونَ ، فبطلَ حسبانُهُم ، وانقرضَ على القربِ زمانُهُمْ ، فلا ينظرُ عبدٌ إلىٰ جنازةٍ إلاَّ ويقدِّرُ نفسَهُ محمولاً عليها ، فإنَّهُ محمولٌ عليها على القربِ وكأنْ قدِ ، ولعلهُ في غدٍ أو بعدَ غدٍ .

فيُروىٰ عنْ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ كانَ إذا رأىٰ جنازةً.. قالَ : (امضوا ؛ فإنَّا على الأثرِ)[2] .

وكانَ مكحولٌ الدمشقيُّ إذا رأىٰ جنازةً.. قالَ : اغدوا ؛ فإنَّا رائحونَ ، موعظةٌ بليغةٌ وغفلةٌ سريعةٌ ، يذهبُ الأولُ والآخرُ لا عقلَ لهُ[3] .

---

(١) أي : لا يقدرونَ الموت علىٰ أنفسهم قريباً . « إتحاف » (١٠/٣٤٨) .
(٢) رواه ابن سعد في « الطبقات » (٥/ ٢٥٥) ، وهناد بن السري في « الزهد » (٥٠٧) .
(٣) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٣٨٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وقالَ أسيدُ بنُ حضيرٍ : ما شهدتُ جنازةً فحدَّثتُ نفسي بشيءٍ سوىٰ ما هوَ مفعولٌ بهِ ، وما هوَ صائرٌ إليهِ[1] .

ولمَّا ماتَ أخو مالكِ بنِ دينارٍ . . خرجَ مالكٌ في جنازتِهِ يبكي ويقولُ : واللهِ ؛ لا تقرُّ عيني حتىٰ أعلمَ إلىٰ ماذا صرتَ ، ولا أعلمُ ما دمتُ حيّاً[2] .

وقالَ الأعمشُ : كنَّا نشهدُ الجنائزَ فلا ندري مَنْ نعزي ؛ لحزنِ الجميعِ[3] .

وقالَ ثابتٌ البنانيُّ : كنَّا نشهدُ الجنائزَ فلا نرىٰ إلاَّ متقنعاً باكياً[4] .

فهكذا كانَ خوفُهم مِنَ الموتِ ، والآنَ لا ننظرُ إلىٰ جماعةٍ يحضرونَ جنازةً إلاَّ وأكثرُهُم يضحكونَ ويلهونَ ، ولا يتكلَّمونَ إلاَّ في ميراثِهِ وما خلَّفَهُ لورثتِهِ ، ولا يتفكَّرُ أقرانُهُ وأقاربُهُ إلاَّ في الحيلةِ التي بها يتناولُ بعضَ ما خلَّفَهُ ، ولا يتفكَّرُ واحدٌ منهم ـ إلاَّ ما شاءَ اللهُ ـ في جنازةِ نفسِهِ ، وفي حالِهِ إذا حُمِلَ عليها ، ولا سببَ لهٰذهِ الغفلةِ إلاَّ قسوةُ القلوبِ بكثرةِ المعاصي والذنوبِ ، حتىٰ نسينا اللهَ تعالىٰ واليومَ الآخرَ والأهوالَ التي بينَ

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٤/ ٣٥٢) ، والحاكم في « المستدرك » (٣/ ٢٨٨) ، وابن المبارك في « الزهد » (٢٤٣) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « القبور » . « إتحاف » (١٠/ ٣٤٩) .

(٣) رواه أحمد في « الزهد » (٢١٢٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٥٠) .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٣٢٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٨٨٣٤) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٨٤١) .

أيدينا ، فصرنا نلهو ونغفلُ ونشتغلُ بما لا يعنينا ، فنسألُ اللهَ تعالى اليقظةَ مِنْ هٰذهِ الغفلةِ ؛ فإنَّ أحسنَ أحوالِ الحاضرينَ على الجنائزِ بكاؤُهم على الميتِ ، ولوْ عقلوا . . لبكوا علىٰ أنفسِهِم لا على الميتِ .

نظرَ إبراهيمُ الزياتُ إلىٰ أناسٍ يترحَّمونَ على الميتِ فقالَ : لو ترحَّمونَ علىٰ أنفسِكُمْ . . لكانَ خيراً لكم ؛ إنَّهُ نجا مِنْ أهوالٍ ثلاثةٍ : وجهُ ملكِ الموتِ وقدْ رأىٰ ، ومرارةُ الموتِ وقدْ ذاقَ ، وخوفُ الخاتمةِ وقدْ أمنَ[1] .

وقالَ أبو عمرِو بنُ العلاءِ : جَلستُ إلىٰ جريرٍ وهو يملي علىٰ كاتبهِ شعراً ، فاطلعَتْ جنازةٌ فأمسَكَ وقالَ : شيَّبَتْني واللهِ هٰذهِ الجنائزُ ، وأنشأَ يقولُ[2] : [من الوافر]

تُـرَوِّعُنـا ٱلْجَنـائِـزُ مُقْبِـلاتٍ ... وَنَلْهُـو حِيـنَ تَـذْهَـبُ مُـدْبِراتِ

كَـرَوْعَـةِ ثُلَّـةٍ لِمَغـارِ ذِئْـبٍ[3] ... فَلَمّـا غـابَ عـادَتْ راتِعـاتِ

فمِنْ آدابِ حضورِ الجنائزِ : التفكُّرُ والتنبُّهُ والاستعدادُ ، والمشيُ أمامَها علىٰ هيئةِ التواضعِ كما ذكرنا آدابَهُ وسننَهُ في فنِّ الفقهِ .

ومِنْ آدابِهِ : حسنُ الظنِّ بالميتِ وإنْ كانَ فاسقاً ، وإساءةُ الظنِّ بالنفسِ وإنْ كانَ ظاهرُها الصلاحَ ؛ فإنَّ الخاتمةَ مخطرةٌ لا تُدرىٰ حقيقتُها ، ولذلكَ

---

(١) حكاه الحافظ عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (ص١١٦) .

(٢) ديوانه (٢/ ١٠٢٤) ، كما نسبت إلىٰ عروة بن أذينة في « ديوانه » (ص ٣٠٩) .

(٣) ثلة : جماعة الغنم ، المغار : الإغارة .

رُوِيَ عَنْ عمرَ بنِ ذرٍّ : أَنَّهُ ماتَ واحدٌ مِنْ جيرانِهِ وكانَ مسرفاً علىٰ نفسِهِ ، فتجافىٰ كثيرٌ مِنَ الناسِ عنْ جنازتِهِ ، فحضرَها هوَ وصلَّىٰ عليها ، فلمَّا دُلِّيَ في قبرِهِ.. وقفَ علىٰ قبرِهِ وقالَ : يرحمُكَ اللهُ يا أبا فلانٍ ؛ فلقدْ صحبتَ عمرَكَ بالتوحيدِ ، وعفرتَ وجهَكَ بالسجودِ وإنْ قالوا : مذنبٌ وذو خطايا ؛ فمَنْ منَّا غيرُ مذنبٍ وغيرُ ذي خطايا ؟!(١) .

ويُحكىٰ أنَّ رجلاً مِنَ المنهمكينَ في الفسادِ ماتَ في بعضِ نواحي البصرةِ ، فلمْ تجدِ امرأتُهُ مَنْ يعينُها علىٰ حملِ جنازتِهِ ؛ إذْ لمْ يدْرِ بها أحدٌ مِنْ جيرانِهِ لكثرةِ فسقِهِ ، فاستأجرَتْ حمَّالينَ وحملَتْها إلى المصلَّىٰ ، فما صلىٰ عليه أحدٌ ، فحملَتْها إلى الصحراءِ للدفنِ ، فكانَ علىٰ جبلٍ قريبٍ مِنَ الموضعِ زاهدٌ مِنَ الزهادِ الكبارِ ، فرأتْهُ كالمنتظرِ للجنازةِ ، فقصدَ أنْ يصليَ عليها ، فانتشرَ الخبرُ في البلدِ بأنَّ الزاهدَ قدْ نزلَ ليصليَ علىٰ فلانٍ ، فخرجَ أهلُ البلدِ فصلَّى الزاهدُ وصلَّوا عليهِ ، وتعجَّبَ الناسُ مِنْ صلاةِ الزاهدِ عليهِ ، فقالَ : قيلَ لي في المنامِ : انزلْ إلىٰ موضعِ فلانٍ ترىٰ فيهِ جنازةً ليسَ معَها إلاّ امرأةٌ ، فصلِّ عليهِ ، فإنَّهُ مغفورٌ لهُ ، فزادَ تعجُّبُ الناسِ ، فاستدعى الزاهدُ امرأتَهُ وسألَها عنْ حالِهِ ، وأنَّهُ كيفَ كانَتْ سيرتُهُ ، قالَتْ : كما عُرفَ ، كانَ طولَ نهارِهِ في الماخورِ مشغولاً بشربِ الخمرِ(٢) ، فقالَ : انظري ، هلْ تعرفينَ مِنهُ شيئاً مِنْ أعمالِ الخيرِ ؟ قالَتْ : نعم ، ثلاثةَ أشياءَ :

---

(١) حكاه الحافظ عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (ص١٦٢) .
(٢) **الماخور** : بيت الخمر .

كانَ كلَّ يومٍ يفيقُ مِنْ سكرِهِ وقتَ الصبحِ فيبدِّلُ ثيابَهُ ويتوضأُ ويصلي الصبحَ في جماعةٍ ، ثمَّ يعودُ إلى الماخورِ ويشتغلُ بالفسقِ ، **والثانيةُ** : أنَّهُ كانَ أبداً لا يخلو بيتُهُ عَنْ يتيمٍ أو يتيمينِ ، وكانَ إحسانُهُ إليهم أكثرَ مِنْ إحسانِهِ إلىٰ أولادِهِ ، وكانَ شديدَ التفقُّدِ لهُمْ ، **والثالثةُ** : أنَّهُ كانَ يفيقُ في أثناءِ سكرِهِ في ظلامِ الليلِ فيبكي ويقولُ : يا ربِّ ؛ أيَّ زاويةٍ مِنْ زوايا جهنَّمَ تريدُ أنْ تملأَها بهٰذا الخبيثِ ؟! يعني نفسَهُ ، فانصرفَ الزاهدُ وقدِ ارتفعَ إشكالُهُ مِنْ أمرِهِ[1] .

وعَنْ صلةَ بنِ أشيمَ وقدْ دُفنَ أخٌ لهُ فقالَ علىٰ قبرِهِ[2] : [من الطويل]

فَإِنْ تَنْجُ مِنْها تَنْجُ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ ... وَإِلاَّ فَـإِنِّـي لا إِخـالُـكَ نـاجِيـا

* * *

(١) حكاها الحافظ عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (ص١٥٩ ـ ١٦٠) .

(٢) البيت في « طبقات فحول الشعراء » (١/ ١٨٢) للفرزدق ، وليس في « ديوانه » ، و« البيان والتبيين » (١/ ٣٦٧) للأسود بن سريع ، و« المحاسن والمساوىء » (ص٣٥٤) لذي الرمة ، وهو في « ديوانه » (٣/ ١٩٢٤) .

بيان حال القبر وأقاويلهم على القبور

قالَ الضحاكُ : قالَ رجلٌ : يا رسولَ اللهِ ؛ مَنْ أزهدُ النَّاسِ ؟ قالَ : « مَنْ لمْ ينسَ القبرَ والبلىٰ ، وتركَ فضلَ زينةِ الدنيا ، وآثرَ ما يبقىٰ علىٰ ما يفنىٰ ، ولمْ يعدَّ غداً من أيامِهِ ، وعدَّ نفسَهُ مِنْ أهلِ القبورِ »[١] .

وقيلَ لعليٍّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ : ما شأنُك جاورتَ المقبرةَ ؟ قالَ : (إنِّي أجدُهم خيرَ جيرانٍ ، إنِّي أجدُهم جيرانَ صدقٍ ؛ يكفُّونَ الألسنةَ ، ويُذكِّرونَ الآخرةَ)[٢] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما رأيتُ منظراً إلاَّ والقبرُ أفظعُ منهُ »[٣] .

وقالَ عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ : خرجنا معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلى المقابرِ ، فجلسَ إلىٰ قبرٍ وكنتُ أدنى القومِ منهُ ، فبكىٰ وبكيتُ وبكَوا ، فقالَ : « ما يبكيكُمْ ؟ » قلنا : بكينا لبكائِكَ ، قالَ : « هـٰذا قبرُ أمي آمنةَ بنتِ وهبٍ ، استأذنتُ ربِّي في زيارتِها فأذنَ لي ، فاستأذنتُهُ في

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (١٠٠٨١) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٤٥٩) .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٨٨٧١) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٦٥٥) وفيه : (السيئة) بدل (الألسنة) .

(٣) رواه الترمذي (٢٣٠٨) ، وابن ماجه (٤٢٦٧) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/٣٣١) .

أنَ أستغفرَ لها فأبىٰ عليَّ ، فأدركَني ما يدركُ الولدَ مِنَ الرِّقةِ »[1] .

وكانَ عثمانُ بنُ عفانَ رضيَ اللهُ عنهُ إذا وقفَ علىٰ قبرٍ . . بكىٰ حتىٰ يبلَّ لحيتَهُ ، فسُئلَ عَنْ ذلكَ وقيلَ لهُ : تذكرُ الجنَّةَ والنَّارَ فلا تبكي ، وتبكي إذا وقفتَ علىٰ قبرٍ ؟! فقالَ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « إنَّ القبرَ أولُ منازلِ الآخرةِ ، فإنْ نجا منهُ صاحبُهُ . . فما بعدَهُ أيسرُ منهُ ، وإنْ لمْ ينجُ منهُ . . فما بعدَهُ أشدُّ »[2] .

وقيلَ : إنَّ عمرَو بنَ العاصِ نظرَ إلى المقبرةِ ، فنزلَ وصلَّىٰ ركعتينِ ، فقيلَ لهُ : هـٰذا شيءٌ لم تكنْ تصنعُهُ ؟ فقالَ : (ذكرتُ أهلَ القبورِ وما حِيلَ بينَهم وبينَهُ ، فأحببتُ أنْ أتقربَ إلى اللهِ تعالىٰ بهما)[3] .

وقالَ مجاهدٌ : أولُ ما يكلمُ ابنَ آدمَ حفرتُهُ فتقولُ : أنا بيتُ الدودِ ، وبيتُ الوحدةِ ، وبيتُ الغربةِ ، وبيتُ الظلمةِ ، هـٰذا ما أعددتُ لكَ ، فما أعددتَ لي ؟![4] .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ٣٥٥) بنحو لفظ المصنف من حديث بريدة رضي الله عنه ، وهو مختصر عند مسلم (٩٧٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وقد ألف العلماء الكثير من المصنفات في تحقيق نجاة الأبوين الكريمين ، ونجاة آباء المصطفىٰ صلى الله عليه وآله وسلم الكرام ، الذين ماتوا في فترة الجاهلية ولم تبلغهم الدعوة ، وأثبتوا أنهم من أهل الجنة ، وأقاموا علىٰ ذلك الأدلة الناصعة والبراهين الساطعة . فلتراجع .

(٢) رواه الترمذي (٢٣٠٨) ، وابن ماجه (٤٢٦٧) .

(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٣٠) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص .

(٤) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٢/ ٤٩٦) عن علي رضي الله عنه من طريق =

وقالَ أبو ذرٍّ : (ألا أخبرُكم بيومِ فقري ؟ يومَ أُوضعُ في قبري)[1] .

وكانَ أبو الدرداءِ يجلسُ إلى القبورِ ، فقيلَ لهُ في ذلكَ فقالَ : (أجلسُ إلىٰ قومٍ يذكِّروني معادي ، وإن قمتُ . . لم يغتابوني)[2] .

وكانَ جعفرُ بنُ محمدٍ يأتي القبورَ ليلاً ويقولُ : يا أهلَ القبورِ ؛ ما لي إذا دعوتُكم لا تجيبوني ؟! ثمَّ يقولُ : حِيلَ واللهِ بينَهم وبينَ جوابي ، وكأنِّي بي أكونُ مثلَهُم ، ثمَّ يستقبلُ الصلاةَ إلىٰ طلوعِ الفجرِ[3] .

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمةُ اللهِ عليهِ لبعضِ جلسائِهِ : يا فلانُ ؛ لقدْ أرقتُ الليلةَ تفكراً في القبرِ وساكنِهِ ، إنَّكَ لوْ رأيتَ الميتَ بعدَ ثلاثةٍ في قبرِهِ . . لاستوحشتَ مِنْ قربِهِ بعدَ طولِ الأنسِ منكَ بهِ ، ولرأيتَ بيتاً تجولُ فيه الهوامُّ ، ويجري فيهِ الصديدُ ، وتخترقُهُ الديدانُ ، معَ تغيرِ الريحِ وبلى الأكفانِ بعدَ حسنِ الهيئةِ وطيبِ الريحِ ونقاءِ الثوبِ ، قالَ : ثمَّ شهقَ شهقةً خرَّ مغشيّاً عليهِ[4] .

وكانَ يزيدُ الرقاشيُّ يقولُ : أيُّها المقبورُ في حفرتِهِ ، والمتخلي في القبرِ

= مجاهد ، وقد رواه الترمذي (٢٤٦٠) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعاً بنحوه .

(١) حكاه الحافظ عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (ص١٩٠) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « القبور » . « إتحاف » (١٠/ ٣٥٣) .

(٣) حكاه الحافظ عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (ص١٩٠) .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٢٦٨) .

بوحدتِهِ ، المستأنسُ في بطنِ الأرضِ بأعمالِهِ ؛ ليتَ شعري ! بأيِّ أعمالِكَ استبشرتَ ؟! وبأيِّ إخوانِكَ اغتبطتَ ؟! ثمَّ يبكي حتىٰ يبلَّ عمامتَهُ ، ثمَّ يقولُ : استبشرَ واللهِ بأعمالِهِ الصالحةِ ، واغتبطَ واللهِ بإخوانِهِ المتعاونينَ علىٰ طاعةِ اللهِ تعالىٰ ، وكانَ إذا نظرَ إلى القبورِ . . خارَ كما يخورُ الثورُ[1] .

وقالَ حاتمٌ الأصمُّ : مَنْ مرَّ بالمقابرِ فلم يتفكَّرْ لنفسِهِ ولم يدعُ لهم . . فقدْ خانَ نفسَهُ وخانَهُم[2] .

وكانَ بكرٌ العابدُ يقولُ : يا أمَّاهُ ؛ ليتَكِ كنتِ بي عقيماً ! إنَّ لابنِكِ في القبرِ حبساً طويلاً ، ومِنْ بعدِ ذلكَ منهُ رحيلاً[2] .

وقالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ : يا بنَ آدمَ ؛ دعاكَ ربُّكَ إلىٰ دارِ السَّلامِ فانظرْ مِنْ أينَ تجيبُهُ ، إنْ أجبتَهُ مِنْ دنياكَ واشتغلتَ بالرحلةِ إليه . . دخلتَها ، وإنْ أجبتَهُ مِنْ قبركَ . . مُنعتَها[2] .

وكانَ الحسنُ بنُ صالحٍ إذا أشرفَ على المقابرِ . . يقولُ : ما أحسنَ ظواهرَكِ ! إنَّما الدواهي في بواطنِكِ[2] .

وكانَ عطاءٌ السلميُّ إذا جنَّ عليهِ الليلُ . . خرجَ إلى المقبرةِ فوقفَ ثمَّ يقولُ : يا أهلَ القبورِ ؛ متُّم فيا موتاهُ ! وعاينتُم أعمالَكُم فوا عملاهُ ! ثمَّ

---

(١) حكاه الحافظ عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (ص١٩٤ ـ ١٩٥) .
(٢) حكاه الحافظ عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (ص١٩٥) .

يقولُ : غداً عطاءٌ في القبرِ ؛ غداً عطاءٌ في القبرِ ، فلا يزالُ ذلكَ دأبَهُ حتىٰ يصبحَ[1] .

وقالَ سفيانُ : مَنْ أكثرَ ذكرَ القبرِ . . وجدَهُ روضةً مِنْ رياضِ الجنَّةِ ، ومَنْ غفلَ عنْ ذكرِهِ . . وجدَهُ حفرةً منْ حفرِ النَّارِ[2] .

وكانَ الربيعُ بنُ خيثمٍ قدْ حفرَ في دارِهِ قبراً ، فكانَ إذا وجدَ في قلبهِ قساوةً . . دخلَ فيهِ فاضطجعَ ومكثَ ما شاءَ اللهُ ، ثمَّ يقولُ : ﴿ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ يردِّدُها ، ثمَّ يردُّ علىٰ نفسِهِ : يا ربيعُ : قدْ رجعتُكَ فاعملْ[3] .

وقالَ أحمدُ بنُ حربٍ : تتعجَّبُ الأرضُ مِنْ رجلٍ يمهِّدُ مضجعَهُ ويسوي فراشَهُ للنَّومِ فتقولُ : يا بنَ آدمَ ؛ لمَ لا تذكرُ طولَ بلاكَ وما بيني وبينَكَ شيءٌ ؟ ![4] .

وقالَ ميمونُ بنُ مهرانَ خرجتُ معَ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ إلى المقبرةِ ، فلمَّا نظرَ إلى القبورِ . . بكىٰ ، ثمَّ أقبلَ عليَّ فقالَ : يا ميمونُ ؛ هـٰذهِ قبورُ آبائي بني أميَّةَ ، كأنَّهمْ لمْ يشاركوا أهلَ الدنيا في لذاتِهمْ وعيشِهِمْ ، أما تراهم صرعىٰ قدْ حلَّتْ بهمُ المثُلاتُ ، واستحكمَ فيهمُ البلىٰ ، وأصابَتِ الهوامُّ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/٢٢٣) .
(٢) حكاه الحافظ عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (ص١٩٥ ـ ١٩٦) .
(٣) رواه البلاذري في « أنساب الأشراف » (١١/٣١١) .
(٤) حكاه الحافظ عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (ص١٩٦) .

مقيلاً في أبدانِهم ؟! ثمَّ بكىٰ وقالَ : واللهِ ؛ ما أعلم أحداً أنعمَ ممَّن صارَ إلىٰ هـٰذهِ القبورِ وقدْ أمنَ مِنْ عذابِ اللهِ[1] .

وقالَ ثابتٌ البنانيُّ : دخلتُ المقابرَ ، فلمَّا قصدتُ الخروجَ منها ؛ فإذا بصوتِ قائلٍ يقولُ : يا ثابتُ ؛ لا يغرَّنَّكَ صموتُ أهلِها ، فكمْ مِنْ نفسٍ مغمومةٍ فيها[2] .

ويُروىٰ أنَّ فاطمةَ بنتَ الحسينِ نظرَتْ إلىٰ جنازةِ زوجِها الحسنِ بنِ الحسنِ ، فغطَّتْ وجهَها وقالَتْ[3] : [من الطويل]

وَكـانُـوا رَجـاءً ثُـمَّ أَمْسَـوْا رَزِيَّـةً ... لَقَدْ عَظُمَتْ تِلْكَ ٱلرَّزايا وَجَلَّتِ

وقيلَ : إنَّها ضربَتْ علىٰ قبرِهِ فسطاطاً واعتكفَتْ عليهِ سنةً ، فلمَّا مضتِ السَّنةُ . . قلعوا الفسطاطَ ودخلَتِ المدينةَ ، فسمعُوا صوتاً مِنْ جانبِ البقيعِ : هلْ وجدُوا ما فقدُوا ؟ فسمعُوا مِنَ الجانبِ الآخرِ : بل يئسُوا فانقلبُوا[4] .

وقالَ أبو موسى التميميُّ : تُوفيَتِ امرأةُ الفرزدقِ ، فخرجَ في جنازتِها وجوهُ البصرةِ وفيهِمُ الحسنُ ، فقالَ لهُ الحسنُ : يا أبا فراسٍ ؛ ماذا أعددتَ لهـٰذا اليومِ ؟ فقالَ : شهادةُ أنْ لا إلـٰهَ إلاَّ اللهُ منذُ ستينَ سنةً ، فلمَّا دُفنَتْ . .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/٢٦٩) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤٥/٢٣٢) .

(٢) حكاه الحافظ عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (ص١٩٩) .

(٣) البيت لسليمان بن قتة . انظر « التعازي والمراثي » (ص ٧٩) .

(٤) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٧٠/١٩ ـ ٢٠) .

أقامَ الفرزدقُ علىٰ قبرِها فقالَ[1] : [من الطويل]

أَخافُ وَراءَ ٱلْقَبْرِ إِنْ لَمْ تُعافِنِي ... أَشَدَّ مِنَ ٱلْقَبْرِ ٱلْتِهاباً وَأَضْيَقا
إِذَا جاءَنِي يَوْمَ ٱلْقِيامَةِ قائِدٌ ... عَنِيفٌ وَسَوّاقٌ يَسُوقُ ٱلْفَرَزْدَقا
لَقَدْ خابَ مِنْ أَوْلادِ آدَمَ مَنْ مَشَى ... إِلَى ٱلنّارِ مَغْلُولَ ٱلْقِلادَةِ أَزْرَقا

وقدْ أنشدوا في أهلِ القبورِ[2] : [من الكامل]

قِفْ بِٱلْقُبُورِ وَقُلْ عَلَىٰ ساحاتِها ... مَنْ مِنْكُمُ ٱلْمَغْمُومُ فِي ظُلُماتِها
وَمَنِ ٱلْمُكَرَّمُ مِنْكُمُ فِي قَعْرِها ... قَدْ ذاقَ بَرْدَ ٱلأَمْنِ مِنْ رَوْعاتِها
أَمّا ٱلسُّكُونُ لِذِي ٱلْعُيُونِ فَواحِدٌ ... لا يَسْتَبِينُ ٱلْفَضْلُ فِي دَرَجاتِها
لَوْ جاوَبُوكَ لأَخْبَرُوكَ بِأَلْسُنٍ ... تَصِفُ ٱلْحَقائِقَ بَعْدُ مِنْ حالاتِها
أَمّا ٱلْمُطِيعُ فَنازِلٌ فِي رَوْضَةٍ ... يُفْضِي إِلَىٰ ما شاءَ مِنْ راحاتِها
وَٱلْمُجْرِمُ الطّاغِي بِها مُتَقَلِّبٌ ... فِي حُفْرَةٍ يَأْوِي إِلَىٰ حَيّاتِها
وَعَقارِبٌ تَسْعَىٰ إِلَيْهِ فَرُوحُهُ ... فِي شِدَّةِ التَّعْذِيبِ مِنْ لَدَغاتِها

ومرَّ داوودُ الطائيُّ على امرأةٍ تبكي علىٰ قبرٍ وهيَ تقولُ : [من المتقارب]

عَدِمْتُ ٱلْحَياةَ وَلا نِلْتُها ... إِذا أَنْتَ فِي ٱلْقَبْرِ قَدْ أَلْحَدُوكا
فَكَيْفَ أَذُوقُ لَذِيذَ ٱلْكَرَى ... وَأَنْتَ بِيُمْناكَ قَدْ وَسَّدُوكا

---

(١) ديوانه (٢/ ٩٠) .
(٢) انظر « بستان الواعظين » (ص٢٧٥) .

ثمَّ قالَتْ : يا أبتاهُ[1] ؛ ليتَ شعري ! بأيِّ خدَّيكَ بدأَ الدُّودُ ؟! فصَعقَ داوودُ مكانَهُ وخرَّ مغشيّاً عليهِ[2] .

وقالَ مالكُ بنُ دينارٍ : مررتُ بالمقبرةِ فانشأتُ أقولُ : [من المتقارب]

أَتَيْتُ ٱلْقُبُورَ فَنَادَيْتُهَا … فَأَيْنَ ٱلْمُعَظَّمُ وَٱلْمُحْتَقَرْ

وَأَيْنَ ٱلْمُدِلُّ بِسُلْطَانِهِ … وَأَيْنَ ٱلْمُزَكِّي إِذا ما افْتَخَرْ

قالَ : فنُوديتُ مِنْ بينِهم أسمعُ صوتاً ولا أرىٰ شخصاً وهوَ يقولُ : [من المتقارب]

تَفَانَوا جَمِيعاً فَما مُخْبِرٌ … وَماتُوا جَمِيعاً وَماتَ ٱلْخَبَرْ

وَسارُوا إِلَىٰ مالِكٍ قاهِرٍ … عَزِيزٍ مُطاعٍ إِذا ما أَمَرْ

لَقَدْ قلَّدَ ٱلْقَوْمَ أَعْمالَهُمْ … فَإِمّا نَعِيمٌ وَإِمّا سَقَرْ

تَرُوحُ وَتَغْدُوا بَناتُ ٱلثَّرَى … فَتَمْحُو مَحاسِنَ تِلْكَ ٱلصُّوَرْ

فَيا سائِلِي عَنْ أُناسٍ مَضَوْا … أَما لَكَ فِيما تَرَىٰ مُعْتَبَرْ

قالَ : فرجعتُ وأنا باكٍ[3] .

---

(١) في (ب ، ج) : (ابناه) .

(٢) انظر « عيون الأخبار » (٢/٣٠٢) ، والخبر حكاه الحافظ عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (ص١٩٥) ، وأورد القشيري في « الرسالة » (ص٥٩) : أن سبب زهده أنه سمع نائحة تنوح وتقول :

بأي خدَّيك تبدى البلى … وأي عينيك إذاً سالا

(٣) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (٥٨٨) ، وانظر « عيون الأخبار » (٢/٣٠٢_٣٠٣) .

أبيات وجدت مكتوبة على القبور

وُجدَ مكتوباً علىٰ قبرٍ[1] : [من الطويل]

تُناجِيكَ أَجْداثٌ وَهُنَّ سُكوتُ ... وَسُكَّانُها تَحْتَ ٱلتُّرابِ خُفُوتُ

أَيا جامِعَ الدُّنْيا لِغَيْرِ بَلاغِهِ ... لِمَنْ تَجْمَعُ ٱلدُّنْيا وَأَنْتَ تَمُوتُ

ووُجدَ مكتوباً علىٰ قبرٍ آخرَ[2] : [من الطويل]

أَبا غانِمٍ أَمَّا ذُراكَ فَواسِعٌ ... وَقَبْرُكَ مَعْمُورُ ٱلْجَوانِبِ مُحْكَمُ

وَما يَنْفَعُ ٱلْمَقْبُورَ عُمْرانُ قَبْرِهِ ... إِذا كانَ فِيهِ جِسْمُهُ يَتَهَدَّمُ

وقالَ ابنُ السماكِ : مررتُ بالمقابرِ ؛ فإذا علىٰ قبرٍ مكتوبٌ[3] : [من الوافر]

يَمُرُّ أَقارِبِي جَنَباتِ قَبْرِي ... كَأَنَّ أَقارِبِي لَمْ يَعْرِفُونِي

ذَوُو ٱلْمِيراثِ يَقْتَسِمُونَ مالِي ... وَما يَأْلُونَ أَنْ جَحَدُوا دُيُونِي

وَقَدْ أَخَذُوا سِهامَهُمُ وَعاشُوا ... فَيا للهِ أَسْرَعَ ما نَسُونِي

وَوُجدَ علىٰ قبرٍ مكتوباً[4] : [من البسيط]

إِنَّ ٱلْحَبِيبَ مِنَ ٱلأَحْبابِ مُخْتَلَسٌ ... لا يَمنَعُ ٱلْمَوْتَ بَوَّابٌ وَلا حَرَسُ

---

(١) أوردها الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (٩١٤) .

(٢) البيتان لأبي العتاهية في « ديوانه » (ص ٦٣٥) .

(٣) ذكرها ابن أبي الدنيا في « القبور » . « إتحاف » (١٠/٣٥٦) .

(٤) ذكرها ابن أبي الدنيا في « القبور » . « إتحاف » (١٠/٣٥٦ـ٣٥٧) .

فَكَيْفَ تَفْرَحُ بِالدُّنْيا وَلَذَّتِها		يا مَنْ يُعَدُّ عَلَيْهِ اللَّفْظُ وَالنَّفَسُ
أَصْبَحْتَ يا غافِلاً فِي النَّقْصِ مُنْغَمِساً		وَأَنْتَ دَهْرَكَ فِي اللَّذاتِ مُنْغَمِسُ
لا يَرْحَمُ الْمَوْتُ ذَا جَهْلٍ لِغِرَّتِهِ		وَلا الَّذِي كانَ مِنْهُ الْعِلْمُ يُقْتَبَسُ
كَمْ أَخْرَسَ الْمَوْتُ فِي قَبْرٍ وَقَفْتَ بِهِ		عَنِ الْجَوابِ لِساناً ما بِهِ خَرَسُ
قَدْ كانَ قَصْرُكَ مَعْمُوراً لَهُ شَرَفٌ		فَقَبْرُكَ الْيَوْمَ فِي الأَجْداثِ مُنْدَرِسُ

ووُجدَ علىٰ قبرٍ مكتوباً :		[من الطويل]

فَأَضْحَوْا رَمِيماً فِي التُّرابِ وَعُطِّلَتْ		مَجالِسُ مِنْهُمْ أَقْفَرَتْ وَمَقاصِرُ
وحَلُّوا بِدارٍ لا تَزاوُرَ بَيْنَهُمْ		وَكَيْفَ لِسُكّانِ الْقُبُورِ تَزاوُرُ
فَما إِنْ تَرَىٰ أَجْداثَهُمْ قَدْ تَوَوْا بِها		مُسَحَّطَةً تَسْفِي عَلَيْها الأَعاصِرُ
فَهُمْ فِي بُطُونِ الأَرْضِ بَعْدَ ظُهُورِها		مَحاسِنُهُمْ فِيها بَوالٍ دَواثِرُ

ووُجدَ علىٰ قبرٍ آخرَ مكتوباً[(١)] :		[من الوافر]

وَقَفْتُ عَلَى الأَحِبَّةِ حِينَ صُفَّتْ		قُبُورُهُمُ كَأَفْراسِ الرِّهانِ
فَلَمَّا أَنْ بَكَيْتُ وَفاضَ دَمْعِي		رَأَتْ عَيْناايَ بَيْنَهُمُ مَكانِي

ووُجدَ علىٰ قبرِ طبيبٍ مكتوباً[(٢)] :		[من السريع]

قَدْ قُلْتُ لَمَّا قالَ لِي قائِلٌ		قَدْ صارَ بُقْراطُ إِلَىٰ رَمْسِهِ

---

(١) ذكرها الحافظ عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (ص٢٠٥) .

(٢) الأبيات لمحمود الوراق في « ديوانه » (ص ١٣٦) ، والخبر أورده ابن أبي الدنيا في « القبور » . « إتحاف » (١٠/٣٥٧) .

فَـأَيْـنَ مـا يُـوصَـفُ مِـنْ طِبِّـهِ		وَحَـذْقِـهِ فِـي ٱلْمـاءِ مَـعَ جَسِّـهِ
هَيْهـاتَ لا يَـدْفَـعُ عَـنْ غَيْـرِهِ		مَـنْ كـانَ لا يَـدْفَـعُ عَـنْ نَفْسِـهِ

ووُجِدَ علىٰ قبرٍ آخرَ مكتوباً[1] :		[من المنسرح]

يـا أَيُّهـا ٱلنَّـاسُ كـانَ لِـي أَمَـلٌ		قَصَّـرَ بِـي عَـنْ بُلُـوغِـهِ ٱلأَجَـلُ
فَلْيَتَّـــقِ ٱللهَ رَبَّـــهُ رَجُــلٌ		أَمْكَنَـهُ فِـي حَيـاتِـهِ ٱلْعَمَـلُ
ما أَنا وَحْدِي نُقِلْتُ حَيْثُ تَرَى		كُــلٌّ إِلَــىٰ مِثْلِــهِ سَيَنْتَقِــلُ

فهٰذهِ أبياتٌ كُتِبَتْ على القبورِ ؛ لتقصيرِ سكَّانِها عنِ الاعتبارِ قبلَ الموتِ ، والبصيرُ : هوَ الذي ينظرُ إلىٰ قبرِ غيرِهِ فيرىٰ مكانَهُ بينَ أظهرِهم ، فيستعدُّ للحوقِ بهِمْ ، ويعلمُ أنَّهم لا يبرحونَ مِنْ مكانِهم ما لَمْ يلحقْ بهِمْ ، وليتحقَّقْ أنَّهُ لوْ عُرِضَ عليهِمْ يومٌ واحدٌ مِنْ أيامِ عمرِهِ الذي هوَ مضيِّعٌ لهُ . . لكانَ ذلكَ أحبَّ إليهِمْ مِنَ الدنيا بحذافيرِها ؛ لأَنَّهُمْ عرفوا قدرَ الأعمارِ[2] ، وانكشفَتْ لهُمْ حقائقُ الأمورِ ، فإنَّما حسرتُهُم على يومٍ مِنَ العمرِ ؛ ليتداركَ المقصِّرُ بهِ تقصيرَهُ فيتخلَّصَ مِنَ العقابِ ، وليستزيدَ الموفَّقُ بهِ رتبتَهُ فيتضاعفَ لهُ الثوابُ ؛ فإنَّهُمْ إنَّما عرفوا قدرَ العمرِ بعدَ انقطاعِهِ ، فحسرتُهُم علىٰ ساعةٍ مِنَ الحياةِ وأنتَ قادرٌ علىٰ تلكَ الساعةِ ، ولعلكَ تقدرُ علىٰ

---

(١) انظر « بهجة المجالس » (١/ ١٥٤) والخبر حكاه الحافظ عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (ص٢٠٥) . وانظر « وفيات الأعيان » (٥/ ١٧٣) .
(٢) في النسخ : (الأعمال) بدل (الأعمار) ، والمثبت من (ق) .

أمثالِها ، ثمَّ أنتَ مضيِّعٌ لها ، فوطِّنْ نفسَكَ على التحسُّرِ علىٰ تضييعِها عندَ خروجِ الأمرِ مِنَ الاختيارِ إنْ لمْ تأخذْ نصيبَكَ مِنْ ساعتِكَ علىٰ سبيلِ الابتدارِ ، فقدْ قالَ بعضُ الصالحينَ : رأيتُ أخاً لي في اللهِ فيما يرى النائمُ ، فقلتُ : يا فلانُ ؛ عشتَ ؟ الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ، قالَ : لأَنْ أقدرَ علىٰ أَنْ أقولَها ـ يعني : الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ ـ أحبُّ إليَّ مِنَ الدنيا وما فيها ، ثمَّ قال : ألمْ ترَ حيثُ كانوا يدفنوني ؟! فإنَّ فلاناً قدْ قامَ فصلَّىٰ ركعتينِ ؛ لأَنْ أكونَ أقدرُ علىٰ أَنْ أصليَهُما . . أحبُّ إليَّ مِنَ الدنيا وما فيها[1] .

* * *

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ١٧١) ، والبيهقي في « الشعب » (٨٨٦٥) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٥٧٣) .

بيان أقاويلهم عند موت الولد

حقٌّ علىٰ مَنْ ماتَ ولدُهُ أوْ قريبٌ مِنْ أقاربِهِ أنْ ينزلَهُ في تقدُّمِهِ عليهِ في الموتِ منزلةَ ما لوْ كانا في سفرٍ فسبقَهُ ولدُهُ إلى البلدِ الذي هوَ مستقرُّهُ ووطنُهُ ؛ فإنَّهُ لا يعظمُ عليهِ تأسُّفُهُ ، لعلمِهِ أنَّهُ لاحقٌ بهِ على القربِ وليسَ بينهُما إلاَّ تقدُّمٌ وتأخُّرٌ ، وهٰكذا الموتُ ؛ فإنَّ معناهُ السَّبقُ إلى الوطنِ إلىٰ أنْ يلحقَ المتأخِّرُ ، وإذا اعتقدَ هٰذا . . قلَّ جزعُهُ وحزنُهُ ، لا سيَّما وقدْ وردَ في موتِ الولدِ مِنَ الثوابِ ما يُعزَّىٰ بهِ كلُّ مصابٍ .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لأَنْ أقدمَ سقطاً . . أحبُّ إليَّ مِنْ أن أخلِّفَ مئةَ فارسٍ كلُّهم يقاتلُ في سبيلِ اللهِ »[1] وإنَّما ذكرَ السقطَ تنبيهاً بالأدنىٰ على الأعلىٰ ، وإلاَّ . . فالثَّوابُ علىٰ قدرِ محلِّ الولدِ مِنَ القلبِ .

وقالَ زيدُ بنُ أسلمَ : (تُوفيَ ابنٌ لداوودَ عليهِ السَّلامُ ، فحزنَ عليهِ حزناً شديداً ، فقيلَ لهُ : ما كانَ عدلُهُ عندَكَ ؟ قالَ : ملءُ الأرضِ ذهباً ، قيلَ لهُ : فإنَّ لكَ مِنَ الأجرِ في الآخرةِ مثلَ ذلكَ)[2] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا يموتُ لأحدٍ مِنَ المسلمينَ ثلاثةٌ مِنَ الولدِ فيحتسبُهُم إلاَّ كانوا لهُ جُنَّةً مِنَ النَّارِ » فقالتِ امرأةٌ عندَ

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٩٣٠٢) مرسلاً ، وابن ماجه (١٦٠٧) .

(٢) رواه عبد الرزاق في « مصنفه » (٢٠١٤١) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٣٠٨) .

رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : أوِ اثنانِ ؟ قالَ : « أوِ اثنانِ »[1] .

ولْيخلصِ الوالدُ الدُّعاءَ لولدِهِ عندَ الموتِ ؛ فإنَّهُ أرجىٰ دعاءٍ وأقربُهُ إلى الإجابةِ .

وقفَ محمَّدُ بنُ سليمانَ علىٰ قبرِ ولدِهِ فقال : اللهمَّ ؛ إنِّي أصبحتُ أرجوكَ لهُ ، وأخافُكَ عليهِ ، فحقِّقْ رجائي وآمنْ خوفي[2] .

ووقفَ أبو سنانٍ علىٰ قبرِ ابنِهِ فقالَ : اللهمَّ ؛ إنِّي قدْ غفرتُ لهُ ما وجبَ لي عليهِ ، فاغفرْ لهُ ما وجبَ لكَ عليهِ ؛ فإنَّكَ أجودُ وأكرمُ[3] .

ووقفَ أعرابيٌّ علىٰ قبرِ ابنِهِ فقال : اللهمَّ ؛ إنِّي قدْ وهبتُ لهُ ما قصَّرَ فيه مِنْ برِّي ، فهبْ له ما قصَّرَ فيهِ مِنْ طاعتِكَ[4] .

ولمَّا ماتَ ذرُّ بنُ عمرَ بنِ ذرٍّ .. قامَ أبوه عمرُ بنُ ذرٍّ بعدَ ما وُضعَ في لحدِهِ فقالَ : يا ذرُّ ؛ لقدْ شغلَنَا الحزنُ لكَ عَنِ الحزنِ عليكَ ، فليتَ شعري ! ماذا قلتَ وماذا قيلَ لكَ ؟! ثمَّ قالَ : اللهمَّ ؛ إنَّ هـٰذا ذرٌّ متَّعتَني به ما متَّعتَني ، ووفيتَهُ أجلَهُ ورزقَهُ ولم تظلِمْهُ ، اللهمَّ ؛ وقدْ كنتَ ألزمتَهُ طاعتَكَ وطاعتِي ، اللهمَّ ؛ وما وعدتَني عليهِ مِنَ الأجرِ في مصيبتي .. فقدْ

---

(١) رواه البخاري (١٢٥٠) ، ومسلم (٢٦٣٤) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « القبور » . « إتحاف » (١٠/ ٣٥٩) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « القبور » . « إتحاف » (١٠/ ٣٦٠) .
(٤) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (٢٣٣٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٧٠٣) .

وهبتُ لهُ ذلكَ ، فهبْ لي عذابَهُ ولا تعذِّبْهُ ، فأبكى الناسَ ، ثمَّ قالَ عندَ انصرافِهِ : ما علينا بعدَكَ مِنْ خصاصةٍ يا ذرُّ ، وما بنا إلىٰ إنسانٍ معَ اللهِ حاجةٌ ؛ فلقدْ مضينا وتركناكَ ، ولو أقمنا . . ما نفعناكَ[1] .

ونظرَ رجلٌ إلى امرأةٍ بالبصرةِ فقالَ : ما رأيتُ مثلَ هـٰذهِ النضارةِ ، وما ذاكَ إلاَّ مِنْ قلَّةِ الحزنِ ، فقالَتْ : يا عبدَ اللهِ ؛ إنِّي لفي حزنٍ ما يشركُني فيهِ أحدٌ ، قالَ : وكيفَ ؟! قالَتْ : إنَّ زوجي ذبحَ شاةً في يومِ الأضحىٰ ، وكانَ لي صبيَّانِ مليحانِ يلعبانِ ، فقالَ أكبرُهُما للآخَرِ : أتريدُ أنْ أريَكَ كيفَ ذبحَ أبي الشاةَ ؟ قالَ : نعمْ ، فأخذَهُ وذبحَهُ ، فما شعرنا بهِ إلاَّ متشحِّطاً في دمِهِ ، فلمَّا ارتفعَ الصُّراخُ . . هربَ الغلامُ فلجأَ إلىٰ جبلٍ ، فرهقَهُ ذئبٌ فأكلَهُ ، وخرجَ أبوه يطلبُهُ فماتَ عطشاً مِنْ شدَّةِ الحرِّ ، قالَتْ : فأفردَني الدهرُ كما ترىٰ[2] .

فأمثالُ هـٰذهِ المصائبِ ينبغي أنْ تُذكرَ عندَ موتِ الأولادِ ليُسلَّىٰ بها عَنْ شدةِ الجزعِ ، فما مِنْ مصيبةٍ إلاَّ ويُتصورُ ما هو أعظمُ منها ، وما يدفعُهُ اللهُ تعالىٰ في كلِّ حالٍ . . فهوَ الأكثرُ .

* * *

---

(١) حكاه الحافظ عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (ص١٥٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥/١٠٨) بنحوه .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « العزاء » . « إتحاف » (١٠/ ٣٦٠) .

بيان زيارة القبور والدعاء للميت وما يتعلق به

زيارةُ القبورِ مستحبَّةٌ على الجملةِ للتذكرِ والاعتبارِ ، وزيارةُ قبورِ الصالحينَ مستحبةٌ لأجلِ التبرُّكِ معَ الاعتبارِ .

وقدْ كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ نهىٰ عنْ زيارةِ القبورِ ثمَّ أذنَ في ذلك بعدُ ؛ فقدْ رُوِيَ عنْ عليٍّ رضِيَ اللهُ عنهُ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « كنتُ نهيتُكم عنْ زيارةِ القبورِ ، فزوروها ؛ فإنَّها تذكِّرُكمُ الآخرةَ ، غيرَ ألاَّ تقولوا هُجْراً »[1] .

وزارَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قبرَ أمِّهِ في ألفِ مقنعٍ ، فلمْ يُر باكياً أكثرَ مِنْ يومئذٍ ، وفي هٰذا اليومِ قالَ : « أُذنَ لي في الزيارةِ دونَ الاستغفارِ »[2] كما روينا مِنْ قبلُ .

وقالَ ابنُ أبي مليكةَ : أقبلَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها يوماً مِنَ المقابرِ ، فقلتُ : يا أمَّ المؤمنينَ ؛ مِنْ أينَ أقبلتِ ؟ قالَتْ : (مِنْ قبرِ أخي عبدِ الرَّحمـٰنِ) فقلتُ : أليسَ كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ نهىٰ عنها ؟! قالَتْ : (نعم ثمَّ أمرَ بها)[3] .

---

(١) رواه مسلم (٩٧٧) من حديث بريدة بن الحصيب رضي الله عنه ، والنسائي (٤/ ٨٩) ، والهجر : القول الفاحش الذي ينافي مقام التذكر والعبرة عند الزيارة .
(٢) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ٣٥٥) ، وهو عند مسلم (٩٧٦) بنحوه .
(٣) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٤/ ٧٨)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٣٧٥).

ولا ينبغي أن يُتمسكَ بهـٰذا فيُؤذنَ للنساءِ في الخروجِ إلى المقابرِ ؛ فإنَّهنَّ يكثرْنَ الهُجْرَ علىٰ رؤوسِ المقابرِ ، فلا يفي خيرُ زيارتِهنَّ بشرِّها ، ولا يخلونَ في الطريقِ عنْ تكشُّفٍ وتبرُّجٍ ، وهـٰذهِ عظائمُ والزيارةُ سنةٌ ، فكيفَ يُحتملُ ذلكَ لأجلِها ؟!

نعمْ ، لا بأسَ بخروجِ المرأةِ في ثيابٍ بذلةٍ تردُّ أعينَ الرجالِ عنْها ، وذلكَ بشرطِ الاقتصارِ على الدعاءِ ، وتركِ الحديثِ علىٰ رأسِ القبرِ .

وقالَ أبو ذرٍّ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « زُرِ القبورَ . . تذكرْ بها الآخرةَ ، واغسلِ الموتىٰ ؛ فإنَّ معالجةَ جسدٍ خاوٍ موعظةٌ بليغةٌ ، وصلِّ على الجنائزِ لعلَّ ذلكَ أنْ يحزنَكَ ؛ فإنَّ الحزينَ في ظلِّ اللهِ تعالىٰ »[1] .

وقالَ ابنُ أبي مليكةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « زوروا موتاكم وسلِّموا عليهم وصلُّوا عليهم ؛ فإنَّ لكمْ فيهمْ عبرةً »[2] .

وعنْ نافعٍ : أنَّ ابنَ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ كانَ لا يمرُّ بقبرٍ واحدٍ إلاَّ وقفَ عليهِ وسلَّم عليهِ[3] .

وعنْ جعفرِ بنِ محمدٍ عنْ أبيهِ : أنَّ فاطمةَ بنتَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ

---

(1) رواه الحاكم في « المستدرك » (١/ ٣٧٧) ، والبيهقي في « الشعب » (٨٨٥١) .
(2) رواه الديلمي في « الفردوس » (٣٣٤١) مرفوعاً من حديث عائشة رضي الله عنها .
(3) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/ ١٩٥) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (١١٩٠٨) .

كانَتْ تزورُ قبرَ عمِّها حمزةَ في الأيامِ ، فتصلي وتبكي عندَهُ[(١)] .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ زارَ قبرَ أبويهِ أوْ أحدِهما في كلِّ جمعةٍ . . غُفرَ لهُ وكُتبَ برّاً »[(٢)] .

وعنِ ابنِ سيرينَ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الرجلَ ليموتُ والداهُ وهوَ عاقٌّ لهما ، فيدعو اللهَ لهما مِنْ بعدِ موتِهِما ، فيكتبُهُ اللهُ تعالىٰ مِنَ البارِّينَ »[(٣)] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ زارَ قبري . . فقدْ وجَبَتْ لهُ شفاعتي »[(٤)] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ زارَني بالمدينةِ محتسباً . . كنتُ لهُ شفيعاً وشهيداً يومَ القيامةِ »[(٥)] .

وقالَ كعبُ الأحبارِ : (مَا مِنْ فجرٍ يطلعُ إلاَّ نزلَ سبعونَ ألفاً مِنَ الملائكةِ حتىٰ يحفوا بالقبرِ[(٦)] ، يضربونَ بأجنحتِهِمْ ويصلُّونَ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ

---

(١) رواه البيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٤/ ٧٨) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٣٧٦) .

(٢) رواه الطبراني في « الأوسط » (٦١١٠) مرفوعاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، والبيهقي في « الشعب » (٧٥٢٢) معضلاً من حديث محمد بن النعمان .

(٣) رواه البيهقي في « الشعب » (٧٥٢٣) .

(٤) رواه الدارقطني (٢/ ٢٧٨) ، والبيهقي في « الشعب » (٣٨٦٢) .

(٥) رواه البيهقي في « الشعب » (٣٨٥٩) .

(٦) أي : بقبره صلى الله عليه وسلم . « إتحاف » (١٠/ ٣٦٤) .

وسلَّمَ ، حتىٰ إذا أمسوا . . عرجوا وهبطَ مثلُهم فصنعوا مثلَ ذلكَ ، حتىٰ إذا انشقَّتِ الأرضُ . . خرجَ في سبعينَ ألفاً مِنَ الملائكةِ يوقِّرونَهُ)[1] .

والمستحبُّ في زيارةِ القبورِ أنْ يقفَ مستدبرَ القبلةِ مستقبلاً لوجهِ الميتِ ، وأن يسلِّمَ ولا يمسحَ القبرَ ولا يقبِّلَهُ ولا يمسَّهُ ؛ فإنَّ ذلكَ مِنْ عادةِ النصارىٰ .

قالَ نافعٌ : كانَ ابنُ عمرَ ـ رأيتُه مئةَ مرةٍ أو أكثرَ ـ يجيءُ إلى القبرِ فيقولُ : (السَّلامُ على النبيِّ ، السَّلامُ علىٰ أبي بكرٍ ، السَّلامُ علىٰ أبي) وينصرفُ[2] .

وعنْ أبي أمامةَ قالَ : (رأيتُ أنسَ بنَ مالكٍ أتىٰ قبرَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فوقفَ ، فرفعَ يديهِ حتىٰ ظننتُ أنَّهُ افتتحَ الصلاةَ ، فسلَّمَ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ثمَّ انصرفَ)[3] .

وقالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ رجلٍ يزورُ قبرَ أخيهِ ويجلسُ عندَهُ إلاَّ استأنسَ بهِ وردَّ عليهِ حتىٰ يقومَ »[4] .

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٣٩٠) .
(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (١١٩١٥) .
(٣) رواه البيهقي في « الشعب » (٣٨٦٧) .
(٤) رواه ابن عبد البر في « الاستذكار » (١٨٥٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، وحكاه الحافظ عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (ص٢١١) .

وقالَ سليمانُ بنُ سحيمٍ : رأيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في النَّومِ ، فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ هؤلاءِ الذينَ يأتونَكَ ويسلِّمونَ عليكَ أتفقهُ سلامَهُم ؟ قالَ : « نعمْ ، وأردُّ عليهِمْ »[1] .

وقالَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : (إذا مرَّ الرجلُ بقبرِ الرجلِ يعرفُهُ فسلَّمَ عليهِ . . ردَّ عليهِ السَّلامَ وعرفَهُ ، وإذا مرَّ بقبرٍ لا يعرفُهُ فسلَّمَ عليهِ . . ردَّ عليهِ السَّلامَ)[2] .

وقالَ رجلٌ مِنْ آلِ عاصمٍ الجحدريِّ : رأيتُ عاصماً في منامي بعدَ موتِهِ بسنتينِ ، فقلتُ : أليسَ قَدْ مِتَّ ؟ قالَ : بلىٰ ، قلتُ : فأينَ أنتَ ؟ فقالَ : أنا واللهِ في روضةٍ مِنْ رياضِ الجنَّةِ أنا ونفرٌ مِنْ أصحابي ، نجتمعُ كلَّ ليلةِ جمعةٍ وصبيحتِها إلىٰ أبي بكرِ بنِ عبدِ اللهِ المزنيِّ ، فنتلاقىٰ أخبارَكم ، قلتُ : أجسامُكُم أمْ أرواحُكُم ؟ قالَ : هيهاتَ ! بليَتِ الأجسامُ ، وإنَّما تتلاقى الأرواحُ ، قالَ : قلتُ : فهلْ تعلمونَ بزيارتِنا إيَّاكم ؟ قالَ : نعمْ ، نعلمُ بها عشيَّةَ الجمعةِ ، ويومَ الجمعةِ كلَّهُ ، ويومَ السبتِ إلىٰ طلوعِ الشمسِ ، قلتُ : وكيفَ ذلكَ دونَ الأيامِ كلِّها ؟ قالَ : لفضلِ يومِ الجمعةِ وعظمِهِ[3] .

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٣٨٦٨) ، وعند أبي داوود (٢٠٤١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه : « ما من أحد يسلم عليّ إلا ردّ الله عليّ روحي حتىٰ أرد عليه السلام » .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٨٨٥٧) .

(٣) رواه البيهقي في « الشعب » (٨٨٦١) ، وفي (ب) : (بسنين) بدل (بسنتين) وهي نسخة أشار إليها الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (١٠/ ٣٦٧) .

وكانَ محمدُ بنُ واسعٍ يزورُ يومَ الجمعةِ ، فقيلَ لهُ : لوْ أخَّرتَ إلىٰ يوم الاثنينِ ، فقالَ : بلغَني أنَّ الموتىٰ يعلمونَ بزوَّارِهم يومَ الجمعةِ ويوماً قبلَهُ ويوماً بعدَهُ[1] .

وقالَ الضحاكُ : مَنْ زارَ قبراً يومَ السبتِ قبلَ طلوعِ الشمسِ.. علمَ الميتُ بزيارتِهِ ، قيلَ : وكيفَ ذلكَ ؟ قالَ : لمكانِ يومِ الجمعةِ[2] .

وقالَ بشرُ بنُ منصورٍ : لمَّا كانَ زمنُ الطاعونِ.. كانَ رجلٌ يختلفُ إلى الجبَّانةِ فيشهدُ الصلاةَ على الجنائزِ ، فإذا أمسىٰ.. وقفَ علىٰ بابِ المقابرِ فقالَ : آنسَ اللهُ وحشتكُم ، ورحمَ غربتكُم ، وتجاوزَ عنْ سيئاتِكم ، وقبلَ اللهُ حسناتِكُم ، لا يزيدُ علىٰ هـٰذه الكلماتِ ، قالَ الرجلُ : فأمسيتُ ذاتَ ليلةٍ ، فانصرفتُ إلىٰ أهلي ولمْ آتِ المقابرَ فأدعوَ كما كنتُ أدعو ، فبينَما أنا نائمٌ ؛ إذا أنا بخلقٍ كثيرٍ قدْ جاؤوني ، فقلتُ : ما أنتُمْ ؟ وما حاجتُكُم ؟ قالوا : نحنُ أهلُ المقابرِ ، قلتُ : ما جاءَ بكم ؟ قالوا : إنَّك كنتَ عوَّدتَنا منكَ هديةً عندَ انصرافِكَ إلىٰ أهلِكَ ، قلتُ : وما هيَ ؟ قالوا : الدعواتُ التي كنتَ تدعو لنا بها ، قلتُ : فإنِّي أعودُ لذلكَ ، فما تركتُها بعدَ ذلكَ[3] .

وقالَ بشارُ بنُ غالبٍ النجرانيُّ : رأيتُ رابعةَ العدويةَ العابدةَ في منامي ،

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٨٨٦٢) .
(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٨٨٦٣) ، وفي (أ) : (لبركة) بدل (لمكان) .
(٣) رواه البيهقي في « الشعب » (٨٨٥٩) .

وكنتُ كثيرَ الدعاءِ لها ، فقالَتْ لي : يا بشارَ بنَ غالبٍ ؛ هداياكَ تأتينا علىٰ أطباقٍ مِنْ نورٍ ، مخمَّرةً بمناديلِ الحريرِ ، قلتُ : وكيفَ ذلكَ ؟ قالَتْ : وهٰكذا دعاءُ المؤمنينَ الأحياءِ إذا دعوا للموتىٰ فاستُجيبَ لهمُ . . جُعلَ ذلكَ الدعاءُ علىٰ أطباقِ النورِ ، وخُمِّرَ بمناديلِ الحريرِ ، ثمَّ أُتيَ بهِ الميتَ ، فقيلَ لهُ : هٰذهِ هديةُ فلانٍ إليكَ[1] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما الميتُ في قبرِهِ إلاَّ كالغريقِ المتغوِّثِ ، ينتظرُ دعوةً تلحقُهُ مِنْ أبيهِ أوْ أخيهِ أوْ صديقٍ لهُ ، فإذا لحقَتْهُ . . كانَتْ أحبَّ إليهِ مِنَ الدنيا وما فيها ، وإنَّ هدايا الأحياءِ للأمواتِ الدعاءُ والاستغفارُ »[2] .

وقالَ بعضُهم : ماتَ أخٌ لي ، فرأيتُهُ في المنامِ فقلتُ : ما كانَ حالُكَ حينَ وُضعتَ في قبرِكَ ؟ قالَ : أتاني آتٍ بشهابٍ مِنْ نارٍ ، فلولا أنَّ داعياً دعا لي . . لرأيتُ أنَّهُ سيضربُني به[3] .

وعن هٰذا يُستحبُّ تلقينُ الميتِ بعدَ الدفنِ والدعاءُ لهُ ، قالَ سعيدُ بنُ عبدِ اللهِ الأوديُّ[4] : شهدتُ أبا أمامةَ الباهليَّ وهوَ في النزعِ ، فقالَ :

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٨٨٦٠) .
(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٨٨٥٥) ، والديلمي في « الفردوس » (٦٣٢٣) .
(٣) حكاه الحافظ عبد الحق الإشبيلي في « العاقبة في ذكر الموت » (ص١٨٢) ، وفي (د) : (سيحرقني) بدل (سيضربني) .
(٤) كذا في (ج ، د ، ي) ، وفي البقية : (الأزدي) ، وهي نسخة أشار إليها الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (١٠/٣٦٨) .

يا سعيدُ ؛ إذا متُّ . . فاصنعوا بي كما أمرَنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقال : « إذا ماتَ أحدُكُمْ فسوَّيتُم عليهِ الترابَ . . فليقمْ أحدُكُم علىٰ رأسِ قبرِهِ وليقلْ : يا فلانَ بنَ فلانةَ ؛ فإنَّهُ يسمعُ ولا يجيبُ ، ثمَّ ليقلْ : يا فلانَ بنَ فلانةَ ؛ الثانيةَ ؛ فإنَّهُ يستوي قاعداً ، ثمَّ ليقلْ : يا فلانَ بنَ فلانةَ ؛ الثالثةَ ؛ فإنَّهُ يقولُ : أرشدْنا يرحمُكَ اللهُ ، ولكنْ لا تسمعونَ ، فيقولُ لهُ : اذكرْ ما خرجتَ عليهِ مِنَ الدنيا : شهادةَ أنَ لا إلـٰهَ إلاَّ اللهُ وأنَّ محمَّداً رسولُ اللهِ ، وأنَّكَ رضيتَ باللهِ رباً ، وبالإسلامِ ديناً ، وبمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ نبياً ، وبالقرآنِ إماماً ؛ فإنَّ منكراً ونكيراً يتأخرُ كلُّ واحدٍ منْهما فيقولُ : انطلقْ بنا ما يقعدُنا عندَ هـٰذا وقدْ لُقِّنَ حجَّتَهُ ؟! ويكونُ اللهُ عزَّ وجلَّ حجيجَهُ دونَهُما » فقالَ رجلٌ : يا رسولَ اللهِ ؛ فإنْ لمْ يعرفِ اسمَ أمِّهِ ؟ قالَ : « فلينسبْهُ إلىٰ حواءَ »(1) .

ولا بأسَ بقراءةِ القرآن على القبورِ ، رُويَ عنْ عليِّ بنِ موسى الحدادِ قالَ : كنتُ معَ أحمدَ ابنِ حنبلٍ في جنازةٍ ومحمدُ بنُ قدامةَ الجوهريُّ معَنا ، فلمَّا دُفنَ الميتُ . . جاءَ رجلٌ ضريرٌ يقرأُ عندَ القبرِ ، فقالَ لهُ أحمدُ : يا هـٰذا ؛ إنَّ القراءةَ عندَ القبرِ بدعةٌ ، فلمَّا خرجنا مِنَ المقابرِ . . قالَ محمدُ بنُ قدامةَ لأحمدَ : يا أبا عبدِ اللهِ ؛ ما تقولُ في مبشرِ بنِ إسماعيلَ الحلبيِّ ؟ قالَ : ثقةٌ ، قالَ : هلْ كتبتَ عنهُ شيئاً ؟ قالَ : نعمْ ، قالَ :

---

(1) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (٨/ ٢٤٩) .

أخبرَني مبشرُ بنُ إسماعيلَ عنْ عبدِ الرحمـٰنِ بنِ العلاءِ بنِ اللجلاجِ عنْ أبيهِ : أنَّهُ أوصىٰ إذا دُفنَ أنْ يُقرأَ عندَ رأسِهِ بفاتحةِ (البقرة) وخاتمتِها ، وقالَ : سمعتُ ابنَ عمرَ يوصي بذلكَ ، فقالَ لهُ أحمدُ : فارجعْ إلى الرجلِ فقلْ لهُ يقرأُ[1] .

وقالَ محمدُ بنُ أحمدَ المروروذي : سمعتُ أحمدَ ابنَ حنبلٍ يقولُ : إذا دخلتُمُ المقابرَ . . فاقرؤوا بـ(فاتحةِ الكتابِ) ، و(المعوِّذتينِ) و(قلْ هوَ اللهُ أحدٌ) واجعلوا ثوابَ ذلكَ لأهلِ المقابرِ ؛ فإنَّهُ يصلُ إليهم[2] .

وقالَ أبو قلابةَ : أقبلتُ مِنَ الشامِ إلى البصرةِ فنزلتُ الخندقَ ، فتطهرتُ وصلَّيتُ ركعتينِ بليلٍ ، ثمَّ وضعتُ رأسي علىٰ قبرٍ فنمتُ ، ثمَّ انتبهتُ ؛ فإذا صاحبُ القبرِ يشتكيني ويقولُ : لقد آذيتَني منذُ الليلةِ ، ثمَّ قالَ : إنَّكم لا تعلمونَ ونحنُ نعلمُ ولا نقدرُ على العملِ ، ثمَّ قالَ : للركعتانِ اللَّتانِ ركعتَهما خيرٌ مِنَ الدنيا وما فيها ، ثمَّ قالَ : جزى اللهُ أهلَ الدنيا عنَّا خيراً ، أقرئْهمُ السَّلامَ ؛ فإنَّهُ قدْ يدخلُ علينا مِنْ دعائِهم نورٌ أمثالُ الجبالِ[3] .

فالمقصودُ مِنْ زيارةِ القبورِ للزائرِ الاعتبارُ بها، وللمزورِ الانتفاعُ بدعائِهِ، فلا ينبغي أنْ يغفلَ الزائرُ عنِ الدعاءِ لنفسِهِ وللميتِ ، ولا عنِ الاعتبارِ بهِ .

---

(١) حكى القصة هـٰكذا أبو بكر الخلال في « القراءة عند القبور » (ص٤) ، وروى الأثر الطبراني في « الكبير » (١٩/ ٢٢٠) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٤/ ٥٦) .

(٢) أورده ابن أبي يعلىٰ في « طبقات الحنابلة » (٢/ ٢٢٤) .

(٣) رواه البيهقي في « دلائل النبوة » (٧/ ٤٠) بنحوه عن ابن ميناء .

وإنَّما يحصلُ له الاعتبارُ بأن يصورَ في قلبِهِ الميتَ كيفَ تفرقَتْ أجزاؤُهُ ، وكيفَ يُبعثُ مِنْ قبرِهِ ، وأنَّهُ على القربِ سيلحقُ بهِ ، كما رُوِيَ عنْ مطرِّفِ بنِ أبي بكرٍ الهذليِّ قالَ : كانَتْ عجوزٌ في عبدِ القيسِ متعبدةٌ ، فكانَ إذا جاءَ الليلُ . . تحزمَتْ ثمَّ قامَتْ إلى المحرابِ ، وإذا جاءَ النهارُ . . خرجَتْ إلى القبورِ ، فبلغَني أنَّها عُوتبَتْ في كثرةِ إتيانِها المقابرَ ، فقالَتْ : إنَّ القلبَ القاسيَ إذا جفا . . لمْ يلينْهُ إلاَّ رسومُ البلىٰ ، وإنِّي لآتي القبورَ فكأنِّي أنظرُ وقدْ خرجوا مِنْ بينِ أطباقِها ، وكأنِّي أنظرُ إلىٰ تلكَ الوجوهِ المتعفِّرةِ ، وإلىٰ تلكَ الأجسامِ المتغيِّرةِ ، وإلىٰ تلكَ الأكفانِ الدسمةِ ، فيا لها مِنْ نظرةٍ لوْ أشربَها العبادُ قلوبَهُم ، ما أنكلَ مرارتَها للأنفسِ ، وأشدَّ تلفَها للأبدانِ !![1] .

بلْ ينبغي أن يُحضرَ مِنْ صورةِ الميتِ ما ذكرَهُ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ حيثُ دخلَ عليهِ فقيهٌ فتعجَّبَ مِنْ تغيُّرِ صورتِهِ لكثرةِ الجهدِ والعبادةِ ، فقالَ لهُ : يا فلانُ ؛ كيفَ لوْ رأيتَني بعدَ ثلاثٍ وقدْ أُدخلتُ قبري ، وقدْ خرجَتِ الحدقتانِ فسالَتا على الخدَّينِ ، وتقلَّصَتِ الشفتانِ على الأسنانِ ، وخرجَ الصديدُ مِنَ الفمِ ، وانفتحَ الفمُ ونتأَ البطنُ فعلا على الصدرِ ، وخرجَ الصلبُ مِنَ الدبرِ ، وخرجَ الدودُ والصديدُ مِنَ المناخرِ . . لرأيتَ أعجبَ ممَّا تراهُ الآنَ[2] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « القبور » . « إتحاف » (١٠/ ٣٧٤) .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (٧٠٣٩) .

ويُستحبُّ أيضاً الثناءُ على الميتِ ، وألاَّ يُذكرَ إلاَّ بالجميلِ ؛ قالَتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا ماتَ صاحبُكم . . فدعوهُ ولا تقعوا فيهِ »[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تسبُّوا الأمواتَ ؛ فإنَّهم قدْ أفضَوا إلىٰ ما قدَّموا »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تذكروا موتاكم إلاَّ بخيرٍ ؛ فإنَّهم إنْ يكونوا مِنْ أهلِ الجنَّةِ . . تأثموا ، وإنْ يكونوا مِنْ أهلِ النَّارِ . . فحسبُهُمْ ما همْ فيهِ »[3] .

وقالَ أنسُ بنُ مالكٍ : مرَّتْ جنازةٌ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فأثنَوْا عليها شرّاً ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ : « وجبَتْ » ومرُّوا بأخرىٰ ، فأثنَوْا عليها خيراً ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « وجبَتْ » فسألَهُ عمرُ عنْ ذلكَ فقالَ : « إنَّ هـٰذا أثنيتُم عليهِ خيراً فوجبَتْ لهُ الجنَّةُ ، وهـٰذا أثنيتمْ عليهِ شرّاً فوجبَتْ لهُ النَّارُ ، وأنتم شهداءُ اللهِ في الأرضِ »[4] .

---

(١) رواه أبو داوود (٤٨٩٩) ، وفي (د) : (فدعوه لا تقعوا فيه) ، وهي نسخة أشار إليها الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (١٠/ ٣٧٤) .

(٢) رواه البخاري (١٣٩٣) من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » هـٰكذا . « إتحاف » (١٠/ ٣٧٤) ، وورواه النسائي (٤/ ٥٢) مقتصراً على الجملة الأولىٰ بلفظ : (هلكاكم) ، وفي الباب عند أبي داوود (٤٩٠٠) ، والترمذي (١٠١٩) : « اذكروا محاسن موتاكم وكفوا عن مساويهم » .

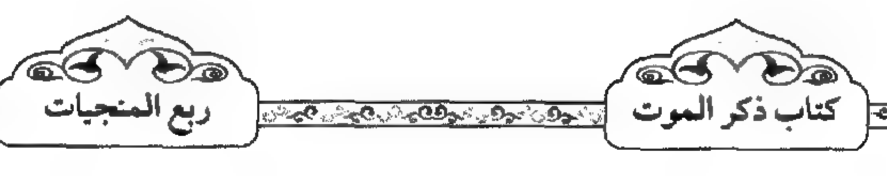
(٤) رواه البخاري (١٣٦٧) ، ومسلم (٩٤٩) .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ العبدَ ليموتُ فيثني عليهِ القومُ الثناءَ يعلمُ اللهُ تعالىٰ منهُ غيرَهُ . . فيقولُ اللهُ تعالىٰ لملائكتِهِ : أشهدُكم أنِّي قدْ قبلتُ شهادةَ عبيدي علىٰ عبدي ، وتجاوزتُ عنْ علمي في عبدي »[1] .

* * *

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٣٨٤) ، وأوله : « ما من عبد مسلم يموت يشهد له ثلاثة أبيات من جيرانه الأدنين بخير . . . » .



البَابُ السَّابِعُ
في حقيقة الموت، وما يلقاه الميت في القبر إلى نفخة الصور

بيان حقيقة الموت

اعلمْ : أنَّ للناسِ في حقيقةِ الموتِ ظنوناً كاذبةً قدْ أخطؤوا فيها ، فظنَّ بعضُهم أنَّ الموتَ هوَ العدمُ ، وأنَّهُ لا حشرَ ولا نشرَ ، ولا عاقبةَ للخيرِ والشرِّ ، وأنَّ موتَ الإنسانِ كموتِ الحيواناتِ وجفافِ النباتِ ، وهاذا رأيُ الملاحدةِ وكلِّ مَنْ لا يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ .

وظنَّ قومٌ أنَّهُ ينعدمُ بالموتِ ، ولا يتألمُ بعقابٍ ، ولا يتنعَّمُ بثوابٍ ما دامَ في القبرِ إلىٰ أَنْ يُعادَ في وقتِ الحشرِ .

وقالَ آخرونَ : إنَّ الروحَ باقيةٌ لا تنعدمُ بالموتِ ، وإنَّما المثابُ والمعاقبُ هيَ الأرواحُ دونَ الأجسادِ ، وإنَّ الأجسادَ لا تُبعثُ ولا تُحشرُ أصلاً .

وكلُّ هاذهِ الظنونِ فاسدةٌ ومائلةٌ عن الحقِّ ، بلِ الذي تشهدُ له طرقُ الاعتبارِ وتنطقُ بهِ الآياتُ والأخبارُ أنَّ الموتَ معناهُ : تغيُّرُ حالٍ فقط ، وأنَّ الروحَ باقيةٌ بعدَ مفارقةِ الجسدِ إمَّا معذَّبةً وإمَّا منعَّمةً .

ومعنىٰ مفارقتِها للجسدِ : انقطاعُ تصرفِها عنِ الجسدِ بخروجِ الجسدِ عن طاعتِها ؛ فإنَّ الأعضاءَ آلاتٌ للروحِ تستعملُها ، حتىٰ إنَّها لتبطشُ باليدِ وتسمعُ

بالأذنِ وتبصرُ بالعينِ ، وتعلمُ حقيقةَ الأشياءِ بالقلبِ ، والقلبُ هاهنا عبارةٌ عنِ الروحِ ، فالروحُ تعلمُ الأشياءَ بنفسِها مِنْ غيرِ آلةٍ ، ولذلكَ قدْ يتألَّمُ بنفسِهِ بأنواعِ الحزنِ والغمِّ والكمدِ ، ويتنعمُ بأنواعِ الفرحِ والسرورِ ، وكلُّ ذلك لا يتعلَّقُ بالأعضاءِ ، فكلُّ ما هوَ وصفٌ للروحِ بنفسِها فيبقىٰ معَها بعدَ مفارقةِ الجسدِ ، وما هوَ لها بواسطةِ الأعضاءِ فيتعطَّلُ بموتِ الجسدِ إلىٰ أنْ تُعادَ الروحُ إلى الجسدِ ، ولا يبعدُ أنْ تُعادَ الروحُ إلى الجسدِ في القبرِ ، ولا يبعدُ أنْ تُؤَخَّرَ إلىٰ يومِ البعثِ ، واللهُ أعلمُ بما حكمَ بهِ علىٰ كلِّ عبدٍ مِنْ عبادِهِ .

وإنَّما تعطُّلُ الجسدِ بالموتِ يضاهي تعطُّلَ أعضاءِ الزَّمِنِ بفسادِ مزاجٍ يقعُ فيهِ ، وبشدةٍ تقعُ في الأعصابِ تمنعُ نفوذَ الروحِ فيها ، فتكونُ الروحُ العالمةُ العاقلةُ المدركةُ باقيةً مستعملةً لبعضِ الأعضاءِ ، وقدِ استعصىٰ عليها بعضُها ، والموتُ عبارةٌ عنِ استعصاءِ الأعضاءِ كلِّها ، وكلُّ الأعضاءِ آلاتٌ ، والروحُ هيَ المستعملةُ لها .

وأعني بالروحِ : المعنى الذي يدركُ مِنَ الإنسانِ العلومَ والآلامَ والغمومَ[1] ولذاتِ الأفراحِ ، ومهما بطلَ تصرُّفُها في الأعضاءِ.. لمْ تبطلْ مِنْها العلومُ والإدراكاتُ ، ولا بطلَ مِنْها الأفراحُ والغمومُ ، ولا بطلَ مِنْها قبولُها للآلامِ واللذَّاتِ .

والإنسانُ بالحقيقةِ هوَ المعنى المدركُ للعلومِ وللآلامِ واللذَّاتِ ، وذلكَ لا يموتُ ؛ أيْ : لا ينعدمُ .

---

(١) في (ن) : (وآلام الغموم) .

ومعنى الموتِ : انقطاعُ تصرفِهِ عَنِ البدنِ ، وخروجُ البدنِ عنْ أنْ يكونَ آلةً لهُ ، كما أنَّ معنى الزمانةِ خروجُ اليدِ عنْ أنْ تكونَ آلةً مستعملةً ، فالموتُ زمانةٌ مطلقةٌ في الأعضاءِ كلِّها ، وحقيقةُ الإنسانِ نفسُهُ وروحُهُ ، وهيَ باقيةٌ .

نعمْ ، تغيُّرُ حالِهِ مِنْ وجهينِ :

أحدُهُما : أنَّهُ سلبَ منهُ عينَهُ وأذنَهُ ولسانَهُ ويدَهُ ورجلَهُ وجميعَ أعضائِهِ ، وسلبَ منهُ أهلَهُ وولدَهُ وأقاربَهُ وسائرَ معارفِهِ ، وسلبَ منهُ خيلَهُ ودوابَّهُ وغلمانَهُ ودُورَهُ وعقارَهُ وسائرَ أملاكِهِ .

ولا فرقَ بينَ أنْ تُسلبَ هـٰذهِ الأشياءُ مِنَ الإنسانِ وبينَ أنْ يُسلبَ الإنسانُ مِنْ هـٰذهِ الأشياءِ ؛ فإنَّ المؤلمَ هو الفراقُ ، والفراقُ يحصلُ تارةً بأنْ يُنهبَ مالُ الرجلِ ، وتارةً بأنْ يُسبَى الرجلُ عنِ الملكِ والمالِ ، والألمُ واحدٌ في الحالينِ .

وإنَّما معنى الموتِ : سلبُ الإنسانِ عنْ أموالِهِ بإزعاجِهِ إلىٰ عالمٍ آخرَ لا يناسبُ هـٰذا العالمَ ؛ فإنْ كانَ لهُ في الدنيا شيءٌ يأنسُ بهِ ويستريحُ إليهِ ويعتدُّ بوجودِهِ . . فيعظمُ تحسُّرُهُ عليهِ بعدَ الموتِ ، ويصعبُ شقاؤُهُ في مفارقتِهِ ، بلْ يلتفتُ قلبُهُ إلىٰ واحدٍ واحدٍ من مالِهِ وجاهِهِ وعقارِهِ ، حتىٰ إلىٰ قميصٍ كانَ يلبسُهُ مثلاً ويفرحُ بهِ ، وإنْ لمْ يكنْ يفرحُ إلاَّ بذكرِ اللهِ تعالىٰ ولمْ يأنسْ إلاَّ بهِ . . عظمَ نعيمُهُ وتمَّتْ سعادتُهُ ؛ إذْ خُلِّيَ بينَهُ وبينَ محبوبِهِ ، وقُطعَتْ عنهُ العوائقُ والشواغلُ ؛ إذْ جميعُ أسبابِ الدنيا شاغلةٌ عنْ ذكرِ اللهِ تعالىٰ ، فهـٰذا أحدُ وجهَيِ المخالفةِ بينَ حالِ الموتِ وحالِ الحياة .

والثاني : أنَّهُ ينكشفُ لهُ بالموتِ ما لمْ يكنْ مكشوفاً لهُ في الحياةِ ؛ كما ينكشفُ للمتيقِّظِ ما لمْ يكنْ مكشوفاً في النومِ ، والناسُ نيامٌ ، فإذا ماتوا . . انتبهوا ، وأولُ ما ينكشفُ لهُ ما يضرُّهُ وينفعُهُ مِنْ حسناتِهِ وسيئاتِهِ ، وقدْ كانَ ذلكَ مسطوراً في كتابٍ مطويٍّ في سرِّ قلبِهِ ، وكانَ يشغلُهُ عنِ الاطلاعِ عليهِ شواغلُ الدنيا ؛ فإذا انقطعَتِ الشواغلُ . . انكشفَ له جميعُ أعمالِهِ ، فلا ينظرُ إلىٰ سيئةٍ إلاَّ ويتحسَّرُ عليها تحسُّراً يؤثرُ أنْ يخوضَ غمرةَ النارِ للخلاصِ مِنْ تلكَ الحسرةِ ، وعندَ ذلك يُقالُ لهُ : ﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ .

وينكشفُ كلُّ ذلكَ عندَ انقطاعِ النفسِ وقبلَ الدفنِ ، وتشتعلُ فيهِ نيرانُ الفراقِ ؛ أعني : فراقَ ما كانَ يطمئنُّ إليهِ مِنْ هـٰذه الدنيا الفانيةِ دونَ ما أرادَ مِنْها لأجلِ الزادِ والبلغةِ ؛ فإنَّ مَنْ طلبَ الزادَ للبلغةِ : فإذا بلغَ المقصدَ . . فرحَ بمفارقتِهِ بقيةَ الزادِ ؛ إذْ لمْ يكنْ يريدُ الزادَ لعينِهِ ، وهـٰذا حالُ مَنْ لمْ يأخذْ مِنَ الدنيا إلاَّ بقدرِ الضرورةِ ، وكانَ يودُّ أنْ تنقطعَ ضرورتُهُ ، ليستغنيَ عنهُ ؛ فقدْ حصلَ ما كانَ يودُّهُ واستغنىٰ عنهُ .

وهـٰذهِ أنواعٌ مِنَ العذابِ والآلامِ عظيمةٌ ، تهجمُ عليهِ قبلَ الدفنِ ، ثمَّ عندَ الدفنِ قد تُردُّ روحُهُ إلى الجسدِ لنوعٍ آخرَ مِنَ العذابِ ، وقدْ يُعفىٰ عنهُ ، ويكونُ حالُ المتنعمِ بالدنيا المطمئنِّ إليها كحالِ مَنْ تنعَّمَ عندَ غيبةِ ملكٍ مِنَ الملوكِ في دارِهِ وملكِهِ وحريمِهِ اعتماداً علىٰ أنَّ الملكَ يتساهلُ في أمرِهِ ، أوْ علىٰ أنَّ الملكَ ليسَ يدري ما يتعاطاهُ مِنْ قبيحِ أفعالِهِ ، فأخذَهُ الملكُ بغتةً ، وعرضَ عليهِ جريدةً قدْ دُوِّنَتْ فيها جميعُ فواحشِهِ وجناياتِهِ ذرَّةً ذرَّةً ، وخطوةً

خطوةً ، والملكُ قاهرٌ متسلِّطٌ ، وغيورٌ علىٰ حرمِهِ ، ومنتقمٌ مِنَ الجناةِ علىٰ ملكِهِ ، وغيرُ ملتفتٍ إلىٰ مَنْ يتشفعُ إليهِ في العصاةِ عليهِ ، فانظرْ إلىٰ هٰذا المأخوذِ كيفَ يكونُ حالُهُ قبلَ نزولِ عذابِ الملكِ بهِ مِنَ الخوفِ ، والخجلةِ والحياءِ ، والتحسُّرِ والتندُّمِ .

فهٰذا حالُ الميتِ الفاجرِ المغترِّ بالدنيا المطمئنِّ إليها قبلَ نزولِ عذابِ القبرِ بهِ ، بلْ عندَ موتِهِ نعوذُ باللهِ منهُ ؛ فإنَّ الخزيَ والافتضاحَ وهتكَ السترِ أعظمُ مِنْ كلِّ عذابٍ يحلُّ بالجسدِ مِنَ الضربِ والقطعِ وغيرِهما .

فهٰذهِ إشارةٌ إلىٰ حالِ الميتِ عندَ الموتِ شاهدَها أولو البصائرِ بمشاهدةٍ باطنةٍ أقوىٰ مِنْ مشاهدةِ العينِ ، وشهدَ لذلكَ شواهدُ الكتابِ والسنةِ .

نعمْ ، لا يمكنُ كشفُ الغطاءِ عنْ كنهِ حقيقةِ الموتِ ؛ إذْ لا يعرفُ الموتَ مَنْ لا يعرفُ الحياةَ ، ومعرفةُ الحياةِ بمعرفةِ حقيقةِ الروحِ في نفسِها ، وإدراكِ ماهيةِ ذاتِها ، ولمْ يُؤذنْ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنْ يتكلمَ فيها ، ولا أنْ يزيدَ علىٰ أنْ يقولَ : ﴿ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ ، فليسَ لأحدٍ مِنْ علماءِ الدينِ أنْ يكشفَ عنْ سرِّ الروحِ وإنِ اطَّلعَ عليهِ ، وإنَّما المأذونُ فيهِ ذكرُ حالِ الروحِ بعدَ الموتِ .

ويدلُّ علىٰ أنَّ الموتَ ليسَ عبارةً عنِ انعدامِ الروحِ وانعدامِ إدراكِها آياتٌ وأخبارٌ كثيرةٌ .

❊ ❊ ❊

أمَّا الآياتُ : فما وردَ في الشهداءِ ؛ إذْ قالَ تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝ فَرِحِينَ ﴾ .

❁ ❁ ❁

وأمَّا ما وردَ في الشرعِ : فلمَّا قُتلَ صناديدُ قريشٍ يومَ بدرٍ . . ناداهم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : « يا فلانُ ، يا فلانُ ، يا فلانُ ؛ قدْ وجدتُ ما وعدَني ربي حقاً ، فهلْ وجدتُم ما وعدَ ربُّكم حقاً ؟ » فقيلَ : يا رسولَ اللهِ ؛ أتناديهم وهمْ أمواتٌ ؟! فقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « والذي نفسي بيدِه ؛ إنَّهم لأسمعُ لهـٰذا الكلامِ منكم ، إلاَّ أنَّهُمْ لا يقدرونَ على الجوابِ »[1] فهـٰذا نصٌّ في بقاءِ روحِ الشقيِّ ، وبقاءِ إدراكِها ومعرفتِها ، والآيةُ نصٌّ في أرواحِ الشهداءِ ، ولا يخلو الميتُ عنْ سعادةٍ أو شقاوةٍ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « القبرُ إمَّا حفرةٌ مِنْ حفرِ النَّارِ ، أوْ روضةٌ مِنْ رياضِ الجنَّةِ »[2] وهـٰذا نصٌّ صريحٌ في أنَّ الموتَ معناهُ تغيُّرُ حالٍ فقطْ ، وأنَّ ما سيكونُ مِنْ شقاوةِ الميتِ وسعادتِهِ يتعجَّلُ عندَ الموتِ مِنْ غيرِ تأخُّرٍ ، وإنَّما يتأخرُ بعضُ أنواعِ العذابِ والثوابِ دونَ أصلِهِ .

وروىٰ أنسٌ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « الموتُ القيامةُ ، فمَنْ ماتَ . . فقدْ قامَتْ قيامتُهُ »[3] .

---

(١) رواه مسلم (٢٨٧٥) ، وفيه ذكرُ أسمائهم .
(٢) رواه الترمذي (٢٤٦٠) بتقديم الجملة الثانية على الأولىٰ .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذكر الموت » . « إتحاف » (١٠/ ٣٨٠) ، والديلمي في =

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا ماتَ أحدُكُم . . عُرِضَ عليهِ مقعدُهُ غدوةً وعشيةً ، إنْ كانَ مِنْ أهلِ الجنَّةِ . . فمِنْ أهلِ الجنَّةِ ، وإنْ كانَ مِنْ أهلِ النارِ . . فمِنْ أهلِ النَّارِ ، يُقالُ : هـٰذا مقعدُكَ حتىٰ يبعثَكَ اللهُ يومَ القيامةِ »[١] وليسَ يخفىٰ ما في مشاهدةِ المقعدينِ مِنْ عذابٍ ونعيمٍ في الحالِ .

وعنْ أبي قيسٍ قالَ : كنَّا معَ علقمةَ في جنازةٍ فقالَ : أمَّا هـٰذا . . فقدْ قامَتْ قيامتُهُ[٢] .

وقالَ عليٌّ كرمَ اللهُ وجهَهُ : (حرامٌ علىٰ نفسٍ أنْ تخرجَ مِنَ الدنيا حتىٰ تعلمَ مِنْ أهلِ الجنَّةِ هيَ أمْ مِنْ أهلِ النَّارِ)[٣] .

وقالَ أبو هريرةَ رضي الله عنه : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ ماتَ مريضاً . . ماتَ شهيداً ، ووُقيَ فتَّانيِ القبرِ ، وغُديَ ورِيحَ عليهِ برزقِهِ مِنَ الجنَّةِ »[٤] .

= « مسند الفردوس » (١١١٧) ، وفي (ب) : (القيامة الأولىٰ) .

(١) رواه البخاري (١٣٧٩) ، ومسلم (٢٨٦٦) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

(٢) رواه الطبري في « تهذيب الآثار » (٢٤٠) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « ذكر الموت » . « إتحاف » (١٠/ ٣٨١) ، وعبد الرزاق في « المصنف » (٦٧٥٠) .

(٤) رواه ابن ماجه (١٦١٥) ، وفي (ب) : (من مات غريباً) ، وقال الحافظ السيوطي في « شرح الصدور » (ص٢٩٩) (إنما هو : « من مات مرابطاً » لا « من مات مريضاً ») ، وانظر « الإتحاف » (١٠/ ٣٨١ ـ ٣٨٢) .

وقالَ مسروقٌ : (ما غبطتُ أحداً ما غبطتُ مؤمناً في اللحدِ ؛ قدِ استراحَ مِنْ نصَبِ الدنيا ، وأمنَ مِنْ عذابِ اللهِ تعالىٰ)[1] .

وقالَ يعلىٰ بنُ الوليدِ : كنتُ أمشي يوماً معَ أبي الدرداءِ ، فقلتُ لهُ : ما تحبُّ لِمَنْ تحبُّ ؛ قالَ : الموتُ ، قلتُ : فإنْ لمْ يمتْ ؟ قالَ : يقلُّ مالُه وولدُهُ[2] .

وإنَّما أحبَّ الموتَ لأنَّهُ لا يحبُّهُ إلاَّ المؤمنُ ، والموتُ إطلاقُ المؤمنِ مِنَ السجنِ ، وإنَّما أحبَّ قلةَ المالِ والولدِ لأنَّهُ فتنةٌ وسببٌ للأنسِ بالدنيا ، والأنسُ بمَنْ لا بدَّ مِنْ فراقِهِ غايةُ الشقاوةِ ، وكلُّ ما سوى اللهِ وذكرِهِ والأنسِ بهِ . . فلا بدَّ مِنْ فراقِهِ عندَ الموتِ لا محالةَ .

ولهٰذا قالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرٍو رضيَ اللهُ عنهُما : (إنَّما مثلُ المؤمنِ حينَ تخرجُ نفسُهُ أوْ روحُهُ مثلُ رجلٍ كانَ في سجنٍ فأُخرجَ منهُ ، فهوَ يتفسحُ في الأرضِ ويتقلَّبُ فيها)[3] .

وهٰذا الذي ذكرَهُ حالُ مَنْ تجافىٰ عنِ الدنيا وتبرَّمَ بها ، ولمْ يكنْ لهُ أنسٌ إلاَّ بذكرِ اللهِ تعالىٰ ، وكانَتْ شواغلُ الدنيا تحبسُهُ عنْ محبوبِهِ ، ومقاساةُ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « ذكر الموت » . « إتحاف » (١٠/ ٣٨٢) ، وابن المبارك في « الزهد » (٢٧٤) ، وبنحوه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦٠١١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ٩٧) .

(٢) رواه ابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٧٤٣) ، وأحمد في « الزهد » (٧٤٨) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الزهد » (١٩٢) ، وابن المبارك في « الزهد » (٥٩٧) .

الشهواتِ تؤذيهِ ، فكانَ في الموتِ خلاصُهُ مِنْ جميعِ المؤذياتِ ، وانفرادُهُ بمحبوبِهِ الذي كانَ بِهِ أنسُهُ مِنْ غيرِ عائقٍ ولا دافعٍ ، وما أجدرَ ذلكَ بأنْ يكونَ منتهى النعيمِ واللذاتِ .

وأكملُ اللذاتِ للشهداءِ الذين قُتلوا في سبيلِ اللهِ ؛ لأنَّهم ما أقدموا على القتالِ إلاَّ قاطعينَ التفاتَهُمْ عَنْ علائِقِ الدنيا ، مشتاقينَ إلىٰ لقاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، راضينَ بالقتلِ في طلبِ مرضاتِهِ ، فإنْ نظرَ إلى الدنيا . . فقدْ باعَها طوعاً بالآخرةِ ، والبائعُ لا يلتفتُ قلبُهُ إلى المبيعِ ، وإنْ نظرَ إلى الآخرةِ . . فقدِ اشتراها وتشوَّقَ إليها ، فما أعظمَ فرحَهُ بما اشتراهُ إذا رآهُ ، وما أقلَّ التفاتَهُ إلىٰ ما باعَهُ إذا فارقَهُ ، وتجردُ القلبِ لحبِّ اللهِ تعالىٰ قدْ يتَّفقُ في بعضِ الأحوالِ ، ولكنْ لا يدركُهُ الموتُ عليهِ فيتغيرَ[1] ، والقتالُ سببُ الموتِ ، فكانَ سبباً لإدراكِ الموتِ علىٰ مثلِ هـٰذهِ الحالةِ ، فلهـٰذا عظمَ النعيمُ ؛ إذْ معنى النعيمِ : أنْ ينالَ الإنسانُ ما يريدُهُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ فكانَ هـٰذا أجمعَ عبارةٍ لمعاني لذاتِ الجنَّةِ .

وأعظمُ العذابِ أنْ يُمنعَ الإنسانُ عنْ مرادِهِ ؛ كما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ فكانَ هـٰذا أجمعَ عبارةٍ لعقوباتِ أهلِ جهنمَ .

وهـٰذا النعيمُ يدركُهُ الشهيدُ كما انقطعَ نفسُهُ مِنْ غيرِ تأخيرٍ ، وهـٰذا أمرٌ

---

(١) فليس للموت سلطان على الحب الذي تجرد له القلب ، بل يبقىٰ في القلب بعد الموت ، وينعم به صاحبه أعظم نعيم .

انكشفَ لأربابِ القلوبِ بنورِ اليقينِ ، وإنْ أردتَ عليهِ شهادةً مِنْ جهةِ السمعِ.. فجميعُ أحاديثِ الشهداءِ تدلُّ عليه ، وكلُّ حديثٍ يشتملُ على التعبيرِ عنْ منتهىٰ نعيمِهمْ بعبارةٍ أخرىٰ ، فقدْ رُوِيَ عنْ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها أنَّها قالَتْ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لجابرٍ : « ألا أبشرُكَ يا جابرُ ؟! » وكانَ قدِ استُشهدَ أبوهُ يومَ أحدٍ ، قالَ : بلىٰ ، بشَّرَكَ اللهُ بالخيرِ ، قالَ : « إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أحيا أباكَ وأقعدَهُ بينَ يديهِ وقالَ : تمنَّ عليَّ عبدي ما شئتَ أعطيكَهُ ، فقالَ : يا ربِّ ؛ ما عبدتُكَ حقَّ عبادتِكَ ، أتمنَّىٰ عليكَ أن تردَّني إلى الدنيا فأقاتلَ معَ نبيِّكَ فأُقتلَ فيكَ مرةً أخرىٰ ، قالَ لهُ : إنَّهُ قدْ سبقَ منِّي أنَّكَ إليها لا ترجعُ »[1] .

وقالَ كعبٌ : يُوجدُ رجلٌ في الجنَّةِ يبكي ، فقيلَ لهُ : لمَ تبكي وأنتَ في الجنَّةِ ؟! قالَ : أبكي لأنِّي لمْ أُقتلْ في اللهِ إلاَّ قتلةً واحدةً ، وكنتُ أشتهي أنْ أُردَّ فأُقتلَ فيهِ قتلاتٍ[2] .

❊ ❊ ❊

واعلمْ : أنَّ المؤمنَ ينكشفُ لهُ عقيبَ الموتِ مِنْ سعةِ جلالِ اللهِ ما تكونُ الدنيا بالإضافةِ إليه كالسجنِ والمضيقِ ، ويكونُ مثالُهُ كالمحبوسِ في بيتٍ

---

(١) رواه الترمذي (٣٠١٠) ، وابن ماجه (١٩٠) ، وفيه : (يا عبدي تمنَّ عليَّ.. أعطك ، قال : يا رب ؛ تحييني فأقتل فيك ثانية ، قال الربُّ عز وجل : إنه قد سبق مني أنهم إليها لا يرجعون) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٤٤) ، وفيه : (فأقتل فيه ثلاث قتلات) .

مظلمٍ فُتحَ لهُ بابٌ إلىٰ بستانٍ واسعِ الأكنافِ لا يبلغُ طَرْفُهُ أقصاه ، فيهِ أنواعُ الأشجارِ والأزهارِ والثمارِ والطيورِ ، فلا يشتهي العودَ إلى السجنِ المظلمِ .

وقدْ ضربَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لهُ مثلاً فقالَ لرجلٍ ماتَ : « أصبحَ هـٰذا مرتحلاً مِنَ الدنيا وتركَها لأهلِها ؛ فإنْ كانَ قدْ رضيَ . . فلا يسرُّهُ أنْ يرجعَ إلى الدنيا كما لا يسرُّ أحدَكُم أنْ يرجعَ إلىٰ بطنِ أمِّهِ »[1] فعرَّفَكَ بهـٰذا أنَّ نسبةَ سعةِ الآخرةِ إلى الدنيا كنسبةِ سعةِ الدنيا إلىٰ ظلمةِ الرحمِ .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ مثلَ المؤمنِ في الدنيا كمثلِ الجنينِ في بطنِ أمِّهِ ، إذا خرجَ مِنْ بطنِها . . بكىٰ علىٰ مخرجِهِ ، حتىٰ إذا رأى الضوءَ ورضعَ . . لمْ يحبَّ أنْ يرجعَ إلىٰ مكانِهِ ، وكذلكَ المؤمنُ يجزعُ مِنَ الموتِ ، فإذا أفضىٰ إلىٰ ربِّه . . لمْ يحبَّ أنْ يرجعَ إلى الدنيا ؛ كما لا يحبُّ الجنينُ أنْ يرجعَ إلىٰ بطنِ أمِّهِ »[2] .

وقيلَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : إنَّ فلاناً قدْ ماتَ ، فقالَ : « مستريحٌ أو مستراحٌ منه »[3] أشارَ بالمستريحِ إلى المؤمنِ ، وبالمستراحِ منهُ

---

(١) قال العراقي : (رواه ابن أبي الدنيا من حديث عمرو بن دينار مرسلاً ورجاله ثقات) . « إتحاف » (١٠/ ٣٨٤) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « ذكر الموت » . « إتحاف » (١٠/ ٣٨٤) ، وفي (ف ، ص ، ي) : (رجع) بدل (رضع) ، وسقطت من باقي النسخ ، والمثبت من نسخة الحافظ الزبيدي . انظر « الإتحاف » (١٠/ ٣٨٤) .

(٣) رواه البخاري (٦٥١٢) ، ومسلم (٩٥٠) .

إلى الفاجرِ ؛ إذْ يستريحُ أهلُ الدنيا منهُ .

وقالَ أبو عمرَ صاحبُ السقيا : مرَّ بنا ابنُ عمرَ ونحنُ صبيانٌ ، فنظرَ إلىٰ قبرٍ ؛ فإذا جمجمةٌ باديةٌ ، فأمرَ رجلاً فواراها ثمَّ قال : (إنَّ هـٰذهِ الأبدانَ ليسَ يضرُّها هـٰذا الثَّرىٰ شيئاً ، وإنَّما الأرواحُ التي تُعاقبُ وتُثابُ إلىٰ يومِ القيامةِ)[1] .

وعنْ عمرِو بن دينارٍ قالَ : ما مِنْ ميتٍ يموتُ إلاَّ وهوَ يعلمُ ما يكونُ في أهلِهِ بعدَهُ ، وإنَّهم ليغسِّلونَهُ ويكفِّنونَهُ وإنَّهُ لينظرُ إليهِمْ[2] .

وقالَ مالكُ بنُ أنسٍ رحمةُ اللهِ عليهِ : بلغَني أنَّ أرواحَ المؤمنينَ مرسلةٌ تذهبُ حيثُ شاءَتْ[3] .

وقالَ النعمانُ بنُ بشيرٍ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ على المنبرِ يقولُ : « ألا إنَّهُ لمْ يبقَ مِنَ الدنيا إلاَّ مثلُ الذبابِ تمورُ في جوِّها ، فاللهَ اللهَ في إخوانِكُمْ مِنْ أهلِ القبورِ ، فإنَّ أعمالَكُم تُعرضُ عليهِمْ »[4] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « القبور » . « إتحاف » (١٠/ ٣٨٤) ، وقال العلامة اللقاني في « الزهر المنثور » كما في هامش « شرح الصدور » (ص٣٨١) : (الذي عليه الأكثر والمعظم : أن العذاب على الروح والجسد جميعاً ، والنعيم كذلك ، خلافاً لابن عمر وابن حزم الظاهري وابن هبيرة ، وابن عمر انفرد بهـٰذا دون الصحابة والجمهور) .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٣٤٩) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (١٠/ ٣٨٥) .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (١) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ٣٠٧) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٧٦١) .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لا تفضحوا موتاكُمْ بسيئاتِ أعمالِكُمْ ؛ فإنَّها تُعرضُ علىٰ أوليائِكُمْ مِنْ أهلِ القبورِ »[1] .

ولذلكَ قالَ أبو الدرداءِ : (اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ أنْ أعملَ عملاً أُخزىٰ بهِ عندَ عبدِ اللهِ بنِ رواحةَ)[2] وكانَ قدْ ماتَ ، وهوَ خالُهُ .

وسُئلَ عبدُ اللهِ بنُ عمرِو بن العاصِ عنْ أرواحِ المؤمنينَ إذا ماتوا أينَ هيَ ؟ قالَ : (في صورِ طيرٍ بيضٍ في ظلِّ العرشِ ، وأرواحُ الكافرينَ في الأرضِ السَّابعةِ)[3] .

وقالَ أبو سعيدٍ الخدريُّ رضيَ اللهُ عنهُ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « إنَّ الميتَ يعرفُ مَنْ يغسِّلُهُ ومَنْ يحملُهُ ، ومَنْ يدلِّيهِ في قبرِهِ »[4] .

وقالَ صالحٌ المريُّ : بلغَني أنَّ الأرواحَ تتلاقىٰ عندَ الموتِ ، فتقولُ أرواحُ الموتىٰ للروحِ التي تخرجُ إليهِمْ : كيفَ كانَ مأواكِ ؟ وفي أيِّ الجسدينِ كنتِ ؟ في طيبٍ أو خبيثٍ ؟[5] .

---

(١) رواه الديلمي في « مسند الفردوس » (٧٣٥٧) .
(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » من رواية نعيم بن حماد (١٦٥) .
(٣) رواه ابن المبارك في « الزهد » من رواية نعيم بن حماد (١٦٤) ، وفي (أ) : (حواصل) بدل (صور) .
(٤) رواه أحمد في « المسند » (٣/٣) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (١٠/ ٣٩٣) .

وقالَ عبيدُ بنُ عميرٍ : أهلُ القبورِ يتوكَّفونَ الأخبارَ ، فإذا أتاهمُ الميتُ . . قالوا : ما فعلَ فلانٌ ؟ فيقولُ : ألمْ يأتِكُمْ ، أوَما قدمَ عليكُمْ ؟ فيقولونَ : إنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجعونَ ، سُلكَ بهِ غيرُ سبيلِنا[1] .

وعنْ جعفرٍ ، عنْ سعيدٍ قالَ : إذا ماتَ الرجلُ . . استقبلَهُ ولدُهُ كما يُستقبلُ الغائبُ[2] .

وقالَ مجاهدٌ : إنَّ الرجلَ ليُبشَّرُ بصلاحِ ولدِهِ في قبرِهِ[3] .

وروىٰ أبو أيوبَ الأنصاريُّ عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّهُ قالَ : « إنَّ نفْسَ المؤمنِ إذا قُبضَتْ . . تلقَّاها أهلُ الرحمةِ مِنْ عبادِ اللهِ كما يُتلقَّى البشيرُ في الدنيا يقولونَ : أنظِروا أخاكُمْ حتىٰ يستريحَ ؛ فإنَّهُ كانَ في كربٍ شديدٍ ، فيسألونَهُ : ماذا فعلَ فلانٌ ؟ وماذا فعلَتْ فلانةُ ؟ وهلْ تزوجَتْ فلانةُ ؟ فإذا سألوهُ عَنْ رجلٍ ماتَ قبلَهُ وقالَ : ماتَ قبلي . . قالوا : إنَّا للهِ وإنا إليهِ راجعونَ ، ذُهبَ بهِ إلىٰ أمِّهِ الهاويةِ »[4] .

* * *

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٢٧١) وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٦١٤٠) ، والبيهقي في « الشعب » (٨٨٧٤) ، ويتوكفون : يتوقعون ويسألون عن الأخبار .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (١٥) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (١٦) .

(٤) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (٤/ ١٢٩) .

بيان كلام القبر للميّت

وكلامُ الموتىٰ إمَّا بلسانِ المقالِ ، أو بلسانِ الحالِ التي هيَ أفصحُ في تفهيمِ الموتىٰ مِنْ لسانِ المقالِ في تفهيمِ الأحياءِ .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يقولُ القبرُ للميتِ حينَ يُوضعُ فيهِ : ويحَكَ يا بنَ آدمَ ! ما غرَّكَ بي ؟! ألمْ تعلمْ أنِّي بيتُ الفتنةِ وبيتُ الظلمةِ ، وبيتُ الوحدةِ ، وبيتُ الدودِ ؟! ما غرَّكَ بي إذْ كنتَ تمرُّ بي فدَّاداً ؟! فإنْ كانَ مصلحاً . . أجابَ عنهُ مجيبُ القبرِ فيقولُ : أرأيتَ إنْ كانَ يأمرُ بالمعروفِ وينهىٰ عنِ المنكرِ ، فيقولُ القبرُ : إني إذاً أتحولُ عليهِ خضراً ، ويعودُ جسدُه نوراً ، وتصعدُ روحُهُ إلى اللهِ تعالىٰ »[1] ، و(الفدَّادُ) : هوَ الذي يقدِّمُ رِجلاً ويؤخِّرُ أخرىٰ ، كذلك فسَّرَه الراوي[2] .

وقالَ عبيدُ بنُ عميرٍ الليثيُّ : ليسَ مِنْ ميتٍ يموتُ إلاَّ نادَتْهُ حفرتُهُ التي يُدفنُ فيها : أنا بيتُ الظلمةِ والوحدةِ والانفرادِ ، فإنْ كنتَ في حياتِكَ مطيعاً للهِ . . كنتُ عليكَ اليومَ رحمةً ، وإنْ كنتَ عاصياً . . فأنا اليومَ عليكَ نقمةٌ ، أنا الذي مَنْ دخلَني مطيعاً . . خرجَ مسروراً ، ومَنْ دخلَني عاصياً . . خرجَ مثبوراً[3] .

---

(١) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (٢٢/٣٧٧) ، وأبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٦٧٤٨) .

(٢) أي : الذي يمشي مشية المتبختر .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « القبور ». « إتحاف » (١٠/٣٩٦) ، وأورده الحافظ ابن رجب =

وقالَ محمدُ بنُ صبيحٍ : بلغَنا أنَّ الرجلَ إذا وُضعَ في قبرِهِ فعُذبَ وأصابَهُ بعضُ ما يكرهُ . . ناداه جيرانُهُ مِنَ الموتىٰ : أيُّها المخلَّفُ في الدنيا بعدَ إخوانِهِ وجيرانِهِ ؛ أما كانَ لكَ فينا معتبرٌ ؟! أما كانَ لكَ في تقدُّمِنا إيّاكَ فكرةٌ ؟! أما رأيتَ انقطاعَ أعمالِنا عنَّا وأنتَ في المهلةِ ، فهلاَّ استدركتَ ما فاتَ إخوانَكَ ؟! وتناديهِ بقاعُ الأرضِ : أيُّها المغترُّ بظاهرِ الدنيا ؛ هلاَّ اعتبرتَ بمَنْ غُيِّبَ مِنْ أهلِكَ في بطنِ الأرضِ ممَّن غرَّتْهُ الدنيا قبلَكَ ، ثمَّ سبقَ بهِ أجلُهُ إلى القبورِ وأنتَ تراهُ محمولاً تهاداه أحبَّتُهُ إلى المنزلِ الذي لا بدَّ لهُ منهُ[1] .

وقالَ يزيدُ الرقاشيُّ : بلغَني أنَّ الميتَ إذا وُضعَ في قبرِهِ . . احتوشَتْهُ أعمالُهُ ، ثمَّ أنطقَها اللهُ تعالىٰ فقالَتْ : أيُّها العبدُ المنفردُ في حفرتِهِ ؛ انقطعَ عنكَ الأخلاءُ والأهلونَ فلا أنيسَ لكَ اليومَ غيرُنا[2] .

وقالَ كعبٌ : إذا وُضعَ العبدُ الصَّالحُ في القبرِ . . احتوشَتْهُ أعمالُهُ الصالحةُ ؛ الصلاةُ والصيامُ والحجُّ والجهادُ والصدقةُ ، قالَ : وتجيءُ ملائكةُ العذابِ مِنْ قِبَلِ رجليهِ ، فتقولُ الصلاةُ : إليكُمْ عنهُ ، فلا سبيلَ لكمْ عليهِ : فقدْ أطالَ بيَ القيامَ للهِ عليهما ، فيأتونَهُ مِنْ قِبلِ رأسِهِ ، فيقولُ

= الحنبلي في « أهوال القبور » (ص٤٦) .

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « القبور » . « إتحاف » (١٠/٣٩٦) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « القبور » . « إتحاف » (١٠/٣٩٦) ، والخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد » (٣/ ٤٢٠) .

الصيامُ : لا سبيلَ لكُمْ عليهِ ؛ فقدْ أطالَ ظمأَهُ للهِ في دارِ الدنيا ، فلا سبيلَ لكمْ عليهِ ، فيأتونَهُ مِنْ قبلِ جسدِهِ ، فيقولُ الحجُّ والجهادُ : إليكُمْ عنهُ ؛ فقدْ أنصبَ نفسَهُ وأتعبَ بدنَهُ وحجَّ وجاهدَ للهِ ، فلا سبيلَ لكُمْ عليهِ ، قالَ : فيأتونَهُ مِنْ قِبلِ يديهِ ، فتقولُ الصدقةُ : كفُّوا خلُّوا عنْ صاحبي ؛ فكمْ مِنْ صدقةٍ خرجَتْ مِنْ هاتينِ اليدينِ حتىٰ وقعَتْ في يدِ اللهِ تعالى ابتغاءَ وجهِهِ ، فلا سبيلَ لكُمْ عليهِ .

قالَ : فيُقالُ لهُ : هنيئاً ، طبتَ حيّاً وطبتَ ميتاً ، قالَ : وتأتيه ملائكةُ الرحمةِ ، فتفرشُ لهُ فراشاً مِنَ الجنَّةِ ، ودثاراً مِنَ الجنَّةِ ، ويُفسحُ لهُ في قبرِهِ مدَّ بصرِهِ ، ويُؤتىٰ بقنديلٍ مِنَ الجنَّةِ فيستضيءُ بنورِهِ إلىٰ يومِ يبعثُهُ اللهُ مِنْ قبرِهِ[1] .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عبيدِ بنِ عميرٍ في جنازةٍ : بلغَني أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « إنَّ الميتَ يقعدُ وهوَ يسمعُ خطوَ مشيِّعيهِ ، فلا يكلِّمُهُ شيءٌ إلاَّ قبرُهُ يقولُ : ويحَكَ ابنَ آدمَ ! أليسَ قدْ حُذِّرتَني وحُذِّرتَ ضيقي ونتني ، وهَوْلي ودودي ؟! فماذا أعددتَ لي ؟ »[2] .

❋ ❋ ❋

---

(١) أورده هٰكذا الحافظ ابن رجب الحنبلي في « أهوال القبور » (ص٥٨) ، ورواه هناد في « الزهد » (٣٣٨) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (١٢١٨٨) بنحوه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « القبور » ، وابن المبارك في « الزهد » من رواية نعيم بن حماد (١٦٣) ، ولم يرفعه . انظر « الإتحاف » (١٠/٣٩٧) .

بيان عذاب القبر وسؤال منكر ونكير[1]

قالَ البراءُ بنُ عازبٍ : خرجنا معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في جنازةِ رجلٍ مِنَ الأنصارِ ، فجلسَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ علىٰ قبرِهِ منكساً رأسَهُ ثمَّ قالَ : « اللهمَّ ؛ إنِّي أعوذُ بكَ مِنْ عذابِ القبرِ » ثلاثاً ، ثمَّ قالَ : « إنَّ المؤمنَ إذا كانَ في قبلٍ مِنَ الآخرةِ[2] . . بعثَ اللهُ إليهِ ملائكةً كأنَّ وجوهَهُمُ الشمسُ معَهُم حنوطُهُ وكفنُهُ ، فيجلسونَ مدَّ بصرِهِ ، فإذا خرجَتْ روحُه . . صلَّىٰ عليهِ كلُّ ملكٍ بينَ السماءِ والأرضِ وكلُّ ملكٍ في السماءِ ، وفُتحَتْ أبوابُ السماءِ ، فليسَ منها بابٌ إلاَّ يحبُّ أنْ يدخلَ بروحِهِ منهُ ، فإذا صعدَ بروحِهِ . . قيلَ : أيْ ربِّ ؛ عبدُكَ فلانٌ ، فيقولُ : ارجعوهُ فأروهُ ما أعددتُ لهُ مِنَ الكرامةِ ؛ فإنِّي وعدتُهُ : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ . . . ﴾ الآيةَ ، وإنَّهُ ليسمعُ خفقَ نعالِهِمْ إذا ولَّوا مدبرينَ ، حتىٰ يُقالُ : يا هـٰذا ؛ مَنْ ربُّك ؟ وما دينُك ؟ ومَنْ نبيُّكَ ؟ فيقولُ : ربيَ اللهُ ، وديني الإسلامُ ، ونبيِّي محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، قالَ : فينتهرانِهِ انتهاراً شديداً ـ وهيَ آخرُ فتنةٍ

---

(١) قال الحافظ السيوطي في « شرح الصدور » (ص٣٥٠) : (قال العلماء : عذاب القبر هو عذاب البرزخ ، أضيف إلى القبر ؛ لأنه الغالب ، وإلا . . فكل ميت أراد الله تعذيبه . . ناله ما أراد به ، قُبر أم لم يُقبر ، ولو صلب ، أو غرق في البحر ، أو أكلته الدواب ، أو حرق حتىٰ صار رماداً وذرّي في الريح ، ومحله : الروح والبدن جميعاً باتفاق أهل السنة ، وكذا القول في النعيم) .

(٢) قبل : أي : إقبال منها .

تُعرضُ على الميتِ ـ فإذا قالَ ذلكَ . . ناديٰ منادٍ : أنْ صدقتَ ، وهوَ معنىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ . . . ﴾ الآيةَ .

ثمَّ يأتيهِ آتٍ حسنُ الوجهِ طيبُ الريحِ حسنُ الثيابِ فيقولُ : أبشرْ برحمةٍ مِنْ ربِّكَ وجنَّاتٍ فيها نعيمٌ مقيمٌ ، فيقولُ : وأنتَ فبشَّرَكَ اللهُ بخيرٍ ، مَنْ أنتَ ؟ فيقولُ : أنا عملُكَ الصَّالحُ ، واللهِ ؛ ما علمتُ إن كنتَ لسريعاً في طاعةِ اللهِ ، بطيئاً عنْ معصيةِ اللهِ ، فجزاكَ اللهُ خيراً ، قالَ : ثمَّ ينادي منادٍ : أنِ افرشوا لهُ مِنْ فرشِ الجنَّةِ ، وافتحوا لهُ باباً إلى الجنَّةِ ، فيُفرشُ لهُ فرشٌ مِنَ الجنَّةِ ، ويُفتحُ لهُ بابٌ إلى الجنَّةِ ، فيقولُ : اللهمَّ ؛ عجِّلْ قيامَ الساعةِ ، حتىٰ أرجعَ إلىٰ أهلي ومالي .

قالَ : وأما الكافرُ . . فإنَّهُ إذا كانَ في قبلٍ مِنَ الآخرةِ وانقطاعٍ مِنَ الدنيا . . نزلَتْ عليهِ ملائكةٌ غلاظٌ شدادٌ ، معَهُم ثيابٌ مِنْ نارٍ وسرابيلُ مِنْ قطرانٍ ، فيحتوشونَهُ ؛ فإذَا خرجَتْ نفسُهُ . . لعنَهُ كلُّ ملكٍ بينَ السماءِ والأرضِ وكلُّ ملكٍ في السماءِ ، وغُلِّقَتْ أبوابُ السماءِ ، فليسَ منها بابٌ إلاَّ يكرهُ أنْ يدخلَ بروحِهِ منهُ ، فإذا صعدَ بروحِهِ . . نُبذَ ، وقيلَ : أيْ ربِّ ؛ عبدُكَ فلانٌ لمْ تقبلْهُ سماءٌ ولا أرضٌ ، فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ : ارجعوهُ فأروهُ ما أعددتُ لهُ من الشرِّ ؛ إنِّي وعدتهُ : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ . . . ﴾ الآيةَ ، وإنَّهُ ليسمعُ خفقَ نعالِهِم إذا ولَّوا مدبرينَ ، حتىٰ يُقالُ لهُ : يا هٰذَا ؛ مَنْ ربُّكَ ؟ وما دينُكَ ؟ ومَنْ نبيُّكَ ؟ فيقولُ : لا أدري ، فيُقالُ : لا دريتَ .

ثمَّ يأتيهِ آتٍ قبيحُ الوجهِ منتنُ الريحِ قبيحُ الثيابِ فيقولُ : أبشرْ بسخطِ

مِنَ اللهِ وبعذابٍ أليمٍ مقيمٍ ، فيقولُ : بشَّرَك اللهُ بشرٍّ ، مَنْ أنتَ ؟ فيقولُ : أنا عملُكَ الخبيثُ ، واللهِ ؛ إنْ كنتَ لسريعاً في معصيةِ اللهِ بطيئاً عنْ طاعةِ اللهِ ، فجزاكَ اللهُ شرّاً ، فيقولُ : وأنتَ فجزاكَ اللهُ شرّاً ، ثم يُقيَّضُ لهُ أصمُّ أعمىٰ أبكمُ ، معهُ مرزبَّةٌ مِنْ حديدٍ لوِ اجتمعَ عليها الثقلانِ علىٰ أنْ يقلُّوها . . لمْ يستطيعوا ، لوْ ضُربَ بها جبلٌ . . صارَ تراباً ، فيضربُهُ بها ضربةً فيصيرُ تراباً ، ثمَّ تعودُ فيهِ الروحُ ، فيضربُ بها عينيهِ ضربةً يسمعُها مَنْ على الأرضِ ليسَ الثقلين ، قالَ : ثمَّ ينادي منادٍ : أنِ افرشوا لهُ لوحينِ مِنْ نارٍ ، وافتحوا لهُ باباً إلى النَّارِ ، فيُفرشُ لهُ لوحانِ مِنْ نارٍ ، ويُفتحُ لهُ بابٌ إلى النَّارِ »[1] .

وقالَ محمدُ بنُ عليٍّ : ما مِنْ ميتٍ يموتُ إلاَّ مُثِّلَ لهُ عندَ الموتِ أعمالُهُ الحسنةُ وأعمالُهُ السيئةُ ، قالَ : فيشخصُ إلىٰ حسناتِهِ ، ويطرق عنْ سيئاتِهِ[2] .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ المؤمنَ إذا احتُضرَ . . أتتْهُ الملائكةُ بحريرةٍ فيها مسكٌ وضبائرُ الريحانِ[3] ، فتسلُّ روحَهُ كما تُسلُّ الشعرةُ مِنَ العجينِ ، ويُقالُ : أيَّتُها النفسُ المطمئنةُ ؛ اخرجي راضيةً ومرضياً عنكِ إلىٰ روحِ اللهِ وكرامتِهِ ؛ فإذا خرجَتْ روحُهُ . . وُضعتْ

---

(١) رواه بطوله أحمد في « المسند » (٤/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٣٧ ـ ٣٨) ، وبنحوه عند أبي داوود (٤٧٥٣) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « الموت » . « إتحاف » (١٠/ ٤٠١) .

(٣) ضبائر : جمع ضِبارة : الجماعات في تفرقة .

علىٰ ذلكَ المسكِ والريحانِ ، وطُويَتْ عليها الحريرةُ وبُعثَ بها إلىٰ عليينَ ، وإنَّ الكافرَ إذا احتُضرَ . . أتتْهُ الملائكةُ بمسحٍ فيهِ جمرةٌ[1] ، فتنزعُ روحَهُ انتزاعاً شديداً ، ويُقالُ : أيَّتُها النفسُ الخبيثةُ ؛ اخرجي ساخطةً ومسخوطاً عليكِ إلىٰ هوانِ اللهِ وعذابِهِ ، فإذا خرجَتْ روحُهُ . . وُضعَتْ علىٰ تلكَ الجمرةِ وإنَّ لها نشيشاً ، ويُطوىٰ عليها المسحُ ويُذهبُ بها إلىٰ سجينٍ »[2] .

وعنْ محمدِ بن كعبٍ القرظيِّ : أنهُ كانَ يقرأُ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ . قالَ : أيَّ شيءٍ تريدُ ؟ في أيِّ شيءٍ ترغبُ ؟ أتريدُ أنْ ترجعَ لتجمعَ المالَ وتغرسَ الغراسَ ، وتبنيَ البنيانَ وتشققَ الأنهارَ ؟ قالَ : لا ، لعلي أعملُ صالحاً فيما تركتُ ، قالَ : فيقولُ الجبارُ : ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ﴾ أيْ : ليقولَنَّها عندَ الموتِ[3] .

وقالَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « المؤمنُ في قبرِهِ في روضةٍ خضراءَ ، ويُرحبُ لهُ في قبرِهِ سبعونَ ذراعاً ، ويضيءُ لهُ حتىٰ يكونَ كالقمرِ ليلةَ البدرِ ، هلْ تدرونَ فيماذا أنزلت : ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ ؟ » قالوا : اللهُ ورسولُهُ أعلمُ ، قالَ : « عذابُ الكافرِ في

---

(١) مِسح : قطعة من الكساء الأسود .
(٢) رواه البزار في « مسنده » (٩٥٤١) ، ونحوه عند النسائي (٤/٨) ، والنشيش : صوت الماء إذا غلىٰ .
(٣) رواه الطبري في « جامع البيان » (١٠/١٨/٦٦) .

قبرِهِ ، يُسلَّطُ عليهِ تسعةٌ وتسعونَ تنيناً ، هلْ تدرونَ ما التنينُ ؟ تسعةٌ وتسعونَ حيةً ، لكلِّ حيَّةٍ سبعةُ رؤوسٍ يخدشونَهُ ويلحسونَهُ وينفخونَ في جسمِهِ إلىٰ يومِ القيامةِ »[1] .

ولا ينبغي أنْ يُتعجبَ مِنْ هـٰذا العددِ على الخصوصِ ؛ فإنَّ أعدادَ هـٰذهِ الحيَّاتِ والعقاربِ بقدرِ أعدادِ الأخلاقِ المذمومةِ مِنَ الكبرِ والرياءِ والحسدِ ، والغلِّ والحقدِ وسائرِ الصفاتِ ؛ فإنَّ لها أصولاً معدودةً ، ثمَّ تتشعبُ منها فروعٌ معدودةٌ ، ثمَّ تنقسمُ فروعُها بأقسامٍ ، وتلكَ الصفاتُ بأعيانِها هيَ المهلكاتُ ، وهيَ بأعيانِها تنقلبُ عقاربَ وحيَّاتٍ ، فالقويُّ منها يلدغُ لدْغَ التنينِ ، والضعيفُ يلدغُ لدْغَ العقربِ ، وما بينَهما يؤذي إيذاءَ الحيَّةِ .

وأربابُ القلوبِ والبصائرِ يشاهدونَ بنورِ البصيرةِ هـٰذهِ المهلكاتِ وانشعابَ فروعِها ، إلاَّ أنَّ مقدارَ عددِها لا يُوقفُ عليهِ إلا بنورِ النبوَّةِ ، فأمثالُ هـٰذهِ الأخبارِ لها ظواهرُ صحيحةٌ وأسرارٌ خفيَّةٌ ، ولكنَّها عندَ أربابِ البصائرِ واضحةٌ ، فمَنْ لم تنكشفْ لهُ حقائقُها.. فلا ينبغي أنْ ينكرَ ظواهرَها ، بل أقلُّ درجاتِ الإيمانِ التصديقُ والتسليمُ .

* * *

فإنْ قلتَ : فنحنُ نشاهدُ الكافرَ في قبرِهِ مدةً ونراقبُهُ ولا نشاهدُ شيئاً مِنْ ذلكَ ، فما وجهُ التصديقِ علىٰ خلافِ المشاهدةِ ؟

---

(١) رواه ابن حبان (٣١٢٢) ، وأبو يعلىٰ في « المسند » (٦٦٤٤) .

فاعلمْ : أنَّ لكَ ثلاثَ مقاماتٍ في التصديقِ بأمثالِ هـٰذا :

أحدُها ـ وهوَ الأظهرُ والأصحُّ والأسلمُ ـ : أنْ تصدِّقَ بأنَّها موجودةٌ ، وهيَ تلدغُ الميتَ ولكنَّكَ لا تشاهدُ ذلكَ ؛ فإنَّ هـٰذهِ العينَ لا تصلحُ لمشاهدةِ الأمورِ الملكوتيَّةِ ، وكلُّ ما يتعلقُ بالآخرةِ فهوَ مِنْ عالمِ الملكوتِ ، أما ترى الصحابةَ رضيَ اللهُ عنهم كيفَ كانوا يؤمنونَ بنزولِ جبريلَ عليهِ السَّلامُ وما كانوا يشاهدونَهُ ، ويؤمنونَ بأنَّهُ عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ يشاهدُهُ ؟!

فإنْ كنتَ لا تؤمنُ بهـٰذا . . فتصحيحُ أصلِ الإيمانِ بالملائكةِ والوحيِ أهمُّ عليكَ .

وإنْ كنتَ آمنتَ بهِ وجوَّزتَ أنْ يشاهدَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ما لا تشاهدُهُ الأمَّةُ . . فكيفَ لا تجوِّزُ هـٰذا في الميتِ ؟!

وكما أنَّ الملكَ لا يشبهُ الآدميينَ والحيواناتِ فالحيَّاتُ والعقاربُ التي تلدغُ في القبرِ ليسَتْ مِنْ جنسِ حيَّاتِ عالمِنا ، بلْ هيَ جنسٌ آخرُ ، وتُدركُ بحاسَّةٍ أخرىٰ .

المقامُ الثاني : أن تتذكرَ أمرَ النائمِ ، وأنَّهُ قدْ يرىٰ في نومِهِ حيةً تلدغُهُ ، وهوَ يتألَّمُ بذلكَ حتىٰ تراهُ في نومِهِ يصيحُ ، ويعرقُ جبينُهُ ، وقدْ ينزعجُ مِنْ مكانِهِ ، كلُّ ذلك يدركُهُ مِنْ نفسِهِ ويتأذَّىٰ بهِ كما يتأذَّى اليقظانُ ، وهوَ يشاهدُهُ وأنتَ ترىٰ ظاهرَهُ ساكناً ، ولا ترىٰ حواليهِ حيةً ، والحيَّةُ موجودةٌ في حقِّهِ ،

والعذابُ حاصلٌ ولكنهُ في حقِّكَ غيرُ مشاهدٍ ، وإذا كانَ العذابُ في ألمِ اللدغِ . . فلا فرقَ بينَ حيةٍ تُتخيلُ أو تُشاهدُ .

المقامُ الثالثُ : أنَّك تعلمُ أنَّ الحيَّةَ بنفسِها لا تؤلمُ ، بلِ الذي يلقاكَ منها وهوَ السمُّ ، ثمَّ السمُّ ليسَ هوَ الألمَ ، بلْ عذابُكَ في الأثرِ الذي يحصُلُ فيكَ مِنَ السمِّ ، فلوْ حصلَ مثلُ ذلكَ الأثرِ مِنْ غيرِ سمٍّ . . لكانَ العذابُ قدْ توفرَ ، وكانَ لا يمكنُ تعريفُ ذلكَ النوعِ مِنَ العذابِ إلاَّ بأنْ يُضافَ إلى السببِ الذي يفضي إليهِ في العادةِ ؛ فإنَّهُ لو خُلقَ في الإنسانِ لذةُ الوقاعِ مثلاً مِنْ غيرِ مباشرةِ صورةِ الوقاعِ . . لمْ يمكنْ تعريفُها إلاَّ بالإضافةِ إليه ؛ لتكونَ الإضافةُ للتعريفِ بالسببِ ، وتكونَ ثمرةُ السببِ حاصلةً وإنْ لمْ تحصلْ صورةُ السببِ ، والسببُ يُرادُ لثمرتِهِ لا لذاتِهِ .

وهـٰذهِ الصفاتُ المهلكاتُ تنقلبُ مؤذياتٍ ومؤلماتٍ في النفسِ عندَ الموتِ ، فتكونُ آلامُها كآلامِ لدغِ الحيَّاتِ مِنْ غيرِ وجودِ حيَّاتٍ ، وانقلابُ الصفةِ مؤذيةً يضاهي انقلابَ العشقِ مؤذياً عندَ موتِ المعشوقِ ؛ فإنَّهُ كانَ لذيذاً ، فطرأَتْ حالةٌ صارَ اللَّذيذُ بنفسِهِ مؤلماً ، حتىٰ نزلَ بالقلبِ منْ أنواعِ العذابِ ما يتمنَّىٰ معهُ أنَّهُ لمْ يكنْ قدْ تنعَّمَ بالعشقِ والوصالِ ، بلْ هـٰذا بعينِهِ هوَ أحدُ أنواعِ عذابِ الميتِ ؛ فإنَّهُ قدْ سلَّطَ العشقَ في الدنيا علىٰ نفسِهِ ، فصارَ يعشقُ مالَهُ وعقارَهُ وجاهَهُ ، وولدَهُ وأقاربَهُ ومعارفَهُ ، ولوْ أخذَ جميعَ ذلكَ في حياتِهِ مَنْ لا يرجو استرجاعَهُ منهُ . . فماذا ترىٰ يكونُ حالُهُ ؟! أليسَ يعظمُ شقاؤُهُ ، ويشتدُّ عذابُهُ ، ويتمنَّىٰ ويقولُ : ليتَهُ لمْ يكنْ لي مالٌ قطُّ ،

ولا جاهٌ قطُّ فكنتُ لا أتأذىٰ بفراقِهِ ؟! فالموتُ عبارةٌ عنْ مفارقةِ المحبوباتِ الدنيويةِ كلِّها دفعةً واحدةً .

ما حالُ مَنْ كانَ لَهُ واحِدٌ غُيِّبَ عَنْهُ ذَلِكَ ٱلْواحِدُ[1]

فما حالُ مَنْ لا يفرحُ إلاّ بالدنيا ، فتُؤخذُ منهُ الدنيا وتُسلَّمُ إلىٰ أعدائِهِ ، ثمَّ ينضافُ إلىٰ هـٰذا العذابِ تحسُّرُهُ علىٰ ما فاتَهُ مِنْ نعيمِ الآخرةِ ، والحجابِ عنِ اللهِ تعالىٰ ؛ فإنَّ حبَّ غيرِ اللهِ يحجبُهُ عنْ لقاءِ اللهِ والتنعُّمِ بهِ ، فيتوالىٰ عليهِ ألمُ فراقِ جميعِ محبوباتِهِ ، وحسرتُهُ علىٰ ما فاتَهُ مِنْ نعيمِ الآخرةِ أبدَ الآبادِ ، وذلُّ الردِّ والحجابِ عنِ اللهِ تعالىٰ ، وذلكَ هوَ العذابُ الذي يُعذَّبُ بهِ ؛ إذْ لا يتبعُ نارَ الفراقِ إلاَّ نارُ جهنَّمَ كما قالَ تعالىٰ : ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴾ .

وأمَّا مَنْ لمْ يأنسْ بالدنيا ولمْ يحبَّ إلا اللهَ ، وكانَ مشتاقاً إلىٰ لقاءِ اللهِ تعالىٰ . . فقدْ تخلَّصَ مِنْ سجنِ الدنيا ومقاساةِ الشهواتِ فيها ، وقدمَ علىٰ محبوبِهِ ، وانقطعَتْ عنهُ العوائقُ والصوارفُ ، وتوفرَ عليهِ النعيمُ معَ الأمنِ عنِ الزوالِ أبدَ الآبادِ ، ولمثلِ ذلكَ فليعملِ العاملونَ .

والمقصودُ : أنَّ الرجلَ قدْ يحبُّ فرسَهُ بحيثُ لو خُيِّرَ بينَ أنْ يُؤخذَ منهُ وبينَ أنْ تلدغَهُ عقربٌ . . آثرَ الصبرَ علىٰ لدغِ العقربِ .

فإذاً ؛ ألمُ فراقِ الفرسِ عندَهُ أعظمُ مِنْ لدغِ العقربِ ، وحبُّهُ للفرسِ هوَ

---

(١) البيت من السريع ، وانظر « التمثيل والمحاضرة » (ص ٢١١) .

الذي يلدغُهُ إذا أُخذَ منهُ فرسُهُ ، فليستعدَّ لهـٰذهِ اللَّدغاتِ ؛ فإنَّ الموتَ يأخذُ منهُ فرسَهُ ومركبَهُ ، ودارَهُ وعقارَهُ ، وأهلَهُ وولدَهُ ، وأحبابَهُ ومعارفَهُ ، ويأخذُ منهُ جاهَهُ وقبولَهُ ، بلْ يأخذُ منهُ سمعَهُ وبصرَهُ وأعضاءَهُ ، وييئسُ مِنْ رجوعِ جميعِ ذلكَ إليهِ ، فإذا لمْ يحبَّ سواه وقدْ أخذَ جميعَ ذلكَ منهُ . . فذلكَ أعظمُ عليهِ مِنَ العقاربِ والحيَّاتِ ، وكما لوْ أخذَ ذلكَ منهُ وهوَ حيٌّ فيعظمُ عقابُهُ . . فكذلكَ إذا ماتَ ؛ لأنَّا قد بيَّنَّا أنَّ المعنى الذي هوَ المدركُ للآلامِ واللذاتِ لمْ يمتْ ، بلْ عذابُهُ بعدَ الموتِ أشدُّ ؛ لأنَّهُ في الحياةِ يتسلَّىٰ بأسبابٍ يشغلُ بها حواسَّهُ مِنْ مجالسةٍ ومحادثةٍ ، ويتسلَّىٰ برجاءِ العودِ إليهِ ، ويتسلَّىٰ برجاءِ العوضِ منهُ ، ولا سلوةَ بعدَ الموتِ ؛ إذْ قدِ انسدَّ عليهِ طرقُ التسلي وحصلَ اليأسُ ، فإذا كلُّ قميصٍ لهُ ومنديلٍ قدْ أحبَّهُ بحيثُ كانَ يشقُّ عليهِ لوْ أُخذَ منهُ . . فإنَّهُ يبقىٰ متأسِّفاً عليهِ ومعذَّباً بهِ ، فإنْ كانَ مخِفّاً في الدنيا . . سلمَ ، وهوَ المعنيُّ بقولِهم : نجا المخفُّونَ ، وإنْ كانَ مثقلاً . . عظمَ عذابُهُ(١) .

وكما أنَّ حالَ مَنْ يُسرقُ منهُ دينارٌ أخفُّ مِنْ حالِ مَنْ يُسرقُ منهُ عشرةُ دنانيرَ . . فكذلكَ حالُ صاحبِ الدرهمِ أخفُّ مِنْ حالِ صاحبِ الدرهمينِ ،

---

(١) روى الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٥٧٣) والبيهقي في « الشعب » (٩٩٢٣) : « إن أمامكم عقبة كؤوداً لا يجوزها المثقلون » ، وعند أبي نعيم في « الحلية » (٢/ ٨٣) : « لا يجاوزها إلا كل ضامر مخف » .

وهوَ المعنيُّ بقولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « صاحبُ الدرهمِ أخفُّ حساباً مِنْ صاحبِ الدرهمينِ »[١] .

وما مِنْ شيءٍ مِنَ الدنيا يتخلَّفُ عنكَ عندَ الموتِ إلاَّ وهوَ حسرةٌ عليكَ بعدَ الموتِ ، فإنْ شئتَ . . فاستكثرْ ، وإنْ شئتَ . . فاستقللْ ، فإنِ استكثرتَ . . فلستَ مستكثراً إلاَّ مِنَ الحسرةِ ، وإنِ استقللتَ . . فلستَ تخففُ إلاَّ عَنْ ظهرِكَ ، وإنَّما تكثرُ الحيَّاتُ والعقاربُ في قبورِ الأغنياءِ الذينَ استحبُّوا الحياةَ الدنيا على الآخرةِ ، وفرحوا بها واطمأنُّوا إليها .

فهٰذهِ مقاماتُ الإيمانِ في حيَّاتِ القبرِ وعقاربِهِ وفي سائرِ أنواعِ عذابِهِ .

رأىٰ أبو سعيدٍ الخرازُ ابناً لهُ قدْ ماتَ في المنامِ ، فقالَ لهُ : يا بنيَّ ؛ عظْني ، قالَ : لا تخالفِ اللهَ تعالىٰ فيما يريدُ ، قالَ : يا بنيَّ ؛ زدْني ، قالَ : يا أبتِ ؛ لا تطيقُ ، قالَ : قلْ ، قالَ : لا تجعلْ بينَكَ وبينَ اللهِ قميصاً ، قالَ : فما لبسَ قميصاً ثلاثينَ سنةً[٢] .

❁ ❁ ❁

فإنْ قلتَ : فما الصحيحُ مِنْ هٰذهِ المقاماتِ الثلاثِ ؟

فاعلمْ : أنَّ في الناسِ مَنْ لمْ يثبتْ إلاَّ الأولَ وأنكرَ ما بعدَهُ ، ومنهُمْ مَنْ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٢١٠) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠١٦٥) .
(٢) أورده القشيري في « الرسالة » (ص٦١٥) ، وفي غير (د) : (الخدري) بدل (الخراز) .

أنكرَ الأولَ وأثبتَ الثانيَ ، ومنهُمْ مَنْ لمْ يثبتْ إلاَّ الثالثَ ، وإنَّما الحقُّ الذي انكشفَ لنا بطريقِ الاستبصارِ : أنَّ كلَّ ذلكَ في حيزِ الإمكانِ ، وأنَّ مَنْ ينكرُ بعضَ ذلكَ فهوَ لضيقِ حوصلتِهِ ، وجهلِهِ باتساعِ قدرةِ اللهِ تعالىٰ وعجائبِ تدبيرِهِ ، فينكرُ مِنْ أفعالِ اللهِ تعالىٰ ما لمْ يأنسْ بهِ ويألفْهُ ، وذلكَ جهلٌ وقصورٌ ، بلْ هٰذهِ الطرقُ الثلاثةُ في التعذيبِ ممكنةٌ ، والتصديقُ بها واجبٌ ، وربَّ عبدٍ يُعاقبُ بنوعٍ واحدٍ مِنْ هٰذهِ الأنواعِ ، وربَّ عبدٍ تُجمعُ عليهِ هٰذهِ الأنواعُ الثلاثةُ ، نعوذُ باللهِ مِنْ عذابِ اللهِ قليلِهِ وكثيرِهِ .

هٰذا هوَ الحقُّ فصدِّقْ بهِ تقليداً ، فيعزُّ علىٰ بسيطِ الأرضِ مَنْ يعرفُ ذلك تحقيقاً ، والذي أوصيكَ بهِ ألاَّ تكثرَ نظرَكَ في تفصيلِ ذلكَ ، ولا تشتغلَ بمعرفتِهِ ، بلِ اشتغِلْ بالتدبيرِ في دفعِ العذابِ كيفَما كانَ ، فإنْ أهملتَ العملَ والعبادَةَ واشتغلتَ بالبحثِ عنْ ذلكَ . . كنتَ كمَنْ أخذَهُ سلطانٌ وحبسَهُ ليقطعَ يدَهُ ويجدعَ أنفَهُ ، فأخذَ طولَ الليلِ يتفكَّرُ في أنَّهُ هلْ يقطعُهُ بسكينٍ أو بسيفٍ أو بموسىٰ ؟ وأهملَ طريقَ الحيلةِ في دفعِ أصلِ العذابِ عنْ نفسِهِ ، وهٰذا غايةُ الجهلِ ؛ فقدْ عُلِمَ على القطعِ أنَّ العبدَ بعدَ الموتِ لا يخلو عنْ عذابٍ عظيمٍ أو نعيمٍ مقيمٍ ، فينبغي أنْ يكونَ الاستعدادُ لهُ .

فأمَّا البحثُ عنْ تفصيلِ العقابِ والثوابِ . . ففضولٌ وتضييعُ زمانٍ .



بيان سؤال منكر ونكير، وصورتهما، وضغطة القبر وبقية القول في عذاب القبر

قالَ أبو هريرةَ : قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا ماتَ العبدُ . أتاهُ ملكانِ أسودانِ أزرقانِ يُقالُ لأحدِهما : منكرٌ وللآخرِ : نكيرٌ ، فيقولانِ لهُ : ما كنتَ تقولُ في النبيِّ ؟ فإنْ كانَ مؤمناً . . قالَ : هوَ عبدُ اللهِ ورسولُهُ ، أشهدُ أنْ لا إلـهَ إلاَّ اللهُ وأنَّ محمَّداً رسولُ اللهِ ، فيقولانِ : إنْ كنَّا لنعلمُ أنَّكَ تقولُ ذلكَ ، ثمَّ يُفسحُ لهُ في قبرِهِ سبعونَ ذراعاً في سبعينَ ذراعاً ، ويُنوَّرُ لهُ في قبرِهِ ثمَّ يُقالُ لهُ : نمْ ، فيقولُ : دعوني أرجعُ إلىٰ أهلي فأخبرُهُمْ ، فيُقالُ لهُ : نمْ ، فينامُ كنومةِ العروسِ الذي لا يوقظُهُ إلاَّ أحبُّ أهلِهِ إليهِ حتىٰ يبعثَهُ اللهُ مِنْ مضجعِهِ ذلكَ ، وإنْ كانَ منافقاً . . قالَ : لا أدري ، كنتُ أسمعُ الناسَ يقولونَ شيئاً وكنتُ أقولُهُ ، فيقولانِ : إنْ كنَّا لنعلمُ أنَّكَ تقولُ ذلكَ ، ثمَّ يُقالُ للأرضِ : التئمي عليهِ ، فتلتئمُ عليهِ حتىٰ تختلفَ فيها أضلاعُهُ ، فلا يزالُ معذَّباً حتىٰ يبعثَهُ اللهُ تعالىٰ مِنْ مضجعِهِ ذلكَ »[1] .

وعنْ عطاءِ بنِ يسارٍ قالَ : (قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعمرَ بنِ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ : « يا عمرُ ؛ كيفَ بكَ إذا أنتَ متَّ فانطلقَ بكَ قومُكَ فقاسوا لكَ ثلاثةَ أذرعٍ في ذراعٍ وشبرٍ ، ثمَّ رجعوا إليكَ فغسَّلوكَ وكفَّنوكَ

---

(١) رواه الترمذي (١٠٧١) .

وحنَّطوكَ ، ثمَّ احتملوكَ حتىٰ يضعوكَ فيهِ ، ثمَّ يهيلوا عليكَ الترابَ ويدفنوكَ ، فإذا انصرفوا عنكَ . . أتاكَ فتَّانا القبرِ منكرٌ ونكيرٌ ، أصواتُهما كالرعدِ القاصفِ ، وأبصارُهما كالبرقِ الخاطفِ ، يجرَّانِ أشعارَهما ويحثيانِ القبرَ بأنيابِهما فتلتلاكَ وترتراكَ ؟! كيفَ بكَ عندَ ذلكَ يا عمرُ ؟! » فقالَ عمرُ : يا رسولَ اللهِ ؛ ويكونُ معي مثلُ عقليَ الآنَ ؟ قالَ : « نعمْ » قالَ : إذاً أكفيكَهُما)[1] .

وهٰذا نصٌّ صريحٌ في أنَّ العقلَ لا يتغيرُ بالموتِ ، إنَّما يتغيرُ البدنُ والأعضاءُ ، فيكونُ الميتُ عاقلاً مدركاً ، عالماً بالآلامِ واللذاتِ كما كانَ ، لا يتغيَّرُ مِنْ عقلِهِ شيءٌ ، وليسَ العقلُ المدرِكُ هٰذهِ الأعضاءَ ، بلْ هوَ شيءٌ باطنٌ ليسَ لهُ طولٌ ولا عرضٌ ، بلِ الذي لا ينقسمُ في نفسِهِ هوَ المدركُ للأشياءِ ، ولو تناثرَتْ أعضاءُ الإنسانِ كلُّها ولم يبقَ إلاَّ الجزءُ المدرِكُ الذي لا يتجزأُ ولا ينقسمُ . . لكانَ الإنسانُ العاقلُ بكمالِهِ قائماً باقياً ، وهوَ كذلكَ بعدَ الموتِ ؛ فإنَّ ذلكَ الجزءَ لا يحلُّهُ الموتُ ، ولا يطرأُ عليهِ العدمُ .

وقالَ محمدُ بنُ المنكدرِ : بلغَني أنَّ الكافرَ يُسلَّطُ عليهِ في قبرِهِ دابَّةٌ عمياءُ صماءُ ، في يدِها سوطٌ مِنْ حديدٍ في رأسِهِ مثلُ غربِ الجملِ ، تضربُهُ بهِ إلىٰ

---

(١) رواه الآجري في « الشريعة » (٨٦١) ، والبيهقي في « إثبات عذاب القبر » (١٠٣) مرسلاً ، وفيه : (ثلاثة أذرع وشبراً في ذراع وشبر) ، **وتلتلاك وترتراك** : زعزعاك وأقلقاك وأزعجاك . « إتحاف » (١٠/ ٤١٤) .

يومِ القيامةِ ، لا تراهُ فتتقيَهُ ، ولا تسمعُ صوتَهُ فترحمَهُ[(١)] .

وقالَ أبو هريرةَ : (إذا وُضعَ الميتُ في قبرِهِ.. جاءَتْ أعمالُهُ الصالحةُ فاحتوشَتْهُ ، فإنْ أتاهُ مِنْ قبلِ رأسِهِ.. جاءَ قراءتُهُ القرآنَ ، وإنْ أتاهُ مِنْ قبلِ رجليهِ.. جاءَ قيامُهُ ، وإنْ أتاهُ مِنْ قبلِ يديهِ.. قالتِ اليدانِ : واللهِ ؛ لقدْ كانَ يبسطُني للصدقةِ والدعاءِ ، لا سبيلَ لكمْ عليهِ ، وإنْ جاءَ مِنْ قبلِ فيه.. جاء ذكْرُهُ وصيامُهُ ، وكذلكَ تقفُ الصلاةُ والصبرُ ناحيةً ، فيقولُ : أما إنِّي لوْ رأيتُ خللاً.. لكنتُ أنا صاحبَهُ ـ قالَ سفيانُ : تجاحشُ عنهُ أعمالُه الصالحةُ كما يجاحشُ الرجلُ عنْ أخيهِ وأهلِهِ وولدِهِ ـ ثمَّ يُقالُ لهُ عندَ ذلكَ : باركَ اللهُ لكَ في مضجعِكَ ، فنِعمَ الأخلاَّءُ أخلاؤُكَ ، ونعمَ الأصحابُ أصحابُكَ)[(٢)] .

وعنْ حذيفةَ قالَ : كنَّا معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في جنازةٍ ، فجلسَ علىٰ رأسِ القبرِ ثمَّ جعلَ ينظرُ فيهِ ، ثمَّ قالَ : « يُضغطُ المؤمنُ في هـٰذا ضغطةً تردَّىٰ منها حمائلُهُ »[(٣)] .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٦/٣٥٣) من رواية ابن المنكدر عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما مرفوعاً ، وفي نسخة الحافظ الزبيدي : (عرف الجمل) بدل (غرب الجمل) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « القبور » . « إتحاف » (١٠/٤١٩) ، ولم يقل : (قال سفيان) ، والطبراني في « المعجم الأوسط » (٩٤٣٤) ، ونحوه عند ابن أبي شيبة في « المصنف » (١٢١٨٨) ، وهناد في « الزهد » (٣٣٨) ، **تجاحش** : تدافع .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٥/٤٠٧) ، **والحمائل هنا** : عروق الأنثيين ، ويحتمل أن يراد موضع حمائل السيف ؛ أي : عواتقه وصدره وأضلاعه . « إتحاف » (١٠/٤٢٢).

وقالَتْ عائشَةُ رضيَ اللهُ عنها : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ للقبرِ ضغطةً ، ولوْ سلمَ أوْ نجا منها أحدٌ . . لنجا سعدُ بنُ معاذٍ »[1] .

وعنْ أنسٍ قالَ : تُوفِّيَتْ زينبُ بنتُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وكانَتِ امرأةً مسقامةً ، فتبعَها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فساءَنا حالُهُ ، فلمَّا انتهينا إلى القبرِ فدخلَهُ . . التمعَ وجهُهُ صفرةً ، فلمَّا خرجَ . . أسفرَ وجهُهُ ، فقلنا : يا رسولَ اللهِ ؛ رأينا منكَ شأناً فممَّ ذلكَ ؟ قالَ : « ذكرتُ ضعفَ ابنتي وشدةَ عذابِ القبرِ ، فأتيتُ فأُخبرتُ أنَّ اللهَ تعالىٰ قدْ خفَّفَ عنها ، ولقدْ ضُغطَتْ ضغطةً سمعَ صوتَها ما بينَ الخافقينِ »[2] .

* * *

(١) رواه ابن حبان (٣١١٢) ، وأحمد في « المسند » (٦/ ٥٥) .
(٢) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (١/ ٢٥٧) ، ومسقامة : كثيرة الأمراض .

البَابُ الثَّامِنُ
فيما عُرِفَ مِن أحوالِ الموتىٰ بالمكاشفةِ في المنام

اعلمْ : أنَّ أنوارَ البصائرِ المستفادةَ مِنْ كتابِ اللهِ تعالىٰ وسنَّةِ رسولِهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ومِنْ مناهجِ الاعتبارِ . . تعرِّفُنا أحوالَ الموتىٰ على الجملةِ ، وانقسامَهُمْ إلىٰ سعداءَ وأشقياءَ ولكنْ حالُ زيدٍ وعمرٍو بعينِهِ فلا ينكشفُ بهِ أصلاً ؛ فإنَّا إنْ عوَّلنا علىٰ إيمانِ زيدٍ وعمرٍو . . فلا ندري علىٰ ماذا ماتَ وكيفَ خُتمَ لهُ ، وإنْ عوَّلنا علىٰ صلاحِهِ الظاهرِ . . فالتقوىٰ محلُّهُ القلبُ ، وهوَ غامضٌ يخفىٰ علىٰ صاحبِ التقوىٰ فكيفَ علىٰ غيرِهِ ؟! فلا حكمَ لظاهرِ الصلاحِ دونَ التقوى الباطنِ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ ، فلا يمكنُ معرفةُ حكمِ زيدٍ وعمرٍو إلاَّ بمشاهدتِهِ ومشاهدةِ ما يجري عليهِ ، وإذا ماتَ . . فقدْ تحوَّلَ مِنْ عالمِ الملكِ والشهادةِ إلىٰ عالمِ الغيبِ والملكوتِ ، فلا يُرىٰ بالعينِ الظاهرةِ ، وإنَّما يُرىٰ بعينٍ أخرىٰ ، خُلقَتْ تلكَ العينُ في قلبِ كلِّ إنسانٍ ، ولكنَّ الإنسانَ جعلَ عليها غشاوةً كثيفةً مِنْ شهواتِهِ وأشغالِهِ الدنيويةِ فصارَ لا يبصرُ بها ، ولا يُتصورُ أنْ يبصرَ بها شيئاً مِنْ عالمِ الملكوتِ ما لمْ تنقشعْ تلكَ الغشاوةُ عنْ عينِ قلبِهِ .

ولمَّا كانتِ الغشاوةُ منقشعةً عنْ أعينِ الأنبياءِ عليهمُ السَّلامُ . . فلا جرمَ نظروا إلى الملكوتِ وشاهدوا عجائبَهُ ، والموتىٰ في عالمِ الملكوتِ ،

فشاهدوهم وأخبروا ، ولذلكَ رأىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ضغطةَ القبرِ في حقِّ سعدِ بنِ معاذٍ[1] ، وفي حقِّ زينبَ ابنتِهِ[2] ، وكذلكَ حالُ أبي جابرٍ لمَّا استُشهدَ ؛ إذْ أخبرَهُ أنَّ اللهَ تعالىٰ أقعدَهُ بينَ يديهِ ليسَ بينَهما سترٌ[3] .

ومثلُ هٰذهِ المشاهدةِ لا مطمعَ فيها لغيرِ الأنبياءِ والأولياءِ الذين تقربُ درجتُهُمْ منهم .

وإنَّما الممكنُ مِنْ أمثالِنا مشاهدةٌ أخرىٰ ضعيفةٌ ، إلاَّ أنَّها أيضاً مشاهدةٌ نبويَّةٌ ، وأعني بها المشاهدةَ في المنامِ ، وهيَ مِنْ أنوارِ النبوةِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الرؤيا الصالحةُ جزءٌ مِنْ ستةٍ وأربعينَ جزءاً مِنَ النبوَّةِ »[4] .

وهوَ أيضاً انكشافٌ لا يحصلُ إلاَّ بانقشاعِ الغشاوةِ عن القلبِ ، فلذلكَ لا يُوثَقُ إلاَّ برؤيا الرجلِ الصَّالحِ الصَّادقِ ، ومَنْ كثرَ كذبُهُ . . لمْ تصدقْ رؤياهُ ، ومَنْ كثرَ فسادُهُ ومعاصيهِ . . أظلم قلبُهُ ، فكانَ ما يراه أضغاثَ أحلامٍ ، ولذلكَ أمرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بالطهارةِ عندَ النومِ[5] ؛

---

(١) كما رواه ابن حبان (٣١١٢) ، وأحمد في « المسند » (٦/ ٥٥) .
(٢) كما رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (١/ ٢٥٧) .
(٣) كما رواه الترمذي (٣٠١٠) وابن ماجه (١٩٠) .
(٤) رواه البخاري (٦٩٨٩) ، ومسلم (٢٢٦٤) .
(٥) كما رواه البخاري (٢٤٧) ، ومسلم (٢٧١٠) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما بلفظ : « إذا أتيت مضجعك . . فتوضأ وضوءك للصلاة . . .) .

لينامَ طاهراً ، وهوَ إشارةٌ إلىٰ طهارةِ الباطنِ أيضاً ؛ فهوَ الأصلُ ، وطهارةُ الظاهرِ بمنزلةِ التتمَّةِ والتكملةِ لها .

ومهما صفا الباطنُ . . انكشفَ في حدقةِ القلبِ ما سيكونُ في المستقبلِ كما انكشفَ دخولُ مكةَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في النَّومِ ، حتىٰ نزلَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ﴾[1] .

وقلما يخلو الإنسانُ عنْ مناماتٍ دلَّتْ علىٰ أمورٍ فوجدَها صحيحةً .

والرؤيا ومعرفةُ الغيبِ في النومِ مِنْ عجائبِ صنعِ اللهِ تعالىٰ ، وبدائعِ فطرةِ الآدميِّ ، وهوَ مِنْ أوضحِ الأدلةِ علىٰ عالمِ الملكوتِ ، والخلقُ غافلونَ عنهُ كغفلتِهِمْ عنْ سائرِ عجائبِ القلبِ وعجائبِ العالمِ .

والقولُ في حقيقةِ الرؤيا مِنْ دقائقِ علومِ المكاشفةِ ، فلا يمكنُ ذكرُهُ علاوةً علىٰ علمِ المعاملةِ ، ولكنَّ القدرَ الذي يمكنُ ذكرُهُ هٰهنا مثالٌ يفهمُكَ المقصودَ ، وهوَ أنْ تعلمَ أنَّ القلبَ مثالُهُ مثالُ مرآةٍ تتراءىٰ فيها الصُّورُ وحقائقُ الأمورِ ، وأنَّ كلَّ ما قدَّرَهُ اللهُ تعالىٰ مِنِ ابتداءِ خلقِ العالمِ إلىٰ آخرِهِ مسطورٌ ومثبَتٌ في خلقٍ خلقَهُ اللهُ تعالىٰ ، يُعبَّرُ عنهُ تارةً باللَّوحِ ، وتارةً بالكتابِ المبينِ ، وتارةً بإمامٍ مبينٍ ؛ كما وردَ في القرآنِ ، فجميعُ ما جرىٰ في العالمِ وما سيجري مكتوبٌ فيه ، ومنقوشٌ عليهِ نقشاً لا يُشاهَدُ بهٰذهِ العينِ .

ولا تظنَّنَّ أنَّ ذلكَ اللوحَ مِنْ خشبٍ أوْ حديدٍ أوْ عظمٍ ، وأنَّ الكتابَ مِنْ

---

(١) رواه البيهقي في « دلائل النبوة » (٤/ ١٦٤) من رواية مجاهد مرسلاً .

كاغَدٍ أوْ رقٍّ ، بلْ ينبغي أنْ تفهمَ قطعاً أنَّ لوحَ اللهِ لا يشبهُ لوحَ الخلقِ ، وكتابَ اللهِ لا يشبهُ كتابَ الخلقِ ، كما أنَّ ذاتَهُ وصفاتِهِ لا تشبهُ ذاتَ الخلقِ وصفاتِهِمْ ، بلْ إنْ كنتَ تطلبُ لهُ مثالاً يقربُهُ إلىٰ فهمِكَ . . فاعلمْ : أنَّ ثبوتَ المقاديرِ في اللوحِ يضاهي ثبوتَ كلماتِ القرآنِ وحروفِهِ في دماغِ حافظِ القرآنِ وقلبِهِ ؛ فإنَّهُ مسطورٌ فيهِ ، حتىٰ كأنَّهُ حيثُ يقرؤُهُ ينظرُ إليهِ ، ولوْ فتَّشتَ دماغَهُ جزءاً جزءاً . . لمْ تشاهدْ مِنْ ذلكَ الخطِّ حرفاً وإنْ كانَ ليسَ هناكَ خطٌّ يُشاهدُ ، ولا حرفٌ يُنظَرُ .

فمِنْ هـٰذا النَّمطِ ينبغي أنْ تفهمَ كونَ اللوحِ منقوشاً بجميعِ ما قدَّرَهُ اللهُ تعالىٰ وقضاهُ ، واللوحُ في المثالِ كمرآةٍ ظهرَ فيها الصورُ ، فلو وُضعَ في مقابلةِ المرآةِ مرآةٌ أخرىٰ . . لكانَتْ صورةُ تلكَ المرآةِ تتراءىٰ في هـٰذهِ إلاَّ أنْ يكونَ بينَهما حجابٌ ، فالقلبُ مرآةٌ تقبلُ رسومَ العلومِ ، واللوحُ مرآةٌ رسومُ العلومِ كلُّها موجودةٌ فيها ، واشتغالُ القلبِ بشهواتِهِ ومقتضىٰ حواسِّهِ حجابٌ مرسلٌ بينَهُ وبينَ مطالعةِ اللوحِ الذي هوَ مِنْ عالمِ الملكوتِ ، فإنْ هبَّتْ ريحٌ حرَّكَتْ هـٰذا الحجابَ ورفعَتْهُ . . تلألأَ في مرآةِ القلبِ شيءٌ مِنْ عالمِ الملكوتِ كالبرقِ الخاطفِ ، وقدْ يثبتُ ويدومُ ، وقدْ لا يدومُ وهوَ الغالبُ .

وما دامَ متيقظاً . . فهوَ مشغولٌ بما توردُهُ الحواسُّ عليهِ مِنْ عالمِ الملكِ والشهادةِ ، وهوَ حجابٌ عنْ عالمِ الملكوتِ .

ومعنى النَّومِ : أنْ تركدَ الحواسُّ فلا تُوردَ على القلبِ ، فإذا تخلَّصَ منهُ ومِنَ الخيالِ وكانَ صافياً في جوهرِهِ . . ارتفعَ الحجابُ بينَهُ وبينَ اللوحِ

المحفوظِ ، فوقعَ في قلبهِ شيءٌ ممَّا في اللوحِ كما تقعُ الصورةُ مِنْ مرآةٍ في مرآةٍ إذا ارتفعَ الحجابُ بينَهما ، إلاَّ أنَّ النومَ مانعٌ سائرَ الحواسِّ عنِ العملِ ، وليسَ مانعاً للخيالِ عنْ عملِهِ وعنْ تحركِهِ ، فما يقعُ في القلبِ يبتدرُهُ الخيالُ فيحاكيهِ بمثالٍ يقاربُهُ ، وتكونُ المتخيلاتُ أثبتَ في الحفظِ مِنْ غيرِهَا ، فيبقى الخيالُ في الحفظِ ، فإذا انتبهَ . . لمْ يتذكرْ إلاَّ الخيالَ ، فيحتاجُ المعبِّرُ أنْ ينظرَ أنَّ هـٰذا الخيالَ حكايةُ أيِّ معنىً مِنَ المعاني ، فيرجعَ إلى المعاني بالمناسبةِ التي بينَ المتخيلِ والمعاني .

وأمثلةُ ذلكَ ظاهرةٌ عندَ مَنْ نظرَ في علمِ التعبيرِ ، ويكفيكَ مثالٌ واحدٌ ؛ وهوَ أنَّ رجلاً قالَ لابنِ سيرينَ : رأيتُ كأنَّ بيدي خاتماً أختمُ بهِ أفواهَ الرجالِ وفروجَ النساءِ ، فقالَ : أنتَ مؤذنٌ تؤذنُ قبلَ الصبحِ في رمضانَ ، قالَ : صدقتَ[1] .

فانظرْ أنَّ روحَ الختمِ هوَ المنعُ ، ولأجلِهِ يُرادُ الختمُ ، وإنَّما ينكشفُ للقلبِ حالُ الشخصِ مِنَ اللوحِ المحفوظِ كما هوَ عليهِ ، وهوَ كونُهُ مانعاً للناسِ مِنَ الأكلِ والشربِ ، ولكنَّ الخيالَ ألفَ المنعَ عندَ الختمِ بالخاتمِ ، فتمثَّلَهُ بالصورةِ الخياليةِ التي تتضمَّنُ روحَ المعنىٰ ، ولا يبقىٰ في الحفظِ إلاَّ الصورةُ الخياليةُ .

فهـٰذهِ نبذةٌ يسيرةٌ مِنْ بحرِ علمِ الرؤيا الذي لا تنحصرُ عجائبُهُ ، وكيفَ لا وهوَ أخوْ الموتِ ؟!

---

(١) منتخب الكلام في تفسير الأحلام (٢/١٤٨) .

وإنَّما الموتُ هوَ عجبٌ مِنَ العجائبِ ، وهـٰذا لأنَّهُ يشبهُهُ مِنْ وجهٍ ضعيفٍ أثَّرَ في كشفِ الغطاءِ عنْ عالمِ الغيبِ ، حتىٰ صارَ النَّائمُ يعرفُ ما سيكونُ في المستقبلِ ، فماذا ترىٰ في الموتِ الذي يخرقُ الحجابَ ، ويكشفُ الغطاءَ بالكليَّةِ ، حتىٰ يرى الإنسانُ عندَ انقطاعِ النفسِ مِنْ غيرِ تأخيرٍ نفسَهُ إمَّا محفوفاً بالأنكالِ والمخازي والفضائحِ نعوذُ باللهِ مِنْ ذلكَ ، وإمَّا مكنوفاً بنعيمٍ مقيمٍ وملكٍ كبيرٍ لا آخرَ لهُ ؟! وعندَ هـٰذا يُقالُ للأشقياءِ وقدِ انكشفَ الغطاءُ : ﴿ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ ، ويُقالُ : ﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ، وإليهمُ الإشارةُ بقولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ .

فأعلمُ العلماءِ وأحكمُ الحكماءِ ينكشفُ لهُ عقيبَ الموتِ مِنَ العجائبِ والآياتِ ما لمْ يخطرْ قطُّ ببالِهِ ، ولا اختلجَ بهِ ضميرُهُ ، فلوْ لمْ يكنْ للعاقلِ همٌّ وغمٌّ إلاَّ الفكرةُ في خطرِ تلكَ الحالِ أنَّ الحجابَ عمَّاذا يرتفعُ ، وما الذي ينكشفُ عنهُ الغطاءُ مِنْ شقاوةٍ لازمةٍ أمْ سعادةٍ دائمةٍ . . لكانَ ذلكَ كافياً في استغراقِ جميعِ العمرِ .

والعجبُ مِنْ غفلتِنا وهـٰذهِ العظائمُ بينَ أيدينا ، وأعجبُ مِنْ ذلكَ فرحُنا بأموالِنا وأهلينا وبأسبابِنا وذوينا ، بلْ بأعضائِنا وسمعِنا وبصرِنا معَ أنَّا نعلمُ مفارقةَ جميعِ ذلكَ يقيناً .

ولكنْ أينَ مَنْ ينفثُ روحُ القدسِ في روعِهِ فيقولُ لهُ ما قالَ لسيِّدِ النبيينَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أحببْ مَنْ أحببتَ فإنَّكَ مفارقُهُ ، وعشْ ما شئتَ فإنَّكَ ميتٌ ، واعملْ ما شئتَ فإنَّكَ مجزيٌّ بهِ »[1] ، فلا جرمَ لمَّا كانَ ذلكَ مكشوفاً لهُ بعينِ اليقينِ . . كانَ في الدنيا كعابرِ سبيلٍ ؛ لمْ يضعْ لبنةً علىٰ لبنةٍ ، ولا قصبةً علىٰ قصبةٍ[2] ، ولمْ يخلِّفْ ديناراً ولا درهماً[3] ، ولمْ يتخذْ حبيباً ولا خليلاً .

نعمْ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ كنتُ متخذاً خليلاً . . لاتخذتُ أبا بكرٍ خليلاً ، ولكنْ صاحبُكُم خليلُ الرحمـٰنِ »[4] فبيَّنَ أنَّ خلةَ الرحمـٰنِ تخلَّلَتْ باطنَ قلبهِ ، وأنَّ حبَّهُ تمكَّنَ مِنْ حبةِ قلبِهِ ، فلمْ يتركْ فيهِ متسعاً لخليلٍ ولا حبيبٍ .

وقدْ قالَ عزَّ وجلَّ لأمَّتِهِ : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ ، فإنَّما أمتُهُ مَنِ اتبعَهُ ، وما اتبعَهُ إلاَّ مَنْ أعرضَ عنِ الدنيا وأقبلَ على الآخرةِ ؛ فإنَّه ما دعا إلاَّ إلى اللهِ تعالىٰ واليومِ الآخرِ ، وما صرفَ إلاَّ عنِ الدنيا والحظوظِ العاجلةِ ، فبقدرِ ما أعرضتَ عنِ الدنيا وأقبلتَ على الآخرةِ . . فقدْ سلكتَ سبيلَهُ الذي سلكَهُ ، وبقدرِ ما سلكتَ سبيلَهُ . . فقدِ اتبعتَهُ ، وبقدرِ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/٢٠٢) ، والبيهقي في « الشعب » (١٠٠٥٨) .
(٢) كما رواه الطبراني في « الأوسط » (٣٢٦٥) .
(٣) كما رواه البخاري (٤٤٦١) ، ومسلم (١٦٣٥) .
(٤) رواه البخاري (٤٦٦) ، ومسلم (٢٣٨٢) .

ما اتبعتَهُ. . فقدْ صرتَ مِنْ أمَّتِهِ ، وبقدرِ ما أقبلتَ على الدنيا. . عدلتَ عنْ سبيلِهِ ورغبتَ عنْ متابعتِهِ ، والتحقتَ بالذينَ قالَ اللهُ تعالىٰ فيهمْ : ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۞ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۞ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ .

فلوْ خرجتَ مِنْ مكمنِ الغرورِ وأنصفتَ نفسَكَ يا رجلُ ـ وكلُّنا ذلكَ الرجلُ ـ لعلمتَ أنَّكَ مِنْ حينِ تصبحُ إلىٰ حينِ تمسي لا تسعىٰ إلاَّ في الحظوظِ العاجلةِ ، ولا تتحركُ ولا تسكنُ إلا لعاجلِ الدنيا ، ثمَّ تطمعُ في أنْ تكونَ غداً مِنْ أمَّتِهِ وأتباعِهِ ؟! ما أبعدَ ظنَّكَ ؛ وما أبردَ طمعَكَ ! ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۞ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ .

ولنرجعْ إلىٰ ما كنَّا فيهِ وبصددِهِ ، فقدِ امتدَّ عنانُ الكلامِ إلىٰ غيرِ مقصدِهِ ، ولنذكرِ الآنَ مِنَ المناماتِ الكاشفةِ لأحوالِ الموتىٰ ما يعظمُ الانتفاعُ بهِ ، إذْ ذهبتِ النبوَّةُ وبقيَتِ المبشِّراتُ ، وليسَ ذلكَ إلاَّ المناماتِ .

* * *

بيان منامات تكشف عن أحوال الموتى والأعمال النافعة في الآخرة

فمِنْ ذلكَ : رؤيا رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وقدْ قالَ عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ : « مَنْ رآني في المنامِ .. فقدْ رآني حقاً ؛ فإنَّ الشيطانَ لا يتمثَّلُ بي »(١) .

وقالَ عمرُ بنُ الخطَّابِ رضيَ اللهُ عنهُ : (رأيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في المنامِ ، فرأيتُهُ لا ينظرُ إليَّ ، فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما شأني ؟ فالتفتَ إليَّ وقالَ : « ألستَ المقبِّلَ وأنتَ صائمٌ ؟ » قالَ : فوالذي نفسي بيدِهِ ؛ لا أقبِّلُ امرأةً وأنا صائمٌ أبداً)(٢) .

وقالَ العباسُ رضيَ اللهُ عنهُ : (كنتُ ودّاً لعمرَ ، فاشتهيتُ أنْ أراهُ في المنامِ ، فما رأيتُهُ إلاَّ عندَ رأسِ الحولِ ، فرأيتُهُ يمسحُ العرقَ عنْ جبينِهِ وهوَ يقولُ : هـٰذا أوانُ فراغي ، إنْ كادَ عرشي ليُهدُّ لولا أنِّي لقيتُهُ رؤوفاً رحيماً)(٣) .

وقالَ الحسنُ بنُ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُما : (قالَ لي عليٌّ : إنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ سنحَ لي الليلةَ في منامي ، فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛

---

(١) رواه البخاري (١١٠) ، ومسلم (٢٢٦٦) .
(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٤٥) ، والبيهقي في « السنن الكبرىٰ » (٤/ ٢٣٢) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (٢٣) ، وابن سعد في « الطبقات » (٣/ ٣٤٨) .

ما لقيتُ مِنْ أمَّتِكَ ؟! قالَ : « ادعُ عليهِمْ » فقلتُ : اللهمَّ ؛ أبدلْني بهمْ مَنْ هوَ خيرٌ لي منهمْ ، وأبدلْهمْ بي مَنْ هوَ شرٌّ لهمْ منِّي ، فخرجَ فضربَهُ ابنُ ملجمٍ)(1) .

وقالَ بعضُ الشيوخِ : رأيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في المنامِ فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ استغفرْ لي ، فأعرضَ عنِّي ، فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ إنَّ سفيانَ بنَ عيينةَ حدثَنا عنْ محمدِ بنِ المنكدرِ ، عنْ جابرِ بنِ عبدِ اللهِ ، أنَّكَ لمْ تُسألْ شيئاً قطُّ فقلتَ : لا ، فأقبلَ عليَّ فقالَ : « غفرَ اللهُ لكَ »(2) .

ورُوِيَ عنِ العباسِ بنِ عبدِ المطلبِ قالَ : (كنتُ مواخياً لأبي لهبٍ مصاحباً لهُ ، فلمَّا ماتَ وأخبرَ اللهُ تعالىٰ عنهُ بما أخبرَ . . حزنتُ عليهِ ، وأهمَّني أمرُهُ ، فسألتُ اللهَ تعالىٰ حولاً أنْ يريَني إيَّاهُ في المنامِ ، قالَ : فرأيتهُ يلتهبُ ناراً ، فسألتُهُ عنْ حالِهِ فقالَ : صرتُ إلى النَّارِ في العذابِ ، لا يُخفَّفُ عنِّي ولا يُروَّحُ إلاَّ ليلةَ الاثنينِ في كلِّ الليالي والأيامِ ، قلتُ : وكيفَ ذلكَ ؟ قالَ : وُلِدَ في تلكَ الليلةِ محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فجاءَتْني أميمةُ فبشَّرَتْني بولادةِ آمنةَ إيَّاهُ ، ففرحتُ بهِ ، وأعتقتُ وليدةً لي

---

(1) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (١١٠) .

(2) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (١١٤) ، والحديث المذكور رواه البخاري (٦٠٣٤) ، ومسلم (٢٣١١) .

فرحاً بهِ ، فأثابَني اللهُ بذلكَ أنْ رفعَ عني العذابَ في كلِّ ليلةِ اثنينِ)[1] .

وقالَ عبدُ الواحدِ بنُ زيدٍ : خرجتُ حاجّاً ، فصحبَني رجلٌ كانَ لا يقومُ ولا يقعدُ ولا يتحركُ ولا يسكنُ إلاَّ صلَّىٰ على النبي صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فسألتُهُ عنْ ذلكَ فقالَ : أخبرُكَ عنْ ذلكَ ، خرجتُ أوَّلَ مرةٍ إلىٰ مكةَ ومعي أبي ، فلمَّا انصرفنا.. نمتُ في بعضِ المنازلِ ، فبينا أنا نائمٌ ؛ إذْ أتاني آتٍ فقالَ لي : قمْ ؛ فقدْ أماتَ اللهُ أباكَ وسوَّدَ وجهَهُ ، قالَ : فقمتُ مذعوراً ، فكشفتُ الثوبَ عنْ وجهِهِ ؛ فإذا هوَ ميتٌ أسودُ الوجهِ ، فداخلَني مِنْ ذلكَ رعبٌ ، فبينا أنا في ذلكَ الغمِّ ؛ إذْ غلبَتْني عيني فنمتُ ؛ فإذا علىٰ رأسِ أبي أربعةُ سودانٍ معَهم أعمدةُ حديدٍ ؛ إذْ أقبلَ رجلٌ حسنُ الوجهِ بينَ ثوبينِ أخضرينِ ، فقالَ لهمْ : تنحَّوا ، فمسحَ وجهَهُ بيدِهِ ، ثمَّ أتاني فقالَ لي : قمْ فقدْ بيَّضَ اللهُ وجهَ أبيكَ ، فقلتُ لهُ : مَنْ أنتَ بأبي أنتَ وأمي ؟ فقالَ : أنا محمَّدٌ ، قالَ : فقمتُ فكشفتُ الثوبَ عنْ وجهِ أبي ؛ فإذا هوَ أبيضُ ، فما تركتُ الصَّلاةَ بعدَ ذلكَ علىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ[2] .

وعنْ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رحمةُ اللهِ عليهِ قالَ : رأيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وأبو بكرٍ وعمرُ رضيَ اللهُ عنهما جالسانِ عندَهُ ، فسلَّمتُ وجلستُ ، فبينا أنا جالسٌ ؛ إذْ أُتيَ بعليٍّ ومعاويةَ رضيَ اللهُ عنهما فأُدخلا بيتاً

---

(١) كذا أورده في « قوت القلوب » (٢/ ٨٤) ، ورواه بنحوه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (٢٦٣) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (١١٨) .

وأُجيفَ عليهما البابُ وأنا أنظرُ[1] ، فما كانَ بأسرعَ أنْ خرجَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ وهوَ يقولُ : قُضيَ لي وربِّ الكعبةِ ، وما كانَ بأسرعَ أنْ خرجَ معاويةُ رضيَ اللهُ عنهُ علىٰ أثرِهِ وهوَ يقولُ : غُفرَ لي وربِّ الكعبةِ[2] .

واستيقظَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما مِنْ نومِهِ مرةً فاسترجَعَ وقالَ : (قُتِلَ الحسينُ واللهِ) وكانَ ذلكَ قبلَ قتلِهِ ، فأنكرَهُ أصحابُهُ ، فقالَ : رأيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ومعَهُ زجاجةٌ مِنْ دمٍ فقالَ : « ألا تعلمُ ما صنعَتْ أمَّتي مِنْ بعدي ؟! قَتلوا ابنيَ الحسينَ وهـٰذا دمُهُ ودماءُ أصحابِهِ أرفعُها إلى اللهِ تعالىٰ » فجاءَ الخبرُ بعدَ أربعةٍ وعشرينَ يوماً بقتلِهِ في اليومِ الذي رآهُ[3] .

ورُئيَ الصديقُ رضيَ اللهُ عنهُ فقيلَ لهُ : إنَّكَ كنتَ تقولُ أبداً في لسانِكَ : (هـٰذا أوردَني المواردَ) فما فعلَ اللهُ بكَ ؟ قالَ : قلتُ بهِ : لا إلـٰهَ إلاَّ اللهُ ، فأوردَني الجنَّةَ[4] .

* * *

---

(١) أجيف الباب : أي : رُدَّ .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (١٢٤) .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (١٢٩) .

(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٥٧) ، وأما قوله : « أوردني الموارد » .. فرواه مالك في « الموطأ » (٢/ ٩٨٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٣٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٤٦٣٦) .

بيان منامات المشايخ رضي الله عنهم

قالَ بعضُ المشايخِ : رأيتُ متمماً الدورقيَّ في المنامِ ، فقلتُ : يا سيِّدي ؛ ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ فقالَ : ديرَ بي في الجنانِ ، فقيلَ لي : يا متممُ ؛ هلِ استحسنتَ فيها شيئاً ؟ قلتُ : لا يا سيِّدي ، فقالَ : لوِ استحسنتَ منْها شيئاً . . لوكلتُكَ إليهِ ، ولمْ أوصلْكَ إليَّ[1] .

ورُئيَ يوسفُ بنُ الحسينِ في المنامِ ، فقيلَ لهُ : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ قالَ : غفرَ لي ، قيلَ : بماذا ؟ قالَ : ما خلطتُ جداً بهزلٍ قطُّ[2] .

وعنْ منصورِ بنِ إسماعيلَ قالَ : رأيتُ عبدَ اللهِ البزازَ في النومِ ، فقلتُ : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ قالَ : أوقفَني بينَ يديهِ ، فغفرَ لي كلَّ ذنبٍ أقررتُ بهِ إلاَّ ذنباً واحداً ؛ فإنِّي استحييتُ أنْ أقرَّ بهِ ، فأوقفَني في العرقِ حتىٰ سقطَ لحمُ وجهي ، فقلتُ : ما كانَ ذلكَ الذنبُ ؟ قالَ : نظرتُ إلىٰ غلامٍ جميلٍ فاستحسنتُهُ ، فاستحييتُ مِنَ اللهِ تعالىٰ أنْ أذكرَهُ[3] .

وقالَ أبو جعفرٍ الصيدلانيُّ : رأيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٤٥) .

(٢) أورده القشيري في « الرسالة » (ص٦١١) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٦٤) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٦١٢) وفيها : (أبو عبد الله الزراد) بدل (عبد الله البزاز) وهو ما صوبه الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (١٠/ ٤٣٣) .

النومِ وحولَهُ جماعةٌ مِنَ الفقراءِ ، فبينا نحنُ كذلكَ ؛ إذِ انشقَّتِ السماءُ ونزلَ ملكانِ أحدُهُما بيدِه طستٌ وبيدِ الآخرِ إبريقٌ ، فوضعَ الطستَ بينَ يدي رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فغسلَ يدَهُ ثمَّ أمرَ حتىٰ غسلوا أيديَهُمْ ، ثمَّ وُضعَ الطستُ بين يديَّ ، فقالَ أحدُهما للآخرِ : لا تصبَّ علىٰ يدِهِ ؛ فإنَّهُ ليسَ منهمْ ، فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ أليسَ قدْ رُويَ عنكَ أنَّكَ قلتَ : « المرءُ معَ مَنْ أحبَّ » ؟! قالَ : « بلىٰ » قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ فإنِّي أحبُّكَ وأحبُّ هؤلاءِ الفقراءَ ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ : « صبَّ علىٰ يدِهِ ، فإنَّهُ منهمْ »[1] .

وقالَ الجنيدُ : رأيتُ في المنامِ كأنِّي أتكلَّمُ على النَّاسِ ، فوقفَ عليَّ ملكٌ فقالَ : أقربُ ما تقرَّبَ بهِ المتقربونَ إلى اللهِ تعالىٰ ماذا ؟ فقلتُ : عملٌ خفيٌّ بميزانٍ وفيٍّ ، فولَّى الملكُ وهوَ يقولُ : كلامٌ موفَّقٌ واللهِ[2] .

ورُئيَ مجمِّعٌ في النومِ ، فقيلَ لهُ : كيفَ رأيتَ الأمرَ ؟ فقالَ : رأيتُ الزاهدينَ في الدنيا ذهبوا بخيرِ الدنيا والآخرةِ[3] .

---

(1) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٤٦ ـ ٨٤٧) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٦١٢) ، والحديث المذكور رواه البخاري (٦١٦٨) ، ومسلم (٢٦٤١) .

(2) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٤٧ ـ ٨٤٨) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٦١٣) .

(3) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (٣٤) ، وأورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٤٨) .

وقالَ رجلٌ مِنْ أهلِ الشامِ للعلاءِ بنِ زيادٍ : رأيتُكَ في النومِ كأنَّكَ في الجنَّةِ ، فنزلَ عنْ مجلسِهِ وأقبلَ عليهِ ثمَّ قالَ : لعلَّ الشيطانَ أرادَ أمراً فعُصمتُ منهُ ، فأشخصَ رجلاً يقتلُني[١] .

وقالَ محمدُ بنُ واسعٍ : الرؤيا تسرُّ المؤمنَ ولا تغرُّهُ[٢] .

وقالَ صالحُ بنُ بشيرٍ : رأيتُ عطاءَ السلميَّ في النومِ ، فقلتُ لهُ : رحمَكَ اللهُ ؛ لقدْ كنتَ طويلَ الحزنِ في الدنيا ، فقالَ : أما واللهِ ؛ لقدْ أعقبَني ذلكَ راحةً طويلةً وفرحاً دائماً ، فقلتُ : في أيِّ الدرجاتِ أنتَ ؟ فقالَ : ﴿ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ . . . ﴾ الآيةَ[٣] .

وسُئلَ زرارةُ بنُ أبي أوفىٰ في المنامِ : أيُّ الأعمالِ أفضلُ عندَكُمْ ؟ فقالَ : الرضا وقصرُ الأملِ[٤] .

وقالَ يزيدُ بنُ مذعورٍ : رأيتُ الأوزاعيَّ في المنامِ ، فقلتُ : يا أبا عمرٍو ؛ دلَّني علىٰ عملٍ أتقرَّبُ بهِ إلى اللهِ تعالىٰ ، قالَ : ما رأيتُ هناكَ

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٤٨) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٦١٣) .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٤٨) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٤٨ ـ ٨٤٩) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٦/ ١٧٢) .

(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٤٩) .

درجةً أرفعَ مِنْ درجةِ العلماءِ ، ثمَّ درجةِ المحزونينَ ، قالَ : وكانَ يزيدُ شيخاً كبيراً ، فلمْ يزلْ يبكي حتىٰ أظلمَتْ عيناهُ[1] .

وقالَ ابنُ عيينةَ : رأيتُ أخي في المنامِ ، فقلتُ : يا أخي ؛ ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ فقالَ : كلُّ ذنبٍ استغفرتُ منهُ . . غُفِرَ لي ، وما لمْ أستغفرْ منهُ . . لمْ يُغفرْ لي[2] .

وقالَ عليٌّ الطلحيُّ : رأيتُ في المنامِ امرأةً لا تشبهُ نساءَ الدنيا ، فقلتُ : مَنْ أنتِ ؟ فقالَتْ : حوراءُ ، فقلتُ : زوِّجيني نفسَكِ ، قالَتْ : اخطبْني إلىٰ سيِّدي وأمهرْني ، قلتُ : وما مهرُكِ ؟ قالَتْ : حبسُ نفسِكَ عنْ آفاتِها[3] .

وقالَ إبراهيمُ بنُ إسحاقَ الحربيُّ : رأيتُ زبيدةَ في المنامِ ، فقلتُ : ما فعلَ اللهُ بكِ ؟ قالَتْ : غفرَ لي ، فقلتُ لها : بما أنفقتِ في طريقِ مكةَ ؟ قالَتْ : أمَّا النفقاتُ التي أنفقتُها . . فرجعَتْ أجورُها إلىٰ أربابِها ، وغُفِرَ لي بنيَّتي[4] .

ولمَّا ماتَ سفيانُ الثوريُّ . . رُئِيَ في المنامِ ، فقيلَ لهُ : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟

---

(١) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (٣٥٧٨) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٣٥/ ٢٢٩) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (٦٨) ، وأورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٥٠) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٥٠) .

(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٥٠ ـ ٨٥١) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٦١٤) .

قالَ : وضعتُ أولَ قدميَّ على الصراطِ ، والثانيَ في الجنَّةِ[١] .

وقالَ أحمدُ بنُ أبي الحواري : رأيتُ فيما يرى النَّائمُ جاريةً ما رأيتُ أحسنَ منها ، وكانَ يتلألأُ وجهُها نوراً ، فقلتُ لها : مماذا ضوءُ وجهِكِ ؟ قالَتْ : تذكرُ تلكَ الليلةَ التي بكيتَ فيها ؟ قلتُ : نعمْ ، قالَتْ : أخذتُ دمعَكَ فمسحتُ بهِ وجهي ، فمِنْ ثمَّ ضوءُ وجهي كما ترىٰ[١] .

وقالَ الكتانيُّ : رأيتُ الجنيدَ في المنامِ ، فقلتُ : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ فقالَ : طاحَتْ تلكَ الإشاراتُ ، وذهبَتْ تلكَ العباراتُ ، وما حصلنا إلاَّ علىٰ ركعتينِ كنَّا نصلِّيهما في الليلِ[٢] .

ورُئِيَتْ زبيدةُ في المنامِ ، فقيلَ لها : ما فعلَ اللهُ بكِ ؟ قالَتْ : غفرَ لي بهـٰذهِ الكلماتِ الأربعِ : لا إلـهَ إلا اللهُ أفني بها عمري ، لا إلـهَ إلاَّ اللهُ أدخلُ بها قبري ، لا إلـهَ إلاَّ اللهُ أخلو بها وحدي ، لا إلـهَ إلاَّ اللهُ ألقىٰ بها ربِّي[٣] .

ورُئِيَ بشرٌ في المنامِ ، فقيلَ لهُ : ما فعلَ اللهُ بكَ : قالَ : رحمَني ربِّي عزَّ وجلَّ وقالَ : يا بشرُ ؛ أما استحييتَ منِّي كنتَ تخافُني كلَّ ذلكَ الخوفِ ؟![٤] .

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٥١) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٦١٤) .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٥١ ـ ٨٥٢) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٦١٠) .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٥٢) .

(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص ٨٥٤)، والقشيري في « الرسالة » (ص٦١٤).

ورُئِيَ أبو سليمانَ في النومِ ، فقيلَ لهُ : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ قالَ : رحمَني ، وما كانَ شيءٌ أضرَّ عليَّ مِنْ إشاراتِ القومِ إليَّ[1] .

وقالَ أبو بكرٍ الكتانيُّ : رأيتُ في النومِ شاباً لمْ أرَ أحسنَ منهُ ، فقلتُ لهُ : مَنْ أنتَ ؟ قالَ : التقوىٰ ، قلتُ : فأينَ تسكنُ ؟ قالَ : كلَّ قلبٍ حزينٍ ، ثمَّ التفتُّ ؛ فإذا امرأةٌ سوداءُ كأوحشِ ما يكونُ ، فقلتُ : مَنْ أنتِ ؟ قالَتْ : أنا السقمُ ، قلتُ : فأينَ تسكنينَ ؟ قالَتْ : كلَّ قلبٍ فرحٍ مرحٍ ، قالَ : فانتبهتُ واعتقدتُ ألاَّ أضحكَ إلاَّ غلبةً[2] .

وقالَ أبو سعيدٍ الخرازُ : رأيتُ في المنامِ كأنَّ إبليسَ وثبَ عليَّ ، فأخذتُ العصا لأضربَهُ فلمْ يفزعْ منها ، فهتفَ بي هاتفٌ : إنَّ هـٰذا لا يخافُ مِنْ هـٰذهِ ، وإنَّما يخافُ مِنْ نورٍ يكونُ في القلبِ[3] .

وقالَ المسوحيُّ : رأيتُ إبليسَ في النومِ يمشي عرياناً ، فقلتُ : ألا تستحي مِنَ النَّاسِ ؟! فقالَ : باللهِ ؛ هؤلاءِ ناسٌ ؟ لوْ كانوا مِنَ الناسِ . . ما كنتُ ألعبُ بهمْ طرفي النَّهارِ كما يتلاعبُ الصبيانُ بالكرةِ ، بلِ الناسُ قومٌ

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٥٥) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٦١٤) .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٥٥ ـ ٨٥٦) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٦١٥) ، واعتقدت : عزمت .

(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٥٦) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٦١٦) .

غيرُ هؤلاءِ ، قدْ أسقموا جسمي ، وأشارَ بيدِهِ إلىٰ أصحابِنا الصوفيّةِ[1] .

وقالَ أبو سعيدٍ الخرازُ : كنتُ في دمشقَ ، فرأيتُ في المنامِ كأنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ جاءَني متكئاً علىٰ أبي بكرٍ وعمرَ رضيَ اللهُ عنهما ، فجاءَ فوقفَ عليَّ وأنا أقولُ شيئاً مِنَ الأصواتِ ، وأدقُّ في صدري فقالَ : « شرُّ هٰذا أكثرُ مِنْ خيرِهِ »[2] .

وعنِ ابنِ عيينةَ قالَ : رأيتُ سفيانَ الثوريَّ في النومِ كأنَّهُ في الجنَّةِ يطيرُ مِنْ شجرةٍ إلىٰ شجرةٍ يقولُ : لمثلِ هٰذا فليعملِ العاملونَ ، فقلتُ لهُ : أوصني ، قالَ : أقللْ مِنْ معرفةِ الناسِ[3] .

وروىٰ أبو حاتمٍ الرازيُّ عنْ قبيصةَ بنِ عقبةَ قالَ : رأيتُ سفيانَ الثوريَّ في المنامِ ، فقلتُ : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ فقالَ[4] : [من الطويل]

نَظَرْتُ إِلَىٰ ربِّي كِفاحاً فَقالَ لِي ... هَنِيئاً رِضائِي عنْكَ يا بْنَ سَعِيدِ
فَقَدْ كُنْتَ قَوَّاماً إِذا أَظْلَمَ ٱلدُّجَى ... بِعَبْـرَةِ مُشْتـاقٍ وَقَلْـبِ عَمِيـدِ
فَدُونَكَ فَٱخْتَرْ أَيَّ قَصْرٍ أَرَدْتَهُ ... وَزُرْنِـي فَـإِنِّي مِنْـكَ غَيْـرُ بَعِيـدِ

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٥٦) .
(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٥٦) ، وقوله : (**من الأصوات**) أي : من الأنغام المعروفة . « إتحاف » (١٠/ ٤٣٦) .
(٣) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٥٧) .
(٤) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٥٧) ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ٧٤) ، وانظر « مرآة الجنان » (١/ ٣٤٧) .

ورُئِيَ الشبليُّ بعدَ موتِهِ بثلاثةِ أيامٍ ، فقيلَ لهُ : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ قالَ : ناقشَني حتىٰ أيستُ ، فلمَّا رأىٰ يأسي . . تغمَّدَني برحمتِهِ[1] .

ورُئِيَ مجنونُ بني عامرٍ بعدَ موتِهِ في المنامِ ، فقيلَ لهُ : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ فقالَ : غفرَ لي وجعلَني حجةً على المحبينَ[2] .

ورُئِيَ الثوريُّ في المنامِ ، فقيلَ لهُ : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ فقالَ : رحمَني ، فقيلَ لهُ : ما حالُ عبدِ اللهِ بنِ المباركِ ؟ فقالَ : هوَ ممَّن يلجُ علىٰ ربِّهِ في كلِّ يومٍ مرتينِ[3] .

ورُئِيَ بعضُهم فسُئِلَ عنْ حالِهِ فقالَ[4] : [من مجزوء الخفيف]

حاسَبُونا فدقَّقوا ثمَّ منُّوا فأعتقوا

ورُئِيَ مالكُ بنُ أنسٍ رحمةُ اللهِ عليهِ في المنامِ ، فقيلَ لهُ : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ فقالَ : غفرَ لي بكلمةٍ كانَ يقولُها عثمانُ بنُ عفانَ رضيَ اللهُ عنهُ عندَ رؤيةِ الجنازةِ : (سبحانَ الحيِّ الذي لا يموتُ)[5] .

---

(١) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٥٧) ، والقشيري في « الرسالة » (ص٦١٥) .

(٢) أورده الخركوشي في « تهذيب الأسرار » (ص٨٥٧) .

(٣) أورده القشيري في « الرسالة » (ص٦٠٨) .

(٤) انظر « البصائر والذخائر » (٣/ ٩٢) ، والخبر أورده القشيري في « الرسالة » (ص٦٠٩) .

(٥) أورده القشيري في « الرسالة » (ص٦٠٩) .

ورُئِيَ في الليلةِ التي ماتَ فيها الحسنُ البصريُّ رحمةُ اللهِ عليهِ كأنَّ أبوابَ السماءِ مفتحةٌ ، وكأنَّ منادياً ينادي : ألا إنَّ الحسنَ البصريَّ قدمَ على اللهِ تعالىٰ وهوَ عنهُ راضٍ[1] .

ورُئِيَ الجاحظُ فقيلَ لهُ : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ فقالَ[1] : [من الوافر]

وَلا تَكْتُبْ بِخَطِّكَ غَيْرَ شَيْءٍ ... يَسُرُّكَ فِي ٱلْقِيَامَةِ أَنْ تَراهُ

ورأى الجنيدُ إبليسَ في المنامِ عرياناً ، فقالَ : ألا تستحي مِنَ الناسِ ؟! فقالَ : وهؤلاءِ ناسٌ ؟! الناسُ أقوامٌ في مسجدِ الشونيزيةِ ، قدْ أضنَوا جسدي ، وأحرقوا كبدي ، قالَ الجنيدُ : فلمَّا انتبهتُ.. غدوتُ إلى المسجدِ ، فرأيتُ جماعةً قدْ وضعوا رؤوسَهُمْ علىٰ ركبِهِمْ يتفكرونَ ، فلمَّا رأَوني.. قالوا : لا يغرنَّكَ حديثُ الخبيثِ[1] .

ورُئِيَ النَّصراباذي بمكةَ بعدَ وفاتِهِ في النومِ ، فقيلَ لهُ : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ قالَ : عُوتبتُ عتابَ الأشرافِ ، ثمَّ نُوديتُ : يا أبا القاسمِ ؛ أبعدَ الاتصالِ انفصالٌ ؟ فقلتُ : لا يا ذا الجلالِ ، فما وُضعتُ في اللحدِ حتىٰ لحقتُ بالأحدِ[1] .

ورأىٰ عتبةُ الغلامُ حوراءَ في المنامِ علىٰ صورةٍ حسنةٍ ، فقالَتْ لهُ : يا عتبةُ ؛ أنا لكَ عاشقةٌ ، فانظرْ لا تعملْ مِنَ الأعمالِ شيئاً يُحالُ بهِ بيني

---

(١) أورده القشيري في « الرسالة » (ص٦٠٩) .

وبينَكَ ، فقالَ لها عتبةُ : طلَّقتُ الدنيا ثلاثاً ، لا رجعةَ لي عليها حتىٰ ألقاكِ[1] .

وقيلَ : رأىٰ أيوبُ السختيانيُّ جنازةَ عاصٍ ، فدخلَ الدهليزَ لئلاَّ يصليَ عليها ، فرأىٰ بعضُهمُ الميتَ في المنامِ ، فقالَ لهُ : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ فقالَ : غفرَ لي وقالَ لي : قلْ لأيوبَ : ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ﴾[2] .

وقالَ بعضُهُمْ : رأيتُ في الليلةِ التي ماتَ فيها داوودُ الطائيُّ نوراً ، وملائكةً نزولاً وملائكةً صعوداً ، فقلتُ : أيُّ ليلةٍ هـٰذهِ ؟ فقالوا : ليلةٌ ماتَ فيها داوودُ الطائيُّ ، وقدْ زُخرفَتِ الجنةُ لقدومِ روحِهِ[3] .

وقالَ أبو سعيدٍ الشحامُ : رأيتُ سهلاً الصُّعلوكيَّ في المنامِ ، فقلتُ : أيُّها الشيخُ ، قالَ : دعِ التشييخَ ، قلتُ : تلكَ الأحوالُ التي شاهدتُها ، فقالَ : لمْ تغنِ عنَّا شيئاً ، فقلتُ : ما فعلَ اللهُ بكَ ؟ قالَ : غفرَ لي بمسائلَ كانَ يسألُ عنها العُجزُ[4] .

---

(1) أورده القشيري في « الرسالة » (ص٦١٠) .

(2) أورده القشيري في « الرسالة » (ص٦١١) .

(3) أورده القشيري في « الرسالة » (ص٦١١) .

(4) أورده القشيري في « الرسالة » (ص٦١٢) ، وفيها : (يسأل عنها العجز فأجبتهم عنها) ، والعجز : جمع عاجز ؛ يعني باسم العوام من الناس ، وفيه دلالة علىٰ فضيلة المفتي للعوام فيما يحتاجون إلىٰ معرفة الأحكام . « الإتحاف » (١٠/٤٣٨) .

وقالَ أبو بكرٍ الرشيديُّ : رأيتُ محمداً الطوسيَّ المعلمَ في النومِ ، فقالَ لي : قلْ لأبي سعيدٍ الصَّفارِ المؤدِّبِ[1] : [من الطويل]

وَكُنَّا عَلَىٰ أَلاَّ نَحُولَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ فَقَدْ وَحَياةِ ٱلْحِبِّ حُلْتُمْ وَما حُلْنا

قالَ : فانتبهتُ ، فذكرتُ ذلكَ لهُ ، فقالَ : كنتُ أزورُ قبرَهُ كلَّ جمعةٍ ، فلمْ أزرْهُ هـٰذهِ الجمعةَ[2] .

وقالَ ابنُ راشدٍ : رأيتُ ابنَ المباركِ في النومِ بعدَ موتِهِ ، فقلتُ : أليسَ قدْ متَّ ؟! قالَ : بلىٰ ، قلتُ : فما صنعَ اللهُ بكَ ؟ قالَ : غفرَ لي مغفرةً أحاطَتْ بكلِّ ذنبٍ ، قلتُ : فسفيانُ الثوريُّ ؟ قالَ : بخٍ بخٍ ! ذاكَ ﴿ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ . . . ﴾ الآيةَ[3] .

وقالَ الربيعُ بنُ سليمانَ : رأيتُ الشافعيَّ رحمةُ اللهِ عليهِ بعدَ وفاتِهِ في المنامِ ، فقلتُ : يا أبا عبدِ اللهِ ، ما صنعَ اللهُ بكَ ؟ قالَ : أجلسَني علىٰ كرسيٍّ مِنْ ذهبٍ ، ونثرَ عليَّ اللؤلؤَ الرطبَ[4] .

ورأىٰ رجلٌ مِنْ أصحابِ الحسنِ البصريِّ ليلةَ ماتَ الحسنُ كأنَّ منادياً

---

(١) البيت لأبي بكر الشبلي في « ديوانه » (ص ١٣٠) .

(٢) أورده القشيري في « الرسالة » (ص٦١٢) ، وفيها تتمة الأبيات وهي :

تشـاغلتـمُ عنّـا بصحبـةِ غيـرنـا وأظهرتُمُ الهجرانَ ما هٰكذا كنّا
لعـلَّ الـذي يقضـي الأمـورَ بعلمِـه سيجمعنـا بعـدَ الممـاتِ كمـا كنّـا

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (٦٣) .

(٤) انظر « مختصر تاريخ دمشق » لابن منظور (٢١/٤١٣) .

ينادي : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ واصطفى الحسنَ بن أبي الحسنِ البصريَّ على أهلِ زمانِهِ[1] .

وقالَ أبو يعقوبَ القاريُّ الدقيقيُّ : رأيتُ في منامي رجلاً آدمَ طُوالاً والناسُ يتبعونَهُ ، فقلتُ : مَنْ هـٰذا ؟ قالوا : أويسٌ القرنيُّ ، فاتبعتُهُ فقلتُ : أوصني رحمَكَ اللهُ ، فكلحَ في وجهي ، فقلتُ : مسترشدٌ فأرشدْني أرشدَكَ اللهُ ، فأقبلَ عليَّ وقالَ : اتبع رحمةَ ربِّك عندَ محبتِهِ ، واحذرْ نقمتَهُ عندَ معصيتِهِ ، ولا تقطعْ رجاءَكَ منهُ في خلالِ ذلكَ ، ثمَّ ولَّىٰ وتركَني[2] .

وقالَ أبو بكرِ بنُ أبي مريمَ : رأيتُ وفاءَ بنَ بشرٍ الحضرميَّ ، فقلتُ : ما فعلتَ يا وفاءُ ؟ قالَ : نجوتُ بعدَ كلِّ جهدٍ ، قلتُ : فأيُّ الأعمالِ وجدتُموها أفضلَ ؟ قالَ : البكاءُ مِنْ خشيةِ اللهِ تعالىٰ[3] .

وقالَ يزيدُ بنُ نعامةَ : هلكَتْ جاريةٌ في الطاعونِ الجارفِ ، فرآها أبوها في المنامِ ، فقالَ لها : يا بنيةُ ؛ أخبريني عنِ الآخرةِ ، قالَتْ : يا أبتِ ؛ قدمنا علىٰ أمرٍ عظيمٍ ، نعلمُ ولا نعملُ وتعملونَ ولا تعلمونَ ، واللهِ ؛ لتسبيحةٌ أوْ تسبيحتانِ أوْ ركعةٌ أوْ ركعتانِ في فسحةِ عملٍ . . أحبُّ إليَّ مِنَ الدنيا وما فيها[4] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (٥٩) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (٦٦) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (٧١)، وفي غير (د ، ف): (ورقاء) بدل (وفاء) .
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (٨٦) .

وقالَ بعضُ أصحابِ عتبةَ الغلامِ : رأيتُ عتبةَ في المنامِ ، فقلتُ : ما صنعَ اللهُ بكَ ؟ قالَ : دخلتُ الجنَّةَ بتلكَ الدعوةِ المكتوبةِ في بيتِكَ ، قالَ : فلمَّا أصبحتُ . . جئتُ إلىٰ بيتي ؛ فإذا خطُّ عتبةَ الغلامِ في حائطِ البيتِ مكتوبٌ : يا هاديَ المضلينَ ، ويا راحمَ المذنبينَ ، ويا مقيلَ عثراتِ العاثرينَ ؛ ارحمْ عبدَكَ ذا الخطرِ العظيمِ والمسلمينَ كلَّهم أجمعينَ ، واجعلْنا مَعَ الأحياءِ المرزوقينَ الذينَ أنعمتَ عليهِمْ مِنَ النبيينَ والصِّدِّيقينَ والشهداءِ والصالحينَ ، آمينَ ربَّ العالمينَ[1] .

وقالَ موسىٰ بنُ حمادٍ : رأيتُ سفيانَ الثوريَّ في المنامِ في الجنَّةِ ، يطيرُ مِنْ نخلةٍ إلىٰ نخلةٍ ، ومِنْ شجرةٍ إلىٰ شجرةٍ ، فقلتُ : يا أبا عبدِ اللهِ ؛ بمَ نلتَ هـٰذا ؟ فقالَ : بالورعِ ، قلتُ : فما بالُ عليِّ بنِ عاصمٍ ؟ قالَ : ذاكَ لا يكادُ يُرىٰ إلاَّ كما يُرى الكوكبُ[2] .

ورأىٰ رجلٌ مِنَ التابعينَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في المنامِ ، فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ عظْني ، فقالَ عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ : « نعمْ ، مَنْ لمْ يتفقدِ النقصانَ . . فهوَ في نقصانٍ ، ومَنْ كانَ في نقصانٍ . . فالموتُ خيرٌ لهُ »[3] .

وقالَ الشافعيُّ رحمةُ اللهِ عليهِ : دهمَني في هـٰذهِ الأيامِ أمرٌ أمضَّني

---

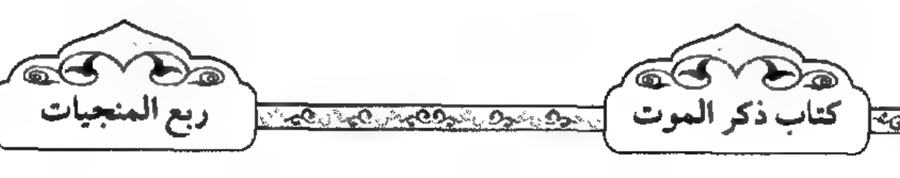
(١) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (١٣٨) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ٢٣٨) .
(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (٢٧٥) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « المنامات » (٢٨٦) .

وآلَمَني ، ولمْ يطَّلعْ عليهِ غيرُ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فلمَّا كانَ البارحةُ . . أتاني آتٍ في منامي فقالَ : يا محمدَ بنَ إدريسَ ؛ قلِ : اللهمَّ ؛ إنِّي لا أملكُ لنفسي نفعاً ولا ضراً ، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً ، ولا أستطيعُ أنْ آخذَ إلاَّ ما أعطيتَني ، ولا أتقيَ إلاَّ ما وقيتَني ، اللهمَّ ؛ فوفِّقْني لما تحبُّ وترضىٰ مِنَ القولِ والعملِ في عافيةٍ ، فلمَّا أصبحتُ . . أعدتُ ذلكَ ، فلمَّا ترحلَ النَّهارُ . . أعطاني اللهُ عزَّ وجلَّ طلبتي ، وسهَّلَ ليَ الخلاصَ ممَّا كنتُ فيهِ ، فعليكمْ بهٰذهِ الدعواتِ لا تغفلوا عنها[1] .

فهٰذهِ جملةٌ مِنَ المكاشفاتِ تدلُّ علىٰ أحوالِ الموتىٰ ، وعلى الأعمالِ المقرِّبةِ إلى اللهِ تعالىٰ زلفىٰ ، فلنذكرْ بعدَها ما بينَ يديِ الموتىٰ مِن ابتداءِ نفخةِ الصورِ إلىٰ آخرِ القرارِ ، إمَّا في الجنَّةِ أوْ في النَّارِ ، والحمدُ للهِ حمدَ الشاكرينَ .

* * *

(١) أورده ابن الصلاح في « طبقات الفقهاء الشافعية » (١/ ١٤٤ ـ ١٤٥) .



الشَّطْرُ الثَّانِي مِنَ كِتَابِ ذِكْرِ المَوْتِ

في أحوال الميّت من وقت نفخة الصور إلى آخر الاستقرار في الجنّة أو النّار وتفصيل ما بين يديه من الأهوال والأخطار

وفيهِ بيانُ نفخةِ الصورِ ، وصفةِ أرضِ المحشرِ وأهلِهِ ، وصفةِ عرقِ أهلِ المحشرِ .

وصفةِ طولِ يومِ القيامةِ ، وصفةِ يومِ القيامةِ ودواهيها وأساميها .

وصفةِ المساءلةِ عنِ الذنوبِ ، وصفةِ الميزانِ ، وصفةِ الخصماءِ وردِّ المظالمِ .

وصفةِ الصراطِ ، وصفةِ الشفاعةِ ، وصفةِ الحوضِ .

وصفةِ جهنَّمَ وأهوالِها ، وأنكالِها وحيَّاتِها وعقاربِها .

وصفةِ الجنَّةِ وأصنافِ نعيمِها ، وعددِ الجنانِ وأبوابِها وغرفِها وحيطانِها ، وأنهارِها وأشجارِها ، ولباسِ أهلِها وفرشِهم وسررِهم ، وصفةِ طعامِهم ، وصفةِ الحورِ العينِ والولدانِ .

وصفةِ النظرِ إلىٰ وجهِ اللهِ تعالىٰ .

وبابٌ في سعةِ رحمةِ الله تعالىٰ ، وبهِ ختمُ الكتابِ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ .

* * *

صفة نفخ الصور

قدْ عرفتَ فيما سبقَ شدةَ أحوالِ الميتِ في سكراتِ الموتِ ، وخطرَهُ في خوفِ العاقبةِ ، ثمَّ مقاساتَهُ لظلمةِ القبرِ وديدانِهِ ، ثمَّ لمنكرٍ ونكيرٍ وسؤالِهما ، ثمَّ لعذابِ القبرِ وخطرِهِ إنْ كانَ مغضوباً عليهِ ، وأعظمُ مِنْ ذلكَ كلِّهِ الأخطارُ التي بينَ يديهِ ؛ مِنْ نفخِ الصورِ ، والبعثِ يومَ النُّشورِ ، والعرضِ على الجبارِ ، والسؤالِ عنِ القليلِ والكثيرِ ، ونصبِ الميزانِ لمعرفةِ المقاديرِ ، ثمَّ جوازِ الصراطِ معَ دقَّتِهِ وحدَّتِهِ ، ثمَّ انتظارِ النداءِ عندَ فصلِ القضاءِ إمَّا بالإسعادِ وإمَّا بالإشقاءِ .

فهٰذهِ أحوالٌ وأهوالٌ لا بدَّ لكَ مِنْ معرفتِها ، ثمَّ الإيمانِ بها علىٰ سبيلِ الجزمِ والتصديقِ ، ثمَّ تطويلِ الفكرِ فيها ؛ لينبعثَ مِنْ قلبِكَ دواعي الاستعدادِ لها .

وأكثرُ الناسِ لمْ يدخلِ الإيمانُ باليومِ الآخرِ صميمَ قلوبِهم ، ولمْ يتمكَّنْ مِنْ سويداءِ أفئدتِهم ، ويدلُّ علىٰ ذلكَ شدةُ تشمُّرِهم واستعدادِهم لحرِّ الصيفِ وبردِ الشتاءِ ، وتهاونِهم بحرِّ جهنَّمَ وزمهريرِها ، معَ ما تكتنفُهُ مِنَ المصاعبِ والأهوالِ .

نعمْ ، إذا سُئلوا عنِ اليومِ الآخرِ . . نطقَتْ بهِ ألسنتُهم ثمَّ غفلَتْ عنهُ قلوبُهُم ، ومَنْ أُخبرَ بأنَّ ما بينَ يديهِ مِنَ الطعامِ مسمومٌ ، فقالَ لصاحبِه الذي

أخبرَهُ : صدقتَ ، ثمَّ مدَّ يدَهُ لتناولِهِ . . كانَ مصدِّقاً بلسانِهِ ومكذِّباً بعملِهِ ، وتكذيبُ العملِ أبلغُ مِنْ تكذيبِ اللسانِ .

وقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « قالَ اللهُ تعالىٰ : شتمَني ابنُ آدمَ وما ينبغي لهُ أنْ يشتمَني ، وكذَّبَني وما ينبغي لهُ أنْ يكذِّبَني ؛ أمَّا شتمُهُ إيايَ . . فيقولُ : إنَّ لي ولداً ، وأمَّا تكذيبُهُ . . فقولُه : لن يعيدَني كما بدأَني »[1] .

وإنَّما فتورُ البواطنِ عنْ قوةِ اليقينِ والتصديقِ بالبعثِ والنشورِ لقلةِ الفهمِ في هـٰذا العالمِ لأمثالِ تلكَ الأمورِ .

ولوْ لمْ يشاهدِ الإنسانُ توالدَ الحيواناتِ وقيلَ لهُ : إنَّ صانعاً يصنعُ مِنَ النطفةِ القذرةِ مثلَ هـٰذا الآدميِّ المصوَّرِ العاقلِ المتكلمِ المتصرفِ . . لاشتدَّ نفورُ باطنِهِ عنِ التصديقِ بهِ ، ولذلكَ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ .

ففي خلقِ الآدميِّ ـ معَ كثرةِ عجائبِهِ واختلافِ تركيبِ أعضائِهِ ـ أعاجيبُ تزيدُ على الأعاجيبِ في بعثِه وإعادتِهِ ، فكيفَ ينكرُ ذلكَ مِنْ قدرةِ اللهِ تعالىٰ وحكمتِهِ مَنْ يشاهدُ ذلكَ في صنعتِهِ وقدرتِهِ ؟!

---

(١) رواه البخاري (٣١٩٣) .

فإنْ كانَ في إيمانِكَ ضعفٌ . . فقوِّ الإيمانَ بالنظرِ في النشأةِ الأولىٰ ؛ فإنَّ الثانيةَ مثلُها وأسهلُ منها .

وإنْ كنتَ قويَّ الإيمانِ بها . . فأشعرْ قلبَكَ تلكَ المخاوفَ والأخطارَ ، وأكثرْ فيها التفكُّرَ والاعتبارَ ؛ لتسلبَ عنْ قلبِكَ الراحةَ والقرارَ ، فتشتغلَ بالتشمُّرِ للعرضِ على الجبارِ .

وتفكَّرْ أولاً فيما يقرعُ سمعَ سكانِ القبورِ مِنْ شدةِ نفخِ الصورِ ؛ فإنَّها صيحةٌ واحدةٌ تنفرجُ بها القبورُ عنْ رؤوسِ الموتىٰ ، فيثورونَ دفعةً واحدةً ، فتوهمْ نفسَكَ وقدْ وثبتَ متغيراً وجهُكَ ، مغبَّراً بدنُكَ مِنْ فرقِكَ إلىٰ قدمِكَ مِنْ ترابِ قبرِكَ ، مبهوتاً مِنْ شدةِ الصعقةِ ، شاخصَ العينِ نحوَ النداءِ ، وقدْ ثارَ الخلقُ ثورةً واحدةً مِنَ القبورِ التي طالَ فيها بلاؤُهمْ ، وقد أزعجَهمُ الفزعُ والرعبُ مضافاً إلىٰ ما كانَ عندَهمُ مِنَ الهمومِ والغمومِ ، وشدةِ الانتظارِ لعاقبةِ الأمرِ ، كما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ۝ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ۝ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝ قَالُوا يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ .

فلوْ لمْ يكنْ بينَ يديِ الموتىٰ إلاَّ هولُ تلكَ النفخةِ . . لكانَ ذلكَ جديراً بأنْ يُتقىٰ ؛ فإنَّها نفخةٌ وصيحةٌ يُصعقُ بها مَنْ في السماواتِ والأرضِ ؛ أيْ : يموتونَ بها إلاَّ مَنْ شاءَ اللهُ وهُمْ بعضُ الملائكةِ ، ولذلكَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « كيفَ أنعمُ وصاحبُ الصورِ قدِ التقمَ القرنَ ، وحنى الجبهةَ وأصغىٰ بالأذنِ ، ينتظرُ متىٰ يُؤمرُ فينفخُ ؟! »[1] .

قالَ مقاتلٌ : (الصورُ : هو القرنُ ، وذلكَ أنَّ إسرافيلَ عليهِ السلامُ واضعٌ فاهُ على القرنِ كهيئةِ البوقِ ، ودائرةُ رأسِ القرنِ كعرضِ السماواتِ والأرضِ ، وهوَ شاخصٌ ببصرِهِ نحوَ العرشِ ، ينتظرُ متىٰ يُؤمرُ فينفخُ النفخةَ الأولىٰ ، فإذا نفخَ . . صعقَ مَنْ في السماواتِ والأرضِ ؛ أيْ : ماتَ كلُّ حيوانٍ مِنْ شدَّةِ الفزعِ إلاَّ مَنْ شاءَ اللهُ ؛ وهوَ جبريلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ وملكُ الموتِ ، ثمَّ يأمرُ ملكَ الموتِ أنْ يقبضَ روحَ جبريلَ ، ثمَّ روحَ ميكائيلَ ، ثمَّ روحَ إسرافيلَ ، ثمَّ يأمرُ ملكَ الموتِ فيموتَ ، ثمَّ يلبثُ الخلقُ بعدَ النفخةِ الأولىٰ في البرزخِ أربعينَ سنةً ، ثمَّ يحيي اللهُ إسرافيلَ ، فيأمرُهُ أنْ ينفخَ الثانيةَ ، فذلكَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ علىٰ أرجلِهِم ينظرونَ إلى البعثِ)[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حينَ بُعثَ إليَّ . . بُعثَ إلىٰ صاحبِ

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٣١) ، وعند ابن ماجه (٤٢٧٣) : « إن صاحبي الصور بأيديهما ـ أو في أيديهما ـ قرنان يلاحظان النظر متىٰ يؤمران » .

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان (٣/ ٦٨٥ ـ ٦٨٧) .

الصورِ فأهوىٰ بهِ إلىٰ فيهِ ، وقدَّمَ رجلاً وأخَّرَ أخرىٰ ينتظرُ متىٰ يُؤمرُ بالنفخِ ، ألا فاتقوا النفخةَ »[1] .

فتفكَّرْ في الخلائقِ وذلِّهم وانكسارِهم واستكانتِهم عندَ الانبعاثِ ؛ خوفاً مِنْ هـٰذهِ الصعقةِ وانتظاراً لما يُقضىٰ عليهمْ مِنْ سعادةٍ أو شقاوةٍ ، وأنتَ فيما بينَهُمْ منكسرٌ كانكسارِهمْ ، متحيِّرٌ كتحيرِهمْ ، بلْ إنْ كنتَ في الدنيا مِنَ المترفِّهينَ والأغنياءِ المتنعمينَ . . فملوكُ الأرضِ في ذلكَ اليومِ هُمْ أذلُّ أهلِ أرضِ الجمعِ وأصغرُهُمْ وأحقرُهُمْ ، يُوطؤونَ بالأقدامِ مثلَ الذرِّ .

وعندَ ذلكَ تقبلُ الوحوشُ مِنَ البراري والجبالِ منكسةً رؤوسَها ، مختلطةً بالخلائقِ بعدَ توحشِها ، ذليلةً ليومِ النشورِ مِنْ غيرِ خطيئةٍ تدنَّسَتْ بها ، ولكنْ حشرَهُمْ شدةُ الصعقةِ وهولُ النفخةِ ، وشغلَهُمْ ذلكَ عنِ الهربِ مِنَ الخلقِ والتوحشِ مِنْهم ، وذلكَ قولُه تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ .

ثمَّ أقبلَتِ الشياطينُ المردةُ بعدَ تمرُّدِها وعتوِّها ، وأذعنَتْ خاشعةً مِنْ هيبةِ العرضِ على اللهِ تعالىٰ ؛ تصديقاً لقوله تعالىٰ : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَـٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾ ، فتفكَّرْ في حالِكَ وحالِ قلبِكَ هنالِكَ .

* * *

(١) قال الحافظ الزبيدي في «الإتحاف» (١٠/ ٤٥٣): (رواه عبد بن حميد في « تفسيره » من حديث ابن عمر بلفظ: «لما بعث إليَّ . . بعث إلىٰ صاحب الصور. . . »).

صفة أرض المحشر وأهله

ثمَّ انظرْ كيفَ يُساقونَ بعدَ البعثِ والنشورِ حفاةً عراةً غرلاً إلىٰ أرضِ المحشرِ ؛ أرضٍ بيضاءَ ، قاعٍ صفصفٍ ، لا ترىٰ فيها عوجاً ولا أمتاً ، ولا ترىٰ عليها ربوةً يختفي الإنسانُ وراءَها ، ولا وهدةً ينخفضُ عنِ الأعينِ فيها ، بلْ هوَ صعيدٌ واحدٌ بسيطٌ لا تفاوتَ فيهِ ، يُساقونَ إليهِ زمراً ، فسبحانَ مَنْ جمعَ الخلائقَ على اختلافِ أصنافِهِمْ مِنْ أقطارِ الأرضِ ؛ إذْ ساقَهم بالراجفةِ تتبَعُها الرادفةُ ، والراجفةُ هيَ النفخةُ الأولىٰ ، والرادفةُ هيَ الثانيةُ .

وحقيقٌ لتلكَ القلوبِ أنْ تكونَ يومَئذٍ واجفةً ، ولتلكَ الأبصارِ أنْ تكونَ خاشعةً .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُحشرُ الناسُ يومَ القيامةِ علىٰ أرضٍ بيضاءَ عفراءَ ، كقرصةِ النقيِّ ، ليسَ فيها مَعْلَمٌ لأحدٍ »[١] .

قالَ الراوي : و(العفرةُ) : بياضٌ ليسَ بالناصعِ ، و(النقيُّ) : هوَ النقيُّ عنِ القشرِ والنخالةِ ، و(لا معلمٌ) أيْ : لا بناءٌ يسترُ ، ولا تفاوتٌ يردُّ البصرَ .

ولا تظنَّنَّ أنَّ تلكَ الأرضَ مثلُ أرضِ الدنيا ، بلْ لا تساويها إلاَّ في الاسمِ .

---

(١) رواه البخاري (٦٥٢١) ، ومسلم (٢٧٩٠) .

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ .

قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما : (يُزادُ فيها ويُنقصُ ، وتذهبُ أشجارُها وجبالُها وأوديتُها وما فيها ، وتُمدُّ مدَّ الأديمِ العكاظيِّ ، أرضٌ بيضاءُ مثلُ الفضةِ ، لمْ يُسفكْ عليها دمٌ ، ولم يُعملْ عليها خطيئةٌ ، والسماواتُ تذهبُ شمسُها وقمرُها ونجومُها)[1] .

فانظرْ يا مسكينُ في هولِ ذلكَ اليومِ وشدَّتِهِ ، فإنَّهُ إذا اجتمعَ الخلائقُ علىٰ هـٰذا الصعيدِ . . تناثرَتْ مِنْ فوقِهِم نجومُ السماءِ ، وطُمسَتِ الشمسُ والقمرُ ، وأظلمَتِ الأرضُ ؛ لخمودِ سراجِها ، فبينا أنتَ كذلكَ ؛ إذْ دارَتْ السماءُ مِنْ فوقِ رؤوسِهم ، وانشقَّتْ معَ غلظِها وشدَّتِها خمسَ مئةِ عامٍ ، والملائكةُ قيامٌ علىٰ حافَّاتِها وأرجائِها ، فيا هولَ صوتِ انشقاقِها في سمعِكَ !

ويا هيبةً ليومٍ تنشقُّ فيهِ السماءُ مع صلابتِها وشدَّتِها ، ثمَّ تنهارُ وتسيلُ كالفضةِ المذابةِ تخالطُها صفرةٌ فصارَتْ وردةً كالدهانِ ، وصارتِ السماءُ كالمهلِ ، وصارتِ الجبالُ كالعهنِ ، واشتبكَ الناسُ كالفراشِ المبثوثِ وهمْ عراةٌ حفاةٌ مشاةٌ !

---

(١) رواه البيهقي في « البعث والنشور » (٨٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً ، وعند أبي نعيم في « الحلية » (٣٤٨/٤) ، والبزار في « المسند » (١٨٥٩) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً في تفسير الآية : « أرض بيضاء كأنها فضة ، لم يعمل عليها خطيئة ولم يسفك فيها دم حرام » .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُبعثُ الناسُ حفاةً عراةً غرلاً ، قدْ ألجمَهُمُ العرقُ وبلغَ شحومَ الآذانِ » قالَتْ سودةُ زوجُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ راويةُ الحديثِ : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ وا سوءتاهُ ! ينظرُ بعضُنا إلىٰ بعضٍ ؟! فقالَ : « شُغلَ الناسُ عنْ ذلكَ ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِيٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ »[1] .

فأعظِمْ بيومٍ تنكشفُ فيهِ العوراتُ ، ويُؤمنُ فيهِ معَ ذلكَ مِنَ النظرِ والالتفاتِ ، كيفَ وبعضُهُم يمشونَ علىٰ بطونِهِمْ ووجوهِهِمْ ، ولا قدرةَ لهمْ على الالتفاتِ إلىٰ غيرِهمْ .

قالَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُحشرُ الناسُ يومَ القيامةِ ثلاثةَ أصنافٍ : ركباناً ، ومشاةً ، وعلىٰ وجوهِهِمْ » فقالَ رجلٌ : يا رسولَ اللهِ ؛ وكيفَ يمشونَ علىٰ وجوهِهِمْ ؟ قالَ : « الذي أمشاهُمْ علىٰ أقدامِهِمْ قادرٌ علىٰ أنْ يُمشيَهمْ علىٰ وجوهِهِمْ »[2] .

وفي طبعِ الآدميِّ إنكارُ كلِّ ما لمْ يأنسْ بهِ ، ولوْ لمْ يشاهدِ الإنسانُ الحيَّةَ وهيَ تمشي علىٰ بطنِها كالبرقِ الخاطفِ . . لأنكرَ تصوُّرَ المشيِ مِنْ غيرِ رجلٍ ، والمشيُ بالرجلِ أيضاً مستبعدٌ عندَ مَنْ لمْ يشاهدْ ذلكَ ، فإيَّاكَ أنْ تنكرَ شيئاً مِنْ عجائبِ يومِ القيامةِ لمخالفتِها قياسَ ما في الدنيا ؛ فإنَّكَ لوْ لمْ

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » (٢/٥١٥) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (٢٤/٣٤) ، وعند البخاري (٦٥٢٧) ، ومسلم (٢٨٥٩) نحوه من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٢) رواه الترمذي (٣١٤٢) .

تكنْ قدْ شاهدتَ عجائبَ الدنيا ثمَّ عُرِضَتْ عليكَ قبلَ المشاهدةِ . لكنتَ أشدَّ إنكاراً لها .

فأحضرْ في قلبِكَ صورتَكَ وأنتَ واقفٌ عارياً مكشوفاً ، ذليلاً مدحوراً ، متحيراً مبهوتاً ، منتظراً لما يجري عليكَ مِنَ القضاءِ بالسعادةِ أو بالشقاوةِ ، وأعظمْ هـٰذهِ الحالةَ ؛ فإنَّها عظيمةٌ .

* * *

صفة العرق

ثمَّ تفكَّرْ في ازدحامِ الخلائقِ واجتماعِهِمْ حتى ازدحمَ على الموقفِ أهلُ السماواتِ السبعِ والأرضينَ السبعِ ؛ مِنْ ملكٍ وجنٍّ وإنسٍ وشيطانٍ ، ووحشٍ وسبعٍ وطيرٍ ، فأشرقَتْ عليهِمُ الشمسُ وقدْ تضاعفَ حرُّها ، وتبدَّلَتْ عمَّا كانَتْ عليهِ مِنْ خفةِ أمرِها ، ثمَّ أُدنيَتْ مِنْ رؤوسِ العالمينَ قابَ قوسينِ ، فلمْ يبقَ على الأرضِ ظلٌّ إلاَّ ظلُّ عرشِ ربِّ العالمينَ ، ولمْ يُمكَّنْ مِنَ الاستظلالِ بهِ إلاَّ المقربونَ ، فمِنْ بينِ مستظلٍّ بالعرشِ وبينِ ضاحٍ لحرِّ الشمسِ قدْ صهرَتْهُ بحرِّها ، واشتدَّ كربُهُ وغمُّهُ مِنْ وهجِها ، ثمَّ تدافعَتِ الخلائقُ ، ودفعَ بعضُهم بعضاً ؛ لشدَّةِ الزحامِ واختلافِ الأقدامِ ، وانضافَ إليهِ شدَّةُ الخجلةِ والحياءِ مِنَ الافتضاحِ والاختزاءِ عندَ العرضِ علىٰ جبارِ السماءِ ، فاجتمعَ وهجُ الشمسِ وحرُّ الأنفاسِ ، واحتراقُ القلوبِ بنارِ الحياءِ والخوفِ ، ففاضَ العرقُ مِنْ أصلِ كلِّ شعرةٍ حتىٰ سالَ علىٰ صعيدِ القيامةِ ، ثمَّ ارتفعَ إلىٰ أبدانِهِم علىٰ قدرِ منازلِهِمْ عندَ اللهِ ، فبعضُهم بلغَ العرقُ ركبتيهِ ، وبعضُهم حقويهِ ، وبعضُهم إلىٰ شحمةِ أذنيهِ ، وبعضُهم كادَ يغيبُ فيهِ .

قالَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهما : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ حتىٰ يغيبَ أحدُهُم في رشحِهِ إلىٰ أنصافِ أذنيهِ »[1] .

---

(١) رواه البخاري (٤٩٣٨) ، ومسلم (٢٨٦٢) .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يعرقُ الناسُ يومَ القيامةِ حتىٰ يذهبَ عرقُهُم في الأرضِ سبعينَ ذراعاً ، ويلجمُهم ويبلغُ آذانَهُمْ » كذا رواه البخاريُّ ومسلمٌ في الصحيحِ[1] .

وفي حديثٍ آخرَ : « قياماً شاخصةً أبصارُهُمْ أربعينَ سنةً إلى السماءِ ، فيلجمُهمُ العرقُ مِنْ شدَّةِ الكربِ »[2] .

وقالَ عقبةُ بنُ عامرٍ : (قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تدنو الشمسُ مِنَ الأرضِ يومَ القيامةِ ، فيعرقُ الناسُ ؛ فمِنَ الناسِ مَنْ يبلغُ عرقُهُ عقبَهُ ، ومنهم مَنْ يبلغُ نصفَ ساقِهِ ، ومنهم مَنْ يبلغُ ركبتيهِ ، ومنهم مَنْ يبلغُ فخذَهُ ، ومنهم مَنْ يبلغُ خاصرتَهُ ، ومنهم مَنْ يبلغُ فاهُ ـ وأشارَ بيدِهِ فألجمَها فاهُ ـ ومنهم مَنْ يغطِّيهِ عرقُهُ » وضربَ بيدِهِ علىٰ رأسِهِ هٰكذا)[3] .

فتأمَّلْ يا مسكينُ في عرقِ أهلِ المحشرِ وشدَّةِ كربِهِمْ ، وإنَّ فيهم مَنْ ينادي فيقولُ : يا ربِّ ؛ أرحْني مِنْ هٰذا الكربِ والانتظارِ ولوْ إلى النَّارِ ، وكلُّ ذلكَ ولمْ يلقَوا بعدُ حساباً ولا عقاباً ؛ فإنَّكَ واحدٌ منهم ، ولا تدري إلىٰ أينَ يبلغُكَ العرقُ .

واعلمْ : أنَّ كلَّ عرقٍ لمْ يخرجْهُ التعبُ في سبيلِ اللهِ مِنْ حجٍّ وجهادٍ

---

(١) رواه البخاري (٦٥٣٢) ، ومسلم (٢٨٦٣) .
(٢) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (٩/ ٣٦١) ، وابن عدي في « الكامل » (٥/ ٢٥٧) .
(٣) رواه أحمد في « المسند » (٤/ ١٥٧) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ٥٧١) .

وصيامٍ وقيامٍ ، وتردُّدٍ في قضاءِ حاجةِ مسلمٍ ، وتحمُّلِ مشقةٍ في أمرٍ بمعروفٍ ونهيٍ عنْ منكرٍ . . فسيخرجُهُ الحياءُ والخوفُ في صعيدِ القيامةِ ، ويطولُ فيهِ الكربُ .

ولوْ سلمَ ابنُ آدمَ مِنَ الجهلِ والغرورِ . . لعلمَ أنَّ تعبَ العرقِ في تحمُّلِ مصاعبِ الطاعاتِ أهونُ أمراً وأقصرُ زماناً مِنْ عرقِ الكربِ والانتظارِ في القيامةِ ؛ فإنَّهُ يومٌ عظيمةٌ شدَّتُهُ ، طويلةٌ مدَّتُهُ .

* * *

صفة طول يوم القيامة

يومٌ تقفُ فيهِ الخلائقُ شاخصةً أبصارُهم ، منفطرةً قلوبُهم ، لا يُكلَّمونَ ولا يُنظرُ في أمورِهم ، يقفونَ ثلاثَ مئةِ عامٍ لا يأكلونَ فيهِ أكلةً ولا يشربونَ فيهِ شربةً ، ولا يجدونَ فيهِ روحَ نسيمٍ .

قالَ كعبٌ وقتادةُ : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قالَ : يقومونَ مقدارَ ثلاثِ مئةِ عامٍ[1] .

بلْ قالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهما : تلا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ هٰذهِ الآيةَ ثمَّ قالَ : « كيفَ بكم إذا جمعَكُمُ اللهُ كما تُجمعُ النبلُ في الكنانةِ خمسينَ ألفَ سنةٍ لا ينظرُ إليكمْ »[2] .

وقالَ الحسنُ : ما ظنُّكَ بقومٍ قاموا علىٰ أقدامِهِمْ[3] مقدارَ خمسينَ ألفَ سنةٍ لمْ يأكلوا فيها أكلةً ولم يشربوا فيها شربةً ، حتىٰ إذا انقطعَتْ أعناقُهُمْ عطشاً ، واحترقَتْ أجوافُهُم جوعاً . . انصُرفَ بهِمْ إلى النَّارِ ، فسُقوا مِنْ عينٍ آنيةٍ قدْ آنَ حرُّها واشتدَّ لفحُها ، فلمَّا بلغَ المجهودُ منهمْ ما لا طاقةَ لهم بهِ . .

---

(١) أورده السيوطي في « الدر المنثور » (٨/ ٤٤٣) وعزا قول كعب إلى ابن المنذر ، وقول قتادة إلىٰ عبد بن حميد .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٤/ ٥٧١) من حديث عبد الله بن عمرو .

(٣) في (د ، ص) : (ما ظنك بيوم قاموا فيه على أقدامهم) .

كلَّمَ بعضُهُمْ بعضاً في طلبِ مَنْ يكرمُ علىٰ مولاهُ ؛ ليشفعَ في حقِّهِمْ ، فلمْ يتعلَّقوا بنبيٍّ إلاَّ دفعَهُمْ وقالَ : (دعوني ، نفسي نفسي ، شغلَني أمري عنْ أمرِ غيري) ، واعتذرَ كلُّ واحدٍ بشدةِ غضبِ اللهِ تعالىٰ ، وقالوا : (قدْ غضبَ اليومَ ربُّنا غضباً لمْ يغضبْ قبلَهُ مثلَهُ ، ولا يغضبُ بعدَهُ مثلَهُ) حتىٰ يشفعَ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمَنْ يُؤذنُ لهُ فيهِ ، لا يملكونُ الشفاعةَ إلاَّ مَنْ أذنَ لهُ الرحمـٰنُ ورضيَ لهُ قولاً[1] .

فتأمَّلْ في طولِ هـٰذا اليومِ وشدَّةِ الانتظارِ فيهِ ؛ حتىٰ يخفَّ عليكَ انتظارُ الصبرِ عنِ المعاصي في عمرِكَ المختصرِ .

واعلمْ : أنَّ مَنْ طالَ انتظارُهُ في الدنيا للموتِ ؛ لشدَّةِ مقاساتِهِ للصبرِ عنِ الشهواتِ . . فإنَّهُ يقصرُ انتظارُهُ في ذلكَ اليومِ خاصةً ؛ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمَّا سُئِلَ عنْ طولِ ذلكَ اليومِ : « والذي نفسي بيدِهِ ؛ إنَّهُ ليُخففُ على المؤمنِ حتىٰ يكونَ أهونَ عليهِ مِنْ صلاةٍ مكتوبةٍ يصليها في الدنيا »[2] .

فاجتهدْ أنْ تكونَ مِنْ أولئكَ المؤمنينَ ، فما دامَ يبقىٰ لكَ نفسٌ مِنْ عمرِكَ

---

(1) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (١٦١٣) ، وأما اعتذار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وشفاعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . . فرواه البخاري (٤٧١٢) ، ومسلم (١٩٤) .

(2) رواه أحمد في « المسند » (٧٥/٣) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (١٣٩٠) ، وفي غير (ب) : (أهون عليه من الصلاة المكتوبة).

فالأمرُ إليكَ والاستعدادُ بيديكَ ، فاعملْ في أيامٍ قصارٍ لأيامٍ طوالٍ . . تربحْ ربحاً لا منتهىٰ لسرورِهِ ، واستحقرْ عمرَكَ ، بلْ عمرَ الدنيا وهو سبعةُ آلافِ سنةٍ ؛ فإنَّكَ لوْ صبرتَ سبعةَ آلافِ سنةٍ مثلاً لتتخلصَ مِنْ يومٍ مقدارُهُ خمسونَ ألفَ سنةٍ . . لكانَ ربحُكَ كثيراً وتعبُك يسيراً .

* * *

صفة يوم القيامة ، ودواهيها ، وأساميها

فاستعدَّ يا مسكينُ لهـٰذا اليومِ العظيمِ شانُهُ ، المديدِ زمانُهُ ، القاهرِ سلطانُهُ ، القريبِ أوانُهُ ، يومٌ ترى السماءَ فيهِ قدِ انفطرَتْ ، والكواكبَ مِنْ هولِهِ قدِ انتثرَتْ ، والنجومَ الزواهرَ قدِ انكدرَتْ ، والشمسَ فيهِ قدْ كُوِّرَتْ ، والجبالَ قد سُيِّرَتْ ، والعشارَ قدْ عطِّلَتْ ، والوحوشَ قدْ حُشرَتْ ، والبحارَ قدْ سُجِّرَتْ ، والنفوسَ إلى الأبدانِ قدْ زُوِّجَتْ ، والجحيمَ قدْ سُعِّرَتْ ، والجنَّةَ قدْ أُزلفَتْ ، والجبالَ قدْ نُسفَتْ ، والأرضَ قدْ مُدَّتْ .

يومٌ ترى الأرضَ قدْ زُلزلَتْ فيهِ زلزالَها ، وأخرجَتِ الأرضُ أثقالَها ، يومَئذٍ يصدرُ الناسُ أشتاتاً ليُروا أعمالَهُمْ .

يومٌ حُملَتْ فيهِ الأرضُ والجبالُ فدُكَّتا دكَّةً واحدةً ، فيومَئذٍ وقعَتِ الواقعةُ ، وانشقَّتِ السماءُ فهي يومَئذٍ واهيةٌ ، والملكُ علىٰ أرجائِها ويحملُ عرشَ ربِّكَ فوقَهمْ يومَئذٍ ثمانيةٌ ، يومَئذٍ تُعرضونَ لا تخفىٰ منكم خافيةٌ .

يومٌ تُسيَّرُ فيهِ الجبالُ وترى الأرضَ بارزةً .

يومٌ رُجَّتِ الأرضُ فيهِ رجّاً ، وبُسَّتِ الجبالُ بسّاً ، فكانَتْ هباءً منبثاً .

يومٌ يكونُ الناسُ كالفراشِ المبثوثِ ، وتكونُ الجبالُ كالعهنِ المنفوشِ .

يومٌ تذهلُ فيهِ كلُّ مرضعةٍ عمَّا أرضعَتْ ، وتضعُ كلُّ ذاتِ حملٍ حملَها ، وترى الناسَ سُكارىٰ وما همْ بسُكارىٰ ، ولكنَّ عذابَ اللهِ شديدٌ .

يومٌ تُبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسماواتُ ، وبرزوا للهِ الواحدِ القهارِ .

يومٌ تُنسفُ فيهِ الجبالُ نسفاً ، فتُتركُ قاعاً صفصفاً ، لا ترىٰ فيها عوجاً ولا أمتاً .

يومٌ ترى الجبالَ تحسبُها جامدةً وهيَ تمرُّ مرَّ السحابِ .

يومٌ انشقَّتْ فيهِ السماءُ فكانَتْ وردةً كالدِّهانِ ، فيومَئذٍ لا يُسألُ عنْ ذنبهِ إنسٌ ولا جانٌّ .

يومٌ يُمنعُ فيهِ العاصي مِنَ الكلامِ ، ولا يُسألُ فيهِ عنِ الإجرامِ ، بلْ يُؤخذُ بالنواصي والأقدامِ .

يومٌ تجدُ كلُّ نفسٍ ما عملَتْ مِنْ خيرٍ محضراً ، وما عملَتْ مِنْ سوءٍ تودُّ لوْ أنَّ بينَها وبينَهُ أمداً بعيداً .

يومٌ تعلمُ فيهِ كلُّ نفسٍ ما أحضرَتْ ، وتشهدُ ما قدَّمَتْ وأخَّرَتْ .

يومٌ تخرسُ فيهِ الألسنُ وتنطقُ الجوارحُ .

يومٌ شيَّبَ ذكرُهُ سيِّدَ المرسلينَ ؛ إذْ قالَ لهُ الصِّدِّيقُ رضيَ اللهُ عنهُ : أراكَ قدْ شبتَ يا رسولَ اللهِ ، فقالَ : « شيَّبَتْني هودٌ وأخواتُها : الواقعةُ ، والمرسلاتُ ، وعمَّ يتساءلونَ ، وإذا الشمسُ كُوِّرَتْ »[1] .

فيا أيُّها القارىءُ العاجزُ ؛ إنَّما حظُّكَ مِنْ قراءتِكَ أن تمجمجَ القرآنَ

---

(١) رواه الترمذي (٢٢٩٧) .

وتحركَ بهِ اللسانَ ، ولوْ كنتَ متفكِّراً فيما تقرؤُهُ . . لكنتَ جديراً بأنْ تنشقَّ مرارتُكَ فيما شابَ منهُ شعرُ سيِّدِ المرسلينَ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِ ، وإذا قنعتَ بحركةِ اللسانِ . . فقدْ حُرمتَ ثمرةَ القرآنِ ؛ فالقيامةُ أحدُ ما ذُكرَ فيها .

وقدْ وصفَ اللهُ تعالىٰ بعضَ دواهيها وأكثرَ أساميَها ؛ لتقفَ بكثرةِ أساميها علىٰ كثرةِ معانيها ، فليسَ المقصودُ بكثرةِ الأسامي تكريرَ الأسامي والألقابِ ، بلِ الغرضُ تنبيهُ أولي الألبابِ ؛ فتحتَ كلِّ اسمٍ مِنْ أسماءِ القيامةِ سرٌّ ، وفي كلِّ نعتٍ مِنْ نعوتِها معنىً ، فاحرصْ علىٰ معرفةِ معانيها ، ونحنُ الآنَ نجمعُ لكَ أساميَها :

فهيَ يومُ القيامةِ ، ويومُ الحسرةِ ، ويومُ النَّدامةِ ، ويومُ المحاسبةِ ، ويومُ المساءلةِ ، ويومُ المسابقةِ ، ويومُ المناقشةِ ، ويومُ المنافسةِ ، ويومُ الزَّلزلةِ ، ويومُ الدَّمدمةِ ، ويومُ الصَّاعقةِ ، ويومُ الواقعةِ ، ويومُ القارعةِ ، ويومُ الرَّاجفةِ ، ويومُ الرَّادفةِ ، ويومُ الغاشيةِ ، ويومُ الدَّاهيةِ ، ويومُ الآزفةِ ، ويومُ الحاقَّةِ ، ويومُ الطَّامَّةِ ، ويومُ الصَّاخَّةِ ، ويومُ التَّلاقِ ، ويومُ الفراقِ ، ويومُ المساقِ ، ويومُ القصاصِ ، ويومُ التَّنادِ ، ويومُ الحسابِ ، ويومُ المآبِ ، ويومُ العذابِ ، ويومُ الفرارِ ، ويومُ القرارِ ، ويومُ اللقاءِ ، ويومُ البقاءِ ، ويومُ القضاءِ ، ويومُ الجزاءِ ، ويومُ البلاءِ ، ويومُ البكاءِ ، ويومُ الحشرِ ، ويومُ الوعدِ ، ويومُ العرضِ ، ويومُ الوزنِ ، ويومُ الحقِّ ، ويومُ الحكمِ ، ويومُ الفصلِ ، ويومُ الجمعِ ، ويومُ البعثِ ، ويومُ الفتحِ ، ويومُ الخزيِ ، ويومٌ عظيمٌ ، ويومٌ عقيمٌ ، ويومٌ عسيرٌ ، ويومُ الدِّينِ ، ويومُ

اليقينِ ، ويومُ النُّشورِ ، ويومُ المصيرِ ، ويومُ النفخةِ ، ويومُ الصَّيحةِ ، ويومُ الرَّجفةِ ، ويومُ الرَّجَّةِ ، ويومُ الزَّجرةِ ، ويومُ السَّكرةِ ، ويومُ الفزعِ ، ويومُ الجزعِ ، ويومُ المنتهىٰ ، ويومُ المأوىٰ ، ويومُ الميقاتِ ، ويومُ الميعادِ ، ويومُ المرصادِ ، ويومُ القلقِ ، ويومُ العرقِ ، ويومُ الافتقارِ ، ويومُ الانكدارِ ، ويومُ الانتشارِ ، ويومُ الانشقاقِ ، ويومُ الوقوفِ ، ويومُ الخروجِ ، ويومُ الخلودِ ، ويومُ الوعيدِ ، ويومُ التغابنِ ، ويومٌ عبوسٌ ، ويومٌ معلومٌ ، ويومٌ موعودٌ ، ويومٌ مشهودٌ ، ويومٌ لا ريبَ فيهِ ، ويومٌ تُبلى السرائرُ .

ويومٌ لا تجزي نفسٌ عنْ نفسٍ شيئاً ، ويومٌ تشخصُ فيهِ الأبصارُ ، ويومٌ لا يغني مولىً عنْ مولىً شيئاً ، ويومٌ لا تملكُ نفسٌ لنفسٍ شيئاً ، ويومٌ يُدعُّون إلىٰ نارِ جهنَّمَ دعّاً ، ويومٌ يُسحبونَ في النارِ علىٰ وجوهِهِمْ ، ويومٌ تُقلَّبُ وجوهُهُمْ في النَّارِ ، ويومٌ لا يجزي والدٌ عن ولدِهِ شيئاً ، ويومٌ يفرُّ المرءُ مِنْ أخيهِ وأمِّهِ وأبيهِ ، ويومٌ لا ينطقونَ ولا يُؤذنُ لهم فيعتذرونَ ، ويومٌ لا مردَّ لهُ مِنَ اللهِ ، ويومٌ همْ بارزونَ ، ويومٌ هم على النارِ يُفتنونَ ، ويومٌ لا ينفعُ مالٌ ولا بنونَ ، ويومٌ لا تنفعُ الظالمينَ معذرتُهُمْ ولهمُ اللعنةُ ولهمْ سوءُ الدارِ ، ويومٌ رُدَّتْ فيهِ المعاذيرُ وبُليَتِ السرائرُ وظهرَتِ الضمائرُ وكُشفَتِ الأستارُ ، ويومٌ خشعَتِ الأبصارُ وسكنَتِ الأصواتُ وقلَّ الالتفاتُ وبرزَتِ الخفيَّاتُ وظهرَتِ الخطيئاتُ ، ويومٌ يساقُ العبادُ ومعَهمُ الأشهادُ ، وشابَ الصغيرُ وسكرَ الكبيرُ ، فيومَئذٍ وُضعَتِ الموازينُ ونُشرَتِ الدواوينُ ،

وبُرِّزَتِ الجحيمُ وأُغليَ الحميمُ ، وزفرَتِ النارُ ويئسَ الكفارُ ، وسُعِّرَتِ النيرانُ وتغيَّرَتِ الألوانُ ، وخرسَ اللسانُ ونطقَتْ جوارحُ الإنسانِ .

فيا أيُّها الإنسانُ ؛ ما غرَّكَ بربِّكَ الكريمِ حيثُ أغلقتَ الأبوابَ وأرخيتَ الستورَ ، واستترتَ عنِ الخلائقِ فقارفتَ الفجورَ ؟! فماذا نفعَكَ وقدْ شهدَتْ عليكَ جوارحُكَ ؟!

فالويلُ كلُّ الويلِ لنا معاشرَ الغافلينَ ، يرسلُ اللهُ لنا سيِّدَ المرسلينَ وينزِّلُ عليهِ الكتابَ المبينَ ، ويخبرُنا بهـٰذهِ الصفاتِ مِنْ نعوتِ يومِ الدينِ ، ثمَّ يعرِّفُنا غفلتَنا ويقولُ : ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾ ، ثمَّ يعرِّفُنا قربَ القيامةِ فيقولُ : ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ ، ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴾ ، ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ ثمَّ يكونُ أحسنُ أحوالِنا أن نتخذَ دراسةَ هـٰذا القرآنِ عملاً ، فلا نتدبرُ معانيَهُ ، ولا ننظرُ في كثرةِ أوصافِ هـٰذا اليومِ وأساميهِ ، ولا نستعدُّ للفرارِ مِنْ دواهيهِ ، فنعوذُ باللهِ مِنْ هـٰذهِ الغفلةِ إنْ لمْ يتداركْنا اللهُ بواسعِ رحمتِهِ .

* * *

صفة المسألة

ثمَّ تفكَّرْ يا مسكينُ بعدَ هـٰذهِ الأهوالِ فيما يتوجَّهُ عليكَ مِنَ السؤالِ شفاهاً مِنْ غيرِ ترجمانٍ ، فتُسألُ عنِ القليلِ والكثيرِ ، والنقيرِ والقطميرِ ، فبينا أنتَ في كربِ القيامةِ وعرقِها وشدَّةِ عظائمِها ؛ إذْ نزلَتْ ملائكةٌ مِنْ أرجاءِ السماءِ بأجسامٍ عظامٍ وأشخاصٍ ضخامٍ ، غلاظٌ شدادٌ ، أُمروا أنْ يأخذوا بنواصي المجرمينَ إلىٰ موقفِ العرضِ على الجبَّارِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ للهِ عزَّ وجلَّ ملكاً ما بينَ شفري عينيهِ مسيرةُ مئةِ عامٍ »[1] فما ظنُّكَ بنفسِكَ إذا شاهدتَ مثلَ هؤلاءِ الملائكةِ أُرسلوا إليكَ ليأخذوكَ إلىٰ مقامِ العرضِ ، وتراهمْ علىٰ عظمِ أشخاصِهِمْ منكسرينَ لشدَّةِ اليومِ ، مستشعرينَ ممَّا بدا مِنْ غضبِ الجبارِ علىٰ عبادِهِ ، وعندَ نزولِهِمْ لا يبقىٰ نبيٌّ ولا صديقٌ ولا صالحٌ إلاَّ ويخرُّون لأذقانِهِمْ خوفاً مِنْ أنْ يكونوا هُمُ المأخوذينَ ، فهـٰذا حالُ المقرَّبينَ ، فما ظنُّكَ بالعصاةِ المجرمينَ ؟!

وعندَ ذلكَ يبادرُ أقوامٌ مِنْ شدةِ الفزعِ فيقولونَ للملائكةِ : أفيكمْ ربُّنا ؟ وذلكَ لعظمِ موكبِهِمْ وشدةِ هيبتِهِمْ ، فتفزعُ الملائكةُ مِنْ سؤالِهِمْ إجلالاً لخالقِهِمْ عنْ أنْ يكونَ فيهِمْ ، فنادوا بأصواتِهِم منزِّهينَ لمليكِهِمْ عمَّا توهَّمَهُ

---

(١) قال الحافظ العراقي : (لم أره بهـٰذا اللفظ) . « إتحاف » (١٠/ ٤٦٥) ، وشفري عينيه : أي : طرفيهما .

أهلُ الأرضِ وقالوا : سبحانَ ربِّنا ما هوَ فينا ، ولكنَّهُ آتٍ مِنْ بعدُ .

وعندَ ذلكَ تقومُ الملائكةُ صفاً محدقينَ بالخلائقِ مِنَ الجوانبِ ، وعلىٰ جميعِهِمْ شعارُ الذلِّ والخضوعِ وهيئةُ الخوفِ والمهابةِ ؛ لشدَّةِ اليومِ .

وعندَ ذلكَ يصدقُ اللهُ تعالىٰ قولَهُ : ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ ، وقولَهُ : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ .

فيبدأُ سبحانَهُ بالأنبياءِ : ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ ، فيا لشدَّةِ يومٍ تذهلُ فيهِ عقولُ الأنبياءِ ، وتنمحي علومُهُمْ مِنْ شدَّةِ الهيبةِ ؛ إذْ يُقالُ لهمْ : ماذا أُجبتُم وقدْ أُرسلتُم إلى الخلائقِ ، وكانوا قدْ علموا ، فتدهشُ عقولُهُمْ فلا يدرونَ بماذا يجيبونَ ، فيقولونَ مِنْ شدَّةِ الهيبةِ : لا علمَ لنا إنَّكَ أنتَ علاَّمُ الغيوبِ ! وهمْ في ذلكَ الوقتِ صادقونَ ؛ إذْ طارَتْ فيهِ العقولُ وانمحَتِ العلومُ إلىٰ أنْ يقويَهُمُ اللهُ تعالىٰ .

فيُدعىٰ نوحٌ عليهِ السَّلامُ فيُقالُ لهُ : هلْ بلَّغتَ ؟ فيقولُ : نعمْ ، فيُقالُ لأمَّتِهِ : هلْ بلَّغَكُمْ ؟ فيقولونَ : ما أتانا مِنْ نذيرٍ .

ويُؤتىٰ بعيسىٰ عليهِ السَّلامُ فيقولُ اللهُ تعالىٰ لهُ : أأنتَ قلتَ للنَّاسِ اتخذوني وأميَ إلٰهينِ مِنْ دونِ اللهِ ؟ فيبقىٰ متشحطاً تحتَ هيبةِ هـٰذا السؤالِ سنينَ ، فيا لعظمِ يومٍ تُقامُ فيهِ السِّياسةُ على الأنبياءِ بمثلِ هـٰذا السؤالِ !

ثمَّ تقبلُ الملائكةُ فينادونَ واحداً واحداً : يا فلانُ بنَ فلانةَ ؛ هلمَّ إلىٰ

موقفِ العرضِ ، وعندَ ذلكَ ترتعدُ الفرائصُ ، وتضطربُ الجوارحُ ، وتبهتُ العقولُ ، ويتمنَّىٰ أقوامٌ أنْ يُذهبَ بهمْ إلى النَّارِ ولا تُعرضَ قبائحُ أعمالِهِمْ على الجبَّارِ ، ولا يُكشفَ سترُهم علىٰ ملأِ الخلائقِ .

وقبلَ الابتداءِ بالسؤالِ يظهرُ نورُ العرشِ ، وأشرقَتِ الأرضُ بنورِ ربِّها ، وأيقنَ كلُّ عبدٍ بإقبالِ الجبارِ لمساءلةِ العبادِ ، وظنَّ كلُّ واحدٍ أنَّهُ ما يُرادُ أحدٌ سواهُ ، وأنَّهُ المقصودُ بالأخذِ والسؤالِ دونَ مَنْ عداهُ ، فيقولُ الجبارُ سبحانَهُ وتعالىٰ عندَ ذلكَ : يا جبريلُ ؛ ائتني بالنَّارِ ، فيأتيها جبريلُ ويقولُ لها : يا جهنَّمُ ؛ أجيبي خالقَكِ ومليكَكِ ، فيصادفُها جبريلُ علىٰ غيظِها وغضبِها ، فلمْ يلبثْ بعدَ ندائِهِ أنْ ثارَتْ وفارَتْ ، وزفرَتْ إلى الخلائقِ وشهقَتْ ، وسمعَ الخلائقُ تغيُّظَها وزفيرَها ، وانتهضَتْ خُزَّانُها متوثبةً إلى الخلائقِ غضباً علىٰ مَنْ عصى اللهَ تعالىٰ وخالفَ أمرَهُ .

فأخطرْ ببالِكَ وأحضرْ في قلبِكَ حالةَ قلوبِ العبادِ وقدِ امتلأَتْ فزعاً ورعباً ، فتساقطوا جثيّاً علىٰ ركبِهِمْ ، وولَّوا مدبرينَ ، يومَ ترىٰ كلَّ أمةٍ جاثيةً ، وسقطَ بعضُهُم على الوجوهِ منكبينَ ، ويُنادي الظالمونَ والعصاةُ بالويلِ والثبورِ ، وينادي الصديقونَ : نفسي نفسي .

فبينَما همْ كذلكَ ؛ إذْ زفرَتِ النارُ زفرتَها الثانيةَ ، فتضاعفَ خوفُهُم ، وتخاذلَتْ قواهمْ ، وظنُّوا أنَّهم مأخوذونَ ، ثمَّ زفرَتِ الثالثةَ ، فتساقطَ الخلائقُ لوجوهِهِمْ ، وشخصوا بأبصارِهِمْ ينظرونَ مِنْ طرفٍ خفيٍّ خاشعٍ ،

وانهضمَتْ عندَ ذلكَ قلوبُ الظالمينَ فبلغَتْ لدى الحناجرِ كاظمينَ ، وذهلَتِ العقولُ مِنَ السعداءِ والأشقياءِ أجمعينَ .

وبعدَ ذلكَ أقبلَ اللهُ تعالىٰ على الرسلِ وقالَ : ماذا أُجبتُم ، فإذا رأوا ما قدْ أُقيمَ مِنَ السِّياسةِ على الأنبياءِ . . اشتدَّ الفزعُ على العصاةِ ، ففرَّ الوالدُ مِنْ ولدِهِ ، والأخُ مِنْ أخيهِ ، والزوجُ مِنْ زوجتِهِ ، وبقيَ كلٌّ واحدٍ منتظراً لأمرِهِ .

ثمَّ يُؤخذُ واحدٌ واحدٌ ، فيسألُهُ اللهُ تعالىٰ شفاهاً عنْ قليلِ عملِهِ وكثيرِهِ ، وعنْ سرِّهِ وعلانيتِهِ ، وعنْ جميعِ جوارحِهِ وأعضائِهِ .

قالَ أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ : قالوا : يا رسولَ اللهِ ، هلْ نرىٰ ربَّنا يومَ القيامةِ ؟ فقالَ : « هلْ تضارونَ في رؤيةِ الشمسِ في الظهيرةِ ليسَتْ في سحابةٍ ؟ » قالوا : لا ، قالَ : « فهلْ تضارونُ في رؤيةِ القمرِ ليلةَ البدرِ ليسَ في سحابةٍ ؟ » قالوا : لا ، قالَ : « فوالذي نفسي بيدِهِ ؛ لا تضارونَ في رؤيةِ ربِّكم ؛ فيلقى العبدَ فيقولُ لهُ : ألمْ أكرمْكَ وأسوِّدْكَ وأزوجْكَ ، وأسخِّرْ لكَ الخيلَ والإبلَ ، وأذرْكَ ترأسُ وتربعُ ؟! فيقولُ العبدُ : بلىٰ ، فيقولُ : أفظننتَ أنَّكَ ملاقيَّ ؟ فيقولُ : لا ، فيقولُ تعالىٰ : فإنِّي أنساكَ كما نسيتَني »[1] .

---

(١) رواه البخاري (٦٥٧٤) ، ومسلم (٢٩٦٨) واللفظ له ، وتربع : تنال من الأموال وتكون مطاعاً ، وفي (ج ، ص) : (ترتع) بدل (تربع) وهي رواية أشار لها الإمام النووي في « شرح صحيح مسلم » (١٨/ ١٠٣ ـ ١٠٤) .

فتوهمْ نفسَكَ يا مسكينُ وقدْ أخذَتِ الملائكةُ بعضديكَ ، وأنتَ واقفٌ بينَ يديِ اللهِ تعالىٰ يسألُكَ شفاهاً فيقولُ لكَ : ألمْ أنعمْ عليكَ بالشبابِ ؟! ففيماذا أبليتَهُ ؟! ألمْ أمهلْ لكَ في العمرِ ؟! ففيماذا أفنيتَهُ ؟! ألمْ أرزقْكَ الأموالَ ؟! فمِنْ أينَ اكتسبتَ ؟! وفيماذا أنفقتَ ؟! ألمْ أكرمْكَ بالعلمِ ؟! فماذا عملتَ فيما علمتَ ؟!

فكيفَ ترىٰ حياءَكَ وخجلتَكَ وهوَ يعدُّ عليكَ إنعامَهُ ومعاصيَكَ وأياديَهُ ومساويَكَ ؟

فإنْ أنكرتَ . . شهدَتْ عليكَ جوارحُكَ ، قالَ أنسٌ رضيَ اللهُ عنهُ : كنَّا معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فضحكَ ثمَّ قالَ : « أتدرونَ ممَّ أضحكُ ؟ » قلنا : اللهُ ورسولُهُ أعلمُ ، قالَ : « مِنْ مخاطبةِ العبدِ ربَّهُ ، يقولُ : يا ربِّ ؛ ألمْ تجرْني مِنَ الظلمِ ؟ قالَ : يقولُ : بلىٰ ، قالَ : فيقولُ : فإنِّي لا أجيزُ علىٰ نفسي إلا شاهداً مني ، فيقولُ : كفىٰ بنفسِكَ اليومَ عليكَ حسيباً ، وبالكرامِ الكاتبينَ شهوداً ، قالَ : فيُختمُ علىٰ فيهِ ويُقالُ لأركانِهِ : انطقي ، قالَ : فتنطقُ بأعمالِهِ ، ثمَّ يُخلَّىٰ بينَهُ وبينَ الكلامِ فيقولُ لأعضائِهِ : بعداً لَكُنَّ وسحقاً ! فعنكُنَّ كنتُ أناضلُ »[1] .

فنعوذُ باللهِ مِنَ الافتضاحِ علىٰ ملأِ الخلقِ بشهادةِ الأعضاءِ ، إلاَّ أنَّ اللهَ تعالىٰ وعدَ المؤمنَ بأنْ يسترَ عليهِ ، ولا يطلعَ عليهِ غيرَهُ .

---

(١) رواه مسلم (٢٩٦٩) .

سألَ ابنَ عمرَ رجلٌ فقالَ لهُ : كيفَ سمعتَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ في النَّجوى ؟ فقالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يدنو أحدُكُمْ مِنْ ربِّهِ عزَّ وجلَّ حتىٰ يضعَ كنفَهُ عليهِ فيقولُ : عملتَ كذا وكذا ؟! فيقولُ : نعمْ ، فيقولُ : عملتَ كذا وكذا ؟! فيقولُ : نعمْ ، ثمَّ يقولُ : إنِّي سترتُها عليكَ في الدنيا ، وأنا أغفرُها لكَ اليومَ »[(١)] .

وقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ سترَ علىٰ مؤمنٍ عورتَهُ . . سترَ اللهُ عورتَهُ يومَ القيامةِ »[(٢)] فهٰذا إنَّما يُرجىٰ لعبدٍ مؤمنٍ سترَ على النَّاسِ عيوبَهُم ، واحتملَ في حقِّ نفسِهِ تقصيرَهُم ، ولمْ يحرِّكْ لسانَهُ بذكرِ مساويهِمْ ، ولمْ يذكرْهُمْ في غيبتِهِمْ بما يكرهونَ لوْ سمعوهُ ، فهوَ جديرٌ بأنْ يُجازىٰ بمثلِهِ في القيامةِ .

وهبْ أنَّهُ قدْ سترَهُ عنْ غيرِكَ ، أليسَ قدْ قرعَ سمعَكَ النداءُ إلى العرضِ ؟! فيكفيكَ تلكَ الروعةُ جزاءً عنْ ذنوبِكَ ؛ إذْ يُؤخذُ بناصيتِكَ فتُقادُ وفؤادُكَ مضطربٌ ولبُّكَ طائرٌ ، وفرائصُكَ مرتعدةٌ وجوارحُكَ مضطربةٌ ، ولونُكَ متغيِّرٌ والعالَمُ عليكَ مِنْ شدَّةِ الهولِ مظلمٌ ، فقدِّرْ نفسَكَ وأنتَ بهٰذهِ الصفةِ تتخطى الرقابَ وتخرقُ الصفوفَ ، وتُقادُ كما تُقادُ الفرسُ

---

(١) رواه البخاري (٢٤٤١) ، ومسلم (٢٧٦٨) .

(٢) رواه ابن ماجه (٢٥٤٦) ، وعند البخاري (٢٤٤٢) ، ومسلم (٢٥٨٠) : « ومن ستر مسلماً . . ستره الله يوم القيامة » .

المجنوبُ[1] ، وقدْ رفعَ الخلائقُ إليكَ أبصارَهُم .

فتوهَّمْ نفسَكَ أنَّكَ في أيدي الموكلينَ بكَ على هٰذهِ الصفةِ ، حتى انتُهيَ بكَ إلىٰ عرشِ الرحمٰنِ فرموكَ مِنْ أيديهمْ ، وناداكَ اللهُ سبحانَهُ وتعالىٰ بعظيمِ كلامِهِ : يا بنَ آدمَ ؛ ادنُ منِّي ، فدنوتَ منهُ بقلبٍ خافقٍ محزونٍ وَجِلٍ ، وطرفٍ خاشعٍ ذليلٍ ، وفؤادٍ منكسرٍ ، وأُعطيتَ كتابَكَ الذي لا يغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلاَّ أحصاها ، فكمْ مِنْ فاحشةٍ نسيتَها فتذكرتَها ؛ وكمْ مِنْ طاعةٍ غفلتَ عنْ آفاتِها فانكشفَ لكَ عنْ مساويها !

فكمْ لكَ مِنْ خجلٍ وجبنٍ ! وكمْ لكَ مِنْ حصرٍ وعجزٍ !

فليتَ شعري بأيِّ قدمٍ تقفُ بينَ يديهِ ؟! وبأيِّ لسانٍ تجيبُ ؟! وبأيِّ قلبٍ تعقلُ ما تقولُ ؟!

ثمَّ تفكَّرْ في عظمِ حيائِكَ إذا ذكَّرَكَ ذنوبَكَ شفاهاً ؛ إذْ يقولُ : يا عبدي ؛ أما استحييتَ منِّي فبارزتَني بالقبيحِ ، واستحييتَ مِنْ خلقي فأظهرتَ لهمُ الجميلَ ؟! أكنتُ أهونَ عليكَ مِنْ سائرِ عبادي ؟!

أستخففتَ بنظري إليكَ فلمْ تكترثْ ، واستعظمتَ نظرَ غيري ؟!

ألمْ أنعمْ عليكَ ؟! فماذا غرَّكَ بي ؟! أظننتَ أنِّي لا أراكَ وأنَّكَ لا تلقاني ؟!

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما منكمْ مِنْ أحدٍ إلاَّ ويسألُهُ اللهُ

(١) المجنوب : المجرور في الموكب .

ربُّ العالمينَ ليسَ بينَهُ وبينَهُ حجابٌ ولا ترجمانٌ »[1] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ليقفنَّ أحدُكُم بينَ يدَيِ اللهِ تعالىٰ ليسَ بينَهُ وبينَهُ حجابٌ ، فيقولُ لهُ : ألَمْ أنعمْ عليكَ ، ألَمْ أوتِكَ مالاً ؟! فيقولُ : بلىٰ ، فيقولُ : ألَمْ أرسلْ إليكَ رسولاً ؟! فيقولُ : بلىٰ ، ثمَّ ينظرُ عنْ يمينِهِ فلا يرىٰ إلاَّ النَّارَ ، ثمَّ ينظرُ عنْ شمالِهِ فلا يرىٰ إلا النَّارَ ، فليتَّقِ أحدُكمُ النَّارَ ولوْ بشقِّ تمرةٍ ، فإنْ لمْ يجدْ . . فبكلمةٍ طيبةٍ »[2] .

وقالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (ما منكُم مِنْ أحدٍ إلاَّ سيخلو اللهُ عزَّ وجلَّ بهِ كما يخلو أحدُكُمْ بالقمرِ ليلةَ البدرِ ، ثمَّ يقولُ :

يا بنَ آدمَ ، ما غرَّكَ بي ؟!

يا بنَ آدمَ ؛ ماذا عملتَ فيما علمتَ ؟!

يا بنَ آدمَ ؛ ماذا أجبتَ المرسلينَ ؟!

يا بنَ آدمَ ؛ ألَمْ أكنْ رقيباً علىٰ عينِكَ وأنتَ تنظرُ بها إلىٰ ما لا يحلُّ لكَ ؟! ألَمْ أكنْ رقيباً علىٰ أذنيكَ . . .) وهٰكذا حتىٰ عدَّ سائرَ الأعضاءِ[3] .

وقالَ مجاهدٌ : لا تزولُ قدما عبدٍ يومَ القيامةِ مِنْ بينِ يدَيِ اللهِ عزَّ وجلَّ

---

(١) رواه البخاري (٦٥٣٩) ، ومسلم (١٠١٦/ ٦٧) .

(٢) رواه البخاري (١٤١٣) .

(٣) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (٩/ ٢٠٣) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ١٣١) مختصراً .

حتىٰ يسألَهُ عنْ أربعِ خصالٍ : عنْ عمرِهِ فيما أفناهُ ، وعنْ علمِهِ ما عملَ فيهِ ، وعنْ جسدِهِ فيما أبلاهُ ، وعنْ مالِهِ مِنْ أينَ اكتسبَهُ وفيما أنفقَهُ[1] .

فأعظمْ يا مسكينُ بحيائِكَ عندَ ذلكَ وبخطرِكَ ؛ فإنَّكَ بينَ أنْ يُقالَ لكَ : سترتُها عليكَ في الدنيا وأنا أغفرُها لكَ اليومَ ، فعندَ ذلكَ يعظمُ سرورُكَ وفرحُكَ ، ويغبطُكَ الأولونَ والآخرونَ ، وإمَّا أنْ يُقالَ للملائكةِ : خذوا هـٰذا العبدَ السوءَ فغلُّوهُ ، ثمَّ الجحيمَ صلُّوهُ ، وعندَ ذلكَ لوْ بكتْ عليكَ السماواتُ والأرضُ . . لكانَ ذلكَ جديراً بعظمِ مصيبتِكَ ، وشدَّةِ حسرتِكَ علىٰ ما فرَّطتَ فيهِ مِنْ طاعةِ اللهِ ، وعلىٰ ما بعتَ بهِ آخرتَكَ مِنْ دنيا دنيَّةٍ لمْ تبقَ معكَ .

* * *

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (١١/١٠٢) ، وبنحوه الترمذي (٢٤١٧) مرفوعاً من حديث أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه .

صفة الميزان

ثمَّ لا تغفلْ عنِ الفكرِ في الميزانِ ، وتطايرِ الكتبِ إلى الأيمانِ والشمائلِ ؛ فإنَّ الناسَ بعدَ السؤالِ ثلاثُ فرقٍ :

فرقةٌ ليسَ لهمْ حسنةٌ ، فيخرجُ مِنَ النَّارِ عنقٌ أسودُ فيلقطُهُم لقطَ الطيرِ الحبَّ ، وينطوي عليهمْ ويلقيهمْ في النَّارِ ، فتبتلعُهمُ النَّارُ ، ويُنادىٰ عليهمْ بشقاوةٍ لا سعادةَ بعدَها .

وقسمٌ آخرُ لا سيئةَ لهُمْ ، فينادي منادٍ : ليقمِ الحمَّادونَ للهِ علىٰ كلِّ حالٍ ، فيقومونَ ويسرحونَ إلى الجنَّةِ ، ثمَّ يُفعلُ ذلكَ بأهلِ قيامِ الليلِ ، ثمَّ بمَنْ لمْ تشغلْهُ تجارةُ الدنيا ولا بيعُها عنْ ذكرِ اللهِ تعالىٰ ، ويُنادىٰ عليهمْ بسعادةٍ لا شقاوةَ بعدَها .

ويبقىٰ قسمٌ ثالثٌ وهمُ الأكثرونَ ، خلطوا عملاً صالحاً وآخرَ سيئاً ، وقدْ يخفىٰ عليهِمْ ولا يخفىٰ على اللهِ تعالىٰ أنَّ الغالبَ حسناتُهُمْ أوْ سيئاتُهُمْ ، ولكنْ يأبى اللهُ تعالىٰ إلاَّ أنْ يعرِّفَهُمْ حقيقةَ ذلكَ ؛ ليبيِّنَ فضلَهُ عندَ العفوِ وعدلَهُ عندَ العقابِ ، فتتطايرُ الصحفُ والكتبُ منطويةً على الحسناتِ والسيئاتِ ، ويُنصبُ الميزانُ ، وتشخصُ الأبصارُ إلى الكتبِ ، أتقعُ في اليمينِ أوْ في الشمالِ ؟ ثمَّ إلىٰ لسانِ الميزانِ أيميلُ إلىٰ جانبِ السيئاتِ أوْ إلىٰ جانبِ الحسناتِ ؟ وهٰذهِ حالةٌ هائلةٌ تطيشُ فيها عقولُ الخلائقِ .

روى الحسنُ : أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كانَ رأسُهُ في حجرِ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها ، فنعَسَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فذكرَتِ الآخرةَ فبكَتْ حتىٰ سالَتْ دموعُها علىٰ خدِّ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فانتبهَ فقالَ : « ما يبكيكِ يا عائشةُ ؟ » قالَتْ : ذكرتُ الآخرةَ ، هلْ تذكرُونَ أهليكمْ يومَ القيامةِ ؟ قالَ : « والذي نفسي بيدِهِ ، في ثلاثةِ مواطنَ فإنَّ أحداً لا يذكرُ إلاَّ نفسَهُ : إذا وُضعَتِ الموازينُ ووُزنَتِ الأعمالُ حتىٰ ينظرَ ابنُ آدمَ أيخفُّ ميزانُهُ أمْ يثقلُ ، وعندَ الصحفِ حتىٰ ينظرَ أبيمينِهِ يأخذُها أمْ بشمالِهِ ، وعندَ الصِّراطِ »[1] .

وعنْ أنسٍ قالَ : (يُؤتىٰ بابنِ آدمَ يومَ القيامةِ حتىٰ يُوقفَ بينَ كفَّتي الميزانِ ، ويُوكلَ بهِ ملكٌ : فإنْ ثقلَ ميزانُهُ.. نادى الملكُ بصوتٍ يسمعُ الخلائقَ : سعدَ فلانٌ سعادةً لا يشقىٰ بعدَها أبداً ، وإنْ خفَّ ميزانُهُ.. نادىٰ بصوتٍ يسمعُ الخلائقَ : شقيَ فلانٌ شقاوةً لا يسعدُ بعدَها أبداً)[2] .

وعندَ خفَّةِ كفَّةِ الحسناتِ تقبلُ الزبانيةُ وبأيديهِمْ مقامعُ مِنْ حديدٍ ، عليهِمْ ثيابٌ مِنْ نارٍ ، فيأخذونَ نصيبَ النَّارِ إلى النَّارِ .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في يومِ القيامةِ : « إنَّهُ يومٌ ينادي اللهُ تعالىٰ فيهِ آدمَ عليهِ السَّلامُ فيقولُ لهُ : قمْ يا آدمُ فابعثْ بعْثَ النَّارِ ، فيقولُ :

---

(١) رواه أبو داوود (٤٧٥٥) .
(٢) رواه البزار في « مسنده » (٦٩٤٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦/ ١٧٤) مرفوعاً من حديث أنس رضي الله عنه .

وكمْ بعْثُ النَّارِ ؟ فيقولُ : مِنْ كُلِّ ألفٍ تسعُ مئةٍ وتسعةٌ وتسعونَ في النارِ وواحدٌ في الجنَّةِ » فلمَّا سمعَ الصحابةُ ذلكَ . . أبلسوا حتىٰ ما أوضحوا بضاحكةٍ ، فلمَّا رأىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ما عندَ أصحابِهِ . . قالَ : « اعملوا وأبشروا ، فوَالذي نفسُ محمَّدٍ بيدِهِ ؛ إنَّ معَكمْ لخليقتينِ ما كانتا معَ أحدٍ قطُّ إلاَّ كثَّرَتاهُ معَ مَنْ هلكَ مِنْ بني آدمَ وبني إبليسَ » قالوا : وما هما يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « يأجوجُ ومأجوجُ » قالَ : فسُرِّيَ عنِ القومِ ، فقالَ : « اعملوا وأبشروا ، فوالذي نفسُ محمَّدٍ بيدِهِ ، ما أنتُمْ في النَّاسِ يومَ القيامةِ إلاَّ كالشامةِ في جنبِ البعيرِ ، أوْ كالرقمةِ في ذراعِ الدابةِ »[1] .

* * *

(١) رواه الترمذي بهٰذا اللفظ (٣١٦٩) ، وأصله عند البخاري (٦٥٣٠) ، ومسلم (٢٢٢) .

صفة الخصماء ورد المظالم

قدْ عرفتَ هولَ الميزانِ وخطرَهُ ، وأنَّ الأعينَ شاخصةٌ إلىٰ لسانِ الميزانِ ، فمَنْ ثقلَتْ موازينُهُ . . فهوَ في عيشةٍ راضيةٍ ، وأمَّا مَنْ خفَّتْ موازينُهُ . . فأمُّهُ هاويةٌ ، وما أدرَاكَ ما هيهْ ؟ نارٌ حاميةٌ .

واعلمْ : أنَّهُ لا ينجوْ مِنْ خطرِ الحسابِ والميزانِ إلاَّ مَنْ حاسبَ في الدنيا نفسَهُ ، ووزنَ فيها بميزانِ الشرعِ أعمالَهُ وأقوالَهُ ، وخطراتِهِ ولحظاتِهِ ، كما قالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنه : (حاسبوا أنفسَكُمْ قبلَ أنْ تُحاسبوا ، وزنوها قبلَ أنْ تُوزنوا)[1] .

وإنَّما حسابُهُ لنفسِهِ أنْ يتوبَ عنْ كلِّ معصيةٍ قبلَ الموتِ توبةً نصوحاً ، ويتداركَ ما فرَّطَ مِنْ تقصيرِهِ في فرائضِ اللهِ تعالىٰ ، ويردَّ المظالمَ حبةً بعدَ حبةٍ ، ويستحلَّ كلَّ مَنْ تعرَّضَ لهُ بلسانِهِ ويدِهِ وسوءِ ظنِّهِ بقلبِهِ ، ويطيِّبَ قلوبَهُمْ ؛ حتىٰ يموتَ ولمْ يبقَ عليهِ مظلمةٌ ولا فريضةٌ ، فهـٰذا يدخلُ الجنةَ بغيرِ حسابٍ .

وإنْ ماتَ قبلَ ردِّ المظالمِ . . أحاطَ بهِ خصماؤُهُ ، فهـٰذا يأخذُ بيدِهِ ، وهـٰذا يقبضُ علىٰ ناصيتِهِ ، وهـٰذا يتعلقُ بتلبيبِهِ ، هـٰذا يقولُ : ظلمتَني ، وهـٰذا يقولُ : شتمتَني ، وهـٰذا يقولُ : استهزأتَ بي ، وهـٰذا يقولُ :

---

(١) رواه أحمد في « الزهد » (٦٣٣) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٦٠٠) .

ذكرتَني في الغيبةِ بما يسوءُني ، وهـٰذا يقولُ : جاورتَني فأسأتَ جواري ، وهـٰذا يقولُ : عاملتَني فغششتَني ، وهـٰذا يقولُ : بايعتَني فغبنتَني وأخفيتَ عنِّي عيبَ متاعِكَ ، وهـٰذا يقولُ : كذبتَ في سعرِ متاعِكَ ، وهـٰذا يقولُ : رأيتَني محتاجاً وكنتَ غنياً فما أطعمتَني ، وهـٰذا يقولُ : وجدتَني مظلوماً وكنتَ قادراً علىٰ دفعِ الظلمِ عنِّي ، فداهنتَ الظالمَ وما راعيتَني .

فبينا أنتَ كذلكَ وقدْ أنشبَ الخصماءُ فيكَ مخالبَهُمْ ، وأحكموا في تلابيبِكَ أيديَهم ، وأنتَ مبهوتٌ متحيرٌ مِنْ كثرتِهِمْ ، حتىٰ لمْ يبقَ في عمرِكَ أحدٌ عاملتَهُ علىٰ درهمٍ أوْ جالستَهُ في مجلسٍ إلاَّ وقدِ استحقَّ عليكَ مظلمةً بغيبةٍ أوْ خيانةٍ ، أوْ نظرٍ بعينِ استحقارٍ ، وقدْ ضعفتَ عنْ مقاومتِهِمْ ، ومددتَ عنقَ الرجاءِ إلىٰ سيِّدِكَ ومولاكَ لعلَّهُ يخلصُكَ مِنْ أيديهِمْ ؛ إذْ قرعَ سمعَكَ نداءُ الجبارِ جلَّ جلالُهُ : ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ﴾ فعندَ ذلكَ ينخلعُ قلبُكَ مِنَ الهيبةِ ، وتوقنُ نفسُكَ بالبوارِ ، وتتذكرُ ما أنذرَكَ اللهُ تعالىٰ بهِ علىٰ لسانِ رسولِهِ حيثُ قالَ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ ۝ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾ .

فما أشدَّ فرحَكَ اليومَ بتمضمضِكَ بأعراضِ النَّاسِ وتناولِكَ أموالَهُمْ ! وما أشدَّ حسراتِكَ في ذلكَ اليومِ إذا وُقِفَ بكَ علىٰ بساطِ العدلِ ، وشُوفهتَ بخطابِ السياسةِ وأنتَ مفلسٌ فقيرٌ ، عاجزٌ مهينٌ ، لا تقدرُ علىٰ أنْ تردَّ حقّاً أو تظهرَ عذراً !

فعندَ ذلكَ تؤخذُ حسناتُكَ التي أفنيتَ فيها عمرَكَ ، وتُنقلُ إلىٰ خصمائِكَ عوضاً عنْ حقوقِهِمْ .

قالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « هلْ تدرونَ مَنِ المفلسُ ؟ » قالوا : المفلسُ فينا ـ يا رسولَ اللهِ ـ : مَنْ لا درهمَ لهُ ولا متاعَ ، فقالَ : « المفلسُ مِنْ أُمَّتي : مَنْ يأتي يومَ القيامةِ بصلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ ، ويأتي وقدْ شتمَ هـٰذا وقذفَ هـٰذا ، وأكلَ مالَ هـٰذا وسفكَ دمَ هـٰذا وضربَ هـٰذا ، فيُعطىٰ هـٰذا مِنْ حسناتِهِ وهـٰذا مِنْ حسناتِهِ ، وإنْ فنيَتْ حسناتُهُ قبلَ أنْ يقضيَ ما عليهِ . . أُخِذَ مِنْ خطاياهُمْ فطُرِحَتْ عليهِ ثمَّ طُرِحَ في النَّارِ »[١] .

فانظرْ إلىٰ مصيبتِكَ في مثلِ هـٰذا اليومِ ؛ إذْ ليسَ يسلمُ لكَ حسنةٌ مِنْ آفاتِ الرياءِ ومكايدِ الشيطانِ ، فإنْ سلمَتْ حسنةٌ واحدةٌ في كلِّ مدةٍ طويلةٍ . . ابتدرَها خصماؤُكَ وأخذوها .

ولعلَّكَ لوْ حاسبتَ نفسَكَ وأنتَ مواظبٌ علىٰ صيامِ النهارِ وقيامِ الليلِ . . لعلمتَ أنَّهُ لا ينقضي عنكَ يومٌ إلاَّ ويجري علىٰ لسانِكَ مِنْ غيبةِ المسلمينَ ما يستوفي جميعَ حسناتِكَ ، فكيفَ ببقيَّةِ السيئاتِ مِنْ أكلِ الحرامِ والشبهاتِ والتقصيرِ في الطاعاتِ ؟!

وكيفَ ترجوْ الخلاصَ مِنَ المظالمِ في يومٍ يُقتصُّ فيهِ للجمَّاءِ مِنَ

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨١) .

القرناءِ ؟! فقدْ روىٰ أبو ذرٍّ : أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رأىٰ شاتينِ تنتطحانِ فقالَ : « يا أبا ذرٍّ ؛ أتدري فيمَ تنتطحانِ ؟ » قلتُ : لا ، قالَ : « ولكنَّ ربَّكَ يدري ، وسيقضي بينَهما يومَ القيامةِ »[1] .

وقالَ أبو هريرةَ في قولهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ : (إنَّهُ يُحشرُ الخلقُ كلُّهمْ يومَ القيامةِ ؛ البهائمُ والدوابُّ والطيرُ وكلُّ شيءٍ ، فيبلغُ مِنْ عدلِ اللهِ تعالىٰ أنْ يأخذَ للجمَّاءِ مِنَ القرناءِ ثمَّ يقولَ : كوني تراباً ، فذلكَ حينَ يقولُ الكافرُ : ﴿ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا ﴾)[2] .

فكيفَ أنتَ يا مسكينُ في يومٍ ترىٰ صحيفتَكَ خاليةً عنْ حسناتٍ طالَ فيها تعبُكَ ، فتقولُ : أينَ حسناتي ؟ فيُقالُ : نُقلَتْ إلىٰ صحيفةِ خصمائِكَ ، وترىٰ صحيفتَكَ مشحونةً بسيئاتٍ طالَ في الصبرِ عنها نصبُكَ ، واشتدَّ بسببِ الكفِّ عنها عناؤُكَ ، فتقولُ : يا ربِّ ؛ هٰذهِ سيئاتٌ ما قارفتُها قطُّ ، فيُقالُ : هٰذهِ سيئاتُ القومِ الذينَ اغتبتَهُمْ وشتمتَهُمْ وقصدتَهُمْ بالسوءِ ، وظلمتَهُمْ في المبايعةِ والمجاورةِ والمخاطبةِ ، والمناظرةِ والمذاكرةِ والمدارسةِ وسائرِ أصنافِ المعاملةِ ؟!

قالَ ابنُ مسعودٍ : قالَ رسُولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الشيطانَ قدْ

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٥/١٦٢) ، والطيالسي في « مسنده » (٤٨٠) .
(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٢/٣١٧) .

يئسَ أنْ تُعبدَ الأصنامُ بأرضِ العربِ ، ولكنْ سيرضىٰ منكُمْ بما هوَ دونَ ذلكَ ؛ بالمحقَّراتِ وهيَ الموبقاتُ ، فاتقوا الظلمَ ما استطعتُم ؛ فإنَّ العبدَ ليجيءُ يومَ القيامةِ بأمثالِ الجبالِ مِنَ الطاعاتِ فيرىٰ أنهنَّ سينجينَهُ ، فما يزالُ عبدٌ يجيءُ فيقولُ : يا ربِّ ؛ إنَّ فلاناً ظلمَني بمظلمةٍ ، فيقولُ : امحُ مِنْ حسناتِهِ ، فما يزالُ كذلكَ حتىٰ لا يبقىٰ لهُ مِنْ حسناتِهِ شيءٌ ، وإنَّ مثلَ ذلكَ مثلُ سفرٍ نزلوا بفلاةٍ مِنَ الأرضِ ليسَ معَهُمْ حطبٌ ، فتفرَّقَ القومُ فحطبوا ، فلمْ يلبثوا أنْ أعظموا نارَهمْ وصنعوا ما أرادوا ، وكذلكَ الذنوبُ »[1] .

ولمَّا نزلَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ قالَ الزبيرُ : يا رسولَ اللهِ ؛ أيُكرَّرُ علينا ما كانَ بينَنا في الدنيا معَ خواصِّ الذنوبِ ؟ قالَ : « نعمْ ، ليُكرَّرَنَّ عليكمْ حتىٰ تؤدُّوا إلىٰ كلِّ ذي حقٍّ حقَّهُ » فقالَ الزبيرُ : واللهِ ؛ إنَّ الأمرَ لشديدٌ[2] .

فأعظمْ بشدَّةِ يومٍ لا يُسامحُ فيهِ بخطوةٍ ، ولا يُتجاوزُ فيهِ عنْ لطمةٍ ولا عنْ كلمةٍ ، حتىٰ يُنتقمَ للمظلومِ مِنَ الظالمِ .

قالَ أنسٌ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « يحشرُ اللهُ العبادَ عراةً غبراً بُهْماً » قالَ : قلنا : ما بُهماً ؟ قالَ : « ليسَ معَهُم شيءٌ ، ثمَّ يناديهمْ ربُّهمْ تعالىٰ بصوتٍ يسمعُهُ مَنْ بَعُدَ كما يسمعُهُ مَنْ قربَ : أنا

---

(١) رواه أبو يعلىٰ في « المسند » (٥١٢٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٦٨٧٧) .
(٢) رواه أحمد في « المسند » (١/ ١٦٧) ، وعند الترمذي (٣٢٣٦) نحوه .

الملكُ ، أنا الدَّيَّانُ ، لا ينبغي لأحدٍ مِنْ أهلِ الجنَّةِ أنْ يدخلَ الجنَّةَ ولأحدٍ مِنْ أهلِ النَّارِ عليهِ مظلمةٌ حتىٰ أقتصَّهُ منهُ ، ولا لأحدٍ مِنْ أهلِ النَّارِ أنْ يدخلَ النَّارَ ولأحدٍ مِنْ أهلِ الجنَّةِ عندَهُ مظلمةٌ حتىٰ أقتصَّهُ منهُ حتى اللطمةُ » قلنا : وكيفَ وإنَّما نأتي اللهَ عزَّ وجلَّ عراةً غبراً بهماً ؟ فقالَ : « بالحسناتِ والسيئاتِ »[1] .

فاتَّقوا اللهَ عبادَ اللهِ ، ومظالمَ العبادِ بأخذِ أموالِهِمْ ، والتعرُّضِ لأعراضِهِمْ ، وتضييقِ قلوبِهِمْ ، وإساءةِ الخلقِ في معاشرتِهِمْ ؛ فإنَّ ما بينَ العبدِ وبينَ اللهِ خاصةً فالمغفرةُ إليهِ أسرعُ .

ومَنِ اجتمعَتْ عليهِ مظالمُ وقدْ تابَ عنها ، وعسرَ عليهِ استحلالُ أربابِ المظالمِ.. فليكثرْ مِنْ حسناتِهِ ليومِ القصاصِ ، وليسرَّ ببعضِ الحسناتِ بينَهُ وبينَ اللهِ تعالىٰ بكمالِ الإخلاصِ بحيثُ لا يطلعُ عليهِ إلاَّ اللهُ تعالىٰ ، فعساهُ يقرِّبُهُ ذلكَ إلى اللهِ تعالىٰ ، فينالَ بهِ لطفَهُ الذي ادَّخرَهُ لأحبابهِ المؤمنينَ في دفعِ مظالمِ العبادِ عنهُمْ ؛ كما رُويَ عنْ أنسٍ أنَّهُ قالَ : بينَما رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ جالسٌ ؛ إذْ رأيناهُ ضحكَ حتىٰ بدَتْ ثناياهُ ، فقالَ عمرُ : ما يضحكُكَ يا رسولَ اللهِ بأبي أنتَ وأمِّي ؟ قالَ : « رجلانِ مِنْ أُمَّتي جثيا بينَ يديْ ربِّ العزَّةِ ، فقالَ أحدُهُما : يا ربِّ ؛ خذْ لي مظلمَتي مِنْ

---

(1) رواه أحمد في « المسند » (٣/ ٤٩٥) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/ ٥٧٤) من حديث عبد الله بن أنيس رضي الله عنه ، وهو ما صوبه الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (١٠/ ٤٧٨) ، وفي غير (أ ، ص) : (وإنما نأتي الله عراةً غرلاً بهماً) .

أخي ، فقالَ اللهُ تعالىٰ : أعطِ أخاكَ مظلمتَهُ ، فيقولُ : ياربِّ ؛ لمْ يبقَ مِنْ حسناتي شيءٌ ، فقالَ اللهُ تعالىٰ للطالبِ : كيفَ تصنعُ ولمْ يبقَ مِنْ حسناتِهِ شيءٌ ؟! قالَ : يا ربِّ ؛ يتحمَّلُ عني مِنْ أوزاري » قالَ : وفاضَتْ عينا رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بالبكاءِ ثمَّ قالَ : « إنَّ ذلكَ ليومٌ عظيمٌ ، يومٌ يحتاجُ الناسُ إلىٰ أنْ يُحملَ عنهمْ مِنْ أوزارِهِمْ » ، قالَ : « فقالَ اللهُ تعالىٰ للطالبِ : ارفعْ رأسَكَ ، فانظرْ في الجنانِ ، فرفعَ رأسَهُ فقالَ : يا ربِّ ؛ أرىٰ مدائنَ مِنْ فضةٍ مرتفعةً ، وقصوراً مِنْ ذهبٍ مكللةً باللؤلؤِ ، لأيِّ نبيٍّ هٰذا ؟ أوْ لأيِّ صدِّيقٍ هٰذا ؟ أوْ لأيِّ شهيدٍ هٰذا ؟ قالَ : لمَنْ أعطى الثَّمنَ ، قالَ : يا ربِّ ؛ ومَنْ يملكُ ثمنَهُ ؟! قالَ : أنتَ تملكُهُ ، قالَ : وما هوَ ؟ قالَ : عفوُكَ عنْ أخيكَ ، قالَ : يا ربِّ ؛ إنِّي قدْ عفوتُ عنهُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : خُذْ بيدِ أخيكَ فأدخلْهُ الجنَّةَ » ثمَّ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عندَ ذلكَ : « اتَّقوا اللهَ وأصلحوا ذاتَ بينِكُمْ ؛ فإنَّ اللهَ يصلحُ بينَ المؤمنينَ »[1] .

وهٰذا تنبيهٌ علىٰ أنَّ ذلكَ إنَّما يُنالُ بالتخلُّقِ بأخلاقِ اللهِ ، وهوَ إصلاحُ ذاتِ البينِ وسائرُ الأخلاقِ .

فتفكَّرِ الآنَ في نفسِكَ إنْ خلَتْ صحيفتُكَ عنِ المظالمِ ، أوْ تلطَّفَ لكَ حتىٰ عفا عنكَ وأيقنتَ بسعادةِ الأبدِ . . كيفَ يكونُ سرورُكَ في منصرفِكَ مِنْ مفصلِ القضاءِ وقدْ خلعَ عليكَ خلعةَ الرضا ، وعُدتَ بسعادةٍ ليسَ بعدَها

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « حسن الظن » (١١٨) ، والحاكم في « المستدرك » (٤/٥٧٦) .

شقاءٌ ، وبنعيمٍ لا يدورُ بحواشيهِ الفناءُ وعندَ ذلكَ طارَ قلبُكَ سروراً وفرحاً ، وابيضَّ وجهُكَ واستنارَ ، وأشرقَ كما يشرقُ القمرُ ليلةَ البدرِ ؟!

فتوهَّمْ تبختُرَكَ بينَ الخلائقِ رافعاً رأسَكَ ، خالياً عَنِ الأوزارِ ظهرُكَ ، ونضرةُ نسيمِ النعيمِ وبردُ الرضا يتلألأُ مِنْ جبينِكَ ، وخلقُ الأولينَ والآخرينَ ينظرونَ إليكَ وإلىٰ حالِكَ ، ويغبطونَكَ في حسنِكَ وجمالِكَ ، والملائكةُ يمشونَ بينَ يديكَ ومِنْ خلفِكَ ، وينادونَ علىٰ رؤوسِ الأشهادِ : هٰذا فلانُ بنُ فلانٍ ، رضيَ اللهُ عنهُ وأرضاهُ ، وقدْ سعدَ سعادةً لا يشقىٰ بعدَها أبداً ، أفترىٰ أنَّ هٰذا المنصبَ ليسَ بأعظمَ مِنَ المكانةِ التي تنالُها في قلوبِ الخلقِ في الدنيا بريائِكَ ومداهنتِكَ وتصنُّعِكَ وتزيُّنِكَ ؟

فإنْ كنتَ تعلمُ أنَّهُ خيرٌ منهُ ، بلْ لا نسبةَ لهُ إليهِ . . فتوسَّلْ إلىٰ إدراكِ هٰذهِ الرتبةِ بالإخلاصِ الصافي ، والنيَّةِ الصادقةِ في معاملتِكَ معَ اللهِ تعالىٰ ، فلنْ تدركَ ذلكَ إلاَّ بهِ .

وإنْ تكنِ الأخرىٰ ـ والعياذُ باللهِ ـ بأنْ خرجَتْ مِنْ صحيفتِكَ جريمةٌ ، كنتَ تحسبُها هيِّنةً وهيَ عندَ اللهِ عظيمةٌ ، فمقتَكَ لأجلِها فقالَ عزَّ وجلَّ : عليكَ لعنتي يا عبدَ السوءِ ، لا أتقبلُ منكَ عبادتَكَ . . فلا تسمعُ هٰذا النداءَ إلاَّ ويسودُّ وجهُكَ ، ثمَّ تغضبُ الملائكةُ لغضبِ اللهِ تعالىٰ فيقولونَ : وعليكَ لعنتُنا ولعنةُ الخلائقِ أجمعينَ .

وعندَ ذلكَ تتناالُ إليكَ الزَّبانيةُ وقدْ غضبَتْ لغضبِ خالقِها ، فأقدمَتْ

عليكَ بفظاظتِها وزعارَّتِها وصورِها المنكرةِ[1] ، فأخذوا بناصيتِكَ يسحبونَكَ علىٰ وجهِكَ علىٰ ملأِ الخلقِ وهمْ ينظرونَ إلىٰ سوادِ وجهِكَ ، وإلىٰ ظهورِ خزيِكَ ، وأنتَ تنادي بالويلِ والثبورِ ، وهمْ يقولونَ لكَ : لا تدعُ اليومَ ثبوراً واحداً وادعُ ثبوراً كثيراً .

وتنادي الملائكةُ ويقولونَ : هـٰذا فلانُ بنُ فلانٍ ، كشفَ اللهُ عنْ فضائِحِهِ ومخازيهِ ، ولعنَهُ بقبائحِ مساويهِ ، فشقيَ شقاوةً لا يسعدُ بعدَها أبداً .

وربَّما يكونُ ذلكَ بذنبٍ أذنبتَهُ خيفةً مِنْ عبادِ اللهِ ، أوْ طلباً للمكانةِ في قلوبِهِمْ ، أوْ خوفاً مِنَ الافتضاحِ عندَهُمْ ، فما أعظمَ جهلَكَ إذْ تحترزُ مِنَ الافتضاحِ عندَ طائفةٍ يسيرةٍ مِنْ عبادِ اللهِ في الدنيا المنقرضةِ ، ثمَّ لا تخشىٰ مِنَ الافتضاحِ العظيمِ في ذلكَ الملأِ العظيمِ معَ التعرُّضِ لسخطِ اللهِ تعالىٰ وعقابِهِ الأليمِ ، والسياقِ بأيدي الزبانيةِ إلىٰ سواءِ الجحيمِ !

فهـٰذهِ أحوالُكَ وأنتَ بعدُ لمْ تشعرْ بالخطرِ الأعظمِ ، وهوَ خطرُ الصِّراطِ .

* * *

(١) زعارَّتها : شراسة الخُلُق .

صفة الصراط

ثمَّ تفكَّرْ بعدَ هـٰذهِ الأهوالِ في قولِ اللهِ تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ۝ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ ، وفي قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ۝ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ .

فالنَّاسُ بعدَ هـٰذهِ الأهوالِ يُساقونَ إلى الصِّراطِ ، وهوَ جسرٌ ممدودٌ علىٰ متنِ النَّارِ ، أحدُّ مِنَ السيفِ وأدقُّ مِنَ الشَّعْرِ ، مَنِ استقامَ في هـٰذا العالمِ على الصراطِ المستقيمِ . . خفَّ علىٰ صراطِ الآخرةِ ونجا ، ومَنْ عدلَ عنِ الاستقامةِ في الدنيا وأثقلَ الظهرَ بالأوزارِ وعصىٰ . . تعثَّرَ في أولِ قدمٍ مِنَ الصراطِ وتردَّىٰ .

فتفكَّرِ الآنَ فيما يحلُّ مِنَ الفزعِ بفؤادِكَ إذا رأيتَ الصراطَ ودقَّتَهُ ، ثمَّ وقعَ بصرُكَ علىٰ سوادِ جهنَّمَ مِنْ تحتِهِ ، ثمَّ قرعَ سمعَكَ شهيقُ النَّارِ وتغيُّظُها ، وقدْ كُلِّفتَ أن تمشيَ على الصراطِ معَ ضعفِ حالِكَ ، واضطرابِ قلبِكَ ، وتزلزلِ قدمِكَ ، وثقلِ ظهرِكَ بالأوزارِ المانعةِ لكَ عنِ المشيِ علىٰ بساطِ الأرضِ فضلاً عنْ حدَّةِ الصراطِ ، فكيفَ بكَ إذا وضعتَ عليهِ إحدىٰ رجليكَ فأحسستَ بحدَّتِهِ ، واضطررتَ إلىٰ أنْ ترفعَ القدمَ الثانيةَ والخلائقُ بينَ يديكَ يزلُّونَ ويتعثَّرونَ ، وتتناولُهُمْ زبانيةُ النارِ بالخطاطيفِ والكلاليبِ ، وأنتَ تنظرُ إليهِمْ كيفَ يتنكسونَ فتتسفَّلُ إلىٰ جهةِ النارِ رؤوسُهُمْ وتعلو أرجلُهُمْ ؟!

فيا لَهُ مِنْ منظرٍ ما أفظعَهُ ، ومرتقىً ما أصعبَهُ ، ومجازٍ ما أضيقَهُ !

فانظرْ إلىٰ حالِكَ وأنتَ ترجفُ عليهِ وتصعدُ إليهِ وأنتَ مثقلُ الظهرِ بأوزارِكَ ، تلتفتُ يميناً وشمالاً إلى الخلقِ وهمْ يتهافتونَ في النارِ ، والرسولُ عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ يقولُ : « يا ربِّ ؛ سلِّمْ سلِّمْ » والزعقاتُ بالويلِ والثبورِ قدِ ارتفعَتْ إليكَ مِنْ قعرِ جهنَّمَ ؛ لكثرةِ مَنْ زلَّ عنِ الصِّراطِ مِنَ الخلائقِ .

فكيفَ بكَ لوْ زلَّتْ قدمُكَ ، ولم ينفعْكَ ندمُكَ ، وقلتَ : وا ويلاهُ ، هٰذا ما كنتُ أخافُهُ ، فيا ليتَني قدَّمتُ لحياتي ، يا ليتَني اتخذتُ معَ الرسولِ سبيلاً ، يا ويلتا ليتَني لمْ أتخذْ فلاناً خليلاً ، يا ليتَني كنتُ تراباً ، يا ليتَني كنتُ نسياً منسيّاً ، يا ليتَ أمِّي لمْ تلدْني ؟!

وعندَ ذلكَ تختطفُكَ النيرانُ والعياذُ باللهِ ، وينادي المنادي : اخسؤوا فيها ولا تكلِّمونِ ، فلا يبقىٰ سبيلٌ إلاَّ الصياحُ والأنينُ والتنفسُ والاستغاثةُ .

فكيفَ ترى الآنَ عقلَكَ وهٰذهِ الأخطارُ بينَ يديكَ ، فإنْ كنتَ غيرَ مؤمنٍ بذلكَ . . فما أطولَ مقامَكَ معَ الكفَّارِ في دركاتِ جهنَّمَ !

وإنْ كنتَ بهِ مؤمناً وعنهُ غافلاً ، وبالاستعدادِ لهُ متهاوناً . . فما أعظمَ خسرانَكَ وطغيانَكَ !

وماذا ينفعُكَ إيمانُكَ إذا لمْ يبعثْكَ على السعيِ في طلبِ رضا اللهِ بطاعتِهِ وتركِ معاصيهِ ؟!

فلوْ لمْ يكنْ بينَ يديكَ إلاَّ هولُ الصراطِ وارتياعُ قلبِكَ مِنْ خطرِكَ في

الجوازِ عليهِ وإنْ سلمتَ . . فناهيكَ بِهِ هولاً وفزعاً ورعباً .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُضربُ الصِّراطُ بينَ ظهراني جهنَّمَ ، فأكونُ أوَّلَ مَنْ يجيزُ بأمَّتِهِ مِنَ الرسلِ ، ولا يتكلمُ يومَئذٍ إلاَّ الرسلُ ، ودعوى الرسلِ يومَئذٍ : اللهمَّ ؛ سلِّمْ سلِّمْ ، وفي جهنَّمَ كلاليبُ مثلُ شوكِ السعدانِ ، هلْ رأيتُمْ شوكَ السعدانِ ؟ » قالوا : نعمْ يا رسولَ اللهِ ، قالَ : « فإنَّها مثلُ شوكِ السعدانِ ، غيرَ أنَّهُ لا يعلمُ قدرَ عظمِها إلاَّ اللهُ تعالىٰ ، تختطفُ الناسَ بأعمالِهِم ، فمنهم مَنْ يُوبقُ بعملِهِ ، ومنهم مَنْ يُخردلُ ثمَّ ينجو »[1] .

وقالَ أبو سعيدٍ الخدريُّ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يمرُّ الناسُ علىٰ جسرِ جهنَّمَ وعليهِ حسكٌ وكلاليبُ وخطاطيفُ تختطفُ الناسَ يميناً وشمالاً ، وعلىٰ جنبتيهِ ملائكةٌ يقولونَ : اللهمَّ ؛ سلِّمْ سلِّمْ ، فمِنَ النَّاسِ مَنْ يمرُّ مثلَ البرقِ ، ومنهم مَنْ يمرُّ كالريحِ ، ومنهم مَنْ يمرُّ كالفرسِ المُجْرَىٰ ، ومنهم مَنْ يسعىٰ سعياً ، ومنهم مَنْ يمشي مشياً ، ومنهم مَنْ يحبو حبواً ، ومنهم مَنْ يزحفُ زحفاً ، فأمَّا أهلُ النَّارِ الذين همْ أهلُها . . فلا يموتونَ ولا يحيَوْنَ ، وأمَّا أناسٌ . . فيُؤخذونَ بذنوبٍ وخطايا فيحترقونَ فيكونونَ فحماً ، ثمَّ يُؤذنُ في الشفاعةِ . . . » الحديثَ[2] .

---

(١) رواه البخاري (٨٠٦) ، ومسلم (١٨٢) ، والسعدان : نبت بالبادية شوكه مفرطح . « إتحاف » (١٠/ ٤٨٢) .

(٢) رواه ابن حبان (٧٣٧٩) ، وأحمد في « المسند » (٣/ ٢٥) .

وعنِ ابنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّهُ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « يجمعُ اللهُ تعالى الأولينَ والآخرينَ لميقاتِ يومٍ معلومٍ قياماً أربعينَ سنةً ، شاخصةً أبصارُهُمْ إلى السماءِ ، ينتظرونَ فصلَ القضاءِ . . . » وذكرَ الحديثَ إلىٰ أنْ ذكرَ وقتَ سجودِ المؤمنينَ ، قالَ : « ثمَّ يقولُ للمؤمنينَ : ارفعوا رؤوسَكم ، فيرفعونَ رؤوسَهم ، فيعطيهم نورَهم علىٰ قدرِ أعمالِهِم ، فمنهم مَنْ يُعطىٰ نورَهُ مثلَ الجبلِ العظيمِ يسعىٰ بينَ يديهِ ، ومنهم مَنْ يُعطىٰ نورَهُ أصغرَ مِنْ ذلكَ ، ومنهم مَنْ يُعطىٰ نورَهُ مثلَ النخلةِ بيمينِهِ ، ومنهم مَنْ يُعطىٰ نورَهُ أصغرَ مِنْ ذلكَ ، حتىٰ يكونَ آخرُهُم رجلاً يُعطىٰ نورَهُ علىٰ إبهامِ قدمِهِ فيضيءُ مرةً ويطفأُ مرةً ، فإذا أضاءَ . . قدَّمَ قدمَهُ فمشىٰ ، وإذا طَفِىءَ . . قامَ » .

ثمَّ ذكرَ مرورَهم على الصِّراطِ علىٰ قدرِ نورِهِم ، فمنهم مَنْ يمرُّ كطرفِ العينِ ، ومنهم مَنْ يمرُّ كالبرقِ ، ومنهم مَنْ يمرُّ كالسحابِ ، ومنهم مَنْ يمرُّ كانقضاضِ الكوكبِ ، ومنهم مَنْ يمرُّ كالريحِ ، ومنهم مَنْ يمرُّ كشدِّ الفرسِ ، ومنهم مَنْ يمرُّ كشدِّ الرجلِ ، حتىٰ يمرَّ الذي أُعطي نورَهُ علىٰ إبهامِ قدمِهِ يحبو علىٰ وجهِهِ ويديهِ ورجليهِ ، يجرُّ يداً ويعلقُ يداً ، ويجرُّ رجلاً ويعلقُ رجلاً ، وتصيبُ جوانبَهُ النَّارُ ، قالَ : « فلا يزالُ كذلكَ حتىٰ يخلصَ ، فإذا خلصَ . . وقفَ عليها ثمَّ قالَ : الحمدُ للهِ ؛ لقد أعطاني اللهُ ما لم يُعطِ أحداً ؛ إذْ نجاني منها بعدَ إذْ رأيتُها ، فيُنطلقُ بهِ إلىٰ غديرٍ عندَ بابِ الجنَّةِ فيغتسلُ »[1] .

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « صفة الجنة » (٢٩) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (٩/٤١٧ ـ ٤١٨) .

وقالَ أنسُ بنُ مالكٍ : سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « الصِّراطُ كحدِّ السيفِ ـ أو كحدِّ الشعرةِ ـ وإنَّ الملائكةَ ينجُّونَ المؤمنينَ والمؤمناتِ ، وإنَّ جبريلَ عليهِ السلامُ لآخذٌ بحجزتي وإنِّي لأقولُ : يا ربِّ ؛ سلِّمْ سلِّمْ ، فالزَّالّونَ والزَّالاّتُ يومَئذٍ كثيرٌ »[1] .

فهٰذهِ أهوالُ الصراطِ وعظائمُهُ ، فطوِّلْ فيهِ فكرَكَ ؛ فإنَّ أسلمَ الناسِ مِنْ أهوالِ يومِ القيامةِ مَنْ طالَ فيهِ فكرُهُ في الدنيا ؛ فإنَّ اللهَ لا يجمعُ علىٰ عبدِهِ خوفينِ ، فمَنْ خافَ هٰذهِ الأهوالَ في الدنيا . . أمنَها في الآخرةِ .

ولسْتُ أعني بالخوفِ رقَّةً كرقَّةِ النساءِ تدمعُ عينُكَ ويرقُّ قلبُكَ حالَ السماعِ ، ثمَّ تنساهُ على القربِ وتعودُ إلىٰ لهوِكَ ولعبِكَ ، فما ذلكَ مِنَ الخوفِ في شيءٍ ، بلْ مَنْ خافَ شيئاً . . هربَ منهُ ، ومَنْ رجا شيئاً . . طلبَهُ ، فلا ينجيكَ إلاَّ خوفٌ يمنعُكَ عنْ معاصي اللهِ تعالىٰ ويحثُّكَ علىٰ طاعتِهِ .

وأبعدُ مِنْ رقَّةِ النساءِ خوفُ الحمقىٰ ؛ إذا سمعوا الأهوالَ . . سبقَتْ ألسنتُهُمْ إلى الاستعاذةِ فقالَ أحدُهُمْ : استعنتُ باللهِ ، نعوذُ باللهِ ، اللَّهمَّ ؛ سلِّمْ سلِّمْ ، وهمْ معَ ذلكَ مصرُّونَ على المعاصي التي هي سببُ هلاكِهِم ، فالشيطانُ يضحكُ منِ استعاذتِهِمْ ؛ كما يُضحكُ علىٰ مَنْ يقصدُهُ سبعٌ ضارٍ في صحراءَ ووراءَهُ حصنٌ ، فإذا رأىٰ أنيابَ السبعِ وصولتَهُ مِنْ بُعدٍ . . قالَ

---

(١) رواه البيهقي في « الشعب » (٣٦١) .

بلسانِهِ : أعوذُ بهـٰذا الحصنِ الحصينِ ، وأستعينُ بشدَّةِ بنيانِهِ وإحكامِ أركانِهِ ، فيقولُ ذلكَ بلسانِهِ وهوَ قاعدٌ في مكانِهِ ، فأنَّىٰ يغني ذلكَ عنهُ مِنَ السبعِ ؟!

وكذلكَ أهوالُ الآخرةِ ليسَ لها حصنٌ إلاَّ قولُ : (لا إلـٰهَ إلاَّ اللهُ) صادقاً ، ومعنىٰ صدقِهِ : ألاَّ يكونَ لهُ مقصودٌ سوى اللهِ تعالىٰ ، ولا معبودٌ غيرَهُ ، وأمَّا مَنِ اتخذَ إلـٰههُ هواهُ . . فهوَ بعيدٌ عنِ الصدقِ في توحيدِهِ ، وأمرُهُ مخطرٌ في نفسِهِ .

فإنْ عجزتَ عَنْ ذلكَ كلِّهِ . . فكنْ محبّاً لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، حريصاً علىٰ تعظيمِ سنَّتِهِ ، متشوِّقاً إلىٰ مراعاةِ قلوبِ الصالحينَ مِنْ أمَّتِهِ ، ومتبرِّكاً بأدعيتِهِمْ ، فعساكَ تنالُ منْ شفاعتِهِ أو شفاعتِهِمْ ، فتنجوَ بالشفاعةِ إنْ كنتَ قليلَ البضاعةِ .

* * *

صفة الشّفاعة

اعلمْ : أنَّهُ إذا حقَّ دخولُ النارِ علىٰ طوائفَ مِنَ المؤمنينَ . . فإنَّ اللهَ تعالىٰ بفضلِهِ يقبلُ فيهم شفاعةَ الأنبياءِ والصديقينَ ، بلْ شفاعةَ العلماءِ والصالحينَ .

وكلُّ مَنْ لهُ عندَ اللهِ تعالىٰ جاهٌ بحسنِ معاملةٍ . . فإنَّ لهُ شفاعةً في أهلِهِ وقرابتِهِ ، وأصدقائِهِ ومعارفِهِ .

فكنْ حريصاً علىٰ أنْ تكتسبَ لنفسِكَ عندَهم رتبةَ الشفاعةِ ؛ وذلكَ بألاَّ تحقرَ آدمياً أصلاً ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ خبأَ ولايتَهُ في عبادِهِ ، فلعلَّ الذي تزدريهِ عينُكَ هوَ وليُّ اللهِ ، ولا تستصغرْ معصيةً أصلاً ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ خبأَ غضبَهُ في معاصيهِ ، فلعلَّ مقتَ اللهِ فيهِ ، ولا تستحقرْ طاعةً أصلاً ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ خبأَ رضاهُ في طاعتِهِ ، فلعلَّ رضا اللهِ فيهِ ولوِ الكلمةَ الطيبةَ ، أو اللقمةَ أو النيَّةَ الحسنةَ ، أو ما يجري مجراهُ .

وشواهدُ الشفاعةِ في القرآنِ والأخبارِ كثيرةٌ :

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ .

رویٰ عمرُو بنُ العاصِ : (أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ تلا قولَهُ تعالىٰ إخباراً عَنْ إبراهيمَ عليهِ السَّلامُ : ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، وقولَ عيسىٰ عليهِ السَّلامُ :

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ثمَّ رفعَ يديهِ وقالَ : « أمَّتي أمَّتي » ثمَّ بكىٰ ، فقالَ اللهُ عزَّ وجلَّ : يا جبريلُ ؛ اذهبْ إلىٰ محمَّدٍ فسلْهُ: ما يبكيكَ ؟ فأتاهُ جبريلُ فسألَهُ ، فأخبرَهُ واللهُ أعلمُ بهِ ، فقالَ : يا جبريلُ ؛ اذهبْ إلىٰ محمَّدٍ فقلْ لهُ : إنَّا سنرضيكَ في أمَّتِكَ ولا نسوءُكَ)[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أُعطيتُ خمساً لمْ يُعطهنَّ أحدٌ قبلي : نُصرتُ بالرعبِ مسيرةَ شهرٍ ، وأُحلَّتْ ليَ الغنائمُ ولم تحلَّ لأحدٍ قبلي ، وجُعلَتْ ليَ الأرضُ مسجداً وترابُها طهوراً ، فأيُّما رجلٍ مِنْ أمَّتي أدركَتْهُ الصلاةُ . . فليصلِّ ، وأُعطيتُ الشفاعةَ ، وكلُّ نبيٍّ بُعثَ إلىٰ قومِهِ خاصَّةً ، وبُعثتُ إلى النَّاسِ عامَّةً »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا كانَ يومُ القيامةِ . . كنتُ إمامَ النَّبيِّينَ ، وخطيبَهُمْ وصاحبَ شفاعتِهِمْ مِنْ غيرِ فخرٍ »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أنا سيِّدُ ولدِ آدمَ ولا فخرَ ، وأنا أوَّلُ مَنْ تنشقُّ الأرضُ عنهُ ، وأنا أوَّلُ شافعٍ وأوَّلُ مشفَّعٍ ، بيدي لواءُ الحمدِ تحتَهُ آدمُ فمَنْ دونَهُ »[4] .

---

(١) رواه مسلم (٢٠٢) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، وهو ما صوَّبه الحافظان العراقي والزبيدي في « الإتحاف » (١٠/ ٤٨٧) .

(٢) رواه البخاري (٣٣٥) ، ومسلم (٥٢١) .

(٣) رواه الترمذي (٣٦١٣) ، وابن ماجه (٤٣١٤) .

(٤) رواه الترمذي (٣٦١٥) ، وابن ماجه (٤٣٠٨) ، وعند مسلم (٢٢٧٨) نحوه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لكلِّ نبيٍّ دعوةٌ مستجابةٌ ، فأريدُ أَنْ أختبِىءَ دعوتي شفاعةً لأمَّتي يومَ القيامةِ »[1] .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُنصبُ للأنبياءِ منابرُ مِنْ ذهبٍ ، فيجلسونَ عليها ويبقىٰ منبري لا أجلسُ عليهِ قائماً بينَ يديْ ربِّي منتصباً ؛ مخافةَ أَنْ يُبعثَ بي إلى الجنَّةِ وتبقىٰ أمَّتي بعدي ، فأقولُ : يا ربِّ ؛ أمَّتي ، فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ : يا محمدُ ؛ وما تريدُ أَنْ أصنعَ بأمَّتِكَ ؟ فأقولُ : يا ربِّ ؛ عجِّلْ حسابَهُمْ ، فما أزالُ أشفعُ حتىٰ أُعطىٰ صكاكاً برجالٍ قدْ بُعثَ بِهِمْ إلى النَّارِ ، وحتىٰ إنَّ مالكاً خازنَ النارِ يقولُ : يا محمدُ ؛ ما تركتَ للنارِ لغضبِ ربِّكَ في أمَّتِكَ مِنْ بقيَّةٍ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنِّي لأشفعُ يومَ القيامةِ لأكثرَ ممَّا علىٰ وجهِ الأرضِ مِنْ حجرٍ ومدرٍ »[3] .

وقالَ أبو هريرةَ أُتيَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بلحمٍ ، فرُفعَ إليهِ الذراعُ وكانَتْ تعجبُهُ ، فنهسَ منها نهسةً ثمَّ قالَ : « أنا سيِّدُ النَّاسِ يومَ

---

(١) رواه البخاري (٦٣٠٤) ، ومسلم (١٩٨) .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (١/ ٦٥ ـ ٦٦) ، والطبراني في « المعجم الأوسط » (٢٩٥٨) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ٣٤٧) من حديث بريدة رضي الله عنه ، والطبراني في « الأوسط » (٥٣٥٦) من حديث أنيس الأنصاري رضي الله عنه .

القيامةِ ، وهلْ تدرونَ ممَّ ذلكَ ؟ يجمعُ اللهُ الأوَّلينَ والآخرينَ في صعيدٍ واحدٍ ، يُسمِعُهُمُ الداعي وينفذُهُمُ البصرُ ، وتدنو الشمسُ فيبلغُ النَّاسَ مِنَ الغمِّ والكربِ ما لا يطيقونَ ولا يحتملونَ ، فيقولُ النَّاسُ بعضُهُمْ لبعضٍ : ألا ترونَ ما قدْ بلغَكُمْ ؟! ألا تنظرونَ مَنْ يشفعُ لكمْ إلىٰ ربِّكم ؟!

فيقولُ بعضُ النَّاسِ لبعضٍ : عليكُمْ بآدمَ عليهِ السَّلامُ ، فيأتونَ آدمَ فيقولونَ لهُ : أنتَ أبو البشرِ ، خلقَكَ اللهُ بيدِهِ ونفخَ فيكَ مِنْ روحِهِ ، وأمرَ الملائكةَ فسجدوا لكَ ، اشفعْ لنا إلىٰ ربِّكَ ، ألا ترىٰ إلىٰ ما نحنُ فيهِ ؟! ألا ترىٰ إلىٰ ما قدْ بلغَنا ؟! فيقولُ لهُمْ آدمُ عليهِ السَّلامُ : إنَّ ربِّي قدْ غضبَ اليومَ غضباً لمْ يغضبْ قبلَهُ مثلَهُ ، ولنْ يغضبَ بعدَهُ مثلَهُ ، وإنَّهُ قدْ نهاني عنِ الشجرةِ فعصيتُهُ ، نفسي نفسي ، اذهبوا إلىٰ غيري ، اذهبوا إلىٰ نوحٍ .

فيأتونَ نوحاً عليهِ السَّلامُ فيقولونَ : يا نوحُ ؛ أنتَ أوَّلُ الرسلِ إلىٰ أهلِ الأرضِ ، وقد سمَّاكَ اللهُ عبداً شكوراً ، اشفعْ لنا إلىٰ ربِّكَ ، ألا ترىٰ إلىٰ ما نحنُ فيهِ ؟! فيقولُ : إنَّ ربِّي قدْ غضبَ اليومَ غضباً لمْ يغضبْ قبلَهُ مثلَهُ ، ولنْ يغضبَ بعدَهُ مثلَهُ ، وإنَّهُ قدْ كانَتْ لي دعوةٌ دعوتُها علىٰ قومي ، نفسي نفسي ، اذهبوا إلىٰ غيري ، اذهبوا إلىٰ إبراهيمَ خليلِ اللهِ .

فيأتونَ إبراهيمَ خليلَ اللهِ عليهِ السَّلامُ فيقولونَ : أنتَ نبيُّ اللهِ وخليلُهُ مِنْ أهلِ الأرضِ ، اشفعْ لنا إلىٰ ربِّكَ ، ألا ترىٰ إلىٰ ما نحنُ فيهِ ؟! فيقولُ لهم : إنَّ ربِّي قدْ غضبَ اليومَ غضباً لمْ يغضبْ قبلَهُ مثلَهُ ، ولنْ يغضبَ بعدَهُ مثلَهُ ،

وإنِّي كنتُ كذبتُ ثلاثَ كذباتٍ ـ ويذكرُها ـ نفسي نفسي ، اذهبوا إلىٰ غيري ، اذهبوا إلىٰ موسىٰ .

فيأتونَ موسىٰ عليهِ السَّلامُ فيقولونَ : يا موسىٰ ؛ أنتَ رسولُ اللهِ فضَّلَكَ اللهُ برسالتِهِ وبكلامِهِ على النَّاسِ ، اشفعْ لنا إلىٰ ربِّكَ ، ألا ترىٰ إلىٰ ما نحنُ فيهِ ؟! فيقولُ : إنَّ ربِّي قدْ غضبَ اليومَ غضباً لمْ يغضبْ قبلَهُ مثلَهُ ، ولنْ يغضبَ بعدَهُ مثلَهُ ، وإنِّي قتلتُ نفساً لمْ أُومرْ بقتلِها ، نفسي نفسي ، اذهبوا إلىٰ غيري ، اذهبوا إلىٰ عيسىٰ عليهِ السَّلامُ .

فيأتونَ عيسىٰ فيقولونَ : يا عيسىٰ ؛ أنتَ رسولُ اللهِ وكلمتُهُ ألقاها إلىٰ مريمَ وروحٌ منهُ ، وكلَّمتَ النَّاسَ في المهدِ ، اشفعْ لنا إلىٰ ربِّكَ ، ألا ترىٰ إلىٰ ما نحنُ فيهِ ؟! فيقولُ عيسىٰ عليهِ السَّلامُ : إنَّ ربِّي غضبَ اليومَ غضباً لمْ يغضبْ قبلَهُ مثلَهُ ، ولنْ يغضبَ بعدَهُ مثلَهُ ـ ولمْ يذكرْ ذنباً ـ نفسي نفسي ، اذهبوا إلىٰ غيري ، اذهبوا إلىٰ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ .

فيأتوني فيقولونَ : يا محمَّدُ ؛ أنتَ رسولُ اللهِ وخاتمُ النَّبيِّينَ ، وقدْ غفرَ اللهُ لكَ ما تقدَّمَ مِنْ ذنبِكَ وما تأخَّرَ ، اشفعْ لنا إلىٰ ربِّكَ ، ألا ترىٰ إلىٰ ما نحنُ فيهِ ؟!

فأنطلقُ فآتي تحتَ العرشِ ، فأقعُ ساجداً لربِّي ، ثمَّ يفتحُ اللهُ لي مِنْ محامدِهِ وحسنِ الثناءِ عليهِ شيئاً لمْ يفتحْهُ علىٰ أحدٍ قبلي ، ثمَّ يُقالُ : يا محمَّدُ ؛ ارفعْ رأسَكَ ، سلْ تُعطَ ، واشفعْ تُشفَّعْ ، فأرفعُ رأسي فأقولُ :

أمَّتي أمَّتي يا ربِّ ، فيُقالُ : يا محمَّدُ ؛ أدخلْ مِنْ أمَّتِكَ مَنْ لا حسابَ عليهم مِنَ البابِ الأيمنِ مِنْ أبوابِ الجنَّةِ ، وهمْ شركاءُ الناسِ فيما سوىٰ ذلكَ مِنَ الأبوابِ » ، ثمَّ قالَ : « والذي نفسي بيدِهِ ؛ إنَّ بينَ المصراعينِ مِنْ مصاريعِ الجنَّةِ كما بينَ مكَّةَ وحِمْيَرَ ، أوْ كما بينَ مكةَ وبصرىٰ »[1] .

وفي حديثٍ آخرَ : هـٰذا السياقُ بعينِهِ معَ ذكرِ خطايا إبراهيمَ عليهِ السَّلامُ وهوَ قولُهُ في الكواكبِ : ﴿ هَٰذَا رَبِّي ﴾ ، وقولُهُ لآلهتِهِمْ : ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ ، وقولُهُ : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾[2] .

فهـٰذهِ شفاعةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، ولآحادِ أمَّتِهِ مِنَ العلماءِ والصالحينَ شفاعةٌ أيضاً حتىٰ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يدخلُ الجنَّةَ بشفاعةِ رجلٍ منْ أمَّتي أكثرُ مِنْ ربيعةَ ومضرَ »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُقالُ للرجلِ : قمْ يا فلانُ فاشفعْ ، فيقومُ الرجلُ فيشفعُ للقبيلةِ ولأهلِ البيتِ ، وللرجلِ والرجلينِ ؛ علىٰ قدرِ عملِهِ »[4] .

---

(١) رواه البخاري (٤٧١٢) ، ومسلم (١٩٤) ، وفي غير (أ ، ذ ، ن) : (فنهش منها نهشة) بدل (فنهس منها نهسة) وهي رواية أبي ذرّ الهروي لـ« صحيح البخاري » ، والمعنىٰ : قبض عليها وتناولها بمقدم أسنانه ، وقال ثعلب : بالمهملة يكون بأطراف الأسنان ، وبالمعجمة بها وبالأضراس . انظر « الإتحاف » (١٠/ ٤٨٩) .

(٢) رواه مسلم (١٩٤/ ٣٢٨) .

(٣) رواه الحاكم في « المستدرك » (٣/ ٤٠٥) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٣٠٠٩) عن الحسن مرسلاً .

(٤) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٧/ ١٠٥) ، وعند الترمذي (٢٤٤٠) من حديث =

وقالَ أنسٌ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ رجلاً مِنْ أهلِ الجنَّةِ يشرفُ يومَ القيامةِ علىٰ أهلِ النَّارِ ، فيناديهِ رجلٌ مِنْ أهلِ النَّارِ ويقولُ : يا فلانُ ؛ هلْ تعرفُني ؟ فيقولُ : لا واللهِ ؛ ما أعرفُكَ ، مَنْ أنتَ ؟ فيقولُ : أنا الذي مررتَ بي في الدنيا فاستسقيتَني شربةَ ماءٍ فسقيتُكَ ، قالَ : قدْ عرفتُ ، قالَ : فاشفعْ لي بها عندَ ربِّكَ ، فيسألُ اللهَ تعالىٰ ذكرُهُ ويقولُ : أيْ ربِّ ؛ إنِّي أشرفتُ علىٰ أهلِ النَّارِ فناداني رجلٌ مِنْ أهلِها فقالَ : هلْ تعرفُني ؟ فقلتُ : لا ، مَنْ أنتَ ؟ فقالَ : أنا الذي استسقيتَني في الدنيا فسقيتُكَ ، فاشفعْ لي بها عندَ ربِّكَ ، فشفِّعْني فيه ، فيشفِّعُهُ اللهُ فيهِ ، فيُؤمرُ بهِ فيُخرجُ منَ النَّارِ »[١] .

وعَنْ أنسٍ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أنا أوَّلُ النَّاسِ خروجاً إذا بُعثوا ، وأنا خطيبُهُمْ إذا وفدوا ، وأنا مبشِّرُهم إذا يئسوا ، لواءُ الحمدِ يومَئذٍ بيدي ، وأنا أكرمُ ولدِ آدمَ علىٰ ربِّي ولا فخرَ »[٢] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنِّي أقومُ بينَ يدَي ربِّي عزَّ وجلَّ فأُكسىٰ حُلةً مِنْ حُللِ الجنَّةِ ، ثمَّ أقومُ عنْ يمينِ العرشِ ليسَ أحدٌ مِنَ الخلائقِ يقومُ ذلكَ المقامَ غيري »[٣] .

= أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن من أمتي من يشفع للفئام من الناس ، ومنهم من يشفع للقبيلة ، ومنهم من يشفع للعصبة ، ومنهم من يشفع للرجل حتىٰ يدخلوا الجنة » .

(١) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٣٤٩٠) .

(٢) رواه الترمذي (٣٦١٠) .

(٣) رواه الترمذي (٣٦١١) ، وأول الحديث : « أنا أول من تنشق عنه الأرض . . . » .

وقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : جلسَ ناسٌ مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ينتظرونَهُ ، فخرجَ ، حتىٰ إذا دنا منهم.. سمعَهُمْ يتذاكرونَ ، فسمعَ حديثَهُمْ ، فقالَ بعضُهم : عجباً ! إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ اتخذَ مِنْ خلقِهِ خليلاً ؛ اتخذَ إبراهيمَ خليلاً ، وقالَ آخرُ : ماذا بأعجبَ مِنْ كلامِ موسى ! كلَّمَهُ تكليماً ، وقالَ آخرُ : فعيسىٰ كلمةُ اللهِ وروحُهُ ، وقالَ آخرُ : آدمُ اصطفاهُ اللهُ ، فخرجَ عليهِمْ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فسلَّمَ وقالَ : « قدْ سمعتُ كلامَكُمْ وعجبَكُمْ ، إنَّ إبراهيمَ خليلُ اللهِ وهوَ كذلكَ ، وموسىٰ نجيُّ اللهِ وهوَ كذلكَ ، وعيسىٰ روحُ اللهِ وكلمتُهُ وهوَ كذلكَ ، وآدمُ اصطفاهُ اللهُ وهوَ كذلكَ ، ألا وأنا حبيبُ اللهِ ولا فخرَ ، وأنا حاملُ لواءِ الحمدِ يومَ القيامةِ ولا فخرَ ، وأنا أوَّلُ شافعٍ وأوَّلُ مشفَّعٍ يومَ القيامةِ ولا فخرَ ، وأنا أوَّلُ مَنْ يحرِّكُ حلقَ الجنَّةِ فيفتحُ اللهُ لي فأدخلُها ومعي فقراءُ المؤمنينَ ولا فخرَ ، وأنا أكرمُ الأولينَ والآخرينَ ولا فخرَ »[1] .

* * *

(١) رواه الترمذي (٣٦١٦) .

صفة الحوض

اعلمْ : أنَّ الحوضَ مكرمةٌ عظيمةٌ خصَّ اللهُ بها نبيَّنا صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وقدِ اشتملَتِ الأخبارُ علىٰ وصفِهِ ، ونحنُ نرجو أنْ يرزقَنا اللهُ تعالىٰ في الدنيا علمَهُ ، وفي الآخرةِ ذوقَهُ ؛ فإنَّ مِنْ صفاتِهِ أنَّ مَنْ شربَ منهُ لمْ يظمأْ أبداً .

قالَ أنسٌ : أغفىٰ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إغفاءَةً ، فرفعَ رأسَهُ متبسماً ، فقالوا لهُ : يا رسولَ اللهِ ؛ لمَ ضحكتَ ؟ فقالَ : « آيةٌ أُنزلَتْ عليَّ آنفاً » وقرأَ : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ حتىٰ ختمَها ثمَّ قالَ : « هلْ تدرونَ ما الكوثرُ ؟ » قالوا : اللهُ ورسولُهُ أعلمُ ، قالَ : « إنَّهُ نهرٌ وعدَنيهِ ربِّي عزَّ وجلَّ في الجنَّةِ ، عليهِ خيرٌ كثيرٌ ، عليهِ حوضٌ تردُ عليهِ أمَّتي يومَ القيامةِ ، آنيتُهُ عددُ نجومِ السماءِ »[١] .

وقالَ أنسٌ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بينما أنا أسيرُ في الجنَّةِ ؛ إذا أنا بنهرٍ حافتاهُ قبابُ اللؤلؤِ المجوَّفِ ، قلتُ : ما هٰذا يا جبريلُ ؟ قالَ : هٰذا الكوثرُ الذي أعطاكَ ربُّكَ ، فضربَ الملكُ بيدِهِ ؛ فإذا طينُهُ مسكٌ أذفرُ »[٢] .

---

(١) رواه مسلم (٤٠٠) ، وفي (أ ، ب ، ن) : (عدد الكواكب) .

(٢) رواه البخاري (٦٥٨١) .

وقالَ : كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « ما بينَ لابتي حوضي مثلُ ما بينَ المدينةِ وصنعاءَ ، أو مثلُ ما بينَ المدينةِ وعمَّانَ »[1] .

وروى ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما أنَّهُ لمَّا نزلَ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ﴾ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « هوَ نهرٌ في الجنَّةِ ، حافتاهُ مِنْ ذهبٍ ، شرابُهُ أشدُّ بياضاً مِنَ اللَّبنِ وأحلىٰ مِنَ العسلِ ، وأطيبُ ريحاً مِنَ المسكِ ، يجري علىٰ جنادلِ اللؤلؤِ والمرجانِ »[2] .

وقالَ ثوبانُ مولىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ حوضي ما بينَ عدنَ إلىٰ عمَّانَ البلقاءِ ، ماؤُهُ أشدُّ بياضاً مِنَ اللبنِ وأحلىٰ مِنَ العسلِ ، وأكوابُهُ عددُ نجومِ السماءِ ، مَنْ شربَ مِنْهُ شربةً . لمْ يظمأْ بعدَها أبداً ، أولُ النَّاسِ وروداً عليهِ فقراءُ المهاجرينَ » فقالَ عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ : ومَنْ هُمْ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « همُ الشعثُ رؤوساً ، الدُّنسُ ثياباً ، الذينَ لا ينكحونَ المتنعِّماتِ ، ولا تُفتحُ لهمْ أبوابُ السددِ » ، فقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ : واللهِ ؛ لقدْ نكحتُ المتنعِّماتِ فاطمةَ بنتَ عبدِ الملكِ ، وفُتحَتْ لي أبوابُ السددِ ، إلاَّ أنْ يرحمَني اللهُ تعالىٰ ، لا جرمَ لا أدهنُ رأسي حتىٰ يشعثَ ، ولا أغسلُ ثوبي الذي علىٰ جسدي حتىٰ يتَّسخَ[3] .

---

(١) رواه مسلم (٢٣٠٣) .
(٢) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ١١٢) ، وعند الترمذي (٣٣٦١) نحوه .
(٣) رواه الترمذي (٢٤٤٤) ، وابن ماجه (٤٣٠٣) .

وعنْ أبي ذرٍّ قالَ : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ ما آنيةُ الحوضِ ؟ قالَ : « والذي نفسُ محمَّدٍ بيدِهِ ؛ لآنيتُهُ أكثرُ مِنْ عددِ نجومِ السماءِ وكواكبِها في الليلةِ المظلمةِ المصحيةِ ، مَنْ شربَ منهُ . . لمْ يظمأْ آخرَ ما عليهِ ، يشخبُ فيهِ ميزابانِ مِنَ الجنَّةِ ، عرضُهُ مثلُ طولِهِ ما بينَ عُمانَ وأيلةَ ، ماؤُهُ أشدُّ بياضاً مِنَ اللبنِ وأحلىٰ مِنَ العسلِ »[1] .

وعنْ سمرةَ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ لكلِّ نبيٍّ حوضاً ، وإنَّهُمْ يتباهونَ أيُّهم أكثرُ واردةً ، وإنِّي لأرجو أنْ أكونَ أكثرَهُمْ واردةً »[2] .

فهـٰذا رجاءُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فليرجُ كلُّ عبدٍ أنْ يكونَ في جملةِ الواردينَ ، وليحذرْ أنْ يكونَ متمنياً ومغترّاً وهوَ يظنُّ أنَّهُ راجٍ ؛ فإنَّ الراجيَ للحصادِ مَنْ بثَّ البذرَ ، ونقَّى الأرضَ وسقاها الماءَ ، ثمَّ جلسَ يرجو فضلَ اللهِ تعالىٰ بالإنباتِ ودفعِ الصواعقِ إلىٰ أوانِ الحصادِ ، فأمَّا مَنْ تركَ الحراثةَ والزراعةَ وتنقيةَ الأرضِ وسقيَها ، وأخذَ يرجو مِنْ فضلِ اللهِ أنْ ينبتَ لهُ الحبَّ والفاكهةَ . . فهـٰذا مغترٌّ ومتمنٍّ ، وليسَ مِنَ الراجينَ في شيءٍ ، وهـٰكذا رجاءُ أكثرِ الخلقِ ، وهوَ غرورُ الحمقىٰ ، نعوذُ باللهِ مِنَ الغرورِ والغفلةِ ؛ فإنَّ الاغترارَ باللهِ أعظمُ مِنَ الاغترارِ بالدنيا ؛ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ .

* * *

---

(١) رواه مسلم (٢٣٠٠) .
(٢) رواه الترمذي (٢٤٤٣) .

القول في صفة جهنم وأهوالها وأنكالها

يا أيُّها الغافلُ عنْ نفسِهِ ، المغرورُ بما هوَ فيهِ منْ شواغلِ هٰذهِ الدنيا المشرفةِ على الانقضاءِ والزوالِ ؛ دعِ التفكُّرَ فيما أنتَ مرتحلٌ عنهُ ، واصرفِ الفكرَ إلىٰ موردِكَ ؛ فإنَّكَ أُخبرتَ بأنَّ النَّارَ موردٌ للجميعِ إذْ قيلَ : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ فأنتَ مِنَ الورودِ علىٰ يقينٍ ، ومِنَ النجاةِ علىٰ شكٍّ .

فاستشعرْ في قلبِكَ هولَ ذلكَ الموردِ ، فعساكَ تستعدُّ للنجاةِ منهُ بالتشمُّرِ لأعمالِها ، وتأمَّلْ في حالِ الخلائقِ وقدْ قاسَوا مِنْ دواهي القيامةِ ما قاسَوا ، فبينَما همْ في كروبِها وأهوالِها واقفينَ ينتظرونَ حقيقةَ أنبائِها وتشفيعَ شفعائِها ؛ إذْ أحاطَتْ بالمجرمينَ ظلماتٌ ذاتُ شعبٍ ، وأظلَّتْ عليهِمْ نارٌ ذاتُ لهبٍ ، وسمعوا لها زفيراً وجرجرةً تفصحُ عنْ شدَّةِ الغيظِ والغضبِ .

فعندَ ذلكَ أيقنَ المجرمونَ بالعطبِ ، وجثَتِ الأممُ على الركبِ ، حتىٰ أشفقَ البرآءُ مِنْ سوءِ المنقلبِ ، وخرجَ المنادي مِنَ الزَّبانيةِ قائلاً : أينَ فلانُ بنُ فلانٍ المسوِّفُ نفسَهُ في الدنيا بطولِ الأملِ ، المضيِّعُ عمرَهُ في سوءِ العملِ ؟ فيبادرونَهُ بمقامعَ مِنْ حديدٍ ، ويستقبلونَهُ بعظائمِ التهديدِ ، ويسوقونَهُ إلى العذابِ الشديدِ ، وينكسونَهُ في قعرِ الجحيمِ ، ويقولونَ لهُ : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ .

فأُسكنوا داراً ضيقةَ الأرجاءِ ، مظلمةَ المسالكِ مبهمةَ المهالكِ ، يخلدُ فيها الأسيرُ ويؤبدُ فيها السَّعيرُ ، شرابُهُم فيها الحميمُ ومستقرُّهُمُ الجحيمُ ، الزبانيةُ تقمعُهُمْ والهاويةُ تجمعُهُم ، أمانيهِمْ فيها الهلاكُ وما لهمْ مِنْها فكاكٌ ، قدْ شُدَّتْ أقدامُهُمْ إلى النَّواصي ، واسودَّتْ وجوهُهُمْ مِنْ ظلمةِ المعاصي ، ينادونَ مِنْ أكنافِها ويصيحونَ في نواحيها وأطرافِها : يا مالكُ ؛ قدْ حقَّ علينا الوعيدُ ، يا مالكُ ؛ قدْ أثقلَنا الحديدُ ، يا مالكُ ؛ قدْ نضجَتْ منَّا الجلودُ ، يا مالكُ ؛ أخرجْنا منها فإنَّا لا نعودُ .

فتقولُ الزَّبانيةُ : هيهاتَ ! لاتَ حينَ أمانٍ ، ولا خروجَ لكُمْ مِنْ دارِ الهوانِ ، فاخسؤوا فيها ولا تكلِّمونِ ، ولوْ أُخرجتُم منها.. لكنتُم إلىٰ ما نُهيتُمْ عنهُ تعودونَ ، فعندَ ذلكَ يقنطُونَ ، وعلىٰ ما فرَّطوا في جنبِ اللهِ يتأسفونَ ، ولا ينجيهمُ النَّدمُ ولا يغنيهمُ الأسفُ ، بلْ يُكبُّونَ علىٰ وجوهِهم مغلولينَ ، النَّارُ مِنْ فوقِهِمْ ، والنَّارُ مِنْ تحتِهِم ، والنَّارُ عَنْ أيمانِهِمْ ، والنَّارُ عَنْ شمائِلِهِمْ ، فهمْ غرقىٰ في النَّارِ ، طعامُهُمْ نارٌ ، وشرابُهُمْ نارٌ ، ولباسُهُمْ نارٌ ، ومهادُهُمْ نارٌ .

فهمْ بينَ مقطعاتِ النيرانِ وسرابيلِ القطرانِ ، وضربِ المقامعِ وثقلِ السلاسلِ ، فهمْ يتجلجلونَ في مضايقِها ، ويتحطمونَ في دركاتِها ، ويضطربونَ بينَ غواشيها ، تغلي بهِمُ النَّارُ كغلي القدورِ ، ويهتفونَ بالويلِ والعويلِ ، ومهما دعوا بالثبورِ.. صُبَّ مِنْ فوقِ رؤوسِهِمُ الحميمُ ، يُصهرُ بهِ ما في بطونِهِمْ والجلودُ ، ولهمْ مقامعُ منْ حديدٍ تُهشمُ بها جباهُهُمْ ، فيتفجرُ

الصديدُ مِنْ أفواهِهِمْ ، وتنقطعُ مِنَ العطشِ أكبادُهُمْ ، وتسيلُ على الخدودِ أحداقُهُمْ ، ويسقطُ مِنَ الوجناتِ لحومُهَا ، ويتمعطُ مِنَ الأطرافِ شعورُها[1] ، بلْ جلودُها ، وكلَّما نضجَتْ جلودُهم.. بدَّلنَاهُم جلوداً غيرَها ، قدْ عريَتْ مِنَ اللحمِ عظامُهُمْ ، فبقيَتِ الأرواحُ منوطةً بالعروقِ وعلائقِ العصبِ ، وهيَ تنشُّ في لفحِ تلكَ النيرانِ[2] ، وهمْ معَ ذلكَ يتمنَّونَ الموتَ فلا يموتونَ .

فكيفَ بكَ لوْ نظرتَ إليهم وقد اسودَّتْ وجوهُهُم أشدَّ سواداً مِنَ الحممِ ، وأُعميَتْ أبصارُهُمْ ، وأُبكمَتْ ألسنتُهُمْ ، وقُصمَتْ ظهورُهُمْ ، وكُسرَتْ عظامُهُمْ ، وجُدِعَتْ آذانُهُمْ ، ومُزِّقَتْ جلودُهُمْ ، وغُلَّتْ أيديهمْ إلىٰ أعناقِهِمْ ، وجُمعَ بينَ نواصيهِمْ وأقدامِهِمْ ، وهمْ يمشونَ على النَّارِ بوجوهِهِمْ ، ويطؤونَ حسكَ الحديدِ بأحداقِهِمْ ، فلهيبُ النَّارِ سارَ في بواطنِ أجزائِهِمْ ، وحيَّاتُ الهاويةِ وعقاربُها متشبّثةٌ بظواهرِ أعضائِهِمْ ؟!

هٰذهِ جملةُ أحوالِهِمْ ، فانظرِ الآنَ في تفصيلِ أهوالِهِمْ .

وتفكَّرْ أوَّلاً في أوديةِ جهنَّمَ وشعابِها .

فقدْ قالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ في جهنَّمَ سبعينَ ألفَ وادٍ ، في كلِّ وادٍ سبعونَ ألفَ شعبٍ ، في كلِّ شعبٍ سبعونَ ألفَ ثعبانٍ وسبعونَ

---

(١) يتمعط : يتساقط .

(٢) تنش : تيبس .

ألفَ عقربٍ ، لا ينتهي الكافرُ والمنافقُ حتىٰ يواقعَ ذلكَ كلَّهُ »[1] .

وقالَ عليٌّ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « تعوَّذوا باللهِ مِنْ جبِّ الحزنِ أو وادي الحزنِ » قيلَ : يا رسولَ اللهِ ، وما وادي الحزنِ أو جبُّ الحزنِ ؟ قالَ : « وادٍ في جهنَّمَ تتعوذُ منهُ جهنَّمُ كلَّ يومٍ سبعينَ مرةً ، أعدَّهُ اللهُ تعالىٰ للقراءِ المرائينَ »[2] .

فهٰذهِ سعةُ جهنَّمَ وانشعابُ أوديتِها ، وهيَ بحسبِ عددِ أوديةِ الدنيا وشهواتِها ، وعددُ أبوابِها بعددِ الأعضاءِ السبعةِ التي بها يعصي العبدُ ، بعضُها فوقَ بعضٍ ، الأعلىٰ جهنَّمُ ، ثمَّ سقرُ ، ثمَّ لظىٰ ، ثمَّ الحطمةُ ، ثمَّ السعيرُ ، ثمَّ الجحيمُ ، ثمَّ الهاويةُ .

فانظرِ الآنَ في عمقِ الهاويةِ ؛ فإنَّهُ لا حدَّ لعمقِها كما لا حدَّ لعمقِ شهواتِ الدنيا ، فكما لا ينتهي أربٌ مِنَ الدنيا إلاَّ إلىٰ أربٍ أعظمَ منهُ . فلا تنتهي هاويةٌ مِنْ جهنَّمَ إلاَّ إلىٰ هاويةٍ أعمقَ منها .

قالَ أبو هريرةَ : كنَّا معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، إذ سمعنا وجبةً ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أتدرونَ ما هٰذا ؟ » قلنا : اللهُ ورسولُهُ أعلمُ ، قالَ : « هٰذا حجرٌ أُرسلَ في جهنَّمَ منذُ سبعينَ

---

(1) رواه ابن أبي الدنيا في « صفة النار » (٩٧) ، وأبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٣٥٠٩) .

(2) رواه الترمذي (٢٣٨٣) ، وابن ماجه (٢٥٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

عاماً ، الآنَ حينَ انتهىٰ إلىٰ قعرِها »[1] .

ثمَّ انظرْ إلىٰ تفاوتِ الدركاتِ ؛ فإنَّ الآخرةَ أكبرُ درجاتٍ وأكبرُ تفضيلاً ، فكما أنَّ إكبابَ النَّاسِ على الدنيا متفاوتٌ ؛ فمِنْ منهمكٍ مستكثرٍ كالغريقِ فيها ، ومِنْ خائضٍ فيها إلىٰ حدٍّ محدودٍ . . فكذلكَ تناولُ النَّارِ لهمْ متفاوتٌ ؛ فإنَّ اللهَ لا يظلمُ مثقالَ ذرَّةٍ ، فلا تترادفُ أنواعُ العذابِ علىٰ كلِّ مَنْ في النَّارِ كيفَ كانَ ، بلْ لكلِّ واحدٍ حدٌّ معلومٌ علىٰ قدرِ عصيانِهِ وذنبِهِ ، إلاَّ أنَّ أقلَّهم عذاباً لوْ عُرِضَتْ عليهِ الدنيا بحذافيرِها . . لافتدىٰ بها مِنْ شدَّةِ ما هوَ فيهِ .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أدنىٰ أهلِ النارِ عذاباً ينتعلُ بنعلينِ مِنْ نارٍ ، يغلي دماغُهُ مِنْ حرارةِ نعليهِ »[2] .

فانظرِ الآنَ إلىٰ مَنْ خُفِّفَ عليهِ ، واعتبرْ بهِ مَنْ شُدِّدَ عليهِ ، ومهما شككتَ في شدَّةِ عذابِ النَّارِ . . فقرِّبْ إصبعَكَ مِنَ النَّارِ ، وقسْ ذلكَ بهِ ، ثمَّ اعلمْ أنَّكَ أخطأتَ في القياسِ ؛ فإنَّ نارَ الدنيا لا تناسبُ نارَ جهنَّمَ ، ولكنْ لمَّا كانَ أشدَّ عذابٍ في الدنيا عذابُ هـٰذهِ النَّارِ . . عُرِفَ عذابُ جهنَّمَ بها ، وهيهاتَ !

لوْ وجدَ أهلُ الجحيمِ مثلَ هـٰذهِ النَّارِ . . لخاضوها طائعينَ هرباً ممَّا هُمْ فيه ، وعنْ هـٰذا عُبِّرَ في بعضِ الأخبارِ حيثُ قيلَ : إنَّ نارَ الدنيا غُسِلَتْ

---

(١) رواه مسلم (٢٨٤٤) . والوجبة : السقطة .

(٢) رواه مسلم (٢١١) .

بسبعينَ ماءً مِنْ مياهِ الرحمةِ حتىٰ أطاقَها أهلُ الدنيا[1] .

بلْ صرَّحَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بصفةِ نارِ جهنَّمَ فقالَ : « أُوقِدَتْ تلكَ النَّارُ ألفَ عامٍ حتى احمرَّتْ ، ثمَّ أُوقدَ عليها ألفَ عامٍ حتى ابيضَّتْ ، ثمَّ أُوقدَ عليها ألفَ عامٍ حتى اسودَّتْ ، فهيَ سوداءُ مظلمةٌ »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « اشتكتِ النارُ إلىٰ ربِّها فقالَتْ : يا ربِّ ؛ أكلَ بعضي بعضاً ، فأذنَ لها بنفسَينِ ، نفسٍ في الشِّتاءِ ، ونفسٍ في الصيفِ ، فأشدُّ ما تجدونَهُ في الصَّيفِ مِنْ حرِّها ، وأشدُّ ما تجدونَهُ في الشتاءِ مِنْ زمهريرِها »[3] .

وقالَ أنسُ بنُ مالكٍ : (يُؤتىٰ بأنعمِ النَّاسِ في الدنيا مِنَ الكفَّارِ فيُقالُ : اغمسوهُ في النَّارِ غمسةً ، ثمَّ يُقالُ لهُ : هلْ رأيتَ نعيماً قطُّ ؟ فيقولُ : لا ، ويُؤتىٰ بأشدِّ النَّاسِ ضراً في الدنيا فيُقالُ : اغمسوهُ في الجنَّةِ غمسةً ، ثمَّ يُقالُ لهُ : هلْ رأيتَ ضراً قطُّ ؟ فيقولُ : لا)[4] .

---

(١) روى ابن ماجه (٤٣١٨) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن ناركم هـٰذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ، ولولا أنها أطفئت بالماء مرتين . . ما انتفعتم بها ، وإنها لتدعو الله عز وجل ألا يعيدها فيها » ، وانظر « الإتحاف » (١٠/ ٥١٣) .

(٢) رواه الترمذي (٢٥٩١) .

(٣) رواه البخاري (٣٢٦٠) ، ومسلم (٦١٧) .

(٤) رواه بهـٰذا اللفظ موقوفاً ابن المبارك في « الزهد » (٦١١) ، وأصله عند مسلم (٢٨٠٧) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً .

وقالَ أبو هريرةَ : (لوْ كانَ في المسجدِ مئةُ ألفٍ أوْ يزيدونَ ، ثمَّ تنفسَ رجلٌ مِنْ أهلِ النَّارِ . . لماتوا)[1] .

وقدْ قالَ بعضُ العلماءِ في قولِهِ : ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ : إنَّها لفحتْهمْ لفحةً واحدةً ، فما أبقتْ لحماً علىٰ عظمٍ إلاَّ ألقتْهُ عندَ أعقابِهِمْ[2] .

ثمَّ انظرْ بعدَ هـٰذا في نتنِ الصديدِ الذي يسيلُ مِنْ أبدانِهِمْ حتىٰ يغرقوا فيهِ ، وهوَ الغساقُ .

قالَ أبو سعيدٍ الخدريُّ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ أنَّ دلواً مِنْ غساقِ جهنَّمَ أُلقيَ في الدنيا . . لأنتنَ أهلُ الأرضِ »[3] فهـٰذا شرابُهُمْ إذا استغاثوا مِنَ العطشِ ﴿ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ۝ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ ، ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ .

ثمَّ انظرْ إلىٰ طعامِهِمْ وهوَ الزقومُ ؛ كما قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ۝ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ۝ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ

---

(١) رواه أبو يعلىٰ في « مسنده » (٦٦٧٠) ، والبزار في « المسند » (٩٦٢٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٤/ ٣٦٠) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٢٥٨) .

(٣) رواه الترمذي (٢٥٨٤) .

ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ .

وقالَ ابنُ عباسٍ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لوْ أنَّ قطرةً مِنَ الزقومِ قُطِرَتْ في بحارِ الدنيا . . لأفسدَتْ علىٰ أهلِ الدنيا معايشَهُمْ ، فكيفَ مَنْ يكونُ طعامُهُ ذلكَ ؟! »[1] .

وقالَ أنسٌ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ارغبوا فيما رغَّبَكُمُ اللهُ ، واحذروا وخافوا ما خوَّفَكُمُ اللهُ بهِ مِنْ عذابِهِ وعقابِهِ ومِنْ جهنَّمَ ؛ فإنَّها لوْ كانَتْ قطرةٌ مِنَ الجنَّةِ معَكُمْ في دنياكُمُ التي أنتُمْ فيها . . طيبَتْها لكُمْ ، ولوْ كانَتْ قطرةٌ مِنَ النَّارِ معَكُمْ في دنياكُمُ التي أنتُمْ فيها . . خبثَتْها عليكُمْ »[2] .

وقالَ أبو الدرداءِ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُلقىٰ علىٰ أهلِ النارِ الجوعُ حتىٰ يعدلَ ما هُمْ فيهِ مِنَ العذابِ ، فيستغيثونَ بالطعامِ ، فيُغاثونَ بطعامٍ مِنْ ضريعٍ لا يسمنُ ولا يغني مِنْ جوعٍ ، ويستغيثونَ بالطعامِ ، فيُغاثونَ بطعامٍ ذي غُصَّةٍ ، فيذكرونَ أنَّهمْ كانوا يجيزونَ الغصصَ في الدنيا بالشرابِ ، فيستغيثونَ بالشرابِ ، فيُرفعُ إليهمُ الحميمُ بكلاليبِ الحديدِ ،

---

(١) رواه الترمذي (٢٥٨٥) ، وابن ماجه (٤٣٢٥) .
(٢) رواه البيهقي في « البعث والنشور » (٥٣٢) .

فإذا دنَتْ مِنْ وجوهِهِمْ . . شوَتْ وجوهَهُمْ ، فإذا دخلَتْ بطونَهُمْ . . قطَّعَتْ ما في بطونِهِمْ ، فيقولونَ : ادعوا خزنةَ جهنَّمَ ، قالَ : فيدعونَ خزنةَ جهنَّمَ أنِ ادعوا ربَّكُمْ يخففْ عنَّا يوماً مِنَ العذابِ ، فيقولونَ : ﴿ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ ، قالَ : فيقولونَ : ادعوا مالكاً ، فيدعونَ فيقولونَ : ﴿ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ ، قالَ : فيجيبُهُمْ : ﴿ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾ ـ قالَ الأعمشُ : أُنبئتُ : أنَّ بينَ دعائِهِمْ وبينَ إجابةِ مالكٍ إيَّاهُمْ ألفَ عامٍ ـ قالَ : فيقولونَ : ادعوا ربَّكُمْ فلا أحدَ خيرٌ مِنْ ربِّكُمْ ، فيقولونَ : ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ۝ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴾ ، قالَ : فيجيبُهُمْ : ﴿ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ ، قالَ : فعندَ ذلكَ يئسوا مِنْ كلِّ خيرٍ ، وعندَ ذلكَ أخذوا في الزفيرِ والحسرةِ والويلِ »[1] .

وقالَ أبو أُمامةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ۝ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ ﴾ قالَ : « يُقرَّبُ إليهِ فيكرهُهُ ، فإذا أُدنيَ منهُ . . شوىٰ وجهَهُ ووقعَتْ فروةُ رأسِهِ ، فإذا شربَهُ . . قطَّعَ أمعاءَهُ حتىٰ يخرجَ مِنْ دبرِهِ » يقولُ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ ﴾[2] .

---

(١) رواه الترمذي (٢٥٨٦) .

(٢) رواه الترمذي (٢٥٨٣) .

فهٰذا طعامُهُمْ وشرابُهُمْ عندَ جوعِهِمْ وعطشِهِمْ .

فانظرِ الآنَ إلىٰ حيَّاتِ جهنَّمَ وعقاربِها ، وإلىٰ شدَّةِ سمومِها وعظمِ أشخاصِها ، وفظاعةِ منظرِها ، وقدْ سُلِّطَتْ علىٰ أهلِها وأُغريَتْ بهمْ ، فهيَ لا تفترُ عنِ النَّهشِ واللدغِ ساعةً واحدةً .

قالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ آتاهُ اللهُ مالاً فلمْ يؤدِّ زكاتَهُ . . مُثِّلَ لَهُ يومَ القيامةِ شجاعاً أقرعَ لهُ زبيبتانِ يُطوِّقُهُ يومَ القيامةِ ، ثمَّ يأخذُ بِلِهْزِمتيهِ ـ يعني : شدقيهِ ـ فيقولُ : أنا مالُكَ ، أنا كنزُكَ » ثمَّ تلا قولَهُ تعالىٰ : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ . . . ﴾ الآيةَ[1] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ في النَّارِ لحيَّاتٍ مثلَ أعناقِ البختِ ، يلسعْنَ اللسعةَ فيجدُ حموتَها أربعينَ خريفاً[2] ، وإنَّ فيها لعقاربَ كالبغالِ المؤكفةِ ، يلسعْنَ اللسعةَ فيجدُ حموتَها أربعينَ خريفاً »[3] .

وهٰذهِ الحيَّاتُ والعقاربُ إنَّما تُسلَّطُ علىٰ مَنْ سُلِّطَ عليهِ في الدنيا البخلُ وسوءُ الخلقِ وإيذاءُ الناسِ ، ومَنْ وُقِيَ ذلكَ . . وُقِيَ هٰذهِ الحيَّاتِ فلمْ تُمثَّلْ لهُ .

---

(1) رواه البخاري (١٤٠٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، ومسلم (٩٨٨/٢٧) من حديث جابر رضي الله عنه .

(2) **حموتها** : حرارتها .

(3) رواه أحمد في « المسند » (٤/١٩١) ، وابن حبان (٧٤٧١) .

ثمَّ تفكَّرْ بعدَ هـٰذا كلِّهِ في تعظيمِ أجسامِ أهلِ النَّارِ ؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ يزيدُ في أجسامِهِمْ طولاً وعرضاً ؛ حتىٰ يتزايدَ عذابُهُمْ بسببِهِ ، فيحسونَ بلفحِ النَّارِ ولدغِ العقاربِ والحيَّاتِ مِنْ جميعِ أجزائِها دفعةً واحدةً على التوالي .

قالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ضرسُ الكافرِ في النَّارِ مثلُ أحدٍ ، وغلظُ جلدِهِ مسيرةُ ثلاثٍ »[1] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « شفتُهُ السفلىٰ ساقطةٌ علىٰ صدرِهِ ، والعليا قالصةٌ قدْ غطَّتْ وجهَهُ »[2] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الكافرَ ليجرُّ لسانَهُ في سجينٍ يومَ القيامةِ يتوطؤُهُ الناسُ »[3] .

ومعَ عظمِ الأجسامِ كذلكَ تحرقُهُمُ النَّارُ مرَّاتٍ فتُجدَّدُ جلودُهُمْ ولحومُهُمْ .

وقالَ الحسنُ في معنىٰ قولهِ تعالىٰ : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴾

---

(١) رواه مسلم (٢٨٥١) .
(٢) رواه الترمذي (٣١٧٦) في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « تشويه النار فتقلص شفته العالية حتىٰ تبلغ وسط رأسه ، وتسترخي شفته السفلىٰ حتىٰ تضرب سرته » .
(٣) رواه الترمذي (٢٥٨٠) .

قالَ : تأكلُهُمُ النَّارُ كلَّ يومٍ سبعينَ ألفَ مرةٍ ، كلَّما أكلَتْهُم . . قيلَ لهُمْ : عودوا ، فيعودونَ كما كانوا[1] .

ثمَّ تفكَّرِ الآنَ في بكاءِ أهلِ النَّارِ وشهيقِهِمْ ، ودعائِهِمْ بالويلِ والثبورِ ؛ فإنَّ ذلكَ يُسلَّطُ عليهِمْ في أوَّلِ إلقائِهِمْ في النَّارِ[2] .

قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُؤْتىٰ بجهنَّمَ يومَئذٍ لها سبعونَ ألفَ زمامٍ ، معَ كلِّ زمامٍ سبعونَ ألفَ ملكٍ »[3] .

وقالَ أنسٌ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُرسلُ علىٰ أهلِ النَّارِ البكاءُ ، فيبكونَ حتىٰ تنقطعَ الدموعُ ، ثمَّ يبكونَ الدمَ حتىٰ يُرىٰ في وجوهِهِمْ كهيئةِ الأخدودِ لوْ أُرسلَتْ فيها السفنُ . . لجرَتْ »[4] .

وما دامَ يُؤذنُ لهمْ في البكاءِ والشهيقِ والزفيرِ والدعوةِ بالويلِ والثبورِ . . فلهمْ فيهِ مستروحٌ ، ولكنَّهم يُمنعونَ أيضاً مِنْ ذلكَ .

قالَ محمدُ بنُ كعبٍ : لأهلِ النَّارِ خمسُ دعواتٍ يجيبُهُمُ اللهُ تعالىٰ في أربعةٍ ، فإذا كانَتِ الخامسةُ . . لم يتكلَّموا بعدَها أبداً ، فيقولونَ : ﴿ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ﴾ فيقولُ اللهُ تعالىٰ مجيباً لهُم : ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « صفة النار » (١١٦) ، وأحمد في « الزهد » (١٥٢٦) .
(٢) في النسخ : (في أول لقائهم النار) ، والمثبت من (ق) .
(٣) رواه مسلم (٢٨٤٢) .
(٤) رواه ابن ماجه (٤٣٢٤) .

تُؤْمِنُواْ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾ ، ثمَّ يقولون : ﴿ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا ﴾ فيجيبُهُمُ اللهُ تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ ، فيقــولــونَ : ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ فيجيبُهُمُ اللهُ تعالىٰ : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ ، ثمَّ يقولونَ : ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ۝ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴾ فيجيبُهُمُ اللهُ تعالىٰ : ﴿ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ ، فلا يتكلَّمونَ بعدَها أبداً ، وذلكَ غايةُ شدةِ العذابِ[1] .

قالَ مالكُ بنُ أنسٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (قالَ زيدُ بنُ أسلمَ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ قالَ : صبروا مئةَ سنةٍ ، ثمَّ جزعوا مئةَ سنةٍ أخرىٰ ، ثمَّ قالوا : سواءٌ علينا أجزعنا أمْ صبرنا ما لنا مِنْ محيصٍ)[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُؤتىٰ بالموتِ يومَ القيامةِ كأنَّهُ كبشٌ أملحُ ، فيُذبحُ بينَ الجنةِ والنارِ ، ويقالُ : يا أهلَ الجنَّةِ ؛ خلودٌ بلا موتٍ ، ويا أهلَ النَّارِ ؛ خلودٌ بلا موتٍ »[3] .

---

(١) رواه البيهقي في « البعث والنشور » (٥٨٦) ، ورواه بنحوه ابن أبي الدنيا في « صفة النار » (٢٥١) ، وفيهما في الدعوة الثانية ليقولون : ﴿ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ﴾ بدل ﴿ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا ﴾ .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٣/ ٢٢٣) بنحوه .

(٣) رواه البخاري (٤٧٣٠) ، ومسلم (٢٨٤٩) بنحوه .

وعنِ الحسنِ قالَ : يخرجُ مِنَ النَّارِ رجلٌ بعدَ ألفِ عامٍ ، وليتَني كنتُ ذلكَ الرجلَ ![1] .

ورُئِيَ الحسنُ رضيَ اللهُ عنهُ جالساً في زاويةٍ وهوَ يبكي ، فقيلَ لهُ : ما يبكيكَ ؟ فقالَ : أخشىٰ أنْ يطرحَني في النَّارِ ولا يبالي[2] .

فهٰذهِ أصنافُ عذابِ جهنَّمَ على الجملةِ ، وتفصيلُ غمومِها وأحزانِها ومحنِها وحسراتِها لا نهايةَ لهُ ، فأعظمُ الأمورِ عليهِمْ معَ ما يلاقونَهُ مِنْ شدَّةِ العذابِ حسرةُ فوتِ نعيمِ الجنَّةِ ، وفوتِ لقاءِ اللهِ تعالىٰ ، وفوتِ رضاهُ معَ علمِهِمْ بأنَّهمْ باعوا كلَّ ذلكَ بثمنٍ بخسٍ دراهمَ معدودةٍ ؛ إذْ لمْ يبيعوا ذلكَ إلاَّ بشهواتٍ حقيرةٍ في الدنيا أياماً قصيرةً ، وكانَتْ غيرَ صافيةٍ ، بلْ كانَتْ مكدَّرةً منغَّصةً .

فيقولونَ في أنفسِهِمْ : وا حسرتاهُ ! كيفَ أهلكْنا أنفسَنا بعصيانِ ربِّنا ؟! وكيفَ لمْ نكلِّفْ أنفسَنا الصبرَ أياماً قلائلَ ؟! ولوْ صبرنا . . لكانَتْ قدِ انقضَتْ عنَّا أيامُهُ ، وبقينا الآنَ في جوارِ الرحمٰنِ متنعمينَ بالرِّضا والرِّضوانِ ، فيا لحسرةِ هؤلاءِ وقدْ فاتَهُمْ ما فاتَهُمْ ، وبُلوا بما بُلوا بهِ ، ولمْ يبقَ معَهُمْ شيءٌ مِنْ نعيمِ الدنيا ولذاتِها !

ثمَّ إنَّهمْ لوْ لمْ يشاهدوا نعيمَ الجنةِ . . لمْ تعظمْ حسرتُهُمْ ، لكنَّها تُعرضُ عليهِمْ ؛ فقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُؤمرُ يومَ القيامةِ بناسٍ منَ

---

(١) كذا في « القوت » (٢/ ١٥٠) ، وساقه من رواية أبي بكر الآجري ابنُ حجر في « القول المسدد في الذب عن مسند أحمد » (ص٣٥) .

(٢) أورده ابن الجوزي في « صفة الصفوة » (٣/ ١٢٧) .

النارِ إلى الجنَّةِ ، حتىٰ إذا دنوا منها واستنشقوا رائحتَها ونظروا إلىٰ قصورِها وإلىٰ ما أعدَّ اللهُ لأهلِها فيها . . نُودوا أنِ اصرفوهمْ عنها لا نصيبَ لهمْ فيها ، فيرجعونَ بحسرةٍ ما رجعَ الأوَّلونَ والآخرونَ بمثلِها ، فيقولونَ : يا ربَّنا ؛ لوْ أدخلتَنا النَّارَ قبلَ أنْ تريَنا ما أريتَنا مِنْ ثوابِكَ وما أعددتَ فيها لأوليائِكَ . . كانَ أهونَ علينا ، فيقولُ اللهُ تعالىٰ : ذاكَ أردتُ بكُمْ ، كنتُم إذا خلوتُم . . بارزتُموني بالعظائمِ ، وإذا لقيتُمُ النَّاسَ . . لقيتُموهُمْ مخبتينَ ، تراؤونَ النَّاسَ بخلافِ ما تعطوني مِنْ قلوبِكُمْ ، هبتُمُ النَّاسَ ولمْ تهابوني ، وأجللتُمُ النَّاسَ ولمْ تجلُّوني ، وتركتُمْ للنَّاسِ ولمْ تتركوا لي ، فاليومَ أذيقُكُمُ العذابَ الأليمَ مَعَ ما حرمتُكُمْ مِنَ الثوابِ المقيمِ »[1] .

قالَ أحمدُ بنُ حربٍ : إنَّ أحدَنا يؤثِرُ الظلَّ على الشمسِ ، ثمَّ لا يؤثِرُ الجنَّةَ على النَّارِ ؟!

وقالَ عيسىٰ عليهِ السَّلامُ : كمْ مِنْ جسدٍ صحيحٍ ووجهٍ صبيحٍ ولسانٍ فصيحٍ ؛ غداً بينَ أطباقِ النَّارِ يصيحُ !

وقالَ داوودُ : إلـٰهي ؛ لا صبرَ لي علىٰ حرِّ شمسِكَ ، فكيفَ صبري علىٰ حرِّ نارِكَ ؟! ولا صبرَ لي علىٰ صوتِ رحمتِكَ ، فكيفَ صبري علىٰ صوتِ عذابِكَ ؟![2] .

---

(١) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (١٧/ ٨٥ ـ ٨٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/ ١٢٥) .

(٢) رواه أحمد في « الزهد » (٣٦٨) ، وابن أبي الدنيا في « صفة النار » (٢٢٣) .

فانظرْ يا مسكينُ في هـٰذهِ الأهوالِ ، واعلمْ : أنَّ اللهَ تعالىٰ خلقَ النَّارَ بأهوالِها وخلقَ لها أهلاً لا يزيدونَ ولا ينقصونَ ، وأنَّ هـٰذا أمرٌ قدْ قُضيَ وفُرِغَ منهُ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ، ولعمري الإشارةُ بهِ إلىٰ يومِ القيامةِ ولكنْ ما قُضيَ الأمرُ يومَ القيامةِ ، بلْ في أزلِ الأزلِ ، ولكنْ أُظهرَ يومَ القيامةِ ما سبقَ بهِ القضاءُ .

فالعجبُ منكَ حيثُ تضحكُ وتلهو ، وتشتغلُ بمحقراتِ الدنيا ولستَ تدري أنَّ القضاءَ بماذا سبقَ في حقِّكَ .

فإنْ قلتَ : فليتَ شعري ماذا موردي ؟ وإلىٰ ماذا مآلي ومرجعي ؟ وما الذي سبقَ بهِ القضاءُ في حقِّي ؟

فلكَ علامةٌ تستأنسُ بها ، وتصدِّقُ رجاءَكَ بسببِها ، وهوَ أنْ تنظرَ إلىٰ أحوالِكَ وأعمالِكَ ؛ فإنَّ كلاًّ ميسرٌ لما خُلِقَ لهُ ، فإنْ كانَ قدْ يُسِّرَ لكَ سبيلُ الخيرِ . فأبشرْ فإنَّكَ مبعدٌ عنِ النَّارِ ، وإنْ كنتَ لا تقصدُ خيراً إلاَّ وتحيطُ بكَ العوائقُ فتدفعُهُ ، ولا تقصدُ شرّاً إلاَّ وتتيسَّرُ لكَ أسبابُهُ . فاعلمْ أنَّكَ مقضيٌّ عليكَ ؛ فإنَّ دلالةَ هـٰذا على العاقبةِ كدلالةِ المطرِ على النباتِ ، ودلالةِ الدخانِ على النَّارِ ؛ فقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ فاعرضْ نفسَكَ على الآيتينِ ، وقدْ عرفتَ مستقرَّكَ مِنَ الدارينِ ، واللهُ أعلمُ .

* * *

القول في صفة الجنّة وأصناف نعيمها

اعلمْ : أنَّ تلكَ الدارَ التي عرفتَ غمومَها وهمومَها تقابلُها دارٌ أُخرىٰ ، فتأمَّلْ نعيمَها وسرورَها ؛ فإنَّ مَنْ بَعُدَ مِنْ إحداهُما استقرَّ لا محالةَ في الأخرىٰ ، فاستثرِ الخوفَ مِنْ قلبِكَ بطولِ الفكرِ في أهوالِ الجحيمِ ، واستثرِ الرجاءَ بطولِ الفكرِ في النعيمِ المقيمِ الموعودِ لأهلِ الجنانِ ، وسُقْ نفسَكَ بسوطِ الخوفِ ، وقدْها بزمامِ الرجاءِ إلى الصِّراطِ المستقيمِ ، فبذلكَ تنالُ الملكَ العظيمَ ، وتسلمُ مِنَ العذابِ الأليمِ .

فتفكَّرْ في أهلِ الجنَّةِ وفي وجوهِهِم نضرةُ النعيمِ ، يُسقونَ مِنْ رحيقٍ مختومٍ ، جالسينَ علىٰ منابرَ مِنَ الياقوتِ الأحمرِ في خيامٍ مِنَ اللؤلؤِ الرطبِ الأبيضِ ، فيها بسطٌ مِنَ العبقريِّ الأخضرِ ، متّكئينَ علىٰ أرائكَ منصوبةٍ علىٰ أطرافِ أنهارٍ مطَّردةٍ بالخمرِ والعسلِ ، محفوفةٍ بالغلمانِ والولدانِ ، مزيَّنةٍ بالحورِ العينِ مِنَ الخيراتِ الحسانِ ، كأنَّهنَّ الياقوتُ والمرجانُ ، لم يطمثْهنَّ إنسٌ قبلَهم ولا جانٌّ ، يمشينَ في درجاتِ الجنانِ ، إذا اختالَتْ إحداهُنَّ في مشيِها . حملَ أعطافَها سبعونَ ألفاً مِنَ الولدانِ ، عليها مِنْ طرائفِ الحريرِ الأبيضِ ما تتحيَّرُ فيهِ الأبصارُ ، مكلَّلاتٌ بالتيجانِ المرصعةِ باللؤلؤِ والمرجانِ ، شكلاتٌ غنجاتٌ عطراتٌ ، آمناتٌ مِنَ الهرمِ والبؤسِ ، مقصوراتٌ في الخيامِ ، في قصورٍ مِنَ الياقوتِ بُنِيَتْ وسطَ روضاتِ الجنانِ ، قاصراتُ الطرفِ عينٌ .

ثمَّ يُطافُ عليهِمْ وعليهِنَّ بأكوابٍ وأباريقَ وكأسٍ مِنْ معينٍ ، بيضاءَ لذَّةٍ للشاربينَ ، ويطوفُ عليهِم خدامٌ وولدانٌ كأمثالِ اللؤلؤِ المكنونِ جزاءً بما كانوا يعملونَ ، في مقامٍ أمينٍ ، في جنَّاتٍ وعيونٍ ، في جنَّاتٍ ونهَرٍ ، في مقعدِ صدقٍ عندَ مليكٍ مقتدرٍ ، ينظرونَ فيها إلىٰ وجهِ الملكِ الكريمِ ، وقدْ أشرقَتْ في وجوهِهِمْ نضرةُ النَّعيمِ ، لا يرهقُهم قترٌ ولا ذلَّةٌ ، بلْ عبادٌ مكرمونَ ، وبأنواعِ التُّحفِ مِنْ ربِّهِمْ يتعاهدونَ ، فهُمْ فيما اشتهتْ أنفسُهُمْ خالدونَ ، لا يخافونَ فيها ولا يحزنونَ ، وهمْ مِنْ ريبِ المنونِ آمنونَ ، فهُمْ فيها يتنعَّمونَ ، ويأكلونَ مِنْ أطعمتِها ، ويشربونَ مِنْ أنهارِها لبناً وخمراً وعسلاً في أنهارٍ أرضُها فضةٌ ، وحصباؤُها مرجانٌ ، وعلىٰ أرضٍ ترابِها مسكٌ أذفرُ ، ونباتُها زعفرانٌ ، ويُمطرونَ مِنْ سحابٍ فيها مِنْ ماءِ النسرينِ علىٰ كثبانِ الكافورِ .

ويُؤتونَ بأكوابٍ وأيِّ أكوابٍ ! أكوابٍ مِنْ فضَّةٍ مرصَّعةٍ بالدرِّ والياقوتِ والمرجانِ ، كوبٌ فيهِ مِنَ الرحيقِ المختومِ ، ممزوجٌ بهِ السلسبيلُ العذبُ ، كوبٌ يشرقُ نورُهُ مِنْ صفاءِ جوهرِهِ يبدو الشرابُ مِنْ ورائِهِ برقَّتِهِ وحمرتِهِ ، لمْ يصنعْهُ آدميٌّ فيقصِّرَ في تسويةِ صنعتِهِ وتحسينِ صياغتِهِ ، في كفِّ خادمٍ يحكي ضياءُ وجهِهِ الشمسَ في إشراقِها ، ولكنْ مِنْ أينَ للشمسِ حلاوةٌ مثلُ حلاوةِ صورتِهِ ، وحسنِ أصداغِهِ وملاحةِ أحداقِهِ !

فيا عجباً لمَنْ يؤمنُ بدارٍ هـٰذهِ صفتُها ، ويوقنُ بأنَّهُ لا يموتُ أهلُها ، ولا تحلُّ الفجائعُ بمَنْ نزلَ بفنائِها ، ولا تنظرُ الأحداثُ بعينِ التغييرِ إلىٰ

أهلِها ، كيفَ يأنسُ بدارٍ قدْ أذنَ اللهُ تعالىٰ في خرابِها ، ويتهنأُ بعيشٍ دونَها ؟!

واللهِ ؛ لوْ لمْ يكنْ فيها إلاَّ سلامةُ الأبدانِ معَ الأمنِ مِنَ الموتِ والجوعِ والعطشِ وسائرِ أصنافِ الحدثانِ . . لكانَ جديراً بأنْ يهجرَ الدنيا بسببِها ، وألاَّ يؤثرَ عليها ما التصرُّمُ والتنغُّصُ مِنْ ضرورتِها ، كيفَ وأهلُها ملوكٌ آمنونَ ، وفي أنواعِ السرورِ ممتَّعونَ ، لهمْ فيها كلُّ ما يشتهونَ ، وهمْ في كلِّ يومٍ بفناءِ العرشِ يحضرونَ ، وإلىٰ وجهِ اللهِ الكريمِ ينظرونَ ، وينالونَ بالنَّظرِ مِنَ اللذَّةِ ما لا ينظرونَ معَهُ إلىٰ سائرِ نعيمِ الجنانِ ولا يلتفتونَ ، وهمْ على الدوامِ بينَ أصنافِ هـٰذهِ النِّعمِ يترددونَ ، وهمْ مِنْ زوالِها آمنونَ ؟!

قالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ينادي منادٍ : إنَّ لكُمْ أن تصحُّوا فلا تسقموا أبداً ، وإنَّ لكُمْ أنْ تحيوا فلا تموتوا أبداً ، وإنَّ لكُمْ أنْ تشِبُّوا فلا تهرموا أبداً ، وإنَّ لكُمْ أنْ تنعموا فلا تبأسوا أبداً ، فذلكَ قولُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ »[1] .

ومهما أردتَ أنْ تعرفَ صفةَ الجنَّةِ . . فاقرأِ القرآنَ ، فليسَ وراءَ بيانِ اللهِ تعالىٰ بيانٌ ، واقرأْ مِنْ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ . . . ﴾ إلىٰ آخرِ (سورةِ الرحمـٰنِ) ، واقرأْ (سورةَ الواقعةِ) وغيرَها مِنَ السورِ .

وإنْ أردتَ أنْ تعرفَ تفصيلَ صفاتِها مِنَ الأخبارِ . . فتأمَّلِ الآنَ تفصيلَها بعدَ أنِ اطَّلعتَ علىٰ جملتِها .

---

(١) رواه مسلم (٢٨٣٧) .

وتأمَّل أوّلاً عددَ الجنانِ ، قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في قولهِ تعالىٰ : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ قالَ : جنَّتانِ مِنْ فضَّةٍ آنيتُهُما وما فيهما ، وجنَّتانِ مِنْ ذهبٍ آنيتُهُما وما فيهما ، وما بينَ القومِ وبينَ أنْ ينظروا إلىٰ ربِّهم إلاَّ رداءُ الكبرياءِ علىٰ وجهِهِ في جنَّةِ عدنٍ »[1] .

ثمَّ انظرْ إلىٰ أبوابِ الجنَّةِ ؛ فإنَّها كثيرةٌ بحسبِ أصولِ الطاعاتِ ، كما أنَّ أبوابَ النَّارِ بحسبِ أصولِ المعاصي .

قالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ أنفقَ زوجينِ مِنْ مالِهِ في سبيلِ اللهِ . . دُعيَ منْ أبوابِ الجنةِ ، وللجنةِ أبوابٌ ، فمنْ كانَ منْ أهلِ الصلاةِ . . دُعيَ مِنْ بابِ الصلاةِ ، ومَنْ كانَ مِنْ أهلِ الصيامِ . . دُعِيَ مِنْ بابِ الريَّانِ ، ومَنْ كانَ مِنْ أهلِ الصدقةِ . . دُعيَ مِنْ بابِ الصدقةِ ، ومَنْ كانَ مِنْ أهلِ الجهادِ . . دُعيَ مِنْ بابِ الجهادِ » فقالَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ : واللهِ ؛ ما علىٰ أحدٍ مِنْ ضرورةٍ مِنْ أيِّها دُعيَ ، فهلْ يُدعىٰ أحدٌ منها كلِّها ؟ قال : « نعمْ ، وأرجو أنْ تكونَ منهم »[2] .

وعنْ عاصمِ بنِ ضمرةَ عنْ عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ : (أنَّهُ ذكرَ النَّارَ فعظمَ أمرَها ذكراً لا أحفظُهُ .

ثمَّ قالَ : ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ حتىٰ إذا انتهوا إلىٰ

---

(1) رواه البخاري (٤٨٧٨) ، ومسلم (١٨٠) .
(2) رواه البخاري (١٨٩٧) ، ومسلم (١٠٢٧) .

بابٍ مِنْ أبوابِها . . وجدوا عندَهُ شجرةً يخرجُ مِنْ تحتِ ساقِها عينانِ تجريانِ ، فعمدوا إلىٰ إحداهما كأنَّما أُمروا بهِ فشربوا منها ، فأذهبَتْ ما في بطونِهِمْ مِنْ أذىً أوْ بأسٍ ، ثمَّ عمدوا إلى الأخرىٰ فتطهَّروا منها ، فجرتْ عليهِم نضرةُ النَّعيمِ ، فلمْ تتغيرْ أشعارُهُمْ بعدَها أبداً ، ولا تشعثُ رؤوسُهم كأنَّما دهنوا بالدهانِ ، ثمَّ انتهوا إلىٰ الجنَّةِ فقالَ لهمْ خزنتُها : سلامٌ عليكُمْ طبتُمْ فادخلوها خالدينَ ، ثمَّ تلقاهُمُ الولدانُ يطيفونَ بهِمْ كما تطيفُ ولدانُ أهلِ الدنيا بالحميمِ يقدمُ عليهِمْ مِنْ غيبةٍ ، يقولونَ لهُ : أبشرْ ؛ أعدَّ اللهُ لكَ مِنَ الكرامةِ كذا .

قالَ : ثمَّ ينطلقُ غلامٌ مِنْ أولئِكَ الولدانِ إلىٰ بعضِ أزواجِهِ مِنَ الحورِ العينِ فيقولُ : قدْ جاءَ فلانٌ ـ باسمهِ الذي كانَ يُدعىٰ بهِ في الدنيا ـ فتقولُ : أنتَ رأيتَهُ ؟ فيقولُ : أنا رأيتُهُ وهوَ بأثري ، فيستخفُّ إحداهنَّ الفرحُ حتىٰ تقومَ إلىٰ أسكفةِ بابِها ، فإذا انتهىٰ إلىٰ منزلِهِ . . نظرَ إلىٰ أساسِ بنيانِهِ ؛ فإذا جندلُ اللؤلؤِ فوقَهُ صرحٌ أحمرُ وأخضرُ وأصفرُ ؛ مِنْ كلِّ لونٍ ، ثمَّ يرفعُ رأسَهُ فينظرُ إلىٰ سقفِهِ ؛ فإذا مثلُ البرقِ ، ولولا أنَّ اللهَ تعالىٰ قدره . . لألمَّ أنْ يذهبَ بصرُهُ ، ثمَّ يطأطئُ رأسَهُ ؛ فإذا أزواجُهُ ، وأكوابٌ موضوعةٌ ونمارقُ مصفوفةٌ وزرابيُّ مبثوثةٌ ، ثمَّ اتكأَ فقالَ : الحمدُ للهِ الذي هدانا لهٰذا ، وما كنَّا لنهتديَ لولا أنْ هدانا اللهُ ، ثمَّ ينادي منادٍ : تحيونَ فلا تموتونَ أبداً ، وتقيمونَ فلا تظعنونَ أبداً ، وتصحُّونَ فلا تمرضونَ أبداً)[1] .

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٤٥٠) ، وابن أبي الدنيا في « صفة الجنة » (٧) ، والبيهقي في « البعث والنشور » (٢٣٦) .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « آتي يومَ القيامةِ بابَ الجنَّةِ ، فأستفتحُ فيقولُ الخازنُ : مَنْ أنتَ ؟ فأقولُ : محمَّدٌ ، فيقولُ : بكَ أُمرتُ ألاَّ أفتحَ لأحدٍ قبلَكَ »[1] .

ثمَّ تأمَّلِ الآنَ في غرفِ الجنَّةِ ، واختلافِ درجاتِ العلوِّ فيها ؛ فإنَّ الآخرةَ أكبرُ درجاتٍ وأكبرُ تفضيلاً ، وكما أنَّ بينَ الناسِ في الطَّاعاتِ الظاهرةِ والأخلاقِ الباطنةِ المحمودةِ تفاوتاً ظاهراً . . فكذلكَ فيما يُجازَوْنَ بهِ تفاوتٌ ظاهرٌ ، فإنْ كنتَ تطلبُ أعلى الدرجاتِ . . فاجتهدْ ألاَّ يسبقَكَ أحدٌ بطاعةِ اللهِ تعالىٰ ؛ فقدْ أمرَكَ اللهُ بالمسابقةِ والمنافسةِ فيها فقالَ تعالىٰ : ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ .

والعجبُ أنَّهُ لوْ تقدَّمَ عليكَ أقرانُكَ أوْ جيرانُكَ بزيادةِ درهمٍ أوْ بعلوِّ بناءٍ . . ثقلَ عليكَ ذلكَ ، وضاقَ بهِ ذرعُكَ ، وتنغَّصَ بسببِ الحسدِ عيشُكَ ! وأحسنُ أحوالِكَ أنْ تستقرَّ في الجنَّةِ وأنتَ لا تسلمُ فيها مِنْ أقوامٍ يسبقونَكَ بلطائفَ لا توازيها الدنيا بحذافيرِها ؛ فقدْ قالَ أبو سعيدٍ الخدريُّ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أهلَ الجنَّةِ ليتراءَوْنَ أهلَ الغرفِ فوقَهُمْ كما تتراءَوْنَ الكوكبَ الغابرَ في الأفقِ مِنَ المشرقِ والمغربِ ؛ لتفاضلِ

---

(١) رواه مسلم (١٩٧) ، وقال الحافظ الزبيدي في « إتحافه » (١٠/ ٥٢٦) عند قول الخازن : من أنت ؟ : (أجاب بالاستفهام ، وأكده بالخطاب تلذذاً بمناجاته ، وإلاَّ . . فأبواب الجنة شفافة ، وهو العلَمُ الذي لا يشتبه ، والمتميز الذي لا يلتبس ، وقد رآه الخازن قبل ذلك وعرفه أتم معرفة ، ومن ثم اكتفىٰ بقوله : « فأقول : محمد ») .

ما بينَهُمْ » قالوا : يا رسولَ اللهِ ؛ تلكَ منازلُ الأنبياءِ لا يبلغُها غيرُهمْ ؟ قالَ : « بلىٰ ، والذي نفسي بيدِهِ ، رجالٌ آمنوا باللهِ وصدَّقوا المرسلينَ »(١) .

وقالَ أيضاً عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ : « إنَّ أهلَ الدرجاتِ العلا ليراهُمْ مَنْ تحتَهُمْ كما ترونَ النَّجمَ الطالعَ في أفقٍ مِنْ آفاقِ السماءِ ، وإنَّ أبا بكرٍ وعمرَ منهُمْ وأنْعَما »(٢) .

وقالَ جابرٌ : قالَ لنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ألا أحدثُكُمْ بغرفِ أهلِ الجنَّةِ ؟ » قالَ : قلتُ : بلىٰ يا رسولَ اللهِ بأبينا أنتَ وأمِّنا ، قالَ : « إنَّ في الجنَّةِ غرفاً مِنْ أصنافِ الجوهرِ كلِّهِ ، يُرىٰ ظاهرُها مِنْ باطنِها وباطنُها مِنْ ظاهرِها ، وفيها مِنَ النَّعيمِ واللذَّاتِ والسرورِ ما لا عينٌ رأَتْ ولا أذنٌ سمعَتْ ولا خطرَ علىٰ قلبِ بشرٍ » قالَ : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ؛ ولِمَنْ هٰذهِ الغرفُ ؟ قالَ : « لمَنْ أفشى السَّلامَ ، وأطعمَ الطعامَ ، وأدامَ الصيامَ ، وصلَّىٰ بالليلِ والناسُ نيامٌ » قالَ : قلنا : يا رسولَ اللهِ ؛ ومَنْ يطيقُ ذلكَ ؟ قالَ : « أمَّتي تطيقُ ذلكَ ، وسأخبرُكُمْ عَنْ ذلكَ ؛ مَنْ لقيَ أخاهُ فسلَّمَ عليهِ أوْ ردَّ عليهِ . . فقدْ أفشى السَّلامَ ، ومَنْ أطعمَ أهلَهُ وعيالَهُ مِنَ الطعامِ حتىٰ يشبعَهُمْ . . فقدْ أطعمَ الطعامَ ، ومَنْ صامَ شهرَ رمضانَ ومِنْ كلِّ شهرٍ

---

(١) رواه البخاري (٣٢٥٦) ، ومسلم (٢٨٣١) .

(٢) رواه الترمذي (٣٦٥٨) ، وابن ماجه (٩٦) ، **وأنعما** : زادا في الرتبة وتجاوزا تلك المنزلة .

ثلاثةَ أيامٍ. . فقدْ أدامَ الصيامَ ، ومَنْ صلَّى العشاءَ الآخرةَ وصلَّى الغداةَ في جماعةٍ. . فقدْ صلَّىٰ بالليلِ والنَّاسُ نيامٌ » يعني : اليهودَ والنصارىٰ والمجوسَ[1] .

وسُئلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عنْ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ﴾ قالَ : « قصورٌ مِنْ لؤلؤٍ ، في كلِّ قصرٍ سبعونَ داراً مِنْ ياقوتةٍ حمراءَ ، في كلِّ دارٍ سبعونَ بيتاً مِنْ زمردٍ أخضرَ ، في كلِّ بيتٍ سريرٌ ، علىٰ كلِّ سريرٍ سبعونَ فراشاً مِنْ كلِّ لونٍ ، علىٰ كلِّ فراشٍ زوجةٌ مِنَ الحورِ العينِ ، في كلِّ بيتٍ سبعونَ مائدةً ، علىٰ كلِّ مائدةٍ سبعونَ لوناً مِنَ الطعامِ ، في كلِّ بيتٍ سبعونَ وصيفةً ، ويُعطى المؤمنُ في كلِّ غداةٍ ـ يعني مِنَ القوةِ ـ ما يأتي علىٰ ذلكَ أجمعَ »[2] .

❋ ❋ ❋

---

(1) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٢/٣٥٦) ، والبيهقي في « البعث والنشور » (٢٤٣) .

(2) رواه البيهقي في « البعث والنشور » (٢٤٥) ، وابن أبي الدنيا في « صفة الجنة » (١٧٧) ، والبزار في « مسنده » (٣٥٦٣) إلا أن فيهما : (في كل دار سبعون بيتاً من زمردة خضراء ، في كل بيت سبعون سريراً. . .) والباقي سواء .

صفة حائط الجنة وأرضها وأشجارها وأنهارها

تأمَّلْ في صورةِ الجنَّةِ ، وتفكَّرْ في غبطةِ سكانِها ، وفي حسرةِ مَنْ حُرِمَها ؛ لقناعتِهِ بالدنيا عوضاً عنها[1] .

فقدْ قالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ حائطَ الجنَّةِ لبنةٌ مِنْ فضةٍ ولبنةٌ مِنْ ذهبٍ ، ترابُها زعفرانٌ ، وطينُها مسكٌ »[2] .

وسُئِلَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عَنْ تربةِ الجنَّةِ فقالَ : « دَرْمَكَةٌ بيضاءُ مسكٌ خالصٌ »[3] .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « مَنْ سرَّهُ أنْ يسقيَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ الخمرَ في الآخرةِ . . فليتركْها في الدنيا ، ومَنْ سرَّهُ أنْ يكسوَهُ اللهُ الحريرَ في الآخرةِ . . فليتركْهُ في الدنيا ، أنهارُ الجنَّةِ تتفجَّرُ مِنْ تحتِ تلالِ ـ أو تحتِ جبالِ ـ المسكِ ، ولوْ كانَ أدنىٰ أهلِ الجنَّةِ حليةً عُدلَتْ بحليةِ أهلِ الدنيا جميعِها . . لكانَ ما يحليهِ اللهُ عزَّ وجلَّ بهِ في الآخرةِ أفضلَ مِنْ حليةِ أهلِ الدنيا جميعِها »[4] .

---

(١) في غير (ج ، ص) : (ثمناً عنها) بدل (عوضاً عنها) .

(٢) رواه البيهقي في « البعث والنشور » (٢٤٧) ، وعند الترمذي (٢٥٢٥) نحوه .

(٣) رواه مسلم (٢٩٢٨) ، **والدرمكة** : الدقيق الخالص البياض مع لين ونعومة .

(٤) رواه البيهقي في « البعث والنشور » (٢٥٥) ، وعند الطبراني في « المعجم الأوسط » (٨٨٧٣ ـ ٨٨٧٤) نحوه .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ في الجنَّةِ شجرةً يسيرُ الراكبُ في ظلِّها مئةَ عامٍ لا يقطعُها ، اقرؤوا إنْ شئتُمْ : ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ »[1] .

وقالَ أبو أُمامةَ : كانَ أصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولونَ : إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ينفعُنا بالأعرابِ ومسائلِهِم ؛ أقبلَ أعرابيٌّ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ قدْ ذكرَ اللهُ تعالىٰ في القرآنِ شجرةً مؤذيةً ، وما كنتُ أرىٰ أنَّ في الجنَّةِ شجرةً تؤذي صاحبَها ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما هيَ ؟ » قالَ : السدرُ ؛ فإنَّ لها شوكاً ، فقالَ : « قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴾ يخضدُ اللهُ شوكَهُ فيجعلُ مكانَ كلِّ شوكةٍ ثمرةً ، ثمَّ تنفتقُ الثمرةُ منها عنِ اثنينِ وسبعينَ لوناً مِنَ الطعامِ ما منها لونٌ يشبهُ الآخرَ »[2] .

وقالَ جريرُ بنُ عبدِ اللهِ : (نزلنا الصفاحَ ؛ فإذا رجلٌ نائمٌ تحتَ شجرةٍ قدْ كادَتِ الشمسُ أنْ تبلغَهُ ، فقلتُ للغلامِ : انطلقْ بهٰذا النطعِ فأظِلَّهُ ، فانطلقَ فأظلَّهُ ، فلمَّا استيقظَ ؛ فإذا هوَ سلمانُ ، فأتيتُهُ أسلِّمُ عليهِ ، فقالَ : يا جريرُ ؛ تواضعْ للهِ ؛ فإنَّ مَنْ تواضعَ للهِ في الدنيا . رفعَهُ اللهُ يومَ القيامةِ ، هلْ تدري ما الظلماتُ يومَ القيامةِ ؟ قلتُ : لا أدري ، قالَ : ظلمُ الناسِ

---

(١) رواه البخاري (٤٨٨١) ، ومسلم (٢٨٢٦) .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٢/٤٧٦) ، وابن أبي الدنيا في « صفة الجنة » (١٠٥) .

بينَهُم ، ثمَّ أخذَ عويداً لا أكادُ أراهُ مِنْ صغرِهِ فقالَ : يا جريرُ ؛ لوْ طلبتَ في الجنَّةِ مثلَ هـٰذا . . لمْ تجدْهُ ، قلتُ : يا أبا عبدِ اللهِ ؛ فأينَ النخلُ والشجرُ ؟ قالَ : أصولُها اللؤلؤُ والذهبُ ، وأعلاها الثمرُ)[1] .

* * *

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (١/ ٢٠٢) ، والبيهقي في « البعث والنشور » (٢٧٦) .

صفة لباس أهل الجنة وفرشهم وسررهم وأرائكهم وخيامهم

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ ، والآياتُ في تفصيلِ ذلكَ كثيرةٌ .

وأمَّا تفصيلُهُ في الأخبارِ . . فقدْ روىٰ أبو هريرةَ : أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « مَنْ يدخلُ الجنَّةَ ينعمُ لا يبأسُ ؛ لا تبلىٰ ثيابُهُ ، ولا يفنىٰ شبابُهُ ، في الجنَّةِ ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سمعَتْ ، ولا خطرَ علىٰ قلبِ بشرٍ »[1] .

وقالَ رجلٌ : يا رسولَ اللهِ ؛ أخبرْنا عنْ ثيابِ أهلِ الجنَّةِ ، أخلقٌ تخلقُ ، أم نسجٌ تنسجُ ؟ فسكتَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وضحكَ بعضُ القومِ ، فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ممَّ تضحكونَ ؟ مِنْ جاهلٍ سألَ عالماً ؟! » ثمَّ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بلْ تشقَّقُ عنها ثمرُ الجنَّةِ مرتينِ »[2] .

وقالَ أبو هريرةَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ أوَّلَ زمرةٍ تلجُ الجنَّةَ صورتُهُمْ علىٰ صورةِ القمرِ ليلةَ البدرِ ، لا يبصقونَ فيها

---

(١) رواه أحمد في « المسند » (٢/٤١٦) ، وعند مسلم (٢٨٣٦) نحوه .

(٢) رواه النسائي في « الكبرىٰ » (٥٨٤١) .

ولا يمتخطونَ ولا يتغوَّطونَ ، آنيتُهُمْ وأمشاطُهُمْ مِنَ الذهبِ والفضةِ ، ورشحُهُمُ المسكُ ، ولكلِّ واحدٍ منهمْ زوجتانِ يُرىٰ مخُّ ساقِهما منْ وراءِ اللحمِ مِنَ الحسنِ ، لا اختلافَ بينَهُمْ ولا تباغضَ ، قلوبُهُمْ علىٰ قلبِ واحدٍ يُسبِّحونَ اللهَ بكرةً وعشيةً »[1] ، وفي روايةٍ : « علىٰ كلِّ زوجةٍ سبعونَ حلةً »[2] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ﴾ قالَ : « إنَّ عليهِمُ التيجانَ ، إنَّ أدنىٰ لؤلؤةٍ فيها لتضيءُ ما بينَ المشرقِ والمغربِ »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « الخيمةُ درَّةٌ مجوَّفةٌ طولُها في السماءِ ستونَ ميلاً ، في كلِّ زاويةٍ منها للمؤمنِ أهلٌ لا يراهُمُ الآخرونَ » رواهُ البخاريُّ في « الصحيحِ »[4] .

قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما : (الخيمةُ درَّةٌ مجوَّفةٌ فرسخٌ في فرسخٍ ، لها أربعةُ آلافِ مصراعٍ مِنْ ذهبٍ)[5] .

---

(١) رواه البخاري (٣٢٤٥) ، ومسلم (٢٨٣٤) .
(٢) رواها الترمذي (٢٥٣٤) .
(٣) رواه الترمذي (٢٥٦٢) .
(٤) صحيح البخاري (٣٢٤٣) .
(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « صفة الجنة » (٣١٤) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥١٩٧) .

وقالَ أبو سعيدٍ الخدريُّ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ قالَ : « ما بينَ الفراشينِ كما بينَ السماءِ والأرضِ »[1] .

* * *

(١) رواه الترمذي (٢٥٤٠) .

صفة طعام أهل الجنّة

بيانُ طعامِ أهلِ الجنَّةِ مذكورٌ في القرآنِ ؛ مِنَ الفواكهِ والطيورِ السِّمانِ ، والمنِّ والسلوىٰ ، والعسلِ واللبنِ ، وأصنافٍ كثيرةٍ لا تُحصىٰ ، قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ﴾ .

وذكرَ اللهُ تعالىٰ شرابَ أهلِ الجنَّةِ في مواضعَ كثيرةٍ ، وقدْ قالَ ثوبانُ مولىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : (كنتُ قائماً عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فجاءَهُ حبرٌ مِنْ أحبارِ اليهودِ ، فذكرَ أسئلةً إلىٰ أنْ قالَ : فمَنْ أوَّلُ الناسِ إجازةً ؟ ـ يعني على الصراطِ ـ فقالَ : « فقراءُ المهاجرينَ » ، قالَ اليهوديُّ : فما تحفتُهُمْ حينَ يدخلونَ الجنَّةَ ؟ قالَ : « زيادةُ كبدِ النونِ » ، قالَ : فما غداؤُهُمْ علىٰ أثرِها ؟ قالَ : « يُنحرُ لهمْ ثورُ الجنَّةِ الذي كانَ يأكلُ مِنْ أطرافِها » ، قالَ : فما شرابُهُمْ عليهِ ؟ قالَ : « مِنْ عينٍ فيها تُسمَّىٰ سلسبيلاً » ، فقالَ : صدَقتَ)[1] .

وقالَ زيدُ بنُ أرقمَ : جاءَ رجلٌ مِنَ اليهودِ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وقالَ : يا أبا القاسمِ ؛ ألستَ تزعمُ أنَّ أهلَ الجنَّةِ يأكلونَ فيها ويشربونَ ؟ وقالَ لأصحابِهِ : إنْ أقرَّ لي بهٰذِهِ.. خصمتُهُ ، فقالَ رسولُ اللهِ

---

(١) رواه مسلم (٣١٥) .

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « بلىٰ ، والذي نفسي بيدِهِ ؛ إنَّ أحدَهُمْ ليُعْطىٰ قوة مئةِ رجلٍ في المطعمِ والمشربِ والجماعِ » ، فقالَ اليهوديُّ : فإنَّ الذي يأكلُ ويشربُ يكونُ لهُ الحاجةُ ؟ فقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « حاجتُهُمْ عرقٌ يفيضُ مِنْ جلودِهِمْ مثلُ المسكِ ، فإذا البطنُ قدْ طهرَ »[1] .

وقالَ ابنُ مسعودٍ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّكَ لتنظرُ إلى الطيرِ في الجنَّةِ فتشتهيهِ . . فيخرُّ بينَ يديكَ مشويّاً »[2] .

وقالَ حذيفةُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ في الجنَّةِ طيراً أمثالَ البخاتيِّ » قالَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ : إنَّها لناعمةٌ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « أنعمُ منها مَنْ يأكلُها ، وأنتَ ممَّنْ يأكلُها يا أبا بكرٍ »[3] .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرٍو في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ ﴾ قالَ : (يُطافُ عليهم بسبعينَ صحفةً مِنْ ذهبٍ ، كلُّ صحفةٍ فيها لونٌ ليسَ في الأخرىٰ مثلُهُ)[4] .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ : ﴿ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴾

---

(١) رواه النسائي في « الكبرىٰ » (١١٤١٤) ، وفيه : (فإذا بطنه قد ضمر) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « صفة الجنة » (١٠٠) ، والبزار في « مسنده » (٢٠٣٢) .

(٣) رواه البيهقي في « البعث والنشور » (٣٠٨) ، وعند الإمام أحمد في « المسند » (٣/ ٢٢١) نحوه من حديث أنس رضي الله عنه .

(٤) رواه البيهقي في « البعث والنشور » (٣١٠) ، ونحوه عند أبي نعيم في « الحلية » (٥/ ٣٨٠) ، وفيه وفي (ب) : (بسبعين ألف صحفة) بدل (بسبعين صحفة) .

قالَ : (يُمزجُ لأصحابِ اليمينِ ، ويشربُها المقربونَ صرفاً)[1] .

وقالَ أبو الدرداءِ رضيَ اللهُ عنهُ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ خِتَـٰمُهُۥ مِسۡكٞ ﴾ قالَ : (هوَ شرابٌ أبيضُ مثلُ الفضةِ ، يختمونَ بهِ آخرَ شرابِهِمْ ، لوْ أنَّ رجلاً مِنْ أهلِ الدنيا أدخلَ يدَهُ فيهِ ثمَّ أخرجَها . . لمْ يبقَ ذو روحٍ إلاَّ وجدَ ريحَ طيبِها)[2] .

* * *

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٥٢٢) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٣٥٢٢٦) ، وفي (ب) : (يشرب بها) بدل (يشربها) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « صفة الجنة » (١٢٤) ، وابن المبارك في « الزهد » (٢٧٦) ، والبيهقي في « البعث والنشور » (٣١٩) .

صفة الحور العين والولدان

قدْ تكرَّرَ في القرآنِ أوصافُهُمْ ، ووردَتِ الأخبارُ بزيادةِ شرحٍ فيهِ .

روىٰ أنسٌ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « غدوةٌ في سبيلِ اللهِ أو روحةٌ خيرٌ منَ الدنيا وما فيها ، ولقابُ قوسِ أحدِكُمْ أوْ موضعُ قدمِهِ مِنَ الجنَّةِ خيرٌ منَ الدنيا وما فيها ، ولوْ أنَّ امرأةً مِنْ نساءِ أهلِ الجنَّةِ اطَّلعَتْ إلى الأرضِ . . لأضاءَتْ ولملأَتْ ما بينَهُما رائحةً ، ولنصيفُها علىٰ رأسِها خيرٌ مِنَ الدنيا وما فيها ؛ يعني الخمارَ »[1] .

وقالَ أبو سعيدٍ الخدريُّ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ قالَ : « ينظرُ إلىٰ وجهِها في خدرِها أصفىٰ منَ المرآةِ ، وإنَّ أدنىٰ لؤلؤةٍ عليها لتضيءُ ما بينَ المشرقِ والمغربِ ، وإنَّهُ يكونُ عليها سبعونَ ثوباً ينفذُها بصرُهُ حتىٰ يُرىٰ مخُّ ساقِها مِنْ وراءِ ذلكَ »[2] .

وقالَ أنسٌ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « لمَّا أُسرِيَ بي . . دخلتُ الجنَّةَ موضعاً يُسمَّى البيدخَ ، عليهِ خيامُ اللؤلؤِ والزبرجدِ الأخضرِ

---

(١) رواه البخاري (٦٥٦٨) .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٤٧٥) ، والبيهقي في « البعث والنشور » (٣٢٨) ، وعند أحمد في « المسند » (٣/ ٧٥) نحوه .

والياقوتِ الأحمرِ ، فقلنَ : السَّلامُ عليكَ يا رسولَ اللهِ ، فقلتُ : يا جبريلُ ؛ ما هٰذا النداءُ ؟ قالَ : هؤلاءِ المقصوراتُ في الخيامِ ، استأذنَّ ربَّهُنَّ في السَّلامِ عليكَ فأذنَ لهنَّ ، فطفقنَ يقلنَ : نحنُ الراضياتُ فلا نسخطُ أبداً ، ونحنُ الخالداتُ فلا نظعنُ أبداً » وقرأَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴾[1] .

وقالَ مجاهدٌ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ قالَ : منَ الحيضِ والغائطِ والبولِ ، والبصاقِ والنخامةِ ، والمنيِّ والولدِ[2] .

وقالَ الأوزاعيُّ : ﴿ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴾ قالَ : شغلُهُم : افتضاضُ الأبكارِ[3] .

وقالَ رجلٌ : يا رسولَ اللهِ ؛ أيباضعُ أهلُ الجنَّةِ ؟ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : « يُعطى الرجلُ منهم منَ القوةِ في اليومِ الواحدِ أفضلَ مِنْ سبعينَ منْكُم »[4] .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرَ : (إنَّ أدنىٰ أهلِ الجنَّةِ منزلةً مَنْ يسعىٰ مَعَهُ ألفُ

---

(١) رواه البيهقي في « البعث والنشور » (٣٢٩) .
(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٢٤٣) ، والبيهقي في « البعث والنشور » (٣٥٠) .
(٣) رواه ابن أبي الدنيا في « صفة الجنة » (٢٦٤) ، والبيهقي في « البعث والنشور » (٣٥١) .
(٤) رواه أبو نعيم في « معرفة الصحابة » (٢/ ٩٧٢ ـ ٩٧٣) ، والبيهقي في « البعث والنشور » (٣٥٤) .

خادمٍ ، كلُّ خادمٍ علىٰ عملٍ ليس عليهِ صاحبُهُ)[1] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الرجلَ مِنْ أهلِ الجنَّةِ ليُزوَّجُ خمسَ مئةِ حوراءَ ، وأربعةَ آلافِ بكْرٍ ، وثمانيةَ آلافِ ثيِّبٍ ، يعانقُ كلَّ واحدةٍ منهنَّ مقدارَ عمرِهِ في الدنيا »[2] .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ في الجنَّةِ سوقاً ما فيها بيعٌ ولا شراءٌ إلاَّ الصورُ منَ الرجالِ والنساءِ ، فإذا اشتهى الرجلُ صورةً .. دخلَ فيها ، وإنَّ فيها مجتمعاً للحورِ العينِ ، يرفعنَ بأصواتٍ لمْ تسمعِ الخلائقُ مثلَها يقلنَ : نحنُ الخالداتُ فلا نبيدُ ، ونحنُ الناعماتُ فلا نبأسُ ، ونحنُ الرَّاضياتُ فلا نسخطُ ، فطوبىٰ لمَنْ كانَ لنا وكنَّا لهُ »[3] .

وقالَ يحيىٰ بنُ أبي كثيرٍ في قولِهِ تعالىٰ : ﴿ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ قالَ : السماعُ في الجنَّةِ[4] .

وقالَ أنسٌ رضيَ اللهُ عنهُ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الحورَ في الجنَّةِ يتغنَّينَ يقلنَ : نحنُ الحورُ الحسانُ، خُبِّئنا لأزواجٍ كرامٍ »[5] .

---

(١) رواه البيهقي في « البعث والنشور » (٣٦٢) .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « صفة الجنة » (٢٦٦) ، والبيهقي في « البعث والنشور » (٣٦٤) .

(٣) رواه بتمامه ابن أبي الدنيا في « صفة الجنة » (٢٤٤) ، والبيهقي في « البعث والنشور » (٣٦٧) ، وهو عند الترمذي مجموع حديثين الأول (٢٥٥٠) ، والثاني (٢٥٦٤) .

(٤) رواه الترمذي (٢٥٦٥) .

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في « صفة الجنة » (٢٤٩) ، والبيهقي في « البعث والنشور » =

وقالَ أبو أمامةَ الباهليُّ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ما مِنْ عبدٍ يدخلُ الجنَّةَ إلاَّ ويجلسُ عندَ رأسِهِ وعندَ رجليهِ ثنتانِ مِنَ الحورِ العينِ ، يغنيانِهِ بأحسنِ صوتٍ سمعَهُ الإنسُ والجنُّ ، وليسَ بمزمارِ الشيطانِ ، ولكنْ بتحميدِ اللهِ عزَّ وجلَّ وتقديسِهِ »[1] .

* * *

= (٣٦٩) ، وعند الطبراني في « الأوسط » (٤٩١٤) نحوه .

(١) رواه الطبراني في « المعجم الكبير » (٨/ ١١٣) .

بيان جمل مفرقة من أوصاف أهل الجنة وردت الأخبار بها

روىٰ أسامةُ بنُ زيدٍ : (أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ لأصحابِهِ : « ألا هلْ مشمرٌ للجنَّةِ ؟ إنَّ الجنَّةَ لا خطرَ لها[1] ، هيَ وربِّ الكعبةِ نورٌ يتلألأُ وريحانةٌ تهتزُّ ، وقصرٌ مشيدٌ ونهرٌ مطَّردٌ ، وفاكهةٌ كثيرةٌ نضيجةٌ ، وزوجةٌ حسناءُ جميلةٌ ، في حبرةٍ ونعمةٍ في مقامٍ أبداً ، ونضرةٍ في دارٍ عاليةٍ بهيَّةٍ سليمةٍ » قالوا : نحنُ المشمِّرونَ لها يا رسولَ اللهِ ، قالَ : « قولوا : إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ » ثمَّ ذكرَ الجهادَ وحضَّ عليهِ)[2] .

وجاءَ رجلٌ إلىٰ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : يا رسولَ اللهِ ؛ هلْ في الجنَّةِ خيلٌ ؛ فإنَّها تعجبُني ؟ قالَ : « إنْ أحببتَ ذلكَ . . أُتيتَ بفرسٍ مِنْ ياقوتةٍ حمراءَ ، فتطيرُ بكَ في الجنةِ حيثُ شئتَ » ، وقالَ لهُ رجلٌ آخرُ : إنَّ الإبلَ تعجبُني ، فهلْ في الجنَّةِ مِنْ إبلٍ ؟ فقالَ : « يا عبدَ اللهِ ؛ إنْ أُدخلتَ الجنَّةَ . . فلكَ فيها ما اشتهتْ نفسُكَ ولذَّتْ عيناكَ »[3] .

وعنْ أبي سعيدٍ الخدريِّ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ الرجلَ مِنْ أهلِ الجنَّةِ ليُولدُ لهُ الولدُ كما يشتهي ، يكونُ حملُهُ

---

(١) الخَطَر : القَدْر .

(٢) رواه ابن ماجه (٤٣٣٢) .

(٣) رواه البيهقي في « البعث والنشور » (٣٨٣) ، وعند الترمذي (٢٥٤٣) نحوه .

وفصالُهُ وشبابُهُ في ساعةٍ واحدةٍ »[1] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا استقرَّ أهلُ الجنَّةِ في الجنَّةِ . . اشتاقَ الإخوانُ إلى الإخوانِ ، فيسيرُ سريرُ ذا إلىٰ سريرِ ذا ، فيلتقيانِ ، فيتحدثانِ ما كانَ بينَهُما في دارِ الدنيا ، فيقولُ : يا أخي ؛ تذكرُ يومَ كذا في مجلسِ كذا ، فدعونا اللهَ عزَّ وجلَّ فغفرَ لنا »[2] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أهلُ الجنَّةِ جردٌ مردٌ ، بيضٌ جعادٌ مكحلونَ[3] ، أبناءُ ثلاثٍ وثلاثينَ ، علىٰ خلقِ آدمَ ؛ طولُهُمْ ستونَ ذراعاً في عرضِ سبعةِ أذرعٍ »[4] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « أدنىٰ أهلِ الجنَّةِ الذي لهُ ثمانونَ ألفَ خادمٍ ، واثنتانِ وسبعونَ زوجةً ، ويُنصبُ لهُ قبةٌ مِنْ لؤلؤٍ وزبرجدٍ وياقوتٍ كما بينَ الجابيةِ إلىٰ صنعاءَ ، وإنَّ عليهِمُ التيجانَ ، وإنَّ أدنىٰ لؤلؤةٍ منها لتضيءُ ما بينَ المشرقِ والمغربِ »[5] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « نظرتُ إلى الجنَّةِ ؛ فإذا الرمَّانةُ مِنْ رمَّانِها

---

(١) رواه أبو نعيم في « تاريخ أصبهان » (١٦٥٦) ، والبيهقي في « البعث والنشور » (٣٨٦) ، وعند الترمذي (٢٥٦٣) ، وابن ماجه (٤٣٣٨) نحوه .

(٢) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٨/ ٤٩) ، والبيهقي في « البعث والنشور » (٣٨٨) ، وعند البزار في « مسنده » (٦٦٦٨) نحوه .

(٣) **الجعاد** : جمع جعد ، وهو المجتمع الخَلق .

(٤) رواه أحمد في « المسند » (٢/ ٢٩٥) ، ورواه الترمذي (٢٥٤٥) مختصراً .

(٥) رواه الترمذي (٢٥٦٢) .

كجلدِ البعيرِ المقتَّبِ ، وإذا طيرُها كالبختِ ، وإذا فيها جاريةٌ ، فقلتُ : يا جاريةُ ؛ لِمَنْ أنتِ ؟ فقالَتْ : لزيدِ بنِ حارثةَ ، وإذا في الجنَّةِ ما لا عينٌ رأَتْ ، ولا أذنٌ سمعَتْ ، ولا خطرَ علىٰ قلبِ بشرٍ »(١) .

وقالَ كعبٌ : (خلقَ اللهُ تعالىٰ آدمَ عليهِ السَّلامُ بيدِهِ ، وكتبَ التوراةَ بيدِهِ ، وغرسَ الجنَّةَ بيدِهِ ، ثمَّ قالَ لها : تكلَّمِي ، فقالَتْ : ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾)(٢) .

فهٰذهِ صفاتُ الجنَّةِ ذكرناها جملةً ثمَّ نقلناها تفصيلاً .

وقدْ ذكرَ الحسنُ البصريُّ رحمهُ اللهُ جملتَها فقالَ : (إنَّ رمَّانَها مثلُ الدلاءِ ، وإنَّ أنهارَها لَمِنْ ماءٍ غيرِ آسنٍ(٣) ، وأنهارٌ منْ لبنٍ لم يتغيَّرْ طعمُهُ ، وأنهارٌ مِنْ عسلٍ مصفىً لمْ يصفِّهِ الرجالُ ، وأنهارٌ مِنْ خمرٍ لذَّةٍ للشاربينَ ، لا تسفِّهُ الأحلامَ ولا تصدعُ منها الرؤوسُ .

وإنَّ فيها ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أذنٌ سمعَتْ ، ولا خطرَ علىٰ قلبِ بشرٍ ، ملوكٌ ناعمونَ ، أبناءُ ثلاثٍ وثلاثينَ في سنٍّ واحدٍ ، طولُهُمْ ستونَ ذراعاً في السماءِ ، كحلٌ جردٌ مردٌ ، قدْ أمنوا العذابَ واطمأنَّتْ بهمُ الدارُ .

---

(١) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (١١٠٢) ، وابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٩/ ٣٧٢) ، والمقتب : عظيم الأقتاب وهي الأمعاء .

(٢) رواه ابن المبارك في « الزهد » (١٤٥٨) ، وروى الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٣٩٢) من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً : « خلق الله جنة عدن وغرس أشجارها بيده فقال لها : تكلمي ، فقالت : ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ » .

(٣) أي : غير متغير ، ليس كمياه الدنيا . « إتحاف » (١٠/ ٥٥١) .

وإنَّ أنهارَها لتجري على رضراضٍ مِنْ ياقوتٍ وزبرجدٍ[1] ، وإنَّ عروقَها ونخلَها وكرمَها اللؤلؤُ ، وثمارَها لا يعلمُ علمَها إلاَّ اللهُ تعالىٰ ، وإنَّ ريحَها ليُوجدُ مِنْ مسيرةِ خمسِ مئةِ سنةٍ .

وإنَّ لهُمْ فيها خيلاً وإبلاً هفافةً[2] ، رحالُها وأزمَّتُها وسروجُها مِنْ ياقوتٍ ، يتزاورونَ فيها .

وأزواجُهُمُ الحورُ العينُ ؛ كأنَّهنَّ بيضٌ مكنونٌ ، وإنَّ المرأةَ لتأخذُ بينَ إصبعيها سبعينَ حلةً فتلبسُها ، فيُرىٰ مخُّ ساقِها مِنْ وراءِ تلكَ السبعينَ حلةً .

قدْ طهَّرَ اللهُ الأخلاقَ مِنَ السوءِ ، والأجسادَ مِنَ الموتِ ، لا يمتخطونَ فيها ولا يبولونَ ولا يتغوَّطونَ ، وإنَّما هوَ جشاءٌ ورشحُ مسكٍ ، لهم رزقُهُمْ فيها بكرةً وعشياً ، أما إنَّهُ ليسَ ليلٌ يكرُّ ، الغدوُّ على الرواحِ ، والرواحُ على الغدوِّ .

وإنَّ آخرَ مَنْ يدخلُ الجنَّةَ وأدناهُم منزلةً ليُمدُّ لهُ في بصرِهِ وملكِهِ مسيرةَ مئةِ عامٍ ، في قصورِ الذهبِ والفضةِ وخيامِ اللؤلؤِ ، ويُفسحُ لهُ في بصرِهِ حتىٰ ينظرَ إلىٰ أقصاهُ كما ينظرُ إلىٰ أدناهُ .

يُغدىٰ عليهِم بسبعينَ ألفَ صحفةٍ مِنْ ذهبٍ ، ويُراح عليهِمْ بمثلِها ، في كلِّ صحفةٍ لونٌ ليسَ في الأخرىٰ مثلُهُ ، ويجدُ طعمَ آخرِهِ كما يجدُ طعمَ أوَّلِهِ .

---

(١) **الرضراض** : الحصى الصغار .
(٢) **هفافة** : سريعة السير .

وإنَّ في الجنَّةِ لياقوتةً فيها سبعونَ ألفَ دارٍ ، في كلِّ دارٍ سبعونَ ألفَ بيتٍ ، ليسَ فيها صدعٌ ولا ثقبٌ) .

وقالَ مجاهدٌ : إنَّ أدنىٰ أهلِ الجنَّةِ منزلةً لمَنْ يسيرُ في ملكِهِ ألفَ سنةٍ ، يرىٰ أقصاهُ كما يرىٰ أدناهُ ، وأرفعَهُمُ الذي ينظرُ إلىٰ ربِّهِ بالغداةِ والعشيِّ[1] .

وقالَ سعيدُ بنُ المسيَّبِ : ليسَ أحدٌ مِنْ أهلِ الجنَّةِ إلاَّ وفي يدِهِ ثلاثةُ أسورةٍ ، سوارٌ مِنْ ذهبٍ ، وسوارٌ مِنْ لؤلؤٍ ، وسوارٌ مِنْ فضةٍ[2] .

وقالَ أبو هريرةَ : (إنَّ في الجنَّةِ حوراءَ يُقالُ لها : العيناءُ ، إذا مشَتْ . . مشىٰ عن يمينِها ويسارِها سبعونَ ألفَ وصيفةٍ وهيَ تقولُ : أينَ الآمرونَ بالمعروفِ والنَّاهونَ عنِ المنكرِ ؟) .

وقالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ : تركُ الدنيا شديدٌ ، وفوتُ الجنَّةِ أشدُّ ، وتركُ الدنيا مهرُ الآخرةِ .

وقالَ أيضاً : في طلبِ الدنيا ذلُّ النُّفوسِ ، وفي طلبِ الآخرةِ عزُّ النُّفوسِ ، فيا عجباً لمَنْ يختارُ المذلةَ في طلبِ ما يفنىٰ ، ويتركُ العزَّ في طلبِ ما يبقىٰ !

* * *

---

(١) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٤٢١) ، والدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (٧٧) ، ورواه الترمذي (٣٣٣٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً .

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في « صفة الجنة » . « إتحاف » (١٠/ ٥٥٢) .

صفة الرؤية والنظر إلى وجه الله تعالى

قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ .

وهٰذهِ الزيادةُ هيَ النظرُ إلىٰ وجهِ اللهِ تعالىٰ ، وهيَ اللذَّةُ الكبرى التي يُنسىٰ فيها نعيمُ الجنَّةِ ، وقدْ ذكرنا حقيقتَها في كتابِ المحبةِ ، وقدْ شهدَ لها الكتابُ والسنةُ علىٰ خلافِ ما يعتقدُهُ أهلُ البدعةِ .

قالَ جريرُ بنُ عبدِ اللهِ البجليُّ : كنَّا جلوساً عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فرأى القمرَ ليلةَ البدرِ فقالَ : « إنَّكم سترونَ ربَّكم كما ترونَ هٰذا القمرَ لا تضامونَ في رؤيتِهِ ؛ فإنِ استطعتُم ألاَّ تُغلبوا علىٰ صلاةٍ قبلَ طلوعِ الشمسِ وقبلَ غروبِها . . فافعلوا » ثمَّ قرأَ : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ وهوَ مُخرَّجٌ في « الصحيحينِ »[1] .

وروىٰ مسلمٌ في « الصحيحِ » عنْ صهيبٍ قالَ : قرأَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قولَهُ تعالىٰ : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ قالَ : « إذا دخلَ أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ وأهلُ النَّارِ النَّارَ . . نادىٰ منادٍ : يا أهلَ الجنَّةِ ؛ إنَّ لكم عندَ اللهِ موعداً يريدُ أنْ ينجزَكُمُوهُ ، قالوا : ما هٰذا الموعدُ ؟! ألمْ يثقلْ موازينَنا ويبيضْ وجوهَنا ، ويدخلْنا الجنَّةَ ويجرْنا مِنَ النَّارِ ؟! قالَ : فيُرفعُ

---

(١) صحيح البخاري (٥٥٤) ، صحيح مسلم (٦٣٢) .

الحجابُ وينظرونَ إلىٰ وجهِ اللهِ عزَّ وجلَّ ، فما أُعطوا شيئاً أحبَّ إليهمْ مِنَ النَّظرِ إليهِ »[1] .

وقدْ روىٰ حديثَ الرؤيةِ جماعةٌ مِنَ الصحابةِ ، وهـٰذهِ هيَ غايةُ الحسنىٰ ونهايةُ النعمىٰ ، وكلُّ ما فصَّلناهُ مِنَ النِّعمِ عندَ هـٰذهِ النعمةِ يُنسىٰ ، وليسَ لسرورِ أهلِ الجنَّةِ عندَ سعادةِ اللقاءِ منتهىً ، بلْ لاَ نسبةَ لشيءٍ مِنْ لذَّاتِ الجنَّةِ إلىٰ لذَّةِ اللقاءِ ، وقدْ أوجزنا الكلامَ هـٰهنا لما فصَّلناهُ في كتابِ المحبةِ والشوقِ والرضا ، فلا ينبغي أنْ تكونَ همةُ العبدِ مِنَ الجنَّةِ شيئاً سوىٰ لقاءِ المولىٰ ، فأمَّا سائرُ نعيمِ الجنَّةِ . . فإنَّهُ يشاركُ فيهِ البهيمةَ المسرحةَ في المرعىٰ .

* * *

---

(1) صحيح مسلم (١٨١) .

بابٌ في سعة رحمة الله تعالىٰ
نختم به الكتاب على سبيل التفاؤل بذلك

فقدْ كانَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يعجبُهُ الفألُ[1] ، وليسَ لنا مِنَ الأعمالِ ما نرجو بهِ المغفرةَ ، فنقتدي برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في التفاؤلِ ، ونرجو أنْ يختمَ عاقبتَنا بالخيرِ في الدنيا والآخرةِ ، كما ختمنا الكتابَ بذكرِ رحمةِ اللهِ تعالىٰ .

فقدْ قالَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ ، وقالَ تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ .

ونحنُ نستغفرُ اللهَ تعالىٰ مِنْ كلِّ ما زلَّتْ بهِ القدمُ ، أو طغىٰ بهِ القلمُ في كتابِنا هـٰذا وفي سائرِ كتبِنا .

ونستغفرُهُ منْ أقوالِنا التي لا توافقُها أعمالُنا .

ونستغفرُهُ ممَّا ادَّعيناهُ وأظهرناهُ مِنَ العلمِ والبصيرةِ بدينِ اللهِ تعالىٰ معَ التقصيرِ فيهِ .

---

(١) رواه البخاري (٥٧٥٦) ، ومسلم (٢٢٢٤) .

ونستغفرُهُ مِنْ كلِّ علمٍ وعملٍ قصدنا بهِ وجهَهُ الكريمَ ثمَّ خالطَهُ غيرُهُ .

ونستغفرُهُ مِنْ كلِّ وعدٍ وعدناهُ بهِ مِنْ أنفسِنا ثمَّ قصَّرنا في الوفاءِ بهِ .

ونستغفرُهُ مِنْ كلِّ نعمةٍ أنعمَ بها علينا فاستعملناها في معصيتِهِ .

ونستغفرُهُ منْ كلِّ تصريحٍ وتعريضٍ بنقصانِ ناقصٍ وتقصيرِ مقصرٍ كنَّا متصفينَ بهِ .

ونستغفرُهُ منْ كلِّ خطرةٍ دعتْنا إلىٰ تصنُّعٍ وتكلُّفٍ تزيُّناً للنَّاسِ في كتابٍ سطرناهُ ، أوْ كلامٍ نظمناهُ ، أو علمٍ أفدناهُ أوِ استفدناهُ .

ونرجو بعدَ الاستغفارِ منْ جميعِ ذلكَ كلِّهِ لنا ولِمَنْ طالعَ كتابَنا هـٰذا أو كتبَهُ أو سمعَهُ . . أنْ يكرمَهُ اللهُ تعالىٰ بالمغفرةِ والرحمةِ والتَّجاوزِ عَنْ جميعِ السيئاتِ ظاهراً وباطناً ؛ فإنَّ الكرمَ عميمٌ ، والرحمةَ واسعةٌ ، والجودَ علىٰ أصنافِ الخلائقِ فائضٌ ، ونحنُ خلقٌ مِنْ خلقِ اللهِ تعالىٰ ، لا وسيلةَ لنا إليهِ إلاَّ فضلُهُ وكرمُهُ ؛ فقدْ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ للهِ عزَّ وجلَّ مئةَ رحمةٍ ، أنزلَ منها رحمةً واحدةً بينَ الجنِّ والإنسِ والطيرِ والبهائمِ والهوامِّ ؛ فبها يتعاطفونَ وبها يتراحمونَ ، وأخَّرَ تسعاً وتسعينَ رحمةً يرحمُ بها عبادَهُ يومَ القيامةِ »[1] .

ويُروىٰ أنَّهُ إذا كانَ يومُ القيامةِ . . أخرجَ اللهُ تعالىٰ كتاباً مِنْ تحتِ العرشِ

---

(١) رواه مسلم (٦٤٦٩) ، وعند البخاري (٦٠٠٠) نحوه .

فيهِ : إنَّ رحمتي سبقَتْ غضبي ، وأنا أرحمُ الراحمينَ ، فيخرجُ منَ النَّار مثلَ أهلِ الجنَّةِ[1] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يتجلَّى اللهُ عزَّ وجلَّ لنا يومَ القيامةِ ضاحكاً فيقولُ : أبشروا معشرَ المسلمينَ ؛ فإنَّهُ ليسَ مِنْكم أحدٌ إلاَّ وقدْ جعلتُ مكانَهُ في النَّارِ يهوديّاً أو نصرانيّاً »[2] .

وقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يُشفِّعُ اللهُ تعالىٰ آدمَ يومَ القيامةِ مِنْ جميعِ ذريَّتِهِ في مئةِ ألفِ ألفٍ وعشرةِ آلافِ ألفٍ »[3] .

وقالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ يومَ القيامةِ للمؤمنينَ : هلْ أحببتُم لقائي ؟

فيقولونَ : نعمْ يا ربَّنا ، فيقولُ : لِمَ ؟ فيقولونَ : رجَونا عفوَكَ ومغفرتَكَ ، فيقولُ : قدْ أوجبتُ لكمْ مغفرتي »[4] .

---

(١) رواه عبد الرزاق في « مصنفه » (٢٠٨٥٨) ، وروى البخاري (٧٤٢٢) ، ومسلم (٢٧٥١/ ١٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : « لما قضى الله الخلق . . كتب عنده فوق العرش : إن رحمتي سبقت غضبي » .

(٢) رواه أحمد في « المسند » (٤/ ٤٠٧ ـ ٤٠٨) ، وروىٰ مسلم (٢٧٦٧) من حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا كان يوم القيامة . . دفع الله عز وجل إلىٰ كل مسلم يهودياً أو نصرانياً فيقول : هـٰذا فكاكك من النار » .

(٣) رواه الطبراني في « الأوسط » (٦٨٣٦) .

(٤) رواه أحمد في « المسند » (٥/ ٢٣٨) .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ : أخرجوا منَ النَّارِ مَنْ ذكرَني يوماً أوْ خافَني في مقامٍ »[1] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا اجتمعَ أهلُ النَّارِ في النَّارِ ومَنْ شاءَ اللهُ معَهُمْ منْ أهلِ القبلةِ .. قالَ الكفارُ للمسلمينَ : ألمْ تكونوا مسلمينَ ؟! قالوا : بلىٰ .

قالوا : ما أغنىٰ عنكُم إسلامُكُمْ إذْ أنتُمْ معَنا في النَّارِ ، فيقولونَ : كانَتْ لنا ذنوبٌ فأُخذنا بها .

فيسمعُ اللهُ عزَّ وجلَّ ما قالوا ، فيأمرُ بإخراجِ مَنْ كانَ في النَّارِ مِنْ أهلِ القبلةِ ، فيُخرجونَ ؛ فإذا رأىٰ ذلكَ الكفارُ .. قالوا : يا ليتَنا كنَّا مسلمينَ فنخرجَ كما أُخرجوا » .

وقرأَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ﴾[2] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « للهُ أرحمُ بعبدِهِ المؤمنِ مِنَ الوالدةِ الشفيقةِ بولدِها »[3] .

---

(١) رواه الترمذي (٢٥٩٤) .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٢٤٢) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، وعند النسائي في « الكبرىٰ » (١١٢٠٧) نحوه من حديث جابر رضي الله عنه .

(٣) رواه البخاري (٥٩٩٩) ، ومسلم (٢٧٥٤) .

وقالَ جابرُ بنُ عبدِ اللهِ : (مَنْ زادَتْ حسناتُهُ علىٰ سيئاتِهِ يومَ القيامةِ . . فذاكَ الذي يدخلُ الجنَّةَ بغيرِ حسابٍ ، ومَنِ استوَتْ حسناتُهُ وسيئاتُهُ . . فذاكَ الذي يُحاسَبُ حساباً يسيراً ثمَّ يدخلُ الجنَّةَ ، وإنَّما شفاعةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لمَنْ أوبقَ نفسَهُ وأثقلَ ظهرَهُ)[1] .

ويُروىٰ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قالَ لموسىٰ عليهِ السَّلامُ : (يا موسىٰ ؛ استغاثَ بكَ قارونُ فلمْ تغثْهُ ، وعزَّتي وجلالي ؛ لوِ استغاثَ بي . . لأغثتُهُ وعفوتُ عنهُ)[2] .

وقالَ سعدُ بنُ بلالٍ[3] : يُؤمرُ يومَ القيامةِ بإخراجِ رجلينِ مِنَ النَّارِ ، فيقولُ اللهُ تباركَ وتعالىٰ : ذلكَ بما قدَّمَتْ أيديكما وما أنا بظلامٍ للعبيدِ ، ويأمرُ بردِّهِما إلى النَّارِ ، فيعدو أحدُهُما في سلاسلِهِ حتىٰ يقتحمَها ، ويتلكَّأُ الآخرُ ، فيُؤمرُ بردِّهما ويسألُهُما عن فعلِهِما .

فيقولُ الذي عدا إلى النَّارِ : قدْ ذقتُ مِنْ وبالِ المعصيةِ ما لمْ أكنْ أتعرَّضُ لسخطِكَ ثانيةً .

---

(١) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٤١٣/٢٧) .

(٢) رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (٩٨/٦١) .

(٣) قال الحافظ الزبيدي في « الإتحاف » (٥٦١/١٠) : (كذا في بعض النسخ ، وفي بعضها : سعيد بن بلال ، وكل منهما خطأ ، والصواب : بلال بن سعد ، هو ابن تميم الأشعري أو الكندي ، أبو عمرو أو أبو زرعة الدمشقي العابد الفاضل . . .) .

ويقولُ الذي تلكَّأَ : حسْنُ ظنِّي بكَ كانَ يشعرُني ألاَّ تردَّني إليها بعدَما أخرجتَني مِنْها ، فيأمرُ بهما إلى الجنَّةِ[1] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « ينادي منادٍ مِنْ تحتِ العرشِ يومَ القيامةِ : يا أمَّةَ محمَّدٍ ؛ أمَّا ما كانَ لي قِبَلَكُمْ . . فقدْ وهبتُه لكُمْ ، وبقيَتِ التبعاتُ فتواهبوها ، وادخلوا الجنَّةَ برحمتي »[2] .

ويُروىٰ أنَّ أعرابياً سمعَ ابنَ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُ يقرأُ : ﴿ وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ فقالَ الأعرابيُّ : واللهِ ؛ ما أنقذَهُم مِنْها وهوَ يريدُ أنْ يوقعَهُم فيها .

فقالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُ : (خذوها مِنْ غيرِ فقيهٍ)[3] .

وقالَ الصنابحيُّ : دخلتُ علىٰ عبادةَ بنِ الصامتِ وهوَ في مرضِ الموتِ ، فبكيتُ ، فقالَ : مهلاً ؛ لِمَ تبكي ؟ فواللهِ ، ما مِنْ حديثٍ سمعتُهُ مِنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لكم فيهِ خيرٌ . . إلاَّ حدثتُكموهُ إلاَّ حديثاً واحداً ، وسوفَ أحدِّثُكموهُ اليومَ وقدْ أُحيطَ بنفسي ، سمعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يقولُ : « مَنْ شهدَ أنْ لا إلـٰهَ إلاَّ اللهُ وأنَّ

---

(١) رواه أبو نعيم في « الحلية » (٥/٢٢٦) من حديث بلال بن سعد .

(٢) رواه الديلمي في « الفردوس بمأثور الخطاب » (٨٨٧١) من حديث أنس رضي الله عنه .

(٣) رواه الدينوري في « المجالسة وجواهر العلم » (٥٠٧) .

محمَّداً رسولُ اللهِ . . حرَّمَ اللهُ عليهِ النَّارَ »[1] .

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ عمرِو بنِ العاصِ قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إنَّ اللهَ سيخلصُ رجلاً مِنْ أمَّتي علىٰ رؤوسِ الخلائقِ يومَ القيامةِ ، فينشرُ عليهِ تسعةً وتسعينَ سجلاً ، كلُّ سجلٍّ مثلُ مدِّ البصرِ .

ثمَّ يقولُ : أتنكرُ مِنْ هـٰذا شيئاً ؟ أظلمَكَ كتبَتي الحافظونَ ؟ فيقولُ : لا يا ربِّ .

فيقولُ : أفلكَ عذرٌ ؟ فيقولُ : لا يا ربِّ .

فيقولُ : بلىٰ ، إنَّ لكَ عندَنا حسنةً ، وإنَّهُ لا ظلمَ عليكَ اليومَ ، فيخرجُ بطاقةٌ فيها : أشهدُ أنْ لا إلـٰهَ إلاَّ اللهُ وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُهُ ، فيقولُ : يا ربِّ ؛ ما هـٰذهِ البطاقةُ معَ هـٰذهِ السجلاَّتِ ؟! فيُقالُ : إنَّكَ لا تُظلمُ .

قالَ : فتُوضعُ السجلاَّتُ في كفَّةٍ والبطاقةُ في كفَّةٍ ، فطاشَتِ السجلاَّتُ وثقلَتِ البطاقةُ ، فلا يثقلُ معَ اسمِ اللهِ شيءٌ »[2] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في آخرِ حديثٍ طويلٍ يصفُ فيهِ القيامةَ والصِّراطَ : « إنَّ اللهَ تعالىٰ يقولُ للملائكةِ : مَنْ وجدتُمْ في قلبهِ مثقالَ

---

(١) رواه مسلم (٢٩) .
(٢) رواه الترمذي (٢٦٣٩) ، وابن ماجه (٤٣٠٠) .

دينارٍ مِنْ خيرٍ . . فأخرجُوهُ مِنَ النَّارِ ، فيخرجونَ خلقاً كثيراً ، ثمَّ يقولونَ : ربَّنا ؛ لَمْ نذرْ فيها أحداً ممَّنْ أمرتَنا بهِ ، ثمَّ يقولُ : ارجعوا ، فمَنْ وجدتُم في قلبهِ مثقالَ نصفِ دينارٍ مِنْ خيرٍ . . فأخرجوهُ ، فيخرجونَ خلقاً كثيراً ، ثمَّ يقولونَ : ربَّنا ؛ لَمْ نذرْ فيها أحداً ممَّنْ أمرتَنا ، ثمَّ يقولُ : ارجعوا ، فمَنْ وجدتُم في قلبِهِ مثقالَ ذرَّةٍ مِنْ خيرٍ . . فأخرجوهُ ، فيخرجونَ خلقاً كثيراً ، ثمَّ يقولونَ : ربَّنا ؛ لَمْ نذرْ فيها خيراً » .

فكانَ أبو سعيدٍ الخدريُّ يقولُ : إنْ لم تصدقُوني بهـٰذا الحديثِ . . فاقرؤوا إنْ شئتُمْ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ .

« فيقولُ اللهُ تعالىٰ : شفعَتِ الملائكةُ ، وشفعَ النبيُّونَ ، وشفعَ المؤمنونَ ، ولم يبقَ إلاَّ أرحمُ الراحمينَ ، فيقبضُ قبضةً فيخرجُ منها قوماً لمْ يعملوا خيراً قطُّ قدْ عادوا حمماً ، فيلقيهمْ في نهرٍ في أفواهِ الجنَّةِ يُقالُ لهُ : نهرُ الحياةِ ، فيخرجونَ منهُ كما تخرجُ الحِبَّةُ في حميلِ السيلِ ، ألا ترونَها تكونُ ممَّا يلي الحجرَ أو الشجرَ ، ما يكونُ إلى الشمسِ أصفرُ وأخضرُ ، وما يكونُ مِنْها إلى الظلِّ أبيضُ » .

فقالوا : يا رسولَ اللهِ ؛ كأنَّكَ كنتَ ترعىٰ بالباديةِ .

قالَ : « فيخرجونَ كاللؤلؤِ في رقابِهِمْ الخواتيمُ ، يعرفُهُمْ أهلُ الجنَّةِ يقولونَ : هؤلاءِ عتقاءُ اللهِ الذينَ أدخلَهُمُ اللهُ الجنَّةَ بغيرِ عملٍ عملوهُ ولا خيرٍ

قدِّموهُ ، ثمَّ يقولُ : ادخلوا الجنَّةَ ، فما رأيتُم . . فهوَ لكُمْ .

فيقولونَ : ربَّنا ؛ أعطيتَنا ما لمْ تعطِ أحداً مِنَ العالمينَ ، فيقولُ اللهُ تعالىٰ : لكُمْ عندي أفضلُ مِنْ هـٰذا ، فيقولونَ : يا ربَّنا ؛ أيُّ شيءٍ أفضلُ مِنْ هـٰذا ؟!

فيقولُ : رضائي عنكُم فلا أسخطُ عليكُمْ بعدَهُ أبداً » رواه البخاريُّ ومسلمٌ في « صحيحيهِما »[1] .

وروى البخاريُّ أيضاً عنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما قالَ : خرجَ علينا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ذاتَ يومٍ فقالَ : « عُرِضَتْ عليَّ الأممُ ، يمرُّ النبيُّ معَهُ الرجلُ ، والنبيُّ معَهُ الرجلانِ ، والنبيُّ ليسَ معَهُ أحدٌ ، والنبيُّ معهُ الرهطُ ، فرأيتُ سواداً كثيراً فرجوتُ أنْ تكونَ أمَّتي ، فقيلَ لي : هـٰذا موسىٰ وقومُهُ ، ثمَّ قيلَ لي : انظرْ ، فرأيتُ سواداً كثيراً قدْ سدَّ الأفقَ ، فقيلَ لي : انظرْ هـٰكذا وهـٰكذا ، فرأيتُ سواداً كثيراً ، فقيلَ لي : هؤلاءِ أمَّتُكَ ، ومعَ هؤلاءِ سبعونَ ألفاً يدخلونَ الجنَّةَ بغيرِ حسابٍ » .

فتفرَّقَ النَّاسُ ولمْ يبيِّنْ لهم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فتذاكرَ ذلكَ أصحابُهُ فقالوا : أمَّا نحنُ . . فوُلدنا في الشِّركِ ، ولكنَّا آمنَّا باللهِ ورسولِهِ ، هؤلاءِ همْ أبناؤُنا ، فبلغَ ذلكَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالَ : « همُ

(١) صحيح البخاري (٧٤٣٩) ، صحيح مسلم (١٨٣) .

الـذيـنَ لا يكتـوون ، ولا يستـرقـونَ ، ولا يتطيَّـرونَ ، وعلـىٰ ربِّهِـمْ يتوكَّلونَ » .

فقامَ عكَّاشةُ فقالَ : أنا مِنْهُم يا رسولَ اللهِ ؟ فقالَ : « نعمْ » ثمَّ قامَ آخرُ فقالَ : أنا مِنْهم يا رسولَ اللهِ ؟ فقالَ : « سبقَكَ بِها عكَّاشةُ »[1] .

وعَنْ عمرِو بنِ حزمِ الأنصاريِّ قالَ : تغيَّبَ عنَّا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ثلاثاً لا يخرجُ إلاَّ لصلاةٍ مكتوبةٍ ثمَّ يرجعُ ، فلمَّا كانَ اليومُ الرابعُ . . خرجَ إلينا ، فقلنا : يا رسولَ اللهِ ؛ احتبستَ عنَّا حتىٰ ظننَّا أنَّهُ قدْ حدثَ حدثٌ ، قالَ : « لمْ يحدثْ إلاَّ خيرٌ ، إنَّ ربي عزَّ وجلَّ وعدَني أنْ يدخلَ مِنْ أمَّتي الجنَّةَ سبعينَ ألفاً لا حسابَ عليهِمْ ، وإنِّي سألتُ ربي في هـٰذهِ الثلاثةِ الأيامِ المزيدَ ، فوجدتُ ربي ماجداً واجداً كريماً ، فأعطاني معَ كلِّ واحدٍ مِنَ السبعينَ ألفاً سبعينَ ألفاً » .

قالَ : « قلتُ : يا ربِّ ؛ وتبلغُ أمَّتي هـٰذا ؟ قالَ : أكملُ لكَ العددَ مِنَ الأعرابِ »[2] .

وقالَ أبو ذرٍّ : قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « عرضَ لي جبريلُ في جانبِ الحرَّةِ فقالَ : بشِّرْ أمَّتَكَ أنَّهُ مَنْ ماتَ لا يشركُ باللهِ شيئاً دخلَ

---

(١) صحيح البخاري (٥٧٥٢) .

(٢) رواه البيهقي في « الشعب » (١/ ٤٢٩) .

الجنَّةَ ، فقلتُ : يا جبريلُ ؛ وإنْ سرقَ وإنْ زنى ؟ قالَ : نعمْ ، وإنْ سرقَ وإنْ زنىٰ ، قلتُ : وإنْ سرقَ وإنْ زنى ؟ قالَ : وإنْ سرقَ وإنْ زنىٰ ، قلتُ : وإنْ سرقَ وإنْ زنى ؟ قالَ : وإنْ سرقَ وإنْ زنىٰ وإن شربَ الخمرَ »[1] .

وقالَ أبو الدرداءِ : قرأَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ ، فقلتُ : وإنْ زنىٰ وإنْ سرقَ يا رسولَ اللهِ ؟ فقالَ : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ ، فقلتُ : وإنْ زنىٰ وإنْ سرقَ ؟ فقالَ : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ ، فقلتُ : وإنْ زنىٰ وإنْ سرقَ يا رسولَ اللهِ ؟ قالَ : « وإنْ رغِمَ أنفُ أبي الدرداءِ »[2] .

وقالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « إذا كانَ يومُ القيامةِ . . دُفعَ إلىٰ كلِّ مؤمنٍ رجلٌ مِنْ أهلِ المللِ فقيلَ لهُ : هـٰذا فداؤُكَ مِنَ النَّارِ »[3] .

وروىٰ مسلمٌ في « الصحيحِ » عنْ أبي بردةَ : أنَّهُ حدَّثَ عمرَ بنَ عبدِ

---

(١) رواه البخاري (٦٤٤٣) ، ومسلم (٩٤/٣٣) .
(٢) رواه النسائي في « الكبرىٰ » (١١٤٩٧) ، وفي (ب) : (أبو ذر) بدل (أبو الدرداء) وهي رواية البخاري (٥٨٢٧) ومسلم (٩٤) ولفظهما : « ما من عبد قال : لا إلـٰه إلا الله ثم مات علىٰ ذلك . . إلاَّ دخل الجنة ، قلت : وإن زنىٰ وإن سرق ؟ قال : وإن زنىٰ وإن سرق ، قلت : وإن زنىٰ وإن سرق ؟ قال : وإن زنىٰ وإن سرق ، قلت : وإن زنىٰ وإن سرق ؟ قال : وإن زنىٰ وإن سرق علىٰ رغم أنف أبي ذرٍّ » .
(٣) رواه مسلم (٢٧٦٧) بنحوه .

العزيزِ عنْ أبيهِ أبي موسىٰ ، عنِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قالَ : « لا يموتُ رجلٌ مسلمٌ إلاَّ أدخلَ اللهُ تعالىٰ مكانَهُ النَّارَ يهوديّاً أو نصرانيّاً » .

فاستحلفَهُ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ : باللهِ الذي لا إلـٰهَ إلاَّ هوَ ثلاثَ مرَّاتٍ ؛ أنَّ أباهُ حدَّثَهُ عنْ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، فحلفَ لهُ[١] .

ورُوي أنَّهُ وقفَ صبيٌّ في بعضِ المغازي يُنادىٰ عليه فيمَنْ يزيدُ في يومٍ صائفٍ شديدِ الحرِّ ، فبصرَتْ بهِ امرأةٌ في خباءِ القومِ ، فأقبلَتْ تشتدُّ ، وأقبلَ أصحابُهَا خلفَها ، حتىٰ أخذَتِ الصبيَّ وألصقَتْهُ إلىٰ بطنِها ، ثمَّ ألقَتْ ظهرَها على البطحاءِ وجعلَتْهُ علىٰ بطنِها تقيهِ الحرَّ وقالَتْ : ابني ابني ، فبكى النَّاسُ وتركوا ما هُمْ فيهِ ، فأقبلَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حتىٰ وقفَ عليهِمْ ، فأخبروهُ الخبرَ ، فسُرَّ برحمتِهِمْ ثمَّ بشَّرَهُمْ فقالَ : « أعجبتُمْ منْ رحمةِ هـٰذهِ لابنِها ؟ » قالوا : نعمْ ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : « فإنَّ اللهَ تباركَ وتعالىٰ أرحمُ بكُمْ جميعاً مِنْ هـٰذهِ بابنِها » .

فتفرَّقَ المسلمونَ علىٰ أفضلِ السرورِ وأعظمِ البشارةِ[٢] .

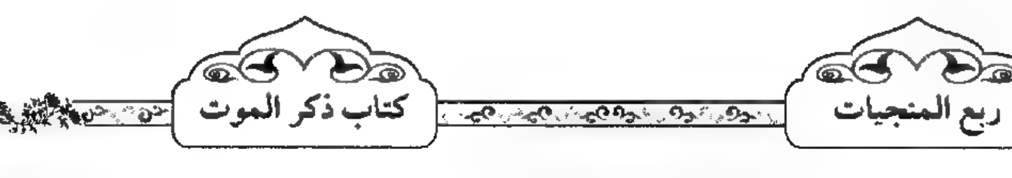
فهـٰذهِ الأحاديثُ وما أوردناهُ في كتابِ الرجاءِ ، يبشِّرُنا بسعةِ رحمةِ اللهِ

---

(١) صحيح مسلم (٢٧٦٧/ ٥٠) .

(٢) رواه البخاري (٥٩٩٩) ، ومسلم (٢٧٥٤) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع اختلاف .

وقد ختم المصنف كتابه بهـٰذا الحديث العظيم الوقع في القلوب لأمور : =



تعالىٰ ، فنرجو اللهَ تعالىٰ ألاَّ يعاملَنا بما نستحقُّهُ ، ويتفضَّلَ علينا بما هوَ أهلُهُ بمنِّهِ وسعةِ جودِهِ ورحمتِهِ .

* * *

تمّ كتاب ذكر الموت وما بعده

وهو آخر ربع المنجيات وآخر كتاب إحياء علوم الدّين

ولله الحمد والمنّة أوّلاً وآخراً

والصّلاة على سيّدنا محمّدٍ النّبيّ وآله وصحبه أجمعين وسلّم تسليماً

= منها : اتفاق البخاري ومسلم علىٰ إخراجه في كتابيهما ؛ ففيه نوع تبرك .

ومنها : أنه أعظم دليل علىٰ سعة رحمة الله تعالىٰ ، ولله در القائل : [من السريع]

لم لا نرجِّي العفو من ربنا ... أم كيف لا نطمع في حلمه
وفي الصحيحين أتىٰ أنَّهُ ... بعبده أرأفُ من أمِّهِ

ومنها : حصول ذلك لعامة المؤمنين ، أو لعامة الخلق .

ومنها : التلميح بقوله : « فتفرق المسلمون » إلىٰ ختم الكتاب ؛ فإنه إذا فرغ من شيء . . تفرق عنه .

ومنها : حسن التفاؤل بقوله : « أفضل السرور وأعظم البشارة » فيكون حال مطالع هـٰذا الكتاب وكاتبه وخادمه مختتماً بأفضل السرور ، منتهياً بأعظم البشارة . « إتحاف » (١٠/٥٧١) .

مُحتوى الكتاب
رُبعُ المُنجِياتِ/ القِسمُ الثَّالثُ

